بسم الله الرحمن الرحيم

من باب الذريبة بالمسجد الحرام

رحلة عمر

الطبعة الاولي
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

رقم الايداع : ١٧٧٠٩ / ٢٠١١ م

دار طاشكندي للنشر والتوزيع

TASHKANDI FOR PUBLISHING

من باب الدريبة بالمسجد الحرام

رحلة عمر

صور للحياة الاجتماعية بمكة المكرمة
في القرن الرابع عشر الهجري

تأليف
محمد عبد الحميد مرداد

تقـديم

يقول والدي ، محمد عبد الحميد مرداد طيب الله ثراه ، في فاتحة رحلته : « خُلقتُ رَحّالة » . وقد كان فعلا كذلك ، منذ ولادته حتى آخر يوم من حياته ، فقد كانت حياته رحلة بعد رحلة ، حتى استوفي أيامه في رحلته الأخيرة ، مستقرًا إلى جوار ربه الرءوف الرحيم .

كان مكيًّا حتى النخاع ، منتميًا إلى أسرة مكية علمية عريقة ، توارثت الإمامة والخطابة والإفتاء في المسجد الحرام لمئات السنين ، وأنجبت علماء أعلاما منهم :

١ ـ العلامة محمد بن محمد صالح بن محمد مرداد ، المتوفى سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م .

٢ ـ العلامة عبد الرحمن بن محمد بن صالح مرداد ، المتوفى سنة ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م .

٣ ـ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن مرداد ، المتوفى سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م .

٤ ـ العلامة عبد المعطي بن محمد صالح مرداد ، المتوفى سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٤م .

٥ ـ العلامة مصطفى بن عبد الله عبد الرحمن مرداد ، المتوفى سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م .

٦ ـ العلامة عبد الله بن محمد صالح بن سليمان مرداد ، المتوفى سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م .

٧ ـ العلامة عبد العزيز بن محمد صالح بن سليمان مرداد ، المتوفى سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م .

٨ ـ العلامة محمد صالح بن سليمان مرداد ، المتوفى سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م .

٩ ـ العلامة محمد علي بن سليمان مرداد ، المتوفى سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م .

١٠ ـ العلامة أمين بن محمد علي مرداد ، المتوفى سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م .

١١ ـ العلامة عبد الله بن أحمد أبو الخير مرداد ، المتوفى سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤.

لم تنجب هذه الأسرة رجال تجارة وثراء وأموال ، ولكنها اكتفت بما توارثته من علم وفضل ورئاسة في الخطابة ، والإفتاء ، والإمامة ، فقد كان معظمهم من أهل الخلوات في المسجد الحرام .

ولقد أدْرَكَتْ والدي حرفةُ التجارة في مرحلة قصيرة من حياته ، ولكنها انتهت بلا نجاح ، حتى غلب الطبع التطبع ، فعاد إلى حيث الرحلة وطلب العلم .

وكان من أهم غايات رحلاته منتهاها ، حين كان يعود مشتاقًا إلى عبق الرحاب المقدسة وإلى لقاء الأهل ، وإلى حيث ديارهم في باب الدريبة المطلة آنذاك من داخلها على الكعبة المشرفة ، وساحات المسجد الحرام .

لم أكن أعي ، في طفولتي ، أبعاد تلك المرحلة ، ولا معنى ارتحال الوالد مرة بعد مرة ، وبالتالي لا أستطيع أن أعبر عن معاناة والدتي ـ يرحمها الله ـ وقد قضت زمنًا ترعى أبناءها الصغار في غياب زوج كثير الترحال ، غير أنها تحملت ، مثل غيرها ، إذ كانت ظاهرة معاشة ، وبخاصة عند المكيين الذين ما أن تنقضي عندهم مواسم الحج ، حتى يسيحوا في أرض الله الواسعة ، المطوفون يرتحلون إلى حيث توجد كثافة حجاجهم ، في الشرق الأقصى ، وفي الهند ،

وفي شمال إفريقيا وغربها ، وفي سائر البلاد الإسلامية . والعلماء إلى حيث طلابهم ومريدوهم ، يتوجهون للدعوة إلى الله ونشر العلم ، وكانوا نماذج كريمة في القدوة والسلوك والأخلاق الرفيعة ، فضلًا عن مكانتهم في العلوم الشرعية والمعارف التي كانوا سدنة عليها ، أينما حلوا .

ينتمي والدي إلى ذلك الجيل من الأساتذة المشايخ والزملاء ، والذي ضم أعلامًا وفضلاء ممن جاء ذكرهم في هذا الكتاب من أمثال المشايخ : السيد محمد زيني دحلان ، والسيد أمين كتبي ، والشيخ سعيد يماني ، والشيخ عبد الله حمدوه السناري ، والشيخ يحيى أمان ، والشيخ جمال المالكي ، والشيخ عمر باجنيد ، والشيخ حسن مشاط ، والشيخ عبد الحميد قدس ، وغيرهم كثر . عاش والدي في تلك البيئة بين أولئك الأفاضل (يرحمهم الله) . وقد زامله ورافقه عدد منهم في رحلاته المبكرة إلى الشرق ، ولم تكن غايتهم من الرحلة والسياحة مقصورًا على الترويح عن النفس أو اللهو ، ولكنهم كانوا حملة رسالة نبيلة سامية إلى حيث رحلوا ، فتركوا أحسن الأثر ، في تلك الديار ، مما جعل أهل تلك البلاد ينظرون إلى المكيين والمدنيين ـ نظرة تبجيل ، واحترام ، وتقدير ، ومحبة .

قضى والدي أيام كهولته في مدينة القاهرة ، وكتب فيها عددًا من مؤلفاته ، منها :

١ ـ (إتحاف المسلمين ، شرح واختصار رياض الصالحين) مطبوع .

٢ ـ (مدائن صالح : أروع البلدان السعودية الأثرية مع القارات الخمس) مطبوع .

٣ ـ (أشعة الكوكب في تاريخ الخليفة ابن الزبير وأخيه المصعب) مطبوع .

٤ ـ (أزهار وأكاليل في تحسين ألفاظ العامة ومعرفة الدخيل) مطبوع .

٥ ـ (رحلة العمر) مطبوع .

٦ ـ (المنفعة والمبلغة في شرح فقه اللغة) مخطوط .

٧ ـ (عمر بن أبي ربيعة مع الحسان) مخطوط .

٨ ـ (فظائع الخوارج في الإسلام) مخطوط .

٩ ـ (عكاظ عبر التاريخ) مخطوط .

ظل والدي وفيًا لمرحلة طفولته ـ بالرغم من معاناته الشديدة ـ بين حياة البادية في الزيمة ، وصخب الحياة في الأحياء المجاورة للمسجد الحرام . فلم ينس أمه المرضعة (هيف) ، وبقي وفيًا لإخوانه في الرضاع ، من آل مليح الأفاضل ، ومنهم العم محسن بن مليح ، والعمة قدرية بنت مليح ، كانوا محل حبه وتقديره ووفائه ، يتعهدهم بالسؤال والقرب ، ويتعهدونه بالمحبة والأخوة والتقدير .

كنا ـ على تواضع منزلنا في القاهرة ـ نسعد باستقبال من بقي من جيله الكبار . ومن جملة من كانوا على تواصل معه ، وزيارته عند قدومهم إلى مصر ، شخصيات تحضرني أسماء بعضهم ، منهم السادة الأفاضل ، مع حفظ الألقاب :

ـ حمد الجاسر .

ـ عبد القدوس الأنصاري .

ـ محمد عمر رفيع .

ـ عبد الوهاب آشي .

ـ محمد سعيد العامودي .

ـ أحمد المانع .

ـ عبد العزيز المسند .

ـ زكي عمر .

ـ عبد الله عريف .

ـ حسين أشعري .

ـ عبد الله خطيب .

وغيرهم كُثُر ممن لا تحضرني أسماؤهم فلهم العتبى .

وكان أبًا لكثير من الشباب ممن كانوا يتلقون العلم في الجامعات المصرية ، كان يتلقاهم بالترحاب ، ويتعهدهم بالرعاية والنصح والتوجيه .

نعم ، خُلق والدي رحالة ، منذ مولده وحتى كهولته . اتصل بي ذات مرة في صيف عام ١٩٦٩م ، وكنت أرافق زوجي الدكتور عباس طاشكندي في أثناء دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية إذ كان مبتعثًا من جامعة الملك عبد العزيز للحصول على شهادة الدكتوراه ، اتصل بي هاتفيًا من ايرلندا ، وفزعت ، قلت له : ماذا تفعل يا أبي في ايرلندا ؟ والصراع على أشده ـ يوم ذاك ـ بين الكاثوليك والبروتستانت ، في تلك البلاد . فأجابني : لا تفزعي يا ابنتي إنني في مأمن ، وإنه مجرد صراع ، واجهته دينية ، وتُحَرِّكُه السياسة ، وتستنفره وسائل الإعلام . ثم قدم سفر جديد إلى نيويورك ، وبقي فيها زمنًا ؛ كوَّن فيها علاقات كثيرة ، حتى صار له أصدقاء ومريدون كثر ، من مسلمي نيويورك السود ،

وكان يكتب ملاحظاته على أوراق حملت بعضها معاني اجتماعية عميقة ، لا يجيد كتابتها إلا عالم اجتماع . وكان في نيويورك على تواصل مع بعض تلاميذه ممن كانوا يعملون في البعثة الدبلوماسية السعودية ، ومنهم الأستاذ عبد الحميد القاري .

كان يكتب لي رسائل قصيرة عن رحلاته زمن الكهولة ، من أمريكا الجنوبية ، وأفريقيا ، وشرق آسيا ، وأمريكا الشمالية ، وأستراليا ، وهي مناطق كان قد زارها وهو شاب يافع ، ثم زارها في كهولته ليقف على المتغيرات .

ومما ميز هذه الرحلة أنها مليئة وزاخرة بالموضوعات الأدبية والثقافية والإجتماعية واللغوية بصورة خاصة ، إذ يطرح الوالد العديد من المصطلحات العامية والفصحى ، وتشريحها صرفيًا إشتقاقيًا ونحويًاوإملائيًا ، مما أضفى على الكتاب متعة أخرى على متعة الرحلة نفسها إلى جانب ما أستشهد به المؤلف من الحكم البليغة والأمثال العربية الرصينة شعرها ونثرها .

مما يعد مائدة أدبية زاخرة بكل أنواع العلوم التي يزدردها القاريء ازدرادًا .

هنالك أمران جديران بالذكر عن والدي ، فقد كان حافظًا للقرآن الكريم ، يرتله غيبًا آناء الليل وأطراف النهار وهي عادة حرص عليها في إقامته وسفره ، كما كان حافظًا للشعر الجاهلي والإسلامي ، يخصص شهرًا في العام لتسميعه لأحد طلابه غيبًا ، وقد كتب عن عمر بن أبي ربيعة دراسة مطولة ، ظلت مخطوطة في كراريس ، ولكنه في خاتمة حياته طلب ألا تنسب إليه ، وأن تحرق .

خلف والدي عددًا من الأبناء ، توفي بعضهم في حياته ، وكان له من الأبناء عقب وفاته ، سامي ـ رحمه الله ـ وأنس ، الدبلوماسي السعودي ، الذي آثر الحياة في الأرجنتين بعد تقاعده ، وسكينة التي تعيش رفقة زوجها بمصر .

كان والدي قويًّا عصي الدمع عند النوازل ، ولكنني رأيته ، وهو يجهش بالبكاء مرتين :

أولاهما ، عند وفاة ابنته الصغرى سامية وكانت متخرجة حديثًا من جامعة القاهرة ، وقد رحلت نتيجة خطأ طبي . والأخرى عند وفاة أمي ، فاطمة بنت السيد أحمد الفتياني ، يرحمهم الله ؛ إذ دخل في دوامة من الحزن والألم حتى وافاه الأجل بمدينة القاهرة ، واستقر في مقبرة السعوديين مرتاحًا بين زوجته وابنته ، يرحمهم الله جميعًا .

يقول المثل العربي : « إن كل فتاة بأبيها معجبة » كيف لا أعجب بمثل أبي فقد أورثنا من الأخلاق الرفيعة والقيم العالية ، وكان لنا زادًا وعونًا في حياتنا جميعًا ، وكيف لا أفتخر به وقد خلف لنا إرثًا ضخمًا من الفكر المتميز والتألق الإبداعي ، ترك لنا تراثًا مكتوبًا ، وتجربة كتبها بتجرد ! رغم ما فيها من آراء قد لا يتفق معه عليها بعض ، ولكنني حاولت أن أؤطر هذا التقديم بشيء من التوثيق ، عله يشفع لي في تجاوز كلمات الإعجاب ، والله وحده أعلم بالقصد وما تخفي الصدور .

نوال محمد عبد الحميد مرداد

جدة في رجب ١٤٣٢هـ

الفصل الأول

خلقتُ رحالة :

بدأت رحلتي منذ ولدت ، حينما أخرجني الله من بطن أمي - رحمها الله - لا أفقه شيئًا ولا أعلم عن هذا الكون الفسيح مثقال ذرة - قال جل وعلا : ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل : ٧٨] ولعل لله في ذلك حكمة لا أفقهها ، وروافد لا يعلمها إلا علام الغيوب .

ونسأل الله أن يوفقنا لأداء شكره ، لما أسداه إلينا من نعمة السمع والبصر والعقل .

هل يخلق الإنسان رحالة ؟

لعل القارئ يعجب أو يتهمني بالشطط عندما يقرأ العنوان الأول : (خلقت رحالة) إذ ليس من المعقول أن يخرج الإنسان من بطن أمه رحالة جوالة ، ولكن عندما (يُعلم السبب يبطل العجب) ، فكن معي من الآن لتعلم ذلك .

أول حديث :

أول حديث عن الرحلات والرحالين ، سمعته من الوالدين والمربيات والخالات والعمات ، قبل أن أقرأ الكتب ، وقبل ممارستي لهذه الهواية الجميلة .

فقد حدثتني كبرى شقيقات والدي المرحوم ، وهي التي تولت القيام بشؤوني وتربيتي بعد عودتي من المراضع - رحمها الله - كما حدثتني والدتي -

رحمها الله ـ وهي صادقة فيما حدثتني به وذلك لتأييد الوالد لحديثها ولحديث العمة التي وافاها الأجل في عام ١٣٧٢هـ والوالدة في عام ١٣٩٣هـ وكانت وفاة الوالد في عام ١٣٧٨هـ رحمهم الله جميعًا وأسكنهم فسيح جناته.

قالت العمة: لم يكن يعيش لوالدتك أولاد قبلك، فلقد ولدت من قبلك ولدًا عاش عامين ثم مات، وكان اسمه (زيني) ثم ولدت أنثى عاشت عامًا ثم ماتت بمرض الجدري، كما كان موت أخي بالجدري أيضًا رحمهم الله وجعلهما شافعين للوالدين.

مساحيق العجائز:

ثم قالت أيضًا: وكان الناس في ذلك الوقت لا يعلمون شيئًا عن موانع الحمل الحديثة التي توصل إليها الطب الحديث، اللهم إلا المساحيق البلدية الشعبية، والتي تصفها العجائز والتي تخطيء وتصيب وخطؤها أكثر من صوابها؛ لأنها على غير علم مدروس أو تجارب مفحوصة، وكثير من الحوامل كن يصلن إلى درجة الخطر عند الإجهاض لعدم تقدم الطب آنذاك.

وتقول العامة في مكة: (أسلبت) والصحيح: «أسقطت وأجهضت».

وكانت الوالدة ـ رحمها الله ـ قد أصرت على الإجهاض وعدم الإصغاء إلى النصائح حتى إن والديها ـ رحمهما الله ـ محضاها النصح، فكانت تجيبهما بالقبول، ولكنها تظل مصرة في قرارة نفسها على ألاّ ترى لها أولادًا لها يموتون وهي تنظر إليهم لا تعرف لهم علاجًا، وكان علاج الجدري في ذلك الزمان مكونًا من ملح يضعونه في الماء ويدلكون به جسد الطفل المصاب ولا شيء غير ذلك.

وقد استعملت أنواعًا كثيرة من العلاج ولكن من دون جدوى ، ولا رادَّ لقضاء الله .

والواقع أنها لم تخطيء في ابتلاع المساحيق ولا في أنواعها بل سفّت ما يُسف وشربت ما يُشرب ، ومن الشهر الثاني بدأت تتناول ما يوصف لها فلم تنتظر الشهور الثقيلة حتى يقال : إنها أخطأت في القضاء على الجنين أو على صحتها .

وكان يعتريها نزيف حاد من جراء ذلك ، فتحجم عن المساحيق ، ثم تعيد الكرة تلو الكرة لكنها لم تنجح ولم تُسقِط .

طبيبة هندية كانت مشهورة في مكة :

في منتصف الشهر التاسع أصابها وعك شديد نتج عنه ارتباك في الأحشاء ثم أعقبه نزيف ، فجاءوا إليها بأشهر طبيبة آنذاك وتدعى (بيبي فاطمة) كانت طبيبة للنساء وأكثر ما اشتهرت به طب الولادة ، فهي قابلة وآسية وكانت لها شهرة عظيمة في مكة وهي من مهاجرات الهند ، تتكلم العربية بكلفة شديدة .

وكانت هناك قابلة أخرى تنافسها في هذه المهمة تدعى (لالا) عزيزة ، وهي من المغرب ولا تنطق إلا باللهجة المغربية ، وتتقاضى أقل مما تتقاضاه الهندية . وكلتا القابلتين كانتا على درجة عظيمة من الغباء ، فكانت الهندية تعطي للنفساء المجِلَّب (بكسر الميم وفتح الجيم وتشديد اللام المفتوحة ثم باء) ، والكلمة عامية بلهجة عامة مكة ، وكان الأفضل ضم الميم ، وهذا الدواء كان مكونًا من جملة عقاقير وأعشاب هندية تستورد من الهند ، ومن ضمنها الزبيب الهندي الذي هو أمرَ من العلقم مضافًا إليه (الإهليج) وهوعقار هندي أيضًا ثم

(الهيل الحبشي) حب الهان ، وهو مرٌ أيضًا وكبير الحجم ولا يستساغ ، ثم يضاف إلى هذه العقاقير زهور كثيرة مرة المذاق وكلها مستورد من الهند ، ما عدا الهيل الحبشي ، وتغلي الطبيبة القابلة هذه الأصناف جميعها على النار وتحليها بالنبات (الشيناوي) ثم تسقي النفساء كمية كبيرة من هذا الخليط ، بزعم أن هذا المشروب يجلب النفع ويخرج الأذى من بطون الأمهات اللائي يلدن ..

وهذا ما كان يستعمل في الهند على زعم (بيبي فاطمة) في ذلك الزمان . أما الطبيبة المغربية فتضيف (الحلبة) مع عقاقير مغايرة للهندية تستعمل في مصر وشمال إفريقية آنذاك ، كما تزعم الطبيبة المغربية ، ولا يزال هذا المغلي يستعمل في صعيد مصر وفي الأرياف حتى الآن . وفي النادر من يذهب بالحامل إلى البلد التي فيها مستشفيات ولادة في ذلك الزمان . ولعل (لالا) عزيزة أقامت بمصر حينًا من الدهر وباشرت التوليد ثم هاجرت إلى مكة . وقد أدركتُها وعرفتُها فيما بعد ، ولم تنقطع ذكراهما عن الألسن إلى الآن ، مع أنهما قد لقيتا ربهما في الأربعينات من هذا القرن الهجري(الرابع عشر) .

و(بيبي فاطمة) كانت تحصل على مكافآت وهدايا وكسوة فاخرة عدا الأجرة المقررة التي تتقاضاها من والد الوليد ، وخاصة إذا كان المولود ذكرًا .

ولئلا أخرج عن الموضوع كانت تلك الليلة التي حضرت فيها القابلة الهندية في ليلة ولادتي ، بعد أن بلغ النزيف ذروته وقاست المرحومة الوالدة الأمَرَّين في المخاض أخرجني الله من بطنها حيًّا في حين أن القابلة كانت قد قالت : إنه لن يخرج حيًّا .

وكانت ليلة ليلاء، وهي آخر ليلة من ليالي شهر ذي القعدة الحرام في عام ١٣٣٢هـ في أثناء الحرب العالمية الأولى قبل النهضة العربية التي قام بها الشريف الحسين بن علي أمير مكة في شعبان عام ١٣٣٤هـ، وكانت الأزمة مستحكمة الحلقات، وموسم الحج ـ الله أعلم به ـ والمستشفيات لا وجود لها سوى مصحة (أجياد) بطبيب واحد لجميع الأمراض والمرضى.. أما الصيدليات فلا وجود لها اللهم إلا صيدلية واحدة في (المروة) تدعى (أجزاخانة حسنين)، والدواء مركب مزجي أو مزيج من أنواع كثيرة ومنه ما يُسفَ ومنه ما يُشرب.

الرحلة الأولى:

في تلك الليلة العصيبة التي خرج فيها هذا الوليد المريض المسكين حيًّا إلى الدنيا، ولم يجد من يرضعه لمرض أمه، ولنقص في نموه ووزنه ذهب والده إلى صديق حميم له يسكن بالغزة ـ وهي محلة بمكة المكرمة ـ واسم هذا الصديق السيد (محمد زيني دحلان) أحد علماء الشافعية، ومن الأسر العريقة بأم القرى؛ فعرض عليه أمره وأستشاره في الموضوع، وكان الوالد ـ رحمه الله ـ آنذاك مريضًا بالخفقان ـ وهو خفقان القلب ـ وكانت تلك اللحظة في وقت السَّحر، قبيل انصداع الفجر.

فخفف الصديق من روع صديقه، ثم توضآ ونزلا إلى المسجد الحرام ـ وكان السيد الدحلان من أئمة الشافعية بالمسجد الحرام، والأئمة لكل مذهب من المذاهب الأربعة من الذين يؤمون الناس، كان عددهم كثيرًا، فكانوا يتناوبون الإمامة. وكانت النيابة في ذلك اليوم بالمصادفة على السيد الدحلان،

وعلى والدي بمقام الحنفية . فقد كانوا من أئمة المذهب الحنفي الشافعية كانوا يصلّون أول الوقت ، والحنفية يصلون آخر الوقت عند الإسفار (بكسر الهمزة) . وبينما الصديقان في الطريق إلى المسجد الحرام إذا هما بصهر للسيد الدحلان اسمه السيد (عبد الرحمن شعيب) وكان ذاهبًا لأداء الفريضة جماعة وكان راكبًا حمارًا أسود ، لبعد داره عن المسجد .

فُـرِجَـتْ :

عندئذ قال السيد زيني الدحلان لوالدي : (فُرِجَتْ) .. كلمة تستعملها العامة في مكة بكثرة في الضائقات عندما تبدو بوادر الفرج وانكشاف الكرب .. قال لصاحبه : فرجت والحمد لله ، قضي الأمر إن شاء الله سندخل المسجد الحرام جميعًا ونطوف سبعًا بالبيت العتيق ، وندعو الله بالفرج ، ونشرب شربة من ماء زمزم ، (وهو لما شرب له) ، ثم قال له : إذا أنفذنا هذه المهمة الدينية فاذهب أنت إلى بيتك وخذ معك شيئًا من ماء زمزم وبلل قطعة من القماش أو القطن بهذا الماء في فم المولود إلى أن نأتيك بعد أداء الفريضة إن شاء الله .

ثم تذهب أنت لتصلي بالناس في المقام الحنفي وترجع إلينا سريعًا لنرى ماذا نصنع وسيدبر الله أمرنا أحسن تدبير ، وإليه المرجع والمصير .

نفذ الوالد ـ رحمه الله ـ مشورة صديقه وذهب إلى منزله . وكان منزلنا الذي ولدتُ فيه بالقرب من باب (الدُريبة) أحد أبواب المسجد الحرام بمكة المكرمة ، وهو بيت الجد المرحوم عبد المعطي مرداد ، شيخ الأئمة والخطباء في عهده ، وقد بناه في عهد الحكم العثماني ..

فلما قضيت الصلاة جاء السيدان : (الدحلان والشعيب) إلى بيتنا ، فوجدا الوالد في حيص بيص مع النسوة ، والأم المريضة ، والوليد الميئوس من حياته ، والداية (القابلة) التي لا تعرف إلا ما جبلت عليه من عادات وأدوية بلدية ارتجالية على غير علم .. وكلمة الداية (بتشديد الدال المفتوحة بعدها ألف المد ثم الياء المفتوحة والتاء المربوطة ـ كلمة عامية دخيلة ، ويقابلها في الفصحى (القابلة) بفتح القاف وكسر الباء ثم لام مفتوحة وتاء مربوطة) ، وسميت بالقابلة ؛ لأنها تقابل النساء قبل الوضع وتستقبل الوليد ، فنادى الدحلان والشعيب ، الوالد ، وقالا له : أعطنا مفتاح مجلس الاستقبال ، واخرج لأداء وظيفتك ثم ارجع سريعًا إلينا .

كيف التخلص ؟

كيف التخلص من النسوة اللائي ملأن الدار ضوضاء ؟ كيف يخرج الوليد المريض من بينهن ومن بين القابلة الحيزبون الشمطاء ؟ قال الوالد للسيدين ، وكان مرتبكًا حيران : ماذا أصنع ؟ هل تنتظراني ريثما أرجع إليكما من الصلاة ؟ قالا : نعم ، وأعطنا الوليد إن كان حيًّا مع ماء زمزم وشيئًا من القماش الأبيض الذي يُكَفَّل فيه ، (بضم الياء وفتح الكاف وفتح الفاء المشددة بعدها لام) ، أي يقمط فيه الوليد وقل للنسوة : جاء السيد (دحلان) ومعه الطبيب ، وكان الوالد مطاوعًا لصديقه يطيعه في كثير من الأمور ، وهو بالنسبة للوالد كوالد ومرب يركن إليه عند الشدائد ويقيمه وكيلا عندما يسافر إلى الخارج ، وله شأن عند النساء ؛ لأنه كان ذَرِبَ اللسان يقدم النصائح لهنّ باستمرار ، وكنّ طَيِّعات له ومطيعات ، وهذا بالنسبة لأسرتنا .

مفتاح المجلس :

قال السيد الدحلان : هات مفتاح المجلس والوليد ، وقل للنسوة إن السيد قد أحضر الطبيب (عبد المجيد) ليفحص الطفل ، وكان هذا الطبيب الهندي ذا شهرة عظيمة في زمانه ، لكنه كان يعالج بالعقاقير والحمية فقط .

وقد كذب السيد الدحلان على النساء في ذلك ؛ لأن الذي كان يرافقه هو السيد شعيب (بضم الشين وفتح العين بعدها ياء ساكنة وباء) ، على صيغة التصغير وعلى اسم النبي شعيب ـ عليه السلام ـ والكذب على النساء ، في مثل هذه الأحوال ، جائز للتخلص وللمصلحة .

فما كان من الوالد إلا اختطاف الوليد وإحضاره للسيدين مع المطالب التي طلباها ، ثم ذهب إلي وظيفته بمقام الحنفية ، وصلى ثم رجع لينظر ماذا تم وما قر عليه القرار .

السـفـر :

فلما حضر الوالد قال له السيد دحلان : هذا الوليد ميئوس من حياته على ما يظهر ، وأمه لا تستطيع إرضاعه لمرضها ، وأفضل شيء هو السفر به إلى المراضع ، فإن كان به رمق فالحمد لله وإن مات يمت بعيدًا عنكم .

استغرب الوالد من رأي السيد دحلان لكنه أطاع ورحب بالفكرة ثم قال : وكيف يكون رحيل هذا الطفل وهو على هذه الحالة ؟ وإلى أي بلد ترحل به ؟ وما هي وسائل النقل التي عليها المُعوَّل في إيصال هذا المريض إلى المرضع ؟ وأين هنَّ المراضع ؟

فأجابه من فوره قائلًا : إن صهري هذا ، وهو زوج بنتي ، السيد عبد الرحمن الشعيب قد سبق له الذهاب بولد له إلى (الزيماء) ، وهي (بتشديد الزاي المفتوحة ثم الياء الساكنة وميم مفتوحة بعدها ألف المد ثم الهمزة) ، وهي قرية بين مكة والطائف لكنها إلى مكة أقرب ، ذات حدائق ومياه ، ولها أمير من القناوية ، القناوية أصلهم من قنا (بكسر القاف) ، محافظة من محافظات مصر ، سكنوا هذه الضاحية واستوطنوها وزرعوها منذ زمن بعيد ، وبيدهم مستندات شرعية تثبت ملكيتهم للعين والحدائق من أيام الحكم العثماني ، ولما استولى الملك عبد العزيز آل سعود على الحجاز أقرهم على الإمارة وما زالوا بها إلى الآن ، وهذا المكان الخصيب يحط به الرحل رحالهم وينامون به ثم يرحلون إلى الطائف ، وهذا بالنسبة للمصطافين من أهل مكة وجدة .. وكان المسافرون من مكة إلى الطائف عن طريق الزيماء هذه يقطعون الطريق إلى الطائف في ثلاثة أيام بلياليها على ظهور الإبل - أي ثلاث مراحل - المرحلة الأولى : من مكة إلى الزيماء ، وربما يمرون بالشرائع وببعض الأودية ذات الزروع .. والمرحلة الثانية : من الزيماء إلى السيل الكبير وهو معمور ومسكون وبه آبار ، ومقاهٍ (جمع مقهى) ومراع (جمع مرعى) وسكانه أكثر من سكان الزيماء .

والمرحلة الثالثة : من السيل الكبير إلى الطائف .. وتسلك هذه الطريق الإبل فقط . أما الطريق الأخرى (طريق كرا) فلا يسلكها إلا البغال والحمير لوعورته ولكثرة جباله الشاهقة .

قال ياقوت في (كرا) بالقصر والهمزة لكنه لم يحقق الاسم ولا الموضع فقال : إنه ثنية بأرض بيشة أو بين الطائف والشاهد قول الشاعر :

مـنـعـنـاكـم كـراء وجـانـبـيـه

كما منع العزيز وحا اللهام

عـود على بـدء :

ولنرجع إلى قصة الحمار الأسود الذي كان يمتلكه السيد شعيب آنذاك ، قال السيد دحلان : صهري هذا قد سبق له الذهاب إلى (الزيماء) وبعض جيرانه بالمعابدة[1] كذلك ، ثم قال : إني أكلف صهري هذا بهذه المهمة ، وعلاوة على ذلك فلنذهب الآن جميعًا إلى داره بالمعابدة لتناول طعام الإفطار عنده ، ثم يرحل بالطفل على حماره الأسود ، رحمة بهذا الوليد الضعيف ، ولعل الله يرحمنا بسببه ، وما أدراكم كم لنا من ثواب إذا قدر الله له الحياة .

وكان والدي يعلم أن السيد شعيبًا له خبرة بهذا الشأن ؛ لأنه صهر صديقه الدحلان ، ويعلم أنه ذهب بأحد أولاده إلى تلك المراضع ، قال الوالد للسيد الدحلان من باب تجاهل العارف :

كـيـف الـوصـول إلى سـعـاد ودونها

قـلـل الجـبـال ودونهـن حـتـوف ؟

فأجابه من فوره : نحن أدرى بهذا الموضوع ، اذهب إلى أم عيالك والقابلة وأخواتك وقل لهن : نحن ذاهبون إلى بيت الدكتورعبد المجيد ؛ لإجراء

---

(١) حي معروف من أحياء مكة يقع في ناحيتي الشرفية ويمر به الصاعد إلى منى وعرفات وتقرب من الأبطح .

فحوص طبية للوليد ؛ لأنه في حاجة إلى التغذية عن طريق بعض العقاقير التي يملكها الطبيب في عيادته .

فصعد الوالد وأخبرهن بذلك وخرجوا جميعا من بيتنا الواقع عند باب الدُريبة يحملون الوليد المريض ، وفي الوقت نفسه ظن النسوة أن الوليد ميئوس من حياته ، وأن هذه حيلة محضة للتخلص من الضوضاء بطريقة فنية .

المواصلات :

في ذلك الوقت لم تظهر في الوجود العربات النفطية (السيارات) وخاصة في أم القرى ، وكان الناس لا يصدقون أن الحديد يمشي ويطير ويحلق ويدمر ويهاجم ، اللهم إلا سماعًا عن طريق المجلات والجرائد التي تأتي من الخارج مع الحجاج والسياح الظرفاء ؛ إذ لا تتصور العقول هنا شيئًا من هذا القبيل ، ولم تكن يومئذ وسيلة للسفر إلا البعير والحمار ، والخيل والبغال ، أما الحمير الأهلية فلم تك ترحل إلى الطائف إلا عن طريق كرا (بفتح الكاف) اسم الجبل الشامخ وهو من أشمخ جبال الحجاز وقد مر بنا ذكره . وأما الجمال فلم تك ترحل من ذلك الطريق مطلقًا لعدم استطاعتها تسلق جبل كرا بأحمالها ، فلذلك جعلوا لها طريق (الزيماء) و(السيل) ومع ذلك يستغرق سفرها ثلاثة أيام بلياليها كما سلف ، فكان الذين يصطافون بالطائف بأسرهم لا يرحلون إليه إلا من طريق (الزيماء) وكانوا قلة في ذلك الزمن لقلة الناس ووعورة الطريق ولاشتعال نار الحرب العالمية الأولى ، ولاستفحال أزمة تلك الحرب الضروس ، ولعدم وجود الأمن ، وشدة الخوف من قطاع الطرق واللصوص .

الشـقـادف :

كان الذين يصطافون بالطائف ، عن طريق (الزيماء) على ظهور الإبل ، يضعون « الشقادف » على ظهورها ويشدونها بالحبال الموثوقة ، ويحملون معهم في الشقادف زاد الطريق وماء الشرب في الأباريق المصنوعة من الطين الجيد ، ويسمون هذه الأباريق الرَّباعي (بفتح الراء المشددة) جمع رُبْعِي (بضم الراء وتسكين الباء وكسر العين بعدها ياء) كلمة عامية كان يستعملها أهل مكة فقط للآنية الفخارية الجميلة المعروفة قديمًا . أما الآن فقد ألغيت الرباعي بسبب إلغاء السفر على الشقادف ، وهذه الرباعي هي قلل فخارية تشبه الأباريق . كما كانوا يفرشون هذه الشقادف بالفرش الوثيرة والمساند الجميلة واللحف والدثر ، ويظللونها بالكساء الجميل ؛ لتقيهم حرارة الشمس والمطر والرياح .

والشقادف (بفتح الشين المشددة وفتح القاف ثم ألف المد بعدها ثم الدال المكسورة والفاء) ، كلمة عامية مفردها شقدف (بضم الشين وتسكين القاف وضم الدال ثم الفاء) ، وهي من الدخيل ويقابل هذه الكلمة في الفصحى (هودج) أو غبيط والشقدف هو عبارة عن هودج متطور أو غبيط على الطراز الأحدث ، فالهودج كلمة عربية فصيحة معناها : المحمل المصنوع من السعف وأعواد العرعروالخيزران ، وله قبة تستر كانت بالثياب قديمًا ، وبالحنابل المنسوجة من القطن أو الصوف لاحقًا ، وتركبه النسوة . وقد جاء في الشعر والنثر والقصص ، قال المؤرخون وأصحاب السير أن هودج عائشة ـ رضي الله عنها ـ صار كالقنفذ من رمي النبال في وقعة الجمل المشهورة .. وتقول العرب : « هودج على مهداج » (بكسر الميم وتسكين الهاء ثم دال مفتوحة وألف وجيم) . والمهداج كلمة فصيحة تطلق على الناقة الرؤوم التي تحن وترؤم

أسقابها . كما يقولون : « شيخ مهداج وهداج » بصيغة المبالغة ، وهو الذي يمشي الهوينى في ارتعاش ، وجمعه (هداجون) ، جاء في الشواهد العربية :

قنافذ هداجون حول بيوتهم

بما كان إياهم عطية عودا

والهودج يركبه الواحد والاثنان ، وغالبًا ما يكون للواحد ، أما الغبيط (بفتح الغين وكسر الباء ثم ياء المدّ والطاء) ، وهو محمل مكشوف مثل الأكف ، في هيئة رحل قتبة ، وأحناؤه واحدة وقد يشد عليه الهودج ، وغالبًا لا يشد عليه شيء سوى الرحل ؛ لأنه يحمل أكثر من واحد إذا كان مكشوفًا . وهذا المركب يركبه عامة الناس . وجاء في معلقة امرئ القيس :

تقول وقد مال الغبيط بنا معًا

عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

وأما (الحنابل) التي يسترون بها الشقدف أو المحمل أو الهودج في هذا العصر المتطور ، فجمع حنبل (بفتح الحاء وسكون النون وفتح الباء وبعدها اللام) ، وهي كلمة فصيحة ولكنها مستعملة في غير ما وضعت له ؛ لأنها تطلق على الرجل القصير الأقرب إلى القزم (بفتح القاف والزاي بعدهما ميم) ؛ فالقزم هو الاسم فإذا اتصف به الرجل يقال له رجل قزم (بكسر الزاي) وامرأة قزمة (بكسر الزاي أيضًا) ومعنى قزم : صغير الجثة أو صغيرتها ، والقصير أو القصيرة ، الدميم أو الدميمة ، اللئيم أو اللئيمة ، وقد استعارت العامة كلمة (حنبل) لما يستر به الشقدف أو الغبيط أو الهودج من نسيج قصير محبوك من القطن أو الصوف فيقال : غبيط مكسي بالحنبل الهندي وبالحنبل المقصص (بضم الميم وفتح القاف والصاد المفتوحة المشددة تليها صاد أخرى) والعامة

تكسر الميم . والمقصص هو أفضل الأكسية ولا يكسي به إلا الأغنياء ؛ لأنه غالي الثمنَ وقد بطل استعماله في هذه الآونة بعد استعمال العربات التي تسير بالنفط فقط أو (مكسي) إسم مفعول من الثلاثي كسا ، والصيغة تستعمل للفعل المزيد من كسا فيقال : أكتسى ، وتكسّى وأستكسى . كما تستعمل للتفضيل ويقولون في المثل العربي : «أكسى من بصلة» وأما الكسي بضم الكاف وتسكين السين فهو اسم لمؤخر العجز من كل شيء ويجمع على أكساء وجاء في الشعر العربي الفصيح .

وهذا الحنبل أو النسيج المقصص الجميل سُمِّي مُقصْصًا ؛ لأنه يُقَصّ بعد الحبك على المقاييس التي تحتاجها هذه الشقادف أو الهوادج بحسب هياكلها وأحجامها ، وكانت تستعمل هذه المقصّصات للفرش على الأرائك بعد انتهاء مهمتها في الشقدف ، أما الآن فلا وجود لها لبطلان الرحلات على الإبل ، فسبحان مبدل الأحوال ومطور الأجيال ومن عليه الاتكال في الحل والترحال .

التشاور والتساؤل :

عندما خرج الوالد والسيد شعيب والسيد دحلان من دارنا ـ التي كانت تقع بقرب باب الدُريبة أحد أبواب المسجد الحرام ـ وقفوا يتشاورون ويتساءلون في كيفية الذهاب بهذا الوليد المريض إلى (المعابدة) حيث مسكن السيد شعيب الذي من بيته تبدأ الرحلة إلى (الزيماء) حسب ما اتفقوا عليه بعد رجوعهم من الصلاة . وأخيرًا أجمعوا رأيهم على أن يذهب السيد شعيب وحده على طريق باب السلام ليخرج إلى المسعى ويمتطي حماره الأسود المربوط بالسرحة ، ويصل إلى بيته سريعًا ليهيء طعام الإفطار ويستعد للسفر ، وقد ذهبا بالطفل من

طريق (القبو)، فالقرارة، فالنقا، فالخريق، ثم دار شعيب التي منها تبدأ الرحلة.

وتصحيح كلمة (المَعَابِدة) أنها بلام قمرية وميم مفتوحة وعين مفتوحة وألف المد ثم باء مكسورة ودال مفتوحة وتاء مربوطة.

والمسعى (بفتح الميم وتسكين السين وفتح العين وبعدها ألف القصر)، وهي موضع السعي بين الصفا والمروة. (والسرحة) هي مقهى كانت بالمسعى، كانت بين باب السلام وخان المفتي وللمقهى فناء واسع وفي داخله شجرة كبيرة تظلل نصف مساحته لذلك سمي المقهى بالسرحة، تخفيفًا بعد أن كان يطلق عليه (مقهى السرحة) ثم تقلصت التسمية إلى (السرحة) بإعتبار المكان والمجاورة، ومثل ذلك كثير، فكان بعض الذين يرتادون هذا المقهى من ذوي الحمير، يعقلون دوابهم به بعد التراضي مع صاحبه. و(السرحة) في اللغة الشجرة الباسقة العظيمة، وجمعها: سَرْح (بفتح السين وتسكين الراء ثم الحاء)، وضبط صيغة السرحة أنها بفتح السين المشددة المفتوحة بعد اللام الشمسية ثم التاء المربوطة. وللسرحة ذكريات وماضٍ جميل؛ إذ كان يتقابل ويتواعد عندها وتحت ظلالها العشاق الدنفون الهائمون، وجاءت في أشعارهم، وإمامهم في ذلك عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي المكي الغزل، وكانت العرب تشبه وتستعير وتتمثل بالسرحة ومن ذلك قول عنترة بن شداد:

بطلُ كأنَّ ثيابه في سَرْحَةٍ
يُحْذى نِعال السِّبت ليس بتَوأَم

وشجرة السرحة لها ثمر كعناقيد العنب، ولكنه لا يؤكل، ويقال لثمرها: (الآل) على وزن المال.. وقد أزيح المقهى وأدخله في شارع المفتيَّ، واجتثت

الشجرة . وأخيرًا أدخل الشارع برمته في مشروع التوسعة ، توسعة الحرم المكي من ضمنه المسعى ، وقد قام بها جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود . (والنقا) حارة من حارات مكة المكرمة وقهوة (القبو) بالعامية وهي مقهى (القبو) بفتح القاف ثم الياء الساكنة والواو ، وهي أشبه بنفق في جبل ، مسقوفة بالحجر وحالكة جدًا ومنها يذهب الناس إلى القرارة والفلق . والقبو في اللغة : (كل طاق معقود بعضه إلى بعض) وجاء ذكره في الشعر والأمثال وفي مقصورة ابن دُرَيْد .

شافع نافع :

هذه الجملة تقال في التعازي في الأطفال ، ويستعملها أهل مكة عندما يموت لأحدهم طفل . وذلك من خلال معنى الحديث القائل بأن الطفل غير المكلف حين يموت يكون شافعًا لوالديه يوم القيامة كان طريق الصديقين الحاملين للوليد من القرارة فالنقا فالحلقة فالمعلا فالخريق فالمعابدة ، وبينما هما في الحلقة وقد طلعت الشمس إذا ببعض أهل الحوانيت ممن يعرفون السيد الدحلان والوالد ـ رحمهما الله تعالى ـ جاءوا مسرعين وأخذوا الطفل ظانين أنه ميت ، ولم ينتبه الوالد والدحلان لذلك حتى سمعا أحد هؤلاء يقول لزميله : يا ترى أعزي من منهما لأقول له : (شافع نافع) وما أن سمع الوالد تلك الهمسة حتى انتفضت فيه روح ومشاعر الأبوة واقشعر جلده وقال : هذا ليس بميت ، فتأسفوا جميعًا واعتذروا .. ثم قالوا لهما : « يجب أن تغيروا اتجاهكم وأن تجعلوا طريقكم من خلف باب الرشيدي وتتسلقوا الهضاب ثم تهبطوا إلى المعابدة لئلا يقع الناس في الخطأ كما وقعنا فيه » ..

فاستصوبا الرأي ، وذهبا من تلك الناحية ، حتى وصلا إلى دار السيد شعيب ، رحمهم الله رحمة واسعة ، وأسكنهم فسيح جناته بعفوه ورحمته .

السفر :

كان في استقبالهم السيد شعيب الذي كان قد أحضر مائدة الإفطار ؛ حيث تناولوا ما تيسر من الطعام ، واحتسوا الشاي .. وقال السيد شعيب لوالدي ـ رحمه الله ـ : إني قد اتفقت مع عمي ـ هذا الحاضر السيد محمدزيني دحلان ـ حيثما كنت أنت بالمسجد على أن آخذ هذا الطفل إلى المراضع بالزيماء فهل توافق على ذلك ؟ وإني قد ذهبت ببعض أولادي إليها وأعرف أهلها (القناوية) وقد أرضعوا لي ولبعض جيراني بالمعابدة ولا تفكر في شيء . ثم قال السيد الدحلان المقالة نفسها وأمره بالصبر وعدم الجزع .. فامتثل الوالد وقال في نفسه : « حاجة في نفس يعقوب » وهكذا رحب بالفكرة ، وتقدم بالشكر والدعاء للصديقين العزيزين اللذين أزاحا عن قلبه همًا لا يعلمه إلا الله ، وجهز السيد شعيب دابته وودع أهله وصهره ووالدي ، فامتطى الحمار الأسود المزود بزاد السفر .. وأخذ الطفل ثم رحل بسلامة الله إلى (الزيماء) .

وواصل السير ولم يأخذ قسطًا من الراحة في الطريق واعتبر نفسه صائمًا خوفا على حياة الطفل حتى وصل سالمًا وكان يقول : كأني أصبت بذهول فلم أفكر في السجائر التي كنت لا أصبر عنها لحظة من الوقت ويقول : إني لم أشعر بجوع ولا عطش ، ويقول : إن الطفل مسجى بسجاف رقيق وما أدري أهو حي أم ميت ؛ لأنه لم يصرخ ، فكنت أقول في قرارة نفسي : « يارب جمّلها حتى نصل الزيماء » .

الوصـول والاستقبـال :

استطرد شعيب قائلًا : وصلت ـ بسلامة الله ـ إلى الزيماء وقد استغرقت الرحلة أقل من يوم لكنها متواصلة وميسرة وسريعة ومريحة ، ولم أشعر بوعثاء السفر ولا بجوع ولا عطش ، وإنما الذي فاتني هو أداء الصلاة . فقد كان مضطرًا ومعذورًا ؛ لم يتناول شيئًا من زاده الذي كان يحمله في الخرجين ـ تثنية خرج بضم الخاء فيهما ، والجمع أخراج ـ وكان ذلك في الليلة الثانية من ليالي ذي الحجة من عام ١٣٣٢هـ .

ثم قصد بيت أمير (الزيماء) حيث حل ضيفًا عليه ، وكان صديقًا له ومرضعًا لبعض أولاده وأقاربه من قبل هذا التاريخ .

والدنا فيصل القناوي :

كان فيصل ـ رحمه الله ـ كبير القناوية بالزيمة آنذاك وهو أكبر إخوانه ، كان كهلا وله لحية بيضاء من شحمة الأذن إلى شحمة الأذن أعرفه جيدًا ، وأتذكره وقد كتموا عني خبر وفاته كما سيمر بك تفصيله فيما بعد إن شاء الله .

ليلـة الضيـافـة :

احتفل القناوية أمراء الزيماء بضيفهم السيد في تلك الليلة على عادتهم الكريمة فأذهبوا عنه تعب الطريق الوعر ، وما قاساه من مواصلة السفر ، دون استراحة من الأبطح حتى الزيماء ، كما تقبلوا الوليد المريض ، ورضوا بإرضاعه وإكرامه .

وكانت أم عيال الأمير فيصل القناوي في ذلك الظرف قد ولدت بنتها الرابعة (فاطمة) ويسمونها في البادية (عجوة) الاسم المستعار كما هي عادة البادية وضبط هذه الكلمة أنها : بعين مفتوحة وجيم ساكنة وواو مفتوحة وتاء مربوطة . وكانت ذات شهرين ، فأرضعتني أمي المرضع مع بنتها (عجوة) كما كانت ترضع أخي من الرضاعة (محسن بن حازم بن مليح) المسئولين عن المحمل المصري آنذاك . وهو من أهل مكة ومن أعيان سكان محلة جرول ، ويتكلم بالعربية التي تغلب عليها اللهجة القرشية ، كما هي لغة لغة آبائه وأجداده ، وابنه (محسن) الذي تشرفت بالرضاعة معه هو ابنه الأكبر ، وقد كان ولا يزال موظفًا بالمحكمة الكبرى بمكة المكرمة فهو أخي من الرضاع ، وأمنا التي أرضعتنا هي المرحومة هيف (بفتح الهاء وتسكين الياء ثم الفاء) وهي من القناوية أيضًا . والعجوة لغة : هي أجود التمر : ونخلها يقال له : (لينة) .

رجوع السيد شعيب :

أمضى السيد ليلته في ضيافة القناوية على الرحب والسعة ، وفي الصباح شدَّ رحاله إلى مكة المكرمة على حماره الأسود وقال للقناوية : هذا الوليد ضيفكم وأنا غير مسئول عنه ولا أنتم ، فإن قدر الله له الحياة فهو ولدكم ، وإن كانت الثانية فادفنوه عندكم ، وعندما نتلاقى نستعلم منكم ، وتعلمون الآن أننا في حالة حرب وقحط ولا أحد يجيئكم ولا أحد منكم يأتينا ، وعندما نجد فرصة لا نتأخر عنكم ، وهو ولد فلان بن فلان وأمره كيت وكيت ، وسرد لهم القصة من أولها إلى آخرها ، فقالوا : حنا وهو على الله ، ولكن على ما يظهر أن الرضيع مريض ، وليس عندنا سوى علاج البادية ، ونسأل الله أن يعيننا

ويشفيه . فقال لهم السيد : نحن في حالة ما يعلم بها إلا الله ، فلا تنتظروا منا شيئًا ، ولا أنا راجع لكم ولا أنا سائل عنه ، وأهله أصحاب وظائف ، ولا يستطيعون الحضور إليكم مطلقًا ، ثم قدَّم لهم شيئًا من المال على قدر الحال ، لكنهم رفضوا أن يتقاضوا درهمًا واحدًا ـ رحمهم الله ـ ثم ودعهم وودعوه ورجع بسلامة الله إلى مكة . وكلمة (حنا) بكسر الحاء وفتح النون المشددة يستعملها أهل البادية اشتقاقا وتخفيف لكلمة (نحن) التي حورت إلى (نحنا) ثم حذفت النون ، وشددت النون الثانية فصارت حنّا بدلًا من كلمة (نحن) في الفصحى .

وبعد الاستراحة مدة يومين ركب حماره ، وذهب إلى الغزة[1] ليخبر السيد الدحلان بتفصيل الرحلة ثم ذهبا معًا إلى المرحوم والدي فأخبراه بما جرى فطمأن الوالدة والعمّات ـ رحمهم الله جميعًا ـ وشكر والدي للسيدين الكريمين ما قاما به من جهد وتعب وسفر في سبيل الله وإرضاء صديقهم وإنقاذ الطفل المريض .

مثل هذا الصنيع لا يقوم به إلا القلائل من الناس الذين خصهم الله بفعل المعروف وميزهم على سواهم وأثابهم على فعله ، كان الناس بلا شك في ذلك الزمان بخير ولا يزالون كذلك ـ إن شاء الله ـ وأمة محمد مرحومة إن شاء الله . وكانت هذه الأتعاب كلها من دون أي مقابل .

---

(١) الغزة : أقرب الأحياء التي تقع شرقي المسجد الحرام ، ولست أدري هل أخذت هذه التسمية من ملابسة رحيل هاشم جد النبي ـ عليه السلام ـ إلى الغزة بسوريا ووفاته بها ؟ أم بسبب آخر بالنظر لأن هاشم بن عبد مناف كان يقيم وأهله حول شعيب على الذي توجد مناسبة ما بين اسم موقعة واسم الغزة أخيرًا .

أخبرني والدي وأهلي، حين عقلت وميزت الأمور بعد رجوعي من المراضع، بأنه حتى ذوو المرضعين لم يأخذوا قليلًا ولا كثيرًا، هكذا كان الناس قبل نصف قرن أو يزيد كما أخبرني الآباء والأعمام، فما بالك بمن قبلهم من الأجيال! كانوا لا يقبلون شيئًا تلقاء الرضاع اللهم، إلا الهدايا والمواساة وما إلى ذلك.

أين أولئك الناس الذين أدركناهم ورأيناهم؟! ولما تمض أجيال وأجيال فكيف بمن سبقوهم إن أغلب هذا الجيل قد لا يصدق شيئا من هذا، ولهم الحق في ذلك، وسبحان من يغير ولا يتغير، سبحان مغير الأحوال ومن إليه المرجع والمآل.

رحلة الطفولة الثانية:

تقول مرضعتي (هيف) القناوية - رحمها الله - وهي صادقة فيما تقول: إنه اجتمع على ثدييها في ذلك العام أي عام ١٣٣٢هـ ثلاثة من الولدان: أنا وأم محسن ابن حازم وبنتها فاطمة التي تدعى (عجوة) التي لازالت على قيد الحياة إلى الآن أزورها وتزورني ولها أولاد وبنات أطال الله في عمرها وقدرني على مواصلتها، تقول: إنها في آخر عام ١٣٣٢هـ قل لبنها من كثرة الرضع فرحلت بي وبأخي محسن وأختي عجوة إلى المضيق (بفتح الميم وكسر الضاد، وبعدها ياء المد ثم القاف) وهي ضاحية على مرحلة من الزيماء تقريبًا أو أقل، ويطلق هذا الاسم على مواضع منها مدينة الزيماء، وعلى موضع في قرقيسيا، وعلى قرية بين مكة والمدينة كانت فيها معركة عربية بين قبيلتين من القبائل: بني عامر بقيادة رئيسهم علقمة، وقبيلة زيد الخيل نفسه، فأسر الأخير بني عامر عن

آخرهم وكان فيهم الحطيئة الشاعر المعروف ، وكان زيد الخيل قد من الله عليه بالفداء فقال قصيدة منها :

فما نلتنا غدرًا ولكن صبحتنا
غداة التقينا في المضيق بأخيل

هذا ما قاله ياقوت ، وعندي في ذلك تعليق يذكر في موضعه ـ إن شاء الله ـ عندما نكتب عن رحلاتنا العربية أيام الكهولة .. وهذا المضيق الذي رحلت بي أمي إليه صغيرًا فيه أشجار وماء ، وأرضه خصبة ، ويسكنه بعض بني الحارث والأشراف الحارثيون ، ويقال لهم سكان الضاحية :

الأشرافِ الحُرَّث (بضم الحاء والراء المشددة المفتوحة ثم الثاء) وكانت محبوبة الشاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة تسكن هذه الضاحية الجميلة ، وهي من بني الحارث ، وكانت تماطله وتخلف وعده ، كما كانت تفعل محبوبته هند وغيرها وغيرها فقال من قصيدة :

بالله يا ظبي بني الحارث
هل من وفى بالعهد كالناكث

وهذه الضاحية تقرب من (سولة) ، وتقول مرضعتي : إن أخاها نامي (بفتح النون بعدها ألف المد ثم الميم المكسورة والياء) ـ أي خالي رحمه الله ـ ساعدها على حمل أطفالها حتى وصلت المضيق ، ومكثت به شهرين تسترضع لأطفالها من سكان الضاحية ، فلم تجد ما يسد الرمق ، ومع ذلك فقد أعانتها بعض نساء المضيق ممن لديهن ولدان رضّع ، فأرضعنني وأرضعن إخوتي ، ولكنني ، للأسف الشديد ، نسيت من قد ذكرتهن لي آنذاك . وسألت أختي (عجوة) المقيمة حاليًا بالزيماء عن أسماء من أرضعننا فقالت أنها لا تتذكر وهي

على صلة بالمضيق وأهله حتى كتابة هذه المذكرات ولها بنت متزوجة بأحد عرب (المضيق) واسمها عمرة (بفتح العين وتسكين الميم وفتح الراء ثم التاء المربوطة) ، زرتها وعرفتها وعرفت ذويها . أقول هذا ليعلم أولادي أقاربهم من الرضاع ليصلوهم كما يأمرنا به ديننا من صلة الرحم والقربى .

رحلة الطفولة الثالثة :

إلى سولة

سولة أقرب ما تكون إلى الزيماء ولنا فيها بنات الأخت من الرضاع أيضًا حتى كتابة هذه المذكرات ولوالدتي المرضع قرابة بها وسولة باللهجة العامية البدوية والحضرية بضم السين بعدها واو المد ثم لام مفتوحة وهاء تأنيث ساكنة . وضبط الكلمة في الفصحى هو كما ذكرت العامة إلا أن الهاء الساكنة هي تاء مربوطة ، لكنها لا تطلق إلا على السؤلة وتحذف الهمزة وتخفف في بعض اللغات العربية وتبقى الواو ، وأما الأقرب إلى الصواب بالنسبة لهذه الأرض الجميلة فهي كلمة السَّولاء (بفتح السين المشددة والواو الساكنة ثم لام الألف وبعدها الهمزة) ، وتطلق على الدلو العظيمة مشتقة من الأسول وهو السحاب المتدلي والبطن المسترخي .

هذا بعد ارتحال بعض من كنَ يساعدنها على الإرضاع من المضيق من ذوي القربى وجفاف الأرض ونضوب الماء وغوره في الأرض وظهور القحط وما إلى ذلك ، فكرت الأم المرضع في أن ترحل بفلذة كبدها (عجوة) والرضيعين إلى قرية (سولة) وكانت سنة ماحلة قاحلة ـ والعياذ بالله ـ فرحلت بولدانها إلى هذه الضاحية الجميلة ، ولم تكن تبعد عن (الزيماء) إلا

بوادين من شمالها وشرقها بحوالي كيلومتر وبعضه، أو ما يعادل الميل.

و(سولة) مشهورة بحدائقها وزروعها وثمارها، وإليها يرحل أحيانًا بعض أهل مكة لقضاء فسحتهم وإجازتهم، وخاصة أيام الأعياد والأمطار. وسكانها وسكان الزيمة كلهم مزارعون ومتصاهرون وأعيادهم وعاداتهم وقراهم (بكسر القاف) وأفراحهم، ورقصهم وغرائزهم متقاربة، ويكرمون الضيف، وتكثر بيوت الشعر حولها أيام الأمطار والخير. أقصد بقراهم ـ ضيافتهم ـ وهي بكسر القاف وفتح الراء بعدها الألف المقصورة، وأهل الطائف وثقيف، ومن حولهم إلى وادي فاطمة وما جاورهما، يطلقون هذه الكلمة على الفرح بأنواعه وأشكاله سواء للزواج أم للختان أم للضيافة وما شابه ذلك، ولكن بعض العرب يخصص لكل نوع اسمًا خاصًا لا يتعداه لغيره، وكل ما يقرى به الضيف فهو قرى والفعل قرى يقري على وزن فدى يفدي، وشاهده من معلقة عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجلنا قراكم
قبيل الصبح مرداة طحونًا

في (سولة) حطت المرضع رحالها واستقر بها المقام ثلاثة أشهر متتالية، ترضع أطفالها وتبحث عن الرزق واللبن من رعاة الأغنام، ومن يمر بهذه الضواحي من العرب الرحل الذين يطلبون الرعي لحلالهم، لكنها لما لم تجد مرضعات يرضعن لها أطفالها الصغار قررت الرجوع إلى بلدها.

رحلة الطفولة الرابعة:

تقول ـ رحمها الله ـ: أنها استخالت وخالت فقالت والله ما هي إلا مخايل وهذا الخال على بلادي، وكانت في قرى لبعض جاراتها في (سولة) وفي

الوقت نفسه ضاق صدرها فقالت : لا أنام بهذه الديرة هذه الليلة .. هذا ما قصته علي عندما صرت أميِّز الرديء من الطيب في الكلام ونحوه ، وكانت كلماتها هذه تمليها علي وتلقني إياها وما أخالها إلا ناطقة بالفصحى ونادرًا ما تنطق باللهجة البدوية العامية .

شدت رحالها ، وأخذت معها يافعًا من القرية يعينها على حمل أطفالها ، ورحلت راجعة إلى الزيماء ، فوصلتها عشاءً ، وكانت الزيماء قد أصابها وابل وقويت عيونها واعشوشبت أرضها ، وأينع ثمرها ، وازدانت هضباتها وسالت أوديتها ، لكنها فوجئت بمأتم حول بيتها فقالت : اللهم اجعله خيرًا ، لقد صدقت فراستي وتحقق تخيلي . فقد صدقها ضيق صدرها في سولة ومغادرتها إلى الزيماء . فقد كانت إحدى شقيقاتها قد انتقلت إلى جوار ربها ، فكظمت حزنها واحتسبت ، واحتبس بكاؤها وتجلدت لئلا تحزن أطفالها وتسيء إليهم ..

وإني لا أستطيع وصف ذلك المأتم لأني لم أكن مميزًا ، وما هذا إلا سماع من فم المرضع ـ رحمها الله ، ورحم المتوفاة ـ وقد حضرت مآتم كثيرة في كبري في شتى أنحاء العالم ، وسأصف ذلك في موضعه إن شاء الله .

المآتم البدوية :

قد حضرت كثيرًا من المآتم البدوية في صغري قبل التمييز لذلك لا أستطيع وصفها .

ثم قالت : إن الله أكرمها (بمعزاة) حلوب أهديت إليها من أخيها المرحوم (نامي) الذي مر ذكره في الحلقة الأولى من رحلة الطفولة ، ثم قالت : إن الفرج

يأتي منفردًا ويأتي جملة ، وقد جاء دفعة واحدة ؛ إذ بلغت أختي فاطمة (عجوة) سن الفصال ففطمتها ، ثم جاء أناس من آل حازم بن مليح فأخذوا أطفالهم وحظيت بمفردي بالثدي المبارك والمعزاة الحلوب.

لغويــات :

(المعزاة) : بكسر الميم وتسكين العين وفتح الزاي وبعدها ألف المد ثم التاء المربوطة وهي أنثى المعز.

وقولها السابق رحمها الله : (أنها استخالت الخ ...) يعني شامت السحاب على بلادها وكأنه ممطر كما يقول عامة البادية حينما يجردون لحمة الكتف وينزعونها من العظم ، يرمون بها إلى عريفهم وكبيرهم على المائدة أو القصعة فيقولون له : « شم واستخل » (بكسر الشين) يعني خمِّن وقدِّر أين يمطر السحاب ؟ فيقول : كذا وكذا وإذا كانوا في صحراء ورأوا سحابًا أو برقًا قالوا الشيء نفسه ، ولكن في حال عظمة الكتف فإنه يخمن ويتصرف فيها ويقدر وكأنه ينظر إلى مرآة تريه المطر نازلًا على جبل كذا وضاحية كذا حتى لو كانت السماء صافية ، كما أن الشايم يخبر بأشياء من باب الألمعية وأما (الخال) فيطلق على معان كثيرة ومسميات عديدة تربو على الثلاثين ، ومنها الخال بمعنى المطر وبمعنى البرق وبمعنى السحاب الخ ... وأما إخال (بكسر الهمزة) فهي بمعنى أظن من (خال) صيغة الماضي بلغة طيء ، وأما بنو أسد فيفتحون الهمزة قياسًا وغيرهم من العرب كذلك ، وكسر الهمزة هو الفصيح وهي لغة طيء ومنه قول كعب بن زهير رضي الله عنه في مدح رسول الله ﷺ من قصيدته الشهيرة (بانت سعاد) :

أرجـو وآمـل أن تـدنـو مـودتهـا
وما إخـال لـدينـا منـك تـنـويـل

وتقول العرب : « استخال فلان السحابة » يعني نظر إليها فخالها ممطرة بمعنى أنه ظنها وقدرها وخمنها وأما المخايل فهي جمع مخيلة بفتح الميم في المفرد والجمع ، فهي السحب الممطرة ومنه قول مروان بن أبي حفصة :

إن أخلف الغيث لم تخلف مخايله

رقـص وغنـاء :

وذكرت المرضع أني قد حظيت بالدلال كثيرًا ، بعدما خلا لي الجو وانفردت وحدي بالرضاعة والحب والحنان ، بعد إبعاد شركائي ..

وذات ليلة كان بالزيماء قرىً ، وحضره أناس كثيرون ، وبعض من أهل المضيق من النسوة اللائي كن قد أرضعنني ، وقد ألبستني أمي المرضع ثوبًا بدويًا قاني اللون ، ومنطقتني بالنسع وبرقعتني بالبخنق المطرز بالودع والخرز ، وصارت ترقصني هي والمرضعة المضيقية ، ثم تبادل النسوة حملي وإدلالي والرقص بي وصرن يغنين ويهزجن الأهازيج الجميلة ، وأنا محمول على الأكتاف تارة ، وعلى النحور تارة ؛ هذه تلاعبني وتلك ترقّصني كما ترقص شهلة جنينها ووليدها ، كأني ولدهم وولدوني فأرضعوني فقبلوني وأحبوني ، وإني لأتخيل ذلك المنظر البهيج وكأني أنشد واستشهد بقول الشاعر الجاهلي :

يـا لـيتـنـي كـنـت صـبـيًـا مـرضـعًـا
تحـمـلـنـي الـذلـفـاء حـولاً أكـتـعـا

إذا بكيت قبلتني أربعا
إذن بكيت الدهر حولاً أجمعا

لغويات :

البُخْنُق (بضم الباء وتسكين الخاء وضم النون ثم القاف) : البرقع الذي يغشى العنق والصدر ، وتتقنع به الجارية ويشد من تحت الحنك وهو على وزن عصفر (بضم العين) : جلباب أو برنس قصير في لغة بني عقيل ، وبرقع عند سائر العرب ؛ إذ كل ما غطى الرأس والعنق والكتفين فهو برقع ، (بضم الباء وتسكين الراء وضم القاف ثم العين) ، قال يزيد بن معاوية :

جاءت بوجه كأن البدر برقعه
نورًا على مائس كالغصن معتدل

وأما الشَهْلَة (على وزن الكهلة ، بفتح الشين ثم الهاء الساكنة واللام المفتوحة ثم التاء المربوطة) فهي العجوز نصف العاقلة ، ومن الشواهد على ذلك قول الشاعر :

باتت تُنَزِّي دَلوها تنزيًا
كما تُنزِّي شهلةٌ صبيًا

والتنزي هو الوثب والقفز ويستعار للرقص ونحوه .

وأما النسع والنسعة (بكسر النون وتسكين السين ثم العين) : فهو سير مضفر يتخذ من الجلد وغيره كالعنان تحزم به البدو الأمتعة والحصر ، وجمع الصيغتين : أنساع ونسوع ؛ قال طرفة :

كأن علوب النسع في دأباتها
موارد من خلقاء في ظهر قردد

و(القرارة) : محلة من محلات مكة ، وضبط الكلمة أنها بفتح القاف والراء بعدها ألف ثم راء مفتوحة وتاء مربوطة ، ومعنى القرار بفتح القاف وكذلك القرارة : كل مطمئن من الأرض والمستقر الثابت منها والقاع المستدير الذي يجتمع فيه ماء المطر ، قال عنترة بن شداد :

جـادت عـليه كـل بـكـر حـرة
فـتـركـن كـل قـرارة كـالـدرهـم

والنقا تقدم ضبطها ، وهي من حارات مكة ، ومعناها إذا كانت بالألف الممدودة : النظافة .. وإذا كانت مقصورة فهي كثيب من الرمل ، وتثنيته نقوان ونقيان ، وصيغة الجمع أنقاء فهو واوي ويائي . والشاهد للمقصور والممدود معًا قولهم : (حللنا في نقى من الأنقا) أي في كثيب من الكثبان . وإذا كانت الصيغة (النقاة) على وزن القناة ، فهي أيضًا الكثيب المجتمع الأبيض الذي لا ينبت شيئًا ، وقال العرب : (هذه نقاة من الرمل) وحارتنا المحبوبة هي بالقصر .

وشاهدها من مقصورة ابن دريد :

يـا ظـبـيـة أشـبـه شـيء بـالمهـا
تـرعى الخـزامى بين أشـجار الـنقـا

والشاهد لمعنى الكلمة اللغوي العام لا لسبب التسمية ، وسألت أحمد القناوي ، وغيره من كبار القناوية ، قبل خمس وثلاثين سنة عن سبب تسمية (الزيماء) بهذه الصيغة فقال : الصيغة الصحيحة هي الزيمة (بكسر الزاي ثم الياء الساكنة والميم المفتوحة والتاء المربوطة) ، وهذا الاسم ـ كما يقول ـ سمعناه من أجدادنا وهو اسم العين حينما كانت قوية لها صوت يسمع من بُعد بعيد ، وكان الفلاحون والمزارعون والتجار يجتمعون على ضفافها يبيعون الموز اللذيذ

ذا النكهة العطرة ، وكان رعاة الإبل يقفون بإبلهم من بعيد ويأتون ببعيرين للشرب ثم يرجعون بهما ويأتون بغيرهما وهكذا إلى أن تنتهي سقاية الجمال .. فقلت له : ولماذا لا يأتون بها دفعة واحدة ؟ فقال لي : إذا وقف أكثر من بعيرين للشرب من العين ينسد الطريق ؛ لأنه أشبه بعنق الزجاجة .

ولما راجعت فقه اللغة وجدت هذا الشرح هو المقصود بالذات ، أما الآن فقد قل هديرها وخريرها ، فالزيمة في الفصحى تطلق على القطعة من الإبل أقلها بعيران وأكثرها خمسة عشر . وجمع الزيمة زيم ؛ كما تطلق الصيغة أيضًا على القطعة من اللحم والمتفرق من اللحم . وجاء الشاهد في خطبة الحجاج وفي شعر امريء القيس :

رقاقها ضرم وجريها خذم
ولحمها زيم والبطن مقبوب

قطع الطريق :

اشتد الكرب والغلاء وقلت الحاجيات من الأسواق في نهاية العام الثالث والثلاثين وفي العام الرابع والثلاثين بعد الثلاثمائة والألف للهجرة ؛ حيث كانت نهضة الشريف حسين بن علي أمير مكة من قبل الأتراك في التاسع من شعبان من عام ١٣٣٤هـ ؛ إذ انقطعت جميع طرق الحجاز ، وحوصرت المدن ، وكثر النهب والسلب من قبل القبائل الجائعة ..

انقطع طريق (الزيمة) من المصطافين نهائيًا إلى نهاية عام ١٣٣٦هـ .

وعام النهضة أي العام الرابع والثلاثون كان يضرب به المثل في الجوع والغلاء وقلة السلع من الأسواق ، وقد أكل الناس الذرة والشعير . وبعض المدن

المحاصرة أكل أهلها لحوم الحمير والخيول فيقولون في ضرب أمثالهم : « ولا عام الذرة » « ولا عام الدخن » « ولا عام النهضة » ما حصل كذا . وقد بيع الأردب من البُرّ أو الأرز بما يعادل ثمن دار من بابها . هكذا قيل لي عندما تميزت الأمور والحقائق والله أعلم .

حال أهل مكة وجدة والمدينة خلال الحرب العالمية الأولى :

كان أهل مكة وجدة والمدينة لا يغادرون مدنهم إلى خارجها حتى عام ١٣٣٦هـ ، فلا اصطياف ولا اعتلاف ولا ائتلاف ، وأهل (الزيمة) لا يبرحون زيمتهم ، ولعله كان لديهم من الذرة والشعير والبلح والموز ما يسد حاجتهم ، ويغنيهم عن الاغتراب . والوليد البائس ، كاتب هذه المذكرات ، ذهب في خبر ، كان لا أحد يسأل عنه من أهله بمكة ، ووالدي (فيصل القناوي) ـ رحمه الله ـ كان شيخًا مسنًا لا يستطيع ركوب الدابة آنذاك حتى يتمكن من السفر إلى مكة ليخبر الوالد بأن ابنه حي يرزق . وأهلنا ـ كما قيل لنا فيما بعد ـ كانوا يظنون أني قد فارقت الحياة ؛ لأنهم حينما أسلموني إلى المراضع لم تكن حالتي الصحية تبشر بخير .

شعيب والدحلان :

وهاهما السيدان الجليلان : (شعيب والدحلان) مريضان عليلان وكلاهما ذو أسرة كبيرة ، وهما مجهدان كأنهما في القيامة ، سارحان هائمان ، كما أخبرني الآباء والأعمام ، فما بالك بمن قبلهم ! ووالدي ـ رحمه الله ـ كان مريضًا بالقلب وهكذا أصبحت نسيًا منسيًا ، وهذه هي الحياة الدنيا التي طبعت

على الأكدار، ونريدها صافية من الأقذار، وسبحان الواحد القهار الكبير الصمد الجبار!

إلى بلاد ثقيف وأطراف الطائف:

ذكرت الأم المرضعة أم الرضعاء ـ ونعمت المرضعة الفاطمة إنها أحست بحمل، فخافت على المراضع، ففطمتني وفصلتني عن الرضع، وانفطمت، وكان عندها معزاة حلوب لها سخال، ولكيلا أحزن إذا رأيتهم يرضعون فطمتها وفصلتها عن الطبيين، فجعلتها فطمًا، وخصصت تلك المعزاة لي، لا يشاركني في لبنها مشارك، بالإضافة إلى ما أقضمه من رطب جني، وفاكهة ناضجة من موز وغير ذلك، مما لا يتلاءم مع معدات الأطفال. وعندما أحست بقرب الوضع صرفتني إلى أختها.. وهي تذكر أن أختها الشقيقة والتي تصغرها بعامين، كان عندها من الماشية أقل من القطيع، وكان لها في أطراف الطائف والشفا وبلاد ثقيف بعض ذوي القربى، وهم من الرعاة. وكانت هذه الخالة مشغوفة بي لعدم إنجابها، وقد ترملت ولم يقدر الله لها الزواج بعد زوجها المرحوم، فطلبت من شقيقتها، أمي الحامل، أن ترحل بي إلى الأطراف والمراعي حيث ستصحب معها أغنامها وسترحل مع البدو الرحل أصحاب الماشية ممن كانوا ناصبين خيامهم حول الزيمة، خاصة وأنهم أصدقاء لها في الحرية وتجارة الماشية، وكنت قد بلغت الرابعة من العمر.

فقالت أمي لخالتي: أخاف أن يأتي أهله وينشدوا[١] عنه، فماذا أقول لهم؟

---

(١) أي يسألوا عنه بلهجة بادية الحجاز المعاصرين.

فقالت لها : ما نشدوا عنه أربع سنوات فهل تظنين أنهم يستطيعون الوصول إليك والدنيا كما تعلمين؟ وهم قد يئسوا من طفلهم ؛ لأنهم سلموه لنا شبه ميت . ولو جاؤوا سبيل الفرض جاءوا يطلبونه فقولي لهم : ذهب مع خالته إلى أطراف الشفا وبلاد ثقيف ، وسيرجع بعد شهرين .

كنت أحب هذه الخالة كثيرًا ، واسمها حسون (بضم الحاء والسين وواو المد والنون) ؛ لأني ما فتحت عيني إلا على المرضعة وشقيقتها هذه ، وأبي فيصل ، وخالي نامي ، ومن كانوا يشاركوني في الرضاعة : (عجوة) و(محسن بن مليح) . ولا أعرف أن لي والدًا أو أمًا أو أهلًا غيرهم .

كنت أهوى الترحل وتسلق الجبال مع أطفال القرية وكانوا يسمون الجبال بالظلعان[1] وكنت أيضًا حاذقًا في صيد الطيور والعصافير بطريقة الحذف ونصب الشبك ، فكنا نجمع ما نصيده من طير ، أنا وزملائي الصغار ، في فناء عشتنا وقاعتنا مساءً ، ثم نشعل النار حولنا ، ونلقي العصافير فيها ، ثم نخرجها قبل أن تحترق فنفركها بأيدينا حتى إذا ما أزيح ريشها ومناقيرها ازدردناها ازدرادًا كما تلتهم القطط صيدها ، وكانت أمنا وأخوالنا وأعمامنا يصطادون الطيور ويشوونها مثلنا ويحتفظون لنا بالحصة ، يضعونها في قفة من الخوص - السعف - ويضعون معها عشاءنا المتيسر سواء أكان من السخينة أم المرق أم اللبن (المذق) ، ويلفون ذلك ويغطونه ثم يعلقونه في معلاق يكون متدليا من سقف الحجرة . وكان المعلاق يتكون من قاعدة دائرية غالبا وتكون بها ثلاثة أو أربعة حبال متساوية الأطوال تربط بالقاعدة في ثلاثة أو أربعة أماكن ، و تجمع رؤوس

---

(١) جمع ظلع ، والظلع كلمة بدوية معاصرة قُلِبت ضادها ظاءً فهي في اللغة العربية ضلع .

أو نهايات هذه الحبال ، لتكون شكلا مخروطيا أو هرما رأسه مجمع الحبال ويربط في سقف الحجرة ، ويوضع الوعاء الذي فيه الطعام في القاعدة وتسنده الحبال من الجوانب ، فيكون الطعام بذلك في مكان لا تصله حيوانات البيت وبخاصة القطط .

وقد كنت إذا وصلت من رحلتي المسائية مع زملائي إلى مقرنا تقول لي المرضعة : « هاك عشاك عانه »[1] (بفتح العين وفتح النون ثم الهاء) تعني : انظر إليه معلقًا فإن كنت جائعًا أنزله لك ، وإن كنت شبعان فنم ، وإذا استيقظت وأحسست بالجوع في أي وقت حتى ولو كان في نصف الليل فكله ، إياك أن تبقى جائعًا إلى الصباح .

وكنت أمتثل أمرها وأنفذ وصيتها ، فكنت أحيانًا أستيقظ في ساعة متأخرة من الليل ، فأضع الأثافي وارتقي عليها لأنال العشاء ، حتى إني ذات مرة وقعت عليها بثقلي وعشائي ، فانتبهتْ مذعورة ، إلا أنها كظمت وسكتت ، وربتت على ظهري وكتفي ، وعوضتني زادًا جديدًا .

بداية قصة رحلة العمر

عندما اقتنعت المرضعة الأم بقول أختها ، رحلنا مع الخالة وبقيت الأم تنتظر مولودها الجديد مع والدي زوجها فيصل ، وكان معنا في الرحلة صبية تبلغ الثامنة وهي بنت أحد الأخوال فغادرنا زيمتنا وأنا ابن أربع سنوات .. وأتذكر

---

(١) عانه أصلها عَايِنْه ، أي انظر إليه (من عاين معاينة) ثم حذفت الياء للتخفيف فصارت عانْه ، وبصعوبة نطق الساكنين حركت النون بالفتح فصارت عَانَه .

كل شيء من غير حاجة إلى أن يقص علي أحد ما جرى لي من حين الوقت الذي أصبحت أعي الأشياء إلى بلوغي هذه السنين الأربع .

من هذه المرحلة أتذكر كل ما مر بي ـ ولله الحمد ـ فأنا الآن أقص ما رأيته بحق وحقيق ولم أنس شيئًا ، ولقد رحلت مع الخالة وبنت الخال وبعض الرعاة من أصحاب الماشية ، وقبل أن نغادر باب الحجرة ضمتني أمي إلى صدرها وذرفت عيناها (وأسبلت دمعًا من خلائقه الكبر) .

كما ضمني والدي القناوي فيصل وكان مريضًا يسعل كثيرًا وما كنت أعرف مرضه .

كلب الحراسة

وكان لخالي كلب حراسة يتبع الغنم في رعيها لحراستها من الذئاب فكان يصطحبه إذا ذهب إلى البر ، وعزمت خالتي على أخذ الكلب ، فهربت منها ورجعت إلى أمي وقلت لها : إني أخاف من الكلب .

ولذلك عدلت عن الرحلة فجاء خالي واسترجع الكلب ، وكان عندي عقدة من الكلاب ؛ لأنها نهشتني ذات مرة وأنا في الثالثة من عمري وكنت أخافها وأهرب منها أكثر مما أخاف من الذئاب والثعالب والضباع ، فلما استرجع الكلب وذهبت مع الخالة قالت : ومن يحرس الأغنام إذا نمنا ؟ فقلت لها : أنا أحرسها وأقتل الذئاب والله يعلم أني غير كفء لذلك ، ولكن لأمر ما .

وكان لعقدة الكلاب قصة وردت في شعر ابن الرومي وحماد عجرد وغيرهما .

استأنفنا رحلتنا رحلة الطفولة وأبدلنا الكلب بعصوين سميكتين ، فأعطتني

الخالة إحدى العصوين وحملت هي الأخرى كما أعطت بنت الخالة عودًا من الخيزران ، ومشينا أيامًا لا أدري عددها بالضبط .

وكنا نرحل ثلثي النهار ، ثم نستريح لنأكل ، ونحتسي القهوة ، ونغفو بعض الوقت ونتعاقب على حراسة الغنم . وكان معنا رهط من الرعاة بأغنامهم ، فمنهم من معه القطيع ، ومنهم من معه القطيعان . كما كنا نجد في طريقنا أعرابًا رحلًا ، وكنا في أوقات الراحة نسرح الأغنام مع الرعاة كأنما هم لنا إخوة وأصدقاء .

وأحيانًا نستريح بالليل ونسرح الأغنام ، فتنفش ومعها الرقباء والليل مقمر ونحن سادرون أو نائمون .

وكان الرعاة ومنهم الخالة وبنت الخال يؤدون الصلاة في أوقاتها وكنت أفعل مثل ما يفعلون مقلدًا لهم ..

وكان الطريق جنة خضراء .. ومياه السماء تنهمر علينا أحيانًا فنأوي إلى سفح جبل أو هضبة تحت أشجار الأثل والشوك (القتاد) .

وأحيانًا نستضاف (بضم النون) ونستضيف . ويهدى لنا أحيانًا ، فكان بعض أصدقاء الخالة ممن تمر بهم في الطريق يهدي الشاة أوالشاتين حتى إذا ما وصلنا إلى مدخل الطائف وصل عدد المعز ضعف ما كان معنا . وقد شبعت الماشية ورويت وأخذت ما كان معنا من الكلأ العشري[1] والأعشاب . وكنا نجد في بعض الروابي الحرمل والإذخر والكادي وزهور الشيع والضرم .

---

(١) العشب الذي يسقيه المطر .

ثم وصلنا إلى ربوة ذات عشب وماء عذب وقرارة مربعة فيها ماء يهدر هديرًا ، فقالت الخالة : نحن هنا الآن على أبواب (لقيم) فمكثنا ساعة من نهار المسيرة حتى دخلنا أرض (لقيم) فعلًا ، ونزلنا في حديقة غناء تزخر بالطيور والقماري والفواكه ، فاستضافنا صاحب ذلك البستان وكرمنا . ثم رحلنا إلى (المليساء) حيث رويت الغنم ، وخبزت لنا الخالة قرص المجرفة وفتته ، وأضافت إليه زبدًا وعسلًا فأكلنا واحتسينا قهوة ، ثم واصلنا السير إلى سفح (رغاف) ، وهنا قرى كثيرة وآبار . ثم ارتحلنا إلى (الصخيرة) ثم إلى ديار بني سالم ، ثم سلكنا وادي النمل ، ثم رحلنا إلى (لية) ، ومكثنا بها يومين تجولنا في حدائقها ، وأكلنا الرمان والأعناب ، ثم سرنا إلى (ثمالة) ومكثنا بها أربعة أيام ، ثم رحلنا إلى (السد السملقي) ومكثنا حوله يومًا كاملا ، ثم ارتحلنا إلى (الحنو) ومكثنا بها أربعة أيام ، ثم إلى (المعدلة) حيث جلسنا أيامًا تقل عن أسبوع ، ثم رحلنا إلى (حمى النمور) فنصبنا بيتًا من الشَعر وصرنا نتجول في هذه الأطراف والنواحي طيلة الأسبوع تقريبًا .

الرحلة الخامسة :

كانت هذه الرحلة إلى قرية (الخبزة) و(أم الخبز) و(مسرة) و(المثناة) ومزارعها وعيونها لننفذ خطتنا التي رسمتها لنا الخالة ، فوصلنا إلى حدود بلدة الطائف ، لكننا لم ندخلها ، بل اكتفينا بالتنقل فيما بين قروة (بفتح القاف وتسكين الراء) والمثناة والسلامة وشبرا والعقيق وسفح جبل السكارى ، ومسرة (بفتح الميم وكسرها مع فتح السين) وكذلك (أم الخبز) بالقرب من (المثناة) . وقد جعلنا من هذه القرية مركزًا لرحلاتنا القصيرة وتنقلاتنا البسيطة . وهذه الخبزة فيها أعراب من ثقيف وبعض المزارع لرجل عتيبي ، فبتنا أول ليلة بالخبزة ، واستقينا

من عينها العذبة آنذاك ، وأروينا (حلالنا) أي غنمنا وارتوينا ، وكانت ليلة هادئة مقارنة ببعض الليالي ، ثم مشينا إلى بستان الدمينية (بضم الدال وفتح الميم وسكون الياء ثم النون المكسورة والياء المشددة والمفتوحة والتاء المربوطة) ؛ حيث شربنا من معين بئرها الشهيرة وأروينا الغنم ثم ملنا إلى سفح جبل السكارى وبئر عجلان التي كانت من أشهر الآبار المعدنية المياه ، وكان معظم المصطافين وبعض الأثرياء من أهل الطائف لا يشربون إلا من بئر عجلان هذه ، .. وكانت لليالي السمر المضيئة قمريًا من العاشر إلى العشرين في أيام الصيف شأن عظيم في عجلان ، وما أدراك ما عجلان ! وكان بئر عجلان إلى عام الستين بعد الثلاثمائة والألف بخيرها ومائها ولكنها فيما بعد أصبحت ذكرى من الذكريات .

ثم واصلنا تنقلاتنا في عقيق الطائف ونجمة (بفتح النون وتسكين الجيم ثم الميم المفتوحة والتاء المربوطة) اسم للبئر العظيمة التي كانت تروي بساتين الشريف عون الرفيق أمير مكة سابقًا وما حولها من القرى . وكانوا يضربون بها المثل ، لكنها ما لبثت أن نضبت وأصبح ماؤها غورًا بعد وفاة (عون) ، وجفت بساتين العقيق وأصبح مكانها عمارات سكنية فقط ، وما تبقى منها صار مشهدًا (مصلى لصلاة العيدين) الذي يسع سكان الطائف بأجمعهم .. وهذه من الذكريات أيضًا ولكل زمان رجاله وذكرياته .

الرحلة السادسة

إلى : جفيجف ووادي محرم

ارتحلنا من خلف الثكنة العسكرية القديمة التي كان العثمانيون قد بنوها ، وتدعى عاميًا بالقشلة عن طريق (معشى) وتوارينا عن الطريق العام حتى وصلنا

وادي جفيجف (بكسر الجيم) وأمضينا بقية الليل ثم رحلنا إلى (وادي محرم) أو (قرن المنازل)، فوصلناها قبل الغروب، ولولا أننا زجرنا الغنم وطاردناها مطاردة لكنا بتنا في الطريق، ومضى اليوم الثاني ولم نصل ولكن السرعة والحركة والهمة تذلل الصعاب وتزيل العقبات.

وفي هذا الوادي آبار كثيرة وزروع كثيرة وبساتين عديدة، ويسكنه بعض القبائل وبيوتهم من اللبن ويصبغونها بصبغ المغرة (بضم الميم وتسكين الغين وفتح الراء ثم التاء المربوطة) وهي مادة صبغية لونها أحمر تستخرج من بعض الجبال كالجبس والجير والرخام. والمغرة قد تكون مشتقة من الغراء.

وسيأتي التوضيح عن هذه الضاحية في تفسير المفردات التالية إن شاء الله.

الكلمات اللغوية والتاريخية فيما سبق:

* **الثقيف**: (بفتح الثاء وكسر القاف ثم ياء المد والفاء)، تطلق الكلمة لغويًا على الخل الحامض الشديد الحموضة، وعلى أب لقبيلة من هوازن فتقول رجل ثقفي وخل ثقفي.. وإذا أدخلت لام التعريف على الكلمة صار معناها: الرجل الحاذق الفطن.. فالمثقف في عرف الأدباء هو الذي على إلمام بأنواع المعارف الحياتية، أما في عرف الشعراء فهو الرمح المقوم، فلاحظ الفرق بين الاثنين! وأخذوا ذلك من الثقاف (بكسر الثاء) وهي الآلة من الخشب تسوى بها الرماح فسميت باسمها؛ قال عمرو بن كلثوم:

إذا عض الثقاف بها اشمأزت
وولتهم عشوزنة زبونًا

عشوزنة إذا انقلبت أرنت

تشق قفا المثقف والجبينا

وثقف من الباب السادس من أبواب الأفعال وهو من جنس ظرف وحسن وصعب (بضم الحرف الثاني) وثقيف القبيلة تسكن الطائف فتقول: (طائف) بلاد ثقيف ..

* **والطائف**: بكسر الهمزة لا بالياء كما تنطق به العامة وتكتبه، فهو من نوع طاف وقال وساد وكلها من الأجوف الثلاثي، فهو طائف وقائل وسائد، ويجمع بالواو والنون إذا كان وصفه لإنسان ومن الشواهد:

وبيت الله أيمن كل شيء

ولكن عن يسار الطائفينا

كلمة الطائف تطلق على الطائف بالبيت، وعلى بلد ثقيف المعروف بهذا الاسم حتى اليوم، وعلى العسس، وعلى الثور. والطائفة: مؤنث الطائف، وتطلق على المفرد إلى الألف ومنه الآية الكريمة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: من الآية٢].

وسيأتي الكلام على الطائف تاريخيًا وجغرافيًا.

* **الأطراف**: جمع طرف (بفتح الطاء والراء ثم الفاء) .. وللكلمة معان كثيرة منها الطرف بمعنى الناحية. وأما أطراف الرجل فهم أبواه وإخوانه وأعمامه وكل قريب محرم .. ومن الشواهد: (وكيف بأطرافي إذا ما شتمتني ـ إلخ ...).

* **المرضعة والمرضع**: هي التي لها ولد ترضعه وهي (بضم الميم وتسكين الراء

وكسر الضاد فيهما) . والذي ترضعه يسمى : (رضيعًا) ، والرضعاء على وزن الكرماء جمع رضيع . وأما المُراضَع (بضم الميم وفتح الراء والضاد بصيغة اسم المفعول) فهو : الولد الذي في بطن أمه وهي ترضع غيره ، ويجمع على مراضيع (بفتح الميم وكسر الضاد وبعدها الياء والعين) ؛ قال الأخطل :

كانوا إذا الريح لفت عشب ذي أضم
غيث المراضيع ما منوا وما منعوا

* **الفصال والفطام** : (بفتح الفاء وكسرها والأفضل الكسر) ، هو : انقطاع الصبي عن رضاعة ثدي أمه لسبب أو لانتهاء مدة الرضاعة ، والشاهد قوله تعالى : ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ﴾ [الأحقاف : من الآية ١٥] وشاهد الفطام قول عمرو بن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبي
تخر له الجبابر ساجدينا

والفُطُم (بضم الفاء والطاء) : جمع فطيم (على وزن فعيل) ؛ قال كعب بن زهير رضي الله عنه :

وإن اطاف ولم يزفر بطائلة
في ظلمة ابن جبير ساور الفطما

وفطيم كسرير ؛ قال الشاعر :

أتينا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم

* **سخال** : (على وزن فعال بكسر السين) : جمع سخلة كنخلة ، وهي ولد

الغنم من الضأن والمعز ساعة النتاج ذكرًا كان أو أنثى ... قال عنترة :

ارجـع لمعـزاك الـتـي فـارقـتـهـا
حـتـى تـربي سـخـلـهـا وجـداهـا

* **الطبيان** : (بضم الطاء ويجوز كسرها وتسكين الباء وفتح الياء بعدها ألف ثم نون) : تثنية طبي (بكسر الطاء وضمها وتسكين الباء وبعدها الياء) والجمع أطباء (على وزن أفعال) وهي حلمات الضرع التي من خف أو ظلف أو حافر أو سبع وفي المثل : (بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين) لمن اشتد به الأمر وتفاقم ..

* **القطيع** : كالفقير .. والقطيع هو الطائفة من البقر والغنم .. ويجمع على أقاطيع وأقطاع وقطعان ، فإذا زجرت القطيع من النعم عن المرعى بسوط مقطوع قلت : « تكاد تطير من حس القطيع » أي السوط ، قال طرفة :

أحـلـت عـليها بـالـقـطـيع فـأجـذمـت
وقـد خـب آل الأمـغـر المتـوقـد

وبنو قطيعة (بصيغة التصغير) هم قبيلة من العرب .

* **الرعاة** : على وزن الطغاة بضم الراء جمع راع على وزن داع .. والراعي كل من ولي أمر قوم ، وفي الحديث : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ورعت الماشية مع الراعي ؛ قال الحجاج : (لست براعي إبل ولا غنم) وجمع الراعي : رعاة ورعاء (بضم الراء في صيغة رعاة وكسرها في صيغة رعاء) وفي القرآن : ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص : من الآية٢٣] ..

* **مشغوفة** : على وزن مجنونة ، والمشغوفة اسم مفعول من شغف . والشغف

أن يستولي أمر ما كل مشاعرو أحاسيس الإنسان وفي القرآن الكريم : ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف : من الآية٣٠] أي أصاب سويداء قلبها ، والشغف هو أقصى الحب وهو الدرجة الرابعة من مراتب العشق ، وبعده الهيام ، وقد يجمع بين الهيام والشغف أحيانًا ، كما في قول أبي نواس :

وقد شغفتك حبًا مستهامًا
فتاة لا تزور ولا تزار
إذا وعدتك صدت ثم قالت
كلام الليل يمحوه النهار

وقال عمر بن أبي ربيعة :

وكم وكم من دلال قد شغفت به
منكم متى يره ذو اللب يفتتن

والحب أوله الهوى ثم العلاقة ثم الكلف ثم العشق ثم الشغف ، وهو في لغة الحب : إحراق الحب القلب مع لذة يجدها العاشق ، ثم الجوى والتيم والتبل والهيوم أو الهيام .

* **أرملت وترملت ورملت** : أي صارت أرملة وهي التي مات زوجها ، والأرمل : الرجل الذي لا امرأة له « والأرملة تجمع على أرامل » قال الحطيئة يخاطب عمر رضي الله عنه :

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر ؟

* **ما نشدوا** : بمعنى ما طلبوا ولا سألوا وفي الأثر « أن أم قيس بن ذريح أبغضت لبنى فناشدته في طلاقها » وقولهم : « نشدتك الله » أي سألتك به وحلفتك ..

* **الشفا** : (بفتح الشين ثم الفاء) هو حرف كل شيء وحدّه ومنه الآية الكريمة : ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة : من الآية١٠٩] . وهذا الشفا هو حد الطائف ، وسيأتي الكلام عنه تاريخيًا وجغرافيًا لاحقا إن شاء الله .

* **الترحُل** : مصدر (ترحل) بمعنى ارتحل ، أي سافر ورحل ، وجاء في الشواهد :

أزف الترحل غير أن ركابنا
لما تزل برحالنا وكأن قد

* **الظلعان** : بالظاء في لهجة البادية ؛ لأنها تقلب الضاد ظاء ، وفي الفصحى (الضلع) بكسر الضاد وفتح اللام ثم العين . ويطلق على الجبل المنفرد والجبل الذليل المستدق ومنهم من يقول : « نزلنا بذلك الضلع » (بفتح الضاد وكسر اللام) والصيغة التي قبلها أصح وذلك للحديث الشريف « خلقت المرأة من ضلع أعوج » لأن الضلع يطلق أيضًا على الاعوجاج وعلى العود المعوج .

* **الخذف** : بفتح الخاء وتسكين الذال ثم الفاء وهو مصدر حذف بالحصاة بمعنى رمى بها وفي الآثار (نهى رسول الله ﷺ عن الخذف) وهذا في باب الصيد .

* **الكلب** : حيوان معروف وجاء ذكره في القرآن والحديث والشعر ، وبالكلب أكثر من عشرين مرضًا كلها تعدي الإنسان ، ومن أخطرها داء الكلَب بفتح اللام على وزن (تعب) ويقال للمصاب به : كَلِب على وزن كتف ، وهو المصاب بالكلَب (بفتح اللام) . والكلَب مرض يأتي من عقر الكلاب وهو مرض خطير قل من يشفى منه والحمد لله الذي عافانا .

* **الشباك** : بكسر الشين جمع شبكة مثل سمكة وهي شبكة الصياد وفخه .

وأما الشُبْكة (بالضم وتسكين الباء) فهي القرابة ـ قالت العرب في حكمها ومجالسها : « بينهما شبهة سبب لا شُبْكة نسب » وشَبَكة الصياد تجمع على شبكات وعلى شباك وقد قيل : « غير أن الشباك مختلفات » .

* **القفة** : (بضم القاف وفتح الفاء المشددة ثم التاء المربوطة) ، هي : وعاء كهيئة القرعة يتخذ من الخوص ؛ قالت العرب : « كبر وصار قفة » .

* **السخينة ، بالسين المفتوحة** : نوع من العصيدة وطعام لقريش تعبر به ، وجاءت هذه الكلمة في شعر حسان بن ثابت بكثرة حينما كان يهجو قريشًا حتى سماها ـ سخينة ـ ومطلع قصيدة حسان ﷺ (زعمت سخينة أن ستغلب ربها) وقريش لا تأكل هذا النوع من هذا النوع من الطعام إلا في حالة الغلاء والقحط والحرب .

وكلمة (سخين) بفتح السين تأتي وصفًا للخمر إذا كانت ملتهبة مغلغلة حارة تلذع لسان شاربها .. ومن ذلك :

مشعشعة كأن الحص فيها
إذا ما الماء خالطها سخينًا

* **اللبن المذق** : هو الممتزج بالماء وفعله مذق من باب نصر ، وهذا اللبن يأتي في الدرجة الثالثة بعد المخيض ، وتطلق عليه العرب مذقة أحيانًا ، وجاء في أمثالها : (هذا ومذقه خير) اقرأ القصة كاملة في المثل (الصيف ضيعت اللبن) في كتاب (مدائن صالح) وكل شيء غير خالص ، وعلى الأخص الحب ، تقول فيه العرب : « مذقه مذاقًا » (بفتح الميم في الفعل وكسرها في المصدر) ؛ قال رؤبة بن العجاج في أرجوزته :

مـا وجـز مـعـروفـك بـالـرمـاق
ولا مــؤاخـــاتــك بــالمــذاق

* **الأثافي** : بفتح الهمزة والثاء وكسر الفاء وهي جمع أثفية ، وهي الحجارة التي توضع عليها القدر ، قال زهير :

أثافي سفعًا في معرس مرجل
ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم

* **الرهط** : بفتح الراء والهاء الساكنة والطاء ، هو : ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة .. قال تعالى : ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل : من الآية٤٨] وهو من أسماء الجمع مثل : قوم وقد يجمع على أرهاط . جاء في الشعر :

ثـلاثـة رهـط قـاتـلان وسـالـب
سـواء عـلـيـنـا قـاتـلاه وسـالـبـه

الرحلة السابعة إلى الهـدة :

وبعد المقام ثلاثة أيام بقرن أو وادي مَحْرَم ، والتجوال في ربوعها وحدائقها وهضابها وجبالها ، سافرنا إلى جبل الحبالى (بفتح الحاء والباء والألف واللام المفتوحة مع الألف المقصورة) ؛ حيث تسلقنا نَيقةً ووجدنا أعلامًا معلقة على كهفه الصغير ، ورأينا المجامر وشيخًا بدويًا على رأسه عقال متحزمًا بالنسع ، وفي يده الكبريت وأمامه فحم وشمع .. ثم رأينا نسوة من البادية في سفح هذا الجبل الشامخ كأنهن من أقارب البدوي المذكور يقمن له بالدعاية تلقاء جعل يخصه لهن .

حديث خرافة :

فسألت خالتي عن هذه الأعلام المصبوغة باللون الأحمر المعلقة على باب الكهف والمفروشة على حافتي الغار المنحوت في هذا الجبل الشامخ الجاثم في أحد أودية النقب الأحمر ، وهو من سلسلة جباله إلا أنه أعلاها قمة ، ويوجد بسفحه أيضًا أعشاب جميلة صالحة لرعي الماشية ؛ لذلك يقصده الرعاة قبل (الهدة) أحيانًا فقالت الخالة : إن المرأة النزور ، التي لا تحمل ، تأتي إلى هذا الجبل ، حيث تقدم ذبيحة للمارد صاحب هذا الكهف ، وهذا الشيخ هو حامي الغار من الفساد ـ على زعمهم ـ فقلت لها : وما هو الفساد ؟ فقالت : هذا شيء لا تعقله أنت الآن ، إنما إذا صرت رجلًا تفقه معنى الفساد بالنسبة لهذ المكان بالذات ، والآن سوف ترى شيئًا ما ؛ لأننا سوف نمكث هنا يومًا أو أكثر ، والغنم ترعى وترتوي وتستريح ، ونأكل نحن أيضًا ونرتوي فقلت لها : سأرقى إلى الكهف لأرى هذه الأعلام ، فقالت : يمنعك الشيخ الهرم ويضربك فازددت شوقًا للتطلع والتشويق ، وهممت ولكنها منعتني وزجرتني .

بعنا تيسًا بثماني قطع إستنبولية

وبينما أنا في حوار مع الخالة ، إذ جاءت امرأة بدوية وصعدت الجبل حيث الشيخ البدوي مُحْتَبٍ في فناء الكهف ، فكلمته وكلمها ، ثم هبطت وجاءت إلى الخالة واشترت منها تيسًا بثماني قطع عثمانية ، والقطعة عبارة عن قرشين من النيكل ، وكان التعامل آنذاك بالعملة العثمانية التركية قبل أن يسك الشريف الحسين نقوده ، فكان السعر لهذا التيس الكبير أقل من المجيدي ، أي أقل من الريال .

صعدت جبل الحبالى

قالت لي الخالة : يمكنك الآن أن تتسلق الجبل لتسوق التيس مع الفتاة ؛ لأنها ستسلمه للشيخ البدوي ، وسوف ترى ما يصنع ، وفعلا طلبت مني الفتاة . كما طلبت من بنت خالي ، أن نعينها على رفع التيس وتصعيده إلى الغار في نيق الجبل الشامخ ؛ إذ المعاونة لابد منها . وما أن طلعنا الغار ووصلنا إلى الكهف حتى جر الشيخ البدوي التيس واجتذبه اجتذابًا وبسط قطعة من البفتة[١] وذبح عليها ذلك التيس الكبير ثم أخذ تلك البفتة الملطخة بالدم وربطها على عود ، وغرس ذلك العود داخل الغار بحيث يرى كالعلم الأحمر ، ثم سلخ التيس وقطع لحمه إربًا إربًا ، ثم زيمه وقال للفتاة : خذي الرأس والجلد وأربع زيمات واتركي لي الباقي .. ثم مشى بالفتاة إلى نيق آخر من الجبل وأسرّ إليها ببعض القول ، ثم طردنا وزجرنا فهربنا ونزلنا مسرعين إلى خالتنا وحلالنا ، وأخبرناها لتطلعنا على الحقيقة والقصة . لكنها امتنعت ورفضت الإدلاء بأي معلومات وقالت : أنتم صغار لا تفقهون هذه الأمور .

بعد ثلاثين عامًا

اكتشفت ذلك السر ، فتلك الواقعة من الأشياء التي لا تنسى . ومن طبع الإنسان حب التطلع وخاصة لما هو عجيب ويدعو للاستغراب ، وما زالت هذه القصة عالقة في ذهني وأتذكرها كلما رأيت عجبًا عجابًا في رحلاتي وتنقلاتي ..

---

(١) البفتة : لعلها ما يعرف في العربية بالقباطي ، وصيغة البفتة حجازية عامية مستعملة حتى اليوم .

لكن مرت بي ظروف وحادثات وأهوال أنستني تلك الحادثة ، ولم أتذكرها إلا بالمصادفة ، وصدق من قال : « رب مصادفة خير من ميعاد » . ذلك أني لما ضاقت بي الأمور وأغلقت البحار وحالت أهوال الحرب العظمى الثانية بيني وبين أسفاري ورحلاتي اتخذت من بلدة الطائف مستقرًا وبنيت بها دارًا وفتحت دكانًا للتجارة ، وكان لي قريب يسكن في (الهَدَّة) يبيع ويشتري ويتعامل مع البدو ؛ لأن ابنه متزوج من قبيلة تقرب من هذه الأحياء ، فكان هذا الرجل ينزل إلى الطائف كل يوم جمعة يقضي أموره من عندنا ومن الأسواق ، وأحيانًا يمكث عندنا يومًا أو يومين .. فخطرت على ذهني قصة هذا الجبل فسردتها عليه فقال : إن هذا الجبل يبعد عن سكننا مسافة نصف يوم ركوبًا على الحمير وهو صعب المسالك ؛ إذ لا يمكن الوصول إليه إلا بعد تسلق جبال وهضاب واجتياز أرض وعرة ، ولا أستطيع الذهاب معك لكني سأقوم بهذه المهمة إذا ما قدر لك السفر إلى (الهَدَّة) على شرط أن تنزل عندنا .

اتفقت معه على الرحيل في الأسبوع القادم ، على أن يصحب معه حمارًا وسائقًا من جيرانه ، فلبى الطلب ، وسافرت معه في الميعاد المحدد ، وحللت ضيفًا عليه ، وبعد المبيت عنده وتناول طعام الإفطار نادى بعض جيرانه الأشداء بالإضافة إلى ابنه عبد الله أكبر أولاده .. ثم رحلنا واستغرقت رحلتنا ثلث يوم حيث وصلنا قبيل الزوال لكن بمشقة بالغة ، ثم تسلقنا الجبل ووصلنا إلى باب الغار ورأينا الأعلام المخضبة بالدماء على حالها إلا أنها أقل من ذلك العهد ، والشيخ البدوي لا وجود له ، وكذلك المجامر غير موجودة ، فرجعنا إلى مقرنا قبل مغيب الشمس . وذبح السيد خروفًا وصنع قرى ، ودعا جيرانه وبعض أصدقائه فجاءوا عشاء يحملون هداياهم وطبولهم . فكانت ليلة حافلة

بالمناظر، والسماع، وكرم الضيافة، وما إلى ذلك مما لا يتسع لشرحه المجال، ولكن في مناسبات أخرى إن شاء الله.

في الصباح قصّ عليّ السيد المضيف قصة الجبل، وذلك أن المرأة النزور أو التي لا تحمل تأتي إلى هذه المغارة من الجبل فتنذر النذر وتذبح للمارد الذي يسكن هذا الجبل كما يمليه عليها خادم الغار البدوي الهرم الذي مر ذكره؛ لذلك سمي هذا الجبل بجبل (الحبالى) وأهل هذه النواحي كلهم عرب بدائيون لا يعرفون غسل الجنابة، ولا الوضوء ولا الصلاة، والدعوة الإسلامية والعقيدة الخالصة من شوائب الشرك لم تنفذ إلى قلوب هؤلاء، كما أن ختانهم لا يزال على عادات الجاهلية، فقلت له: وأين هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منهم؟ فقال لنا: لقد بلغناهم وجاءوا ذات مرة ومعهم شرطي ومكثوا ساعة من نهار، فألقوا بالأعلام وحرقوها وكسروا المجامر وطردوا النسوة اللائي كن قاصدات للغار، لكن الهيئة رجعت ولن ترجع إلا بعد الإلحاح؛ لأن الوصول إلى هذه الناحية عسير جدًا، وامتثالا لأوامر الشريعة ذهبت بعد رجوعي إلى الطائف فقصدت إدارة هيئة الأمر بالمعروف وبلغتها ما رأيته وما قيل لي عن(جبل الحبالى)فقال أحد الأعضاء: إننا نذهب في كل شهر مرة أو مرتين على ظهور الدواب؛ لأن العربات النفطية لا تصل مطلقًا إلى هذه النواحي. وهذا الجبل خطير ترتاده النمور والذئاب والضباع وليس به ماء ولا مأوى، إلا كما رأيته: فقلت له: ولماذا ترتاده الوحوش الكاسرة؟ فقال: من رائحة الدم؛ لأن ضعفاء الإيمان من الجهال السذج لا زالوا يذبحون لغير الله كما شاهدت بعينك في أيام طفولتك في أثناء الحكم الهاشمي. أما الآن فقد زال المنكر بفضل سهر الدولة الإسلامية، كان ذلك في عام ١٣٦٠هـ والسيد المضيف

كان المرحوم السيد سعيد فقيه، خال أخوال زوجتي. وكان يسكن المعابدة وقد بنى بها دارًا، وكان أحد خدام المسجد الحرام من بني عثمان وأحد نظار الرباطات بباب العمرة مع خاله المرحوم الشيخ عباس جي، وقد توفي السيد سعيد فقيه منذ ستة عشر عامًا ـ رحمه الله ـ وخلف من الأولاد عبد الله، وقد رحلت معه في أطراف الطائف ووقفت على الكثير بسبب اختلاطه ببادية الطائف، فكان أحد مراجعي أيام الشباب حينما تتوق نفسي إلى تطبيق مشاهداتي ومراجعة ذكرياتي. والمرجع الثاني هو الشيخ بكر كمال قاضي الطائف سابقًا فهو عمدة العمد بالنسبة لي؛ لأنه كان قاضيًا وبحكم وظيفته يحتاج إلى جولات قضائية في أطراف ثقيف بحكم الضرورة، كما أنه من ذوي الأراضي والبساتين بلية وثمالة، وكان له ولد يرضع هناك اسمه عبد الله كان يزوره أسبوعيًا وكنت رفيقه في رحلاته؛ إذ يذكرني بأيام المراضع ويالها من أيام ومن ذكريات، لقد ذهب الشباب وليس له من عودة.

الرحلة الثامنة: إلى الشفا

رحلنا من النقب الحمر، وانحرفنا عن (كرا)، وقضينا أيامًا وليالي نمشي بأغنامنا متنقلين ما بين القرى والأخبية والمراعي حتى وصلنا جبال الشفا الزمردية؛ حيث مكثنا حولها أربعة أيام نتجول في بساتين الشفا ونستضاف ونقطف من تلك الثمرات اليانعة والبرشومي(١) الذي يضرب بحلاوته المثل، ونجني من عسل النحل، ونشرب من السمن الشفوي الأصفر المعطر بعشوب

---

(١) البرشومي في عرف أهل الحجاز هو الفاكهة المعروفة بالتين الشوكي.

الضميري كما متعنا أبصارنا بالزيتون البري وأشجاره الكثيرة التي أخذت مساحات كبيرة من دون جدوى .. ويا ليت القائمين بوزارة الزراعة يلتفتون لهذه الأشجار التفاتة مباركة ليغيروا سماد الأرض أو يلقحوا الأشجار ويوبروها توبيرًا علميًا صحيحًا، ليستفيد المواطنون من هذه الأرض وهذه الأشجار استفادة تامة بحول الله في المستقبل القريب .

الفحم الثقيل وماء العرعر والأعشاب الطبيعة

كثير من (المتسببين)[1] وتجار الفحم الجيد ترى لهم قطعًا من الأرض في بعض المرتفعات ملتهبة بالنيران، يوقدون النار في السمرات وبعض أنواع من العرعر والطلح، فيستخرجون من وقود هذه الأشجار فحمًا جيدًا ممتازًا يباع بثمن غالٍ بالنسبة للطائف، بحيث لا يزيد سعر القنطار على ثلاثة دنانير، أي بما يعادل ثلاثين ريالًا سعوديًا تقريبًا، ويسمون هذا النوع من الفحم بالسمر، كما توجد شجيرات الطرف .

وماء العرعر تستمتع وتتلذذ بشربك إياه؛ إذ يمر تحت جذوره فيكسبه شذًى عطريًا وحلاوة طبيعية، ولهذا الماء النقي شهوة كبيرة .

وأما الأعشاب في الأطراف والضواحي فمكتظة وخاصة الأعشاب الجيدة الصالحة لغذاء الماشية وغيرها وذلك من (الشبرق إلى العشرق) . كما توجد الأعشاب الطبية التي يستخرج منها الدواء، ويا حبذا لو كان في بلادنا مصانع أدوية لاستفدنا من هذه الأعشاب الكثيرة، فهناك البابونج، والضرم، وشيع

---

(١) ويطلق عليهم لفظة (السبابة) في مجال التجارة .

البقر، والحرمل، والإذخر، والبيلسان، والحنظل، والعشر (بضم العين وفتح الشين ثم الراء) ويستحوذ هذا النبت على مساحة واد بأسره يقال له وادي العشر، وهو الموصل ما بين منى وطريق الطائف، خلاف العشر المتناثر نباته وعشبه في مرتفعات الشفا، والحوذان، والقراص، والقريص. هذه العقاقير الطبية والأزهار العطرية كالورد والياسمين والنرجس لازالت تنشر شذاها إلى يومنا هذا.

الرحلة التاسعة: العودة إلى الزيمة

بعد التجوال بأرض الشفا، وديار بني سفيان، والتعرف بالقبائل التي تسكن أطراف الشفا، وديار بني سفيان، والتعرف بالقبائل التي تسكن أطراف الشفا وضواحيه وإشباع الماشية من الكلأ والأبّ[1] وزيارة صديقات الخالة المرضع المقيمات في هذه الأنحاء من ساكنات البيوت الشَعرية... بعد ذلك قررنا الرجوع إلى زيمتنا لطول غيابنا الذي استغرق أربعة أشهر، فرجعنا، وفي تلك السفرة بدلنا طريقنا؛ إذ جعلناه طريق الوهيط والوهط، كما أخبرتنا الخالة، وأقمنا بالعقيق أيامًا، وببساتين (شبرة) ثم سلكنا بعد ذلك الطريق العادي، حتى وصلنا الزيمة، حيث مكثنا بوج، ونصبنا شملة بهذا الوادي الفسيح تظللنا أيامًا حتى انقضت أيام الأمطار الغزيرة، ثم واصلنا السير ليالي وأيامًا على أقدامنا، نصنع طعامنا ونشرب من ألبان أغنامنا، حتى وصلنا إلى مقرنا في الزيمة الحبيبة، الوطن الثاني الذي قضيت فيه مراحل عمرية هامة من وليد،

---

(١) الأبّ بتشديد الباء. وفي القرآن في سورة عبس «وفاكهةً وأبًّا».

وصديغ ، ورضيع ، وفطيم ، وجحوش ، ودارج ، وخماسي .. حتى بلغت في ذلك الوقت مرحلة التثغير وتجاوز السادسة .

تصحيح الكلمات التاريخية واللغوية

هي الكلمات التي مر ذكرها ولم يشرح معناها فيما سبق ، أو التي غاب عنها - سهوًا - شرحُها ، سيطلع القارئ على المعاني والألفاظ اللغوية والجغرافية ، ويتمكن من الفهم الصحيح لما قرأه في هذه الرحلة ، وليسامحنا فيما غاب عنا ؛ إذ الكمال لله ، وجل من لا يخطئ .

وإن شرح بعض الكلمات يستغرق صفحات كثيرة ، فلذلك رأينا أن نقسم هذا الشرح إلى أقسام عند كل مناسبة ، فمن ذلك كلمة « الطائف » قد تقدم الكلام عليها لغويًا ولم نوفها حقها تاريخيًا وخاصة بعد هدم السور القديم الذي بناه الشريف في عام ١٢١٤هـ وقد كانت حارات الطائف محصورة في (السليمانية) و(فوق) و(أسفل) . أما اليوم فقد أضيفت محلات وحارات . وكانت أرض السلامة حدائق من دون عمارات ، وكذلك (قروة) ما عدا بعض البيوت الواقعة بداخل البساتين ويضاف الآن إلى المحلات الثلاث : محلة (اليمانية) وكانت فيما مضى خلاء ترتادها الذئاب وتصطاد الأغنام .. واليوم محلة اليمانية بلدة ثانية بها أحد عشر شارعًا وأسواق شهيرة ومقاه ومتنزهات ، وحد جودها خليج أو خريق حوايا (بفتح الحاء والواو) ، وبهذه الحوايا بستان عظيم .. فيه من كل الثمرات وتسقى من بئرها المعدنية الشهيرة ، وبها بئر أخرى وديوان كبير كنا نقيل فيه مع الرفاق ، وحينما تغادر حوايا يقابلك « شهار » (بكسر الشين) وما أدراك ما شهار ، شهار مشهورة بالكروم ،

والرياحين ، والياسمين ، والماء العذب ، والخضروات ، الريانة ، والبقول وكانت في حوزة سماحة المرحوم الشيخ عبد الله سراج وذويه وهذه الأسرة من الأسر العريقة بالطائف ومازالت . ثم يقابل هذا البستان الكبير « مقهى شهار » وهو المفضل لدى المصطافين والرياضيين ثم صاروا يسمونه : (كازينو وملعب شهار) . و(كازينو) صيغة دخيلة علينا حديثًا . ثم على خط شهار وبعده بميل واحد يقابلك السداد (بكسر السين) وهو بساتين كثيرة ، ومياه غزيرة ، وجو لطيف ، وهواء نقي شفيف ، بَنتْ وزارة الصحة مستشفى بهذه البقعة الجميلة ، وجعلته للأمراض الصدرية أو المعدية ويسمونه (مستشفى السداد)ويا حبذا لو ينقل إلى جهات أبعد ليستفيد المصطافون والسياح من أرض السداد هواء وماء وصحة . ثم بعد السداد تقابلك صخيرات الردف (بضم الراء والدال المشددة المفتوحة ثم الفاء) ، وهذه صخيرات تقع في وادٍ فسيح عظيم ، وتكون هذه المجموعة الصخرية جبيلات في وسطه ، وخاصة إذا كان بعضها منحوتًا وفيه كهوف صالحة للمقيل والشواء ، وصخورها هشة بعض الشيء وبعضها صلب شديد . وتسع الجبيلات والصخيرات ألوف السياح فيما لو أرادوا المقيل ، وكل فريق يأتي إليها ينقش ويحفر اسمه على هذه الصخيرات العجيبة ، وبعض الفرقاء يحضر معه خيامًا إذا أرادوا المبيت ويحضرون معهم الذبائح والأواني ، وكل فريق بفريقه يأمر وينهى ويحضر الطهاة ويأخذ الدراهم من فريقه ، ويتغاضى عن ذلك مع متوسطي الدخل بحيث لا يأخذ منهم « فرقة » ، ولا يشعر بذلك أحد ، لئلا يمس شعور ذلك البائس الفقير .

بعد الردف بميل واحد يقع (غدير النبات) وما يجتمع فيه من مياه السيول والأمطار ، ويقع غدير النبات في وادٍ مرعب مخيف تكتنفه الجبال السود الجون

من كل جوانبه ، وماؤه لا ينقطع في معظم أيام السنة ، وهو صالح للإقامة ، حتى إننا عزمنا ذات ليلة مع بعض الرفاق البيات به وذبحنا خروفنا وقطعناه ووضعناه في القدر وأوقدنا النار ، وشرعنا في تحضير المائدة وإذا باللوادغ واللواذع واللواسع تنبت كما ينبت الزرع ، وقد قتلنا ستًا منها ، وهذا اللادغ الذي قتلناه لدغته قاتلة ، أضف إلى ذلك ما كنا نسمعه من الذئاب والضباع ، والزجل ، وحرارة منبثقة من فوهات الجبال كأنها فحيح الأفاعي ، فما كان منا إلا حزم الأمتعة ورفع القدر من فوق الأثافي ، وهو يغلي ، وذهبنا لقضاء ليلتنا بصخيرات الردف .

الحارة الخامسة من حارات الطائف : « حارة الشرقية » شوارعها مقاربة لشوارع اليمانية في العدد ، ويسكنها السواد الأعظم من البخارية من مهاجري أقطار ما وراء النهر التي كان يحتلها السوفييت الشيوعيون منذ أمد مديد ، لذلك كانوا يفرون منها بدينهم إلى رحاب البلاد المقدسة وشريعتها السمحة ومليكها العادل « الفيصل » الكبير .

وبالشرقية مصانع الأخشاب والنورة والطوب والرخام وبها بستان كبير يقال له « بستان القاضي » نسبة إلى صاحبه المرحوم الشيخ عبد الله قاضي أحد وجهاء الطائف وأسرته من أعرق الأسر بالطائف .

والأسر العريقة بالطائف كثيرة ، أذكر منها : (بيت كمال) و(بيت سراج) و(بيت النجار) وعميدهم المرحوم الشيخ أحمد النجار العالم الجليل المتوفى عام ١٣٤٣هـ ، و (عائلة عبد الغني) وشهرتهم « القُرع » (بضم القاف جمع أقرع) ، وهذه من أسماء الأضداد ؛ إذ لا تجد فردًا من بين هذه الأسرة الكبيرة من يتصف بالقرع وهو المرض المعروف (بفتح القاف) ، ثم (عائلة بكّر) بفتح

الباء والكاف المشددة المفتوحة ، ثم (عائلة الزائدي) و(عائلة الزرعة) بضم الزاي والراء الساكنة والعين المفتوحة والتاء المربوطة ، وجدهم الأكبر « محمد الزرعة » له كتاب (تاريخ الطائف) ألفه قبل قرنين من كتابة هذه المذكرات ، ثم (عائلة الحلواني) و(عائلة بيت العرب) و(عائلة أبي الهطيل) وعميدهم كان من المعمرين وكان شيخًا لدلالي الفاكهة بعد الحلواني . ثم (عائلة المارديني) و(عائلة عاشور) و(عائلة أبي ظهر) بالمثناة و(عائلة عبد الحكيم) بالمثناة أيضًا وعميدها الموسيقار « طارق عبد الحكيم » و(عائلة ابن بكر) و(عائلة القاري) على صيغة اسم الفاعل و(عائلة الخادم) و(عائلة عبد الحفيظ اللبان) و(عائلة الصيرفي) و(عائلة المنصوري) وهذه العائلة تسكن الطائف ولا صلة لها بعائلة مكة التي سيأتي ذكرها ـ إن شاء الله ـ في رحلات أم القرى ، ثم (عائلة الشريف هزاع) ، (عائلة ابن سعد) بفتح السين وتسكين العين ، ثم (عائلة المسواط) بكسر الميم وتسكين السين وفتح الواوعلى وزن ملقاط ، ثم (عائلة حمدان) ولهم بيت كبير ببرحة القزاز كان مقرًا لوزارة المواصلات ، وهذه العائلة على وشك الانقراض ثم (عائلة الفنطاس) بكسر الفاء ثم (بافقيه) وعميدها هاشم بافقيه ، ثم (أبو ناصف) وكان زعيمها المرحوم محمد علي أبو ناصف ، ثم عائلة (العاصي) وقد انقرضت هذه العائلة ولم يبق منها سوى بنت واحدة هي بنت المرحوم حسن العاصي كان بائع حبوب في السوق ، ووجهه كالأسد ـ رحمه الله ـ مات منذ عشرين عامًا وما ندري أيرجع نسبه إلى ذرية ابن العاص أم لا ؟ نرجو ممن يهمهم أمر التاريخ سؤال البنت لتبرز لهم ورقة النسب ، وهذا توثيق يعود بالفائدة إلى المصلحة العامة . ثم (عائلة بيت الطُبيلة) بضم الطاء ، ولهم أوقاف كثيرة وبساتين بالطائف بأرض السلامة ، وقد سكنّا

بها وأكلنا من ثمار هذه البساتين قبل ثلاثين عامًا من تاريخ هذه المرحلة ، وهذه العائلة أيضا قد انقرضت نهائيًا ، ولم يبق منها سوى بنت واحدة تدعى رقية ، وتسكن في مصر وليس لها ذرية ، ووالدتها من بيت نصيف بجدة ، وتقيم معها بمصر . ولبيت الطبيلة وقف مازالت أطلاله جاثمة على أركان البساتين ، في طريقه إلى العفاء ، مع أنه قاوم الزمن وظل أربعة قرون . وقد اطلعت على مستنداته الشرعية فسبحان من له الدوام . ثم (عائلة الفَتَّة) بفتح الفاء والتاء المشددة المفتوحة والتاء المربوطة ، ثم (عائلة حبيب) وكنيتهم (أبو عوف) وهؤلاء جميعًا من أعرق الأسر بالطائف . ثم (بيت البُرعي) وعميد هذه الأسرة المرحوم الشيخ عبد الحي البرعي ناظر ومؤذن المسجد الهادي في التقديم أي في الثلاثينات ، وكان من الصالحين ولم يرزق إلا ببنت واحدة متزوجة في بيت القاضي من أحد إخوة المرحوم عبد الله قاضي ، و(عائلة بيت البرعي) قد انقرضت . ثم (عائلة بيت عيد) وهذه منتشرة في الطائف وقراها ولها عصبية وقرابة في أم القرى أيضًا ، ثم (عائلة القزاز) وعميد هذه الأسرة هو الشيخ أحمد القزاز ولا يزال موجودًا بالطائف مع إخوته وأسرته ، ويكونون عددًا كبيرًا من الذرية والأحفاد ما بين الطائف ومكة ، وشقيقهم هو الشيخ صالح القزاز الأمين العام الأسبق لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة . ثم (عائلة ابن ظفران) وكان عميدهم المرحوم الشيخ عبد الرحمن بن ظفران ، كان رحالة ، وقد اجتمعت به في قاروت والشربون وباندونغ والبالي بإندونيسيا وسومطرة قبل أربعين عامًا . ولا تزال هذه العائلة منتشرة بالطائف ، وقد خلّف ابنًا ناجحًا يدعى عليًا هو المحامي الوحيد بالطائف ، ثم (عائلة النقشبندي) وهم من أصل غير عربي ولهم بستان كبير وأوقاف بالطائف والناظرة عليه هي صالحة

نقشبندية ثم (بيت الراضي) وعميدهم (خليل) له أراض وبساتين في تربة وله أسرة في الطائف لا تزال . ثم (بيت الدبة) بضم الدال والباء المشددة المفتوحة والتاء المربوطة .. ولهذه الأسرة بستان كبير بالسلامة بجوار بستان أبي شدة ، وقد استأجرت هذا البستان بفاكهته عامين كاملين مع المنزلين الواقعين داخل الحديقة وذلك في الحرب العالمية الثانية . وكان بالبستان بئر لكنها نضبت فيما بعد فكان يسقى من ساقية بستان المرحوم عبد المحسن أبو شدة ، وكانت فاكهة هذا البستان الصغير ، التين الشوكي والحماط والعنب والخوخ والتوت والعناب . وقد انقرضت هذه الأسرة الآن . وهناك أسرة (ابن عثمان) وهم أصهار بيت القاضي ، ثم (بيت اللامي) وهي أسرة كبيرة منتشرة في الطائف وقرن والهدة ، ولها في مكة عصبة ، وهم من قرابتنا ؛ لأن المرحوم الشيخ محمد سعيد أبا الخير مرداد كان متزوجًا من هذه الأسرة وأنجب منها ذرية وأحفادا ، ونطلب من الله أن يبارك فيهم ، و(اللامية) قبيلة عربية تسكن أطراف الطائف لا تزال إلى اليوم ولها فروع في جدة ومكة . ثم (بيت الخُشِّى) بضم الخاء وكسر الشين المشددة ثم (بيت المِنْجَفَ) بكسر الميم وتسكين النون وفتح الجيم ثم الفاء ، ثم (عائلة الراجحي) أهل التجارة والعقار بالطائف وضواحيه ، ثم (بيت اليماني) وعميدهم المرحوم محمد اليماني صاحب المنداة والطباخ الشهير ، وأولاده كثير ، منهم من سلك سبيل والده ومنهم من توظف وغير السبيل ، ومنهم من لا يزال في التعليم ثم (عائلة ابن حريب) وهي أسرة كبيرة بالطائف وتشتغل بالتجارة والوظائف حاليًا ثم (عائلة القطان) (بفتح القاف) عائلة كبيرة بالطائف ويشتغلون بالعلم والتجارة والوظائف . وكان المرحوم الشيخ صالح القطان عميد العائلة كان من العلماء الأجلاء ، وله إخوة بمكة

المشرفة. وهناك أسرة أخرى من بيت القطان بالطائف وهي أسرة عريقة من السكان الأصليين. ثم (بيت مليحة) بفتح الميم ثم (عائلة بَصْفَر) بفتح الباء وتسكين الصاد وفتح الفاء، ثم الراء، ثم (عائلة النحاس) وهم أصحاب البستان الشهير بالطائف، ويشتغلون بالنحاس، وكبيرهم كان شيخ الحارة في زمانه. وأصغر الأخوة (بادي) ولا يزال حيًا. ثم (بيت يسلم) بفتح الياء وكسرها وقلبها همزة أحيانًا.. كان عميدهم الشيخ إبراهيم وهو رجل مسن اجتماعي رأى أولاده وأحفاده وأحفاد الأحفاد. ثم (عائلة ابن فطيس) بكسر الفاء، وهم منتشرون ما بين الطائف القديم وبين الوهط. وهذه من الأسر العريقة بهذا البلد. ثم (عائلة السفياني) و(الوقداني) و(أبو ظهر) و(أبو شدة) على وزن بقة و(ابن سفرة) بكسر السين وتسكين الفاء ثم (عائلة ششة) بكسر الشين، ثم (عائلة أيلام)، و(عائلة الزعفراني) وكثير غير هؤلاء ممن لا أذكرهم الآن، ومن ذكرتهم فهم أقل من نصف الأسر العريقة بمدينة الطائف الكبيرة. وسيأتي مؤرخ غيري يذكرهم ويذكر من غاب عني الآن إن شاء الله.

وليست هذه الأسر كلها من عرب الطائف وثقيف، وإنما هم خليط من نجد والحجاز وغيرهم من القبائل العربية. وقد مضى عليهم أزمان وأجيال بالطائف، وقد تذكرت الآن أسرًا قديمة بالطائف هي (عائلة الزرقي) و(عائلة رزيق) على صيغة التصغير بضم الراء وفتح الزاي - ثم (عائلة القشلان) بفتح القاف، و(بيت الردة) و(عائلة الشريف هزاع) بالمثناة وهو عميد بيت أبي نخلة من أشراف مكة والطائف. وهناك أسر قديمة أخرى مثل (بيت الوزنة) و(بيت وزيرة) و(بيت مجيدة) و(بيت الأوضجي) و(بيت إياز) و(بيت عاصم) وهؤلاء لهم بستان كبير بالسلامة، ثم (بيت الدهلوي) وعميدهم المرحوم جميل

دهلوي ولهم تجارة واسعة ما بين مكة والطائف بالإضافة إلى بستان كبير بأرض القيم بالطائف . ثم (بيت نور) وعميدهم المرحوم الحاج نور كان من المعمرين وأصحاب التجارة الرابحة ، وله ذرية ومال ، وقد مات بعد أن تجاوز المائة ورأى الأولاد والأحفاد وأحفاد الأحفاد ... وغير هؤلاء كثيرون تقف الذاكرة عاجزة عن تذكرهم .

والمحلة السادسة بالطائف هي (محلة الشهداء) وبها شوارع ومصانع وأسواق ومقاه .. ثم المحلة السابعة وهي محلة قروة (بفتح القاف وتسكين الراء وفتح الواو ثم التاء المربوطة وقد يحذفون هذه التاء ويأتون بدلها بالألف المقصورة أو الممدودة) ويتفرع من هذا المحلة محلة (المحجوب) التي بها الجامع القديم الشهير ، وكان بقروة بستان بيت الشيبي ، وبستان البخاري ، وبستان النقشبندي ، والبوقري ، وبيوت للأتراك القدماء ، وتقع بشمالها البئر الشهيرة بعجلان . أما الآن فقد ذهبت الآبار والبساتين إلا القليل الذي لا يذكر ، وحل محلها العمران . وهذه المحلة لم يأت ذكر لها في المعاجم ولا في ياقوت وما ندري سبب تسميتها بقروة ، والأسماء لا تعلل ، لكن في اللغة تطلق على العادة ، وعلى نزول الأمعاء ، وأخذوا ذلك من القرو (بفتح القاف وتسكين الراء ثم الواو) ، وهو كل شيء على طريق واحد فإذا قلت : أصبحت الأرض قروا واحدًا ، إذا تغطى وجهها بالماء . وهذا ما يلاحظ في هذه القروة عند هطول الأمطار الغزيرة والسيول ، فإنها تغطى بالماء ولعل تسميتها بقروة جاءت من هنا .

والمحلة الثامنة هي (محلة السلامة) وهي تمتد إلى حدود المثناة ، وبها بساتين كثيرة ومياه وفيرة ، ومن جملة بساتينها بساتين : طبيلة ، وأبو شدة ، والدبة ،

والجفالي وأبو الفرج، وهو مسمى بعدس، ما بين قروة والسلامة، وبها عمارات وبيوت كثيرة وتخطيطها أفضل من تخطيط (قروة) وشوارعها أوسع وبساتينها أكثر، نذكر أسماء بعضها مستقبلًا إن شاء الله.

هذه المحلات الثماني بعد هدم سور الطائف وقبل هدمه كانت محصورة في الثلاث فقط: (أسفل، وفوق، والسليمانية) وكان وجود السور القديم سببًا في تضارب حدود الطائف بالنسبة للمؤرخين القدامى وتحديدهم لما يحده شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا؛ أما الآن فقد اتصل بنيان الطائف القديم بالطائف الحديث وامتد إلى المثناة والهدة، وقرن ولية، التي كانت لا تعد من الطائف في الزمن القديم.

من البساتين المجاورة للطائف القديم وأصبحت أثرًا بعد عين بستان أم نوبي، وبستان السيسبانة. وأقرب البساتين إلى باب الحزمهي بساتين شُبْرَى، والعقيق. وبشبرى يقع بيت علي باشا، القصر الكبير، الذي كان يسكنه أمير مكة إذا اصطاف، وبه الديوان الجميل.

بستان الجهنمية كان من أشهر بساتين شبرى، وأعنابه كانت تضاهي أعناب لقيم، والذي يحرسه ويحرث أرضه بدوي يدعى (أبو عصية) بصيغة التصغير، من المعمرين ولا يزال موجودًا. وضبط كلمة (شبرى) ضم الشين، وتسكين الباء، وفتح الراء، ثم ألف، وهي منقولة من شبرى المصرية؛ لأن شبرى بالقاهرة وتدعى شبرى الخيمة وشبرى المظلات، واستعيرت لشبرى الطائف؛ لأن المستعير هو باني القصر، علي باشا. أما شبرة (بالضم أو الكسر أو الفتح مع التاء المربوطة في الآخر) فتطلق على العطية.

العقيق معناه البرق، وإذا جمعته على عقائق (بفتح العين) كان معناه

الغدران في الأخاديد . والعقيق هو الوادي وكل مسيل شقه ماء قديمًا فوسعه . ولما كان اسم شبرة ، أو شبرى ، من الأسماء المستحدثة المنقولة إلى هذه البقعة من الطائف فإن الشعراء القدامى لم يذكروها وإنما جاء ذكر شبرى الطائف وعقيقه في الشعر المولد العامي والمسافة بين العقيق وشبرى لا تكاد تذكر ..

حدثني المرحوم الشاعر أحمد كابلي ، من مكة المكرمة ، عن بيتين من الشعر البسيط الخفيف المولد أو العامي ، وزعم أنهما للشاعر بديوي(بكسر الباء والدال) شاعر معروف :

خطرت تميس وتنثني ما بين شبرة والعقيق
هيفاء وجناء تقو ل لي أبن : أين الطريق ؟

والحكم الفصل في هذا شاعرنا الكبير معالي الشيخ أحمد الغزاوي ، فهو الذي سيخبرنا في (شذراته الذهبية) إن كان البيتان للشاعر بديوي أو لغيره من شعراء العامية في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الهجري ، وهل هو من الشعر الفصيح أم من الشعر العامي ؟ لأني لا أجيد هذا الباب وقد رويتهما كما سمعتهما .

من بساتين الطائف القديم بستان (الجال) وقد أصبح ناضبًا قاحلا ، وبساتين الحوية وهي في طريق المطار وقد أصبحت الحوية بلدة مصغرة .

بلدة الطائف من أشهر مدن الحجاز بالمملكة العربية السعودية ومن أشهر المصايف بها ، وهي على مسافة ستة وسبعين ميلًا من مكة المكرمة والآن مُهّد طريقها وأصبح سهلًا ، وإذا كان السفر من طريق عرفة ونعمان وكرا ، فلا يزيد على ستين ميلًا ويقطعه الراحل في ساعة وربع الساعة تقريبًا إذا كان على السيارة النفطية ، وقد اختفى الآن الرحيل على الإبل من طريق الزيمة والشرائع ،

حتى الذين كانوا يرتادون طريق كرا على ظهور البغال والحمير، ويستغرق سفرهم سبع ساعات أصبح ذلك حديثًا خرافة، حتى إن الهاوي ألغى هوايته، وأصبح يفضل السيارة المريحة السريعة.

ويعبر العامة وأهل البادية قديمًا بأن أول الطائف (قرن) وآخره «لية» حينما شبهوا منظره بكبش ذي قرن وله ألية، ولكن الواقع الحالي بعد التطور وإزالة السور وإيصال البنيان إلى ما بعد قرن فالطائف سيكون ما بين الهدة وثمالة، أو بين لية السفلى والنقب الأحمر. وسكان الطائف قديمًا كانوا من ثقيف وعتيبة ولا يتجاوزون ستة آلاف. أما الآن فقد يربو عددهم على خمسين ألفًا منهم جالية كبيرة من أهل بخارى المستوطنين مدينة الطائف بعد نزوحهم من روسيا الشيوعية.

سكان الطائف:

أصبح الآن سكان الطائف خليطًا من العرب والبخاريين والسليمانية. وقد ذكرت بعض العرب في عداد الأسر القديمة التي تسكن الطائف القديم. والأسر القديمة من البخاريين مثل: عائلة الحاج نور - رحمه الله - والعائلات السندية، مثل عائلة كنسار بائع الحمص والنقل (بضم النون والقاف). وأما الأشراف الذين يسكنون الطائف وضواحيه فكثيرون، منهم الجودية، وهم أهل مراع ومواش وتجارة. ومنهم الفعور، ويملكون معظم أراضي لية قديمًا. ومنهم ذوو فتن، ويملكون بعض أراضي لقيم، ومنهم آل رفيق ويعدونهم من ذوي غالب. وأما البادية فسيأتي ذكرهم في الملاحظات وهم غالبًا من ثقيف وعتيبة، والأطراف من الغشامرة واللمضة، ومن بني صخر، وبني سفيان وغيرهم من القبائل.

أرض الطائف

أرض الطائف غنية بمعادنها مثل النحاس والحديد والقصدير كما أنها جيدة التربة وخصبة ومريعة ومباركة ؛ إذ قد تجود أحيانًا بمحصولين في السنة كما مر في ذكر أراضيه ، والأخشاب بأنواعها متوافرة في هضابه ومفاوزه منها الأثل ، والطلح ، والعرعر ، وأعشابه كثيرة وجيدة لغذاء الماشية ، وزهوره العطرة كثيرة .. ومنها الورد والياسمين والنرجس ، وتوجد العقاقير الطبية في جباله ومرتفعاته ، مثل : الشيح ، والضرم ، والسنامكي ، والحنظل ، والكندر . أما البقول والخضروات والفواكه ففيها الشيء الكثير الذي يزيد عن الحاجة أحيانًا ، وكذلك السمن والعسل ، والماشية ، والحبوب ، ووسائل الحرث بالسواني .

أودية الطائف

أودية الطائف كثيرة ، من أشهرها : وادي لية (بكسر اللام والياء المشددة المفتوحة ثم التاء المربوطة) ، وهذا الوادي يعد من أخصب أودية الطائف ، وبه البساتين العظيمة التي تجود بالرمان الفاخر .

جاء ذكر لية في الشعر القديم والحديث ، من ذلك قول مالك بن خالد الهذلي :

لست بذي زوج ولا خلية ... ياليتني بالبحر أو بلية

وأما الذين يحصرون الطائف ما بين قرن ولية فيستشهدون بقول الهذلي أيضًا :

متى تنزعوا من بطن لية تصبحوا ... بقرن ولم يضمر لكم بطن نحمر

وأكثر من وصفها وذكر حصوها وحدائقها وأوديتها وطبيعتها وطيورها هو : خفاف بن ندبة ، في قصيدة تربو أبياتها على أربعة عشر بيتًا ومطلعها :

سرت كل وادٍ دون رهوة نافع وجلذان أو كرم بلية محدق

واختتمها بقوله :

كأن الحداة والمشايع وسطه وعوذا مطافيلا بأمعز مشرق

وممن ذكرها أيضًا عبد الله بن علقمة الكناني وغيلان بن سهم وغيرهم .
وأما الاستشهاد بقول الهذلي الذي مر آنفًا ، واعتبره بعض المؤرخين على أنه خروف أوله لية وآخره قرن فهو استشهاد ضعيف وأقرب إلى العامية ؛ لأن لية الخروف لا يقال لها لية بل يقال لها ألية (بفتح الهمزة وتسكين اللام وفتح الياء ثم التاء المربوطة) أو ليَّاء (بفتح اللام والياء المشددة المفتوحة بعدها ألف المد والهمزة) . والعامة تقول (الليّة) وتقول ليّة على ذنب الخروف وهو غلط في الاستعمال ، وكذلك بعض المؤرخين لا يعتبرون ليّة من الطائف بل يعدونها من تهامة ، كما أنهم لا يعدون قرنا أول الطائف بل يعتبرون (كراء) هو أوله .
وتعليل تسميتهم ليّة بليّة راجع إلى حالتين :

الأولى : إنها نوع من أعواد الشجر ، ذو رائحة عطرة يستجمر بها ، أي يضعون أوصاله في النار ثم يتبخرون بها . والشاهد من الأرجوزة التالية :

لا يصطلي ليلة ريح صرصر إلا بعود لية أو مجمر

الحالة الثانية : أن الليّة تطلق على قرابة الرجل وأهله وعصبته والشاهد قول الشاعر :

فمن يعصب بليّته اغترارا فإنك قد ملأت يدا وشاما

يعني أعطيت أهل اليمن وأهل الشام، ومع ذلك نرجع إلى قاعدة: (الأسماء لا تعلل).

* وَجّ بفتح الواو ثم جيم مشددة بتنوين. ويطلق على بلاد الطائف كلها، بدليل الحديث الشريف: «آخر وطأة وطئها رسول الله بوَجّ» يعني غزوة الطائف، ولكن المؤرخين يعتبرون وجًّا يقع غربي الطائف، ويقولون عنه: إنه واد يمتد بين جبلي (المحترق) و(الأصيحيرين) طولًا، وبين جبلي (المدهون) و(أم السكارى) عرضًا، وهو على يسار الذاهب إلى الطائف، وكان هذا الوادي يشتهر، جاهلية وإسلامًا، بالخصوبة ووفرة المياه وكثرة البساتين بما يفوق الوصف، وكانت به آبار وعيون وزروع وأعشاب ومراعٍ، حتى كانوا يعدون سبعين حديقة من حدائقه الغناء التي يغرد فيها الطير، ويطَن الذباب من حلاوة رمانه وأعنابه. ومن أشهر بساتينه منذ الزمن الأول حتى الآن (المثناة) والكلمة تطلق على وادٍ متفرع من أودية (وج). كما أن المثناة أصبحت قرية عامرة بالسكان وتحتوي على بساتين كثيرة من أشهرها بستان الطويلة، وفيه من الخوخ الريان اللذيذ النكهة الذي لا يضارعه أي خوخ في العالم، سوى خوخ (واق الواق) بأستراليا، وخوخ (دوراقو) بتركيا، وسيأتي ذكر هاتين المدينتين: التركية والأسترالية في الرحلتين التركية والأسترالية، إن شاء الله.

وهذا الخوخ الموجود سابقًا وحاليًا ببستان الطويلة بالمثناة يسمونه (دراقى). ولعل الغرس جاء من تركيا في أثناء الحكم التركي وجلب من بلدة (دوراقو) الواقعة بين إستانبول وأنقرة.

وبستان الطويلة هذا لا يزال محتفظًا بهذا الاسم والشهرة حتى كتابة هذه المذكرات.. وتصحيح كلمة (المثناة) تقدم ضبطها.. ومعناها في الفصحى ما

ثني من طرف الزمام. ولعل ذلك يرجع إلى تدلي أغصان أشجار الفواكه على أسوار البساتين على كلا جانبي الوادي، بحيث لا تستطيع الإبل مدَّ أعناقها حين مرورها منه، فيرخي لها الزمام حتى تمر مطأطئة رؤوسها، كما أخبرنا بذلك المسنون من أهل هذا الوادي. وعلاوة على ذلك، فإن أرضها وأرض لقيم تجودان بمحصولين في السنة، وخاصة البرسيم وبعض الحبوب ومعناها في الفارسية: الغناء وهو دوبيتي. قال بعضهم إن الكلمة مقصورة، أي مثنى، ومعناها إعادة المعروف مرتين فأكثر، واستشهد بقول النابغة الذبياني:

إني أتمم أيساري وأمنحهم ... مثنى الأيادي وأكسو الجفنة الأدما

فركيك لا يتناسب، وهذا بالنسبة لنظري القاصر.

ونعود فنقول: إن الأسماء لا تعلل كما سمعنا من أدبائنا.

«قملة» وهو وادٍ فسيح طويل يقال له: (وادي قملة). ويقع في الشمال الشرقي من الطائف. وفيه البستان المعروف والبئر.. ويدعى قملة(بفتح القاف وتسكين الميم وفتح اللام ثم التاء المربوطة)، ولم يذكرها ياقوت وإنما قال: يوجد موضع يقال له قملى بالألف المقصورة ولم يحدده، ولكن هذه القملة التي أشرت إليها هي واحدة القمل المعروف.. ثم إن كلمة قملة تطلق على هذه الحشرة وعلى المرأة القصيرة القبيحة، وفعل (قمل) من باب (علم) إذا حسنت أحوال الرجل. وقملت الأرض، إذا أخصبت واعشوشبت وصار منظرها ربيعًا، فإما أن تكون صاحبة البئر والبستان قصيرة قبيحة، وسميت (قملة) باسمها أو لخصوبة الأرض ونضارتها، والأخير أفضل.

وأما وادي النمل فيقع بين لية والصخيرة وديار بني سالم، ولم نشر إليه سهوًا منا حينما ذكرنا وادي لية. وأما وادي النمل الذي قال عنه ياقوت: إنه

بين جيرين وعسقلان كما ذكر بعض المفسرين ، فسيأتي الكلام عنه عند الرحلة الفلسطينية . أما هذا الذي بالطائف فهو أشهر من نار على علم والله أعلم .

« لقيم » وهو وادٍ خصيب جدًا وأرضه كأرض المثناة تجود بمحصولين في السنة وماؤه عذب ، وفيه من الأعناب أنواع كثيرة لذيذة ، منها النوع المشهور بالزراقي وهو من غير نوى وتصحيح الكلمة ، لام مضمومة فقاف مفتوحة فياء ساكنة فميم ، على صيغة التصغير ، والعامة تنطقه القيم بسكون اللام ، وهو غلط ، كما أن ياقوت الحموي لم يذكره مطلقًا . ولكن المؤرخين ذكروا أنه قرية بالطائف . وكانت ركبان هذا الوادي تجود بالحنطة اللقيمية ذات النقرة الواسعة وهي من أفخر أنواع الحنطة ويقال لها « النقرة » وهي مشهورة معروفة ، لها عرق يمط عند العجن كاللبان والكندر .

يقول علماء التاريخ والجغرافية : إن هذه الحنطة اللقيمية سنبلها كبير وتنبت في أرض (لقيم) بالطائف . وكنا نشتريها من أسواق الطائف إلى ما قبل عشرين عامًا من تاريخ هذه المذكرات .. فسبحان القادر على كل شيء ونسأله تعالى أن يردها إلى ما كانت عليه وأحسن لنستغني عن الحبوب الخارجية . ووادي لقيم يقع بعد « المليساء » ، وفي آخره يرسو جبل (رغاف) وفي آخره قرية الصفاة .

* **المليساء** : (بصيغة التصغير) ، أرض زراعية وبها بستان جميل فيه رمان فاخر وزروع مختلفة . وتطلق المليساء في اللغة الفصحى على وقت العتمة وعلى نصف النهار وعلى شهر صفر الذي تنقطع فيه الميرة ، ولذلك يقولون : « بدا لك من شهر المليساء كوكب » . كما تطلق الكلمة على الطعام واللبن

الحامض، ولعلهم اشتقوا المليساء من الملس (بفتح الميم واللام) وهو المكان المستوي ويجمع على (أماليس) على وزن (أبابيل) والشاهد من قول الحطيئة :

وإن لم يكن إلا الأماليس أصبحت لها حلق ضراتها شكرات

وتقول : أرض إمليسة (بكسر الهمزة وتسكين الميم وكسر اللام بعدها ياء للمد فسين مفتوحة ثم تاء مربوطة) وجمعها أماليس أيضًا . وهذه أرض إذا أثمرت يقال لرمانها مليسيٌّ وإمليسيٌّ ، يعني : فاخر حلو لا عجم له . وكانت المليساء كذلك ، ولم يذكرها ياقوت .

* **رغاف** : جبل كثير القرى والمزارع وهو في آخر وادي لقيم بعد المليساء . والبدو ينطقونه بالفاء وبالباء في آخره ، والراء في أوله مكسورة . ومعنى الكلمتين مقارب للمسمى ؛ فالرغاب (كالكتاب) هي الإبل الكثيرة ، فهو يجمع المعاني كلها ، القرى والمزارع في سفحه ترى مجتمعة كقطع العجين ، وكالإبل المجتمعة ، وبالنسبة لهيكله كذلك .

* **الصَّفاة** : بتشديد الصاد المفتوحة ثم الفاء والألف والتاء المربوطة هي في اللغة الصخرة الملساء .

* **جبرة** : بفتح الجيم وتسكين الباء وفتح الراء ثم التاء المربوطة ، وتقع في واد فسيح يقال له وادي جبرة وسمي الوادي بجبرة للنبات المغربي الذي ينبت في حافتيه طوله ثلاثة أصابع . وبوادي جبرة بستان عظيم ومياه جوفية عذبة تستخرج بالآلات النفطية لتقوية آبارها وعيونها . والطريق إليها شبه معبد ويقطعه السائح بالسيارات في أربعين دقيقة . وقد ذهبنا إليها عدة مرات في حياة المرحوم الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية بالمملكة العربية السعودية

آنذاك . وكانت الحديثة وما جاورها من أرض جبرة ملكا له كما سمعنا من حاشيته . والمنفذ إلى البستان وعر ، والعربات تقف بعيدة .

* **المعدن** : من ضواحي الطائف بالقرب من ثمالة ، والحنو وهو مزارع وقرى ، ويسكنه عرب من ثقيف وبني عقيل ، ويقع بين الطائف ومكة ، وذهبنا إليه عدة مرات على الحمير مع الشيخ بكر كمال قاضي الطائف سابقًا وقطعنا الطريق في أربع ساعات ونصف الساعة ، وكانت رحلتنا إليه من طريق ثمالة ، وفيه ماء الآبار العذبة وبعض الأشجار والحبوب وركبان الرعي . وبه جبل شامخ ، بعض الشيء ، يبلغ ارتفاعه ستمائة قدم . وأرض المعدن هي أرض الجواهر والذهب والحديد وفي قمته أحافير صغيرة تدل على استخراج شيء من هذه المعادن على نمط جبال « كلورادو » بأمريكا الشمالية ، لكنها بشكل مصغر جدًا . كما توجد بالقمة عدة بوتقات وهي التي يصهر فيها الحديد والذهب المختلط بالرمال . لكن هذه (البوادق) من الحجر ، ونرجو أن يوجه النظر إلى هذه الضاحية لاستخراج ما فيها من معادن وجواهر إن شاء الله . كما توجد آثار بيوت قديمة أزيلت عن مواقعها ، وهذا في القمة .

* **الوهط** : وقفنا عليه وضربنا حوله خيمة صغيرة ، ومعنا الأغنام وأنا ابن الرابعة . وفي الكبر رحلت إليه عشر مرات على الدواب مع كثير من الأصدقاء ، وكنا نقطع الطريق في ساعتين أو أقل ، وهو على ثلاثة أميال ولا يزال به آبار وزروع وأشجار وكروم وخضروات ، ويملكه آل ابن فطيس ، ويسمونهم الفطسة (بالفاء المكسورة والطاء المفتوحة والسين المفتوحة والتاء المربوطة) ويجمع أهل التاريخ على أن هذه الأرض ، بما فيها من زرع وكروم ومياه . كانت ملكًا لعمرو بن العاص رضي الله عنه وقد اشتراها بمائة ألف درهمًا وكان

إنتاج زبيبها يكون تلالا وهضابًا . والآن لا يصل محصوله من الزبيب أكثر من عشرين وسقا فسبحان من يغير ولا يتغير .

السؤال الذي يجول في صدري من باب التطلع : هو كيف آل هذا الماء والزرع والكرم والشجر والأرض وما فيها من بيوت لآل ابن فطيس ؟ . هل هم من ذرية ابن العاص أم من بني سهم؟ أم أن هذا المال بيع للغير من قبل ولادة ابن العاص .. أم صارت وقفًا من ذلك الحين؟ وحبذا لو أقف على الحقيقة للاطلاع والاستكشاف ، فالتاريخ محتاج إلى تسجيل مثل هذه الحقائق .

وهذا الوهط يعتبر أثرًا من آثار عمرو بن العاص فيجب أن يحافظ عليه ، ويحاط بحائط كبير ، ويكتب عليه : (أرض ابن العاص) بالحروف الكهربائية (أي طريقة النيون المضيئة) ، وأن تقام جامعة ومتحف زراعي بداخل أرضه .

وتصحيح كلمة (الوهط) هو بفتح الواو وتسكين الهاء ثم الطاء ، لا كما تنطقه العامة بفتح الهاء . ومعناها : الكرم المشهور باسم عمرو بن العاص ، كما تطلق الكلمة على العرفط المجتمع في دائرة واحدة وعلى العيص من السدر وهنا التقارب في اللفظ مع اختلاف المعنى بين العاص والعيص بالنسبة لإنتاج الأرض وصاحبها وما يغرس فيها فأبدل العيص الذي هو النبق وأشجاره بالكرم ، فتقول : أبدل أو بدل العاص بالكروم ـ وتجمع الكلمة على (أوهاط) .

* **الوهيط** : وقفنا عنده في الرحلة البدوية وهو ليس ببعيد عن الوهط ، والكلمة تصغير لكلمة الوهط ، وكلتا الجنتين في واد واحد والمسافة يقطعها الراكب على الدابة في ربع ساعة من الوهط إلى الوهيط ، وقد جئناه في الكبر مرارًا وتكرارًا .. وتحتوي أرضه على أعشاب الكافور الباسقة ، والكندر البري ،

والتمر الهندي البري ، وأقصد بكلمة « بري » أي غير منتج إنتاجًا صحيحًا إذ تنقصه الأسمدة واللقاح (التوبير النباتي) كالزيتون البري الذي يملأ مساحات كبيرة من أرض الشفا من دون جدوى .. ويقول البدو الواضعون أيديهم على الوهيط : إنه ملك للأشراف ، وإن الشريف عون الرفيق هو الذي استورد الغروس النادرة من إستانبول وغرسها في الوهيط ، لكنه مات قبل أن يرى المحصول . وأما نبت الكافور فقد جلبه من الهند .

وأرجو أن نعلم من خلال الحقائق التاريخية كيف انسلخت ملكية الوهط والوهيط من ذرية عمرو بن العاص . كما أرجو أن نغرس فيهما جميع أنواع الكروم والفواكه بالإضافة إلى متحف وجامعة تدعى باسم (عمرو بن العاص) حفاظًا على التراث ، كما هو الحال في جميع أنحاء العالم . فقد حافظ العالم الخارجي على آثار أقل قيمة من هذا الأثر بكثير ، ولما تمض قرون كثيرة . فهناك مثلا حديقة (شكسبير) في بريطانيا كيف انتزعت ملكية الأكواخ والبيوت المجاورة لها وأضيفت إلى حديقته وبقيت رمزا وحرمًا لحديقة الكاتب المسرحي الكبير تخليدًا لذكراه ، وتقع في ستراتفورد قرب لندن . وهناك حديقة تيفولي في روما والتي تبلغ مساحتها مساحة الوهط بكامله قد بقيت رمزًا لصاحبها وانتزعت الملكية من حواليها ... ولو أردت الأمثلة على ذلك التوجه لاستغرقت صحائف كثيرة بالنسبة لما وقعت عليه في سائر أنحاء العالم من قبيل هذا النمط ، ولما بعد وقبل هذا التاريخ بمراحل .

ويوجد بجبال الوهط والوهيط في عروق صخورها وفي نيق هذه الجبال ما يشبه زجاج البلور النقي ويسميه البدو بالميضا (ميم مفتوحة وياء ساكنة ثم ضاد مفتوحة) وهذا الصخر أبيض يستخرج على شكل الصحائف الرقيقة يمكن أن

يصنع ويستخرج منه مصابيح الكهرباء والمواقد بأنواعها ، كما يوجد الحجر الكلسي بجباله أيضًا .

وآبار الوهط والوهيط عذبة ، والهواء تقي صحي ، والأرض خصبة صالحة للزراعة ، وليس بهما أبنية كثيرة ، وخاصة الوهيط . ومن الممكن جدًا تخطيط أرض الوهط والوهيط عمرانيًا أو زراعيًا .

* **السد السملقي** : وقفنا عليه أيام الطفولة في الرحلة البدوية وفي الكبر ثلاث مرات مع الشيخ بكر كمال قاضي الطائف سابقًا . وكانت رحلاتنا تبدأ من أرض (ثمالة) لأنها كانت مقرنا ، ومنها نرحل إلى الحنو ، والمعدن ، والصخيرة ، وديار بني سالم ، ولية ، ووادي النمل ، وغيرها . وضبط الكلمة : أنها بالسين المضمومة أو المفتوحة ، ثم الدال المشددة وهو الجبل الحاجز بين واديين أو صخور وحجارة تسد جانبي الوادي فتمنع وصول الماء . وإذا كان بضم السين فهو ما كان من صنع الخالق أي وجد مخلوقًا على هذا الهيكل ، وإذا كان بفتح السين فهو من فعل البشر . وكنا نقطع المسافة على ظهور الدواب من ثمالة إلى أصل حدود هذا السد السملقي في أربعين دقيقة .. وقد تقدم وصفه في كتاب (مدائن صالح) في ذكر السدود وبُناته هم بنو هلال ، في أيام معاوية ﷺ ، ويستحق هذا السد الانتباه وتوجيه النظر لأنه من آثار الأولين .

* **الحنو** : (بكسر الحاء ثم النون الساكنة والواو) وقفنا عليه في الطفولة ، ووقفنا عليه في الكبر مرتين مع الشيخ بكر كمال : وعلى ظهور الدواب أيضًا . وفيه ماء مزارع على نمط المعدن . ويبعد عن ثمالة نحو ساعة على ظهور الحمير . ومعنى الحنو : كل ما اعوج من عظم ووادٍ وجبل .. وينبت في هذا

« الحنو » العشب الزكي الرائحة ويدعى بالحنوة (بفتح الحاء وتسكين النون ثم الواو المفتوحة والتاء المربوطة) وجاء ذكره في الشعر ومن الشواهد قول الشاعر :

وكأن أنماط المدينة حولها — من نور حنوتها ومن جرجارها

* **الصخيرة** : تصغير صخرة : قرية بها ماء وزروع ومرعى ، وقفنا عليها في رحلة الطفولة ، وفي الكبر مع الشيخ بكر كمال ورفاقه ، وتقع بعد وادي النمل بقرب لية .

* **بنو سالم** : قرية صغيرة بها ماء تنقصه العذوبة ، وهي أقرب ما تكون إلى الطائف ، لكنها تبعد نحو نصف ميل عن طريق المعبد وأرض جفيجف هذه يكوّن فيها ماء الأمطار ما يشبه القرارات لكن سرعان ما تجف ، وأرضها قوية صلبة تعتريها السبخة بعض الشيء فلذلك تصلح لزراعة الأرز - إذا وجدت التفاتا من الهيئة الزراعية . وقفنا بها في رحلة الطفولة وفي الكبر مرارًا وكان بها مزرعة للشيخ حسن سمسم . وبعض البدو يسمونها جفاجف ، وضبط الكلمة هو كما ذكرناه : تصغير الجف وهو ما انقطع من الشن البالية فيعملونها دلوًا أو يقطعون الشن قطعتين قطعتين ثم يدلون بها .. والجفجف الأرض المرتفعة والقاع المستدير من الأرض فهي إذًا من الأضداد .. وتجمع كلمة الجفجفة على جفاجف ، وشاهد الجف (بضم الجيم) الذي هو الشن أو البالية أو الدلو ، من قول الراجز :

رب عجوز رأسها كالكفّة — تحمل جفًا معها هرشفة

خيمنا عليها ونزلنا بها أياما نرعى أغنامنا مع الخالة وبنت الخال وبعض الرعاة . وكان هذا في رجوعنا وعودتنا إلى (الزيمة) .. ويسكن هذا الوادي الجميل بعض الخزاعيين والذين يملكون بعض قطع المراعي . وماؤه غير عذب

ضد اسمه وينبت في حافتيه (القرَّيص) و(القُرّاص).

* **الحوذان**: (بفتح الحاء وتسكين الواو ثم ذال مفتوحة وألف ونون) نبات حلو طيب الطعم زكي الرائحة، يرتفع قدر الذراع. وله زهرة حمراء في وسطها اصفرار، وأوراقه مدورة عريضة. كنا نضع عليها عجينة على قدر مقاسها ونمزج العجين بالزبد أو بقطع اللحم ثم نضع أخرى غطاءً عليها أي ورقة من الحوذان ونضغط على الورقتين بحيث لا يخرج شيء من العجين ثم ندفن ذلك في الرماد الحار الذي يشبه الملة، حتى إذا ما نضج كان طعامًا سائغًا لذيذًا شهيًا. وجاء ذكر الحوذان في الشعر الجاهلي وشعر مجنون ليلى وكثير عزة وغيرهم.

وأما القراص بضم القاف وتشديد الراء المفتوحة ثم الألف والصاد فهو البابونج والورس، وهو أيضًا عشب ينبت في الربيع له وبر كالشوك يقرص إذا أكل منه. وأما بفتح القاف فهو اللجام الذي يقرص فم الدابة، ومنه الشاهد.

ولولا هذيل أن أسوء سراتها لألجمت بالقراص بشر بن عائد

وأما القريص فهو عشب يقرص أفواه الإبل.

* **الخرَّار**: هو آخر واد متفرع من وادٍ بوادي وج، وسمي باسم العين الخرارة التي يسمع خريرها من بعيد، وخاصة أيام الأمطار والسيول. وقد أقمنا بهذا الوادي يومين في رحلة الطفولة، وجئته في الكبر مرات وكرات مع بعض الأصدقاء.

يمكن الوصول إليه من الطائف على ظهور الدواب، وأما من مكة فتصله السيارات بعناء؛ لأن نصف الطريق معبد تقريبًا والباقي تغوص فيه إطارات

العربات أحيانًا . وضبط الكلمة بفتح الخاء والراء المشددة المفتوحة ثم ألف وراء . وهذا الخرار فيه مناظر طبيعية خلابة وخاصة أيام هطول الأمطار .

* **الخبزة** : أهم عيون المثناة وقد تقدم ذكرها . وضبط الكلمة بفتح الخاء والباء والزاي ثم التاء المربوطة . وإذا ضمت الخاء فتكون بمعنى الأرض المنخفضة المطمئنة . وسميت بالخبزة لأن بقلة الخبيزي (بضم الخاء وفتح الباء) تنبت حولها بكثرة ، وهي مثل الملوخية والسبانخ . وتسمى هذه البقلة في الفصحى بالخباز ، (بضم الخاء وفتح الباء المشددة مع الألف والزاي) وجاء قولهم : (وعاد خباز يسقيه الندى) .

* **الهدا** : بالألف في آخرها وهي كلمة العامة . والصحيح الهدة(بالهاء المفتوحة والدال المشددة والتاء المربوطة) . وقد تفتح الدال وتخفف في بعض الروايات ، فتقول (الهدة) وهذا الاسم يطلق على قرية وعين ماء بوادي فاطمة أو مر الظهران ، وسنذكر ذلك في رحلتنا إن شاء الله عند ذكر الرحلة الهندية . كما تطلق الكلمة على جزء كبير محتو على جبال وقرى وعيون قريب من الطائف ، أو جزء منه ، إذا جعلنا جبل (كرا) الحد الفاصل بين مكة والطائف . وهذه (الهدة) أنقى هواءً من الطائف وأعذب ماء وأصح للإقامة والهدوء . وينبت في قراها وهضابها وحدائقها الورد الأحمر والأبيض الذي لا يضاهي ولا يقارن بغيره من ورود العالم ، اللهم إلا النادر في بعض حدائق تركيا وبلغاريا ولذلك فإن التقطير الأول منه والمسمى بعطر الورد المكرر ذي الرقم الواحد يساوي مثقاله أربعمائة ريال ، بينما غيره لا يساوي أكثر من مائة ريال .

وأرض هذه البلاد خصبة وجيدة ويزرع فيها كل الثمرات ما عدا الأناناس والجوز والمانجو ، وكانت قبائل من العرب يقال لها (اللمضة) و(الغشامرة) و(بنو

صخر) و(الأغربة) و(الأخولة) وغيرها من القبائل والبطون تسكن هذه الأرض.. أما الآن فلا يوجد من هؤلاء غير (الأغربة) والقليل من(بني صخر) و(اللمضة) و(الغشامرة)، ويَدَّعي الأغربة أنهم من نسل عنترة وخفاف بن ندبة وتأبط شرًا والشنفري.. وقد حاولت الوقوف على شجرة أنسابهم، فلم أجد شيئًا يطابق زعمهم.

* **جبل الحبالى**: يبلغ ارتفاعه ستمائة قدم وبسفحه تنبت بعض الأعشاب الصالحة لرعي الماشية. وبه الغار الخرافي حسب ما تقدم في القصة، وقد تقدم الكلام على موقعه.

* **قرن**: بفتح القاف وتسكين الراء ثم النون ـ وهو وادي محرم، أي الوادي الذي يحرم منه الحاج القادم من نجد أو من الطائف، فهو الميقات الشرعي للإحرام، لمن أراد أن يحج من أهل نجد والطائف. قال صاحب (الهاملية) الحسائي الحنفي في منظومة القدوري ـ وهو أعظم متن للفقه بمنزلة ألفية ابن مالك في النحو، و(الهاملية) ثلاثة آلاف بيت حفظنا منها ألفًا والحمد لله ـ قال الهاملي:

وذات عرق للعراق واليمن ... يلملم ونجد قرن فاعلمن

والآن جعلت هيئة الحج الإحرام من مسجد المرحوم (ابن لادن)، وقد عبَّد طريقه وسفلت، وعسى أن يزاد في مساحته.

وقرن يعتبر جزءًا من الطائف الحديث، وخاصة بعد تعبيد الطريق. والمسافة بضعة أميال من الطائف القديم إلى وادي محرم أو (قرن). وفيه بساتين كثيرة، وأرضه خصبة، وإنتاجه من العنب كثير. وتزرع في وادي محرم الخضروات والبقول والتين والرمان والمشمش، وفيه آبار عظيمة وبيوت كثيرة مبنية من

اللبن . وهناك بعض العمارات الكبيرة للحلواني (رحمه الله) وبعض أثرياء مكة والطائف . وبه مساجد كثيرة من أشهرها مسجد ابن لادن الذي بني على الطراز الحديث . وكان في (قرن) رجل مسن من أهل مكة يقال له (محمود عيد) له بساتين وعقار وأبناء وحفدة بلغ المائة ومات منذ عشرين عامًا ، رحمه الله .

وقرن يطلق في الفصحى على مسميات كثيرة وبلدان وقرى وجبال ، ولكن الأشهر من هذه كلها هو الميقات المذكور . ويطلق على سلسلة الجبال التي تبدأ من أول الوادي حتى تصل إلى كرا حيث تنظر عرفات بالمنظار المكبر (المجهر) واضحة أمامك . ويسكن في هذا الوادي عرب من قبائل شتى ومعظمهم من ثقيف وعتيبة ، وفيهم من بني سفيان ، وفيهم الوقدانية وغيرهم ، وبعض شعراء العرب يسمونها (قرن المنازل) وجاء ذلك في شعر عمر بن أبي ربيعة ، كما جاء ذكر (قرن) بمفرده في شعره أيضًا وفي شعر الحطيئة والأخطل ، كما تعني كلمة قرن لغويًا الخصلة والذؤابة من الشعر . وجمعه قرون ، قال مجنون ليلى :

وهل رفت عليك قرون ليلى رفيف الأقحوانة في نداها

* **ثمالة** : بضم الثاء وفتح الميم بعدها ألف ولام مفتوحة وتاء مربوطة . وتقع بعد (لية) والمسافة من لية إلى ثمالة بضعة أميال جئتها في رحلة الطفولة ، وفي الكبر مرات كثيرة مع الشيخ بكر كمال ، وفيها بساتين كثيرة وآبار عظيمة كنا نغترف الماء منها اغترافًا أيام الأمطار من غير حاجة إلى الدلاء . وكان منها المنطلق لرحلاتنا الكثيرة للبلدان المجاورة ، فهي أقرب إلى السد السملقي ، والحنو ، والمعدن ، وحمى النمور ، وغيرها من البلدان والقرى ، وفيها بيوت من اللبن (بفتح اللام وكسر الباء) وبساتين كثيرة لأهلها ولبعض أهل الطائف .

* **ملاحظة** : فاتنا أن نذكر، حينما تعرضنا لوادي لية، أن معظم بساتينه للأشراف الفعور، وكان جدهم الشريف حامد الفعر - رحمه الله - من المعمرين الذين تجاوزوا المائة، وكذلك لآل كمال أوقاف كثيرة في لية، وللحلواني - رحمه الله - بستان عظيم وقصر وأراض.

أما (ثمالة) فكلها ملك للبدو تقريبًا لبعدها من الطائف، ويكفي من شهرة ثمالة جودة أرضها وإنتاجها الزراعي ومراعيها الكثيرة وآبارها الغزيرة حتى كنا نغترف منها الماء اغترافًا من دون حاجة إلى استعمال الدلو. وقد أنجبت ثمالة أدباء وعظماء، في مقدمتهم أبو العباس المبرد صاحب (الكامل) وإلى ذلك يشير الشاعر:

سألت عن ثمالة كل حي ... فقال السامعون وما ثمالة ؟
فقلت : محمد بن يزيد منهم ... فقالوا : الآن زدتهم جهالة ؟

وثمالة حي من أحياء العرب يسكنون هذه الديار قديمًا وحديثًا بالتوارث لم يخالطهم أحد فيهم والثمالة لغة هي الرغوة والبقية في أسفل الإناء، والحوض، والثمل (بفتح الثاء وكسر الميم ثم اللام)هو النشوان السكران وبابه ثمل من باب علم. والفعل والمصدر يجتمعان في قول الأعشى:

فقلت للشرب في « درنا » وقد ثملوا
شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل ؟

* **السَّواني** : (بفتح السين المشددة ثم واو مفتوحة وألف ونون مكسورة وياء)، جمع سانية مثل غالية. والسانية البعير الذي يستقى عليه، وأما الآن فتطلق على الإبل والبقر والحمير التي يستقى عليها لري الأراضي الزراعية، قال الأعشى ميمون بن قيس:

ذريني لك الويلات آتي الغوانيا
متى كنت زراعًا أسوق السوانيا

تنفش: يعني ترعى ليلًا كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: من الآية٧٨] ..

* **النيق**: بكسر النون ثم ياء المد والقاف وهو أرفع مكان في الجبل. والشواهد عليه كثيرة.

* **(النزور)**: هي التي لا تلد إلا نادرًا.

* **محتب**: تقول احتبى الرجل يعني جمع بين ظهره وركبتيه بعمامة ونحوها ليستند؛ إذ لم يكن للعرب في البوادي جدران تستند إليها في مجالسها - فالاحتباء حالة الاستناد بالطريقة المذكورة، للعرب البادية .. ويقولون: «حلوا الحبا وقولوا مرحبا».

* **يسك**: (بالياء والسين والكاف المشددة) فعل مضارع بمعنى يضرب الدراهم والسكائك الدراهم المنقوشة والطرقات المسلكة المذللة.

وقال العجاج: «نضربهم إذا حلوا السكائك». وأول من سكّ الدراهم في الإسلام عبد الملك بن مروان.

* **زيمة** يعني: فرقة، وقد تقدم شرح الكلمة وشاهدها في (الزيمة).

* **الحبالى**: بفتح الحاء والباء واللام والألف المقصورة جمع حبلى بالضم قال امرؤ القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع   فألهيتها عن ذي تمائم محول

الرحلة العاشرة العودة إلى الزيمة

كانت الخالة تسلك بنا أنقابًا، وصعودًا إلى بعض الهضاب، وطلوعًا لبعض الأجبل في طريق العودة، إلى غير المسالك التي سلكناها في الذهاب، وهي أعرف بهذه الشعاب والمسالك من غيرها ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: من الآية١٤] فكانت تحفظ جميع الطرقات وتملي عليَّ كلمات لأسماء بعض الجبال والقرى التي في الطريق لكني للأسف الشديد لم أتذكر هذه الأسماء لصغر سني آنذاك، وعدم الرجوع إلى هذه الأمكنة أيام الكبر، للاستغناء عنها؛ لأن مثل هذه المسالك لا يسلكها إلا الرعاة والبدو الرحل. وفي الكبر أغنانا الله عن مثل هذه الرحلات وخاصة أن الطرق قد عبدت وغيرت، والرحيل على الدواب أصبح نادرًا. وقد استغرقت تلك الرحلة أربعة أشهر وأيامًا، كما أني قد أعدت الكرة ورحلت للأمكنة الهامة أيام الشباب بالعربة النفطية.

أنا في السنة الخامسة

من عمري الآن، في عام ١٣٣٦هـ وحينها كنت أفقه الأمور وأتذكر معظم الوقائع والحادثات. وإلى ذلك الحين لم أكن أدري أن مكة هي وطني ومسقط رأسي، وأن والديَّ يعيشان بها وأفكاري كلها محصورة في المرئيات التي رأيتها في تلك الرحلة الطويلة، واعتقدت تمامًا أن الزيمة هي الوطن الأم. وقد تعودت على مسالكها وجبالها وعيونها وحدائقها. وإن القناوية هم كل شيء بالنسبة لي. كنت لا أعرف الموت ولا معنى الحياة لأني شبه بدائي تقريبًا لم أتروض على شيء مطلقًا والدنيا كلها في نظري هي الزيمة، وتلك الدارة أو

القاعة المتواضعة بالقرية التي تبعد عن مجرى العين والمقاهي قرابة ميل ، واحد إنها كل شيء . إن المار من طريق الزيمة في طريقه إلى الطائف لا يرى قرية الزيمة ؛ لأنها بعيدة وليست على الطريق ، أما من يظن أن الزيمة هي العين التي بحذاء الجبل الشامخ أو المقاهي أو البستان الذي على الطريق ، فظنه خطأ .

إن القرية بعيدة عن الأنظار ، ومسالكها وعرة لا تصل إليها السيارات إلا بتكلف شديد . وأهل الزيمة يسمون قريتهم التي يسكنونها الديرة (بالدال المكسورة وياء المد والراء المفتوحة والتاء المربوطة) وهي لغة فصيحة تطلق على كل ما استدار من الرمل لكن من غير بناء . وفي عرفهم هنا أن هذا المستدار من الرمل ، وفيه دور مصغرة ، تسمى ديرة - وهكذا . والقاعة كلمة تطلقها عامة مكة على المقعد الذي بأسفل الدار إذا كان أمامه عرصة ، وهو غلط في الاستعمال ، وفي الفصحى هي الموضع الذي تنتهي إليه السانية . والصحيح في سياقنا هذا كلمة الدارة وهي كل بناء أمامه عرصة ، وجمعها دارات . أما دارات العرب فعددها مائة وعشرون دارة ، منها دارة جلجل وغير ذلك ؛ بخلاف هذه الدارة ؛ إذ تقول : فلان يسكن دارة . من غير إضافة .

منظر غريب

عين الزيمة التي بسفح الجبل وعلى يمين المسافر إلى الطائف هي همزة الوصل والتعارف بين المقيمين والراحلين ، فترى على حافتها الذاهب والآيب ، هذا يستقي وهذا يروي ماشيته ، وأهل القرية يأتون بمزاودهم ليسقوا بها أنعامهم وديارهم ، حيث هم في معزل عن الماء ، وتبعد العين عن مسكنهم بمقدار الميل ،

وليس هناك أنابيب توصل لهم الماء ، لذلك تجد على طرف العين أغلب سكان القرية يملؤون أوعيتهم وآنيتهم .

وأول ما رأينا على جانب العين خالنا (نامي) فتراكضنا إليه وقبلناه واحتضناه ، لكنه كان غير طبيعي على غير عادته التي كنا نعهدها فيه . وما لبث أن نادى على شقيقته (حسون) وابتعد عنا وجعل يتحدث معها بما لا نسمعه ، فاصفر وجهها ، وهملت عينها ، وما كنا نعرف السبب ، فسألناها : لم تبكين يا خالة ؟ فقالت : لا شيء ولم تحدثنا عن شيء مطلقًا وظلت واجمة حيرى ، ـ كما أن الخال تركها وسار مسرعًا نحو القرية . فألححت عليها أن تخبرني عما يبكيها ؟ وماذا جرى لها ؟ لكنها لم تفعل ولم تزد عن قول : خاصمني خالك لأننا أبطأنا كثيرًا ، فقلت لها : ولماذا تركنا وأسرع نحو الديرة ؟ فقالت : ليخبر أمك (هيف) عن وصولنا ، لأنها غضوب بسبب تأخرنا ، فأراد أن يبشرها .

صدقت قولها ؛ لأني لم أكن أعلم شيئا من أمور الدنيا ، مجرد الذهن ، خالي البال ، صغير العقل ، لا أدرك ما يدركه الكبار . وفعلا لم أطلع على الحقيقة بالمرة إلا بعد شهر ، فعرفت آنذاك السر في تلك المخافتة والسبب في الهرولة ، حينما أسرع الخال بالذهاب قبلنا إلى الديرة ، وذلك ليحيط أمنا المرضع بوصولنا لتأخذ الحيطة في مقابلتنا .

المقابلة الحسنة

وفعلًا قابلتنا أحسن مقابلة ولم تقل شيئًا لي ولا لأختها ؛ لأن الموضوع قد حبك وسبك أحسن سبك وأجمل حبك بين الأطراف المعنية ، وبحسن السبك قد ينفى الزعل .

لهفة وحيرة

لكني ما لبثت أن دخلت على حجرة والدي فيصل بأسرع من البرق ؛ لأقبله وأحتضنه بسبب طول الغياب والاشتياق إلى رؤيته ، لكني لم أجده على سريره الذي اعتدت أن أجده عليه فرحًا مسرورًا يلاعبني ويدللني على ذلك السرير الذي طالما اهتزت جوانبه من ركضي ووثبي عليه ، فتحيرت واندهشت وسألت : أين هو؟

فقالت الأم المرضع : إنه سافر إلى الطائف لينشد عنكم والحقيقة أنه كان قد توفي (رحمه الله) في أثناء غيابنا ببلاد ثقيف وضواحي الطائف .

ولكن حبها وعطفها وحنانها جعلها تكتم سرها لئلا تزعج طفلها وحبيبها بما لا يطيقه ولا يتحمله فصدقت قولها وسكت . والغريب أن أختي (عجوة) لا تدري هي الأخرى عن موت أبيها ، إذ قالوا لها مثلما قيل لي ، وأبعدوها عن المأتم وأرسلوها إلى (المضيق) لأنها صغيرة ، وليس لهم غيرها ، فخافوا عليها ، ولم يعلموها حتى آن الأوان .

لقد كنا على الفطرة لا نعرف موتًا ولا حياة ولا كذبًا ولا مزاحًا ولا أي شيء وسبحان الملهم المعلم .

المرضع الرؤوم

كانت المرضع لا يعيش لها أولاد ذكورة ، والخالة كذلك . والمرضع مئنات وليس لها سوى (عجوة) ، حتى البنت التي ولدتها ، في أثناء غيابنا في الرحلة ، ما لبثت أن ماتت بعد شهر من ولادتها . وليس هناك من يسأل عني ، على حد

قولها ، فقالت : هذا ولدي والحمد لله ؛ إذ لم يسأل عنه أحد . والخالة كذلك قالت مثل قولها وأنا الشيء لم تفتح عيناي إلا على هذه المرضع وهذا الأب وهذه الخالة وهذا الخال وهذه العجوة الأخت أطال الله عمرها ، وهذه الضاحية ، وهذا البر ، والجبال ، والأغنام ، وبيوت الشعر والرحلات مع الأخوال والخالات ، كما مر ذكره . ولا هم لنا غير اللعب في البادية وتسلق الجبال وصيد العصافير وأحيانًا نصيد سماني وحجلة وقطاة ، وحتى من الحيوان لم أر غير الكلب أو الجعير . والذئب نادرًا ما أراه ، وإلا الجمال والبقر والحمير وحدائق الزيمة . وكنت عند هذه العائلة الكريمة الكل في الكل وأنا الشيء نفسه . ولكن لكل شيء إذا ما تم نقصان ولابد من نغص العيش وكدر الحياة .

حماران وبغل

ذات يوم وبينما كنت ألهو وألعب مع صبيان القرية ، وكادت الشمس تختفي وراء الأفق ، حضرت على عادتي مع جيراني من الصبيان حاملين صيدنا وقادمين إلى عشنا راقصين جذلين نتهادى في مشينا كالحباب ، وعندما وصلنا إلى فناء الدار ، وجدنا شيئًا لم نعهده من قبل ، رأينا حمارين داكنين وبغلًا عند باب الدارة ، وسمعنا ضوضاء داخل العشة تنبئ عن وجود أضياف ، فركضت هاجمًا على القاعة ظانًا أن أبي فيصلًا رجع من السفر ، ولكن فرحتي برؤية الحمارين الفارهين والبغل العظيم الهيكل أعظم من كل شيء بالنسبة لصغر سني وكذلك رؤية البغل الذي لم أعرفه من قبل والحمر العظيمة وما عليها من « أخراج » جميلة . كل هذا في الحقيقة كان شيئا يسترعي النظر حتى بالنسبة للكبار ، فكيف بالنسبة لي وأنا الصغير الذي يرى لأول مرة حديقة

حيوانات بفناء العشة الصغيرة أو الدارة ، فقلت لزملائي الصغار : انتظروني بعرصة الدارة وإني سأدخل لأسلم على والدي فيصل ثم أرجع إليكم حالًا لنشاهد المنظر الحيواني الذي لم نره من قبل ، ولكنني لما دخلت فوجئت بثلاثة رجال ، رجل لابس ثوبًا أبيض ناصعًا ، ومتحزمًا بهميان من نسيج أحمر منسوج من الصوف ، وعليه قلنسوة جاوية تغطي رأسه ، ويرتدي معطفًا قصيرًا على الثوب وهو ما يسمى بالكوت في اللغة العامية الدخيلة ، وعلى كتفه قطعة قماش من الإبريسم .

أما الآخران فمن غير هميان وعلى رأسيهما قلنسوتان ، أحدهما مربوع القامة ذو ندبات في خديه والآخر أسود اللون طويل القامة معلم في خديه مثل رجال السودان .

وأمي هيف المرضع الرؤوم العطوف جالسة تبكي وتنتحب عند مدخل الدارة . وما أن رأيت المشهد الغريب ، حتى هرعت إلى الصبيان مستغيثًا بهم فجاءوا عن بكرة أبيهم وشاهدوا معي هذا الحادث الخطير الذي لم يشاهدوه من قبل فقالوا لي : أنشد أمك تعلمك . فاحتضنتها وتعلقت برقبتها وصرت أبكي مثلها وأسألها : ما الخبر ؟ فرفعت رأسها إليَّ وعانقتني ثم خرجت بي إلى فناء الدارة عن جنب بحيث لا يراها أحد من هؤلاء الرجال ، ثم قالت : « يا كبدي يا روحي روح مع زملائك الصبيان في ذلك الظلع ولا يأتي منكم أحد حتى أناديكم » ثم تخافتت مع صبي كبير ، يبلغ العاشرة ، ولا أدري ماذا قالت له . فاقتادني ذلك الغلام ونادى بقية الصبية فهرولنا نحو الجبل الذي بسفحه عين الزيمة .

وما هي إلا لحظات وإذا بأولئك الرجال قد وصلوا إلى سفح الجبل الذي كنا قد تسلقناه ومعهم الأم المرضع تبكي وتندب قائلة : « كبدي كبدي والله ما تأخذونه » فسألت الغلام الذي أسرت إليه ما أسرت قبلًا : عم كانت تخافتك وتناجيك ؟ فقال : إنها قالت : إن هؤلاء القوم هم الذين أخذوا أباك فيصلًا وجاءوا ليأخذوك ، فمنعتهم أمك ، ولكنهم لم يمتنعوا ، فقلت له : ولماذا لا أذهب لرؤية أبي فيصل ؟ فقال : يا مخبول ، هؤلاء هم الذين تسببوا في موته ، ثم جرى وقال : دعونا نهرب لئلا يلحقونا .

في هذه اللحظة سمعنا بوفاة زوجها فيصل وكنت أظنه مسافرًا كما قيل لي .. ولما تبينت موته اعتراني الغم والهم وحزنت ولكني كتمت حزني ريثما أنتهي وأبتعد عن هؤلاء القوم ، فصعدنا قمة الجبل ومعنا الغلمان الصغار ثم حانت منا التفاتة فإذا هم جادون في التسلق ، فصرنا نركض قفزًا ووثبًا لا نلوي على شيء ، ومع ذلك فالأصوات قد اقتربت والأم المرضع تصرخ باكية خلفهم قائلة : « والله ما تأخذونه هذا قطعة من كبدي » ! ! !

فالتفتنا نحوهم ظانين أننا قد ابتعدنا عنهم ولكنهم بالعكس بدأوا يهرولون في الصعود وينادوننا ، وأمنا تبكي وتشير إلينا ، من حيث لا يراها القوم ، أن ابتعدوا واهربوا . فقال قائدنا الصغير : ليلتقط كل منكم أحجارًا فالتقطنا من المعزاء ما نستطيع حمله من الزلط والحجارة . ثم قسمنا قائدنا عباديد وقال : احذفوهم حذفة واحدة ، وتجنبوا أمنا لا يلحقها الحصب . فرجمنا القوم رجمًا ثم واصلنا الهروب .

وفي الحقيقة لم نكن نعلم من هؤلاء القوم إلا ما علمنا الغلام بأنهم ملائكة الموت .

شوف يا ولد

لأول مرة أسمع هذه الجملة بأعلى صوت من هؤلاء القوم وهم ينادون بصوت جهوري وبآخر نبرة من نبرات حبال أصواتهم بهذه الجملة : (شوف يا ولد) وأنا والصبية لا نفهم كلمة (شوف) التي تقابل كلمة (عاين) بكسر الياء : يعني انظر بعينك ، ولا نفهم كلمة (ولد) بل عامة البادية تستخدم كلمة (وِرْع) بكسر الواو وتسكين الراء ثم العين ، فقلت للقائد الصغير : هل هؤلاء من الأعاجم ؟ فقال : لا ولكنهم حضر (بفتح الحاء والضاد ثم الراء) يعني سكان المدينة لا نفهم كلامهم ولا يفهمون كلامنا إلا بتكلف . ومهنتهم خطف الناس وقتلهم وازداد خوفنا واضطرابنا لهذه التصريحات الخطيرة وصرنا نقفز إلى قمم الجبال كأننا من العدائين .

الهـدوء

ثم همدت الضجة وخيم الهدوء فوقفنا لننظر هل منهم من أحد يركض خلفنا أم أننا انتصرنا ولم يفلحوا في اللحاق بنا ؟ فالتفتنا فلم نجد أحدًا ، فوقفنا لنلتقط أنفاسنا ثم لننظر ماذا سيحدث بعد هذا الهدوء وهذا السكون : هل نفاجأ بالهجوم من جهة لا نعلمها أم انتهى بنا المطاف ورجع القوم ؟

وكان الليل قد أرخى سدوله ، والعتمة قد خيمت على الرؤوس ، والهدوء قد عم الأودية والجبال . وطال انتظارنا حتى عزمنا على النزول ، لكن سرعان

ما جاءنا البشير من طرف الخال يأمرنا ويعلمنا بالنزول وذهاب القوم إلى بلادهم ، فهبطنا إلى السفح ، ثم إلى عشنا ، فلم نجد غير المرضع تمسح دموعها ، فسألناها : ما الخبر ؟ هل نحن في أحلام ؟ أم في حقائق ؟ فربتت على أكتافنا وفرقت علينا من الحمص والحلوى ما أسكتنا وألهانا . ثم شكرت الصبية وصرفتهم ، ثم نظفت جسمي بالاستحمام وبدلت ثيابي وعشتني ثم نومتني .

وفي الصباح قالت لي : إن القوم الذين رأيتهم البارحة هنا ثم جاؤوكم إلى سفح الجبل هم والدك الحقيقي ورفاقه السيدان (الدحلان والشعيب) جاءوا ليأخذوك من غير سابق إنذار . وأما والدك فيصل فقد مات ـ رحمه الله ـ موتًا طبيعيًا في أثناء غيابكم الطويل في رحلتكم مع الخالة . وقد كتمنا عنك الخبر لئلا تحزن ، أما الآن فقد واتت الفرصة فهذه هي الحقيقة . وأما ما أخبرك به الولد فما كان إلا لتتمكنوا من الهروب من هؤلاء القوم . لأني مصرة على عدم تسليمك لهم بهذه السرعة ، إذ إني فوجئت بأمر لم أكن أتوقعه . ووالله ما يأخذونك ، ولا أفرط فيك يا كبدي ، بعدما سهرت عليك هذه السنين من يوم ولادتك إلى السنة السادسة من عمرك ، وأنا قط ما رأيتهم ولا عرفتهم حتى لما جاءوا بك وليدًا كنت غير حاضرة ، ولم أدر إلا في الصباح حينما فاجأني أبوك المرحوم فيصل بقوله : هاك جاءك ولد إلى الأبد فاطمأننت ، وقرت نفسي وعيني بك ، وها أنا اليوم أفاجأ باختطافك من بين يدي . لا والله لا أسلمك أو تطلع روحي . ثم أجهشت بالبكاء من جديد .. فقلت لها : وكيف الخلاص منهم؟ أم كيف تخلصت منهم الآن؟ فقالت : « حضر أعمامك القناوية وخالك وخالتك وأرغموهم وأقنعوهم بالانصراف حتى يبرد الحديد ، ثم أخبروهم بأن يزورونا كل شهر أو شهرين مرة حتى أتعرف على والدي

الحضري الحقيقي وأهله، وحتى يدفعوا مصاريف السنين الست كاملة، إذا أرادوا براءة الذمة».

ثم بدأت تقص علي خبر وفاة أبي فيصل - رحمه الله - وكيف أن الناس يموتون ثم يدفنون في القبور وكيف تقام المآتم في البادية ومدة الحداد، وضربت لي مثلًا بذبح الخروف كيف يذبح ثم تزهق روحه ثم يؤكل، وهكذا الناس إلا أنهم يدفنون..

وهكذا أدخلت علي أفكارًا جديدة وعلمتني ما كنت أجهله حتى فهمت المحاضرة القديمة وعلمت أن أبي فيصل - رحمه الله - مات موتًا طبيعيًا. ثم جلست تقص علي من الحكايات والنوادر البدوية وتهون علي الأمور حتى أستعد للرحيل والفراق ثم سألتني عن رحلاتي مع الخالة وعن المدن والقرى والبساتين والمراعي التي مررنا بها كما أنها زودتني بمعلومات عن الأمكنة التي رحلنا إليها والتي رجعنا منها في رحلة الطائف وبلاد ثقيف.

العتاب

لكني عاتبتها عما لحقني من خطيئة كتمانها علي أمري طيلة هذه المدة، وعن عدم إخباري بأن هؤلاء القوم الذين جاءوا هم الوالد الحقيقي وربعه، حتى نتجنب حذفهم وإيذاءهم على الأقل. وبعد مجادلات ومحاورات قلت لها: شلت يميني إن كنت أعلم أنهم أهلي ثم أحصبهم لكن الذنب ليس ذنبي وإن كنت قد وقعت في الخطيئة فأستغفر الله إن الله غفور رحيم، فاعتذرت وقالت: الذنب ذنبي لست أدفعه وما عليك من بأس يا ولد الناس ونعوذ بالله من الوسواس الخناس.

الهـم والتعـقد

بعد هذه الجولة المفاجئة دب في رأسي الهم ، وصرت مغمومًا مفكرًا تفكيرًا عميقًا طويلًا كيف أني سأبارح هذه الزيمة ؟ وكيف أفارق هذه الأم الرؤوم العطوف الإنسانة بمعنى الكلمة المربية الساهرة ؟ أم كيف أفارق هذه الأسرة الكريمة وهذه الأرض الطيبة التي تغذيت بثمارها وارتويت بمياهها وألبانها وتظللت تحت أشجارها وسمائها ؟

لقد أضربت عن الطعام وصممت على الصيام ، وأحجمت عن الصيد والخروج مع أطفال الحي كعادتي . ولاحظت علي أمي المرضع ذلك فهونت من المسألة وخففت من الألم وأذهبت من الروع ما أتعب قلبي وأنحل جسمي ، ثم اطمأنت . وقالت : لا تفكر فلها مدبر وما بين غمضة عين يغير الله من حال إلى حال . ثم أردفت قائلة : « لو قدر لهم أن يأخذوك قهرًا فإني سأهاجر معك إلى مكة وسأبيع أرضي وحقلي وأتبعك حيثما تكون فإني لن أطيق فراقك ، ولن أصبر على غيابك أنا قد أعلمتك أني قد ثكلت جميع ما أعطاني الله من أولاد ذكور وحتى من الإناث لم يعش لي سوى أختك (عجوة) . وإني مفضلتك عليها وسأبقيها عند خالتك (حسون) ، وأرحل معك إن شاء الله » .

بعد ذلك سكن روعي ودبت في عروقي حركة النشاط تدريجيًا ، ولكنني اعتدت العتاب وقلت لها : لماذا لا تخبريني من زمان عن هذه القصة ؟ فقالت : « إنك ما تحيط » وهذه جملة بدوية وهي من الفصحى ، وتقصد بها أني لا أحيط علمًا قبل هذا السن من أطوار العمر ولو أحطت علمًا لتنغص عيشي

واعترتني الآلام قبل أوانها ، ومع أن قصة حياتي مؤلمة منذ الولادة لكنني ما شعرت بها إلا من ذلك الوقت فصاعدًا .

الزيـارة والتـآلـف

انتهت السنة الخامسة ودخلت في السادسة من عمري فترعرع جسمي وقويت عظامي وذاكرتي ونموت جسميًا وعقليًا . وصرت أدرك ما لم أكن أدركه في الأعوام الماضية من مراحل العمر ، وبدأت ألح على أمي ألا تتركني وحدي وألا تسلمني إلى الحضر الذين لا أعرفهم سواء أكانت صادقة أم مازحة ، ولكن سرعان ما انقلبت الخيالات إلى حقائق ، إذ بعد خمسة أشهر من تلك الواقعة جاء الوالد (رحمه الله) مع السيدين الجليلين يحمل الهدايا والنقل ــ وهو ما تسميه البادية بالفراحة ـ (بكسر الفاء) يعني ما يدخل الفرح على الصغار بتناولهم لهذا النقل (بضم النون المشددة وتسكين القاف ثم اللام) وكلمة العامية مستعملة في غير ما وضعت له ، وهذا النقل هو مجموعة من المجففات الحالية والمالحة يتسلى بها آكلها وقاضمها وتجتمع هذه الفراحة من الحمص والزبيب المجفف والتمر المجفف والحلوى الحمصية واللوزية وغير ذلك مما يستملح ويحلو ، والقصد من ذلك إغرائي حتى يتمكنوا من القبض علي بكل سهولة لإدخالي في المصيدة ثم اقتيادي إلى مكة المكرمة مسقط الرأس ولكنني أدركت ذلك وعزمت على الهروب نحو الجبل ، ولكن المرضع أمسكت بتلابيبي وجذبتني قائلة : « ما أنا بمعلمتك أني لن أفرط فيك مهما يكلف الأمر .. وهذا والدك الحقيقي فكن صابرًا مكرمًا لأضيافك » . ثم أخرج الوالد بعض الدراهمِ وأعطانيها ، وضمني وقبلني ، وفعل السيدان مثلما فعل .

ففرحت جذلًا وطربت سرورًا لأني لم أتعود على هذا من قبل.

لكن سرعان ما انقلبت وأبت إلى صوابي وتراجعت وصرخت في وجه القوم قائلًا: خذوا نقودكم وتمركم إن كنتم عازمين على اختطافي، إن عيني لا تزيغ فإني لا أفارق أمي لحظة واحدة، فقالوا لي جميعًا: لا تثريب عليك، إنك هنا مع أمك فلا تخف، إنك لا تفارقها أبدًا، فاطمأننت أنا والمرضع إلى حديثهم حيث نفذوا وصيتها وقدروها حق قدرها.

المغادرة

ثم أنهم امتطوا دوابهم وغادروا الزيمة وتركوني وأمي. وهكذا كانوا يجيئون كل ثلاثة أشهر ثم يعودون. وفي كل مرة يحضرون معهم الهدايا ويدخلون علينا السرور حتى وثقنا بهم واطمأننا اطمئنانًا لا مزيد عليه وأمناهم إلى أبعد مدى. ومن مأمنه يؤتى الحذر ولا مفر من القدر.

الملابن والزينة

دخلت الآن في السابعة من العمر، واشتد ساعدي، وقويت على المناضلة والرياضة والجري والتسلق والصيد ورعي الأغنام ومصارعة الصبيان والرقص والغناء البدوي والتشبع بروح البداوة. ولم يك ينقصني إلا التعليم والثقافة إذ لم يكن يوجد في تلك الضاحية مرشد ولا معلم ولا مثقف ولا متعلم.

وبينما أنا غارق في دلال الطفولة ولعب الحداثة، أركض مع الراكضين، وألهم مع اللاعبين من القرناء والأصدقاء إذ أرى ما يشبه الخمائل يعلو ظهور الركائب الأصائل، وإذا أربعة ملابن، والخامسة من الركائب عليها صناديق

وزكائب وخيمة بيضاء ولفة حمراء ، فأقبلت مع أصدقائي الصغار انظر إلى هذا المشهد العجيب والمنظر الغريب :

ما للجِمال مشيها وئيدا أجندلاً يحملن أم حديدا
أم الرجال جثمًا قعودا

رجال ونساء

إنهم رجال ونساء حضروا من أم القرى ، على الشقادف المستورة بالنسيج الأخضر والأحمر والأزرق والأصفر ، ومعهم الميرة والطعام فحطوا الرحال ونصبوا الخيام ، وجاءوا مع الجمال ، فسلموا وحيوا فرددنا عليهم السلام ، وما أن استقر بهم المقام حتى عرفناهم فقابلناهم وقدمنا قراهم . وكانت هذه المحامل تحمل العمات والوالد والأخوات يرتدين البراقع والملاءات . كما حضر السيدان الشعيب والدحلان يصحبهما رجلان طويلان أحدهما أطول من الآخر .

القرى والختان

تجمع أهل الزيمة لرؤية الضيوف ، وأحضروا الطبول والدفوف فقابلهم مرضعتي وأعمامي وأخوالي وعماتي وخالتي ، واجتمع القناوية كلهم وذبحت الذبائح وأعلنوا القِرى في القُرى ثم ناداني والدي المرحوم عبد الحميد ، فأعطاني حلوى ونقودً ، ا وعرفني بالعمات اللائي حضرن من مكة ، ثم قال لي : لا تبرح المكان ، واترك الصبيان ، لا تظن أننا جئنا لأخذك ، بل حضرنا لحفلة الختان ، وفرح الصبيان ، وأنا لا أعرف معنى الختان ولا أركان الإسلام والإيمان . وكان الرجلان الطويلان اللذان حضرا في تلك القافلة هما المرحوم

أحمد باسلاسل ، صديق الوالد بمكة ، وصاحب دكان المعصوب بسوق الليل ، والآخر هو (قملو) المزين الهندي الحلاق الخاتن . وكان أسمر طويلًا ويحمل في يديه حقيبة من الجلد تحمل في جوفها آلات القطع والعذاب .

الملاطفة والسياسة

مضى اليوم بسلام ووئام ، وفي الليل رجع القوم إلى الخيام وفي الصباح رجعوا إلى فناء العشة وفرشوا الشمال ، وبسطوا البساط الأحمر وبدأوا يتشاورون ويتخافتون ويتغامزون ، وأمي الرؤوم تحتضنني وتكتم البكاء ، وأنا لا أدري عما يكنه لي القضاء ، ثم تركتني وذهبت بعيدًا عن الغناء ، وإذا بالخلان والصبيان يخرجون سراعًا إلى الخلاء ، فركضت في أثرهم أنادي على الحاضر منهم والبادي ، وإذا بالقوم الضيوف يعترضون ، وعليَّ ينقضون ، فقلت للمرضع والخالة ما هذه الحالة ؟ وأين الوعد والعهد ؟ وأين الحب والود ؟ فقالتا : إن هذا مما ليس منه بد !

باسلاسل

كنت غافلًا عما يفعله الرجال ، وظننت ظن السوء بالمرضع والقناوية وقلت في نفسي : كيف يتخلون عني في مثل هذا المواقف ؟ وكيف يتركونني لهؤلاء الحضر ؟ فصرخت مستغيثًا وسرت سيرًا حثيثًا لأصل إلى العرصة ، وأغتنمها فرصة قبل أن تخنقني الغصة ، لكن العم باسلاسل كشر عن أنياب كالمعول ، وساعده شعيب فأمسكاني إمساكة شديدة ، فكأنما قيدت بحديدة ، فقلت : يارب كيف الخلاص ؟ ولات حين مناص ، ثم لمحت العم (قملو) الحلاق ، وقد

أخرج من حقيبته الموسى ، فأدركت آنذاك أن القوم قد حضروا لاختتاني ، ويالها من ساعة رهيبة ما أعظمها من مصيبة ، ناديت على خالي الحبيب ، وأمي الحبيبة ، فلا مجيب ولا مجيبة . ثم جاء رجل من الجيران ، فحلّ من خصري النسع والهميان ثم حل السراويل وقال : لا تخف إنك في أمان ، وتوكل على الرحمن ، فاستعنت بالرحيم المستعان فأغمضت عيني وسلمت أمري ولكنني شعرت بالسلاح وهول الجراح ، فجمعت قوتي وركلت الحلاق ، فسرقت الموسى قطعة من الفيشة والحوق وسالت الدماء ، وكانت معركة شبيهة بما جرى بين جذيمة والزباء .

وما هي إلا لحظات حتى ذرت المساحيق وضمدت الكمرة وتهللت وجوه النسوة والإخوة البررة ، وأقبلت المرضع والخالة وتعالت الزغاريد ، وذبحت الذبائح ، وقرعت الطبول ، ودفت الدفوف ورقص أبناء الحي ، وجاء والدي وعماتي يربتون على كتفي ويهدئون من روعي ، ثم مد الخوان في ذلك البستان وتناول القوم أكلة الغديرة ، وتناولوا في اليوم الثاني طعام العقيقة ، وهاتان الأكلتان قضاء على الوالدين ـ رحمهما الله ـ وأسكنهما فسيح جناته لأنهما أسلماني إلى المراضع قبل اليوم السابع لمرضي كما مر سابقًا .

ثم بعد قضاء حفلة الختان وما تبعها من حفلات وأفراح ، رجع الوالد ومن معه من عمات وضيوف إلى مكة المكرمة ، وبقيت مع أمي المرضع وعشيرتها ، ورجعت إلى لهوي ومرحي إدلالي ، حتى شفيت من ألم الختان ، وبرئت من الأسقام واشتدت العضلات والعظام ، وانقضى العام في سعادة وهناء وسلام .

الرحلة ! ! وداعًا يا زيمة

انتهى العام السابع والثلاثون ودخل الثامن والثلاثون بعد الألف والثلاثمائة للهجرة النبوية الشريفة ، وبذلك أكملت العام السادس من عمري ودخلت السابع . وجد الجد إذ جاء الوالد من مكة ومعه الصحب وأخذوني وأمي المرضع التي تركت أختي (عجوة) عند أختها حسون ؛ وسافرنا إلى مكة المشرفة مسقط الرأس لأبدأ حياتي من جديد .

ولما وصلنا بسلامة الله ذهب بي والدي إلى بيته الكبير بباب الدريبة ، ومعنا الأم المرضع ، وعندما وصلنا إلى باب الدار ، استأذنت والدي ، وقبلتني ثم قالت : سألقاك كل يوم جمعة إن شاء الله وبيتي بالمعابدة يعرفه أبوك ، وأنا في انتظارك إن شاء الله ، ثم خرجت ..

وراءها أينما تذهب

لكني لم أقتنع بكلامها فجريت وراءها ركضًا وتعلقت بها وصرخت باكيًا نادبًا منتحبًا ، فرجعت وطلعت معي الدار لتهدئني ثم لتذهب إلى بيتها بالمعابدة فجاملها الوالد والعمات مجاملة لا تكفي بالنسبة لمقامها وما لاقته في سبيلي من ألم وتعب وتربية وترك لوطنها ودارها ، وأهلها وثمرة فؤادها أختي (عجوة) ، وهذا ما قالته لي حينما كبرت لأني لم أكن أحيط علمًا بهذه الأمور نظرا لسني آنذاك ، والله يعلم حقائق الأمور .

المبيت بالجعفرية

ولما رأت ما رأت مما بي من اضطراب وهلع سألت عن أمي الحقيقية فقيل

لها : إنها مريضة وجالسة عند أهلها لتضع ، فقبلت القول على علاته ولم تتشدد في السؤال تأدبًا وخلقًا وسجية .. فقالت لأهلي : ما دام الأمر كذلك فدعوه ينم عندي الليلة بالمعابدة ، وسأرجعه لكم صباحًا إن شاء الله ، فوافقوا على مضض للضرورة .. وكان المفروض أن تنام هي في دارنا لتشجعني وتجعلني اطمئن وأثق بكلامها ، لكنها على ما زعمت لم تجد استقبالاً كافيًا ، كما أنه لم يطلب منها ذلك . ولكل وجهة وعادات وتقاليد ، فلا البدو يرضون بحياة الحضر ولا الحضر كذلك ، ولكل من الجانبين ظروف خاصة لا يعقلها إلا الرشيد الحاذق وكنت مجردًا من الصفتين في ذلك الوقت . وفي الحقيقة أن البدو ينكرون على حياة الحضر وكذلك الحضر وكل منهما يرى غث ما في يديه سمينًا .

خرجتْ وخرجتُ معها وذهبنا إلى المعابدة ونزلت في قاعة بحوش ، أي فناء كبير بقرب بيت شيخ المحلة في ذلك العهد ، وتوافد عليها في تلك الليلة أهل الزيمة المقيمون بمكة ، وبيت شيخ المعابدة وبيت الشيخ إبراهيم التلمساني بقرب البياضة ، وكانت حرمه من صديقات المرحومة أمي المرضع . ثم جاءنا العشاء من بيت شيخ المعابدة وجلس النسوة القناوية وغيرهن يستمعن إلى ما تسرده عليهن من حكايات بشأني وأنا أسمع كل شيء ، ومما سمعته أنها قط لم تر أهلي من حين تسلمها لي ، إلى حين المغادرة باستثناء العام الذي ترددوا فيه وطهروني[١] ثم رحلوني الرحلة الأخيرة . وشرحت لهم أسباب ذلك ومنها الحرب العالمية الأولى وانقطاع الطريق ، وسفر الوالد الحقيقي للخارج للعلاج ،

---

(١) يعني التطهير ومشتقاته في لهجة أهل الحجاز المعاصرة معنى الختان .

وتيقن أهلي الحقيقيين بأني ميت ، وعدم وجود من يذهب من الزيمة إلى مكة ليخبر أهلي بأني موجود حي أرزق ، ثم عدم مطالبة المرضع بنفقات لهذه المدة الطويلة مطلقًا مقابل بقائي عندها بالزيمة وعدم إبعادي عنها ، لعدم وجود أولاد ذكور لها كما مر بيانه في أول القصة ، وغير ذلك من الجمل التي لا أحفظها بالحرف ، وإنما تتلخص فيما ذكرته بإيجاز والله يعلم الحقائق ويحاسب على الدقائق ، وقد فهمت في تلك الليلة الشيء الكثير عن مكة شرفها الله وعن عادات البلد وعن الزيميات المقيمات بها وعن صديقات المحبوبة المرحومة وتوصيتها لهن علي ، ومضت تلك السويعات كأنها ثانية حيث انفض الجميع ونمت مع أمي تلك الليلة الطويلة القصيرة المظلمة المحزنة . هذا ما سمعته وعرفته وفقهته في تلك السويعات الحرجة . وأنا شخصيًا لا أعرف غير المرضع والزيمة والقناوية ، لو خيرت بين العالم بما فيه ومن فيه لما فضلت على الزيمة والمرضع أحدًا ـ ويعلم الله أني ما تخيلت تلك الدار الكبيرة دارنا بباب الدريبة في تلك الليلة بالذات إلا كسجن حالك في الساعة التي حضرت فيها وعلى الرغم مما قدم العمات المرحومات والوالد المرحوم من مقابلات ومجاملات وتدليل ، فإني لم أهضم شيئًا من ذلك ، ولم يكن همٌّ لي غير مرضعتي وعشيرتها وديارها ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لتلك الظروف التي حتمت هذا الواقع الأليم ، ولكن ما باليد حيلة .

ليلة الفراق والتوجع

إنها ليلة حزينة كئيبة ما أطولها وما أقصرها وما أشأمها ، إن أمي المرضع كانت تتقلب وتتأوه وتناجي ربها وتدعوه وتسأله الصبر على فراقي ، وتتناوم

لتجعلني أنام عنها ، وأنا أحس بإحساسها ، وأشعر بما تشعر به ! وهي كيف تنام عني وعين النجم ساهرة .. وتستحيل وصبغ الليل لم يحل ؟ إني سمعتها تقول لجاراتها وصديقاتها في تلك الليلة : « ليس من المعقول أن يقضي هذا الطفل طوال هذه السنين في الخلاء والصحراء ، ثم يفاجأ بهذا الواقع المحزن ، وأفاجأ بفراقه وخطفه من يدي دفعة واحدة ؟ » .

وكانت رحمها الله ذربة اللسان ، فصيحة النطق ، برزة المحاضر والمجالس .. إنها لم تنم تلك الليلة وإني أسمعها تدعو ربها وتسأله العوض والتصبر على الفراق ، وإني لكذلك أعدها ليلة قاسية بالنسبة إلي ، ولما ينتظرني بعدها من أهوال وشدائد ، وكنت أقول في قرارة نفسي : يا ليل طل ، يا نوم زل ، يا صبح قف لا تطلع .. إنها ليلة من ليالي امرئ القيس كموج البحر في طولها وأهوالها وآلامها وثقلها .. لا أريد طلوع الفجر لأن طلوعه ينذر بالفراق والبعاد ، لكن الليل مع الأسف ذهب بسرعة كسراب لامع وبرق ساطع فانبثق عن فجر صادع وما كان ليلي قبل ذاك يقصر ، فانتبهت أمي الحبيبة مذعورة واستيقظ طفلها المسكين وكانت تلك اللحظات أحلامًا وأوجاعًا وآلامًا .

جاءها طعام الإفطار من بيت شيخ المحلة ، فتناولناه ثم خرجت بي ، وهي تكتم آلامها ، فطافت بي على بيوت صديقاتها بيت الشيخ ، وبيت التلمساني ، وقالت لي : إذا انتابتك الشدائد وضاقت بك الأمور ـ لا سمح الله ـ في المستقبل فالجأ إلى هذه الدور لأني ربما أنتقل من هذه الدارة إلى دارة أوسع وأفضل ، فإذا جئت يوم الجمعة ولم تجدني فاسأل فلانة وفلانة أو اذهب إلى بيت شيخ المعابدة ليرسل معك دليلًا يدلك على بيتي ، وإذا لم يرسلك أهلك إليَّ ، فإني سآتيك بنفسي وآخذك إن شاء الله .

تقول ذلك في الظاهر ولكنها تضمر الرحيل في الباطن للرجوع إلى وطنها ، وما هذا إلا من باب الطمأنة ، وذلك ما كشفته في المستقبل .. إنها مرغمة على ذلك للظروف التي تحيط بها .. إنها كانت تحدثني وتبكي ، وأسمع وأبكي ، ولا سلاح للمرأة والصغير إلا البكاء .. خرجت بي من تلك القاعة وكان بجانبها بيت فخم بالنسبة لذلك الوقت ، إنه بيت شيخ المعابدة ، بيت الذكريات ، وللذكريات معنى لا يعقلها إلا من ذاق ألم الفراق وابتعد عن الأهل والديار .. وإني كلما مررت بهذه الدار أقف أمامها برهة من الزمن أتذكر ما جرى لي بداخلها في تلك الليالي ليالي الصبا والطفولة ، وما مر بي من حادثات ، وتمر الحادثات على الفتى فتهون غير شماتة الأعداء ، حتى في كهولتي الآن وقفت بها طويلًا أتذكر ما مضى وهل تصدق أني أحج ماشيًا حتى أقف أمامها ، وأتذكر ما كان بها من عهد قريب ؟ وقفت أمامها أتخيل تلك الليالي ، ورأيت أحد الأدباء جالسًا ينظر في إحدى نوافذها ويطل على الحجيج وظننته الأديب حسين سرحان يسكنها ، وكأنه هو ، فقلت في نفسي : ليته يتخيل ويحس بما أحسه لينشدني قصيدة تعبر عما في اللب ، أو ليتني هو ، كي أشهر وأنشد ، ولكني لست بشاعر ولا أديب .

لقد مشت بي إلى باب الدريبة لكنها أرتني بيوت صديقاتها في تلك البرهة الوجيزة ولقنتني درسًا لن أنساه حتى أوسد في لحدي ، وزودتني بالنصائح ، وأرشدتني لمعرفة الطريق والمسالك إلى أن انتهى بنا السير إلى دارنا بجانب الحرم الشريف ، فقرعت الباب ، فجاءت العمة الكبيرة وفتحت الباب وتسلمتني من الأم الكريمة ، وقفلت الباب . وذهبت الأم تبكي ، وصعدت مع عمتي إلى المجلس المعد للإقامة ، وكانت ساعة رهيبة في ظروف عصيبة لا أستطيع وصف

مشاعري وإحساساتي آنذاك حيالها وهكذا الدنيا لا تدوم على حال .

توضيحات لغوية وتاريخية وجغرافية للغريب من الكلمات

* **الطائف** : تقدم شيء عن الطائف القديم والحديث ، وفي هذه الحلقة سأميط اللثام عن آخر ما تبقى ذكره عن الطائف . وقد ذكرنا حدوده قبل هدم السور الذي بناه الشريف غالب في عام ١٢١٤هـ وكانت محلاته قبل هدم السور ثلاثًا ، والآن أصبحت ثماني قد ذكرت في الحلقات السابقة .

وأما قراه ـ جمع قرية ـ فكثيرة ، وأقرب قرية له (شُبرى) وما يتفرع منها و(جفيجف) وأما البعيدة فكثيرة ومنها (لية) وبساتينها ، و(الجال) و(مسرة) و(لقيم) وكانت به قرى فاندثرت ـ ثم (المليساء) و(بنو سالم) و(الصخيرة) و(قملة) و(جبرة) و(وادي محرم) و(الهدة) و(ثمالة) و(حمى النمور) و(الحنو) و(الحوية) وقد اتصلت الآن بالطائف .

وأما بساتينه القريبة فهي التي تقع بالسلامة ، وقروة ، وشبرى . وقد ذكرنا أسماءها سابقًا ، وأما سكانه فقد ذكرنا أن القبائل التي تسكنه هي عتيبة وثقيف وما يتفرع من هاتين القبيلتين ، وذكرنا الأسر القديمة التي تسكن الطائف القديم والأسر العريقة التي تسكنه وهي من أصل غير عربي وذكرنا بعضها .. وأضيف إلى ما مضى : (عائلة الكشميري) و(عائلة الردة) و(عائلة أبي دائخ) و(عائلة أبي رأس) و(عائلة العتيق) و(عائلة أبي دواهي) وغيرها من العائلات عربية الأصول وغير عربية الأصول التي تسكن الطائف منذ قرون . وما ذكرنا كان قليلًا من كثير وما وصل إليه علمنا وبحثنا مع أني لم أذكر الكثير من هذه العائلات لعدم وجود متسع من الوقت ، فمعذرة أيها القارئ .

وأما أودية الطائف فقد ذكرناها سابقًا ويجمعها كلها وادي (وج) فهو الذي تتفرع منه بقية أودية الطائف الشهيرة وفي مقدمتها وادي لية ثم وادي جفيجف ثم وادي قملة وجبرة ولقيم والمليساء وغير ذلك.

وسكان الضواحي فمعظمهم من بني صخر وبني سفيان والغشامرة واللمضة والأغربة والأخولة.

وأما جباله فكثيرة تراجع في كتاب عرام بن الأصبغ السلمي وغيره، وأشهرها جبال الشفا وكراء والنقب الأحمر والسكارى وجبال المعدن والوهط.

والأمكنة الأثرية في مقدمتها مسجد ابن عباس، وقد جدد في أيام الخديوي عباس محمد علي باشا عام ١٢٢٨هـ ثم في الوقت الحاضر جدد وزادت مساحته أضعافًا مضاعفة في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية يرحمه الله، ثم مسجد الهادي، ثم مسجد الكوع بالمثناة أو مسجد عداس (بفتح العين والدال المشددة المفتوحة ثم السين)، ويضاف إليه بستان صغير بهذا الاسم. وأما تسمية الكوع فهو من تسميات العامة على ما ظهر لي، والله أعلم.

أرض الطائف خصبة جدًا، ومعظمها يجود بمحصولين أيام هطول الأمطار الغزيرة ويزرع فيها كل أنواع الحبوب والفواكه كما أنها صالحة لزراعة الأرز، والتبغ، والقنب، والسمسم، وقصب السكر، والزيتون، والكندر، والكافور، والخروب، والتمر الهندي والبقول بأنواعها والعقاقير الطبية، والكينا، والخروع، والعشر، والصعتر، والسماق، والزهور.

أعشاب المراعي فكثيرة جدًا، في مقدمتها (العثرى) و(الرمث) و(الغرار)

و(جميل) و(البرسيم). وهناك أعشاب طبية ذكرت في الحلقة السابقة والتي منها البيلسان والحنظل، وزهور عطرية. منها: الكادي، والياسمين، والنرجس، والمرزنجوش، والثغامة، والليّة، كما توجد ببعض أوديته أشجار المقل وهو الدوم.

ومن نباتاته: الشوحط والقرظ والرنف، والضهباء، والعفص، والظيان، والأيدع، والبشام، واللظيان، والتنضب، والشبهان، والغضور، والسماق، وهو الصمغ بلغة الحجاز، والعرتن بلغة نجد ـ وأما العرار فهو بنجد، ثم الشقب، والأثرار، والعرعر، والطلح، والأثل، والأعذاء، والعفار، والنشم، والتألب، والنبع، والشقاح، وهو الريباس.

وأما الشجر الذي يحطب فهو الأراطي وهذا في الخبت والأرض العراء، ثم شجر الغلف وهو شجر الدباغ، ثم نبات الأسحل، والعيص، وكلمة الغلف الذي هو الدباغ فهي بفتح الغين وتسكين اللام ثم الفاء، ودباغه أفضل الأنواع وأجودها، ثم الأراك.

* الشواهد لجميع أسماء الفواكه والعقاقير والأعشاب والنباتات والبقول والأشجار موجودة في المطولات ولا يتسع المقام لذكرها هنا.. فالفاكهة جاء ذكرها في القرآن الكريم والتي لم يذكرها القرآن جاءت في الأحاديث الشريفة، والشعر العربي كالعناب مثلاً جاء في شعر امرئ القيس من الشواهد فيه قوله:

كأن قلوب الطير وطبًا ويابسًا
لدى وكرها العناب والحشف البالي

والسدرة جاءت في القرآن وثمره النبق، وجاء وصف هذه الثمرة في حديث الإسراء والمعراج (ثمرتها كقلال هجر) وجاء في شعر ابن المعتز:

كـأنـمـا الـنـبـق فـيـهـا   وقـد بـدا لـلـعـيـون
جـلاجـل مـن نـضـار   قد علقت في الغصون

وفي قصب السكر:

تحكيه سمر القنا ولكن   تـراه فـي جـسـمـه طلاوة
وكـلـمـا زدتـه عـذابًـا   زادك مـن ريـقـه حـلاوة

وفي الكمثرى:

وكـمـثـراء بـسـتـان   شـهـي الـطـعـم والمنـظـر
لـه طـعـم إذا ذيـق   كـمـاء الـورد والـسـكـر

* **الحنظل**: يشبه حبات البطيخ الخضر، صغير الحجم، مر المذاق، يضرب بمرارته المثل. جاء في شعر امرئ القيس:

كأني غداة البين يوم ترحلوا   لدى ثمرات الحي ناقف حنظل

* **الورد**: جاء في شعر الأعشى:

والزنبق الورد من أردانها ثمل

* **الياسمين والنرجس والمرزنجوش**: جاء في شعر أبي نواس والخليع بكثرة.

* **الثغام**: جاء في صحيح البخاري.

* **الثمام**: جاء في شعر النابغة (إلا الثمام وإلا موقد النار).

* **العشرق**: جاء في شعر الأعشى(كما استعان بريح عشرق زجل).

* **الأقحوان** : جاء في شعر امرئ القيس ، وعمر بن أبي ربيعة (حين تجلوه أقاح أو برد) .

* **شوف فعل الأمر من (شاف)** : بمعنى انظر بعينك ـ عامة مكة تنطق بها مقابل كلمة (عاين) في لغة البادية ، وهو غلط في الاستعمال لأن التشوف هو التطلع إلى الشيء ، وأما شاف يشوف فتكون بمعنى (ذاق) و(لمس) وجاء في شعر عمر بن أبي ربيعة :

يروى به الظمآن حين يشوفه   لذ المقبل باردًا معطارًا

تقول العامة : (عساك بالشوفان) وهو نبت خبيث مضر جدًا .

وشاف بمعنى نقش وطبع وسك الدراهم قال الجعدي : (دنانير مما شيف) وقال عنترة : (ركد الهواجر بالمشوف المعلم) .

* **كبدي** : (بفتح الكاف ، وتسكين الباء ، وكسر الدال ، بعدها الياء) لغة البادية وهي الفصحى وغالبًا ما تأتي الصيغة بكسر الباء ، وتجمع على كبود (بالضم) وهي القاعدة ، قال ابن مالك :

وبفعول فعل نحو كبد   يخص غالبًا كذاك يطرد

ولكن السماع في الجمع أكثر ما جاء على وزن أفعال ومنه قولهم : (ابن آكلة الأكباد) وقول الشاعر من الشواهد :

وإنما أولادنا بيننا   أكبادنا تمشي على الأرض

وفي الأثر : « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال » وقالت العرب أيضًا : كبدي (بفتح الكاف وتسكين الباء وكسر الدال) وجاء في شعرهم .

قال عمر بن أبي ربيعة :

يا صاحبي تصدعت كِبْدِي   أشكو الغداة إليكما وجدي

* **أنقاب** : جمع نقب (بفتح النون) والنقب هو الطريق الضيق في الجبل وجاء ذكره في حديث الدجال ، وأما النقيب فهو العريف والحامي للقوم وغيرهم ؛ قال أبو ذؤيب :

أرقت لذكره من غير نوب   كما يهتاج موشي نقيب

* **المزادات** : جمع مزادة وهي الوعاء الذي يوضع فيه الزاد ويستعار للقرب أو الشنان في لغة البادية .. قال المتنبي : « وإن ترك المطايا كالمزاد » .

* **المآتم** : بالميم المفتوحة والهمزة الساكنة والتاء المفتوحة ثم الميم ويجمع على مآتم . وفي الحقيقة أن العرب تطلق المأتم على اجتماع النساء سواء في الخير أم في الشر . وعند العامة المأتم هو المصيبة . والصواب (المناحة) وأما في زماننا هذا فيطلقون المأتم على اجتماع الرجال والنساء في مصيبة الموت وخاصة في الأيام الثلاثة أيام الحداد ، وهذا عكس ما كان عند العرب . وقد تجتمع النساء على حدة للتعزية ، وكذلك الرجال وهذا في زماننا الحاضر ويسمون هذا الاجتماع مأتمًا ـ وجاءت الكلمة في شعر الشواهد ؛ فمن ذلك :

غردت على فنن فصعد شجوها   ورق يجبن كما استجاب المأتم

* **الرؤوم** : هي التي تعطف على أولادها تحبهم فتقول : ناقة رؤوم ، وظبي رؤوم . وتستعار الصيغة للمرأة المشغوفة بأولادها . وجاء في المثل العربي (ظئر رؤوم خير من أم سؤوم) يضرب في الغريب المهتم بأمرك والقريب الذي يتغاضى عنك ، والظئر المرضع أيضًا .

* **الثمالة**: تقدم سابقًا الكلام عن ثمالة (بضم الثاء)، وموقعها في الطائف وسكانها، وأرضها، وما تنتج من ثمرات وفواكه ونباتات، ومن كان من أهلها من فحول الأدباء، وما للكلمة من معان في اللغة الفصحى من الشواهد. وأزيد عليها الآن شاهدًا من إنشاد ابن الأعرابي وهو حجة في العربية:

أغرك يا موصول منها ثمالة   وبقل بأكناف الغرى توءان ؟

* **المرضع**: (بكسر الضاد) المرأة التي لها ولد ترضعه، ولا تلحقها التاء اكتفاء بتأنيثها في المعنى؛ لأنها خاصة بالإناث كما في (طالق). فإذا رضع الصبي ثديها فهي مرضعة والجمع مرضعات ومراضع كما في الآية الكريمة ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: من الآية١٢] وجاء في الأثر ثم ضرب مثلًا (نعمت المرضعة وبئست الفاطمة) وهي التي تفطم قبل الأوان، وأما المراضيع فهم اللئام؛ قال الأخطل:

كانوا إذا الريح لفت عشب ذي أضم
غيث المراضيع ما منوا وما منعوا

* **المئناث**: بكسر الميم (على وزون مفعال) وهي التي لا تلد إلا الإناث، كذلك الرجل، لأنهما يستويان في وزن (مفعال) ويقابله (المذكار) وهي التي لا تلد إلا الذكور وقالت العرب: امرأة أنثى يعني كاملة ومستوفية الأنوثة وقالت: (رجل ذكر) يعني كامل الرجولة.. وأما الأنثيان (بضم الهمزة) فالخصيتان، وأهل اليمن يطلقون الأنثيين على الأذنين، ويطلق الأنثيان على قبيلتي بجيلة وقضاعة وكانتا في حرب مستمرة حتى إذا ما تهادنتا واصطلحتا

قال فيهما الكميت قصيدة منها قوله :

فيا عجبا للأنثيين تهادنا

* **السماني والحجلة والقطا** : السماني بضم السين وفتح الميم والنون ، والجمع سمانيات (بضم السين وفتح الميم والنون) مثل حبارى وحباريات . وكنا نصيده ونشويه ثم نلتهمه . وفي أيام الربيع نمنع صيده وأكله ؛ لأنه يأكل الأعشاب السامة ويلتقط بذور نبات البنج ، والدويخة ، والزقوم ، والشوفان ، ولحمه لذيذ طري .

وأما طير الحجلة بفتح الحاء والجيم ، وجمعه حجل(بالفتح فيهما) على وزن زجل ، فهو الطائر المعروف بالقبح على شكل القمري المطوق ، كنا نصيده في جميع فصول السنة ونشويه ونأكله ، وقد أهدي منه مشويًا لرسول الله ﷺ فأكله .

وتجمع الحجلة أيضًا على حجلان بكسر الحاء ، كما تجمع على حجلى (بكسر الحاء أيضًا ثم الجيم الساكنة واللام المفتوحة والألف المقصورة) ، و ليس في كلام العرب جمع بهذه الصيغة إلا هذه فقط والشاهد قول الشاعر :

ارحم أصيبيتي الذين كأنهم حجلى تدرج في الشربة وقع

وسميت بالحجلة للتحجيل الذي برجلها وهي كالقطا والحمام .

أما القطا فهو جمع قطاة ، وهو نوع من الحمام البري ، وجاء في شعر النابغة بلفظ الحمام مع أنه قطا ، لذلك لا يفرقون بينه وبين الحمام ، ومن الشواهد :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

وقالت زرقاء اليمامة :

يالیت ذا القطا لنا   إلى قطاة أهلنا

وكنا نصيده في جميع الفصول ونأكله مشويًا .

* روِّح : (بفتح الراء وكسر الواو المشددة ثم الحاء) .. بلغة البادية يعني : اذهب . والعامة تقول (روح) بضم الراء ثم الواو والحاء من راح يروح رواحًا . والرواح هو العشي . وراح بصيغة الماضي والرواح بصيغة المصدر له معان كثيرة . وأما (أراح) فتأتي من الراحة وتأتي بمعنى (أقدم) وتقول العرب : أراح عليه الليل ضيفًا بمعنى أقدمه عليه وقت الرواح . قال عروة :

يريح على الليل أضياف ماجد   كريم ومالي سترحًا مال مقتر

والعامة في مكة تستعمل كلمة (روّح) بكسر الواو المشددة يعني (حرك يدك بالمروحة) لتأتيك بالريح . وهي لغة فصيحة وعكسها عند البادية وهي رديء ، واللغة بحر زاخر .

* ورع : (بكسر الواو وتسكين الراء ثم العين) .. في لغة البادية بمعنى : (غلام) أو (ولد صغير) وهو صحيح إلا أنه محرف والصواب (ورع) على وزن (عَلَم) . والورع بمعنى التحرج والزهد والابتعاد عن الشهوات . وإذا قلت (ورِّع) بصيغة الأمر فمعناها : اكفف وادفع كما جاء في الأثر : (ورِّع اللصَّ ولا تراعه) .. والورع (بفتح الواو والراء) الزهد ، كما جاء في الصحيح : (خير دينكم الورع) .

* **الحضر** : (بفتحتين) خلاف البدو ـ والحاضرة ضد البادية ، وهي المدن والقرى والريف ، فتقول : فلان من الحاضرة وأخوه من البادية وفلان حضري

(بفتحتين) وأخوه بدوي. وتقول: تحضر بتشديد الضاد المفتوحة، وتبدى بتشديد الدال المفتوحة، أي صار البدوي من أهل الحضر والعكس. وتحضر واحتضر بمعنى حضر.

قال الطرماح:

وأخو الهموم إذا الهموم تحضرت
جنح الظلام وسادة لا يرقد

* **مخبول**: على وزن مفعول.. هو الذي اختبل عقله ففسد، إما من الفساد، وإما من الفتنة، وإما من الحب والهيام؛ فهو مختبل وبابه (خبل) من باب (نصر) قال أعشى قيس:

فكلنا مغرم يهذي بصاحبه   ناء ودان ومخبول ومختبل

* **سدول**: (بضم السين والدال)، يعني ستور من شدة الظلام، قال امرؤ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

وأما العتمة (بثلاث فتحات)، فهي وقت صلاة العشاء أو الثلث الأول من الليل بعد غبوبة الشفق. و(عتم) من باب (ضرب).

وجاء ذكر العتمة في (الصحيحين).. ومن كلام العرب: (ما زال يسري منجدًا حتى عتم)، يعني دخل في وقت العتمة.

* **أو تطلع**: (أو) هنا بمعنى (أن) وبمعنى (أن) الاستثنائية. وهنا ينصب الفعل المضارع بعدها بإضمار (أن) فإذا كان بمعنى (أن) فشاهدها:

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

وإذا كانت بمعنى (أن) فشاهدها الشاهد نفسه، ولها أكثر من عشرة معان.

وأشار إلى ذلك ابن مالك:

خير أبح قسم بأو وأبهم واشكك وإضراب بها أيضًا نمى

وفي كل هذه المعاني تكون حرفًا ومبنية على السكون وتكون اسمًا في حالة واحدة فقط، راجع ذلك في كتب القواعد.

* **عبابيد**: ويجوز أن تقول: (عبابيد) يعني فرقًا فرقًا: كل مجموعة من الناس على حدة. وهذه الصيغة لا واحد لها من لفظها بل هكذا سمعت، وجاء في كلام العرب: (ومر راكبًا عبابيده).

* **شلت يمينه**: بالبناء للمجهول يعني قُطعت أو توقفت بأمر الله عن الحركة.

ومن الشواهد:

شلت يمينك إن قتلت لمسلمًا حلت عليك عقوبة المتعمد

* **جنب**: بضمتين ثم الباء، وهو بمعنى البعد كما في قوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: من الآية ١١] وبمعنى الرجل الملتبس بالجنابة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: من الآية ٦] أي من كان ذا جنابة (بفتح الجيم) أي من أنزل بشهوة أو جماع فعليه الغسل من الجنابة التي هي الحدث الأكبر، وإذا وصفت قومًا بجنابة يعني قطعتهم وفرقتهم إلى فرق - قال الأخطل:

ولكنما لاقيت قومًا جنابة قفا العين واستعجلت نقل الصرائر

* **العطوف الإنسان** : العطوف هي التي تعطف على أولادها وترؤمهم وتحنو عليهم ، والإنسان يعني الإنسانة ، والصيغة هذه يستوي فيها المذكر والمؤنث ، فتقول : محمد إنسان لعوب ومريم إنسان لعوب ولا تقول إنسانة ـ لكن سيبويه (إمام النحاة) سمع كلمة إنسانة في زمانه فاستحسنها وكان قد سمعها من بعض الشعراء المولدين فأقرها في قواعده ، وقبل هذا التاريخ لم تكن تسمع أبدًا . وسيبويه حجة وإمام النحاة ، فمن بعده استساغ الناس كلمة إنسانة في وصف المرأة ، ومن ذلك :

إنسانة فتانة   بدر الدجى منها خجل

* **الخمائل والملابن والركائب والزكائب** : و(الملابن) بفتح الميم وكسر الباء جمع (ملبن) بكسر الميم ، على وزن (منبر) وهو المحمل بكسر الميم : مركبة من مركبات العرب كالهودج تكون مربعة يمكن أن ينام فيها المسافر ، وهي الهوادج المتطورة التي تشبه الشقدف اليوم . والملبن من اختراع الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقبله كان الناس لا ينامون لا في الهوادج ولا في غيرها من محامل العرب ، وكان قد اخترعه لهند زوجة عبد الملك بن مروان ، عندما أصدر إليه أمره بترحيلها إلى دمشق ، بعد أن طلقها الحجاج ، والقصة تراجع في المطولات من كتب التاريخ .

و(الركائب) هي الإبل ، و(الركاب) ـ بكسر الراءـ هي الإبل الرواحل أيضًا واحدتها راحلة ، والجمع ركب وركابات وركائب ، وإذا كانت ناقة قلت ركباه وركبانة كما جاء في الأثر : (أبلغني ناقة حلبانة ركبانة) .

و(الزكائب) جمع زكيبة بالعامية المصرية ، في الفصحى جوالق ، ولعل

المصريين استعاروا الكلمة من الزكوب مصدر زكب الإناء إذا ملأه، والأفصح (الجوالق) ـ بضم الجيم وبكسرها ـ وهو الوعاء المتخذ من الصوف أو الشعر. والجمع (جوالق) كصحائف وتجمع أيضًا على (جواليق) كما في الشعر الجاهلي. والكلمة في حد ذاتها فارسية معربة كغيرها من الكلمات التي أضافها العرب إلى لغتهم، وبعضهم جمع الكلمة على جوالقات لكن سيبويه لم يوافق على هذه الصيغة الأخيرة.

* **الربع**: بفتح الراء وتسكين الباء ثم العين، وتطلق على الدار والمحلة، فربع الرجل أهل محلته أو منزله، فالكلمة مجاز بالحذف كما في الآية الكريمة: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: من الآية٨٢] وتجمع على ربوع ـ كما تطلق كلمة الربع أيضًا على ما حول الدار من آثار، وجاءت في الشعر الجاهلي وما بعده ـ فقال زهير:

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا أنعم صباحًا أيها الربع وأسلم

وقال النابغة:

وقفت فيها أصيلاً كي أسألها عيت جوابًا وما بالربع من أحد

* **البراقع والملاءات**: البرقع على وزن قنفذ ـ سمة لفخذ البعير. والبرقع: يطلق أيضًا على ما يستر وجه المرأة المتحضرة أي ساكنة الحضر ـ قال يزيد بن معاوية:

جاءت بوجه كأن البدر برقعه نورًا على مائس كالغصن معتدل

وأما ما يستر وجوه الأعرابيات والجمال وغيرها فيقال له برقع (بفتح القاف) كجندب. وأما (الملاءات والملايات) بكسر الميم في الصيغتين فمن كلام العامة

في مكة ، وهو خطأ والصواب (المُلاءة) بضم الميم ، وهي الريطة ذات لفقتين تلبسها المرأة فوق ثياب البيت لتخرج بها إلى الأسواق ، كما تطلق على الثوب الذي يلبس على الفخذين ـ ونحن بصدد الملاءة التي تغطي المرأة من رأسها إلى أخمص قدميها كما هو المشاهد في ملاءة أهل نجد والتي أشار إليها صناجة العرب :

والساحبات ذيول الريط آونة والرافلات على أعجازها العجل

والملاءة ذات اللفقين ، أي النصفين : العلوي والسفلي ، هي ما تسميها العامة بالقنعة التركية . وكانت تستعمل إلى ما قبل عشرين عامًا ، ثم بطل استعمالها نهائيًا مع التطور الحديث . وقد بحثت في بيوت الأزياء في أوروبا ، وتركيا بصفة خاصة ، عن هذا القناع التركي فقيل لي : إنه من الأزياء العربية التي نقلت مع العرب الفاتحين في صدر الإسلام وليست هذه الملاءة إلا عربية بحتة ، فتأسفت لتسميتها عندنا (قنعة تركية) وهي عربية ، وأول من طور هذه الملاءة وجعلها جزأين هي المتجردة زوجة النعمان بسبب قربها من بلاد الفرس والحضارة الفارسية ، وكانت الملاءة لطولها تسحب بذيولها وتمسح التراب وتعلق بها الأدران والقمامة وهذه الصنعة الإسبانية استخدمتها صاحبة امرئ القيس لغرض التمويه ، فقد كانت تجر وراءها ذيل ملاءتها لتعفى آثار الأقدام ، كما جاء في شعر امرئ القيس :

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل

فجاءت المتجردة وطورت هذه المروط والريط والملاء فرفعتها إلى الكعبين ، ورحلتها ، ونقشتها ، وطرزتها ، بخيوط الذهب والفضة ، وجعلتها من الخز والإبريسم ، والصوف المرعزي . وهي صاحبة النصيف الذي ذكره النابغة الذبياني :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

هذه كانت ملاءة الحسن الجميلة التي بدلناها في عصرنا الحالي بالدون والقبيح ، مع الأسف ..

فكلمة الملاءة (بضم الميم وفتح اللام والهمزة ثم التاء المربوطة) هي الملاءة الواحدة وتستعار لمسميات كثيرة تشبيهًا واستعارة ومجازًا ـ قال ذو الرمة :

أقامت به حتى ذوي العود في الثرى
وساق الثريا في ملاءته الفجر

وإذا أردت جمع هذه الكلمة حذفت الهاء (أو ما يسمى بالتاء المربوطة) فتقول : (ملاء) على وزن بزاة ونحاة ـ قال امرؤ القيس :

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل

وقال الشنفري في لامية العرب :

ترود الأراوي الصحم حولي كأنها
عذارى عليهن الملاء المذيل

* **إبْرِيسِم هِمْيَان ـ قَلَنْسُوَةٌ** : تقول العامة في مكة : إبريسمي (بتسكين الباء وكسر الراء ثم ياء المد والسين المكسورة والميم) وهو غلط وتحريف ، والصواب إبريسم (بكسر الهمزة وتسكين الباء وفتح الراء وتسكين الياء وفتح السين ثم الميم) ، وهو الحرير المتخذ من دود القز وهو أفخر أنواع الحرير ، ثم إنه ينقش ويرحل ويطرز فتكون منه العمائم والثياب وغيرها . والكلمة فارسية معربة أضافتها العرب إلى لغتها ، ولذلك يخلطون في الصيغة ؛ لأن العرب تخلط فيما ليس من كلامها ، فبعضهم ينطقها برسام وإبريسم على وزن إهليلج ، وغير

ذلك من التغييرات ، إنما الصيغة الأولى هي المتفق عليها ، كما تطلق الكلمة الإبريسم على الذبحة الصدرية عند العرب فيقولون : فلان أصيب بالبرسام أو الإبريسم ، أعاذنا الله وإياكم من السوء .

يقابل الحرير الإبريسم في الفصحى الدمقس ، وقد أجمع اللغويون ، وفي مقدمتهم التبريزي ، وهو فارسي الأصل ، على أن الدمقس هو الإبريسم ، وهو أفخر الأنواع وقد شبه به الشعراء الجاهليون ومن بعدهم .. قال امرؤ القيس :

فظل العذارى يرتمين بلحمها　　　وشحم كهداب الدمقس المفتل

وأول ما يمج الدود من فيه القز ، ثم إذا نسج قيل له الإبريسم أو الدمقس ، فإذا أضيف إليه أفخر أنواع الصوف وهو المرعزي قيل له الخز . قال الليث : لا أرى الخز من الإبريسم إلا كما أرى الحنطة من الدقيق ، يعني أن القز هو الخام أو الخامة في لغة العامة ـ ثم إذا دخل المصانع تغير اسمه إلى دمقس وإبريسم وغير ذلك من الأنواع ..

* **الهميان** (بكسر الهاء وتسكين الميم وفتح الياء بعد الألف والنون) : فارسي معرب ، ووزنه فعيال وفعلان وفعلال .. وهو ما تشد به السراويل والتكة أو الكيس الذي يجعل فيه النفقة ، ويشد على الوسط وجمعه همايين على وزن ثعابين .

وأما الهميان (بفتح الهاء والميم والياء) فهو مصدر هما يهمو وهمى يهمى ، (واوي ويائي) ، وهو عربي فصيح ولا صلة له بالكلمة المعربة الفارسية مع تقارب اللفظ في النطق واختلاف في المعنى ـ وفعل هما وهمى يطلق على معان كثيرة وفي مقدمتها : سال وصب الماء والدمع : (فما لعَيْنَيْكَ إن قلت اكففا همتا ؟) .

* **القلنسوة** (بفتح القاف واللام وتسكين النون وضم السين ثم الواو المفتوحة والتاء المربوطة)، جمعها قلانس (بكسر النون) وهي العمائم التي تلف على الرأس، وجاء ذكرها في (الصحيح): «يعطي العبد بكل دورة أو كورة يكورها على قلنسوة، وفي رواية رأسه نورًا يوم القيامة» أو ما في معناه. وجاء في الأثر: «العمائم تيجان العرب» وقال الحجاج: «متى أضع العمامة تعرفوني».

والمعمم (بالتشديد على وزن المعظم) هو السيد الذي يقلده القوم أمورهم ويلجأ إليه العوام. والعامة في مكة تطلق كلمة المعمم على المغفل الأبله الدرويش، وهذا خطأ فاحش. وإذا قلت (شيخًا على كرسيه معممًا) أي مبجلًا معظمًا مسودًا بخلاف زعم العوام هداهم الله وكل ما يلف على الرأس فهو عمامة وجمعها عمائم. وتقول العرب: رجل معتم ومعمم، أي لابس العمامة. ولبن معمم ومعتم أي مزبد ودسم والفعل فيها أعتم، قال ذو الرمة:

واعتم بالزبد الجعد الخراطيم

* **الخرس ـ العقيقة ـ الختان**: الخرس (بضم الخاء ثم الراء والسين) كما يقال خراس (بكسر الخاء): طعام الولادة والخرسة (بضم الخاء وتسكين الراء وفتح السين ثم التاء المربوطة): طعام النفساء. وتقول العرب: تخرست النفساء، أي اتخذت الخرسة لنفسها، وجاء في المثل العربي. «تخرسي يا نفس لا مخرسة لك» مثل يضرب في قيام المرء بشؤون نفسه من غير أن يساعده أحد.

والعقيقة: هي الشعر الذي يولد عليه كل مولود من الناس والبهائم. ومنها سميت الشاة التي تذبح على المولود يوم أسبوعه عقيقة. وجاء ذكرها في الأثر، وتطلق العقيقة على معان كثيرة وتستعار للسيف حتى صارت علمًا عليه.

أما الختان (بكسر الخاء وفتح التاء ثم ألف المد والنون) وكذلك الختانة (بزيادة التاء المربوطة) فهو موضع القطع من الذكر، وتسمى الدعوة للختان (ختانًا). وختن يأتي من باب نصر وضرب، وجاء في الأثر: (إذا التقى الختانان وجب الغسل). والختانان هما الذكر والفرج، وتقول اختتن الصبي بمعنى ختن بالبناء للمجهول، وجاء في الأثر: (اختتن إبراهيم بقدوم). والختان هو قطع قلفة الصبي أو غلفته (بضم القاف أوالغين وتسكين اللام وفتح الفاء ثم التاء المربوطة) والقلفة أو الغلفة أو الأغرل (على وزن الغرفة)، هي الجليدة التي يقطعها الخاتن، وتجمع على قلف (ضم ثم فتح اللام) ـ وأما الأغلف أو الأقلف أو الأغرل فهو الذي لم يختن، وصيغة الجمع قلف وغلف وغرل ـ بضم فسكون ـ ومن شواهد كتاب (المخصص)لابن سيده:

ترى أبناءنا غرلاً عليها وتنكرهم بهن مختنينا

ويقال للذي قطعت غرلته أو قلفته أو غلفته: مختون ومختَّن كما جاء في الشاهد.

ويشترك في صيغة الأغلف انفرادًا وجمعًا القلب الذي لا يعي ومنه الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾ [البقرة: من الآية٨٨]. والقليف (على وزن القليب) هو الذي قطعت قلفته، والقلف على (وزن الكتف) وهو الصبي الذي لم يختتن، والعصير الذي يوجد، كما جاء في الأثر: (كان يشرب العصير ما لم يقلف) وبابه قلف قلفًا من باب كلف كلفًا.

ويقال لمن يقوم بعملية الختان: (خاتن) بصيغة اسم الفاعل. والختانة (بكسر الخاء) هي حرفة الخاتن، ويقال: إن من عادات أهل مكة أن يذبحوا في اليوم السابع العقيقة ويقسموا الحلوى ويوقدوا الشموع، ويدعوا صبيان الأقربين

وذوي الأرحام والجيران لحضور هذه الحفلة .

وإذا كان المولود غلامًا ينشدون في الحفل قولهم :

يـا رب يـا رحمـن بارك لنا في الغلام

وإذا كان أنثى قيل :

يـا رب الـبـريـة بارك لنا في البنية

قرأت هذه العادة في مكتبة بنسلفانيا في بتسبرج بالولايات المتحدة الأمريكية في كتاب لمؤلف مستشرق من أوروبا الغربية ألفه وسماه (مكة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي) . وهذا المؤلف دخل مكة في أيام بناء المدرسة الصولتية وتتلمذ على الشيخ رحمة الله المؤسس لهذه المدرسة ، ومكث في مكة بضع سنوات وسكن في الرباطات ، واحتك بجميع الطبقات ، وصور رؤساء الدواوين وكبار الأشراف وحاكم مكة والأسر العريقة ، وذكر العادات كلها ولم يترك صغيرة ولا كبيرة . ثم خرج من مكة وألف هذا الكتاب العجيب ، وسأذكر عند كل مناسبة قصة من قصصه في المستقبل ـ إن شاء الله ـ بحسب الظروف .. وأنا شخصيًا لم أدع في صغري لمثل هذه الحفلات حتى يتسنى لي وصفها بأحسن الأوصاف ، وقد سمعت أن مثل هذه الحفلات ما زالت تقام حتى الآن على مثل النمط الذي ذكره المستشرق الهولندي ، لكن لبعض الخواص من الأثرياء .. أما الحفلة التي أقيمت لختاني في الزيمة فعلى النمط الذي ذكرته ، وقد تأخرت عن ميعادها بسبب الظروف التي ذكرتها في أول رحلات الطفولة . والعرب تسمي طعام الختان (العذيرة) .

* **الفيشة ـ الحوق ـ الكمرة** : هذه الكلمات الثلاث جاءت في آخر صفحة من صفحات الحلقة الخامسة ، وفي ذكر الختان ، وهي من الغريب ، ولكوني

التزمت ألا ألوث مذكراتي بالكلمات العامية البغيضة، لذلك كان لزامًا علي شرح كل كلمة غريبة تأتي في هذه المذكرات، ليتبين القارئ العربي لغته الفصيحة، وليحافظ على التراث العربي الأصيل، وهذا بالنسبة للطلبة الصغار وبعض الكبار من غير المثقفين أمثالي وللذين لا توجد لديهم فرصة لمراجعة المعاجم وكتب اللغة، أما القراء المضطلعون الفصحاء النبهاء فهم في غنى عن قراءة هذه الكلمات وشرحها، لئلا تضيع أوقاتهم سدى والوقت أثمن من الذهب، فمعذرة وعفواً. ولنرجع إلى الهدف.

* **الفيشة**: (بفتح الفاء وتسكين الياء وفتح الشين ثم التاء المربوطة)، هي: رأس الذكر وهو أعلى الهامة، وهي الكمرة (بفتح الكاف والميم والراء والهاء)، والفقهاء يسمونها الحشفة استعارة، وإذا كانت عظيمة يسمونها (فيشلة) - بفتح الفاء وتسكين الياء وفتح الشين وزيادة اللام، ثم الهاء أو التاء المربوطة - فإذا قفلت أي قطعت الجلدة التي هي الغلفة أو القلفة أو الغرلة برزت النرجسة الوردية وكشفت، وتسمى عند العامة في مكة بالبلحة، وفي مصر بالحمامة، وعند الفقهاء وبعض اللغويين بالحشفة، وفي الفصحى المعتمدة والمجمع عليها بـ (الفيشة)، وهذه الكلمة موجودة في اللغة الإنكليزية إلا أنها تستعمل في الآلات الكهربائية وما أقرب اللفظين والمعنيين في النطق والاستعمال.

وجاء ذكر الفيشة، التي هي رأس الذكر، في الشعر الجاهلي والإسلامي ومن ذلك:

وفيشة زين وليست فاضحة   نابلة طورًا وطورًا رامحة

وإذا جمعت هذه الصيغة حذفت الهاء من آخر الكلمة أو التاء المربوطة، والشاهد قول الشاعر:

وفيشة ليست كهذي الفيش قد ملئت من خرق وطيش

وأما الفيشلة فهي أيضًا الفيشة إلا أنها أعظم حجمًا وقد تقدم ذكرها ، وإذا جمعتها حذفت الهاء أو التاء المربوطة من آخرها كما في الفيشة وجاء ذكرها في الشعر الجاهلي والمخضرم .

* **الكمرة** : الكمرة بفتح الكاف والميم والراء ثم الهاء أو التاء المربوطة ، وهي الحشفة أو الفيشة أو هامة الذكر أو ما فوق الختان ، وجاء ذكرها في قصة هند أم معاوية ، قبل زواجها من أبي سفيان ، حينما ذهبت مع زوجها الأول ووالدها إلى كاهن اليمن سطيح - راجع ذلك في التاريخ - وإذا أردت جمع هذه الصيغة فتحذف الهاء من آخرها كما في الفيشة والفيشلة وغيرهما مما تقدم .. ومما جاء في ذلك من شواهد (المخصص) :

أن أنْعت أعيارًا رعين الخنزرا أنعتهن أيرًا وكمرا

وبالمناسبة ، أذكر أن العامة في مكة يسمون الهميان أو المنطقة التي يحتزمون بها ويشدونها على خصورهم ، أو الهميان المتخذ من الجلد وفيه جيوب للدراهم يسمونه (كمرا) وأرجو أن يعدلوا عن ذلك إذا أمعنوا النظر في تفسير هذه الكلمة والاطلاع عليها ليتعلموا الفصحى ولينبذوا الألفاظ المستعملة في غير ما وضعت له ..

* **الحوق** : بضم الحاء بعدها الواو ثم القاف وقد تفتح الحاء وتسكن الواو والقاف ، وهو الإطار المحيط بالشيء المستدير حوله . و(الحوق) أيضًا بمعناه هو ما أحاط بالكمرة أو الفيشة من حروفها . وتقول العرب : كمرة حوقاء وفيشلة حوقاء وفيشة مطلة . وتقول للذكر إذا تحوق (الأحوق والمحوق) . وجاء ذكر

الحوق في الشعر والأثر، ومما جاء في الأثر ومن الشواهد (المخصص) .. قوله من الأثر: (قد وجب المهر إذا غاب الحوق).

وبهذه الكلمة تنتهي المفردات اللغوية والتاريخية والجغرافية التي جاءت سابقًا وإن بقي شيء فسيأتي إن شاء الله لاحقًا.

وأطلب العفو من القراء وأرجو ألا يؤاخذوني؛ لأني أسهبت بعض الشيء في هذا الصدد وما ذلك إلا من باب حرصي على شرح الكلمات الدينية واللغوية ولا حياء في الدين..

الفصل الثاني

خلقت رحالة

وما أن استقر مقامي في دارنا مسقط رأسي بباب الدريبة بجانب الحرم المكي الشريف في ذلك اليوم الذي أحضرتني فيه الأم المرضع إلى دارنا حتى سألت عماتي (رحمهن الله تعالى)، عن والدي ووالدتي فقلن: إنه ينام بالخريف مع بعض زملائه من أهل السطوح، وأما عن والدتك فهي عند أهلها زعلانة وحامل وسترجع بعد الوضع أو الأربعين.

ومن عادات أهل مكة ألا تخرج النفساء حتى تطهر، وعند بعض أهل البادية وبعض الإفريقيين الخروج بعد السابع.. ثم سألتهن: هل أستطيع زيارتها؟ والطفولة من شأنها التطفل والتطلع والفضول. فقلن لي: لا. وكانت هذه أول العقد، فسكت وما كان طبعي قبل ذلك السكوت أو المجاملة؛ لأني نشأت في بادية وبيئة مجردة من طبائع المتحضرين والمتمدنين.

حضور الوالد

في الصباح الباكر حضر الوالد وأنزلني إلى مجلسه، ودللني، ولاعبني، ثم ذهب بي إلى السوق لشراء بعض الضروريات ثم رجعنا.

عمنا رحمه الله

وكان عمي قد حضر من مدرسته ومجلسه مقابل مجلس الوالد فاشتركا في إيناسي وتسليتي، وكان العم والوالد موظفين بمدرسة الخياط بالمسعى براتب

قدره مائة وستون قرشًا عثمانيًا شهريًا، وكان الوالي على مكة هو الشريف الحسين بن علي صاحب النهضة العربية ـ رحمه الله ـ كما كانا إمامين وخطيبين بالمسجد الحرام براتب قدره سبعون قرشًا ونصف أردب من القمح..

وهذه الوظيفة ورثاها من الجد المرحوم الشيخ عبد المعطي مرداد الذي كان شيخًا على الأئمة والخطباء في زمانه، ثم آلت الشياخة بعد وفاته إلى عمهما المرحوم الشيخ عبد الله أحمد أبو الخير مرداد الذي أضيفت إليه وظيفة قضاء مكة فيما بعد، وكان بعلًا لإحدى عماتي، ورزق منها ذرية طيبة.

وكان والدي يرحل كثيرًا إلى الخارج للعلاج وطلب الرزق وينيب عنه في وظيفة التدريس المرحوم الشيخ عبد الغني بشير.. وفي الإمامة خاله المرحوم السيد موسى الفتياني..

قضيت ذلك اليوم وكنت سارح الذهن شارد الفكر غير منسجم بالمرة كأني في أرجوحة أو دوامة أو عوامة في البحر تتقاذفها الأمواج في بحر هائج.

والدي رحالة

جاء الليل بأسراره وأهواله حيث مدت الفرش وأوى كل واحد إلى فراشه، وكان بجوار فراشي فراش العمة الصغرى، وكانت تعطف علي نوعًا ما، وتقص علي من الحكايات والنوادر ما يخفف عني بعض آلام فراق أمي المرضع، ويؤنسني في وحشتي وغربتي؛ لأني شبه غريب وما لي من صديق ولا حبيب إلا السميع المجيب.

طار النوم من عيني وأرقت أرقًا شديدًا، فصرت أسأل العمة الصغرى عن أمي الحقيقية أين هي؟ وكيف الوصول إليها؟ وعن والدي.. أين هو؟ ولماذا لم

يكن معنا ؟ وعن بقية الأهل فقالت لي : أمك عند أهلها ، وهي كما قالت لك العمة الكبرى فلا حاجة لإعادة الكلام .. وأما كونها عند أهلها فلأنها مفاتنة[1] . وأما والدك فمريض يعتريه مرض الخفقان وهو ما يسمى اليوم بالضغط والهبوط في القلب ، ولذلك فهو يسافر إلى الخارج دائمًا للعلاج ، وهو الآن على وشك السفر إلى الهند وينيب عنه للقيام بالوظيفة في المسجد الحرام خاله السيد موسى الفتياني وهو أحد الأئمة أيضًا .. ثم أمرتني أن أكتم هذه الأسرار وألا أقول لأحد بها ، وكأني من الرجال الكبار الذين يكتمون الأسرار ، هكذا تصورت وظنت ، وما درست عقول الأطفال والصبيان ، ولكنه تصور منها وحسن ظن ليس إلا ، رحمها الله .

ذوو القربى والجدة ذات المئة

أصبح الصبح وجاءت العمة الوسطى وبناتها وأولادها ثم جاءت أسرة آل الفتياني وبعض آل مرداد ممن سمع بوصول الطفل البدوي كاتب هذه المذكرات ، وكان يومًا لطيفًا جمع الله فيه شمل ذوي القربى حتى الجدة ساكنة المبيت وهي عمة العمات وكانت طاعنة في السن تجاوزت المائة لكنها تعي وتسمع وتصعد السلالم وتهبط بسلام ، وتنسج على المنسج ، وتغزل بالمغزل وتقوم الليل ـ رحمها الله ـ ولقد عاشت إلى الأربعينات ثم وافاها الأجل المحتوم .

---

(١) بكسر الميم كلمة عامية ستعملها العامة في مكة مقابل كلمة عرضى على وزن فعلى بضم ثم فتح ثم فتح الضاد المشددة فألف مقصورة وكسر ميم مفاتنة .. غلط فهي كلمة عامية .. فهي من ناحية غلط الكسر في الميم مثل « جدة » بكسر الجيم ؛ إذ إن الصحة هي (جُدة) بضم الجيم مثل « مفاتنة » بضم الميم في صحة النطق بهذه الكلمة .

ثوب وحذاء

في هذا اليوم أحضر لي والدي ـ رحمه الله ـ ثوبًا من الثياب البلدية وحذاءً بلديًا، وجردني من الثياب البدوية، وأسند تعليمي الوضوء والصلاة لعمتي الصغرى، وجعلها مسئولة عن تثقيفي وتعليمي وتحضيري وتمديني ريثما يتم تسجيلي في عداد مدرسة الفقيهة آشية ـ رحمها الله ـ ثم جاء عمي جمال، واجتمعنا على مائدة واحدة وتعرفت بالجميع وحظيتُ بالقبلات والحلوى والحلوان ـ بكسر الحاء ـ وهو البقشيش باللغة العامية الدخيلة. وفي المساء تفرق الجميع وخرجت مع والدي إلى المسجد الحرام، ثم رجعنا من طريق سويقة فعلمت أن لبيتنا طريقين؛ طريقًا من باب السلام وطريقًا من سويقة، ثم تسلمتني العمة الصغرى وبدأت تعلمني سور الصلاة وكيفية الوضوء والصلاة وصفتها.

ثلاثة أيام

جلست على هذه الحالة ثلاثة أيام أتعلم وأستقبل الضيوف الذين سمعوا بوصولي من البدو، وكنت فيها محل الإكرام والإدلال وكأنها أيام الضيافة اللازمة لإكرام الضيف. وجاء يوم الثلاثاء ولم يحضر فيه والدي كعادته في كل يوم، فسألت عنه فقيل لي: إنه يقيل مع رفاقه أهل السطوح بالخريق في كل يوم ثلاثاء، وهذه عادة من قديم الزمن ابتدعها بعض الشيوخ المترفين من أهل مكة. وهذا السطوح فيه مجلس فسيح ومطبخ ومرحاض يدفع أجرته أهل النادي بالسوية بينهم ويتناوبون تنظيفه وكنسه. والعاجز منهم ينوب عنه ولده أو خادمه. ويطبخ في يوم الثلاثاء واحد منهم من ذوي الخبرة في الطهو. وقد

ظل هذا النادي إلى عهد قريب وكنا نحضره في بعض الأيام، وقد انقرض مؤسسوه عن بكرة أبيهم (رحمهم الله) وكانوا من ذوي الوجاهة بمكة شرفها الله وفي مقدمتهم المرحوم الشيخ عرابي سجيني شيخ علم الفرائض وكاتب عدل مكة ـ رحمه الله ـ وكان يقوم بمواساة بعض أهل هذا النادي من غير أن يشعر أحد بذلك رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

في مساء هذا اليوم أخذني عمي جمال ـ رحمه الله ـ بدلا من الوالد المرحوم فذهب بي إلى الأسواق والمتنزهات، وكان المتنزه الوحيد في ذلك العهد (بركة ماجل) وما حولها من ركبان الزرع والبقول وتحيط بها عدة مقاه، حيث سمرنا في آخر مقهى من المسفلة، ورجعنا في ساعة متأخرة من الثلث الأول من الليل، وكانت ليلة قمراء، وكان آخر عهدي بها وبالدلال، وفي صباح اليوم الرابع قلبوا لي ظهر المجن وتغير العهد إلى الضد.

الفقيهة آشية

في اليوم الخامس ألبستني عمتي الصغرى ملابس الكتاب فلبست الثياب وقدمت لي العمة الكبرى طعام الإفطار ثم نزلت العمة الشمطاء متغدقة بالغدقة، ثم خرجنا إلى خارج الدار وسلكنا طريق الحرم، ثم خرجتا بي من باب السلام فالمروة ثم إلى عطفة غير نافذة ثم إلى دار المرحومة الفقيهة (آشيَّة) بمد الهمزة المفتوحة وكسر الشين وفتح الياء المشددة ثم التاء المربوطة (نسبة إلى مدينة كبيرة في سومطرة بإندونيسيا، رحلتُ إليها في عهد الشباب أكثر من مرة). وهذه المعلمة أصلها من تلك البلدة لكنها من مواليد مكة المكرمة، وكانت دارها بالمروة مدرسة ابتدائية فيها خليط من البنات والأولاد ويسمونها

بمدرسة (أبجد هوز) أو مدرسة التهجية على الطريقة القديمة أو(كتَّاب فكاك[1] الحرف) بلغة العامة في مكة ، وكلمة كُتَّاب (بضم الكاف وفتح التاء المشددة) يعني بها المدرسة المعلامة (بكسر الميم وتسكين العين) ، ولكل بلد لهجة عامية اصطلاحية عجيبة ، والكتَّاب بالتشديد أفصح من (المعلامة) .

هراوة بالحبال أي الفلكة

ولجنا دار الفقيهة آشية وصعدنا الدرج الحالكة ، حتى إذا ما وصلنا إلى مجلسها الكبير رأينا عصا غليظة بحلقتين ، من الحديد في وسطها ، ومشدود بالحلقتين حبل من ليف ، وبجانب هذه الهراوة العجيبة جملة من العصي المتخذة من أعواد الخيزران مختلفة الأطوال والأحجام .. وهذه الهراوة الغليظة يدعونها بالفلكة (بفتح الفاء واللام والكاف والتاء المربوطة) وسيأتي شرحها في آخر الحلقة إن شاء الله .

وأمام هذه الفقيهة طالبات وطلبة وأصوات منبعثة كالصواريخ ، بعضها ينشد (ألف لشيون عليها) (والباء واحدة من تحتها) (والتاء اتنينا من فوقها) بصوت موسيقي غير منسق .. ومعنى (لشيون) : لا شيء عليها . وهكذا كنا قبل التطوير والتبويب والحاجة ماسة إلى مثل هذه الفوضى ، وما حيلة المضطرين إلا اقتحام هذه الكتاتيب ، والوقوف على هذه الأعاجيب .

ثم تسمع من ناحية أخرى بعض الطلبة يقرأون : (أبجد هوز) وبعضهم في سور الصلاة ، وبعضهم أمامه منديل فيه خبز وجبن وقطط صغار تموء حوله ،

---

(١) يسمى هذا « فك الحرف » بالمدينة المنورة بدلا من كلمة (فكاك) .

وبعضهم واقف مديرًا وجهه للحائط يهتز كالغصن، يقرأ ويبكي ودموعه تتساقط على لوحه الذي في يده .. وأما الاهتزاز فلكل الطالبات والطالبين؛ إذ كل من ينظر في الألواح يهتز سواء أكان يقرأ أم لا يقرأ.

عدم التناسق

تلاميذ هذه الفقيهة السومطرية المباركة متباينون كل التباين، فلا ترى تناسقًا بين الطلاب مطلقًا؛ إذ ترى ابن الخامسة والعاشرة إلى درجة المراهقة من كلا الطرفين ويجمع هذا الجمع الكبير مجلس واحد كبير واسع له فرع صغير يدعونه بالصفة (على وزن القفة) وهذا خاص لجناب الفقيهة لاستراحتها عندما تحتسي القهوة أو الشاي، أو لتجميشها فيما إذا كانت متعبة حيث تستلقي على ظهرها وتستدعي إحدى البنات الشديدات لتجميش أعضائها المتعبة، وهذا التجميش تسميه عامة مكة بالكبوس[1] أو التكبيس. وخدمة تلك الدار كانت موزعة على البنات خاصة، بالتناوب، كل يوم على بنت أو بنتين. وهذا عدل تشكر عليه الفقيهة، لا فرق عندها بين بنت الكناس وبنت الوزير .. الكل في الخدمة سواء، والخدمة هذه تشمل الكنس وغسل الأواني، وعجن العجين، وتقريصه. أما الخبز فعلى الأولاد وكذلك مقاضي السوق.

والبنات كن يلبسن الغدقة من سن الخامسة إلى ما شاء الله فلا تراهن كاشفات للوجه ولا اليدين ولا الرأس ولا اليد ولا الساق، وهذا مما يغبط عليه. ويا ليت الزمان يعود يومًا فنخبره بما فعل التحضر والتمدن والتطور

---

(١) وكذلك تسميه عامة أهل المدينة المنورة وأهل جدة وربما مدن الحجاز قاطبة.

والتبرج ، فعسى أن يعود إلى الوراء خمسين عامًا في هذا المضمار خاصة إن (الرجعية) في هذا (تقدمية) واضحة الرؤية .

ورأينا رفوفًا من الخشب عليها ألواح كثيرة ، وصناديق الطباشير ، وأطباق الطهو ، وبعض القصاع ، وأدوات الطبخ .

وعند هذه الفقيهة قطط وقطيطات علاوة على البنين والبنات وتعنى بها عناية كبيرة أكلها مخصص من الفشش[1] والكروش . وكان عندها أقفاص للنغارى والقمارى ، وكل ذلك على الطالبات وما على الفقيهة إلا إصدار الأوامر ، لا أقل ولا أكثر . وكان لها هيبة ووقار فما إن تقول : يا ولد أو يا بنت حتى لا تسمع لأحد صوتًا ولا همسًا .

وكانت تعاقب القطط بأشد العقوبات فيما إذا ارتكبت قطة جريمة نشل قطعة من اللحم أو أنشبت مخالبها في قطعة جبن أو خبز ، فلقد وسمت ذات مرة قطة من القطط الصغار بحديدة محماة في النار في يدها لنشلها قطعة لحم من طبق كانت تأكل منه الفقيهة ـ عفا الله عنها ـ وكانت حازمة عابسة مقطبة الجبين لا تعرف الضحك أبدًا ؛ لذلك كان الصغير والكبير يخافها ـ رحمها الله وأسكنها فسيح جناته .

دخلت مع العمات عليها وأمرت بتقبيل يديها ، فقبلتهما ، ثم انحنت عمتي الشمطاء وقبلت رأسها ويديها وكذلك فعلت عمتي الصغرى . وعلمت فيما بعد أنهما درستا عندها وتعلمتا شيئًا من القرآن ، كما علمت أن الكثير من

---

(١) الفشش : جمع فشة والفشة بكسر الفاء وتشديد الشين في لهجة أهل الحجاز بمعنى « الرئة » أي رئة البهائم المذبوحة .

أدبائنا تلقوا معلوماتهم الأولية من هذه الفقيهة .

ثم إن العمة عرفت الفقيهة بي ، وناولتها (الفتوح) ، وأوصتني بسماع كلام (سيدتنا الفقيهة) والإصغاء إلى نصائحها وعدم اللعب وقت الانصراف مع الأولاد . ثم خرجتا وبقيت وحدي حتى حان وقت الانصراف بعد الظهر ، فخرجت مع الأولاد ورجعت إلى الدار من غير أن أتعلم شيئًا .

الفقيهة في كتب المستشرقين

وعلى ذكر الفتوح والخميس وما شابه ذلك من المصاريف التي تتقاضاها الفقيهة المشار إليها ، أحب أن أوجه النظر إلى أني قرأت في المؤلف الذي ألفه المستشرق الهولندي الذي دخل مكة باسم الإسلام وأعلن إسلامه في عهد بناء المدرسة الصولتية قبل إتمامها وقبل إنتاجها وقد تتلمذ على الكثير من علماء مكة وسكن الأربطة واحتك بكل الطبقات وصور بعض رؤساء مكة وأشرافها وكبراء الأسر العريقة وذكر جميع عادات وتقاليد أهل مكة من محاسن وأضداد في مؤلفه الشهير (مكة في أواخر القرن التاسع عشر) ثم عاد إلى هولندا بعد أن قضى في مكة طوال خمس سنين . قرأت في ذلك المؤلف أن المستشرق ذكر أن أهل مكة يتلقون العلم عن طريق الفقيهة ، والتدريس في المسجد الحرام فقط . ثم ذكر أن الفقيهة تتقاضى (الفتوح) ويتراوح ما بين ريال مجيدي أو نصفه ، ثم الخميس في كل يوم خميس ومقداره ما بين (قطعة) إلى ربع مجيدي ، ثم (الإصرافة) وما يقدم فيها من هدايا ودراهم عندما يصل التلميذ إلى سورة (والضحى) ثم (الإقلابة) ... إلخ .. لكنه لم يذكر اسم الفقيهة في ذلك العهد قبل بناء المدرسة الصولتية والفلاح ، وأرجو

ممن يطلع على مذكراتي هذه من مشايخنا الكبار كمثل العلامة حسن المشاط ، والشيخ حسن السناري ، وخاصة شاعرنا المجيد فضيلة الشيخ أحمد الغزاوي ، أن يتحفونا في (شذراتهم الذهبية) وتحقيقاتهم الجوهرية عن اسم الفقيهة التي كانت تدير أكبر كتّاب قبل المعلمة آشية ، وعن كيفية التعليم وعن الفقهاء والعلماء الذين كانوا يعلمون الناس بالمسجد أو بالمنزل ، وعن العلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد ، للتعقيب على هذا المستشرق الذي يوجد مؤلفه في جميع مكتبات الجامعات الأمريكية بالولايات المتحدة ، وقد اطلعت عليه في مكتبة بتسبرج بولاية بنسلفانيا ، ولابد لهؤلاء المشايخ الكبار أن يكونوا قد سمعوا من آبائهم بعض النبذ حول هذا الموضوع ، ولهم الشكر سلفًا .

أول درس

في اليوم التالي ذهبت إلى الفقيهة آشية ، فأمرت إحدى البنات بإحضار لوح صغير مصنوع من الخشب . وكان التعليم في ذلك الوقت ، وخاصة الابتدائي ، محصورًا في هذا اللوح ، يمسح في الأسبوع مرة أو مرتين ثم يكتب فيه الدرس الجديد . وما زال هذا اللوح يستعمل حتى الآن في كتاتيب طنجة ، وتسمى الكتاتيب هناك بالزاوية وقد عشت يومًا في زاوية المرحوم الفقيه الرحالة ابن بطوطة في قلب مدينة طنجة ، وكان التلاميذ في زاويته يحملون الألواح ويمسحونها ويكتبونها على نمط الألواح التي كنا نتعلم عليها عند هذه الفقيهة بمكة . وكذلك في موريتانيا فإنهم لا يحبون الكتب الصغيرة وسأذكر ذلك ـ إن شاء الله ـ في الرحلات الإفريقية ..

جاءت إحدى البنات إليّ بلوح جديد ممسوح بالمضر (بفتح الميم وفتح الضاد ثم الراء) وهو لبن ممزوج بمادة من الرخام أو الجبس، يمحى به الحبر من اللوح ثم يجفف ويكتب فيه من جديد وهذا ما تزعمه العامة والحقيقة أن المضر أو المضير هو اللبن المجفف اللذيذ المعروف وأكثر ما يتخذ من ألبان الإبل، وأما هذه المادة التي تمحى بها الألواح فهي من الرماد الممتزج بشيء من الرخام والطباشير. وعامة البادية تسمي هذه المادة بالطفل (بفتح الطاء).. وهو الطين اليابس وبعضهم يسميها الطفل (بتسكين الفاء) وهو أصح.

تلك البنت كتبت لي في اللوح أربعة عشر حرفًا من الحروف الهجائية، وعلمتني قراءتها ثم أمرتني بحفظها غيبًا، لأقرأها على سيدتنا الفقيهة غدًا. كما أمرتني بالمحافظة على اللوح، فأخذته إلى الدار وقد تأبطته جيدًا خوفًا من انفلاته. وما أن وصلت إلى الدار حتى استقبلتني العمة الصغرى وحفظتني الواجب غيبًا، قراءة وكتابة على لوح صغير أسود يكتب فيه بقلم من الرصاص الملون للتمرين فقط، وهكذا حتى انتهيت من حروف الهجاء بفضل مذاكرة العمة الصغرى (رحمها الله).

نصف هللة

الهللة (بفتح الهاء واللامين ثم التاء المربوطة) هي جزء من أربعة أجزاء من القرش فكانت العمة المتولية تربيتي تعطيني يوميا نصف هللة، وكنت أشتري بها حمصًا يملأ جيبي وتارة لوزًا هنديًا أو غير ذلك وكنت أفرق منه على من يجاورني من بنين وبنات في فصلي وكانوا كذلك. وقد تعرفت عددًا من البنين والبنات لكني كنت محل السخرية منهم بسبب لهجتي البدوية، وبالعكس،

إلا أن الكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون وابن مكة أو زمزم لا يغلب كما تقول العامة . فكنت المغلوب دائمًا والله غالب على أمره .

سخرية الأسواق

حتى مع الجيران في الدار وفي سويقة وفي المسعى ، من حين خروجي إلى وصولي وأول ما يقابلني جارنا المرحوم سالم شربة صاحب الصوت المشهور والمؤذن بمنائر مكة والمسجد الحرام . كان له حانوت صغير بجانب دارنا يبيع فيه المأكولات الجاوية ، ويجتمع عنده الكثير من الحاريين فكانوا يزفوني زفة عجيبة يقولون : (البدوي جاءكم) مكررة . ثم من بعده المرحوم عبد الله نور ، وأحمد بصير ، وشرف حجي ، ثم صالح بوقري ، وسراج ، ثم من بعده الدهلوية والحلاقون وكلهم أصدقاء المرحوم والدي وعمي ، وكنت أتضايق من هذه الضجة الأمر الذي اضطرني إلى تغيير اتجاهي فصرت أذهب من الحرم وأرجع منه بعدًا عن الضوضاء والمضايقات .

أول جمعة

مضت أيام الأسبوع واليوم عندي بعام كامل أعد فيه الثواني والدقائق وانتظر هذا اليوم يوم الجمعة السعيد لأرى فيه أمي المرضع ، حسب العهد والميثاق والاتفاق بيني وبينها الذي مر ذكره . وصرت من مساء الخميس ألهج بذكرها حتى عرضت العمة أن أذهب بنفسي إليها وإني أعرف الطريق إلى بيتها . ولكنها زجرتني وخاصمتني وقال : إذا لم تحضر بنفسها وتأخذك فلا سبيل إلى الخروج . ونمت تلك الليلة منغصًا مهمومًا ، واستيقظت من السحر

(لعلي إلى من قد هويت أطير) وجاء الصبح وطلع الفجر ثم أراد الضحى وتوسطت الغزالة كبد السماء، وجاء الأصيل وطفلت الشمس وأقبل الليل .. ولا حس ولا خبر، فكدت أجن، وكاد القلب، وكرب من جواه، يذوب، حين جاء المغرب ولم تصل (هيف). فجلست أبكي وأنتحب وحزنت حزنًا شديدًا وفي خاطري سؤال: يا ترى ماذا حصل لأمي؟ وهل أستطيع العيش وهي بعيدة؟ وهل يطلع الصبح وأنا صحيح؟ لا الأم التي حملتني ولا الأم التي أرضعتني وربتني، يا لها من مصيبة!. من يعطف علي ومن يواسيني ومن يسليني؟

غياب الوالد

ومما زاد الطين بلة غياب والدي أيضًا، وقد علقت الآمال عليه آخر المطاف .. فقلت: لعله يأتي فيفسحني أو يوصلني إلى المرضع، ولكنه لم يحضر. فسألت العمة: أين هو؟ فقالت: لا أدري ولا تسأل بعد الآن عن أحد!

ليلة السبت

جاءت العمة الصغرى كعادتها تذاكر لي ما في اللوح من حروف، ثم تحدثني وتسليني ببعض الحكايات قبل المنام، لكن مع الأسف لم تجد أمامها ذلك الصبي المتوقد، بل وجدت جثة لا حراك بها، ليس عندي أي وعي أو تفكير غير الوصول إلى الأم المرضع التي تغيبت عني، وماذا أصنع وما بيدي حول ولا قوة.

فقلت لها بصوت خافت : ما السبب في تأخر المرضع؟ وما سبب غياب والدي ثلاثة أيام؟ وكيف الوصول إلى أمي الحقيقية؟ فقالت لي بصوت لم يسمعه غيري ، لئلا تسمع العمة الكبيرة . واشترطت علي أن أكتم السر خوفًا علي من الضرب أو التهديد ؛ لأنها تحبني أكثر من غيرها (رحمها الله) . قالت : أمك الحقيقية لا يمكنك الوصول إليها لما أخبرتك به سابقًا ، وأمك المرضع قد اشترطوا عليها ألا تصل إلى هذا البيت مطلقًا خوفًا من تعلقك بها . وقصدهم من ذلك أن تنسى البداوة وتلتفت للتعليم والتحضر والتمدن . وسيذهبون معك إلى دارها بالمعابدة في كل شهر مرة فلا تقلق من هذه الناحية . وأما أبوك فقد سافر إلى الهند للمعالجة ؛ لأنه مريض بالخفقان ، وسيحضر بعد شهرين ، والأيام تمر مر السحاب ، ثم قالت : إنه سافر بطريق البحر مع صديقه الشيخ بكري قزاز وهو مريض بمثل مرض أبيك ، وقد أناب عنه في وظيفة الإمامة والخطابة خاله الشيخ موسى فتياني ، كما أناب في وظيفة الأستذة بمدرسة المسعى المرحوم الشيخ محمد حابس ، ثم اتفق معنا على ألا نخبرك حتى يرجع بالسلامة خوفًا عليك من الحزن والتعقد .

ثم قالت : لو أن أمك الحقيقية تعلم أنك قد جئت من المراضع سالمًا لوصلت إليك مهما كان في طريقها من عقبات ، في الوقت نفسه قد رزقها الله بولد وبنتين بعدك وهم على قيد الحياة وستضع وليدًا بعد أيام ، فاصبر وكن رجلًا .

قلت : إن شاء الله . وما كان صبري إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وكانت ليلة قاسية لم أذق فيها طعم النوم إلى الصباح ، وبدأ جسمي في النحول وتناقصت شهيتي للطعام ، حتى إني لم أتناول طعام الإفطار في صباح يوم السبت من شدة الأسى والهم ، وذهبت إلى الفقيهة طاويًا ، ولم أحفظ

الحروف ولا (أبجد هوز) وكنت في الكتاب في ذلك اليوم جسمًا بلا روح أو هيكلًا بلا قلب ..

هل تصدق ـ عزيزي القارئ ـ أن ابن السابعة يتعرض للهموم والآلام والفراق والبعد عن الأحباب ؟ !

نعم صدّق .. فإني عشت تلك اللحظات وقد صبت علي الشدائد ولا إخالني إلا كالغارق في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ومع ذلك لم أكن أجيد السباحة ولا سبل التخلص من هذا الخضم ، أو التزحزح من تحت هذا الطود العظيم .

الجلد في الفلكة

وهي بفتح الفاء وتسكين اللام وفتح الكاف ثم التاء المربوطة والعامة تفتح اللام وهو غلط . وهي الآلة المتخذة من خشب العرعر على شكل المغزل ، بها ثقبان وفي كل ثقب حلقة معدنية مربوطة بحبل غليظ توضع فيها أقدام الطلبة ثم تشد شدًا قويًا على القدمين من قبل رجلين شديدين ثم يأتي الأستاذ ويجلد التلميذ جلدًا مبرحًا عقابًا له على ذنب ارتكبه أو مماطلة في أداء الواجب .

ونظرًا لما اعتراني من هموم وابتعاد عن الوالدين والمرضع الرؤوم ، صرت أذهب إلى الكتاب جسمًا بلا روح ورأسا بلا عقل ، أحمل اللوح ولا أدري ماذا كتب فيه ، كمثل الحمار يحمل أسفارًا .

وما كان من الفقيهة الغليظة ـ رحمها الله ـ إلا أن تنادي غلامين حزورين ـ أي شديدين ـ يكبراني بستة أعوام أو أكثر ، فطرحاني أرضًا وأدخلا رجلي في الفلكة وضغطا عليها بعد لف الحبل على الساقين حتى إني صرت في يديهما

كخذروف الوليد عندما يمر حبله أو كفيه بخيط موصل. ثم تناولت الفقيهة عصا خيزران وصارت تجلد باطن القدمين جلدًا شديدًا، فصرت أصرخ، وأستغيث، ولكن لا سميع ولا مجيب، ولا صديق ولا حبيب، حتى غشي علي، ثم تركتني بعد ما همدت حركتي عن المقاومة، فقصدت ركنًا من أركان المجلس زحفًا على الركبتين. وصرت أبكي، فزادتني ضربًا، وكلفتني بالوقوف مديرًا وجهي للحائط وممسكًا للوح لأحفظ الواجب وأؤديه، وإلا فيستكرر الجلد، ثم أمرتني بالاهتزاز والقراءة فاهتززت وانتفضت كما ينتفض العصفور حينما يبلله القطر. وفي الوقت نفسه صرت أرقص من شدة الألم الذي أورم رجلي. وكان الرقص كرقص الطير ـ يرقص مذبوحًا من الألم. ثم جاء وقت الانصراف فانصرفت مع الطلبة وحمدت الله الذي خلصني من هذه العجوز الشهربة.

خطف الكوفية

وعندما خرجت إلى خارج الكتّاب بكل تكلف وثقل، أخرجت الحذاء من رجلي، وكان من النوع الهندي الثقيل الذي لم يسبق لي الاحتذاء به في البادية، إذ كنا نحتذي بنعال السبت الجلدية ذات الهدب المعروفة للآن. والنعال الهندية الآنف ذكرها بطل استعمالها منذ ثلاثين عامًا، وكانت تدعى بالتراليك أو التلاليك. فخلعتها وتأبطتها كما تأبطت اللوح وصرت أمشي مشية الغراب الأعرج تارة وأحيانًا كمشية الحمام في الوحل، وكمشية الوجي الوحل، وكأن الأعشى شبه بمشيتي هذه قبل أن آتي إلى هذه الدنيا بألف وأربعمائة سنة، ولعمر الله إني لكالمطعون، بألف طعنة في جسمي ورجلي ـ

من هول تلك الضربات الموجعات وذلك الجلد المبرح .

وما إن وصلت إلى بيت (أبي سبعة) حتى وجدت ذينك الغلامين الحزورين اللذين شنقا رجلي في الفلكة في انتظاري ، وكنت أظنهما سيأخذان بيدي ويساعداني إلى أن أصل إلى داري ، ولكنهما كانا بعكس ما ظننت ؛ إذ خطف أحدهما كوفيتي من فوق رأسي وهرب عدوًا كالأطلس العسال . وأما الآخر فقد طلب مني قرشًا تلقاء إحضاره الكوفية من شقيقه ، وما هي إلا مؤامرة منهما وخطة رسماها وقد أمنا جانبي ؛ لأن السكة غير نافذة والطلبة قد ذهبوا وبيت الفقيهة قد ابتعد عني بعض الشيء ولو صرخت أو استغثت ما استجاب لي أحد لعدم وجود أحد .

فقلت لطالب القرش : احضر لي الكوفية وغدًا آتيك بالقرش ، وكان القرش في ذلك الوقت يعمل عمل كان وإنّ ، فقال (وكأنه عالم بما يقول) : هل أنت ستحضر إلى المدرسة غدًا ؟ لا ولا بعد شهر ، والقول ما قالت حذام ..

ثم عرضت عليه أن يوصلني إلى الدار وأدفع له القرش على شرط أن يأتي بالكوفية من أخيه أولًا ، لكنه رفض فأيقنت أنها خديعة واحتيال ، حتى لو كان معي القرش ودفعته إليه لفر هاربًا ولم يرجع ، وأخيرًا تركني وذهب ـ كافأهما الله ـ ولقد انتصرت عليهما ولكن بعد بضع سنوات كما سيأتي .

المحاولة اليائسة

تصبرت وتجلدت وصرت أمشي الهوينى لكني وقعت على الأرض من شدة ما أقاسيه من ألم الرجلين وتورم الكعبين وجرح الساقين ، وبعد جهد ولأي عظيمين وصلت إلى بيت المالكي وكان بجانبه حلاق يدعى (علي جاوة) وهو

حلاق الذكور من بيت باب الدريبة الخاص بنا . وكان قد عرفني حينما وصلت من البدو ؛ لأنه حلق رأسي في الدار ، ومن عادته أنه يأتي في كل أسبوعين مرة ليحلق للرجال والصبيان من أيام الجد رحمه الله وحضوره غالبًا يوم الجمعة في وقت الضحى . وبعض أهل مكة من الشيوخ أو المرضى لا يحلقون إلا في بيوتهم وهذه عادة من العادات التي ما زالت حتى الآن .

ولما رآني فزع وأخذ بيدي وسألني عن السبب فأخبرته خبري فتأسف لذلك وأوصى أحد جيرانه أن يلاحظ حانوته ريثما يرجع . ثم أخذ بيدي وسندني حتى أوصلني إلى الدار ، ثم رجع .

عقود وطرود

صعدت إلى المجلس وكان الوقت عصرًا ورأت العمة المسئولة عني ما حل بي من ضرب ونهب الكوفية وتأخر عن ميعاد الحضور المعتاد ، انهالت علي ضربًا وركلًا وطردًا . وأقسمت بربها ألا أذوق الطعام ولا ألج الدار إلا بعد إحضار الكوفية .

حاولت معها لكنها لم تتراجع ، ثم دفعتني إلى خارج الدار ، وأغلقت الباب من الداخل فجلست على العتبة انتظر مجيء عمي ليفهم مني ويتوسط في إقناعها ، ولكنه لم يحضر في ذلك اليوم . وعلمت فيما بعد ـ أي بعد عامين ـ أنه كان مدعوًا في ذلك اليوم ، ولم يأت إلى الدار إلا بعد منتصف الليل .

جاءت صلاة المغرب وصار الناس يمرون من أمامي في طريقهم إلى الحرم ، وكان بيتنا بالنسبة لأهل سويقة وخان (أبو عدس) وقهوة القبو والخرزة كالصراط ، لابد لجميع هؤلاء السكان وأصحاب الدكاكين إذا أرادوا صلاة الجماعة من المرور من تحت بيتنا .

فضـول بني آدم

والناس لا يتركون أحدًا وجبلت بعض النفوس أو بعض ذوي النفوس الوضيعة على التطفل والفضول ، فصار بعض الذاهبين لصلاة المغرب ، يقف ويسأل ، فأجيب بعضهم وأصد عن بعض ، ومنهم من يقول : تستاهل ! وكنت بدويًا لا أعرف معنى (تستاهل) ..

المسـجد الحرام

لما رأيت الناس لا يتركوني وهم في طريقهم إلى صلاة المغرب يؤدون صلاة الجماعة لم يلههم ضيق الوقت ولا الخوف من الله ، فما بالهم بعد الصلاة ، قررت طرق الباب بشدة لعل العمة ثابت إلى رشدها أو لعل من في الدار عاتبها على ما فعلته معي ولكن مع الأسف ..

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

ولما كان الأمر كذلك ذهبت إلى المسجد الحرام ورأيت الناس يطوفون بالكعبة ويصلون ، فجلست مستندًا إلى عمود من أعمدة المسجد أشاهد هذا المنظر العجيب الذي أراه لأول مرة في حياتي ، وحدثتني نفسي أن أفعل مثلهم ولكنني مضروب ومتألم وجائع وصديان وحيران وخائف ، ومنظري وأنا مكشوف الرأس حافي القدمين يدعو للغرابة والتعجب والأسى ، ولو كنت أعلم من أمور الفقه شيئًا أو الوضوء لطفت ولذت بالبيت الحرام حتى مطلع الفجر ولكنني كبهيمة الأنعام لا أدري ماذا أصنع ، ولا ماذا أقول ولا إلى من أشتكي سوء حالي ..

أذن المنادون لصلاة العشاء وصلى الناس ، وخف المسجد من الناس وذهبت إلى الناس ، فخرجت وذهبت إلى الدار ، وأعدت الكرة قرعًا ونداءً وجلوسًا على العتبة إلى ما شاء الله ، ثم رجعت إلى المسجد ، ولم يكن هناك غير الطائفين والعاكفين والركع السجود والخفراء الشرطيين يقرعون بعصيهم بلاط المسجد وأروقته ؛ ليخرجوا من كان نائمًا أو عابثًا فخفت منهم ، ورجعت إلى الدار ، ووقفت تحت النوافذ أصرخ وأستغيث وأنادي كل عمة باسمها لعل التفاتة أو استجابة .. جيوبي مملوءة بحصى المسجد فتناولت بعض الحصى وصرت أرمي النوافذ حتى نفد ما عندي .

فمدت العمة الكبرى عنقها وقالت : هل أحضرت الكوفية ؟ فقلت : لا ! ـ قالت : كيف تجرؤ على حصب النوافذ ؟ فقلت : لأني مضطر وقد بلغ السيل الزبي ، فارحميني فأنا غريب وجائع ومضروب ومنهوك القوى . فقالت : لا سبيل لك إلى فتح الباب ما لم تحضر الكوفية ..

السجن

وضاقت علي الأرض بما رحبت ، وهمدت الأصوات وهجعت ، ومضى الثلث الأول من الليل أو نصفه وأطفئت الأنوار ، وكانت في ذلك الوقت فوانيس أو مصابيح تشحن بالسليط فيها الذبال المفتل ، فلا كهرباء ولا أضواء ، ما هي إلا قناديل بالمسجد الحرام تشعل بالزيت ومصابيح البلدية ، أو ما يسمونها بفوانيس البلدية تعلق على بعض الشوارع والأزقة تعشي عيون الناظرين وأحيانًا تطفأ إذا اشتد ريح أو انهمر وادق .

ثم بدأ نباح الكلاب وعواؤها واقتربت أصواتها من الدار ، وكانت في ذلك

الوقت أبواب المساجد غير مرتفعة إلا القليل منها وأحيانًا، يلج كلب في المسجد، فيحدث ضجة غريبة من كثرة المطاردين له. وكانت كلاب المسعى تنهش الناس، وكان لها شيخ من بني أدم ومن سكان مكة يحمل الهراوة ويطاردها، يتقاضى راتبًا من البلدية، ومهمته كانت محصورة في طرد الكلاب عن أبواب المسجد الحرام، لكنه لا يصل إلى باب الدريبة؛ لأنه منزو وليست له تقدمة على الشوارع.

وما أن اقتربت أصوات الكلاب حتى هرعت إلى المسجد ثانية فزعًا مضطربًا وأنا متعقد من بداوتي، عندي عقدة نفسية من الكلاب لأنها نهشتني بالزيمة ذات مرة، فصرت أخافها أكثر من الذئاب.

ركضت نحو المسجد فوجدت باب الدريبة مغلقًا لا يفتح وكانت أبواب المسجد تغلق في ذلك الوقت ويعلق بداخلها قطعة من الحديد لا يستطيع الضعيف ولا الصغير دفعها، ومع ذلك كنت أجهل هذه العلمية؛ لأني بدائي (غشيم).

رجعت إلى عتبة الباب وأنا أهتز مما ألم بي، وأوشكت أن أهلك وحوقلت قبل الأوان، ودنوت من الموت، فمددت جسمي على العتبة وكان طولها ذراعًا وشبرًا وعرضها أقل من نصف الذراع، وأدرت وجهي على الباب وظهري إلى الكلاب إذا هي حاولت عضي أو إيذائي وافترشت ذراعي كوسادة ثم تغشاني النعاس حتى غلبني النوم فنمت نومًا ثقيلًا، لم أستيقظ منه حتى أرسل الله العساس.

العساس يقرع بالعصا

قرع العساس الأرض بعصاه ثم جلدني على ظهري، فانتبهت مذعورًا وإذا

برجل هرج يناديني : من أنت ؟ وأين منزلك ؟ فقلت له : هذا بيتي وأهلي قد ناموا وناديتهم فلم يجيبوا فساعدني إن شئت بدلًا من ضربي وإزعاجي ، فنادى باسم أبي وعمي كما أعلمته فلم يجبه أحد ثم قرع الباب ، فلم يرد عليه أحد ، فقال : أنت كاذب ، ثم جذبني وأخذ بتلابيبي فبكيت وطلبت منه أن يطلقني ويبقيني على العتبة حتى الصباح .

لكنه امتنع وساقني إلى الحرم من جهة باب الدريبة حيث دفع الباب ودفعني حتى ألج ثم مشى خلفي ففرحت وقلت : لعله يريد أن يجلسني بالحرم حتى الصباح ولكنه أخرجني من باب آخر وأدخلني دارًا عظيمة تشبه البياضية ، علمت فيما بعد أنها الحميدية وأنها دار الحكومة .. ولما ولجنا هذه البناية الضخمة رأيت بعض الجنود المدججين بالسلاح فعلمت أنه يقصد الشر .

شـرطي أحـول

ثم أدخلني في غرفة بها كراسي مستطيلة خشبية تسميها العامة بالكرويت المجرد من الفرش التي تسمى بالطاولات عند العامة ، فأجلسني بجانب غلام يكبرني سنًا ومكث واقفًا بعض دقائق حتى جاء الموظف المسئول عن جرائم الأحداث واستجوابهم وسجنهم . فقال له : هذا ولد هارب من أهله وجدته نائمًا في باب الدريبة على عتبة إحدى الدور واشتبهت في أمره فسقته إليكم لإتمام الإجراءات ، دونكم إياه .. ثم خرج الرجل الهرم الذي علمت فيما بعد أنه عساس . ولم أسمع هذه الكلمة من قبل في ديرتنا بالزيمة .

ولما استقر الموظف جالسًا نادى الغلام الآنف ذكره وصار يسأله ويسجل حديثه . ثم تركه وناداني ، فسألني عن اسمي فقصصت عليه قصتي كلها

بلهجتي البدوية فسجل بعض الجمل . ثم تركني ، فجلست بجانب الغلام ثم خرج وجاء شرطي أحول ووقف على الباب .

طلبت طعامًا

ثم سأل الغلام هل تريد شيئًا ؟ فقال : لا ، ثم سألني فغلبتني العبرة فقال : مالك ؟ وألح في السؤال ، فقلت له ما قلت للعريف الأول ، فنادى شرطيًا وقال له : اذهب معه إلى دورة المياه فذهب بي ووقف حتى قضيت حاجتي ثم رجعت ، فقال لي الشرطي الأحول : هل أنت جائع حقا ؟ فقلت نعم ، فنادى الشرطي الأول وأوقفه على باب حجرتنا ثم خرج وغاب قيد ربع ساعة ثم جاء بقرطاس وناوله إياي ففضته بيدي فوجدت به كسرات من خبز وقطعة جبن وقال : (مشي حالك) باللهجة العامية المكية يعني تصبر بهذه اللقيمات ، فازدرتها بنهم وجشع وكأني أتناول خروفًا حنيذًا ، ثم أتاني بكأس ماء من قلة فخارية كانت بالغرفة فشكرته وحمدت الإله الذي سخر لي هذا الرجل الكريم .

ثم قال : سيأتيك في الصبح قرص من العيش الصامولي وكأس شاي .. وبعد الإشراق سيأتي العريف الكبير ويطلع على الأوراق ثم يفصل في أمركم ، إما باقتيادكم إلى السجن الكبير مع الفرش ـ أي الضرب ـ وأما تسليمكم لأهلكم إن كان لكم أهل . وعليكم بالصراحة والصدق ليخفف عنكم العقاب ، لكني سأعاونكم عندما يأتي العريف وبخاصة أنت أيها البدوي القناوي ، فقلت له : لا تخف أنا لا أقول إلا الحق لأني من البادية ولا أعرف الكذب الذي هو من صفات الحضر . ثم لعنت الحضر ومن يسكن الحضر

وخرجت عن صوابي وصرت كالمسعور الملدوغ ونقمت على الدنيا وما فيها مما هب ودب .

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

ثم قلت له : إنني كنت في عز ودلال وفرح ومرح في زيمتي الحبيبة وباديتي الجميلة وقريتي الخضراء وأمي الحسناء .. ولقد عشت سبع سنين متتالية متتابعة بين أهل كرام وجيران عظام ثم فجأة وجدت نفسي بين هذا المجتمع الغريب الأطوار ، المتقلب كما يتقلب الليل والنهار .

فنصحني قائلًا : إياك أن تتكلم أمام العريف في الصباح بمثل هذا ، وكن عاقلًا وصبورًا ، وإني سوف أعينك إذا ما أصغيت لنصحي وامتثلت أمري .

طلع الفجر وأشرقت الشمس وجاء الموظف الضابط المسئول عن الموقوفين وجاء طلبي للاستجواب فدخل معي الشرطي الأحول ، وخافت العريف ، ثم سألني : هل لك من أحد هنا في مكة ؟ فقلت : نعم لي عم أستاذ بمدرسة الخياط واسمه جمال ، فسجل الإجابة ثم قال : سنبعثك إليه في المدرسة مع هذا الشرطي وإن لم يكن بالمدرسة فسيذهب بك إلى الدار ليسلمك إلى أهلك إن صح قولك ، وإلا فالجلد والسجن .. ثم بعثني .

الضرب المبرح

أخذني الشرطي الأحول وذهب بي إلى مدرسة الخياط بالمسعى وصعد إلى الإدارة وسأل المدير عن عمي فقال : نعم ثم ناداه فحضر ثم أخبره الشرطي بكل ما جرى وأخذ منه إقرارًا بذلك وخرج وبقيت في الإدارة مع المدير المرحوم الشيخ عبد الكريم حنفي وعمي جمال وسأذكر عن هذا الشرطي نبذة فيما بعد .

أراد العم أن يبطش بي فمنعه المدير ثم نادى المراقب، وكان من بيت الدمنهوري، وكلفه بإحضار الفلكة فأحضرها ثم نادى شابين من التلاميذ، فطرحاني أرضًا وأدخلا حبل الفلكة في رجلي وشداها، ثم جاء الدمنهوري بكأس ماء ونضح قدمي بالماء ثم بدأ يجلد حتى تعب، ثم تناول العصا منه المرحوم الشيخ عبد الغني بشير أحمد، وصار يجلد رجلي جلدًا شديدًا حتى أغمي عليَّ ولم أدر بعد ذلك ماذا حصل لي، ولم أصحُ إلا فوق فراشي في بيتنا بباب الدريبة والعمة الكبرى تعالجني وتضمد جراحي حتى شفيت تمامًا واستغرق هذا العلاج أكثر من شهر.

الفقيهة والهرب

بعدما شفيت ألبستني العمة لباس الكتاب وأعطتني نصف الهللة واللوح ثم قالت لي: اذهب إلى المدرسة وارجع في الظهر ولا تتأخر ولا تدع أحدًا يخطف كوفيتك من فوق رأسك ولا تمازح أحدًا ولا تكلم أحدًا ولا تتأخر في الظهر، ثم قالت: إن جئت متأخرًا أو أضعت شيئًا من حوائجك فسيكون العقاب ضعف العقاب الأول.

فقلت لها: نعم! وخرجت وذهبت إلى المسجد الحرام وأسندت ظهري إلى العمود الذي أسندته عليه ليلة العساس والحميدية للذكرى والعبرة.

غرست وجهي في اللوح لئلا أشغل قلبي وعيني بمناظر قد تلهيني عن التفكير في الخروج من المأزق الحرج الذي أنا فيه، فلا الفقيهة آنذاك بالنسبة لنظري القاصر وبالنسبة لما لقيته من عذاب على يديها، تساوي أي اعتبار أو حب أو إقبال على كتابها، ولا البيت الذي بدأ بتربيتي وتعليمي. وكم كنت

أتمنى في تلك اللحظات الحرجة أن أقوم بعمل جبار ، والقلب يهوي ويتمنى ومن عادة المظلوم أن يرفع يديه للسماء عندما تعييه الحيل ، وأنى لي بالدعاء وأنا لا أحفظه ولكن المولى مطلع ، فقد استجاب إلى ما في قلبي بعد حين من الدهر وإن غدًا لناظره لقريب .. ويا ليتني لم أتمن ولم أحقد ولكن قلب البشر ليس من حجر .

هل من المعقول أن ابن سبع سنين يتحمل هذا العقاب الشديد من الدار ومن الكتاب ومن العقلاء ونصف العقلاء ؟ العقاب الذي لو نزل ببعير لَهَدَّهُ وأهلكه ، ويا ليت شعري هل أنا مستحق لذلك كله ؟ لقد أحاطت بي عقول النساء من كل جانب وفي البيت وفي المدرسة وفي الأحلام والخيال وبئس من تولته امرأة جاهلة ، وتعسًا له وبؤسًا وعذابًا خالدًا ، ولقد صدق إمام الأدباء في إنشاده :

اثنان يعجز ذو الكياسة عنهما   عقل النساء وإمرة الصبيان

طأطأت رأسي على لوحي وأنا أضمر الشر والحقد والانتقام ولكنني لا أعرف ماذا أفعل .

فكرت بالهرب إلى المعابدة لأرى لماذا لم تأتني أمي المرضع في اليوم الموعود ؟ ولماذا لم تسأل علي طيلة هذه المدة ؟ ثم نفذت ما عزمت عليه وخرجت من باب السلام وكان الوقت ضحى ثم سألت أحد المارين عن موقع المعابدة فدلني على المدعي ، وقال : إذا وصلتها فاسأل غيري ، وأشار بيده إلى موقع المدعي . فذهبت إليها خائفًا أن يراني أحد أو يطل علي أحد من أساتذة مدرسة المسعى فيبعث في أثري أحد الزبانية .

ولما وصلت إليها سألت صاحب حانوت عطارة . أين هي المعابدة ؟ فقال : امش إلى المعلا ثم اسأل . ففعلت وهكذا حتى وصلت ربما البياضية وهناك أفقه الشوارع والطرقات وبيت المراضع وشيخ المعابدة . وما أن وصلتها حتى ذهبت إلى بيت أمي المرضع ، ولكني لم أجدها .

فلما لم أجدها ذهلت وكدت أجن ، فذهبت حالا إلى بيت شيخ المعابدة سائلًا باكيًا ، فقيل لي : إنها سافرت إلى الزيمة لتبيع الأرض أو تؤجرها ثم ترجع ..

ثم أروني منازل صديقاتها اللائي جئن تلك الليلة ليلة وصولنا من الزيمة . فذهبت إليهن واحدة واحدة ، وسألتهن ، فقلن لي كما قالت أسرة الشيخ . رجعت إلى الحرم وقد أذن الظهر فمكثت به حتى جاء الوقت الذي يخرج فيه الغلمان الذين يتعلمون بمدرسة الفقيهة ، وذهبت إلى الدار كأن لم يكن شيء وقلت في نفسي . الله يستر ..!

وفي الوقت نفسه ، لم يكن للفقيهة مفتش يبحث عن غياب الطلبة أو يذهب إلى البيوت يسأل عن سبب الغياب ، فاطمأننت من هذه الناحية حتى أنفذ خطتي المرسومة التي رسمتها الظروف واقتضتها الأحوال ، وفي يوم الخميس ، يدفع الطالب (قطعة)[1] إستانبولية من الحجم الصغير أو القرش النيكل ، وبعضهم يدفع قطعة كبيرة . وسمي بالخميس ؛ لأنه يدفع في يوم الخميس للفقيهة أجرة تعليم الأسبوع ..

---

(١) القطعة هنا اسم علم جنس لنقد يعتبر أصغر نقد فضي في العهد العثماني .

والنقود العثمانية سكت في إستانبول وعليها الطرة واسم السلطان الذي سكت في أيامه، وهذا قبل أن يسك الشريف حسين نقوده بأمد مديد.

ومما ساعدني على تنفيذ خطة الهروب سفر والدي إلى الهند للعلاج، كما تقدم شرحه، فكانت الظروف مواتية من كل جانب..

وفي كل يوم أعمل هذا العمل وأذهب إلى المعابدة أتحسس الأخبار من بيوت الزيميات صديقات المرضع، وأجمع أنصاف الهللات والخميس، وأسأل عن القادمين من الزيمة والمغادرين مكة إليها، وأشرح قصتي على الصديقات لعلهن يتوجعن ويساعدنني عند اللزوم..

الرحلة الحادية عشرة إلى الزيمة

وهي رحلة بالنسبة لابن سبع سنين تعد مغامرة ولكن الحاجة تدعو إلى ركوب الأخطار، والضرورات تبيح المحظورات، وطلب الشيء قبل الأوان مما يسبب الحرمان.. ولقد تريثت قليلًا حتى أخذت معلومات مفيدة، منها أن قافلة الخضروات والفواكه والرطب تحضر إلى مكة صباح كل خميس، وتغادرها بعد صلاة الجمعة، محملة بالحاجات الضرورية من بذور عطارة وما إلى ذلك، ولها أحواش في المعابدة تأوي إليها، تجمع الطلبات واللوازم عند بعض الزيميات المقيمات بمكة..

والقافلة كانت حمير معدة لنقل المحاصيل من الزيمة إلى مكة أسبوعيًا وبالعكس، وتختلف كثرة وقلة، بحسب الأيام والفصول والإنتاج.

هذه الزيمة القرية الصغيرة ذات الحدائق الغناء والعيون العذبة تزود مكة شرفها الله، بالموز الذي كان لا ينقطع منها طوال العام قبل أن يعرف التجار

طريقة استيراد الفواكه من الخارج ولهذا الموز نكهة خاصة، وحلاوة قل أن تجدها في أي موز مستورد من خارج البلاد ..

كما تزودها بالليمون والرطب والخضروات وبعض الفواكه، وكان تجار مكة في ذلك الوقت لا يستوردون إلا الكماليات .. لقد وجدت ميلًا وحنانًا من جميع صديقات والدتي المرضع، وكلهن وافقن على ترحيلي إلى الزيمة مبدئيًا، ولكن بتحفظ شديد خوفًا من أهلي بمكة، إذ كانوا في ذلك الحين أصحاب اعتبار وسلطة، ومنهم القاضي والمفتي ومنهم الأئمة والخطباء بالمسجد الحرام، ومنهم التجار والموظفون في مختلف المصالح والهيئات والدوائر الحكومية، كما أن لبعضهم اتصالات ودية مع شريف مكة ورؤساء الدواوين، فلا يجرؤ أحد على تهريبي خوفًا من العواقب الوخيمة التي تترتب على ذلك ..

ونظرًا لهذه الحيثية، أصبحت صديقات أمي المرضع يخشينها حتى شيخ المعابدة لم يوافق على الهروب، لدرجة أنه أنذر القافلة أن لا تصاحبني ولا توافقني على الذهاب معها ..

وعلى الرغم من ذلك كله، نفذت ما في رأسي من خطة ولم أبال بما كان يمكن أن أجده، وتوكلت على الله متخطيًا كل العوائق والحواجز (وما بعد العشية من عرار)، وليس ما سيأتي من أخطار وعذاب بأعظم مما مضى من مصائب ومتاعب وشدائد ..

في صباح الخميس أخذت (الخميس) والمصروف، وما كان عندي من حلوان، وخرجت من الدار وذهبت إلى المعابدة، إلى الحوش الذي تسافر منه القافلة إلى الزيمة، وعلمت أن ميعاد سفرها بعد صلاة الجمعة، وألقيت باللوح

في إحدى الكداوي ثم ذهبت إلى بيت المرحوم الشيخ إبراهيم التلمساني وطلبت من حرمه أن أختبئ عندها تلك الليلة ، وكانت من أخلص صديقات المرضع ، وأهلي مهما بحثوا فلن يعثروا علي عندها ، ومن يدلهم على ذلك ؟ .. وافقت ، رحمها الله ، على المبيت وأكرمتني ، وفي الصباح أعطتني بعض النقود ، لكنها لا تعلم أني سأهرب إلى الزيمة ، متمسكًا بالأثر (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) ..

مزنة والكوة

وكان من بين الصديقات واحدة تدعى (مزنة) أخبرتني بأن المرضع قد رفعت عندها صرة فيها ثياب بدوية ، ونسعة ، وسبت من أحذيتي البدوية ذات الهداب ، وكيس فيه حمص وحلوى وتمر مجفف وقالت لها : هذه الأمانة باسم ابني محمد ، إذا جاء يبحث في وطلب شيئًا فأعطيه من هذه الصرة ما يريد . فاغتنمت هذه المصادفة ، وذهبت إليها صباح الجمعة وأخذت البقشة[1] وتجردت من الثياب الحضرية إلى غير رجعة . ولبست الثوب البدوي ، وتحزمت بالنسع واحتذيت بنعال السبت ، وأخذت كيس الحلوى والحمص ، وجعلت الثياب الحضرية مكان البدوية ورفعتها عند الصديقة مزنة ، وقلت لها : إني مسافر إلى الزيمة ، فقالت : يكلؤك الله وتوكل عليه . فأخذت من عندها قربة صغيرة في حجم الدلو وملأتها ماء وربطتها بقطعة من بقية النسع ، وأخذت

(١) البقشة أو البقجة بضم الباء بمعنى اللفة التي تجمع فيها الملابس .. وهي في الأصل تركية أو فارسية ولا تزال تستعمل في الأوساط الحجازية بهذا المعنى .. بمكة والمدينة وجدة والطائف .

منها هراوة صغيرة ذات محجن وسكينًا على سبيل العارية، وهي تظن أني مازح ماجن، ولكنها صدّقت فيما بعد عندما سمعت هروبي من مكة..

خرجت من عندها وتيممت سفح جبل من جبال مكة المطلة على المعابدة حتى إذا ما أمنت الإحد (بكسر الهمزة وفتح الحاء) بحيث لا يراني أحد، ولكني أرى الحوش الذي تغادر منه قافلة الزيمة، وعندي زادي في الحسكل (بضم الحاء وتسكين السين وضم الكاف ثم اللام كلمة بدوية معناها الجراب الذي يوضع فيه بعض ما يحتاجه المسافر، وسيأتي شرحها في المفردات)، ومعي الماء والدراهم في الهميان، ومعي العصا والسكين، وما كان ينقصني شيء سوى الأمان والطمأنينة..

وكنت على علم بأن القافلة ستغادر نزلها بعد صلاة الجمعة، لذلك ذهبت إلى سوق المعابدة وابتعت تمرًا مجففًا زيادة على ما عندي، ثم رجعت إلى السفح، وصرت أراقب سفر الركب..

الرحلة الخطيرة

غادرت القافلة مكانها الذي كانت نازلة به، وكانت من ستة حمير بأحلاسها وبركابها، وهي مثقلة بما تحمل من بضائع ورجال، لذلك كان مشيها وئيدًا وهذا من حظي..

غادرت السفح وصرت أمشي مع القافلة، لكن على بعد شاسع لئلا يروني ومع ذلك راودتني نفسي أن ألحق بهم وأصاحبهم للمؤانسة، ولأني أعرفهم ويعرفونني ولكني أحجمت ورددت نفسي خيفة أن يردوني، أو يشدوا وثاقي ويرجعوني إلى أهلي بمكة، ذلك الأمر الذي أكرهه وفررت من أجله..

مشيت من خلفهم وهم لا يرونني ؛ لأني كنت بعيدًا عنهم جدًا ، وكانت الشمس قد غربت ودخل الليل وبدأ القمر يرسل أشعته الخافتة وكانت ليلة قمرية في العاشرة أو الحادية عشرة .. مشيت طوال الطريق مستأنسًا بقربهم ورؤيتهم ، أستريح أحيانًا ثم أواصل السير ، وهكذا حتى مطلع الفجر ، وكان سيري كله حول السفوح خوفًا من رجال القافلة ، بحيث لو لمحني أحد منهم تسلقت الجبال لرآني ، ولكن الله ستر وحفظني من الوحوش الكاسرة وغيرها من المخاوف ..

الأمان على مشارف الزيمة

ولما أشرقت الشمس أيقنت أنهم سيرونني حتمًا ، إذ لابد لأحدهم أن يلحق بي إذا رآني ، وكنا قد أشرفنا على أودية وجبال الزيمة التي كنت متعودًا عليها طوال طفولتي ، فاطمأننت وتسنمت ذروة الجبل وألقيت قربتي وحسكلي ، وأكلت من التمر المجفف ما أشبعني وارتويت من قربتي وغفوت إغفاءة ولا أبالي اليوم ما فعلت الجمانة والورد ؛ لأني قد وصلت إلى الأمان وبدأت أحس بالطمأنينة وأشعر بالقوة والنشاط ، وما علي من القافلة ولا من غيرها فقد أويت إلى ركن شديد ووصلت إلى مقر سعيد ..

الوصول

أفقت من إغفاءتي واستيقظت من رقدتي وواصلت رحلتي وجاء الأصيل ودنوت من القرية ، وما هي إلا دقائق حتى وصلت العين فصرت أهزج بالأناشيد البدوية وأنتظر أحدا من الأهل يصل إلى العين ليستقي ، ولكن لم

يصل أحد وأظنهم كانوا في استراحة أو نائمين..

وبعد ما شربت من عين الزيمة، واصلت ركضًا حتى وصلت إلى بيتي فوجدت أختي عجوة تلعب أمام الدارة فاحتضنتها، ثم ولجت داخل الدارة فوجدت أمي المرضع نائمة فلم أنتظرها حتى تستيقظ، بل ألقيت بثقلي عليها، وجعلت أقبلها وأبكي، فاستيقظت وهي لا تصدق عينها، ففركتها فوجدت حبيبها الصغير قد رجع إليها، فاحتضنتني وبكت ثم ضحكت واستبشرت وتهللت أساريرها وكأني نزلت إليها من السماء وهبطت عليها من الفضاء..

معاني الكلمات

* **الجمانة والورد**: الجمانة بضم الجيم وهي اللؤلؤة، والورد اسم لفرس كان يسبق الريح ويملكه أحد قواد العرب، وكانت محبوبته تدعى (الجمانة) ولذلك قصة جميلة ذكرها الجاحظ في كتبه.

* **هزج**: (بكسر الزاي، والمصدر (هزجًا) بفتح الزاي، يعني ترنم وأنشد الهزج يجمع على أهازيج ويشترك فيه المعنى والقارئ إذا طربا، وقالت العرب: «له هزج مطرب» وقال عنترة: (هزجًا يحك ذراعه بذراعه).

* **الحسكل**: (بضم الحاء وتسكين السين وضم الكاف ثم اللام)، من كلمات البادية، وهي محرفة، والصواب فتح الحاء والكاف ومعناه الرديء من كل شيء، أو بكسرهما ومعناه الصغير من كل شيء. ويطلقونه على القنفذ الكبير، ويقابله في الفصحى الجراب الصغير. والحسكل ـ استعارة، وهي استعارة حقيقية..

* **الإحد**: (بكسر الهمزة وفتح الحاء) يعني المثل والند المنقطع النظير.

تقول العرب هذا من إحدى الإحد يعني لا مثل له أبدًا، أنشد ابن الأعرابي:

حتى استشاروا بي إحدى الإحد ليثًا هزبرًا ذا سلاح معتدي

وإحدى الإحد (بكسر الهمزة) تطلق أيضًا على الأمر المنكر الكبير، فهي من الأضداد، وأنشد ابن الأعرابي:

بعكاظ فعلوا إحدى الإحد

وأما قولهم: ما أنت من الأحد (بفتح الهمزة والحاء) فيعني ما أنت من الناس، أنشد الكسائي:

وليس يطلبني في أمر غانية إلا كعمرو وما عمرو من الأحد

والأحد (بفتح الهمزة والحاء) معناه العهد، أنشد الفراء:

سار الأحبة بالإحد الذي عهدوا

والأحد هو اليوم المعروف، وهو أيضًا اسم للبارئ جل وعلا لا يشاركه فيه أحد إلا شذوذًا..

* **الكداوي**: (بفتح الكاف) جمع كدوة (بكسر الكاف) وتطلقها عامة مكة على الأراضي المرتفعة من كثرة ما عليها من فضلات وقمامة، وقد طالها تحريف إذ هي في الفصحى الكوادي، وهي الأراضي الصلبة المرتفعة التي كانت تحفر فيها القبور في الجاهلية..

واحدتها كادية وكدية. وكما أنها تجمع على الكوادي، فكذلك تجمع على كدى (بضم الكاف وفتح الدال)، فالكدى هي المقابر وهي الأرض الصلبة ومنها قوله عليه الصلاة والسلام لفاطمة رضي الله عنها: لعلك بلغت معهم الكدى، يعني المقابر..

* **احتذيت نعال السِبت** : السبت (بكسر السين) جلود البقر الناعمة ، ويتخذ منها أهل اليمن الأحذية اللينة . يلبسها رعاة الإبل والماشية لتساعدهم على تجنب والحماية من وخز الأشواك ، ويحتذي يعني يجعل حذاءه من هذه الجلود ، والعامة في مكة تقول ذا نعله أو مداسه ، يعني : أصلحه . وتقول وجهه كالمداس ، يعني : كالنعل اليماني ، تستعمل مدحًا وذمًا بطريق الاستعارة ..

قال عنترة :

بطل كأن ثيابه في سرحة ‏ ‏ ‏ يحذى نعال السبت ليس بتوأم

وقال طرفة :

وخد كقرطاس الشآمي ومشفر ‏ ‏ ‏ كسبت اليماني قده لم يجرد

* **الصُرة** : (بضم الصاد والراء المشددة المفتوحة ثم التاء المربوطة) ، كل ما تصر فيه الدراهم ونحوها ، وجمعها صرر (على وزن درر بضم ففتح فراء ثانية) ، والعامة عندنا في مكة تطلق كلمة صارة (على وزن ضارة) على المرأة البخيلة التي تصر الفلوس وتخبؤها ، وجمعها صرائر ، وأنشد أبو عمرو الشيباني والشعر لذي الرمة :

فانصاعت الحقب لم تصقع صرائرها ‏ ‏ ‏ وقد نشجن فلا ري ولا هيم

* **الطرة** : (بضم الطاء المشددة والراء المشددة المفتوحة ثم التاء المربوطة) وتطلقها العامة على ختم السلطان أو الختم الذي يوضع على العملة أو النقود المسكوكة التي سكت في أيام ولايته وذلك بوضع اسمه بشكل مقطوع منفرد قل أن يقلد ، كما تطلقها أيضًا على القماش المفتول المعقد بما يشبه السير المتخذ من الجلد ، ومنه سمي الطغرائي صاحي لامية العجم ؛ لأنه كان يصنع الطرة

بشكل فني ، وهي في الفصحى تطلق على الشيء المقطوع وعلى حرف الوادي وعلى أول كل شيء ، لكن لا يقال لمن يصنع الطرة طرارًا ؛ لأن الطرار هو اللص الذي يقطع الهمايين ويشق الجيوب ويخطف منها النقود ، كما لا يقال لهذه الصنعة طريرًا ؛ لأن الطرير هو ذو المنظر الجميل وصاحب الرواية الجذابة ، وجاء ذلك في شعر العباس ابن مرداس :

ويعجبك الطرير فتبتليه ... فيخلف ظنك الرجل الطرير

* **الفلكة** : بفتح الفاء واللام والكاف ثم التاء المربوطة وهذا بلهجة العامة ، وقد تقدم معناه وما يراد بها عند العامة . وفي الفصحى تكون بفتح الفاء وتسكين اللام وهي فلكة المغزل ـ وموصل ما بين فقرتي البعير وجاء قولهم (كأنه فلكة مغزل) ..

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة ... من السيل والغثاء فلكة مغزل

* **اللقيمات** : جمع لقيمة وهي تصغير اللقمة . وفي الأثر : حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ..

* **دونك** : اسم فعل أمر بمعنى خذ قال ابن مالك في ألفيته :

والفعل من أسمائه عليكما ... وهكذا دونك مع إليكا

* **البياضية** : بفتح الباء والياء المشددة وكسر الضاد ثم الياء المشددة المفتوحة ثم التاء المربوطة ، وقد تقدم ذكر هذه الكلمة في حلقة سابقة ، وتطلق على القصر المعروف بالأبطح ؟ وتاريخ بنائه ولمن من الأشراف بني ، وهو يشبه البيت الأبيض بالولايات المتحدة الأمريكية تمامًا ، إلا أنه أصغر منه وسمي بالأبيض ؛ لأنه مدهون باللون الأبيض الناصع من خارجه ، وهو لون الرخام

ويضاف إلى قصر مكة بالمعابدة ـ كونه مبنيًا من حجارة الجبل الأبيض الذي يطل على الأبطح ـ وهو جبل معروف في صف جبل الحجون، وسيأتي ذكره في جبال مكة إن شاء الله، ثم إن الجالس في المجلس الكبير الذي تطل نوافذه على الشارع العام في قصر البياضية يرى الجبل الأبيض المشار إليه. ولي في قصر البياضية ذكريات جميلة، أذكر شيئًا منها إن شاء الله قريبًا..

* **المدجج**: بضم الميم وفتح الدال والجيم المشددة المفتوحة تليها جيم أخرى، وهو لابس السلاح، غالبًا ما يكون مغطى ومستورًا من كثرة ما يلبسه من أنواع السلاح ـ قال عنترة:

ومدجج كره الكماة لقاءه　　　لا ممْعن هربًا ولا مستسلم

* **الحوقلة**: هي قول الرجل: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، من باب الاختصار والنحت، وتطلق في الفصحى أيضًا على القارورة الطويلة العنق، والحوقل (على وزن الجوهر) هو الرجل المسن الهرم، وإذا قلت: (حوقل الرجل) يعني ضعف وأدبر، ومن شعر الشواهد:

يا قوم قد حوقلت أو دنوت　　　وشر حيقال الرجال الموت

* **العقد**: (بضم العين وفتح القاف ثم الدال)، جمع عقدة (بضم ففتح)، وهي ما يمسك الشيء ويوثقه، وتطلق على عشرين معنى في الفصيح ـ وجاءت في القرآن بلفظ المفرد والجمع، وجاءت في الحديث وفي الشعر الجاهلي والإسلامي، قال عمر بن أبي ربيعة:

حدثونا أنها لي نفثت　　　عقدًا يا حبذا تلك العقد

وإذا أضيفت العقدة إلى الكلب فمعناها قضيبه، وجاءت في المنابزات التي

وقعت بين عمرو بن سندي وبشار وحماد عجرد :

ما امرؤ ينتقيك يا عقدة الكلب لأسراره بجد بصير

لا ولا مجلس أجنك للذات يا عجرد الخنا بستير

* **خان أبو عدس وقهوة القبو والخرزة** : أسماء مواضع بمكة المشرفة كانت معروفة إلى عهد قريب ، ثم أزيلت ودخلت في مشروع توسعة الحرم الشريف وشوارع مكة ، وقد ذكرت في الحلقات السابقة فلا داعي للإعادة ..

* **أبو سبعة** : اسم أسرة بمكة المكرمة لها دار بالمروة بجانب بيت الفقيهة (آشية) وقد هدمت هذه الدار بسبب توسعة المشعر والشوارع . وهذه الأسرة من الأسر التي تسكن مكة قديمًا وتمتهن طوافة الحجاج المصريين ، ولكنها آخذة في الانقراض كغيرها من الأسر التي انقرضت والتي أوشكت ، وسبحان الدائم ..

* **طوقي** : (بفتح الطاء وتسكين الواو وكسر القاف ثم الياء) ـ أي عنقي ، ويطلق الطوق على العنق ، ومن الشواهد :

كل امرئ مقاتل عن طوقه كالثور يحمي جلده بروقه

* **عمد** : (بفتح العين والميم وضمهما) جمع عمود على وزن ثمود ، العمود هو ما يقوم عليه البيت .. وجاء في القرآن والحديث ، ومن قول الأفوه الأودي :

والبيت لا يبتنى إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

* **كفية** : بضم الكاف وكسر الفاء وفتح الياء المشددة ثم التاء المربوطة ـ بلغة عامة مكة ويطلقونها على القماش المخيط الأبيض الذي يغطى به الرأس . والصحيح أن الكلمة بضم الكاف بعدها واو ـ (كوفية) وتطلق على الأنثى من

أهل الكوفة ، وعلى المنديل الذي يلف به الرأس ، لعل هذا النوع من لباس الرأس جاء من الكوفة ثم عم البلاد كلها ، ونحاة البصرة ونحاة الكوفة بينهما اختلاف كبير في قواعد اللغة وأصولها قديمًا ..

* **شَهْرَبة** : بفتح الشين وتسكين الهاء وفتح الراء والباء ثم التاء المربوطة ، وهي العجوز الكبيرة .. ومن الشواهد :

أم الحليس لعجوز شهربة ترضى من اللحم بعظم الرقبة

* **خذروف** : (بضم الخاء وتسكين الذال وضم الراء ثم واو وفاء) ، هو الحصاة المثقوبة يجعل فيها الصبيان خيطًا ثم يديرونها بسرعة ، وهذه اللعبة لا زالت قائمة إلى اليوم وقد استبدلوا الحصاة بحديدة وخشبة وغير ذلك ـ قال امرؤ القيس :

درير كخذروف الوليد أمرّه تتابع كفيه بخيط موصل

* **حزور** : بفتح الحاء والزاي والواو المفتوحة المشددة ثم الراء وهو الغلام الغليظ الشديد الرياضي لاعب الكرة ـ والجمع حزاورة ـ قال عمرو بن كلثوم :

يدهدون الرؤوس كما تدهدي حزاورة بأبطحها الكرينا

وقال النابغة الجعدي :

وقاسيت أيامًا تشيب الحزورا

* **حراك** : (بفتح الحاء والراء) بمعنى الحركة . ومن شعر جرير :

يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانًا

* **كرب** : (بفتح الكاف والراء ثم الباء) ـ بمعنى كاد ، والفعل هو من أفعال

المقاربة ويكثر تجريد خبرها من أن ويقل اقترانه بها وهذه القاعدة يفسرها ابن مالك رحمه الله في الألفية في قوله :

ومثل كاد في الأصح كربا وترك أن مع ذي الشروع وجبا

ومن الشواهد :

كرب القلب من جواه يذوب حين قال الوشاة هند غضوب

* **الغزالة** : بفتح الغين وهي أنثى الغزال ، وهي عين الشمس ، قالت العرب : (طلعت الغزالة) وقالت : (غزالة الضحى) ، ولا يقال : غربت الغزالة .. وأما الأغزل فهو اسم التفضيل من الغزل وجاء في المثل العربي (أغزل من امرئ القيس) ..

* **رأدت ـ وطفلت** : تقدم معنى الصيغتين .. الأولى عند بدء الضحى والثانية قبل الغروب ، وكانت العرب ، قبل اختراع الساعة تقسم ساعات النهار إلى اثنتي عشرة ساعة ، وكل ساعة لها ايم ومن هذه الساعات ساعة الرأد وساعة الطفل ..

قال الطغرائي :

مجدي أخيرًا ومجدي أولاً شرع
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

* **الخميس** : هو يوم الخميس ، وهو الجيش إذا خمس فرقًا . وجاء في الشعر الجاهلي والإسلامي . والفرق الخمس للجيش عند العرب هي : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساق ، ويقال للثوب الذي طوله خمسة أذرع ـ خميس) ، وجاء في حديث معاذ رضي الله عنه (ائتوني بكل خميس .. الخ) ..

* **القمارى** : (بفتح القاف) جمع قمري (بضم القاف) وهو الطائر المعروف ذو الصوت الجميل، وهو من فصيلة الحمام لكنه غير أليف ولا يألف المنازل مهما أكرمته في عشه بخلاف الحمام، وتسمى الأنثى قمرية، وألوانه كثيرة، ويضرب المثل بصوته الحسن، فيقولون : صوته كالقمري ..

وجاء في الشعر الجاهلي والإسلامي، قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وهو يذكر زوجته عاتكة بنت سعيد بن زيد من قصيدة :

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق وما ناح قمري الحمام المطوق

وكنا نصيد هذا النوع بالزيمة ونأكله لجهلنا بثمنه، والجاهل عدو نفسه وغيره ..

* **النغارى** : على وزن الصحارى والصيغة عامية، والصحيح نغران (بكسر النون وتسكين الغين)، والمفرد نغر على وزن صرد (بضم أوله وفتح ثانيه). والعامة تسميه نغرى (بضم النون وسكون الغين بعدها راء مكسورة)، وهو غلط. والصواب ما أثبتناه آنفًا، وهو البلبل ذو الصوت الجميل وتصغيره (نغير). جاء في الصحيحين : « يا أبا عمير ما فعل النغير ». وصيغة الجمع نغران (بكسر النون) كما سبق بيانه، أنشد أبو عمرو :

يحملن أوعية السلاح كأنما يحملنه بأكارع النغران

وكنا نصيده في الزيمة، وسؤلة، والمضيق، كسائر الطير ونأكله لجهلنا بصوته الجميل ..

* **التجميش** : العامة تسميه(الكبوس) بفتح الكاف، وهو غلط، والصواب

الأول كما في الفصحى ومعناه : القرص بالأصابع على الجلد أو الجسم كما هو مشاهد ، وتطلق الصيغة على المغازلة والملاعبة . والجمّاش (بصيغة المبالغة) هو المتعرض للنساء للاحتكاك بهن ، كذلك المرأة الجمّاشة ، أما الجميش (على وزن الخميس) فهو الصحراء التي لا نبت فيها كما جاء في الأثر : بخبت الجميش فلا تهجها .. الخ ، والفعل من هذا الباب جمّش بالتضعيف أي قرص ولاعب ، وجاءت الصيغة في الحديث والأمثال والشعر :

وناظرة إلي من الثقاب ... تلاحظني بطرف مستراب
وما زالت تجمشني طويلًا ... وتأخذ في أحاديث التصابي
كشفت قناعها فإذا عجوز ... مسودة المفارق بالخضاب

* **القناع والغدقة** : القناع بكسر القاف ، وقد تقدم تفسيره في الحلقات السابقة ، والغدقة بضم الغين وتسكين الدال وفتح الفاء ثم التاء المربوطة وتقدم معناها أيضًا في الملاءة وثياب العرب ، وإلى الصيغتين يشير عنترة في معلقته :

إن تغدفي دوني القناع فإنني ... طب بأخذ الفارس المستلئم

* **المجن** : بكسر الميم وفتح الجيم ثم النون المشددة ، وهو الترس أو الوشاح ، وقالت العرب : (قلب له ظهر المجن) يعني انقلب وتغير عليه .. وجاءت هذه الصيغة في الشعر بكثرة ، ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة :

فكان مجني دون ما كنت أتقي ... ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

* **الأطلس العسال** : هو الذئب ، ولونه أطلس أي أغبر وسمي العسال ؛ لأنه يعسل في مشيته ويضطرب في عدوه ويهز رأسه كالفرس ، قال الفرزدق :

وأطلس عسال وما كان صاحبًا ... دعوت بناري موهنًا فأتاني

* **العسّاس** : (بفتح العين وتشديد السين المفتوحة ثم ألف وسين)، هو الطواف بالليل للمراقبة. وأكثر ما يسمى به الذئب ثم يستعار للإنسان، وفعله عس واعتس وعسعس. وفي القرآن ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] وفي الشعر:

منازله تعتس فيها الثعالب

عتاب ودفاع

قالت الأم المرضع ـ رحمها الله ـ بعد أن أكثرت عليها العتاب: ما كل ما يعلم يقال، وأنا لم أهرب من مكة ولم أتركك، ولكني مضطرة إلى السفر والرجوع إلى زيمتي لقطع علاقتي بها وأخذ بنتي عجوة، ثم الرحيل إلى مكة للاستقرار حتى لا تهرب وترجع إلى الزيمة وتوقعنا في الحرج مع أهلك، وأنا أرملة لا سند لي يحميني في أرضي غير أخي وهو مريض، وحسبي الله ونعم الوكيل.. وإنني قررت الهجرة إلى مكة من أجلك، وسأشتري دارة صغيرة بها بدلا من أرضي هذه، لكنك استعجلت وهربت وما ندري ماذا سيكون وأسأل الله أن يجعل العاقبة سليمة..

ثم ذكرت: أنها تعلم بسفر والدي إلى الهند، وهو الذي أقنعها بالابتعاد وعدم الاحتكاك بالعمات، حتى يرجع بالسلامة..

مشاورات عائلية

خرجت معي لزيارة أقاربها من القناوية، ففرحوا لما رأوني واستغربوا كيف أني استطعت الهروب وأنا في هذه السن، لكنهم أنذروها بأن أهلي لن يسكتوا

وأنهم لابد في طريقهم لأخذي بالقوة إما اليوم وإما غدًا ، ثم قالوا لها : خذي حذرك واهربي به قبل وصولهم والقبض عليه ؛ لأنهم لن يرحموه هذه المرة بسبب سفر أبيه وبعد أمه وعدم علمها بوجوده ..

ثم قالوا : نحن لا نستطيع مواجهتهم ولا من طريق ولا من وسيلة ، فالأفضل إما أن ترديه إليهم وتبقي معهم في مكة حتى لا يهرب ثانيًا ، وإما أن ترحلي إلى الطائف أو وادي فاطمة حتى لا نكون مسئولين ولا محرجين ، وأنت أبصر بمصلحتك ، ومع ذلك لن نتخلى عنك عند الشدائد ..

ليـلـة قاسـية

رجعنا إلى دارتنا وتعشينا ونمنا ، ولكن كنوم السرحان بين اليقظة والمنام ، وذلك لما ينتظرنا من أهوال الأيام وحلكة الظلام . ولما أصبح الصباح جمعت رحالها ورهنت أرضها وغادرت وطنها وأخذت عجوة بنتها وولدها كاتب هذه المذكرات .

رحلة السبعين يومًا وتبدأ من وادي فاطمة

بعد حزم أمتعتها ودعت أختها وأخاها وحملت ما تستطيع وحمّلتني وأختي ما نستطيع حمله ، ثم غادرت الزيمة وقالت لأهلها : إنا ذاهبون إلى الطائف ، ولكنها لم تفعل بل عطفت على (سُولة) ثم قالت : لو جاء أحد من أهلك ينشد عنا فقولوا له : ذهبوا إلى الطائف ، حتى إذا وصلوها لم يجدونا ، ولكننا سنمكث بوادي فاطمة أكثر من شهرين ، وهذا الوادي فسيح لا يعرفون مكاننا فيه ، وهذا من باب التورية والحكمة ، لئلا تعرف وجهة سفرنا خوفًا من

اللحاق بنا ، ثم قالت : لنا أهل وأصدقاء في هذه البلاد والله معنا ..

سولة وما جاورها

واصلنا مسيرتنا حتى وصلنا سولة ، وكانت أول العيون وأول محطة نزلنا بها بعد الزيمة ، وقد رحلت إليها سابقًا مع الخالة وأنا ابن أربع سنين . (ولنا فيها الآن قرابة ومنهم بنت أختي عجوة حيث لها بستان وعيال هناك إلى الآن) ..

وسولة هي إحدى عيون وادي فاطمة بعد الزيمة . فيها الليمون والموز والنخل وبعض الخضروات ، وقد تكلمنا عنها في الحلقات السابقة ..

مكثنا بها ثلاثة أيام نتجول في حدائقها ونأكل من طيبات ما أحل الله لنا من طعام وفاكهة وصيد ، ثم رحلنا إلى بقية العيون التي تربو على الأربعين ، وسيأتي ذكر أشهرها في شرح كلمات الحلقة هذه التي نحن نسردها ونمليها الآن ..

استمرت رحلتنا هذه زهاء سبعين يومًا لم نترك فيها واديًا من فروع هذا الوادي الكبير إلا سلكناه ، وتجولنا فيه واستكشفنا ما به من نبات وفاكهة وخضرة وماء .. هذا الوادي العظيم هو الذي يغذي مكة شرفها الله بمحصوله وزروعه وثماره وإنتاجه ومراعيه وأعشابه العطرية والصبغية .. ثم استمر رحيلنا إلى أن وصلنا جبال الحجاز الشرقية التي تنحدر منها المياه الغزيرة أيام هطول الأمطار التي تمكث أيامًا تهطل ، حتى تجعل هذه الجبال تخر منها المياه شهورًا وتكون أنهارًا تصب في وادي (الزبارة) ووادي (الشامية) ، وحينما تجتمع مياه هذين الواديين الفرعيين تنساب وتتدفق على وادي فاطمة الكبير ..

وادي عـلاف

واصلنا إلى وادي علاف ـ وهذا الوادي تجتمع فيه المياه التي تصب من جبال رهاط (بضم الراء ثم هاء مفتوحة وألف وطاء) ..

الرجوع إلى الزيمة

بعد هذه الرحلة الطويلة رجعنا إلى الزيمة منتعشين ، ولكن الأم الرؤوم كانت قلقة بشأن ما سيأتي به الغد ، وبشأن ابنها الذي دخل في الثامنة من عمره ولا يزال يتخبط في الطريق الوعر الممتلئ بالأشواك والجمر ..

السفر إلى مـكة

ثم أزمعت السير إلى مكة بعد تأجيرها للدارة والأرض ، ووطدت العزم على الإقامة بمكة حينًا من الدهر حتى لا أتعرض للعقاب أو الهرب .. ثم قالت قبل أن يفاجئونا نفاجئهم ونكسب الجميل والثناء .. وقد عرضت على أختها السفر معنا فوافقت ورحلنا جميعًا إلى مكة ..

المـنـزل الأول

حينما وصلنا بسلامة الله إلى مكة ـ شرفها الله ـ ذهبنا إلى بيت شيخ المعابدة واسترحنا قيد ساعة ، ثم ذهبنا إلى منزلنا الصغير الذي نزلنا به سابقًا واستعارت شملة وبعض الأواني من صديقاتها الزيميات وغيرهن ..

ثم دعينا للغذاء في بيت شيخ المعابدة ، وقبل أن نذهب نظفت جسمي

وبدلت ملابسي ثم ذهبنا للغذاء وتناولناه قبل أن يطهى بسبب عزمنا الذهاب إلى بيتنا بباب الدريبة قبل الظلام ، وقد قيل لها : إن الأهل جاءوا مرارًا يسألون عنها وعني إلى أن علموا بوجودي في الزيمة ..

المقابلة الحسنة

ثم أخذتني إلى أهلي بباب الدريبة وأخذت معها قنوين من الموز الزيمي هدية ، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة إذ لا وظيفة ولا خروج وكان ذلك من حظنا إذ لولا ذلك لما فتح لنا الباب ، فاستقبلنا بالترحيب وطلاقة الوجه ، وكذلك العمات ، ففرحت الأم بهذا اللقاء ، وكانت تظن أنها ستخاصم أو تحاكم ولكن الله سلم - ثم أخبرت عمي بضرورة قضاء يوم الجمعة عندها بمنزلنا بالمعابدة وتركت لهم العنوان ثم انصرفت في أمان الله ..

شرح الكلمات

* **زعلانة** : (بفتح الزاي وتسكين العين ثم اللام والألف والنون المفتوحة والتاء المربوطة) بمعنى غاضبة في اللغة العامية بمكة المشرفة ، وأما في الفصحى فتطلق على النشطة ، والصيغة في جميع أبوابها سواء في المجرد (زعل) بفتح فكسر ، أم في الرباعي الذي هو (أزعل) أو في الخماسي أو في الصفة المشبهة باسم الفاعل أو غيرها من الصيغ كلها تأتي بمعنى النشاط والقوة والمتعة ولا تأتي بمعنى الإزعاج إلا نادرًا ، والصيغة التي تستعمل في الغضب والكدر والإساءة والقلق هي : علز وغضب ..

أما زعل وأزعل الخ ، فبمعنى النشاط وما يقابله من معان ..

قال أبو ذؤيب الهذلي :

أكل الجميم وطاوعته سمحج   مثل القناة وأزعلته الأمرع

وبعد هذا التوضيح يستحسن أن نقول : لا تغضب ولا تتأثر ولا تزعل ولا تحمق ولا تحنق .. الخ ..

* **الخريق** : بفتح الخاء وكسر الراء ثم الياء والقاف ، وتطلق العامة هذه الصيغة على الأرض الواسعة المطمئنة ذات الهواء الطلق ، وهو غلط في الاستعمال ؛ لأن الخريق في الفصحى لا يطلق إلا على المطمئن من الأرض بشرط أن يكون فيع نبت ..

وتطلق الصيغة على رحم المرأة إذا فسد وسلس فيقال : رحم خريق على وزن أمير ، يعني خرقها الولد عند الوضع أو الطلق فلا تلقح بعد ذلك ..

أما المطلوب من المعنى الذي تقصده العامة تلقاء كلمة الخريق - فهو - خرقاء (بفتح الخاء وتسكين الراء ثم القاف المفتوحة والألف والهمزة) ومعناها الأرض الواسعة إذا تخللتها الرياح الباردة . كما تطلق الصيغة أيضًا على المرأة الحمقاء ، وعلى محبوبة ذي الرمة الشاعر المعروف وكان اسمها (خرقاء) وقد شبب بها وهي في المائة ، ولما سئل عن ذلك قال : إن فيها لمباشرة وإن ديباجة وجهها طرية - وقد قال فيها العجيف العقيلي :

وخرقاء لا تزداد إلا ملاحة   ولو عمرت تعمير نوح وجلت

وسألها عمر بن يزيد الأسدي إذ قال لها : هل حججت قط ؟ .. فقالت : أما علمت أني منسك من مناسك الحج ، وأنه لا يتم الحج إلا برؤيتي ! .. فقال : وكيف ذلك ؟ .. أما سمعت ذا الرمة وهو يقول :

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

* **البيئة** : (بكسر الباء ثم ياء وهمزة مفتوحة وتاء مربوطة) ، معناها الحالة فتقول : فلان حسن البيئة يعني الحالة ، كما تقول شب في بيئة سوء .. وهكذا والفعل لهذه الصيغة يأتي من الرباعي فتقول : أباء بالمكان ، يعني حله وأقام به ، كما تقول أيضًا : أباء القاتل بالقتيل يعني قتله به .. قال طفيل الغنوي :

أباء بقتلانا من القوم ضعفهم وما لا يعد من أسير مكاثب

وصيغة المضارع : (يباء) بضم الياء وفتح الباء ثم الألف والهمزة ، فلاحظ ذلك جيدًا . قال عمر بن أبي ربيعة :

وكم من قتيل لا يباء به دم ومن غلق رهنًا إذا ضمه منى

* **وادي فاطمة** : اسم هذا الوادي بطن مر (بفتح الميم وتشديد الراء) كما يقال له مر الظهران ، والأول أشهر لمجيئه في الشعر الجاهلي والإسلامي وخاصة في قصائد أبي ذؤيب الهذلي وعمر بن أبي ربيعة ـ وهو الآن وادي فاطمة ـ ولا يعرف إلا بهذا الاسم .. وهو كثير القرى والعيون ـ منها ما بين الطائف ومكة ومنها ما بين جدة ومكة ؛ لأنه آخر حدود البلد الأمين من ناحية الزيمة ومن ناحية حداء ..

ولا يصح أن يقال لبعض قراه أو عيونه ما بين مكة والمدينة ـ بل يقال ما بين مكة والطائف أو ما بين مكة وجدة ـ فمثلًا ـ (الزيمة) و(سولة) وما جاورهما من قرى وعيون يقال : إنهما تقعان بين الطائف ومكة ـ وما كان أقرب إلى جدة مثل حداء وما جاورها حدودها يقال إنها تقع بين مكة وجدة .

وطول هذا الوادي خمسون ميلًا وعرضه ثمانية أميال ، وهو أخصب أودية

أم القرى وهو الذي يزودها بالخضرة والفاكهة وهو الذي يزود مدينة جدة بالماء العذب بواسطة الأنابيب الجبارة التي استوردتها المملكة من الخارج في عهد المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ، ولذلك سميت العين التي دخلت جدة من هذا الوادي بالعين العزيزية ، والعيون التي تدفقت إلى جدة بواسطة هذه الأنابيب تقطع من وسط وادي فاطمة إلى جدة مسافة أربعين ميلًا تقريبًا . ويمكن لساكن هذا الوادي أن يذهب إلى الطائف وإلى جدة وإلى المدينة رأسًا وإلى مكة ويمتد إلى داء حيث تبدأ المحطة الأولى للقوافل التي كانت تذهب إلى المدينة عن طريق جدة أو من غير جدة إذا انحرفت القافلة عنها من طريق وادي الليمون ، وأرضه كلها زراعية وخصبة وجيدة التربة وبها مراعٍ كثيرة حيث ينبت فيها الكلأ الجيد والأعشاب الكثيرة التي يتغذى منها الحيوان ..

وأما العيون التي تتفجر في هذا الوادي فكثيرة وغزيرة ومن أشهرها :

ـ عين (الزيمة) التي أرضعت فيها وترعرعت ونشأت وهي أشهر القرى والعيون والمحصول بالنسبة لهذا الوادي الطويل العريض ..

ـ عين (سولة) وقد تقدم الكلام عليها ولنا فيها أخوات من الرضاعة ..

ـ عين (المضيق) وقد تقدم الكلام على المضيق وساكنيه ومحصوله ولنا فيه أخت من الرضاعة

ـ عين (الشرائع) وبها قرية مسكونة ونخيل وحدائق وآبار عذبة ومعظم أراضيها الزراعية ملك المرحوم حمد سليمان وكيل وزارة المالية سابقًا ..

ـ عين (حداء) بتشديد الدال المفتوحة وفتح الحاء ، وبها زروع ونخيل وشوارع ومدرسة ومستشفى ومقهى ، ومنها يجري الماء بوساطة الأنابيب إلى جدة .

هذه العيون الخمس من أشهر عيون وادي فاطمة ، وهي المعروفة لدى السياح بسبب مواقعها الإستراتيجية بالنسبة للقوافل والعربات النفطية وبالنسبة للذاهبين إلى جدة والمدينة ومكة والطائف إذ لابد من الاستراحة والتموين من هذه المحطات بالبنزين والماء ـ فاستراحة الطريق جزء مهم للسائح ، لذلك تعتني مصلحة السياحة في الخارج بمثل ما يشبه هذه المراكز والمحطات ، فتبنى بها فنادق ومعارض تعرض فيها منتجات تلك البلدان لتبيعها بأثمان معقولة لدعاية والشهرة وما إلى ذلك ، فعسى أن تفكر الجهات المسئولة في مثل هذه الأشياء حتى تنتعش السياحة في بلادنا إن شاء الله .

ـ العين السادسة من عيون وادي فاطمة التي يعرفها بعض السياح في بلادنا وهي :

ـ عين (الحسينية) وبها مزارع ومراع ومياه عذبة ، وبعض سكان مكة المترفين يقصدونها للتنزه ويمكثون بها بعض الوقت للاستمتاع بالطبيعة والماء ..

ـ عين (القشاشية) وعين (الدبة) وعين (واسط) وعين (الفيض) بفتح الفاء ثم عين (بحرين) وعين (الدخان) وعين (أبي شعيب) وعين (الفايجة) وعين (الجموم) بفتح الجيم على وزن السموم ـ وهذه غزيرة وعذبة وبها علاوة على ذلك بئر عظيمة لا ينقطع ماؤها وتتغير عذوبته من حسن إلى أحسن أيام هطول الأمطار ..

وكلمة الجموم تطلق في الفصحى على البئر الغزيرة ، فيقولون بئر جموم ، ويقولون فرس جموم إذا غير عدوه من حين لآخر ، قال النمر بن تولب :

جموم السير شائلة الذنابي   تخال بياض سرتها سراجا

ومن غرائب الطبيعة أن تجد في هذه العين أنواعًا من الحشائش تغطي الأرض وتسمى بالجميم (على وزن الحميم) ، وهي أجود أنواع الحشائش ، ولك أن تقول إذا ما جئت هذه العين على حمار : « شربت من الجموم ورعى حماري من الجميم » ، وهذه من المصادفات الطبيعية لفظًا ومعنى ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

أكل الجميم وطاوعته سمحج

ـ عين (أبي عروة) وهي خلاف بئر عروة المشهورة ، ثم عين (الخلص) بضم الخاء وفتح اللام المشددة ثم الصاد ـ جمع خالص ـ وهو الصافي الناصع من الألوان ، وهذه العين ماؤها صاف وعذب ومثل هذه العين عين من عيون الطائف بهذا الاسم وقد تقدم ذكرها ، وينبت حول هذه العين شجر صغار قصار في ارتفاع الكرم وهو طيب الريح وله حب أحمر كخرز العقيق لا يؤكل لكنه يرعى ، والواحدة تسمى خلصة (بفتح الخاء واللام والصاد ثم التاء المربوطة) ..

ـ عين (القشاشية) على وزن اسم المحلة بمكة المكرمة ، وما حول هذه العين من تربة جاف وصلب .

ـ عين (البراقة) بفتح الباء والراء المشددة المفتوحة ثم القاف المفتوحة والتاء المربوطة . وهذه العين صافية ويرى ماؤها من بعد ، وكأنه برق لامع أو سراب مشعشع

ـ عين (الهنية) بفتح الهاء وكسر النون وفتح الياء المشددة ثم التاء المربوطة بلهجة البادية من الهناء (بفتح الهاء) وبعضهم ينطقها بصيغة التصغير جمع هنوات على وزن قنوات ..

ـ عين (الخيف) بفتح الخاء وتسكين الياء ثم الفاء . وهذه العين مرتفعة عن مسيل الماء أيام الأمطار الغزيرة ، ولذلك لا يمكث الماء بها كثيرًا كغيرها من العيون ، بل تبقى دائمًا كما هي في طبيعتها الأصلية وترى من بعد زرقاء اللون ..

وكلمة الخيف من الفصيح ومعناها ما ارتفع وانخفض من سفح الجبل ومنه الخيف ومسجد الخيف بمنى ـ قال عمر بن أبي ربيعة :

نحن أهل الخيف من أهل منى ... ما لمقتول قتلناه قَود

ـ عين (الريان) بتشديد الراء المفتوحة ثم الياء المشددة المفتوحة والألف والنون ضد العطشان وينبت بالقرب منها نبات جميل الشكل ذو رائحة عطرة ترعاه الماشية . وكلمة (ريان) جاءت في الشعر الجاهلي والإسلامي ، وكلمة ريا (بفتح الراء والياء المشددة المفتوحة) بمعنى الرائحة الجميلة ومن الشواهد قول امرئ القيس :

إذا قامتا تضوع المسك منهما ... نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

ـ عين (المدرة) بفتح الميم والدال والراء ثم التاء المربوطة ، وبجانبها بيوت صغيرة من اللبن يسكنها المزارعون من أصحاب هذه العين وتحيط بها جدر من اللبن وبعض البيوت الصغيرة . وماؤها قليل العذوبة ..

ـ عين (الطرفاء) : بالطاء المفتوحة والراء الساكنة والفاء المفتوحة والألف والهمزة ، وهي عذبة وتحيط بها أشجار الأثل ذات الظلال ، ويقصونها حطبًا ، وفحمها من النوع الثمين ، وخشبها يسقف به في القرية المجاورة المسماة بها العين المذكورة . وكلمة الطرفاء في الفصحى معناها الشجر وواحدتها طرفة

(بالتحريك)، وسمي الشاعر الجاهلي الشاب بهذا الاسم وهو من أصحاب المعلقات (طرفة بن العبد)

- عين (البرابر) بفتح الباء والراء والألف والباء المكسورة والراء وهي عذبة تروي الركبان حولها ويستقى منها، ولها صوت يشبه البربرة.

- عين (صروعة) بفتح الصاد وضم الراء ثم الواو والعين المفتوحة والتاء المربوطة، وينبت حولها نبات خفيف ليس له أصل في الأرض لأن قشرتها خفيفة ولينة وإذا نمت جذوع أي شجرة فسرعان ما تصرعها الريح لأن جذورها غير ثابتة الأساس، وفي الفصحى يقال شجر مصرعات ومصارع، ومن الشواهد قول لبيد رضي الله عنه في معلقته الجاهلية:

محفوفة وسط اليراع يظلها   منه مصرع غابة وقيامها

- عين (العابدية) بكسر الباء والدال والياء المفتوحة المشددة ثم التاء المربوطة. وهذه العين كثيرة الهياج أيام الأمطار. والعابدية اسم وفعله عبد من باب طرب وغضب وأنف. الرباعي منه أعبد (بفتح الباء) أي أغضب وأهاج - ومن الشواهد قول الفرزدق:

وأعبد أن أهجو كليبًا بدارم..

- عين (المقوع) بالميم المضمومة والقاف المفتوحة والواو المشددة المفتوحة ثم العين. وهي مسطحة وتسيل مياهها على وجه الأرض وليس لها عمق ولا غور وهي عذبة، وتسقي الأقواع المنحدرة عنها بحيث تصب فيها من غير واسطة.

- عين (سمار) بفتح السين والميم ثم الألف والراء على وزن فنار وهي غزيرة وماؤها كثير وعذب.

ـ عين (الهرامز) بفتح الهاء والراء ثم ألف وميم مكسورة وزاي ، وهي قليلة الانسياب وليس لها صوت ولا في أيام الأمطار ولا تستفيد منها النباتات التي حولها إلا من المطر إذا جادت السماء ..

ـ عين (الخضراء) بفتح الخاء وتسكين الضاد ، ولون هذه العين أزرق وماؤها غزير .. وكلمة الخضراء تطلق في الفصحى على السماء وعلى الشجرة وعلى المرأة الحسناء في منبت السوء ، وعلى الكتيبة والدلو والحمام ..

ويفيض على وادي فاطمة ماء غزير من جبال مجاورة لوادي الزبارة ويصب في هذا الوادي نفسه بالإضافة إلى وادي الشامية ، كما تصب مياه غزيرة من جبال رهاط (بضم الراء) ، وقد تقدم شيء من هذا .

وإلى هنا انتهت رحلة السبعين يومًا التي تجولت فيها في هذا الوادي العظيم وادي فاطمة مع المرحومة أمي المرضع . كما رحلت إلى هذا الوادي في سن الشباب لزيارة ذوي القربى من الرضاعة .

العودة إلى كتّاب الفقيهة آشيّة

قبل أن أبدأ بالذهاب إلى كتابها أو مدرستها الابتدائية . أحب أن أصرح بأن سياسة البيت قد تغيرت ، وتبدلت الشراسة بالبشاشة والعطف ؛ لأن جميع من بالدار قد عرف النهاية ، وأنه لابد لي من الهرب والتشرد والرجوع إلى البدو ثانية وثالثة ورابعة وإلى ما شاء الله . وقد يعود أهلي إلى مطاردتي وخاصة عندما أصل إلى رؤوس الجبال أو أسلك الطريق إلى الزيمة ، ولم تكن هناك عربات وما يشاكلها إلا ما خلقه الله من الأنعام .

وأول تبدل في الحياة البيتية ، بادر به المرحوم عمنا جمال ، فقد فرح

برجوعي وأخذني في مساء يوم قدومي إلى بيت شقيقته المرحومة عمتي زوجة المرحوم الشيخ عبد الله أبو الخير مرداد ، قاضي مكة آنذاك .

فاستقبلتني كما استقبلني زوجها المرحوم وأنجاله أحسن استقبال . وأول جملة قيلت لي هي : « أهلًا بالشراد » لكن ببشاشة وابتسامة جميلة وعناق طويل ثم أغدقوا علي ، من النقل والحلوى والحلوان ـ بكسر الحاء ـ وهو البقشيش بلغة العامة ، وما ذلك إلا لتأليف قلبي إذ إني قد أصبحت عندهم من المؤلفة قلوبهم .

في اليوم الثاني ذهب بي إلى بيت خاله المرحوم السيد موسى الفتياني وهو خال والدي وعمي وعماتي ، وكان إمامًا بالمسجد الحرام وصاحب حانوت بسويقة لبيع الحناء والعطر . وأصبحت صلتي بهذا البيت عظيمة كما هي ببيت الشيخ عبد الله أبو الخير ، فكنت ألجأ إليهماعند الشدائد . وهذا الحانوت كان يقع أمام حوانيت الدهلوية بائعي الحنابل والكولندي . وكان للسيد موسى حانوت آخر تحت القصر(المشنشن) بسويقة أيضًا لبيع المساويك والكحل والحناء .. يديره ابنه المرحوم السيد أحمد الفتياني ، والد زوجتي حاليًا وجد أولادي ، فقوبلت وأكرمت .

في اليوم الثالث ألبسوني وذهبوا بي إلى بيت الفقيهة آشية . وكانت العمة التي ذهبت بي سابقًا هي التي قادتني إليها هذه المرة . وعندما وصلنا إلى المدرسة الصغيرة أسرت إليّ بقولها : (شوف)[١] إن الفقيهة ربما لا تقبلك أو تأمر بضربك ؛ لأنها زعلانة منك بسبب هروبك ، ولكني سأشفع لك ، فلا

---

(١) شوف في عامية أهل الحجاز : بمعنى انظر .

تخف ولا تفكر في شيء، فأذعنت لقولها وامتثلت لأمرها ولكن عقلي شرد، وقلبي اضطرب وخفق، وكدت أهرب خوفًا من الفلكة والجلد. وأخيرًا ثبت رشدي وتجلدت. وطلعت العمة فدخلنا على الفقيهة وسلمنا عليها فقالت: هذا شراد ولا أقبله، ردوه إلى أهله في البدو.

الشفاعة

فقامت العمة وقبلت رأسها وقالت: «امسحيها في وجهي هذه المرة» ولكنها حملقت وزمجرت وكادت تأمر زبانيتها الحزاورة بإحضار الفلكة، لكن العمة أعادت الكرة تلو المرة في التوسل والرجاء حتى سكتت، وقالت: قم هناك مع الأولاد واحفظ في اللوح. فشكرت العمة الفقيهة وأعطتها نصف ريال مجيدي وخرجت.

لوح جديد

ثم نادتني كما نادت إحدى البنات من العريفات (بفتح العين) وأمرتها أن تكتب لي (أبجد هوز) وتحفظني وتلقنني فامتثلت ونفذت الوصية.

كل يوم علقة

علقة: (بفتح العين وتسكين اللام)، أي تعليق رجلي في الفلكة ثم جلدهما بالخيزران؛ لأني بليد، ولا أعرف كلام العامة ولا لغة الفقيهة، وقد بلغت من العمر سبع سنين وداخل في الثامنة.. ولكني جامد الفكر قليل الذكاء. لم أستطع فهم الكلام العامي الحضري ولا (أبجد هوز) ولا (لشيون) بلغة الفقيهة

يعني (لا شيء) في الفصحى ، حتى إني أصررت مرة إصرارًا ونطقتها (لا شيء) فما كان منها إلا الشتم والضرب باللوح على رأسي ثم قالت : انطق كما أنطق حرفًا بحرف وكلمة بكلمة من غير تحريف ولا تفصيح تعني كالببغاء صورة طبق الأصل.

يوم الخميس

تصبّرت على مضض وصرت أعد الأيام والساعات منتظرًا يوم الخميس لأذهب إلى أمي المرضع بالمعابدة حسب الميعاد الموقوت وهو المبيت ليلة الجمعة ويوم الجمعة إلى المساء ثم الرجوع إلى باب الدريبة حسب الاتفاق مع الأم المرضع (رحمها الله) .

ولما جاء يوم الخميس ذهبت إلى بيت الفقيهة وكلي نشاط وحيوية ؛ لأنه يوم عيدي وفكاكي من الأسر بالنسبة للمحيط الذي أنا غارق فيه ؛ إذ لا البيت يعجبني ولا السوق ولا تلاميذ الفقيهة ، ولا أتصور كل شيء في وجهي إلا بعكس ما يتصوره الناس لأني كنت كالغريب بينهم ، لا أحد يفقه لغتي ، ولا أفقه لغة أحد إلا بكل تكلف وتعسف ، وما إن أذن المؤذن لصلاة الظهر ، وسمعت كلمة انصراف من جانب الفقيهة حتى هرولت مسرعًا إلى الساحة ثم إلى باب الدريبة .

الغداء واقفًا

ألقيت اللوح وطلبت من العمة العجوز صاحبة المطبخ أن تعطيني ما تيسر لأتناوله ثم لأذهب إلى المعابدة إلى بيت والدتي المرضع .. لكنها قالت : لم

ينضج الطعام، ولم يصل عمك من وظيفته، ولا يمكن أن تذهب إلا بإذن منه، فقلت لها: أنا متنازل عن الغداء، وأما الذهاب فلا بد منه فقالت: لا! فوسطت عمتي الصغرى التي تسامرني وتسليني، فقالت لأختها: اتركيه يذهب لأمه حسب الاتفاقية. فامتنعت وقالت: نحن لا نحب الفلتة [ـ بفتح الفاء ـ كلمة عامة سيأتي شرحها فيما بعد]، ثم قالت: هذا صغير ونخاف عليه من أولاد الحرام، وكلمة (أولاد الحرام) لا يستعملها إلا العامة في مكة[1]، فقالت لها الصغرى: هذا الذي ذهب من مكة إلى الزيمة ركضًا على قدميه، يخاف عليه أن يذهب من هنا إلى (المعابدة)؟ فقالت: ولو. فصرت أبكي. وصادف ذلك نزول العمة التي تسكن في دورها الثالث، نزلت في انتظار الغداء، ورأت ما رأت فقالت: اذهب ونحن نتفاهم مع عمك لما يصل.

خرجت مسرعًا وذهبت إلى المعابدة إلى الكوخ الحبيب الذي تسكن فيه المرضع، والأسرة البدوية المحبوبة. وما إن رأيت أمي حتى ارتميت في حجرها وتعلقت برقبتها وقلت لها: خلاص [بفتح الخاء] بعد الآن ما أذهب إلى الحضر ولا أتركك أبدًا وليكن ما يكون.

ليلة حلوة

ما أحلاها من ليلة قضيتها، ويوم قضيته حتى نهار الجمعة، وكأني لم ألبث إلا ساعة أو دقائق؛ لأن الدنيا كلها في نظري في ذلك الكوخ الصغير وتلك المرضع الرؤوم، وما أرى عيشتي بين الحضر إلا كما يرى الحي الصحيح الموت العيان.

---

(١) وتستعمل أيضًا في المعنى نفسه لدى العامة في المدينة وغيرها أيضًا من بعض مدن المملكة.

تسلية وتصبر

ولما حان وقت الذهاب إلى باب الدريبة ، واصفرت الشمس ، قالت الأم المرضع : هيا توكل على الله وارجع لأهلك ، فقلت لها : لا أرغب في الذهاب خوفًا من الفقيهة والجلد وعدم وجود العطف بالدار وما إلى ذلك . فنصحتني بالعودة وجعلت تسليني بالعبارات الجميلة ، وتأمرني بالصبر والتصبر ، وما هي إلا أيام ويصل والدك وربما ترى أمك الحقيقية بعد وصوله من السفر ، ثم قالت : إن لم تذهب إليهم فسيحرمونك مني نهائيًا ويذهب تعبي سدى فإن أردت (هجولتي) - بفتح الهاء - وحرماني منك إلى الأبد فنم الليلة . إنهم سيصلون إلى هنا ويسحبونك سحبًا ، فالمعابدة من المسعى خطوة قريبة على أهلك . وأنا ما تغربت من ديرتي وأهلي إلا من أجلك ، فامتثلت أمرها ورجعت إلى البيت بباب الدريبة .

إقلابة

إقلابة (بكسر الهمزة) سيأتي شرحها في اللغويات . صرت على عادتي أذهب إلى الفقيهة كل صباح وأرجع في المساء بدون فائدة ، ومضى العام التاسع والثلاثون ، وأنا عند سورة الضحى أعني أن تسعة أشهر ذهبت في تعليم حروف الهجاء كتابة وقراءة مع (أبجد هوز) ومن سورة الفاتحة إلى الضحى . والنظام عند هذه الفقيهة أنه متى ما وصل التلميذ أو التلميذة هذه السورة فلا بد لأهله من عمل احتفال تقسم فيه الحلوى على التلاميذ ويطاف به في الأسواق وهو في وسط التلاميذ ينشدون الأناشيد المدرسية المتداولة في تلك الأزمنة ، ويتقدم التلميذ أو التلميذة صف من الأولاد يحملون أطباق الحلوى

(حلاوة) على رؤوسهم على شكل (المعاشر التي تذهب مع جهاز العروس وتغطى تلك المعاشر بأكسية من المخمل المنسوج من الحرير والصوف المطرز بحبات المعدن البراق التي (تشبه نجوم الليل)[1].

ثم تعطى الأسرة الفقيهة أجرًا لا يقل عن الريال المجيدي، ويتفاوت هذا العطاء بحسب درجات أولياء الطلبة والطالبات.

وكذلك عندما يختم الطالب (جزء عم) وعندما يصل إلى (ياسين) وعندما يختم الختمة كلها نظرًا، وسيأتي شرح هذه العادات في اللغويات والعادات. ولكل حفلة من هذه الحفلات أسماء عجيبة، منها: (الإقلابة) ومنها (الإصرافة) بكسر الهمزة فيهما.. ومنها ومنها، والخلاصة أن أهلي ألبسوني أحسن وأفخر ما عندي من ثياب وذهبوا بي إلى بيت الفقيهة المرحومة (آشية) وقدموا لها الحلوان مع هدية ومعشرة خاصة بها. وبعد ذلك أمرت العريفة والزبانية من الحزاورة أن ينظموا صفوف الطلبة والطالبات، وحمل الحزاورة الأشرار تلك المعاشر وخرجت معهم وهم ينشدون نشيدًا لا أعرفه ولا أفقهه حتى وصلوا بنا إلى السبيل الذي بالمروة ثم سلكوا سويقة من جهة القصر المشنشن (بضم الميم وفتح الشين) ثم خان المفتي، ثم المسعى والمروة، ثم الكتّاب المعهود، حيث أمرت الفقيهة بتقسيم الحلوى على التلاميذ، ثم قالت: (إصرافة) ثم أتبعتها بكلمة (انصراف). ثم قيل لي: قم فقبل يد الفقيهة. فقمت وقبلت يدها، ثم انصرفنا قبل الميعاد المقرر بساعتين.

---

(١) هذه الحبات الصناعية الصغيرة البراقة المستديرة وشبه المستديرة المثقوبة أو غير المثقوبة تسمى في عامية الحجازيين الحاضرة باسم: (الترتر) بكسر التاء وسكون الراء الأولى.

قهوة المعلم والرحلة رقم ٧١:

قبل شهر رمضان من ذلك العام بأيام سمعت ضجيجًا في دارنا بباب الدريبة على غير المعتاد خاصة عندما زارتنا العمة التي كانت تسكن بالقرب من دار الأرقم بالصفا كما زارتنا جدتنا السيدة خديجة الفتيانية شقيقة السيد موسى خال والدي، فسألت عمتي الصغرى، عن أسباب هذا التجمع فقالت: إن أباك سيصل غدًا من الهند، ومن عادة المسافر في ذلك الحين أن يعمل له استقبال في البيت وفي مقهى المعلم وفي أم الدود[1] ففرحت لهذا النبأ السار.

وفي الصباح ألبسوني ثوبًا جديدًا وقالوا: لا تذهب إلى المدرسة هذا اليوم لأنك ستذهب مع عمك وأصدقاء أبيك إلى المعلم الآن لمقابلة والدك القادم من الهند. وأنا كالبدائي الساذج لا أعلم من قهوة المعلم شيئًا ولا عن أم الدود، ولا معنى الاستقبال، إلا أني، على العموم، سررت سرورًا لا مزيد عليه، نظرًا لكوني سأرى والدي الذي حرمت منه طيلة هذه الأعوام إلا مضمضة ورذاذًا، كما مر في الحلقات السابقة. ونظرًا للفصل في موضوع الفقيهة ووضع حد لهذه المهزلة التي لا تبعد عن كونها تمثيلية أو بعض المناظر السينمائية أو المسرحية بالنسبة لي؛ لأني رحلت إلى البادية من أول يوم من ولادتي ولم أفتح عيني إلا على جو البادية ونشأت ثم ترعرعت حتى بدأت أسناني تتبدل ثم

---

(١) كانت تسمى أم الدود، والذي سماها أخيرًا باسم أم الجود هو اللواء علي جميل عندما كان يمتلك قطعة أرض فيها في الثمانينات من هذا القرن الهجري، وقد ذاع الاسم الجديد الذي هو «أم الجود» وكان اللواء علي جميل هو الذي اقترحه، والأستاذ محمد عبد الحميد مرداد كتبها هنا على اسمها القديم (أم الدود) وقد تركنا ما كتبه على حاله لأمانة العلم والتاريخ.

زجوا بي دفعة واحدة إلى الحضر وعلاوة على هذا وذاك حجبوني عن أمي الحقيقية ثم أبعدوني عن أمي الرضيع والبيئة التي كنت في وسطها وفوق ذلك غياب والدي في الأسفار والرحلات .. فقلت في نفسي : لقد آن الأوان ، ولن أعود إلى بيت الفقيهة بعد اليوم ، وسأحاول إقناع والدي بكل الوسائل ، وإن أصر فسأطلب منه أن ينقلني إلى المعابدة نهائيًا ، لأعيش مع أمي المرضع ، ولا أذهب إليهم إلا كل جمعة يعني بعكس المقرر ، وسأتعلم في كتاتيب أهل المعابدة إن كان هناك كتّاب يشابه كتاب الفقيهة آشية .

الحمير ذات الجلاجل

وبينما أنا أداعب نفسي بالأحلام والأماني فإذا بالعم يناديني ، فنزلت إليه ، وذهبنا إلى خارج الدار ، وكان بعض الأصدقاء في انتظار العم .

وذهبنا جميعًا إلى برحة القرارة ، وإذا بثلة من الرجال هناك في الانتظار وقطيع من الحمير ذات القلاقل (الجلاجل) وما أن وصلنا إلى البرحة حتى امتطى صهوة برذونه وأردفني خلفه ، ثم زجر الركب براذينهم فأجفلت وثار العجاج وتطاير الشرر من حوافر الدواب . وكانت الطرقات في ذلك الوقت حفرًا وهضابًا رملية وعطفات ملتوية وأزقة ضيقة وشوارع متعرجة . وكانت القلاقل أو (الجلاجل) المقلدة بها نحور البهائم تجلجل كالأجراس ، فانبهرت من المنظر العجيب وفرحت لجلال المشهد الغريب الذي أراه لأول مرة .

أول محطـة

وصلنا جميعًا إلى قهوة المعلم وهي المحطة الأولى التي كان يتم فيها استقبال

المسافرين القادمين من خارج مكة، فنزل بعض الركب ولا أدري لماذا! وخشيت على نفسي من العقاب إن أنا سألت؛ لأنه ممنوع ومحظور على الصغار أن يتدخلوا فيما لا يعنيهم فقد كان ذلك من عادات البلاد آنذاك؟ ومرارًا ما لطمت في هذا الشأن حينما قدمت من البادية، بسبب هذه الترهات والتقاليد البالية.

أم الدود ومصادرة الذهب

واصلنا سيرنا ولا أدري لأي اتجاه، إنما نحن نفر قليل العدد حيث كان معظم الأصدقاء من المستقبلين قد تخلف بقهوة المعلم.

وما هي إلا لحظات، وبينما نحن سائرون، إذا بجنديين من العسكر يستوقفانا فوقفنا ثم جاء رجل أسمر ذو شارب غليظ كان يربض على كوخ على قارعة الطريق فقالا: انزلوا فنزلنا جميعًا، ثم قال: إلى أين؟ فقال عمي جمال ـ رحمه الله: إلى أم الدود لاستقبال أخينا القادم من الهند. فقال: وهل معكم شيء من الذهب؟ قال عمي: لا، فقال: وهل منكم أحد متمنطق بالكمر؟ فقالوا: لا. لكنه لم يصدق القوم، وأخذ يفتش عمي وبعده السيد عبد الرحمن المالكي وبعده رجل غليظ أسمر في وجهه ندبات من الجدري ـ قال له المفتش: ما هذا الذي تحت إبطك؟ قال: نقودي. قال: ضعها على المنضدة المعدة لتفتيش أمتعة المسافرين، فوضعها. ثم قال له: إن كان في وسطك هميان فانزعه لأفتشه. فأخرج هميانًا عظيمًا أسود اللون عريضًا ناعمًا جميل الشكل.

التفتيـش والتفريـغ

بدأ المفتش المقطب الوجه العابس الغاضب ، يحل عقدة الصرة وبدأ صديقنا الذي لم أعرف إلا فيما بعد ، أنه أحد الأعمام من غير الأشقاء (رحمه الله) بدأ ينهار تدريجيًا وبدأ وجهه ينضح ويتصبب عرقًا . فلما حل عقدة الصرة وجد فيها ذهبًا كثيرًا دنانير مما شيف . ثم حل أزرة الهميان فوجد به أوراقًا كثيرة من البنكنوت ولم يجد ذهبًا ولا فضة . قال المفتش لهذا الرجل : خذ همیانك وتوكل على الله ، فقال له الرجل : والذهب ؟ فقال : أما الذهب فهو لنا ، ولا يمكن إرجاعه وجاء ليستق إليك أبدًا . فحلف الرجل وأقسم ، وشهد له عمي والسيد المالكي والعم باسلاسل - بأن الرجل هو أخونا وجاء ليستقبل أخاه ، ومن طبعه أن يحمل نقوده معه ولا يأمن عليها أحدًا وأنه ليس من المهربين ولا من الذين يتجرون في الذهب . فقال : هذه أوامر سيدنا ولا مناص من المصادرة .. ولم يكتف بهذا القدر من التفتيش بل أعاد الكرة وأخذ يفتشنا فردًا فردًا ويتحسس الصدور والجيوب ، ولما لم يجد شيئًا أمرنا بالركوب . وصار يشتم الرجل الذي صادر ذهبه بكلمات نابية ، والرجل صامت لم ينبس ببنت شفة . ثم قبل عمي والسيد المالكي والعم باسلاسل رأس المفتش المذكور الذي علمت فيما بعد أنه ابن الهندية (بكسر الهاء وتسكين النون وكسر الدال ثم الياء المشددة المفتوحة والتاء المربوطة) .

وهذا لقبه ، أما اسمه فغير ثابت عندي الآن ولم أسأل عنه . وكان هو المفتش الوحيد ما بين مكة وجدة توسلوا إليه ليطلق سبيل الذهب ويعفو عن الرجل ، ولكنه ازداد عنادًا وتقريعًا وتوبيخًا حتى قال : لئن لم تنتهوا وتبرحوا فسأبعثكم جميعًا إلى الحميدية لإجراء اللازم ، ثم قال : اذهبوا غدًا إلى المالية

وراجعوا، فإن عفا عنكم مديرها أخذتم الذهب، وإلا فالله يعوضكم.

ولما كان الأمر كذلك وقد سدت الأبواب والطرق في وجوهنا ـ امتطينا الدواب والرجل المنكوب معنا، ثم طردنا الدواب وزجرناها لنلحق بأم الدود قبل أن يصلها الوالد، وما هي إلا دقائق خمس حتى وصلنا قهوة أم الدود فنزلنا واسترحنا على كراسي القهوة، حيث احتسينا القهوة والشاي. وقبل أن ننتهي من الشاي والقهوة وصل والدنا ـ رحمه الله ـ وكان راكبًا أتانا، وبرفقته الشيخ المرحوم بكري قزاز ـ وبكري بفتح الباء وكسر الراء ـ حيث كان صديقًا وزميلًا للوالد في رحلته من جدة إلى الهند وبالعكس. وكلاهما مريض بمرض القلب وطبيبهما بالهند واحد، وكان الوالد (رحمه الله) في عنفوان شبابه وكذلك الشيخ بكري قزاز، وكان من تجار مكة ووجهائها، وله إخوة كلهم تجار ومطوفون، وهم: عبد الوهاب، ومحمد، وإسماعيل، وجمال، والشيخ بكري هو والد حسين، وصلاح. أصحاب التجارة بمكة وجدة وغيرهما من مدن المملكة العربية السعودية، ويتمتعان بشهرة واسعة وسمعة واستقامة، وقد وفقهما الله في أعمالها.

المعانقة

منذ نزل الوالد من دابته استقبله العم (رحمه الله) بالأحضان، والعناق الحار، والتقبيل المتواصل طيلة خمس دقائق، ثم عانق عمي الشيخ بكري عناقًا خفيفًا فعرفت آنذاك أن المعانق الأول هو والدي، رحمه الله.

ولقد اندهشت من المعانقة والتقبيل لأني لم أعهد مثل هذا المنظر في

البادية . وهذا أول منظر حضري بالنسبة لي ، ولكل إقليم عادات وتقاليد موروثة عن الآباء والأجداد .

ثم إن الوالد عانق المستقبلين عناقًا حارًا ؛ لأنهم جميعا كانوا من خيرة أصدقائه . ثم قبلني ، ولثمت يده ، ثم جلسنا على الكراسي ، وجلس معنا الشيخ بكري بضع ثوان ، ثم استأذن وكان يصحبه الحمَّار ـ أي سائق الحمير ـ وكان قد رافق الوالد والعم بكري من جدة ، وهكذا كانت العادة وهي أن المسافرين الذين يمتطون البراذين والحمر يصحبهم سائق واحد ، سواء أكانوا جماعة أم فردًا واحدًا . وهذا السائق لا يركب بل يجري خلف البهائم يسوقها ويريحها ويعلفها ، وليس له ركوب مطلقًا ، ولكنه لا يصحب غير المسافرين .

أما الذين يذهبون إلى العمرة أو إلى الشهداء أو عرفة أو منى ، فلا يصحبهم سائق إلا عند الطلب .

الأكلة الدسمة

كان العم ـ رحمه الله ـ قد ألح على الشيخ بكري أن يتناول معنا طعام الإفطار ولكنه أصر على الذهاب إذ كان بانتظاره أصحابه بقهوة المعلم ، ولما ذهب مع سائقه بقينا مع الوالد والعم والأصدقاء وتناشدوا عن الصحة وأخبار الطريق وما إلى ذلك لكن باختصار وإيجاز ..

ثم قدم العم للوالد قبل كل شيء دورقًا[1] من ماء زمزم صحبه معه في

---

(١) في أواخر القرن الهجري السادس كان يسمى بهذا الاسم نفسه .. وقد ذكره ابن جبير في رحلته وعرفه تعريفًا ينطبق على دوارق الماء المعروفة في مكة باسمها المذكور ، أما في =

الأخراج المعلقة على ظهور الدواب ثم أخرجت المطابق وكان كل راكب معه مطبقية فيها طعام لذيذ . والمطبقية تتكون من حلل من الألمونيوم لها غطاء محكم وعروة وتوضع هذه الحلل فوق بعضها ، ثم تقيد بهذه القضبان الرفيعة التي تشد بها من داخل العروة ، وكان العم أحمد باسلاسل صاحب المطبقية الممتازة المفضلة قد قام وفك الحزمة عن مطبقيته وكانت مكونة من أربع حلل تحتوي على المعصوب ، الأكلة المفضلة في الصباح لدى أهل مكة . وصاحب الشهرة منها هو المذكور ـ رحمه الله ـ إذ كان يقصده أهل المحلات النائية كجرول والمعابدة وهو في سوق الليل ، ومع ذلك يأتيه قاصده من أي جهة بمكة شرفها الله ثم أخرجت بقية المطبقيات التي تحتوي على البيض المسلوق والمقلي والشكشوكة والفول المدمس والجبن والزيتون والحلوى التركية والشامية والفطير الصامولي ، كما أحضر العم أحمد قنوين من موز الزيمة وبعض العناقيد من العنب الناضج ، فتناولنا هذه الأكلة الشهية واحتسينا الشاي الذي كان معنا في الزمزميات لأن القهوة (أي المقهى) في أم الدود كانت غير مستعدة آنذاك ، ولا أعلم هل كان بها من يقوم بغلي القهوة أو الشاي في ذلك الحين أم لا ؟ وبعد ذلك كله امتطينا دوابنا وسرنا نحو (قهوة المعلم) .

وكان في انتظارنا بعض المستقبلين لكنهم غير مستعدين لعناق أو استقبال كما جرى في أم الدود بل إنهم عندما لمحونا امتطوا دوابهم بسرعة ، وعارضونا

= المدينة فيسمى هذا الإناء الكبير ذو اليد الفوقية والرقبة الطويلة والبطن الكبير باسم (الجحلة) واليد منه في أعلاه ولكنها صغيرة وشكله مستدير مستطيل وفمه أهرت واسع وحلقة يده التي يمسك بها تقع بجانب فمه الذي يشرب الماء منه رأسًا .. وكلها تصنع من الفخار .

معارضة بحيث التفت أعناق الحمر على بعضها كمثال عربات النفط حين تصدم ، وكان استقبال هذه الشرذمة تأهيل وبشاشة وتحية ثم اختلطت البهائم ببعضها والوالد في وسط أصحابها المتشابكين ..

نظرات وهمسات

عندما تقارب سيرنا من حارة الشبيكة انعطف العم ـ رحمه الله ـ وقرب دابته من دابة الوالد ثم تهامسا بكلام خفي لم ألق بالي له ، ولا أدري أنه يخصني إلا من نظرات القوم حينما بدأوا ينظرون إلي نظر الحزن والاكتئاب لأنهم يعلمون الحقائق التي لم أكن أعلمها ، وبعد ذلك ذهب القوم أجمعهم ووالدي معهم أما عمي الذي أنا ردفه فقد عطف دابته نحو باب العمرة فالشامية ، فاستغربت وسألته ، فقال : إن والدك ذاهب إلى بيته ، فأصدقاؤه وأهله وأولاده في انتظاره هناك .

فقلت له : وهل لوالدي غيري من الأولاد ؟ وهل له بيت غير بيت باب الدريبة ؟ فقال نعم ، فقلت له : ولم لا أذهب معه لأرى ذلك ؟ فقال : ليس لك الآن أن تسأل مثل هذا السؤال ـ إنما في المستقبل القريب ستراه إن شاء الله وتذهب إليه كل يوم ثم أنزلني عند الرزة (بفتح الخاء والراء والزاء ثم التاء المربوطة) وسيأتي ذكرها فيما بعد .

قال العم : اذهب رأسًا إلى البيت . فنزلت وذهبت ولكن كان في نفسي أشياء وأشياء ، وحاجات وحاجات : وعند وصولي إلى الدار سألتني العمات : هل وصل والدك ؟ فقلت : نعم ففرحن بهذا الخبر السار ولم يسألنني أكثر من ذلك ، وكنت أنتظر منهن أن يسألنني : لماذا لم يأت إلى هنا ؟ ولماذا لم تذهب

معه إلى داره ؟ وكم كنت أتمنى أن يسألنني لأجيبهن بجواب ربما أعاقب عليه لكن الله سلم .. ومضى ذلك اليوم وأنا حزين كئيب أنتظر الليل لآخذ الأسرار من العمة الصغيرة التي تؤانسني وتسليني كل ليلة لتخفف عني آلام البعاد والفراق ، رحمها الله رحمة الأبرار .

كنت أقول في قرارة نفسي : لماذا لم يأت والدي إلى هنا ليسلم على عماتي ؟ أو : لماذا لم يذهبن إلى بيته ليسلمن عليه ؟ وأخيرًا عندما أويت إلى فراشي سألت العمة الصغرى ، فأسرت إلي وأمرتني بالكتمان ؛ لأن الباقيات من العمات والباقي من الأعمام والأقارب أنذروها بعدم إفشاء أي سر من هذه الأسرار التي تحملني على الفرار أو الانتحار لا سمح الله ؛ ولأنها في ذلك الحين صغيرة السن لا تتجاوز العشرين ، ومعرضة للعقاب من المربية الكبرى العمة الشقيقة صاحبة المطبخ ، ومن العم والوالد أيضًا ومرارًا ما عوقبت بالضرب أمام عيني إن هي تكاسلت عن مأمورياتها من كنس ومسح وما يتعلق بخدمة الدار ، وكان الناس في ذلك الزمان لا يتورعون عن معاقبة أولادهم أو بناتهم أو أخواتهن حتى لو تجاوزوا سن الرشد .

كما كان معظم بيوت مكة خالية من الخدم إلا من وسع الله عليه بشراء جارية أو عبد أسود أو أبيض ، وكان استخدام الغلمان من الحضارمة أو اليمنيين نادرًا لقلتهم وعدم رغبة معظم الأهالي في ذلك الحين وخاصة من كان عنده بنات مراهقات أو زوجات شابات أو غير ذلك .

لذلك تجد خدمة السوق وأقصد بذلك الطلبات التي تأتي من الأسواق ومباشرة الضيوف بالدار كلها كانت على عاتق الصبية من الغلمان أصحاب الدار ، وقد قاسينا الأمرين في هذا الشأن كما سيمر بك قريبًا إن شاء الله .

* **الشراد** : (بفتح الشين والراء المفتوحة المشددة ثم الألف والدال) صيغة مبالغة (على وزن فعّال) وتستعمل العامة هذه الكلمة فيمن يكثر الهرب من أهله . والصيغة صحيحة بالنسبة للقاعدة :

فعّال أو مفعال أو فعيل ... في كثرة عن فاعل بديل

لكن لم يسمع عن العرب استعمالهم لهذه الصيغة فيمن يهرب من أهله والأفضل استعمال صيغة الهرب ؛ لأن الهرب هو الفرار مع الذعر والخوف ، وبابه دخل ونصر ، وشرد بابه دخل أيضًا ولكن يقال لمن طرده أهله : شرد ، كذلك للبعير فيما إذا طرد من عطنه ولا يقال لمن يهرب من تلقاء نفسه شاردًا .. وشارد وشرود بفتح الشين فيهما ، وجمع الشرود شرد كزبور وزبر ، والتشريد هو الطرد ومنه الآية الكريمة : ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال : من الآية٥٧] وجاء في قول العرب « مشى اللؤم في الدنيا طريدًا مشردًا » والشريد هو الطريد المطرود مرارًا وتكرارًا فهي تماضر بنت عمرو بن الشريد وقد كان جد الشاعرة العربية الخنساء مسمى بهذا الاسم .

* **أغدقوا** : بمعنى أكثروا ومنه الآية الكريمة ﴿مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن : من الآية١٦] وإذا كان العام كثير المطر والخصب والخير وإذا كان الرجل كريمًا كثير العطاء وإذا كان الغلام غضًا نضرًا شديدًا ، تقول العرب لكل واحد من الثلاثة (غيداق) ، حتى الحصان إذا كان سريع العدو يقال له غيداق (بفتح الغين وتسكين الياء وفتح الدال ثم الألف والقاف) ؛ قال تأبط شرًا :

حتى نجوت ولما ينزعوا سلبي بواله من قبيض الشد غيداق

وإياك أن تجمع الغيداق على غياديق ؛ لأن الغياديق هي الحيات ، فتنبه .

* **حانوت** : هو الدكان المخصص لبيع المأكولات والمشروبات ويجمع على حوانيت . وفي الجاهلية كانوا يطلقونه على الخمارة وعلى محل بيع الخمور .. قال الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني
شاو مشل شلول شلشل شول

والنسبة إلى حانوت (حانوتي) .. قال ابن مقبل :

فكيف لنا بالشرب إن لم يكن لنا
دراهم عند الحانوتي ولا نقد

وعامة مصر تطلق كلمة حانوتي على من يحمل الموتى في الحانوت ويغسلهم ويدفنهم ، ولو قالوا حنوطي لكان أقرب ، ولو كتبوا على الألواح المعلقة على هذه الدكاكين تجهيز الموتى لكان أفضل .

* **دهليز** : (بكسر الدال) هو ما بين الباب والدار قديمًا ، وما بين الباب والمجالس حديثًا ، أي المساحة التي تفصل ما بين باب الدار من الخارج وبين المجالس ، العامة تفتح الدال وهو غلط .. وأصل الكلمة من الفارسي المعرب وتجمع على دهاليز وتقول العرب : (أبناء الدهاليز) وتقصد بذلك (اللقطاء) .

* **الكولندي** : المشهور عند عامة مكة أن الكولندي معدن أو نحاس أو مادة

من التوتوة المنقوشة والملقحة بصبغ ملون يجعل الوعاء ثقيلًا وجميلا يصنع في الهند والكلمة هندية والحقيقة أن الكلمة عربية فصيحة ، إلا أنها محرفة تحريفًا عاميًا إذ الكلمة في الأصل هي كلدية (بفتح الكاف وتسكن اللام وكسر الدال وفتح الياء ثم التاء المربوطة) اسم بلد يأتي ذكرها فيما بعد ، والنسبة إليها كلداني . وكل ما يصنع فيها وينقش هو كلداني وكل ما غلظ وصلب واشتد ، فهو كلندي وأكلندي . ويقولون للمفاتيح والخزائن اكلندية وكلندية والفعل كلد ويأتي من الثلاثي والرباعي عند سيبويه والأصمعي والأزهري وبقية علماء اللغة يقولون : إنه ثلاثي فقط .

* **النشوق** : بفتح النون المشددة وضم الشين ثم الواو والقاف . وتطلق العامة هذه الكلمة على المسحوق المتخذ من أوراق التبغ إذا سحقت وعطرت بنوع من ماء الأزهار ثم يستنشقونه بأنوفهم شمًا أو إدخالًا ، وذلك لعلاج الرأس ، إذا انتابه صداع ونحوه . والنشوق من الكلمات الفصيحة ، وهو السعوط ، إذ كل ما يستنشق من دواء فهو سعوط ونشوق عند العرب . ومن الشواهد العربية من الشعر الجاهلي :

فإن الموت لا ينهاه ناه ولو شرب الشفاء مع النشوق

ومن ذمه من الشعر المولد :

إن النشوق وإن جلت منافعه يكفيك منه تعفين المناخير

* **المجيدي والرشادي** : المجيدي هو الريال المنقوش عليه اسم السلطان عبد المجيد أحد سلاطين آل عثمان ، والرشادي هو الريال المنقوش عليه اسم السلطان رشاد ، السلطان العثماني واسمه محمد رشاد ورياله وديناره كانت لهما شهرة

كبيرة في أرض الحجاز ؛ لأنهما مما شيف من الدرجة الأولى ، أي منقوشة نقشًا محكمًا ، فتقول العامة : ريال رشادي أبرش ، وريالات رشادية برش . أما الريالات التي سكت قبل رشاد فهي كلها رديئة ومعظمها ممسوح وناقص السعر ، والريال كان يساوي عشرين قرشًا ، والجنيه الذهب ما بين سبعة ريالات إلى عشرة ، والممسوح خمسة أو أقل والآن لا وجود لهذه الريالات المشوفة .

* **العلقة** : بفتح العين وتسكين اللام وفتح القاف ثم التاء المربوطة ، وتطلق العامة هذه الكلمة على الجلد سواء أكان على الرجل المعلقة في الفلكة أم على الجلد أم ركلًا أم غير ذلك فيقولون : « أكل فلان علقة » . والصواب أن هذه الكلمة تستعملها العرب في أول ثوب يتخذ للوليد بعد خروجه من بطن أمه سواء أكان مخيطًا أم لا ؟ ثم تستعمل الكلمة في كل ما يعلق من لحم وغيره . فقد يجوز أن العامة استعارت الكلمة من كل ما يعلق لأن الأقدام تعلق في الفلكة ثم تجلد وعلى العموم فالكلمة عربية فصيحة إلا أنها استعملت في غير ما وضعت له .

* **مضض** : (بفتح الميم والضاد ثم ضاد ثانية) ـ أي ألم ووجع . وفعله مضض ومض العين وأمض . ومضارع مض : يمض ، كمرَّ يمرّ . فتقول : الكحل يمض العين ، أي يؤلمها أو يحرقها . والمضض أيضًا الوجع الناجم من مصيبة . والمضاض صيغة المبالغة على وزن فَعّال ، معناه المحرق .

قال العجاج : « بعد طول السفر المضاض » .

وأما المضاض كسحاب فمعناه الاحتراق ، قال رؤبة : « قد فاق أكحالا من المضاض » .

* **المضمضة والرذاذ** : تحريك الماء في الفم يقال له مضمضة . والرذاذ (بفتح الراء) : هو المطر الخفيف ، وكلتا الكلمتين أعطت معنى القلة في الشيء مع أن المضمضة من الأضداد ـ إذا خرجت عن استعمالها الحقيقي الذي هو تحريك الماء في الفم ثم مجه ـ إذا انحرفت عن هذا الاستعمال كانت للنعاس وكانت للنوم العميق وكانت للنوم الخفيف ومن ذلك قولهم إن الصحابة رضوان الله عليهم لم يذوقوا النوم إلا مضمضة ورذاذًا في ليالي الهرير بوقعتي القادسية وصفين ، عندما صدق القتال وقل النوم في الليالي الأخيرة من الحرب بين الطرفين المتحاربين . وقالت العرب : « ما مضمضت عيني بنوم » أي ما نمت .

والرذاذ المطر الضعيف والمال القليل ، وقد قالت العرب : « نفذ رذاذي وكثرت عيالي » ـ وقال المتنبي : (مطر المنايا وابلًا ورذاذًا) .

* **أخماس لأسداس** : تضرب العامة هذا المثل في الرجل المغفل الذي لا يفقه الأمور ، وهذا خطأ ؛ إذ الحقيقة هي العكس ، والمثل هذا ضربته العرب لمن يظهر شيئًا ويريد غيره ، ولمن يسعى في المكر والخديعة . وهذا المثل له قصة تراجع في كتب الأمثال وقد أدخلوه في شعرهم ، فمن ذلك قول كعب بن جعبل شاعر صفين ، حينما هزم عمرو أبا موسى سياسيًا ، عندما اجتمعا في دومة الجندل ، قال كعب من قصيدة :

لو كان للقوم رأي يهتدون به ... بعد القضاء رموكم بابن عباس

لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس

* **شنين ورنين** : تقول العامة عندنا هاتين الكلمتين في بعض المناسبات إذا كانت تحمل طابع الشهرة والإعلان وما إليهما ، فتقول : « جاء القوم ولهم شنين ورنين » . أو قولهم « ولهم شنة ورنة » والاستعمال غلط ؛ لأن الشنين في

الفصحى قطران الماء وهو ما يسمى بالعكر فيقولون : « علق شنين » أي : مصبوب بعد الماء الزلال . والتشنين بمعناه .

وأما الكلمة الصحيحة التي تسد مكان الكلمة المغلوطة التي أسيء استعمالها فهي كلمة الشنان (بضم الشين وفتح النون ثم الألف والنون) وهو السحاب الذي يشن الماء شنًا ويصبه بصوت يشبه صوت الشنة . والشنة (بفتح الشين) هي القربة . جاء في الشواهد :

عيناي جودا بالدموع التوائم   سجامًا ، كشنان الشنان الهزائم

أما الرنين فهو الصياح والبكاء بصوت . واستعمال الكلمة صحيح وفصيح ؛ قالت العرب : « سمعنا له رنة ورنينا » فإذا كان السحاب يرن رنينًا ، وإذا كان القوس كذلك فلك أن تقول : قوس مرنان وسحاب مرنان (بكسر الميم وتسكين الراء ثم النون المفتوحة والألف والنون) قال الشاعر :

تصمي الرمايا وهي مرنان

* **البراذين** : (بفتح الباء والراء ثم الألف والذال المكسورة والياء والنون) جمع برذون (بكسر الباء وتسكين الراء وفتح الذال) . وهو نوع من الدواب أقل من الخيل وأقوى من الحُمُر (جمع حمار) ، وشاهده كما في باب الإضافة :

كأن برذون أبي عصام   زيد حمار دق باللجام

وشاهد البراذين قول النابغة الجعدي وكان مع علي ـ كرم الله وجهه ـ في وقعة صفين ، وذلك عندما هجم رجل من جيش الشام على جيش العراق هجمة انتحارية ، فقتل من قتل حتى وصل إلى سرادقات القيادة في جيش العراق ، فكان يضرب ضربًا بالنعال والحجارة . واسم هذا القتيل أربد فقال فيه النابغة :

أعوذ بربي أن تكون منيتي كما مات في سوق البراذين أربد
تعاوره همدان خصف نعالهم إذا رفعت عنه يد وقعت يد

* **الأتان** : الحمار المؤنثة ، والجمع الأتن (بضم الهمزة والتاء ثم النون) ؛ قال عبد الرحمن بن أبي بكر قصيدة يخاطب فيها معاوية :

وأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زان

وجاء في الألغاز العربية (أتانا زيدِ) بكسر الدال .. ففسر ذلك أيها النبيه ..

* **قلاقل** : بفتح القاف الأولى وكسر الثانية ، وهي قلائد معدنية تعلق في عنق الحمار وترن وتشن عند العدو ، ومفردها قلقلة ، بضم القافين ، فتقول عامة اليمن : القلقة في حلق الحمار ـ وهو استعمال في غير موضعه ، وفتح القاف من تحريف العامة . والصواب ضمها في صيغة الجمع . ويقصد بالقلاقل الحركات المريبة ، كما جاء في الدعاء : (القلاقل والمحن والزلازل والفتن) .

فالقلاقل (بضم القاف الأولى وكسر الثانية) ، على وزن علابط ، هو نبت القلقل (بكسر القافين) يشبه العشرق إذا جف فيرن ويشن إذا تحرك ومنه قول الأعشى : « كما استعان بريح عشرق زجل » ، والفعل لهذه الصيغة قلقل بمعنى صوت والمصدر قلقال على وزن زلزال ـ ثم استعارته العامة لهذه القلائد التي تعلق في نحور الحمير والتي ينبعث منها صوت يرن ويشن عند العدو .. الخ ..

* **الركب** : (بفتح الراء والكاف الساكنة والباء) على وزن صحب . تطلق العامة هذه الكلمة على من يركبون البغال والإبل والخيل والحمير ، ولا يميزون العدد . وفي الفصحى لا يطلق الركب إلا على راكبي الإبل في السفر دون

الدواب ، ولا يكون ركبًا إلا إذا كان الركاب عشرة فما فوق . وقد أفسح المجال بعض اللغويين فجعله شاملًا للإبل والخيل والبغال ، أما راكب الأتان والبرذون فلا يقال له إلا حمّار ، (بتشديد الميم المفتوحة) بدون تفرقة بين راكب الحمار وسائقه . وعلى العموم يجوز إطلاق الكلمة على الكيف بدون تحديد في العدد أو النوع ، والشاهد في الفصحى قول الشاعر :

هواي مع الركب اليمانيين مصعد
جنيب وجثماني بمكة موثق

ومن المولد قول الطغرائي :

والركب ميل على الأكوار من طرب
صاح وآخر من خمر الكرا ثمل

* **المركوب** : على وزن المفعول . وتطلق العامة هذه الكلمة في مكة على الحذاء والنعل ، وهو غلط في الاستعمال إذ لا تطلق هذه الكلمة إلا على ما يركب من خيل وغيرها ؛ قال المتنبي :

أخف على المركوب من نفسي جرمي

* **الركيب** : على وزن فعيل . وتطلق العامة هذه الكلمة على كل قطعة من الأرض إذا كانت مربعة أو غير مربعة ، والغالب فيها التربيع ، ومساحتها لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أمتار مربعة ، وزرعها من الأبّ أو الذرة أو الحنطة ، ويجمعونها على ركبان ، وهو غلط . والصحيح أن الركيب هو ما بين الحائط والنخيل وكذلك كل مزرعة وكل فص إذا ركب في الخاتم : وعلى الرديف ، وهو من يركب خلف راكب آخر ، والجمع للصيغة ركب (بضم الراء والكاف

ثم الباء) وأما الركبان فهم جمع راكب، سواء لراكب البعير أو غيره من الدواب. قال امرؤ القيس:

كأني لم أركب جوادًا ولم أقل

* **تنض**: (بضم التاء وكسر النون وضم الضاد المشددة)، أي تخلع ثيابها .. ويأتي من أنض وأنض واستنض ويستعمل لمعان كثيرة منها خلع الثياب عن البدن تدريجيًا؛ لأن نساء العرب يلبسن ثيابهن مترادفات، بعضها فوق بعض، وثوب المضاجعة هو الملاصق للجسد مباشرة، قال طرفة بن العبد البكري:

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد

وقال امرؤ القيس:

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

وأما نضنض فمعناها مس ولمس جلد البعير للأرض عندما يستناخ بمجرد لمس جلد وظيفته أو ركبتيه للحصى أو للتراب. قال حميد بن ثور:

ونضنض في ضم الحصى ثفناته ورام بسلمى أمره ثم صمما

* **القنو**، بكسر القاف وتسكين النون ثم الواو. تطلق العامة في مكة هذه الكلمة على الخصلة من الموز إذا كان متماسكًا بعضه ببعض[1] والقنو كلمة فصيحة ومعناها العذق (بكسر العين) ـ وهو من النخل كالعنقود من العنب، ويجمع القنو على قنوان وأقناء. وجاء في الآية الكريمة ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] والإقناء هو الإعطاء.

---

(١) أما في المدينة المنورة فالقنو عند العامة هو العذق .. أي عنقود النخل ..

* **طيلة** : (بكسر الطاء) أي (مدة وعمر) وجاء في كلام العرب : أطال الله طيلته ، أي : عمره .

* **فلتة** : بفتح الفاء وتسكين اللام ثم تاء مفتوحة ومربوطة . وتقصد العامة بهذه الكلمة الانطلاق واللعب بغير حدود ، والمعنى والنطق صحيحان ، وأما إذا قلت : أفتلت بالبناء للمجهول فمعناه : مات فجأة كما جاء في الأثر (أفتلتت نفسه) .

* **الهجولة** : بفتح الهاء وتسكين الجيم وفتح الواو واللام ثم التاء المربوطة . وتقصد العامة بهذه الكلمة الضياع وعدم الاستقرار والتعب .. والكلمة محرفة وتصحيحها عكسها ، وهي الهوجلة أو الهوجل (على وزن هودج) . ومعنى الهوجل المفازة البعيدة التي ليس بها أعلام . وتطلق على الطريق المجهول ، وعلى الرجل الأحمق الذي لا يعي ما يقول من شدة الحماقة ، وعلى الهوج من الناس والإبل والفاجرة من النساء ، كما أن للكلمة معان كثيرة خلاف ما ذكرناه ، وجاءت في أراجيز العرب ومنها أرجوزة صحير بن عمير التميمي ومطلعها :

أبقى الزمان منك نابا نهبلة

* **زبانية** : بفتح الزاي والباء ثم الألف والنون المكسورة والياء المفتوحة والتاء المربوطة . وعامة مكة تطلق هذه الكلمة على رسل الحكومة الذين يقتادون المجرمين والمتهمين ـ إلى السجون ـ فيقولون : (جاء لفلان زبانية جهنم وأخذوه إلى الحبس أو ... الخ) والكلمة فصيحة صحيحة ـ والعرب تسمي رجال الشرطة أو الشرطة بالزبانية ـ تشبيهًا بالملائكة الذين يدفعون المجرمين في نار جهنم .

والصيغة من أسماء الجمع التي لا مفرد لها مثل الأبابيل ـ هذا هو الصحيح وجاء في القرآن الكريم ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] والفعل لهذه الصيغة زبن فهو زابن (بكسر الباء) أي دافع. وعامة نجد تطلق الكلمة على اللاجئ أو المستجير الذي يدخل على عظيم ليحميه من السجن أو الضرب أو قضاء الدين. وهذا غلط محض والصواب ما ذكرناه. وعامة مكة تطلق كلمة الزبون .. على العميل الذي يتردد على متجر أو دكان بصفة مستمرة، وهذا غلط محض؛ لأن الزبون في الفصحى يطلق على النوق الدفوع، وعلى البئر المطوية بالحجر، وعلى الحرب الضروس والمولودون، قبل بضعة قرون، أطلقوا كلمة الزبون على الغبي والجاهل والأبله وهذا غلط، وبعض اللغويين يدعي أن مفرد زبانية زبون وهذا غلط أيضًا لعدم وجود الشاهد.

* **الخرزة**: بفتح الخاء والراء والزاي ثم ا لتاء المربوطة. وموقعها بين القرارة والشامية بعد خروجك من (قهوة القبو) مباشرة وبعد خروجك من خان أبي عدس مباشرة وهي أصغر موردة ماء بمكة المكرمة سابقًا وماؤها يأتي من عين زبيدة، وسميت بالخرزة لصغرها وضيقها إذ لا يوجد سوى موروودة واحدة، وبئر واحدة معلق عليها أكثر من دلو لسعة فم البئر، ومساحة الأرض المقام عليها هذه الموردة لا تزيد على مترين مربعين وكل حارة من الحارات الثلاث: القرارة والشامية والمسعى، تدعي أنها في حدودها وحوزتها ولا يظهر ذلك جليًا إلا في أيام الهوشات والزينات عندما تشتبك الغوغاء بالعصي والهراوات، وقد يكون سبب التسمية التشبيه بماء لبنى فزارة بالقرب من ديار بني أسد قديمًا، وهذه موردة الخرزة هي الوحيدة في مكة المكرمة التي تحمل هذا الاسم، وبقية الموارد تسمى بالبازانات (جمع بازان) وكل بازان أوسع حجمًا من هذه

الخرزة وأكبر مساحة وأكثر آبارًا وسقائين ، ولكل موردة أو بازان شيخ ونقيب فالشيخ هو الحاكم على السقائين في بازانه فقط ، فإذا غاب فالنقيب يقوم مقامه وهذا الشيخ يجلد السقائين إذا ما خالفوا القانون . وقانون السقاية مأخوذ من بلاد الحبشة حرفًا بحرف ، لأن معظمهم من العبيد الأحباش العتقاء أو الأرقاء ، ونادرًا ما يدخل بينهم ابن البلد . فإذا انخرط في سلكهم جرى عليه القانون حيث يجلد كما يجلد الآخرون وإذا أخطأ الشيخ ووجب عليه الحد قام بذلك سقاء آخر له رتبة كرتبة اللواء أو العقيد عند العسكر ، ولها اسم معين لا أذكره الآن ، إذا أخطأ هذا الأخير اشترك في جلده الشيخ والنقيب معًا ويجلد جلدًا خفيفًا بحيث يضع الجلاد يده اليسرى تحت إبطه ثم يهوي بالهراوة الغليظة على ظهر الجاني ، وإذا كانت الجناية كبيرة يشترك في الجلد سقاءون آخرون لهم رتب خاصة .

وكيفية الجلد أن تقفل الموردة ، ثم يصطف السقاة جلوسًا على شكل حلقة ، ثم يوضع النطع وهو الجلد الذي يعلقه السقاء على ظهره ليضع عليه القربة ، ثم يصلي على النبي ، ثم يقرأ الشيخ فرمانًا أو ما يتعلق بمواد نظام السقائين، ثم يذكر الذنب ويسكت . فيقوم النقيب بقراءة أخرى ويحدد الضربات وتبدأ من العشر ، إلى المائة أحيانًا . وبعض الذنوب يكفي فيها اللوم والتقريع ، إذا كانت لأول مرة ، وإذا تعددت مرارًا وتكرارًا يحرم المجرم من مزاولة مهنة السقاية . وخرزتنا هذه كان شيخها المرحوم محمد علي بعلولة من أهالي مكة ومن بيت علم ، إلا أنه عشق هذه الصنعة حتى فضلها على كل شيء ، فانخرط في سلك السقاية وتدرج حتى صار شيخًا . وكان يراعيني ويكرمني ؛ لأنه يعلم ببؤسي وغربتي وعقابي إذا تأخرت في السوق أو الفرن ؛

لأنه كان يستقي لنا في اليوم أربع قرب وهو مربوع بطين ذو كرش ، يتحزم بحزام عريض ، وقربته صغيرة ، ولحيته مشموطة كثة ، وهو كهل ، لكنه قوي البنية ويستعمل نشوق الفم . ومات رحمه الله وهو يمارس صناعة السقاية ومشيختها وتولى بعده النقيب (تيسير) وهو من عبيد أشراف القرارة ثم أعتق حينما اكتهل .

والخرزة تطلق في اللغة على الحمضة ، واحدة نبات الحمض (بفتح الحاء وتسكين الميم ثم الضاد) ، وهو عشب مر المذاق وبه ملوحة وهو فاكهة الإبل وخبزها المفضل . والخرزة فقرة الظهر وجمعها خرز على (وزن عسل) والخرز ما ينظم في السلك من ودع ونحوه ، كما تجمع على خرزات ، قال لبيد :

رعى خرزات الملك عشرين حجة

* **القصر المشنشن** : بكسر الميم وفتح الشين وتسكين النون وفتح الشين الثانية ثم النون . هكذا تنطقه عامة مكة ، وموقعه بآخر سويقة وهو إلى المروة أقرب ، واسمه أكبر من حجمه ، وهو في حد ذاته قديم جدًا بل هو أقدم بيت في سويقة ويتكون من ثلاثة أدوار ، ودرجه أو سلالمه مهدهدة مظلمة وكان يسكنه المرحوم زيني جمال ، ومن بعده سكنه السيد حسن الدباغ وشقيقه السيد إبراهيم . وقد دخلته مرارًا زائرًا .. وكلمة المشنشن فصيحة مأخوذة من الشن وهو الضعف والقدم والبلى ، وجاء في أمثال العرب :

(يحمل شن ويفدي لكيز)

وشن هذا الذي جاء في المثل رجل مسن هرم لا يستطيع النهوض ، وكذلك لكيز ، وكذلك الشنة وهي المرأة العجوز البالية وكل من اعتمد على راحته عند

النهوض فهو شن . من الشواهد :

فلا صريح اليوم إلا هنة　　معابل خوص وقوس شنة

* **دار الأرقم** : وهي بزقاق الصفا ، قديمًا قبل مشروع التوسعة ، وكان يسكن بهذا الزقاق عم والدنا المرحوم الشيخ عبد الله أبو الخير مرداد بعد عمتي الوسطى (رحمهما الله) وهذه الدار بناها جد الشيخ عبد الله أبو الخير الذي هو والد الشيخ أحمد أبو الخير من رجال الحديث ، وله مؤلفات لم تطبع .. وبجوار دار الأرقم مباشرة وملاصقة دار المرحوم الشيخ عبد الله بوقس أحد مطوفي الجاويين ومن وجهاء مكة .. ودار الأرقم أثرية قديمة كان يأوي إليها رسول الله ﷺ ويبث دعوته سرًا إلى أن أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان إسلامه بهذه الدار على يد الرسول الأمين ، وفيها دعا الرسول الكريم كما جاء في الأثر : « اللهم أيد الإسلام بأحد العمرين » واستجاب الله دعاءه .. ثم بعد إسلام عمر وحمزة زادت الدعوة المحمدية انتشارًا حتى أمره مولاه بالجهر بها والحمد لله .

وقد دخلت دار الأرقم مرارًا في صغري ، وكان المسئول عنها المرحوم الشيخ عرابي سجيني وأخوه المرحوم أمين سجيني ، وهذه عائلة عريقة . ونرجو الله أن يبارك في ذريتها حتى تحافظ على تراث أجدادها وآبائها .

* **أم الدود**[1] : أول محطة بعد خروجك من مكة في طريقك إلى جدة .

---

(١) سميت في هذه السنوات باسم « أم الجود » . وأول من سماها بذلك اللواء علي جميل ـ رحمه الله ـ لأن له أرضًا بها ، فكره تسميتها بأم الدود وذاكرني في ذلك ، وقد أبدى لي أنه يرى أن تسمى « أم الجود » بدلًا من أم الدود الاسم الموحش ، فوافقته . وأراد الله من بعد أن تعمر ، فبها اليوم الفندق المعروف باسم إنتركونتيننتال ومبان أخرى .

كان بها مكنات ومحطات كهربائية تابعة للمرحوم الشيخ عبد الله باحمدين، وبها مزارع ومصانع وأراض تابعة له وقد زرتها مرارًا ومكثت بها ساعات وساعات. ونزلت في بئرها الشهيرة التي تدعى أم الدرج، وفعلا النزول إلى قاعها بالدرج (جمع درجة) حتى تصل إلى أرض البئر إذ تجد نصفها ينبع منه الماء والنصف الآخر صخري مغطى بالتراب، وقد ركب عليها سلم حديدي آنذاك مساعد للسلم المطوي بالحجر، وقد ركب أيضًا في النصف الترابي مكنة نفطية تقذف بالماء إلى خارج البئر لسقي الأراضي ـ وهذه البئر لها شهرة عند العامة إذ يقولون بأنها مأوى الجن، ويرون فيها الأشباح، ويسمعون الزجل بالليل. وما أرى ذلك إلا من الخرافات والأوهام، وهي مظلة مرعبة لمن ينزلها ليلًا. وكان المرحوم عبد الله باحمدين قد علق في أرضها ودرجها عدة مصابيح لئلا يتعثر السياح عند نزولها إذا ما عزموا على ذلك..

وفي الوقت الحاضر ألغى الاستقبال بها، وأصبحت جزءًا من مكة، وأصبح استقبال المسافرين في المطارات، حيث تهبط الطائرات، وفي محطات الأتوبيسات داخل مكة وخارجها. وحتى الاستقبالات قد ألغيت، وأصبح المسافر يصل بالعربة النفطية إلى باب داره، إذ يجد من يستقبله من الأهل والأصدقاء داخل داره ينتظرونه، فسبحان مغير الأحوال.

والحمد لله على كل حال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل الثالث

حدود مكة

أيام الشريف حسين بن علي أمير مكة ـ رحمه الله ـ كانت حدود مكة هي (قهوة المعلم) أو مقهى المعلم بالنسبة للمسافرين والقادمين من وإلى جدة وكل من يتعدى هذا المقهى يعتبر مسافرًا ويفتش تفتيشًا دقيقًا وبخاصة من يحمل الذهب وكانت على يسار المسافر إلى جدة، وبعدها مباشرة باب مكة وكان آنذاك خلاء ليس به بناء ولا سور غير مركز المفتشين.

وكان رئيس المفتشين من قبل الجمارك والمالية رجلًا يدعى (الشريف علي هندية) وقد مر ذكره قبلًا حينما صودر ذهب عمنا المرحوم الذي تقدم ذكره، وكان قد جاء إلى هذا المقهى لاستقبال أخيه وليس لتهريب ذهب أو بضائع.. وكان رئيس المالية بمكة المكرمة رجلًا من آل باناجة الذين يقطنون جدة ولهم عقار بمكة ولا أذكر اسمه بالتحقيق وأعتقد أنه المرحوم أحمد باناجة ويسكن بيته الكبير الواقع أمام باب علي بالقشاشية. ثم إن عمنا الذي صودر ذهبه جن جنونه حينما أخذت منه الجنيهات الذهبية، فذهب إلى ابن عمه وزوج أخته المرحوم عبد الله أبو الخير وقص عليه ما جرى، فطلع المذكور للشريف وأخبره بالحقيقة فأصدر أمره بإرجاع المال إلى صاحبه بعد لأي وجهد عظيمين. ومع ذلك لم تصرف له إلا ريالات فضية ممسوحة وبسعر أنقص من المحدد فكان الفرق عظيمًا إذ يقارب المائة من الجنيهات نسأل الله أن يعوضه خيرًا منها في الدار الآخرة. وعمنا هذا كان إمامًا وخطيبًا في المسجد الحرام، وعلاوة على ذلك كان إمامًا للشريف حسين في الرحلات والأسفار، وكان حفاظة رحالة

قوي البنية واسمه عباس وأخوه وشقيقه عمنا المرحوم عثمان رحالة أيضًا، ومات بالهند عام ١٣٨٤هـ. وأما عباس فمات بالمدينة المنورة في عنفوان شبابه، وأما والدي فكانت رحلاته أعظم وأعمق منهما، وقد مات بجزيرة مدوره رحمهم الله جميعًا وأسكنهم فسيح جناته.

عود إلى مراحل رحلة الطفل الغريب

جاء الليل واطلخم سواده واحتلك وناء بكلكله على الغريب الصغير، ولم يأت الوالد، ولا العم، وأخيرًا بسطت فرش النوم فاضطجعت، وكان مضطجع عمتي الصغرى بجانبي، حسب المقرر، وكما مر في الحلقات السابقة فبادرت بسؤالها عما كان يجول بجانبي طوال اليوم، وما رأيته من عجائب وغرائب، وما سمعته من أحاديث. كما وصفت لها الاستقبال بأم الدود وقهوة المعلم وما جرى علينا من تفتيش ومصادرة ومقابلة.

ثم أقسمت عليها أن تخبرني عن كل شيء وإني لأمين على السر وحافظ للعهد، فأسرت إلي بالحقيقة التي ملخصها:

إن الوالدة (رحمها الله) كانت مقيمة في باب الدريبة مع العمات والوالد والعم والجدة لسعة الدار وقرب الحرم والأهل والأرحام.. ولكن دب الخلاف واشتعلت الفتن، فخرجت مغاضبة إلى بيت أهلها، ثم جرى الصلح على أن تسكن في بيت مستقل، فاستأجر بيتًا بحارة أجياد يدعى بيت (الركن)، أحد مطوفي الجاوة، وانفصل نهائيًا عن بيت آبائه وأجداده وهذا البيت يواجهك عندما تنزل من برحة السنوسي مباشرة.. سكن مع الوالدة قسم من أهلها لتسليتها بسبب صغر أولادها ومواصلة رحلات والدي (رحمه الله).

كان ذلك في أثناء إقامتي بالزيمة ؛ لأن الله رزقهم بنين وبنات من بعدي وعاشوا والحمد لله ، ثم اشتعلت الفتنة ثانية ، وثالثة وتباعدا وتقاربا مرارًا وتكرارًا شأن الحياة الزوجية المضطربة ، وأخيرًا اصطلحا ورجعت إلى بيتها بأجياد .. ثم سافر والدي إلى الهند وهي في بيتها بأجياد .. وها هو قد رجع بسلامة الله .

هذا خبر العمة الصغرى والخبر يحتمل الصدق والكذب ، إن لم يقم دليل قاطع على صحته؛ لأنه من جهة واحدة ، لكن عما قريب سنكتشف الحقائق .. قلت لها : ولماذا لا أكون عندها مع إخوتي؟ فقالت : أنت من نصيبنا لكن ربما نصطلح في المستقبل فتكون بيننا ، أو ربما يأخذك أبوك لتزورها ، إذا هي طلبت ذلك ثم قالت : لا تستعجل !

قلت : عسى الله أن يهديها ويهديكم جميعًا لأعيش بينكم في سلام ووئام .

الخروج من الفقيهة

مضت الأيام والشهور والوالد لا يأتي إلى باب الدريبة إلا رذاذًا ، وبالمناسبة ، حتى جاء أول السنة ليعيد على شقيقاته وشقيقه جمال ، وليرى ابنه البدوي الصغير وما فعل الله به . جاء زائرًا ، فقبلت يده ، ثم سألني عن دراستي عند الفقيهة وعن أحوالي ، لكنه لم يقتنع بإجابتي ، فسأل عماتي ، فأجبنه بما يعرفنه حسب ما يظهر لهن ، وحسب ما في قلوبهن لئلا يغير رأيه .

ولكن سرعان ما تكاثر الضيوف بسبب عيد رأس السنة الهجرية وهي سنة ١٣٤٠هـ فأعرض وتلهى ، وكان الناس في مكة يتزاورون في أول السنة

وبخاصة ذوو القربى والأرحام ، ويشربون الحليب صباحًا حتى يتضاعف سعره في ذلك اليوم ومعظم الناس لا يجدونه لتهافت العامة والخاصة على شرائه من قبل طلوع الشمس ، وربما بعث بعضهم بإبريقه من الليل ليبيت عند اللبان وكان في ذلك الوقت لم يتوصل المخترعون إلى اختراع الحليب المجفف ولا المعلب .

العسل واللون الأبيض

والكلام المهذب ، والكلم الطيب ولبس الجديد والمصالحة ـ كل ذلك يحصل في اليوم الأول من السنة الهجرية الجديدة وهذه من عادات العامة بمكة المكرمة في ذلك الزمن ، اعتقادًا منهم بأن هذا اليوم يجب أن يكون مميزًا بالفضائل في كل شيء حتى تمضي السنة كلها على هذا النمط وبالعكس ، وهذا مجرد وهم فيما أعتقد وقد زالت هذه العادات وتطورت الخلائق وأصبحت هذه العادات أقاصيص تحكى للأطفال لتكون تاريخًا ، وذلك لأن الإنسان يجب أن يتصف بالفضائل كل يوم لا في يوم محدود معين . وكم ممن حافظوا على هذه العادة ولكن انتكست بهم الأيام وقسا عليهم العصر وكان أمر الله قدرًا مقدورًا .

عاشوراء

جاء يوم عاشوراء وجاء الوالد بفاكهة (عناقيد من العنب ومثلها من الموز) وسلم على أخواته وعمته الكبرى ـ جدتنا المرحومة شقيقة جدنا عبد المعطي ، فقبلتُ (بضم التاء) يده فربت على كتفي ، وقال : عسى أنك تبيض وجوهنا

وتختم الختمة حتى أكافئك بمكافأة طيبة . فقلت له : إن شاء الله .

ومن عادة أهل مكة في ذلك العهد أن يزور بعضهم بعضًا في يوم عاشوراء ، وبعضهم يصومون ، وبعض يعمل (العاشورية) وهي من الأطعمة اللذيذة ، فيغلون الحنطة غليًا شديدًا ويضيفون إليها الحليب والسكر والزبيب واللوز والفستق والصنوبر والجوز والبندق وماء الورد . كما يهدي بعضهم بعضًا الفاكهة لكن الأغلبية تهدي الفاكهة في اليوم الأول من السنة ، ويسمون هذا الإهداء أو هذه العادة : التوسعة (بكسر السين) . وقد اجتمع عندنا في ذلك اليوم من الفاكهة ما يسد حاجة الأسبوع ومن جميع الفواكه على اختلاف أنواعها ، حتى ليخيل إلي أني كنت أنظر إلى إحدى حوانيت الفاكهة بالمسعى أو بالزيمة الحبيبة ، ولو وجدت الثلاجات في ذلك العصر لأغنت هذه الكمية أيامًا كثيرة .

تطـور جديد

أمر عمتي ، صاحبة المطبخ ، والمسئولة الأولى عني وعن الدار والولائم والمراقبة وتربية الأخوات ، أمرها أن تلبسني ثوبًا جديدًا ، ففعلت ، ثم سألته : لماذا ؟ فقال لها : لأني سأزور السيد محمد دحلان بالغزة ، ولأنه طلب مني أن يراه .

هذا أول تطور بالنسبة لحياتي البائسة ، إذ ربما يغير الله الأحوال بأحسن من الماضي . وفي الحال أخذ بيدي وقبض على يميني خوفًا من الهرب ثم ذهبنا إلى الغزة ، حتى إذا ما ولجنا دار المرحوم السيد الدحلان ووصلنا إلى مجلسه العام الذي يقابل فيه الزوار ، وجدناه هاشًا باشًا ، حيث استقبلنا استقبالا كريمًا .

وكان بمجلسه أناس لا أعرفهم جاءوا لمعايدته بمناسبة يوم عاشوراء.

وكان أول سؤال ووجهه لوالدي - رحمه الله: هل هذا الذي كان بالمراضع؟ فقال له: نعم، هذا هو حي يرزق. فاستغرب السيد، وأخيرًا ضمني وقبلني، وذرفت عيناه بالدمع فرحًا وسبح قائلًا: سبحان ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: من الآية٧٨] ثم قال لي: الحمد لله على سلامتك، وأبشر بطول العمر إن شاء الله.

فهز الوالد كتفي ثم قال لي: هذا هو السبب، بعد الله، في حياتك، فهذا الذي بعثك إلى المراضع. ثم قص عليّ القصة التي ذكرتها آنفًا. وكان السيد الدحلان هو كل شيء بالنسبة لوالدي، رحمه الله ورحم الدحلان الذي كنت ألجأ إليه عند النوائب والشدائد أحيانًا.

الاختبار

خرج الزوار وهممنا جميعًا معهم بالخروج ولكن السيد الدحلان استبقانا، حيث وجه أسئلة كثيرة والوالد يجيبه عن كل سؤال، وهما يظنان أني لا أفقه شيئًا مما يقولان.. وآخر ما قاله السيد محمد الدحلان: حرام أن يعذب هذا الولد في طفولته وفي نشأته بسبب عداوة العمات والأم، ثم قال له: أنت يا عبد الحميد قد ابتلاك الله بالأسفار وعدم الاستقرار، وهذا أصبح الضحية بين أخواتك وأم عيالك. فكر في الحل قبل أن تتفاقم الأمور، وتتعسر الحلول..

فأجابه الوالد بأجوبة غير مقنعة، فردد عليه النصيحة، وكرر عليه القول وقال: لابد أن يكون هذا الغلام بين أمه وأبيه. فارتجف الوالد وقال: لو فعلت لقامت القيامة بيني وبين أخواتي إنما أحاول أن أحملهن على زيارة لأمه يوم

الجمعة حتى تتعرف إليه ويتعرف إليها وإلى إخوته والله الموفق .

ثم قال الدحلان : هل استفاد من الفقيهة آشية طيلة هذه المدة ؟ فقال : لا أدري هذا هو أمامك فاختبره ! فجلس ـ رحمه الله ـ يختبرني فلم أجب على شيء مما يقول ، وأخيرًا جاء بورقة وقلم وقال : اكتب اسمك ، فترددت وتحيرت ولم أعرف من أين تبدأ الكتابة من اليمين أم من اليسار ، وبعد محاولات كثيرة كتبت حروفًا مقطعة مشوهة ويا ليتها كانت صحيحة سليمة .

ثم جاء بمصحف وقال : اقرأ علي سورة من جزء عم فلم أعرف شيئًا غير أني أسرد الآيات غيبًا بدون أن أميزها في المصحف ، وهذا بالنسبة لجزء عم وهو ما يسمى بالقراءة العميانية كمثل الببغاء ، فاغتم لذلك جدًا كما تميز وجه الوالد من الغيظ ، وهمَّ بضربي ، لولا أن تدخل الدحلان ـ رحمه الله ـ وزجره قائلا : هذا من جهل التربية ، ثم ما خطؤه حتى يضرب ؟ قال له : مضى عليه عند الفقيهة عامان ، فماذا أصنع ؟ قال له الدحلان : أمهلني أيامًا لأبحث له عن كُتّاب آخر أو مدرسة ـ إن شاء الله ـ عما قريب ، وإياك وضربه . ثم خرجنا من عنده حيث أوصلني إلى باب الدربية ، وذهب إلى بيته كما أعطاني قرشًا ونصحني بحفظ الواجب وإلا فالعلقة تنتظرني .

ختم جزء عم

وعلى عادتي اليومية مع الكتّاب والفقيهة جيئة وذهابًا ، حتى ختمت جزء عم بكل شدة وكلفة ، فقالت الفقيهة : قل لعماتك يعملن الحفلة ويأتين بالحلوى والمخصص الذي تعطاه عادة عند ختم جزء عم ؛ فبلغتهم رسالتها . فاشترين الحلوى وبعثن بها إليها على النمط الذي جرى عند سورة الضحى ،

ثم جئن إليها وأسلمنها نصيبها من الريال المجيدي . وطفت مع التلامذة في سوبقة والمروة ، ثم أمرتنا بالانصراف . وهذا الحفل لا أدري عن اسمه شيئًا لكني سآتي بنبذة عنه عند شرح الكلمات .

مدرسة الخياط بالمسعى

انتهى العام ودخلت في التاسعة وقد دخل العام الأربعون بعد الألف والثلاثمائة ، ولم أستفد شيئًا من الفقيهة (رحمها الله) ويا أسفا على ما ضاع من وقت ثمين ، وليته كان أيامًا أو شهورًا ولكنه قارب العامين أو زاد .

وبينما أنا ذاهب ذات يوم إلى الفقيهة على عادتي ، وإذا بالوالد والسيد الدحلان قد أقبلا من جهة سويقة ، فقابلاني بزقاق الخياط المعروف في طريقي إلى الفقيهة ، فسلمت عليهما ، ثم سرت إلى سويقة ، فقال الدحلان : ارجع قد أعتقك الله من الفقيهة ، تعال معنا . فذهبت معهما ، وإذا هما يتجهان نحو مدرسة الخياط بالمسعى التي جلدت فيها يومًا ما ، كما مر في بعض الحلقات . وقلت في نفسي لعلهما يريدان جلدي من جديد . وصرت أرتعد وأرتعش خوفًا من العلقة ، فقال السيد : لا تثريب عليك ، فقد سجلناك في هذه المدرسة وأنت الآن أحد تلاميذها . فبيض وجوهنا أمام المعلمين ، لا تكسفنا ، وهذه الكلمة عامية يأتي شرحها فيما بعد .

مدير المدرسة

دخلنا المدرسة وقصدنا الإدارة ، حيث قابلنا مديرها المرحوم الشيخ عبد الكريم حنفي الذي قال : أهلا بالشراد .. ثم حضر العم جمال والسيد المالكي

صهره ، حيث رحبوا بالوالد والسيد ، ثم وصاهم السيد الدحلان وقال لهم : هذا الطفل أمانة في عنقكم ويكفي ما مر به من تعذيب وتشريد وتغريب ..

ثم التفت إلى عمي وقال له : يدك بيده من البيت إلى المدرسة ومنها إلى البيت لا ينفلت منكم . ثم خرجا ، وبقيت وحدي في الإدارة حيث ذهب الأساتذة إلى إلقاء دروسهم وواجباتهم حتى يحين وقت الظهر ، لأخرج مع عمي والسيد المالكي ..

أسئلة جديدة

ولكن المدير الشيخ عبد الكريم حنفي لم يقتنع بأني قد فككت الحرف ، وختمت جزء عم ، وكتبت في اللوح ، بل أعاد علي الأسئلة المحرجة من جديد ، فوجدني خالي الذهن ساذجًا بدائيًا ، وفؤادي أفرغ من فؤاد أم موسى .. فنادى العم وأخبره بالخبر ، فقال : اجعلوه في السنة الأولى في صف الهجاية : (ألف باء) ويا لها من صدمة قاسية فامتثلت الأمر وسلمت أمري لله .

أدوات المدرسة

خرجت مع العم ـ رحمه الله ـ إلى بيتنا بباب الدريبة ؛ حيث زف الخبر إلى العمات ففرحن جميعهن بدخولي مدرسة الخياط . وفي المساء أخذني عمي إلى باب السلام حيث اشترى لي محفظة (إضبارة لحفظ الدفاتر والكتب) كما اشترى لي كتب مطالعة وتهجية ودواة ومراسم وأقلامًا من (البوص) وحذاءً جديدًا . وفي اليوم الثاني ذهبت معه إلى المدرسة وأنا فرح مسرور بالمدرسة ولكنهم وضعوني في الصف الأول ، وبعد لحظات من الدراسة جاء رجل بدفتر

كبير ونادى الطلبة : فلان ، فلان وكل من جاء اسمه يقف قائلًا : (حاضر) . وجاء اسمي فوقفت وقلت مثلهم . وكانت فرحتي أشد لتغير المنظر والشكل وتبدل الحال .. وما أقل ما يفرح الصغار السذج .

أساتذة المدرسة

وفي مقدمتهم مديرها الشيخ عبد الكريم حنفي ، ثم عمي جمال مرداد ، والسيد عبد الرحمن المالكي ، والشيخ محمود مرزا ، وكان أستاذًا للخط والإملاء ، ثم الشيخ سعيد خفاجي ، والشيخ أحمد السباعي ، والشيخ أحمد حابس ، والأستاذ الدمنهوري ، وأنا غير متذكر لاسمه أهو على أم بكر - (يراجع في سجل المدرسة إذا اقتضى الأمر) وكان هذا مع الأستاذ أحمد حابس يتناوبان رقابة المدرسة ومراقبة الطلبة وتوقيع الجزاء على الجاني أو المقصر في الواجبات المدرسية ، تعليقًا في الفلكة وجلدًا على الأقدام ، ثم المرحوم الشيخ عبد الوهاب خياط وأخوه الشيخ عبد الرحمن خياط وكانا يلقبان بكلمة (مبارك) تارة و(خياط) تارة أخرى ، وشهرة اللقب الأول أكثر شيوعًا ، ثم الشيخ عبد الغني بشير والشيخ أحمد زاهر الليالي ، والشيخ عبد الوهاب سناري والأستاذ عبد الله خوجة .

بدون فائدة

كان هناك بعض أساتذة بهذه المدرسة لكني لا أتذكر أسماءهم الآن ، وموقع هذه المدرسة كان في وسط المسعى أمام باب السلام وواجهتها من شارع المنشية وواجهتها الأخرى على باب السلام وتحتها دكاكين تجار الشاي ،

وعبد الله كعكي . ثم صارت فيما بعد ملكًا لأمانة . العاصمة ، ثم اشتراها الشيخ جستنية وأدخلت أخيرًا في مشروع توسعة الحرم المكي ..

ولسوء حظي ، لم أستفد من هذه المدرسة أيضًا ؛ لأن عمي مدرس بها ، وصهره السيد عبد الرحمن المالكي كذلك ، ويرجع عدم الاستفادة إلى زنبيل المقاضي وإيصاله للدارين ، فالعم يحضر معه الزنبيل ، وفي إجازة الفسحة (بضم الفاء وتسكين السين وفتح الحاء ثم التاء المربوطة) يخرج ليملأ الزنبيل من المنشية وهي بجانب المدرسة مباشرة ، وكذلك السيد المالكي ، وفي أثناء الدراسة يأمراني بإيصال زنبيليهما إلى بيتيهما بسبب عدم وجود خادم لهما يقوم بهذه المهمة .

والمسافة بين المنزلين شاسعة ؛ إذ الأول بباب الدريبة والآخر بآخر الشامية ، بالقرب من بيت شطا ببرحة بنجر .

وعند إيصال الزنبيلين تنبت طلبات وحاجات ، منها لوح العيش ووضعه في الفرن وغيره وغيره .. ومن هو يا ترى كان يقوم بهذه المهمة قبلي ؟ وكان الأساتذة في ذلك الحين يحضرون زنابيلهم معهم يضعونها عند حارس المدرسة حتى إذا ما جاءت الفسحة خرجوا للمقاضي بسبب قرب السوق من المدرسة ، وبعضهم يوصل المقاضي إلى بيته ثم يرجع إلى المدرسة إذا كان البيت قريبًا ، وبعضهم يبعث بها مع أحد الطلبة كما هو الحال معي . وكانت الفسحة في ذلك الوقت أكثر من ثلث ساعة .

ووقتها يبدأ بعد الحصة الثانية من الدراسة ؛ لأن الحصص التي قبل الظهر أربع : اثنتان منهما قبل الفسحة واثنتان بعدها .

وهي معدة لاستراحة التلاميذ والأساتذة معًا، ويقضونها في شرب القهوة واحتساء الشاي واللعب بفناء المدرسة .. وبعض الطلبة يستأذنون من إدارة المدرسة فيخرجون لقضاء حاجاتهم وإيصالها إلى بيوتهم، ثم يرجعون .. وبعضهم لا يرجع إذا كان عليه واجبات ثقيلة ويريد الفرار منها خوفًا من العقاب .. وكانت أنظمة المدارس آنذاك مهلهلة لم تنضج بعد إذ كانت ارتجالية محضة بالنسبة للطلبة والأساتذة.

وقد رأيت بعض الأساتذة يبعث التلميذ الذي يثق به، ويعهد إليه بشراء بعض الحاجيات وإيصالها إلى داره ثم الرجوع إلى للمدرسة، وهذا في أثناء الحصص. وإذا منعه البواب بعث إليه بورقة يأمره فيها بإخراج التلميذ.

والتلاميذ الفقراء والذين هم ليسوا من أصحاب البيوتات والوجاهة أو الأسر الراقية هم المسخرون لهذه الأشياء، وإلا فمن يجرؤ أن يبعث بزنبيله أو مشترياته مع أحد الأغنياء أو ذوي الوظائف الحساسة. والويل للضعيف، ولكن الله ناصره ومعاونه ومن صبر ظفر.

التسامر والتحادث

في الليل يأتي معظم هؤلاء الأساتذة إلى دارنا بباب الدريبة يسمرون ويلعبون (الجوقر والضومنة) ولا أحد غيري يباشرهم بالشاي والقهوة والماء ويستقبلهم من باب الزقاق بالمصباح، ويشيعهم به حين الخروج؛ لأنه لم يكن هناك خادم بالدار غيري.

مكة ظلام

كانت مكة في ذلك العهد مظلمة بغير كهرباء، وكان الضيف إذا قصد بيتًا من بيوتها للزيارة ينادي صاحب الدار من الخارج فينزل بنفسه أو يبعث بولده أو خادمه حاملًا المصباح فينزل إلى باب الزقاق محييًا مضيئًا للضيف ليصعد معه السلالم بالمصباح وكذلك عند الخروج، ولا يخرجون إلا في وقت متأخر، فمتى أذاكر دروسي؟ ومتى أؤدي الواجبات؟!

بكرج الحليب

ومن المقررات الملقاة على عاتقي شراء الحليب واللبن والحامض والفول وخبز الفطير صباحًا قبل طلوع الشمس وقبل كل شيء إحضار إبريق الحليب ممتلئًا.. وكان عميلنا بصورة دائمة هو اللبّان (حمزة مستعجل) ومقره سويقة؛ إذ يبسط على حاف أحد دكاكينها المغلقة المواجهة لباب الزيادة، وعميلنا للفول المدمس والمعصوب هو المرحوم أحمد باسلاسل بسوق الليل، وعميلنا الفران بقهوة القبو هو (التلّيس) من أصل إندونيسي ومن مواليد مكة المكرمة، والويل لي إن تأخرت أو تثاقلت عن أداء هذه الواجبات، وهذا اللبان له أخ بباب العمرة يبيع مثله، وكان شيخ اللبانة في ذلك الوقت وهما يبيعان الحليب الخالي من الغش، ويشاركهم في ذلك المرحوم خليل أبو النجا، والمرحوم عابد مراد بسوق الليل وكل واحد من هؤلاء يقتني أكثر من عشر بقرات سمان ومن بعدهم الأناضولي اللبان التركي.. كان سعر الأقة خمسة قروش، وسعر زبيدية اللبن الممتاز نصف قرش، والبيضة الفاخرة بقرش، ورغيف العيش بنصف قرش..

الهـرة والفـأر

وذات يوم ذهبت كعادتي لشراء الحليب ولبن الزبادي من عمنا اللبان (مستعجل) وكان أحد جيرانه من القماشين (أي البزازين) وهم بائعو الأقمشة المنسوجة ، قد فتح حانوته ووجد مصيدته قد علق بها جرذ كبير ، فأودعها عند عمنا اللبان ريثما يحضر القطة من البيت المجاور ـ وأنا قد اشتريت مخصصي من الحليب واللبن ، ووقفت أنظر المعركة بين الفأر الكبير والقطة الجميلة ، كما وقف ثلاثة من الغلمان ينظرون أيضًا .. وحثني اللبان على الانتظار فوقفت وانتظرت ويا ليتني لم أفعل ..

وجاء البزاز بالقطة وأقعدها أمام المصيدة فافترشت ذراعيها وسمرت قدميها وذنبها ومدت عنقها وأرسلت وصوبت حدق عينيها نحو المصيدة ، حتى صار ذنبها مساويًا لرأسها كالمسطرة ـ ثم رفعت مخالبها عن الأسطح قليلًا لتقوم بالهجوم والانقضاض على فريستها المفضلة عندما تخرج من الشبكة ، ولكن الفأر لم يخرج ، مع أن المصيدة مفتوحة بل تسمر داخلها وصار يبول من الذعر .

وأخيرًا أخذ اللبان المصيدة ونكسها وخضها حتى يسقط الجرذ وقفز نحوي ، فرميت بإبريق الحليب واللبن وركضت خائفًا مذعورًا ؛ لأني لم أعهد مثل هذا المنظر في البادية وما رأيت الفئران قط في زيمتنا الحبيبة .

ثم ناداني اللبان فرجعت وقد غرست القطة أنيابها في رقبة فريستها وسحبته سحبًا ، سحبته إلى دهليز أحد البيوت القديمة واختفت عن الأنظار .

علقة بالبيت

ذهبت إلى البيت وأخبرت العمة بما جرى وشرحت لها الأسباب التي أدت إلى انسكاب الحليب ولكنها صبحتني بعلقة ساخنة .

وعلقة بمدرسة الخياط

فذهبت إلى المدرسة من غير إفطار ، ولما تمض ساعة حتى جاء العم غاضبًا بسبب خروجي وذهابي إلى المدرسة من غير أن يصحبني كالمعتاد ، وكنت غير حافظ لدرس التجويد في تلك الحصة وفي تلك اللحظة بالذات كان شيخ التجويد ، وهو المرحوم عبد الغني بشير ، كان غضبان . فسحبني إلي العم جمال واشتكى قصوري ، وعدم حفظي للدرس ، فوافق شن طبقة ، إذ كان كل منهما يريد ضربي وعذابي .

وفي الحال طلبا المراقب الأستاذ الدمنهوري والفلكة والخيزرانة فعلقني بالفلكة ورش قدمي بالماء ، وجلد ثم جلد ، ثم أخذ الخيزران العم فجلد ثم دفعها للبشير لكنه عطف وندم وقال : بس كفاية ..

لكن قدمي كانت قد انتفخت وتفلحت وتشققت وازرقت وتعرجت فحاولت النهوض فلم أستطع ..

ومع ذلك هل أعتقت من زنبيل المقاضي ؟ كلا ، لقد جاء السيد المالكي رحمه الله وخبطني على ظهري بالعصا الغليظة وقال : قم لا تتدلع ، انهض وخذ المقاضي .

فتجلدت واحتملت وتصبرت وأخذت الزنبيل ، ولكني وقعت وانكفأت

على وجهي من شدة ما بي من ألم وضرب وقهر ، ومن شدة كدمات الصباح التي أهدتها لي العمة المرحومة بسبب حادثة اللبن ، ثم حاولت القيام مرة أخرى وساعدني الحارس على ذلك[1] ، ثم أخذت الزنبيل وهرولت نحو دار المالكي ، فألفيت أن عياله تنتظرني فدفعت لها المقاضي ولم أنبس ببنت شفة ، وخرجت مسرعًا لا ألوي على شيء حتى وصلت إلى المعابدة ..

الهروب الثاني

وما أن وصلت بيت مرضعتي حتى ارتميت على أحضانها ـ رحمها الله ـ وتعلقت برقبتها وأخبرتها بالذي جرى وقلت لها : لا أذهب بعد الآن إلى بيتنا وليس لي بيت سوى هذا ولا أم سواك ، فقالت : أتهرب لثاني مرة ؟ ها أنا قد حضرت إلى مكة لئلا تعود للهرب ، فهلا انتظرت حتى يأتي يوم الخميس ، فتخبرني بما جرى لك وما فعلوا بك ؟ هيا ارجع إليهم بارك الله فيك . وتعال يوم الخميس لأنهم سيأتون ، وسوف يأخذونك قسرًا فلا تحوج نفسك للضرب والعقاب الشديد .

وكان ذلك اليوم هو يوم الثلاثاء ، فقلت معاذ الله أن أرجع إليهم ولو قطعوا أوصالي فافعلي ما بدا لك وخلصيني منهم ، فذرفت عيناها وحسبلت ، ثم قالت : لا عليك ، وهدأت من روعي وطمنت نفسي ، وغسلت وجهي ،

---

(١) واسمه حسن عدوي كان قويًا في ريعان شبابه وبالإضافة إلى الحراسة كان معاونًا لمفتش المدرسة وقد رحل إلى تايلند عام ١٣٤٢هـ واستشهد هناك مقتولًا حينما اغتاله أحد لصوص بلدة (سونقي بكب) .

ورأسي ، وبدلت ملابسي مما عندها ومما تختزنه لي من ثياب بدوية وحضرية ثم قدمت لي طعامًا من الذي كنت آكله عندها في الزيمة من قرص المجرفة واللبن والتمر .

ومكثت عندها ذلك اليوم وتلك الليلة لكني وجل خائف أترقب بين لحظة وأخرى وصول الأهل للقبض علي ، ولكنهم لم يأتوا وكذلك مرضعتي أصبحت خائفة وقالت : أطعني وأذهب معي ، وأنا أتشفع لك عندهم وسأتحمل عتابهم وتقريعهم من أجلك فقلت : أبدًا !

انقضى يوم الأربعاء والخميس والجمعة والسبت وما هناك شيء غير الرعب والخوف وخاصة عندما نسمع طرق الباب . وأخيرًا قالت : قم بنا إلى شيخ المعابدة ؛ لأن حرمه صديقة لنا ، وقالت : سنقص عليهم أمرك ، وسأجعل الشيخ يذهب معك إليهم ، فقلت : لا ولا ولا ولما يئست سكتت ورجعت إلى حالتها الطبيعية . وفي الوقت نفسه قلت لها : إن تجبروني على الذهاب إليهم فسوف أهرب إلى الزيمة فقالت : لا يا كبدي ! أنا دونك .. إياك أن تفعلها . ثم تعشينا ونمنا .

الهجوم

وفي أثناء ساعات الليل وبينما أنا غارق في نوم عميق وحلم لذيذ إذا بيد حنونة تربت على كتفي مع همس في الآذان : انهض يا محمد ! فنهضت نهضة المفتئد المفتأد قلت : ماذا جرى ؟ ولم توقظيني في هذه اللحظة من الليل ؟ فقالت : إن أهلك قد وصلوا يطلبونك فلا تنزعج ولا تخف .

ثم أخذتني إلى الموضأ حيث غسلت وجهي ثم أخرجتني إليهم وإذا بأربعة

رجال كالآساد وهم : والدي رحمه الله وعمي والسيد المالكي ورجل قصير أسمر عرفته فيما بعد : خادم الشيخ أحمد باسلاسل في الدكان أخذوه معهم ليركض خلفي فيما لو حاولت الهرب ولذت برؤوس الجبال .

صارت أمي تبكي وتنتحب وتتوسل إليهم أن لا يضربوني ولا يؤذوني ، فوعدوها بذلك ، وخرجت معهم أجر أثواب الهزيمة والانقياد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

في الطريق ضرب وركل

سلكوا بي الطريق الخلفي من جهة بيت الرشيدي ، وكان الليل قد انتصف والأرجل قد توقفت إلا من العساسين والمراقبين ، والقمر يتوسط كبد السماء ، فبادرني الوالد بوكزة شديدة جعلتني أسقط على الأرض فأمسك بيده العم والسيد (رحمهما الله) إذ قالا له : عندما يصل إلى البيت كلنا نضربه ..

ثم أنهضوني فمشيت معهم ولكني كنت أرتعش مما سوف يلحقني من جلد وكدم ، فتوقف عن الضرب . أما الرجل الأسمر فشد يدي اليسرى وقبض عليها بيد كالمطرقة ثم صار يمشي ويسحبني وهم خلفي ، وأنا كالضحية التي تساق للنحر في المجزرة .

القشاشية

عندما وصلنا حارة القشاشية بالقرب من بيت الآشي قال الوالد : إني سآخذه إلى بيتي وأضعه في حنية الفحم وأقيده بالحديد . فقلت في نفسي : يا حبذا لو أحظى برؤية أمي الحقيقية ؛ لأنها ستشفع لي وتحول بين عذابي

وجلدي وفي الوقت نفسه أمتع بصري برؤيتها؛ لأني لا أعرفها ولا أعرف إخوتي، لكن سرعان ما أمسك بيدي العم وجذبني من يد الرجل الأسمر وقال لوالدي: دعه الآن فأني آخذه إلى البيت عند عماته، وغدًا سأعطيه علقة بالمدرسة تجعله يؤوب ويتوب ولا يفكر قط في الهروب. أما إذا أخذته على بيتك ليبقى مع أمه فالويل لك ولي من أختي فلانة وأختي فلانة.

وبعد تعب وجهد وافق الوالد وذهب بمفرده، وذهبت مع عمي والسيد إلى البيت. وأما الأسمر فذهب إلى حيث لا أدري.

ولجنا الدار حيث دخل عمي إلى مجلسه، وصعدت إلى مجلسنا واضطجعت على الأرض بجانب العمة وهي نائمة فحمدت الله على ذلك.

لا مقاضي ولا حليب

لكن النوم ذهب عني واعتراني القلق والأرق وصرت أتململ على الأرض أفكر في ماذا أصنع غدًا؟ وماذا سيفعلون بي في المدرسة؟ وأخيرًا استيقظت مبكرًا قبل أن يستيقظ أحد وعزمت على الهرب وأخذت الحصالة (على صيغة المبالغة) وهو وعاء تجمع فيه النقود وقد مر تعريف الكلمة.. وكانت هذه الحافظة مخبأة خلف صندوق كبير لا يبرح موضعه لثقله وحجمه - وهو من تراث الأقدمين - وفيها جميع ما حصلت عليه منذ قدومي من الزيمة من نقود، من قروش نيكلية وقطع إستانبولية ذات القرش والقرشين، وحمدت الله الذي سلمها من الضياع والمصادرة في أثناء غيابي وهربي طيلة الأيام الأربعة.. أخذت الحصالة وجعلتها في جيب الثوب ووضعت يدي على الجيب خوفًا من رنين النقود وشخشختها لئلا ينتبه النائمون وأتعرض لعقاب آخر.

فتحت باب الدرج ونزلت حافيًا على رؤوس أصابع الرجلين إلى باب الزقاق ثم فتحت الترباس لأخرج، ولكن مع الأسف قفله العم بالمفتاح الكبير وأخذ المفتاح عنده، وأظنه كان يشعر بأني سأهرب.

فأسقط في يدي، وعلمت أني واقع في يدهم لا محالة، فصعدت من جديد ووضعت الحصالة في موقعها واضطجعت متناومًا منتظرًا المصير المسؤوم، وما للرجال عن القضاء محالة، ثم استيقظت العمة الكبرى كعادتها، وأيقظتني من غير أن تسأل عن أحوالي وعن هربي، ثم التفتت إلى أختها الصغرى وأيقظتها قائلة: آنسك الشراد!

قمت إلى الموضأ، فتوضأت، وصليت الصبح في وقت الإسفار، وكنت أنتظر أن تقول لي: خذ بكرج الحليب أو ماعون الفول، لأنفذ خطة الهرب، ولكنها لم تفعل، فازداد قلقي وخاصة بعدما نادى العم أخته قائلًا: ناوليه كسرة من الخبز وفنجانًا، أي كوبًا من الشاي لأصحبه معي إلى المدرسة. فناولتني ما أمرها به. لكني لم آكل ولم أشرب من شدة الخوف، ثم أعطتني المحفظة وأدوات المدرسة وقالت: انزل إلى عمك! فنزلت وذهبت معه إلى المدرسة وكان قابضًا على يدي اليمنى والمحفظة على يدي اليسرى حتى وصلنا إلى المدرسة.

علقة كبيرة جدًا

منذ الوصول أدخلني إلى غرفة الإدارة وكانت في المبيت العلوي من المدرسة، ثم نادى المراقب الأستاذ الدمنهوري وأمره بإحضار الفلكة والخيزران والماء لرش الأقدام، ثم انضم إليهم السيد المالكي، وما هي إلا لحظات حتى

طرحوني أرضًا وعلقوني تعليقًا وبدأ الجلد المبرح ، فجلدني المراقب حتى تعب ، ثم تناول منه العصا السيد المالكي فجلد حتى تعب ، وجاء المدير الحنفي مصادفة فتشفع ، وأوقف الضرب ، فقال لي : قم وادخل فصلك (أي صفك ومحل دراستك) .

لكنني كنت غائبًا عن صوابي من شدة الجلد ، ولم أصح إلا بعد ساعة حيث نضحوني بالماء على وجهي مرارًا ، حتى انتبهت وصعدت إلى الفصل ، وعندي بصيص من الأمل في الهروب ؛ لأن الفسحة قريبة ، وجاء ميعادها وميعاد إيصال المقاضي إلى باب الدريبة والشامية .. وصرت أعلل النفس بالآمال ، وجاءت الفسحة ولم ينادني أحد حتى جاء الظهر والانصراف وجاء العم إلى فصلي وقال : نذهب سواء ، إياك أن تخرج منفردًا . ثم خرجنا وذهبنا إلى البيت الذي صار سجنًا لي فلا خروج ولا دخول إلا مع العم حتى الحليب والخبيز ، وطلبات السوق التي تشترى مساءً كالغاز والشريك والحلوى والجبنة .

وعلقة من الوالد

بعد المغرب مباشرة جاء الوالد (رحمه الله) زائرًا لأخواته ، وكنت جالسًا في المجلس الأوسط فقمت لأسلم عليه فبادرني بضربة على فمي ، ثم أعقبها بأخرى حتى نزف الدم ، وسال . ثم بدأ بالركل والوكز فتشفعت العمات وارتمين علي ، وكان العم موجودًا وسمع الصراخ فصعد وأمسكه ثم قال له : انظر إلى قدميه وجلده .. يكفيه ما ناله من جزاء فوقف وامتنع . وأخيرًا خرج ولم يعد إلا بعد أسبوع كعادته .

الزيارة والحراسة

سمع الأهل وذوو القربى برجوعي من الهرب فجاءوا يهنئون ويباركون ، وكل زائر يقول للعمات والعم : إياكم أن تبعثوه إلى السوق أو إلى أي بيت من بيوت أقاربكم لئلا يفر ويهرب ..

وكانت الحراسة علي مشددة جدًا ، حتى النافذة التي تطل على أرض الحرم وبرحة شربة (بضم الشين) ، منعت من الوقوف عليها نهائيًا خوفًا من التردي والانتحار ، فامتثلت وسلمت أمري للواحد القهار ..

لغة وتاريخ وتفسير الكلمات الغريبة

* **الإصرافة والإقلابة** : كلمتان عاميتان من اصطناع الفقيهات .. والكلمة الأولى : (إصرافة) بكسر الهمزة وتسكين الصاد وفتح الراء ثم ألف وفاء مفتوحة وتاء مربوطة ، والكلمة الثانية (إقلابة) على وزن الأولى وهي : بكسر الهمزة وتسكين القاف ثم لام وألف وياء مفتوحة وتاء مربوطة ، وجاء في الفصحى قلب بمعنى صرف . فتقول قلب المعلم تلاميذه ، أي صرفهم ، أما الحفلة التي تقام عند ختم الصبي للمصحف وما إلى ذلك فلم يرد عن العرب استعمال مثل هذه الكلمات في مثل هذه المناسبات .

هذا من جهة اللغة العربية وقد يأتي من الرباعي لكنها لغة ضعيفة أوردها اللحياني من غير شواهد ، فيقول أقلب المعلم صبيانه أي حولهم من كذا إلى كذا ـ وعلى هذا قد يأتي المصدر على الوزن المطلوب وهو : الإقلاب والإقلابة ، من طريق الاستعارة ومع ذلك لا يفهم منها المعنى الذي تطلقه الفقيهة على هذه الكلمات في مثل هذه المناسبات .

ومن جهة مراد العامة أو مراد الفقيهات من هذه الكلمات بالنسبة للحفلات التي تقام للصبيان عند الختام وفك الحروف وما إلى ذلك ، فهذه من العادات التي كانت تستعملها عامة مكة المكرمة ولكل احتفال اسم عامي ، وأنا لا أحفظ هذه الأسماء ولا المراد منها .. فقد أقول : إنهم عملوا لي (إقلابة) عندما ختمت جزء عمَّ ، ولكن يجوز أنها غير إقلابة . وعلى العموم : المعمرون منا في السن يعلمون جيدًا معاني هذه الأسماء ويضعونها في مواضعها ولا يجوز لي إطلاق الأسماء على هذه الاحتفالات رجمًا بالغيب ؛ لأن اللغة لا دخل لها في مثل هذه الحالة ، وأنا لا أحفظ عادات مكة وتقاليدها كاملة إنما القدماء المعمرون هم الذين يعرفونها ويحفظونها ؛ لأنهم عاشوا في جوها ، أما أنا فقد نشأت في زمن انقرض فيه معظم هذه العادات ، فأنى لي بسردها ؟ لكن التاريخ يحتم علينا أن نبحث ونسأل لنحيي من تراثنا ما يمكن إحياؤه وتدوينه ، وننبذ ما يجب نبذه ، كمثل العادات السيئة والبدع المنكرة ... وهكذا ..

* **ملاحظة حول التقاليد والعادات بالنسبة لمكة شرفها الله :**

اطلعت على كتاب ألفه مستشرق هولندي ، ويوجد في المكتبات الغربية وفي الولايات المتحدة الأمريكية ..

لقد اطلعت عليه في بلدة بتسبرج إحدى مدن بنسلفانيا وقرأته مرارًا ، وكان مؤلفه قد دخل مكة وأشهر الإسلام ومكث بها سبع سنوات وسكن في الرباطات كرباط العباس والداودية ، واحتك بأهل البلد وبجميع الطبقات ، ووضع على الحبة قبة ولكنه أكثر من المساوئ ونسب لأهلها بعض العادات التي ربما تكون في بلده (هولندا) ثم نسبها لأهل مكة ، واسم هذا المؤلف المستشرق (هورخرونيه) الهولندي .. واسم كتابه : (مكة في أواخر القرن

التاسع عشر) يعني قبل مائة عام، وذكر الفقيهات وتعليمهن للبنين والبنات، ثم ذكر حفلة فك الحرف، ووضع لها اسمًا، وحفلة الضحى، وجزء عمَّ ويس وختم المصحف، وما يقدمه أهل الطلبة للفقيهات من هدايا وتحف وحلوى. وذكر الخميس والإصرافة و(يا رب يا رحمن) وغير ذلك. ثم ذكر أنه حضر بناء المدرسة الصولتية وصاحبها الشيخ رحمة الله، وعن مواقع المدرسة بالخندريسة، ثم قال: إنها المدرسة الوحيدة التي ينصرف إليها الناس ويتركون الكتاتيب التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

ثم ذكر حلقات المسجد الحرام والعلماء الذين يدرسون ويلقنون الناس العلم وفي مقدمتهم السيد البكري شطا والسيد زيني دحلان، ثم شريف مكة وصوره بالعقال والحزام الفضي والجنبية المذهبة في وسطه وأنه شاب وسيم، ولكنه لم يذكر اسمه، ثم وضع صورة لولي عهده وهو شاب لا يتجاوز العشرين لكن صوره بالعمامة (المدرج) أجمل أنواع العمائم آنذاك، ثم صور شيخ السادة ورئيس الكتاب في ذلك العصر، ثم صور عميد بني شيبة وكتب تحت الصورة: (هذا صاحب مفتاح الكعبة) وكان رجلا مربوعًا شابًا صورته أقرب إلى ملامح المرحوم الشيخ عبد القادر الشيبي، ثم عميد آل الريس أصحاب زمزم، ثم شيخ المؤذنين، ثم وضع صورًا لأشهر مشايخ الجاوة، وذكر معايب نسبها إلى خدم مشايخ الجاوة وهي مساوئ ترتكب مع البنات العذارى اللائي يأتين من غير محرم، وصور بعضهن وهن من نساء البنتن بالقرب من جاكرتا. ثم صور طبيب مكة في ذلك العصر وهو رجل يلبس الجبة ويعتم بالإحرام ويحتذي الحذاء المدني وهو شاب وصورته جميلة، وأعتقد أنه والد

الدكتور محي الدين حكيم ، ثم صور العريس والعروس والريكة والقلائد التي توضع في نحور العرايس وما يلبسه العريس ، وكيف ينص عروسه ، وكيف يدخل بها ، وكتب عن الحلاوة الطحينية التي يأكلها العريس سبع ليال ليقوى على الجماع ..

ثم صور العبيد الأحباش ، وذكر أسماء ثلاثين منهم ، والأسماء تبدأ بياقوت ومرجان وتنتهي بجوهر وتيسير ، ثم الجواري الحبشيات وأسماء بعضهن وبدأ بمبروكة ، ودام الهنا ، وختمها بسلوى وبحر الزين .. ثم صور العبيد الشراكسة (الجركس) ومن كان يقتني هؤلاء العبيد من التجار وأصحاب الوجاهة ، مع صور تجار ذلك الزمان . ثم ذكر دكة الرقيق وموقعها بباب الدريبة ، ورئيس النخاسين ، وذكر بعض المساوئ التي ترتكب عندما تصل الجارية إلى بيت للرؤية والفحص وكيفية التسري بالجواري ، وما يفعله رب البيت من حيل حتى يصرف سيدة المنزل ، وعن المساوئ التي ترتكب مع الخدم والغلمان ، وكأنك تقرأ (رجوع الشيخ لصباه) . وأغلب القصص مشوبة بالتزوير ونسج الخيال .

ثم وصف المآتم والموالد والأطعمة والولادة والقبور والزيارات والقباب ومساجد مكة من غير المسجد الحرام ، وذكر شيئًا كثيرًا لا أستطيع حصره في ذاكرتي ؛ لأن المطالعة كانت عابرة ومؤقتة ، وعزمت على شرائه لكنه لم يكن يباع في المكتبات التجارية ولا تستطيع مطالعته إلا إذا زرت جامعة أو معهدًا أو مكتبة من مكتبات هذه المعاهد والكليات والجامعات وهو باللغة الإنكليزية المبسطة ..

* **كيت وكيت** : يعني كذا وكذا ، والعامة تحرف نطق الكلمة والصواب هو فتح الكاف وتسكين الياء وفتح التاء ، والكلمة مأخوذة من فعل كيت (بفتح الكاف والياء المفتوحة المشددة ثم التاء المفتوحة) بمعنى (حشا) وبمعنى (يسر الجهاز) أي أعده وسهله .

وجاء في الشعر العربي :

كيت جهازك إما كنت مرتحلاً

ولا تستعمل (كيت وكيت) إلا مكررة ولو انفردت لا يفهم منها أي معنى ، فما أعذب لغة العرب .

* **هيّا** : بفتح الهاء والياء المفتوحة المشددة ، وتطلق العامة هذه الكلمة في التعجيل والإسراع فيقولون : هيا انزل ، هيا اذهب ، يعني أسرع فيهما ، والكلمة محرفة ومستعملة في غير ما وضعت له .

وأصل الكلمة التي تستعمل في هذا المضمار (هاء) مثل جاء ، ومضارعه (يهيء) مثل يجيء ، بمعنى تهيأ للأمر واستعد له ، ويأتي منها اسم فعل ويستعملونه للتنبيه أو للأسف ، وأما هيا (بفتح الهاء بعدها ياء غير مشددة فألف) ، فهي حرف نداء بمعنى (يا) وأحرف النداء مجموعة فيما يأتي كما قال صاحب الألفية :

وللمنادى النا أو كالناء يا وأي ، وآ ، كذا أيا ثم هيا

* **أتململ** : فعل مضارع للمتكلم وهو بفتح أوله وثانيه وثالثه وسكون اللام وفتح الميم ثم اللام بمعنى أتقلب من الألم والأرق والهم ، أي لم أستقر كأني

أتقلب على رماد حار وهو ما يدعى بالملة ؛ قال طرفة :

فظل الإماء يمتللن حوارها   ويسعى إلينا بالسديف المسرهد

* **المحوج** : بضم الميم وتسكين الحاء وكسر الواو ثم الجيم . فتقول العامة : ما المحوج لعمل هذا ؟ يعنون ما الداعي لذلك ؟ وهو غلط في الاستعمال ؛ لأن المحوج هو الرجل المعدم الفقير الذي لا يملك شيئًا مطلقًا فاستعملت العامة الكلمة في غير ما وضعت له .. وفعل هذه الصيغة يأتي من الرباعي والثلاثي بمعنى واحد فتقول : أحوج إليه ، بمعنى أفتقر إليه . وتقول : (حاج)على وزن (قال) بمعنى افتقر إليه وتقول : « حجت إليه » على وزن (قلت) بمعنى افتقرت إليه ومن الشواهد :

عنيت فلم أرددكم عند بغية   وحجت فلم أكددكم بالأصابع

* **الحسبلة** : هي حكاية قولك (حسبي الله ونعم الوكيل) ومثلها الحوقلة والصلعمة .. الخ .. وهي من قواعد المتأخرين ذكرها الخضري علي بن عقيل ولم يأت لها بشواهد . وفي نظري القاصر أن هذه الصيغ وأمثالها إن لم يرد ما يعززها من الشواهد العربية الفصيحة فلا داعي لاستعمالها وخاصة إذا تعارضت مع الصيغ المماثلة كالحوقلة ، مثلًا : كيف نقول إنها تحكي (لا حول ولا قوة إلا بالله) ؟ وهي في اللغة تدل على آخر مرحلة من سن الإنسان ومن شواهد الألفية :

بني قد حوقلت أو دنوت   وشر حيقال الرجال الموت

ومن المؤسف أن بعضًا يعد هذا الاجتهاد والابتكار نوعًا من التطور والتحسين في اللغة ، والجواب على ذلك واضح هو : إن لن الفصحى هي التي

نزل بها القرآن ، وهو قرآن عربي غير ذي عوج . وإذا أطلقنا لنفسنا العنان في هذا التطور فمعناه أننا انزلقنا إلى تطوير كلمات القرآن من طريق غير مباشر ، وهذا ما يهوي بنا إلى في الهاوية ويحيد بنا عن الطريق المستقيم فينقلب التطور إلى تشدق . جاء في الأثر : (لعن الله المتشدقين) .. أما أن الغرب طور كلماته وحسنها وهذبها كما هو الملموس ، فما لنا وما له ؟ لأن شاء الله يحرق أو يصهر كلماته أو يطلعها من جديد ، فهل نقلده في ذلك ونعد هذا التقليد تطورًا وحضارة ؟ الجواب كلا !

* **وكزه** : (بفتح الواو والكاف والزاي ، ثم الهاء) بمعنى دفعه وضربه أو لطمه ولكمه بجمعِ على فمه ، وفي القرآن الكريم : ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ﴾ [القصص : ١٥] .

وأشد الضرب باليد الجُمْع (بضم الجيم وتسكين الميم) وهو أن تجمع أصابع يدك بقوة ثم تلكم بها خصمك .. وقد تكون ضربة الجمع قاتلة أحيانًا إذا صادفت مقاتل الرجل (بفتح الميم) وهي ضربة عربية في الأصل ثم نقلها الغرب والشرق الأقصى ويسمونها المصارعة اليابانية أو ملاكمة محمد علي كلاي وغير ذلك ، هذه الضربة نقلوها وطوروها ولهم الحق في التطوير فهم مقلدون لنا ؛ لأن الضربة عربية وجمع الكلمة أجماع على وزن أصقاع ، قال طرفة :

بطيء عن الجلى سريع إلى الخنا ... ذليل بأجماع الرجال ملهد

* **مفتئد** : على وزن مقتدر بصيغة اسم الفاعل هذا إذا افتعل الجبن والخوف واضطراب القلب ، وعلى صيغة اسم المفعول (مفتأد) بمعنى المضطرب القلب والجبان والخائف ، وتطلق على المشوي من اللحم وغير

ذلك قال النابغة :

كأنه خارجًا من جنب صفحته   سفود شرب نسوه عند مفتأد

* **وجل** : (بكسر الجيم) صيغة مبالغة على وزن فَعِل مثل حَذِر هو الخائف الشديد الخوف ، وفعله وجل يوجل من باب علم . وجاء في الأثر الصحيح « موعظة وجلت منها القلوب » .

وفي الشعر من لامية الطغرائي :

غير هياب ولا وجل

والوجل (بفتح الجيم) المصدر ، وهو الخوف ويجمع على أوجال ومن الشواهد :

في قلبه وجل ، وفي قلوبهم أوجال

وأما الوجل (بكسر الجيم) من صيغ المبالغة فيجمع جمع مذكر سالمًا فتقول : (هم وجلون) ..

* **سمار** : بضم السين وفتح الميم المشددة ثم ألف وراء ، على وزن (جمار)بضم الجيم . والسمار هم المتسامرون ـ والمسامرة هي المحادثة ليلًا . وصفة السمار اسم جمع مثل حاج وحجاج ـ قال عمر بن أبي ربيعة :

حي طيفًا من الأحبة زارا   بعدما صرع الكرى السمارا

* **جرذ** : (بضم الجيم وفتح الراء ثم الذال) ، جمعه : جرذان (بكسر الجيم وتسكين الراء) نوع من الفئران ، قالت العرب في دعائها : أكثر الله من فئران بيته ، يعني أعطاه الله خيرًا كثيرًا .

* **نفر** : (بفتح النون والفاء ثم الراء) ، عدة رجال وهم من الثلاثة إلى العشرة وفي القرآن ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن : من الآية١] وإذا زاد القوم على العشرة فلا يقال لهم (نفر) ولهذا تقول : رأيت ثلاثة أنفار وثلاثة نفر ـ وتطلق العرب كلمة النفر على رهط الرجل وعشيرته .. قال امرؤ القيس :

فهو لا تنمي رميته ماله لا عد من نفره

* **ثلة** : (بضم الثاء وفتح اللام المشددة ثم التاء المربوطة) : الجماعة من الناس (ثلة من الأولين) الواقعة ، وإذا فتحت الثاء فمعناها الجماعة من الغنم وقالت العرب : فلان لا يفرق بين الثلة والثلة ، والفعل ثل ثلًا على وزن مل ملًا بمعنى هدم وزال ، قال زهير في غير المعلقة :

ركتما الأحلاف قد ثل عرشها

* **بيت شُرْبة** : (بضم الشين وتسكين الراء وفتح الباء ثم التاء المربوطة) : لقب أسرة كانت تسكن في مواجهة دارنا بباب الدريبة ، وعميدة هذه الدار كانت المرحومة خديجة شربة وقد انقرضت هذه الأسرة نهائيًا ، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها .. وآخر من مات من هذه الأسرة المرحوم الشيخ سالم شربة المؤذن بمنائر المسجد الحرام صاحب الصوت الجهوري الذي يشدو ويصدح ويطرب . وبعد موته بأيام انهدم البيت وظل خرابة إلى أن اشتراه المرحوم أحمد بوقري وأخيرًا دخل في المشروع ـ مشروع التوسعة ..

وأصل هذه المرأة من بيت الفتيانة وقريبها المرحوم عبد اللطيف فتيانة ، أحد مشايخ الجاوى بحارة الباب ، ومن مشاهير مكة المكرمة . وقد مات منذ ثلاثين

عامًا أو أكثر ثم لحقته بنته المرحومة جواهر ، ومن بعدهم مات عبدهم المعتوق مبروك وبموتهم انقرضت أسرة حارة الباب .

ولقب (شربة) جاءها من الحارة بسبب كثرة صدقاتها وضيوفها ، وكانت برزة صالحة ومن فضليات النساء وتصلح بين النساء وتؤوي الأيتام والأرامل في بيتها وتواسي الفقراء .. وأعرف حق اليقين أنها كانت تعطف على العديد من النساء المنقطعات وقد خصصت لهن طابقين من بيتها الكبير ، حيث آوتهن مجانًا مع أطفالهن وعلاوة على ذلك تقدم لهن الطعام والكساء ، وكان بيتها له زجل من كثرة من يسكنه . وأعتقت في حياتها عبيدها وإماءها ، وأسكنتهم معها ، وزوجتهم وتولت تربية أطفالهم . ومن مواليها المرحوم سالم ـ ومن الجواري سلوى وزبيدة من الحبشيات ومن الجراكسة شمسية ـ رحمها الله ـ ودارها المشار إليها كان يطلق عليه (الملجأ) و(دار الحسان) ، فاعتبروا يا أولي الأبصار وكونوا خلف صدق لسلفكم الصالح وكونوا مثالًا يحتذى ، كما عمل أسلافكم من قبل .

وليس عهد خديجة شربة بالبعيد إذ لم يمض على وفاتها أكثر من نصف قرن ولكن ما من بيت في مكة إلا ويتغنى بأعمالها الصالحة ، ومكارمها الباقية . ولا تظنوا أنها كانت من ذوي المال ، دخلها كان من ريع المشيخة ، وكان المرحوم عبد اللطيف يبعث لها بنصيبها مناصفة وليس لها أي دخل آخر ولكنها كانت تنفقه في سبيل الله ـ رحمها الله .

عنوان عدم الفلاح في الدراسة ونتائجها

هذا ولقد استفدت نوعًا ما من الدراسة بسبب انقطاع توصيل الطلبات إذ

رب ضارة نافعة، غير أن ما فات من السنة من حصص فاتني بسبب الإرساليات وخدمات البيت والضيوف خاصة لما قرب الامتحان وقد فات الأوان على المذاكرة إذ أضرّ بذلك بسير دراستي فصرت كالوله الحيران الآسف الندمان، فكرست كل فراغي للمذاكرة غير أنهم لم يفلتوني من خدمة السامرين ضيوف الليل وزوار الأصيل، فرسبت في الاختبار وتعرضت للعقاب والسخط وكانت العقوبة كالآتي :

أولًا : علقة من العم في المدرسة بسبب الرسوب مع أنه كان السبب بسبب مصالحه وإحضار طلباته السوقية والبيتية وخدمة أصحابه وأصهاره ... وكانت علقة هائلة مبرحة .

ثانيًا : علقة من الوالد عندما سمع بالسقوط ويا لها من علقة ساخنة طاحنة .

ثالثًا : حرماني من المرضع ومن زيارتها نهائيًا إذ تصوروا أن الرسوب لم يكن إلا بسببها وبالتردد عليها كل أسبوع وقضاء يوم وليلة عندها . وكنت أظن أنهم مازحون في أول الأمر ولكن لما جاء يوم الخميس واستأذنت كعادتي لزيارتها منعت وزجرت وكم توسلت وتضرعت ورجوت العمات والقرابات، ولكن :

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

وكم خميس وخميس ذهب فلا خميس ولا أحد، وكم عددت أيامًا حتى ضجرت من العدد فلقد ذهبت أخمسة كثيرة وازدادت الحيرة وضاعت البصيرة وكدت أذوب حزنًا من هذا الحرمان الذي ما أنزل الله به من سلطان .

رابعًا : ومما زاد الطين بلة ـ خطبة عمتي الصغيرة وخروجها من باب الدريبة إلى بيت بعلها المرحوم عمر فقيه بالقشاشية، مطوف الأتراك وأحد أئمة

الشافعية ، وهذه العمة كانت الأم الثانية بعد المرضع إذ كانت تعطف علي وتسليني وتخفف عني آلام الغربة وتساعدني بكل مستطاع .

خامسًا : وفاة الجدة الكبيرة عمة العمات شقيقة جدنا المرحوم عبد المعطي مرداد . وكانت ثالثتنا في المجلس منامًا وإقامة .

الوحدة

انفردت بذلك المجلس المشئوم وتوحدت ، ويكفي ما في الوحدة من عذاب وضرر وحزن وشقاء كما جاء في الأثر الصحيح .

بدأت أتخيل وأوسوس وأبكي تارة ، حتى يبتل الفراش ، ولا أحد يعلم بذلك إلا الله .. مضى شهران على حرماني من الأم المرضع فسألت العمة الكبرى عنها فقالت : إنها سافرت ورجعت إلى زيمتها . وإياك أن تسأل عنها مرة ثانية . فتأسفت لهذه الإجابة عن صحة هذه الأخبار ، ولكنني كنت موقنًا في قرارة نفسي بأن هذه الوالدة الشفوق الرؤوم لا يمكن أن تسافر بدون ولدها الذي يحبها وتحبه .

سوء الظن

وظننت ظنًا سيئًا أنهم لا شك منعوها وأنذروها وهددوها ، وكان الظن في محله في المستقبل .

أما أنها سافرت بدون علم فلا ، هكذا تصورت وأيقنت وجزمت ، وطال ليلي وكثرت الوساوس ، وطار النوم ، وأصابني الغم والجزع . حتى أصبحت ذات يوم عييًا أتهته في الكلام وأردد الحرف الأول من الكلمة مرارًا وتكرارًا

حتى تخرج الكلمة متعتعة وحتى عرضوني على طبيب روحاني يقرأ وينفخ، والشافي هو الله.

المغامرة الكبرى

ودخل العام الواحد والأربعون وأنا في التاسعة من العمر وعلى أبواب العاشرة وما زلت في مدرسة الخياط بالمسعى وما زلت معذبًا بخدمة الليل وسجن النهار، أذهب إلى المدرسة في حراسة مشددة مع العم جمال وأرجع كذلك، ولا أحد بالدار يسليني ويفرج عني بعض ما أنا فيه، وزادت علي الوساوس وبخاصة بعد موت الجدة وزواج العمة الصغرى التي كانت تتعاطف معي، ثم الحرمان من رؤية المرضع أو زيارتها، ومن رؤية الوالدة الحقيقية والإخوة والوالد. كل هذه المسببات كانت الحافز والسبب الذي جعلني أفكر في مغامرة كبيرة فإما نجاح إلى الأبد وإما موت وخروج من الوطن إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم.. ولكن كيف الفرار؟ وأنا محاط بحصون وأسوار وليس أمامي إلا الحديد والنار، إذا أنا صارحت قومي بخطتي!

فكرت مليًا ونبذت التسرع وألقيته ورائي ظهريًا وساعدتني المقادير تدريجيًا وعلى مراحل، وقبل كل شيء النقود فهي عصب المغامرة ونجاحها إذ بدونها لا ينفع التنفيذ فأبوء بالفشل وسوء المصير لا سمح الله.

المرحلة الأولى

أفرغت ما في جوف الحصالة حافظة النقود فوجدت التفاريق من النيكل والقطع الفضية مبلغًا لا بأس به، فأردت تجميد القروش وتحويلها إلى أرباع

مجيدية كي يتسنى لي حفظها وصيانتها بصورة تمكنني من اصطحابها في أي وقت أتمكن فيه من الهرب إذا سنحت الفرصة . وشاء القدر ، لكنني لا أستطيع تحويلها دفعة واحدة حتى لا أفتضح ، فصرت آخذ كل يوم عشرة قروش وأحولها إلى ربعي ريال مجيدي وذلك في أثناء نزولنا في الفسحة بالمدرسة أبدلها عند صاحب بقالة المدرسة . حتى إذا ما وصلت الدار أحفر وراء الحصير في الأرض ثم أدفن فيها الربعين ، وهكذا يوميًا إلى أن انتهت ، ولم يبق سوى سبعة قروش ذات النقش الأسود ، أدخلتها في الحصالة حتى أضيع الشبهة فيما لو مسحها أحد يجدها تشن وترن .

وذات ليلة وبالطبع ما كان هناك غيري بالمجلس ، أرقت وطار النوم من عيني لوفاة الجدة وذهاب العمة ، وكانت الغرفة مظلمة والعمات قد نمن في مجالسهن وخمدت الأصوات ، فقمت ورفعت الحصير ونبشت التراب وكانت أرضية الغرفة كلها مفروشة بالتراب في ذلك الوقت ولا أحد يستعمل البلاط إلا في الموضأ ، وأنا أنبش وأرتعش خوفًا من العقارب ولكن الله سلم وقد أخرجت الأرباع كلها وأعدت الحصير ثم عددت الأرباع كلها فوجدتها أربعين ربعًا .. غسلتها من التراب ومسحتها ثم لففتها في ورقة وبرمتها برمًا محكمًا ثم وضعتها في قطعة من القماش وحزمت عليها بخيط قوي حتى صارت في شكل إصبع الموز شكلًا وحجمًا ووزنًا ، ثم برمتها في برمة السروال بحيث لا يشعر برؤيتها أحد حتى لو مس السروال في موضع شد الهميان فإنه لا يدرك كائن من كان وجود نقود في هذه المواضع الحساسة ، هذه الأرباع الأربعون تكون جنيهين من الذهب ، ولو كنت غير مراقب أو كان لدي حرية الذهاب إلى السوق لأبدلتها ذهبًا عينًا ولكانت أخف وزنًا وسترا لكنني

محجوب عن الأسواق ومحاصر من كل الجهات .

وهذه النقود كانت السلاح الأول الذي تمكنت من حفظه بين جنبي لأدافع به عند الشدائد والنوائب خاصة أمامي مستقبل مظلم لا يعلم حقيقته إلا الله ، وهذه النقود بالنسبة لذلك الوقت شيء عظيم إذ يتمكن الإنسان بها أن يفعل الأفاعيل ، فهي رأس مال لا يستهان به ، وفعلا غطت الشيء الكثير من الاحتياجات حينما توغلت في الأخطار .

المرحلة الثانية

جاء من عند الله ما كنت أتمناه حتى أبعد عن البيت الذي يعتبر سجنًا وقيدًا وغولا ـ ذلك أن البيت (طرق) فجأة ـ وكلمة طرق (بفتح الطاء والراء المشددة المفتوحة ثم القاف) معناها عند عامة مكة أنه أظهر صوتًا ينبئ بالخطر والانهيار .. وجاء الطرق في رابعة النهار وكان يوم جمعة والعم موجود والسيد المالكي وبعض الزائرين .

وفي الحال نادى العم أحد الجيران وهو من كبار المعلمين لكنه هرم قد تجاوز التسعين ، فجاء بهراوته وطلب مصباحًا وصار يدور على الأدوار والمجالس حتى اهتدى إلى الشروخ والبعجات ، وكانت في المؤخر الذي يطل على باب الدريبة من جهة المسجد مباشرة ، فطلب التقريع حالا ووقف بهراوته يمنع الناس من دخول المسجد من تلك الجهة ويحولهم إلى باب السليمانية من جهة « كتب خانة » حتى جاءوا إليه بالحبال الشامية الغليظة فشدها على الدار حيث ضرب عودًا من القندل الفاخر في جدار مدرسة خوقير ، وعودًا آخر في بيت المغربي المجاور لبيت العمدة ثم ربط الحبال وشبكها في بعضها وجاء بعامل يمنع الناس من المرور .

التقريع والمعلم

التقريع هو المنع في اصطلاح العامة بمكة المكرمة من قبل الحكومة وسيأتي تفسيرها فيما بعد .. والمعلم هو الذي يكشف على الخراب ويقوم بالبناء ويرشد البنائين إلى البناء القوي المحكم، ويرسم لهم الخرائط ويراقبهم عند رص الأحجار والطوب والقيام بهندسة الجدران والعمدان وما إلى ذلك وسيأتي فيما بعد شرح التقريع والإصلاح .

كان هذا المعلم مسنًا يبلغ التسعين ولكنه قوي حاذق ويدعى (شرشيرة) بفتح الشين وتسكين الراء وكسر الشين الثانية مع الياء والراء المفتوحة والتاء المربوطة . وقد مات رحمه الله في الأربعينات ولم يعقب، وانقرضت هذه الأسرة نهائيًا من مكة وسبحان من له الدوام .

إصدار الأوامر

وفي الحال أصدر هذا المعلم الكبير أمره للعم بإخلاء الدار وإخراج من وما فيها من أنفس وأمتعة . وكان ذلك اليوم يوم الجمعة . وهذه الدار كان قد بناها الجد الأول (رحمه الله) قبل مائة وخمسين عامًا وقد كان الخراب في مؤخر الدار ولكن الهدم عمومي .

أم المكارم

جن جنون العم والعمات، إلى أين يذهبون بجموعهم وأمتعتهم ؟ ومن أين يأتون بنقود لمواجهة هذه الحادثة الأليمة التي هاجمتهم فجأة ومن غير سابق

إنذار؟ وقد عميت بصائرهم وضاقت حيلتهم لدرجة أنهم ذهلوا وغاب رشدهم .

أما بالنسبة لي فأطلب من الله العفو والصفح إذ كانت هذه المصيبة بردًا وسلامًا علي ، وقلت في نفسي : الحمد لله ، الليلة سأنام هادئًا وبعيدًا عن الوساوس والأوهام والكابوس الذي يفزعني كل ليلة بسبب الوحدة والتخيلات والرعب . ولو أنام في الخلاء ما يهمني أبدًا ؛ لأني سجين وحبيس ذلك المجلس المظلم وذلك البيت الذي أكرهه والذي لا أدري كيف أصفه وأنعته .

لقد انحلت عقدة ثانية من الحصار المضروب علي ؛ لأني سأتمكن من الفرار واللحاق بالمرضع الرؤوم عند الانتقال والتحويل وبصورة خاصة إذا كان الانتقال إلى جهة بعيدة .

إني كنت أتظاهر بالحزن مثلهم ولكنني أكتم الفرح في قلبي حتى إذا ما دخلت الموضأ أو بيت الخلاء أنفجر ضاحكا وراقصًا وهم في شغل من جراء ما دهمهم وأحاط بهم .

العم وصديقه المالكي ، ذهبا إلى بيوت كثيرة من بيوت الأقارب والأباعد فلم يجدا موضعًا ولا مجلسًا ولا مقعدًا ، وكانت مكة في ذلك الوقت خالية من الفنادق على الإطلاق وكان المفروض أن نبيت في تلك الليلة في الشارع خوفًا من الخطر والحذر .

رجع العم بخفي حنين ، وقال للعمات : ماذا أصنع؟ ضاقت الدنيا في وجهي ، ولأول مرة في حياتي أرى عمي يبكي وينتفض كما ينتفض العصفور عندما يبلله القطر .

لقد تبدلت فرحتي بغم شديد ، حينما شاهدت ذلك المنظر الرهيب وعز

علي ذلك الموقف العصيب ، إذ من الجبن والحماقة أن أظل شامتًا فرحًا مهما ظلمت ومهما عذبت . وبدرت مني بادرة وقلت لهم لماذا لا نذهب إلى أمي المرضع بالمعابدة ونأخذ أمتعتنا ونظل عندها إلى أن يبنى المنزل فقال العم : وأين هي؟ ألم تعلم بأنها قد سافرت؟ فعلمت حينذاك أنها قد سافرت حقًا، ثم قال السيد المالكي : «كل يغني على ليلاه» . وقالت إحدى العمات : «الناس في الناس والعنز في النفاس» ، وكلا المثلين من كلام العامة في مكة يأتي شرحهما في المفردات . وأخيرًا وليس آخرًا قالت إحدى العمات : لماذا لا نخبر جارتنا سيدتنا خديجة شربة فلربما تدلنا على حل؟ فقال العم : جربي ، فوقفت على النافذة وصفقت لها فأطلت حالا وقالت : خيرًا إن شاء الله ، فشرحت لها العمة الموقف المفاجئ فأجابت أم المحسنين على الفور بما يأتي :

١ ـ ائتوني بأمتعتكم وجميع ما تحتاجونه من أثاث وفرش وتفضلوا حالًا .

٢ ـ أنتم ضيوفي من الآن إلى أن تنتهي عمارتكم وغداؤكم الآن على النار .

٣ ـ سأبعث لكم الآن سالم شربة ـ وهو أحد مواليها ـ سأبعثه ليقوم بالمهمة ويتولى كل شيء .

ولم يكد العم يسمع هذا الحديث حتى تهلل وجهه فرحًا . وخرج في الحال مع إحدى العمات وذهب إليها ليطمئن ، ولكن العم سالم شربة سبقه وبرفقته بعض الخدم ، وقال للعم : اذهب إلى سيدتي مع سيداتي . ويقصد بذلك عماتي وأعطني مفاتيح الدار لجميع الغرف ، فسلمه المفاتيح ، وذهبنا جميعًا إلى الجارة الكريمة .

أم المكارم الجارة الفاضلة السيدة « خديجة شربة »

فوجدناها في انتظارنا على أحر من الجمر ، وما أن وقع بصرها علينا حتى رحبت واستقبلت وأقسمت أنا سنكون ضيوفها إلى أن تنتهي العمارة .. هذه هي أم الفضل والمكارم وسيدة النساء في عصرها .. إنها لم تكتف بذلك القدر من الكرم ، بل نادت مواليها من الإماء اللائي أنعمت عليهن بالعتق ولكنهن لم يفارقنها ـ وكن أربعا ـ وكل واحدة لها مجلس خاص : وأسماء الجواري هي : شمسية الجركسية ، ونجمة الحبشية ، وزبيدة البلوشية ، وأم المرحوم ذي الصوت الرخيم والقلب الرحيم المؤذن بمنائر مسجد الله الحرام الشيخ سالم شربة واسمها سلوى ، وقالت لهن : هؤلاء ضيوفي وجيراني ، وصار عليهم أمر الله ، وأحب أن تنضممن كلكن في مجلس واحد ما عدا أم سالم ؛ لأنها تنام مع ولدها وهو شاب . ولا يمكن أن تكن كلكن في مجلس واحد وقت النوم ، على الرغم من زهده وعقله ودينه ومروءته ، ولكن بناء على تنفيذ كلام الله وما جاء على لسان نبيه ﷺ بتحريم الاختلاط والخلوة . ثم قالت لهن : وهذه إجراءات مؤقتة ريثما تنتهي عمارتهم ويرجعون بسلامة الله إلى بيتهم ، ثم قالت : ارفعن فرشكن في صفة من المجالس ، والضيوف سيأتين بزلهن وبسطهن فساعدنهن على الكنس والغسل والطبخ . ثم نادت العم المرحوم . وقالت له : لك مجلس كبير مغلق في الدور الأول مفروش ، هذا لضيوفك وكأنك في بيتك وليس بجانبك ما يزعجك من نساء أو أطفال ثم قالت : ومن جهة مصاريف العمارة فلا تفكر فيها ، خذ ما بدا لك من الجنيه إلى المائة ، وإذا أجرتم في الموسم ، ردوا علي ما أخذتم وإذا لم تؤجروا فنظرة إلى ميسرة .

إيجار الموسم

وكان معظم الناس في مكة يسترزقون ويتعايشون ويدخرون من إيجار الموسم على حجاج بيت الله الحرام وخاصة المدارس والبيوت التي هي حول الحرم. وبخاصة إخواننا الإندونيسيون فإنهم كانوا يصلون إلى جدة من جمادى الأولى على متون البواخر ويمكثون بمكة ستة أشهر. وكنا نؤجر مجلسين على مشايخ الجاويين بسبعين جنيهًا ذهبًا ثم نصعد إلى المجالس العلوية والمبنيات؛ حتى ينتهي الموسم.

وخديجة شربة كانت تفعل الشيء نفسه فكان عندها أربعة أطباق، وفي كل طبق ثلاثة مجالس، والمجلس يوازي مجلسين من مجالسنا، وفي الوقت نفسه لا يسكن بيتها إلا حجاجها وحجاج أخيها وقريبها المرحوم عبد اللطيف فتيانة حيث السؤال باسمه والمصلحة مشتركة. كما أن حجاج الفتيانة وسراوك والفلبين هؤلاء لا يأتون إلا في رمضان أو بعده.. ثم يأتيها إيراد الموسم من قريبها ويتراوح ما بين ألف إلى ستمائة جنيه، وكان الحاج الجاوي يدفع للشيخ ما يقارب عشرين جنيهًا ذهبًا أجرة الاستقبال وضيافة اليوم الأول وضيافة عرفة ومنى وهذا مقرر ومحتم ويتسلمه الشيخ من شيخ المشايخ عن طريق الحكومة.

فكان معظم أهل مكة، إن لم يكن كلهم، يعتمدون على الله ثم على هذا الريع العظيم الذي يدفعه الحجاج إليهم سنويًا. فكانوا ينفقون على أنفسهم وذويهم من هذه المصالح، ومع ذلك يوفرون مبلغًا كبيرًا يسمونه (الاحتياطي) وكان الحب يأتيهم من تركيا ومصر من أوقاف الحرمين مجانًا إذ كل أسرة لها نصيب من هذه الحنطة بما يكفيها قوت العام. والباقي يباع في الأسواق ـ

وكان الخير كثيرًا والرخاء عظيمًا والحجاج يأتون بأموال عظيمة ينفقونها على أهل الحرمين وعلى أنفسهم .

محاسن المصادفات

من محاسن الصدف أن الهدم جاء في الوقت المناسب في أول ربيع الأول من ذلك العام المشار إليه قبلًا فلا غضاضة إذن ولا مضرة على الطرفين ، ولو جاءت النكبة في معمعة الموسم لكانت خطيرة وحرجة ولكن الله الكريم لا يجمع بين عسرين .

أول ليلة

وما جاء المساء من ذلك اليوم حتى تم نقل جميع ما في بيتنا المحطم المحكوم عليه بالإعدام ، وقد خصصت المرحومة خديجة للعم مقعدًا خاصًا فسيحًا وأمرت جواريها بتنسيقه وترتيبه وتنظيمه . ثم نفذ الجواري أمرها السابق حيث انضممن إلى بعضهن وفرشن مجالسهن لنا وما نقص من عندنا أتمته أم المحسنين من عندها ، بحيث أصبح كل مجلس من المجالس التي سلمها إلينا يساوي مجلس عروس لليلتها الأولى من عرسها ، حتى الفرش التي فرشت لنا (والكلل) : الناموسيات رش عليها ماء الورد والزهر فهل بعد هذا من معروف ؟ وهل هذا إلا الكرم الحاتمي بعينه؟ ثم هل هذه أحلام أم حقيقة ؟ !

الجواري يتفانين في الخدمة ، والسيدة الفضلى تنفق وتطلب أن نتمنى عليها وتقسم أيمانًا أن لا ندفع درهمًا واحدًا لشراء أي شيء وأن لا يدخل العمات المطابخ وألا يكنسن ولا يغسلن ملابس ولا ولا ..

والعم محظور عليه أن يصرف قرشًا واحدًا حتى تنتهي العمارة ونتحول إلى دارنا وأنا أقول : (دارنا) مجاملة وإلا فإني أكرهها وأتمنى أن تكون دائمًا خربة نظرًا لتعذيبي فيها وإهانة أمي الرضيع وأمي الحقيقية التي بارحتها مكرهة وأقول هذا بالنسبة لسني في ذلك الوقت حسب ما أتصوره وأتخيله وأستغفر الله .

أنا هارون الرشيد

أما بالنسبة لي وما نلته في هذه الدار من كرم ضيافة وحسن عناية فشيء كثير جدًا .. ولقد صدق الرب العظيم ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح ٦، ٥] فلقد بدلت النقمة بالنعمة ، والسيئة بالحسنة ، والشنآن بالحب والحنان ، ودوام الحال من المحال . ولقد سمعت بأذني وأنا في الموضأ أم المحسنين شربة ـ رحمها الله ـ وهي تقول لعمي وعماتي تقول لهم : «أنتم جيراني وأحبائي وأنتم الآن أضيافي وأنا وأنتم ستر وغطاء» وهذه كلمة لا تقولها إلا العامة في مكة وهي من البلاغة والفصاحة بمكان . ثم قالت : هذا الطفل المعذب فيكم المبعد عن الأم والأب والأم المرضع وباديته التي عاش فيها وترعرع ، هذا الولد الذي ذاق العذاب بألوانه وأشكاله منكم وعندكم هو الآن ملك هذه الدار ، هو المتصرف الآمر الناهي ، فلا ينهره منكم أحد ولا يمدن عليه منكم أحد يده . فهو الآن سيد عليّ وعلى جواريّ وقد وهبت له كل حبي وعطفي وحناني .

ولقد تثاقلت في الموضأ ؛ لأسمع هذه الكلمات العذبة حتى تنتهي وكأن ليلة القدر تناجيني من السماء بقرب الفرج وكشف البأساء والضراء .

ثم قالت : أنا لا ألومكم في طبائعكم التي ربما ورثتموها من الآباء

والأجداد ، ولكن ألومكم على أسلوبكم التربوي فما كان لأحد من قبلكم أن يقوم بهذا الدور من التربية الشاذة ، حتى ولا جن سليمان ، فإنهم لو قست عليهم عصاه بأكثر من اللازم لفروا ولولوا عنه مدبرين .

وهكذا ظلت الكريمة الشمطاء ، والبرزة الحسناء ، والمتكلمة العذراء ، تلقي على العم والعمات دروسًا في التربية بأسلوب ديمقراطي عجيب ومنطق عذب رقيق . وكانوا كلهم آذانًا صاغية وقلوبًا واعية وعيونًا شاخصةً فمكثت في الموضأ حتى استتمت حديثها ، ومحضتهم نصحًا فامتثلوا أمرها ولبوا طلبها ، ما عدا معارضة العم بجملة صغيرة وهي : إننا نخاف أن يهرب كما فعلها من قبل إن نحن أرخينا له العنان ، وألقينا حبله على الغارب ! فقالت : هذه مطالبي بالنسبة للداخل . أما في الخارج فافعلوا ما بدا لكم خذوه إلى المدرسة وارجعوه كما كنتم تفعلون ، وما إخاله أن يفعل إذا وجد الراحة والاطمئنان والاستقرار والسلوان ، فأذعنوا لها ووعدوها : ولقد أنجز حُرٌ ما وعد .

ويا ليت كل النساء كمثل هذي ، ويا ليتنا قضينا بقية العمر معها ، ولكن لكل شيء أجل .

الفراش الوثير

خرجت من الموضأ وتجاهلت ما سمعت وذهبت إلى نافذة أطل منها على بيتنا الذي أصبح خاويًا ، ومظلمًا خاليًا ، إلا من القطط والفئران والحمام والغربان ، وظللت على حالي حتى نادى مناديها : « العشاء العشاء » . وما كنا قبلها نتعشى إلا في الزيمة بالفاكهة والألبان ، فأعرضنا عنه واعتذر العم والعمات وقلن : ليس من عادتنا العشاء ليلًا فأصرت وأزمعت وقالت : أنتم

الآن في حكمي وتحت أمري فانتشرنا على المائدة الكريمة وتناولنا مما لذ وطاب ، واحتسينا اللبن والشراب ، وأعني بالشراب عصير الفواكه والبرتقال !

ثم نادتني السيدة الطروب وقادتني إلى صفة بجانب مجلس كبير وإذا بفراش وثير وغطاء حرير وكله (ناموسية) بيضاء ناصعة البياض وقالت : هنا تنام في أمان الله إذا ما داعب الكرى جفونك ، وغالب النعاس عيونك .

فتقدمت بالشكر الذي لا أعرف صياغته آنذاك بسبب ما أصاب لساني الصغير من تأتأة وتهتهة ، فعذرتني وهي عارفة ما أنا فيه من عقد وكرب . ثم قادتني الهوينى إلى مجلسها الكبير وكان في انتظارها جواريها مع سرب من النسوة ، فقمن لها احترامًا وإجلالًا ، وانتظرنها حتى جلست ، وأقعدتني بجانبها ثم جلسن ثم بعثت بإحدى الجواري لإحضار العمات من مجلسهن ، فحضرن فأقعدتهن بجانبها وحيتهن من جديد ، وهشت وبشت في وجوههن ثم ربتت على كتفي وقالت : ماذا تريد ؟ حكايات وأقاصيص كما كانت عمتك الصغرى تفعله معك ؟ أم تحب السماع ؟ فقلت لها : من هذا وذاك ..

فقصت علي قصة صغيرة جميلة ثم قالت للنسوة : هذا ضيفكم الصغير أكرموه بالحكايات كل ليلة حتى ينام . والتفتت إلي قائلة انظر إلى أمهاتك ، هؤلاء كلهن أمهات لك ، وستلقى منهن ما يسرك مدة وجودك عندنا ..

طـرب وطـبـول

ثم صفقت بيديها وأشارت بعينها فنهض بعض من في المجلس ، وأحضرن آلات الطرب من طبل وربابة وعود وصنج ، وبدأت السيدة الكريمة فغنت أنشودة ولحنتها ونمقتها ثم أعادتها وكررتها حتى رددها من كان يجيد الصناعة

ويقدم أجمل البضاعة واشتركت الآلات كلها حتى اصطخب المجلس وقدمت كل مغنية لحنها وضربته على الأوتار، وكانت ليلة حافلة رائعة وكنت أظنها إكرامًا لنا بسبب نزولنا عليها ضيوفًا ولكنها كانت عادة من عاداتها منذ نشأتها كما أعلمتني فيما بعد بعض العمات ..

نوم هانئ

ولما رأت السيدة الكريمة ما داعب عيني من نعاس، أشارت إلى سيدة حسناء، فجاءت وأخذتني إلى مضجعي فنمت إلى الصباح، وما كنت أعرف النوم قبل هذه الليلة فحمدت الله على ما أولاني من نعم، وما صرف عني من آلام ونقم.

وما إن نهضت في الصباح حتى نهضت واحدة من النساء اللائي كن نائمات بالمجلس المجاور للصفة التي كنت نائمًا بها، وكأنها على موعد معي في الاستيقاظ، ثم صحبتني إلى الموضأ حيث ملأت الإبريق وانتظرتني حتى أتممت الوضوء، ثم أخذتني إلى المجلس الكبير الذي كانت به نائمة، ثم مدت إلي سجادة الصلاة وقالت: صل، ثم انتظرني ريثما أعود إليك فصليت وجلست على السجادة أرقب ماذا عسى أن تصنع هذه الحسناء بي، وتحيرت ودهشت من اهتمامها بي، ولماذا هذا الاعتناء؟

توضأت وصليت وجاءتني تسأل: ماذا تريد أن تفطر؟

شيء عجيب وغريب ومدهش - قلت في نفسي: ومن أنا يا ترى حتى أستحق هذا التقدير ولكن سرعان ما أجبتها بأني سأفطر مما تفطرون منه ولا أتناول الإفطار إلا معكم وعلى مائدة واحدة، فقالت: لا يا شاطر! أنت

ستذهب مع عمك ، ومن الليل سألنا عماتك فقلن : إن عمك سيفطر منفردًا وأنت كذلك .

أما نحن فلا نفطر إلا إذا استيقظ جميع من بالدار وعماتك معنا ، وهذا لا يتم إلا في الضحى عندما تكون سيدتنا الكبيرة ـ وتقصد بها خديجة شربة ـ على المائدة .

قلت : حسنًا ، أعطيني أية حاجة . قالت مرحبًا .

ذهبت وغابت عني قيد عشر دقائق حتى ظننتها غير صادقة فيما قالت ، وهممت بالنزول ، ولكنها حضرت وأحضرت معها صينية فيها ثلاثة أطباق صغار بهن جبن ومربى وزيتون وخبز ، فأفطرت ونزلت مسرعًا إلى عمي لأذهب معه إلى المدرسة .

يوم عطلة واكتشاف

ولكنه اعتذر قائلا : الآن سأذهب إلى المعلم شرشيرة لأدفع إليه قيمة (المونة) ليباشر الهدم ويأتي بالبنائين ، اصعد واحفظ واجباتك . وغدًا إن شاء الله نذهب . قلت له : ولماذا لا أذهب إلى المدرسة بنفسي من غير أن يذهب معي أحد ؟ فقال : اسكت إني لا أثق فيك تريد أن تهرب ، وهم بضربي ، وقلت في نفسي : لقد قرأ العم ما في قلبي ؛ لأن سلاحي في وسطي (وأقصد بالسلاح الدراهم التي جاء ذكرها قبل ذلك ، وهي التي أشرت إليها بعصب المغامرة) .

ثم تلكأت في الدرج وتثاقلت وتباطأت وجعلت أفكر ـ يا هل ترى أنتظر حتى يخرج فأقوم بتنفيذ المؤامرة أم أصبر حتى تنتهي العمارة ؟ ومن يدري متى تنتهي ؟ لعلها تأخذ وقتًا طويلًا يستغرق شهورًا كثيرة ، وفي ذلك راحة تامة لي

من كل ناحية؛ لأن العبء الثقيل من الخدمات قد أزيل عني، والعم في مجلسه بعيد، وضيوفه هربوا؛ لأنه صار ضيفًا على السيدة الكريمة التي فرجت كربته وحتى لو جاءه سائل أو عابر سبيل لذهب به إلى العمارة حيث يسقيه من شاي المعلمين. والعمات اثنتان: الكبرى صاحبة المطبخ انشغلت بالسيدات من العجائز وبالمشاورات التي تتعلق بأمور الطباخة والطهو؛ لأنها حلت ببيت مضياف، والمرء حيث يهوى. وأما الوسطى فستذهب إلى صديقاتها وهن كثيرات. حتى لما كانت بالدار كانت تبيت عند أخواتها وبيوت أخوالها، ولا تأتي إلا نادرًا، وفي الوقت نفسه عندي ضمان من صاحبة الدار السيدة خديجة فإنها قالت بالأمس لعمي وعماتي وأنا أسمعها من وراء جدر: إياكم وضرب هذا الصغير المعذب أو إغضابه ما دمتم عندي ضيوفًا.

تبقى عندي مسالة المرضع فهي الشغل الشاغل بالنسبة لي، وأعلم علم اليقين أنها سافرت ورجعت إلى ديارها، ولكنني لم أكن لأتركها مهما يكلف الأمر، إنما أنتظر حتى تنتهي العمارة ونرجع إلى الدار، حينذاك أقوم بالمغامرة الكبرى، ثم قررت أن أكتشف هذه الدار الواسعة وهذه السيدة الكريمة وضيوفها من الحسان والأيتام والأرامل، وأكتشف مواردها وعبيدها وإماءها وغير ذلك.. كل هذه الهواجس والتخيلات في طريقي من المجلس السفلي إلى المجلس العلوي الذي كنت به نائمًا وآكلًا ولابسًا.

الاكتشاف الأول: المطلقات والمعلقات

وجدت الحسناء تكنس الصفة التي كنت نائمًا بها فاندهشت لما رأتني وقالت: لم رجعت؟ فقلت لها: اليوم إجازة بسبب العمارة..

ثم جلست في ركن من أركان الصفة حتى إذا ما انتهت من كنسها جاءت فجلست بجانبي وربتت على كتفي وقالت : ماذا تريد : قهوة أم شايًا ؟ قلت : لا شيء إنما أريد سؤالك عن بعض حاجات في نفسي ولكني خجل وأخاف أن تلوميني فقالت : اسأل ما بدا لك ، وما عليك من حرج ، وأنت كابني وأنا المسئولة عنك إلى المساء حسب ما أسند إلي ..

فازدادت دهشتي وقلت لها : لماذا ؟ ومن أنت ؟ ومن أولائكن النائمات في ذلك المجلس العريض الفسيح ؟ ومن في المجلس الآخر ؟ ولماذا أنت بالذات تقومين بتقديم العون لي من البارحة حتى هذه اللحظة ؟ ولماذا لا تقوم داتي فلانة أو داتي فلانة بهذه المهمة ؟

وداتي كلمة عامية دخيلة وهي بفتح الدال بعدها ألف وتاء مكسورة وياء ومعناها ما يقابل السيدة في الحرائر ويأتي شرحها فيما بعد .

فقالت : أنا مطلقة . فقلت لها : ما معنى مطلقة ؛ لأني ساذج بدائي في ذلك الوقت . فقالت : يعني كنت متزوجة برجل ورزقت منه بولد ، ثم طلقني وأخذ الولد بقوة ؛ لأن عمره سبع سنين . وأنا منقطعة وكانت لي جدة وكنت أسكن معها وماتت قبل طلاقي . فلجأت إلى أم المحسنين هذه السيدة الكريمة التي آوتني وأكرمتني . ولا تظن أني أنا الوحيدة المطلقة بل هذا المجلس الذي ترى النائمات فيه مخصص للمطلقات . والآن فيه تسع مطلقات بعضهن في حالة تربص ، والبعض الآخر قد أتممن عدتهن ، وذلك المجلس فيه أرامل فوق العشر وكلا المجلسين يشابه شاطئ البحر ، في المد والجزر . فتارة ينقص العدد بالتزاوج وتارة أخرى يزيد إذا حصل كساد في الطلب .

ثم قالت : إن السيدة الكريمة صاحبة هذه الدار موفقة لفعل الخير ، وتعلم حالكم ؛ لأنها جارتكم وهي التي وزعتنا لخدمتك وإكرامك بالذات جبرًا لخاطرنا إذ نجد فيك السلوان ، مما حل بنا من بؤس وحرمان ، وإن غربت الشمس هذا اليوم فستقوم بشئونك مطلقة أخرى وهكذا ثم تتسلمك الأرامل حتى تنتهي إذا ما انتهين منك رجعت إلينا من جديد ، وهكذا إلى أن تخرج من عندنا إلى بيتك إن شاء الله قرير العين . فقلت في ضميري : سبحان الذي سخر لنا هذا .. الخ ... ثم قالت : نحن اللائي طلبن من السيدة هذا الطلب . وأما الجواري فلسن محرومات من الولد ولا مطلقات ولا مترملات إنما هن في رغد من العيش وراحة تامة لا ينقصهن شيء ، ثم قالت : إن معنا في هذه الدار بعض المطلقات وأرتني واحدة منهن وقالت : إذا ضاقت بك المسالك والحيل فالجأ إلى هذه السيدة فإنها ستعينك وتجيرك ، ولولا أنها جارة لكم لقامت بأعمال بطولية نحوك ؛ لأنها تعلم حقائق الأمور وتكتم الأسرار وتحافظ على ود الجار ، وتخشى النقيصة والعار ، والله سبحانه وتعالى فرج كربتك بهدم الدار ، إنه السميع الكريم الجبار .

ألف ليلة وليلة

لقد شدني حديثها واستهواني وأزاح عن صدري كربة الغربة وعزاني ، وكشف لي من المغيبات والمجهولات ما أراحني وسلاني ، فاستزدتها وحضنتها وقبلتها وعظمتها وبجلتها ؛ فعانقتني وقبلتني وفاضت عينها بالدمع ، مما عرفت من حقائق سمعتها عني من السيدة الوقور .

ثم أخذتني إلى غرفة الأمانات وفتحت صندوقًا من الصناديق وقالت : هذا

صندوقي الخاص وفيه ملابسي ومصاغي وأسورتي ونقودي . ثم أخرجت صرة فيها ريالات وجنيهات وقروش وهللات فدفعت إلي ربعًا من الرشاديات ، وقالت في كل جمعة لك مثل هذا وأزيد . فكانت إذا دفعت إليّ ربعا من الريالات تشخط بالفحم على حائط الخارجة لتعرف عدد الأرباع عندما أخرج من الدار .

وأضافت : وإذا رجعت إلى دارك بعد التعمير فزرنا كل جمعة ولك مثل هذا وأكثر ، إذا كررت الزيارة ، ثم طافت بي على الدار ووقفتني على كل صغيرة وكبيرة .

لا شك أن هذا مكسب جديد قد أضيف إلى مكاسبي وعلم قد كسبته فزادت معلوماتي ونشطت تخيلاتي فقلت لها : أنا اليوم لا أريد منك حكايات ولا أقاصيص بل أفيضي علي من هذه الحقائق وزيديني من النصائح ، وهذه فرصة العمر إذ لا مدرسة اليوم ولا خروج من الدار وأنتِ كأمي التي حرمت منها ، فقالت : كلنا لك أمهات ، ثم طلبت منها أن تريني جميع غرف هذا البيت الكبير ومن يسكنه وما فيها من أثاث ورياش . وبالطبع هذا سؤال من الفضول والتطفل بمكان ، ولكن عندما رأيت أذنًا صاغية وعروضات شافية وأشكالًا وألوانًا من النسوة تاقت نفسي إلى معرفة كل شيء لأحيط بذلك علمًا ، وازداد معرفة وخبرة ، (وعند جهينة الخبز اليقين) ، وطبيعة الحال تقتضي ذلك خاصة لما علمت أن معظم السكان من البؤساء والمحرومين والمغتربين والمنقطعين ، وشبه الشيء منجذب إليه ، وإن الطيور على أشكالها تقع . ومن تلك الساعة دخلت في عداد سكان هذه الدار وعرفت أن البؤس ليس قاصرًا على طفل أو محروم بل يشمل كل الطبقات من بني آدم وأنه على أنواع

وأشكال كثيرة وأول ما سألتها عن المطلقات : من هن؟ فقالت : سر معي يا بني . ثم ألقت الحسناء علي محاضرة في البؤس والشقاء ووطدتني على الصبر وقالت لي الشيء الكثير عن هذا البيت وما حوى وعن رواده وزواره بما يفوق حكايات ألف ليلة وليلة لكنها حقائق وليست أوهاما ثم قالت لي عن المعلقات : إنهن فقدن أزواجهن في الحرب وتقصد بذلك حرب النهضة وحرب تربة ..

وأول ما أرتني غرفة التجهيز أو الجهاز أو الدبش ، بلغة عامة مكة ، وسيأتي تفسير الكلمات فيما بعد .. وعلى فكرة سأوجز ما قالت وقصت بنسبة ١٠٪ كي لا أخرج عن موضوع المذكرات وقصص رحلة العمر ولولا أني واثق من أن القارئ سوف يطلع وسوف يستفيد من النتيجة لما ذكرت شيئًا من الموجز ، وفي الوقت نفسه فإن الواجب يحتم علي ذلك ؛ لأن هذا البيت أصبح وأمسى له فضل ومعروف علي ، وخاصة بعد هذه الزيارة التي جاءت من عند الله وجاء بها القدر هدية منساقة إلي . ومن أسدى إليكم معروفًا فكافئوه .. كما ورد في الأثر . ومن عادة النفس البشرية حب التطلع إلى كل شيء غريب وعجيب .

ثم أرتني جلسًا كبيرًا مشحونًا إلى ذروته حتى لامس السقف مكتظًا بالحنابل والجلايل والمرتبات الجديدة والمخدات(الوسادات) وآلات الشاي والأطباق على اختلاف أحجامها وأشكالها ، والقدور والصناديق الخاصة بجهاز العرائس ، وكل شيء فيها جديد ، فقلت لها : ما حكاية هذه الغرفة ؟ فقالت : فيما بعد أنبئك بأخبارها ولا ينبئك مثل خبير ؛ لأن الوقت قد حان وستطلبني سيدة الدار لنتناول معها الإفطار ، وأقدم لها ما حصلت عليه من

معلومات وأخبار ، ثم أودعتني ركنًا من الصفة وقالت : انتظر حتى أرجع إليك بعد نصف ساعة من الآن ..

السيدة تطلبني

وبينما أنا جالس أنتظر الحسناء الحنون إذا بإحدى الإماء تنادي : تعال يا سيدي ، كلم سيدتي .. فذهبت إليها فوجدتها تتوسط مائدة الإفطار ، وكان الوقت قد ضحى . وعلى هذه المائدة العمات وضيوف الدار من النسوة الجواري والخدم ، وكان عدد من جلس على تلك المائدة يزيد على العشرين .. يا له من منظر مدهش .

قالت السيدة المحسنة : أهلا وسهلًا بضيفنا الصغير ! هل أفطرت واحتسيت الشاي ؟ قلت : نعم ! قالت : أما تزيد معنا ؟ قلت : شكرًا إني شبعان ، قالت : هل تشتكي من مضايقات أو منقوصات من حقوقك لم تستوفها ؟ قلت : أستغفر الله ما بعد هذا المكارم من كرم ، قالت : ما تريد من غداء هذا اليوم ؟ فاعترضتها إحدى العمات قائلة : بس يا ستي خديجة : (دلعتيه ومرعتيه ، وإلى هذا الحد وصلتيه ، كيف نربية بعدين ؟) وهذه كلمات عامية تفسيرها فيما بعد .

فالتفتت إليها السيدة الكريمة غاضبة وقائلة : هس ، من فضلك ، أنا لا يحكمني أحد ، في داري وقد اشترطت عليكم ذلك أمس . وهذا الولد الآن هو سيد البيت إلى أن تخرجوا بالسلامة . فسكتت ولم تنبس ببنت شفة إلا أنها قالت لجارتها في المائدة : (لقد فحلته علينا) ـ بالفاء المفتوحة والحاء المشددة المفتوحة واللام المفتوحة والتاء الساكنة ثم الهاء المضمومة ـ وتستعملها عامة

مكة فيمن يصول ويتطاول : ويأتي شرحها فيما بعد . وأجلستني بجانبها وربتت على كتفي ، وقالت : أنت هارون الرشيد . أنت أمير هذه الدار والكل في خدمتك . وأنا لم أكن أعرف معنى كلامها في ذلك الوقت ، إنما أبتسم وأنطوي خجلًا واستحياء .. قالت : لا بد من القول : ما تريد غداء هذا اليوم ؟ وكلنا نأكل ما تطلبه . فقلت لها : آكل مما تأكلون منه وأشرب مما تشربون . فقالت : نعمل اليوم أكلة بدوية من أجلك . ثم نادت مولاها أن يذبح جديًا ويعمل سليقًا ؛ لأنه طاه ممتاز بالإضافة إلى صوته الشجي الرخيم عندما يصعد المنائر (المآذن) .. وكان سعر الجدي في ذلك الوقت أقل من الريال المجيدي لكنها عملت بجانب الجدي عدة أطباق لأن حاشيتها تزيد على الثلاثين . وتناولنا الغذاء . ثم قالت : ستكون خالتك فلانة هذه الليلة من قسمتك بدلًا من فلانة . ونادتها قائلة : هذا ضيفك تتسلميه من بعد المغرب إلى يوم غد في المغرب . ففرحت تلك الحسناء بهذه المهمة ، وكم كنت مغتبطًا بهذه العبارات العذبة وهذا التكريم ..

بعد الأكل والشاي صحبتني الحسناء الأولى إلى الصفة التي نمت فيها الليلة الماضية وخيرتني بين المنام والحكايات والقصص ، فقلت لها : لا منام ولا حكايات إنما أريد أن تتممي حديث الصباح عن هذا البيت الكبير وما يحويه من أسرار وقد وعدتني بذلك . فقالت : نعم ! ..

وصعدت إلى السطح وصحبتني معها حيث أرتني سطحين عظيمين فسيحين وفي كل منهما حنية كبيرة للفحم ، والحنية غرفة صغيرة مظلمة ، ثم هبطت بي إلى ثلاثة مبيتات ؛ كل مبيت أمامه خارجة فسيحة تسع الكثير من النيام . وقالت : هذه كلها نسكن بها أيام الموسم وبقية المجالس تؤجر على

الحجاج الجاويين، ثم أرتني المجالس العلوية وما يتبعها من صفف ومخلوانات و« المخلوانات » كلمة عامية يأتي شرحها فيما بعد..

ثم المجالس الوسطى كمثل ما سبق إلا أنها تزيد بمسروقات و« المسروقة » غرفة بارزة بالمجلس تؤسس في سمائه وهي كلمة عامية. ثم المجالس السفلية التي يشغل أحدها العم جمال حيث حل ضيفًا بها حتى تنتهي عمارته..

ثم طوفتني على مجلس الأرامل ومجلس المطلقات، وعرفتني بهن جميعًا وقالت لهن: هذا ضيفكن فاستعددن له. ثم أرتني المعلقات، وكنت لا أتمالك نفسي من الفرح والسرور ولا أصدق هذه المظاهر، ولكنها صدقت وتحققت. ولكن السرور لا يدوم.. قلت للحسناء: وما هي حكاية مجلس الجهاز، فقالت: عندما تزف عروس من الأرامل أو المطلقات اللائي يسكن هنا فإن السيدة الكريمة تقدم لها جهازًا وأثاثًا من عندها لوجه الله، وهذا في حالة إعسار البعل الخاطب؛ فإنها تقدم العون الأثاثي والجهازي على أكمل وجه من جيبها الخاص وأحيانا تقدم عونًا ماليًا..

ثلاث عجز

(بضم العين والجيم ثم الزاي) جمع عجوز وهي المرأة المسنة. ثم أرتني مجلسًا صغيرًا وفيه العجائز الثلاث والأولى: شمسية الجركسية وقد أعتقتها ودربتها على مسائل خاصة ـ ثم عفشاي من أهل مكة وليس لها من الأقارب من يقوم بشئونها فلذلك لجأت إلى أم المحسنين فأكرمتها وآوتها، ثم (حبة) على وزن قبة ـ وهذه عوراء سليطة اللسان وصاحبة نقود وعندها بنت في الثلاثين من عمرها وقد تزوجها شريف من بيت العمري قبل وفاة أمها.

وظيفة العجائز

ثم قالت : هؤلاء العجائز هن اللائي يجلسن في النافذة ويتكلمن معكم بما في ذلك سيدة الدار ؛ لأن أعمارهن فوق الخمسين . أما بقية من بالدار فلا يرى كائن من كان وجوههن ولا رؤوسهن ـ وفعلا فعلا لم أر ، طيلة مكثي بباب الدريبة ، غير هؤلاء العجائز يكلمننا من النافذة ونكلمهن بما في ذلك سيدتهن . وكانت المكالمة تستغرق طرفًا من الليل إذا لم يكن عندهن طرب أو غناء ؛ لأن الدار مواجهة للدار والمسافة أربعة أمتار ..

هؤلاء العجائز هن اللائي يدرن على البيوت ليعرفن أخبار الرجال المتزوجين والمطلقين الذين لهم مطلقات بهذا البيت الكريم وعليهم نفقة العدة ، فما من بيت إلا ولجنه حتى يتحصلن نفقة المطلقات مدة العدة ولا يتم إلا بطريقهن .

عروس للزواج

ثم قالت : ووظيفة هؤلاء العجائز أن يرشدن إلى وجود عروس فيلجن البيوت سواء أعرفهن أهلها أم لم يعرفن ، وذلك بأمر منهن تختار حارة من الحارات وذلك في أيام معينة من الأسبوع .

عادة الخطبة

كانت عادة من يخطب امرأة ليتزوجها أن يبعث أمه أو أخته إلى البيوت المعروفة والمجهولة في مكة ، فتلج الخاطبة وتصفق بيديها في الدهليز فتنزل ربة الدار لاستقبالها والترحيب بها ، فإذا طلعت واستقرت عرضت موضوعها .. فإذا وجدن الرغبة والقبول أمرت بناتها أو أخواتها فيخرجن بعدما يلبسن أحسن

ما عندهن ويتزين، فإذا اقتنعت بالرؤية قالت: أريد هذه لابني أو لأخي ثم يحصل التشاور من الطرفين إلى أن يتم الزواج .. ولكن السيدة خديجة شربة بالعكس إذ كانت تبعث بموظفاتها المذكورات إلى البيوت ليبحثن عن عريس لمن عندها من المطلقات أو الأرامل كل على قدر حاله، والباقي تقوم به من جيبها الخاص كما أشرت إلى ذلك سابقًا فكملها من أجر من جزاء عند الله ـ رحمها الله.

ثم قالت الحسناء: هذا البيت يظل مفتوحًا ليلًا ونهارًا في وجه المطلقات والأرامل والمنقطعات، إذ قد يطلق بعض الرجال أزواجهن ليلًا ويحلف عليهن اليمين، وليس أحد يؤويهن، لفقد أهلهن وذويهن فتتقبلهن هذه الدار.

كلب ولص

قالت: وذات ليلة تسلق كلب الدار حتى صعد السطح وظل يحفر ويركض ويعوي فاستيقظ من بالدار وهرعوا إلى المرحوم سالم شربة فصعد بهراوته وطرد الكلب. وذات ليلة صعد لص ودخل الغرفة التي بها عفشاي و(حبة) الوسيطتان، وكانت مظلمة فعمد إلى صندوق صغير به نقود ومجوهرات فانتشله ندلًا وعند خروجه عثرت رجلاه في (عفشاي) فصرخت، فرمى به على رأسها فاستيقظ أهل الدار في رعب وفزع، حتى نحن استيقظنا من شدة الصراخ؛ كان بيتنا وبيتهم متقاربان بحيث نسمع كلامهم ويسمعون كلامنا إذا تقابلنا في النوافذ من دون صراخ، وعندما قام أهل الدار وأشعلوا السراج ـ نفذ اللص وهرب، ولو كانت الكهرباء موجودة في ذلك العصر لعثر عليها اللص.

بعد هاتين الحادثتين ، كلفت السيدة مولاها سالمًا أن ينام أمام باب الزقاق ، فنفذ أمرها وجاء بكرسي من القلع ، وصار ينام عليه وأخذ كل الاحتياطات وأغلق الباب من دون قفل بل ربطه بحبل مشترك بين سريره والباب بحيث لو حاول اللص مهما حاول فلا يستطيع الولوج ، إلا إذا استيقظ الرجل المؤذن .

تعقيب

على الوسيطات أو الدلالات بلغة عامة مكة (وسأعقب على الكلمتين) .

وسيطات هذه السيدة الكريمة ثلاث وكلهن منقطعات لانقراض أهلهن . وهذه السيدة لا تؤوي أحدًا له أهلٍ أو قرابة بعدًا عن المشاغبات والقال والقيل ، وهؤلائكن الدلالات أسعد حالًا وثراء من السيدة الكريمة لكنها لم تفكر يومًا أن تقترض منهن نقودًا حينما اشتدت الأزمات وأغلقت البحار قبل وبعد الحرب الكونية العظمى الأولى ، على الرغم من إنعامها عليهن بالسكنى والزاد يدا بيد ، كما شاهدناه وسمعناه من الأهل والجيران لدرجة أنها اضطرت لرهن حجة دارها في أثناء الحرب العالمية الأولى عند أحد أثرياء مكة . ولئلا تظهر احتياجاتها أمام من تؤويهن في دارها من أرامل ومطلقات وأيتام من البنات ولقد ماتت الدلالة الأولى وهي من بيت (عفشاي) وليس لها وارث غير بيت المال لانقراض العصبة ، فحجز أثاثها ونقودها وأضافها أخيرًا إلى الصندوق وكان مبلغًا لا يستهان به . ولو كانت السيدة الكريمة من الطماعين أو كانت مطماعًا ، لاستحوذت على أموال هذه الأرملة من غير أن يشعر بها أحد ولكن الكريم كريم وهذا دليل إخلاصها .

أما الدلّالة أو الوسيطة الثانية فهي المرحومة (عيشة حبة) وهذه ماتت بعد

وفاة المرحومة السيدة خديجة بأربع سنين، وكانت عوراء سليطة اللسان لا يقاومها أحد ولا يهزمها أحد، وكانت من الأثرياء العظماء، لدرجة أنها كانت تقرض بعض التجار وليس لها وارث سوى بنتها فاطمة التي تزوجت، في حياتها، على أحد أشراف بيت العمري، بارك الله فيها وفي ذريتها؛ لأنها من الصالحات .. وكانت هذه الدلالة مثقفة تحفظ (ألف ليلة وليلة) غيبًا و(كليلة ودمنة) و(العنترية). كما أنها كانت تغني (الفرعي) ـ بضم الفاء وتسكين الراء ثم العين المكسورة والياء ـ من الأنغام الحجازية القديمة، ولها مواهب أخرى في التمثيل والتقليد[1].

والوسيطة الثالثة مولاتها الجركسية وهي جارة المرحومة خديجة شربة وكانت قد وهبتها لقريبها المرحوم الشيخ يونس فتيانة الذي جاء حاجًا في إحدى السنين ولكنها أبت ورفضت بشدة وقالت لسيدتها: ابعثيني إلى الحراج أو اتركيني وشأني خادمة لك إلى أن يفرق بيننا الأجل. وما ذلك إلا لأنها كانت تكره قرب الرجال وتنفر منهم نفور الظباء من الصياد. وكثيرًا ما تنشد قول الشاعرة الخارجية التي رفضت الزواج من قطري بن الفجاءة، وهي أم حكيم وشعرها من شواهد الفصحى:

وأكرم هذا الجسد من أن يناله   تورك فحل همه أن يجامعا

---

(١) وكانت إذا بدأت في القصة نفر إليها سكان البيت الكبير والتفوا حولها وتركوا ما بأيديهم وأنصتوا إليها في هدوء تام وهي تقص عليهم من الساعة العاشرة ليلًا إلى الواحدة بعد الانتهاء من الطرب وأما ليلة الجمعة فإلى الصباح وهي تستهوي كل من يستمع إليها وسردها للقصص ليس قاصرًا على ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والعنترية والشاطر حسن بل إلى جميع العصور ولولا أني أخرج عن الموضوع لسجلت الكثير من نوادرها التي لا تنسى.

وكانت تلك الجركسية جميلة بيضاء شقراء عجزاء تتكلم اللغة التركية والبلغارية ، وتنسج على المنسج أنواعًا كثيرة من النسيج وتغزل بالمغزل وتجيد طهو الطعام والحلويات كما أنها تجيد ألحانًا من الأناشيد التركية وهي بحق متعة اجتماعية لولا شذوذها وتعقدها من الرجال ـ رحمها الله .

ومع ذلك فقد كانت تبعثها مولاتها أحيانًا لبعض البيوت المشار إليها بالبنان لتخبر عن وجود عروس من المطلقات ، وإذا كان هناك عريس له رأي فليبعث بأمه أو أخته لترى العروس التي أتمت العدة ، إن كانت مناسبة أم لا ، وهذا من باب العرض وكان في وجهها القبول .. وأما الوسيطتان السابقتان ـ عفشاي وحبة ـ فقد كانتا خاصتين للأرامل والأيامى وقد تبعثهما لعرض المطلقات إذا كانت شمسية منشغلة ببعض الشؤون .

الإقبال والرغبة

للمطلقات الرغبة الأكثر منها للأرامل وكان الناس باعتقادهم الفاسد يظنون أن الأرملة هي التي قبرت زوجها فينفرون منها ويسمونها (قبرجية) بضم القاف ، وهي كلمة عامية ، والصحيح العكس ؛ لأن الآجال محدودة والأعمار والأرزاق بيد الله ، إلا أنه من الملاحظ أن المطلقة تسعى جاهدة في الحصول على زوج ولو بمهر السنة لتغيظ زوجها المطلق لتزيده ندامة إذا كانت ندامته كندامة الكسعي .

التسامح في المهور

وكثيرًا ما كان يأتي بعض الأرامل من الرجال إلى هذه السيدة الكريمة

ليطلب يد أرملة مثله، ويشتكي من قلة ذات اليد فيتقدم بالميسور، فتقبل منه السيدة العطوف إذ تجهز من أثاثها وفراشها عروسًا من الأرامل التي لديها بعد موافقة الأرملة. وتعتبر السيدة خديجة ولية لكل من لديها من المطلقات والأرامل بعد إذن القاضي إذ تبعث مولاها سالمًا ـ رحمه الله ـ بعرض على المحكمة تعرض فيه كيت وكيت حتى يسمح لها بالتنفيذ بشرط أن يكون المشرف مولاها سالم؛ لأن جميع من لديها كنّ من المنقطعات اللائي فقدن أولياءهن أو انقرضت أصولهن وفروعهن كما تقدم سابقًا.

الدلالة

قد يستنكف الكثير في هذا الزمن من عرض بناتهم أو أخواتهم ولو نصحت بعضهم وقلت له: فتش على ابن الحلال وزوج فلانة، لنفر منك، وقال: تريدني أن أدلل في الحراج، مع أنه سنة وأحيانًا واجب عندما تقتضي الضرورة، ألا نتأسى بعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما طلقت بنته حفصة من زوجها الأول فاغتم بطلاقها وصار يعرضها على أصحابه الذين هم أكبر منه سنًا كأبي بكر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ اللذين أعرضا ورفضا فاغتم أكثر وأكثر حتى عرضها أخيرًا على سيد الأمة محمد بن عبد الله ﷺ فقبلها وأحبها وأكرمها.

ولقد أنبأنا التاريخ عن الكثير من مثل هذه الحالة وهذا العرض، فلماذا هذا الاستنكاف، وهذا الاستكبار، وهذا التعالي؟

وإني لأعلم الآن علم اليقين عن وجود رجلين من المواطنين يقومان بهذه المهمة أيما قيام وأول ما يبدآن بأنفسهما إذ يقولان: عندنا كذا وكذا ولا

يشترطان المهر الفاحش فإذا أبيت يدلانك على فلان وفلان ، أليس هذا بعمل إنساني وواجب مشرف ؟ أما آن لنا أن نتأسى بالألى كانوا من عظماء الرجال الذين (تأسوا فنسوا للكرام التأسيا) ؟ !

أليس من يقرأ قصة هذه السيدة الكريمة يتمنى أن ترجع عقارب الزمن إلى الوراء خمسين عامًا ليعيش في جو كريم نزيه ، وليلمس ويشاهد ما كانت تقوم به كرائم النساء من خدمات للوطن .

إن هذه سيدة واحدة من سيدات كثيرات في ذلك العصر وقبله ربما وجد من هو أكبر مني سنًا وعلمًا يعلم أكثر مني في هذا الشأن ، ولولا أن هذه السيدة الكريمة مجاورة لنا ومختلطة بنا ، ولولا الظروف الماسة التي أحوجتنا إلى النزول عندها طيلة ثلاثة أشهر لما علمت عنها شيئًا ولما ذكرتها في مذكراتي هذه .

وفوق ذلك إني لم أقدرها حق قدرها ولم أصفها بوصف تستحقه حق الاستحقاق ؛ لأني كنت قاصر الإدراك آنذاك وعمري ما بين السابعة والعاشرة وهي قد ناهزت السبعين ، وقد كانت في ريعان شبابها أكثر نشاطًا وحماسة من الوقت الذي أدركتها فيه على ما سمعت من بعض السيدات الفضليات .. فهي قد وقفت حياتها لخدمة هذه الوظيفة الاجتماعية الكريمة ، وفي الوقت نفسه فهي عذراء لم تتزوج قط وربما لحقتها بعض العقد والعقبات التي كانت تقف في طريق الزواج جريًا على العادات والتقاليد التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها وخاصة عندنا أن بعض من أهل السيادة والوجاهة لا يزوج إلا من كان في درجته ومقامه وبعض الأسر لا يزوج إلا من الأسرة نفسها وبعض يطلب مهرًا فاحشًا وبعض لا يرغب في زواج بنته أو أخته لتقوما بخدمته وهكذا وهكذا .

ولعل هناك سيدات أخريات قد قمن بهذه المهمة ولم يصل إلى علمي أخبارهن ، عسى الله أن يكثر من أمثالهن وخاصة في وقتنا الحاضر ؛ لأن الوطن في حاجة إلى أمثال هؤلاء المخلصات الصالحات الطيبات .

يا جارتي

وأول من تأسى بها واقتدى وحذا حذوها إحدى جداتنا ـ رحمها الله ، وذلك بحكم الجوار كما أخبرتنا جدتنا عمة والدنا وشقيقة جدنا المرحوم عبد المعطي الذي جمع بين أربع حرائر .. واحدة منهن شقيقة المرحوم جمال ابن المرحوم محمد لبنى وكانت تزورنا إذ قالت يومًا لهذه الجارة الكريمة : يا جارتي كم أنا مغتبطة بأعمالك الجليلة وخصالك الحميدة وإني أتمنى إن أعطاني الله مالًا أن أبني دارًا لهذا الغرض النبيل . وقد أعطاها الله أمنيتها فقد ورثت ألف ريال فرنساوي قبل موتها بأيام ، فقالت لجدي : وصيتي أن تبني دارًا وتوقفها على المواطنات المنقطعات من أرامل ومطلقات من اللائي فقدن عائلهن أو أهلهن أو من اللائي ليس لهن مأوى يؤويهن . فنفذ المرحوم وصيتها بعد موتها مباشرة في عام ١٢٩٣هـ حينما اشترى لها أرضًا بالقرب من المدرسة الصولتية بالخندريسة ، وبنى بها طابقًا واحدًا مكونًا من ست غرف ونقش اسمها على الرباط وأنفق الباقي من جيبه الخاص وجعل أحد إخوانها ناظرًا على هذا الرباط وأسكنه أربعًا من المنقطعات .

ولم يكن أولاده إذ ذاك قد بلغوا الحلم ؛ لذلك اسند النظارة إلى غيرهم .. وبعض أهل حارة الباب يطلق على هذا الرباط اسم رباط عبد المعطي مرداد ثم بتعاقب النظار واختلافهم على النظارة وعدم وجود مورد لهذا الوقف خاصة

بعد ما فقدوا الحجة والمستند الشرعي، ضاع هذا الوقف وخرب تدريجيًا وسقطت أركانه ثم حارب عامل الزمن وتساقطت عليه السيول الجارفة من جبل الكعبة؛ لأنه يقع في سفحه فتهدم وعفت آثاره وأخيرًا دخل في المشروع - أعني به مشروع توسعة الحرم المكي - ولو كانت الحجة موجودة لما ضاع الوقف.

وممن سار في هذا الطريق وحذا حذو تلك السيدة الكريمة، المرحومة شقيقة المرحوم أحمد باناعمة فقد بنت رباطًا كبيرًا بشعب علي، وأوقفته على المواطنات من الأرامل. وهناك رباط الشحومي بمحلة الباب بالخندريسة، بني لهذا الغرض، ورباط آخر بباب العمرة، لكن النظار سامحهم الله بدلوا وغيروا وأسكنوا بعض المغتربات من غير المواطنات مع أنهن في غنى عن السكنى بمكة المكرمة؛ لأن أوطانهن موجودة ويمكن لحكوماتهن إرجاعهن إلى أوطانهن، كما أن حكومتنا الرشيدة كانت ولا تزال تبذل قصارى جهدها في رجع وإعادة كل حاج فقير منقطع إلى دياره على حسابها، لكن المسئول عن هذه المهمة هي وزارة الأوقاف فعسى الله يوفقها لتراجع السجلات القديمة وترجع الحقوق إلى نصابها. كما أرجو الله تعالى أن يوفق بعض السيدات الثريات ليقمن بإحياء ما اندثر من آثار أسلافهن كمثل شربة، وباناعمة، ولبنية، وغيرهن من فضليات وكرائم النساء من اللائي خلد الدهر ذكرهن على مر الزمان والعصور وعلى الله قصد السبيل.

مفردات بعض الكلمات السابقة

* **العَلْقة**: (بفتح العين وتسكين اللام) يراد بها العقاب البدني سواء بالجلد أم

بالركل واللكم وهو غلط محض مع أن الكلمة من الفصحى ويراد بها أول ثوب يتخذ للصبي بعد الولادة ، فاستعملت الكلمة في غير ما وضعت له وصوابها : العلقى بالألف المقصورة وفتح العين وتسكين اللام وفتح القاف ، والألف للتأنيث وتستعار الكلمة لما يقصده العامة منها بدليل قولهم : سقاه علقى وشربه علقى وفلان سقى فلانًا علقى ، والعلقى معناها في الفصحى : نبت قضبانه دقاق يطبخ جيدًا ثم يسقى لمن به مرض الاستسقاء ـ والعياذ بالله ـ وهو مر المذاق لا يستساغ ولكن يتجلد ويتصبر شاربه للضرورة ، والنفع بإذن الله ، وهو مجرب عند البادية .

* **مبرحة** : (بضم الميم وفتح الباء وكسر الراء المشددة والحاء المفتوحة ثم التاء المربوطة) بمعنى شديدة ومؤلمة وواضحة ، كلمة فصيحة صحيحة من برح بصيغة التضعيف فيقولون برح به الأمر وبرحت به الحمى أي أنهكته وآذته من شدتها ، وأما برح على وزن فرح فتكون بمعنى زال وذهب ، وإذا جاءت قبله ما فيكون بمعنى بقي ، وقد يأتي فعل برح على وزن فرح أيضًا بمعنى وضح واشتهر ومن ذلك قول حسان رضي الله عنه :

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة فقد برح الخفاء

* **القرابات** : (بفتح القاف) جمع قرابة كسحابة والقرابة هي القرب في الرحم وإذا كانت الكلمة مصدرًا فلا تجمع وإذا كانت اسمًا فجمعها قرابات والشاهد :

والقرابات بيننا واشجات ... محكمات القوى بعقد جديد

وهذه الكلمة علق عليها الرازي والحريري والخفاجي بما يطول شرحه ولا يحسن ذكره .

* **أخمسة** : (بفتح الهمزة وتسكين الخاء وكسر الميم وفتح السين ثم التاء المربوطة) جمع خميس وهو اليوم المعروف بيوم الخميس، ويجمع على أخمسة وأخمساء. وتطلق كلمة الخميس على الثوب كما جاء في حديث معاذ رضي الله عنه كما تطلق على الجيش إذا كان مؤلفًا من خمس فرق وهي المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق.

* **هلع** : بفتح الهاء واللام ثم العين، وهو الجزع والخوف والجبن عند اللقاء وبابه هلع بكسر ثانيه، وفي التنزيل: ﴿هَلُوعًا﴾ [المعارج: من الآية١٩] بفتح أوله وهو من يفزع من الشر ويحرص على المال ولا يصبر على المصائب.

* **جزع** : بفتح أوله وثانيه ثم العين، وهو الضعف عما نزل به ـ وبابه جزع بكسر ثانيه وفي التنزيل ﴿جَزُوعًا﴾ [المعارج: من الآية٢٠] (بفتح أوله)، يعني لم يصبر على الشدائد والمصائب، قال أبو ذؤيب:

والدهر ليس بمعتب من يجزع

* **عيي** : (بفتح العين وكسر الياء وضم الياء الثانية المنونة المشددة) أي عاجز عن المنطق وبابه عيي (بفتح أوله وكسر ثانيه وفتح ثالثه)، فتقول: عيي عيًا (بكسر أول المصدر) فهو عي وعيي وجاء في المثل العربي «أعيي من باقل» أي أشد حصرًا في النطق من الرجل المسمى بباقل، وأما قولهم عاياء (بفتح العين) فلا تطلق إلا على الفحل والرجل فيقولون فحل عياياء أي لا يهتدي لضرب الناقة فهو لا يفقه الضراب (بكسر الضاد) ويقولون: رجل عياياء، أي: ضعيف عند المباضعة لا يستطيع مجامعة النساء وجاء في حديث أم زرع ـ رضي الله عنها ـ أن المرأة السادسة قالت: (زوجي عياياء طباقاء كل داء له دواء) وفسر ابن الأثير في غريب الحديث، العياياء في هذا الحديث بالعنين

الذي تعييه المباضعة وهي الجماع وقالت العرب : استبضعت المرأة يعني طلبت الجماع ، وقالت العرب : استبضع الرجل يعني اشترى بضاعة ، فهل بعد هذا الإفصاح من فصاحة ومن حلاوة ؟ ! ويقال في حق الرجل إذا أراد الجماع : راودها ، أي : طلبها للجماع وكلمة المراودة أجمل من كلمة الاستبضاع والمباضعة كما جاء في تهذيب الكلمات العربية وكما هو المقتبس من الرسول المعلم ﷺ كما ورد في الأثر الصحيح : « لا يقل أحدكم خبثت نفسي بل يقل لقست نفسي » وهكذا وما يقرب من كلمة استبضعت ، واستبضعت : حملت وحمل ـ يعني حبلت وحمل على ظهره وتقول امرأة حامل يعني في بطنها ولد ـ ورجل حامل يعني على ظهره حمل وإذا حملت على ظهرها قلت حاملة وحمالة الحطب ، اللهم فقهنا في اللغة والدين آمين .

* **أتهته** : (بضم الهمزة وفتح التاء الأولى وتسكين الهاء وكسر التاء الثانية ثم الهاء) أي أردد الكلمة مرارًا من التهتهة وهي التواء في اللسان مثل اللكنة .

* **أم قشعم** : بفتح القاف وتسكين الشين وفتح العين ثم الميم وهي كنية المنية فتقول العرب : (صادفته أم قشعم) يعني واجهه الموت ، وما أكثر من الكنى عند العرب ومن الشواهد قول زهير بن أبي سلمى :

فشد فلم يفزع بيوتًا كثيرة   لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

* **مليًا** : (بفتح الميم وكسر اللام ثم الياء المفتوحة المنونة المشددة) ، يعني : زمنًا طويلًا وفي القرآن ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم : من الآية٤٦] والكلمة صفة استعملت استعمال الأسماء .

* **أرقت** : يعني سهرت وبابه فرح ومن الشواهد قول الأعشى :

أرقت وما هذا السُهاد المؤرق   وما بي من سقم وما بي من تعشق

* **الحصير** : على وزن الصغير ، وتطلق العامة هذه الكلمة على الخصف والخصاصيف المعمولة من الخوص وتفرش في الأرض على مقاسات متباينة ، منها ما هو على قيد المجلس ومنها ما هو على قدر المصلية أو السجادة التي يصلى عليها . وتعمل هذه الخصفة في كل بلد فيها نخيل أو ما يشبه النخيل مثل نخل جوز الهند والفوفل ويفرشونها في المساجد أحيانًا وفي المدارس الصغيرة ، ويقولون للمفرد منها حصيرة على وزن فصيلة ويجمعونها على حصير .. والكلمة صحيحة وفصيحة ولكنها مستعملة في غير ما وضعت له ، والأفضل أن يقال : خصفة ، بفتح الخاء والصاد والفاء ثم التاء المربوطة . وجمعها خصف (بفتح الخاء والصاد ثم الفاء) ، وأما الحصيرة فهي جرين التمر وهو الموضع الذي يحصر فيه كما تطلق على اللحمة المعترضة في جنب الفرس ما بين الكتف إلى الخاصرة وتستعار للرجل ، قالت العرب : أوجه الله حصيرته ، وجمع الحصيرة حصائر على وزن بصائر ، وأما الحصير فيطلق على أشياء كثيرة تربو على العشرين ومن أكثرها شيوعًا البساط المنسوج من البردي والأسل والخوص ويفرش عليه التمر ويشد منه الغرابيل في العراق ، وهذا البساط مزيج من نبات وغيره ولونه أقرب إلى لون الأرض حتى إذا ما فرش عليها لا يتميز ، وإليه يشير الشاعر حينما مزج ماء وخمرًا بقوله :

تحدر عن شاهق كالحصير ... مستقبل الريح والفيء قر

والحصير هو الملك ، قال لبيد :

وقماقم غلب الرقاب كأنهم ... جند على باب الحصير قيام

والعرب تطلق كلمة الحصير على الملك المحجوب الذي لا يقابل الناس إلا

نادرًا وإليه يلغزون بقولهم (أثر الحصير في الحصير) يعني إذا داسه بقدمه أو جلس عليه ؛ لأنه يدمغ جلده الناعم وهو البساط صلب محدد . والحصير هو السجن ومنه الآية الكريمة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء : من الآية٨] والحصير هو فرند السيف ، قال زهير :

برجم كوقع الهندواني أخلص الصياقل منه عن حصير ورونق

والحصير كل ما ينسج من أشياء مختلفة متباينة الألوان وكل ثوب مزخرف موشى يجلب الأنظار ويأخذ بمجامع القلوب من حسن منظره وإجادة حياكته وإليه يشير الشاعر ، من الشواهد :

فليت الدهر عاد لنا جديدًا وعدنا مثلنا زمن الحصير

* **برم** : بفتح الأول والثاني والثالث ، فتقول برم الحبل أو الخيط أي جعله طاقين ثم فتله وبرم الأمر يعني أحكمه وأبرم مثله ، ومنه الآية الكريمة : ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف : ٧٩] والعامة تقول وضع حافظة نقوده في برمة السروال والأفصح أن تقول : في الأزر (بضم الهمزة) وهو موضع معقد الإزار .

* **الإزار** : بكسر الهمزة يذكر ويؤنث ، كل ما سترك فهو إزار ومنه قولهم : داري إزاري . ويقولون : (إزار وإزر) ، بكسر الهمزة فيهما . وكل الصبغ بمعنى الإزار والمئزر ، وصيغة الجمع مآزر كمساجد ـ قال عبد الملك بن مروان متمثلًا :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

وشد المئزر كناية عن الابتعاد من النساء وكل ما يلهي ، إذ من عادة العرب في الحرب الابتعاد من النساء والملاهي حتى يتبين لها النصر ، وكذلك في

المهمات سواء لدنيا أو لدين، وقد جاء في الأثر الصحيح: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر».

* **السروال**: بكسر السين، ويجمع على سراويل، وهذا بالنسبة لكلام العرب العامة وبعض النحويين، واحتجوا بورود كلمة سروال وسراولة في الشعر الفصيح كما جاء في قول بعض العرب:

عليه من اللؤم سروالة　　　فليس يرق لمستعطف

ولكن سيبويه لم يوافق على ذلك وتبعه السواد الأعظم من النحاة واللغويين، وحجته في ذلك أن كلمة سراويل لفظ مفرد وتستعمله العرب في اللباس الذي يستر النصف الأول من الجسم. والكلمة من الفارسي المعرب وقد أدخلها العرب في شعرهم ونثرهم وهي مؤنثة وتجمع بالألف والتاء فتقول سراويلات واستدل سيبويه على انفراد كلمة سراويل بما أورده ابن مقبل، من الشواهد:

فتى فارسي في سراويل رامح

واحتج بهذا الشاهد على عدم صرف الكلمة وللنحويين واللغويين مذاهب كثيرة في صرف الكلمة وعدم صرفها، وأعتقد أن المذهب الأول لشهرته أكثر شيوعًا من الصواب المهجور هي القاعدة خاصة وأن الأول يعززه شاهد جاهلي وغير جاهلي.

وعلى العموم من أراد كثرة الشواهد والحجج وسعة الاطلاع فعليه بمراجعة قول ابن مالك:

ولسراويل بهذا الجمع　　　شبه اقتضى عموم المنع

وما بعده من أبيات .

* **غول** : بضم الغين ، وتطلقه العامة على نوع من الجن يغتال الإنسان ويجمعون الكلمة على غيلان (بكسر الغين) والصواب أغوال (على وزن أفعال) وفي الفصحى تطلق كلمة الغول على السعلاة وعلى ساحرة الجن وعلى دابة رأتها العرب وعرفتها وقتلها تأبط شرًا الشاعر الصعلوك العداء المعروف ، وأكثر ما يطلقونها على المنية والداهية والتهلكة ، وجاءت في أشعار العرب بجميع صيغتها ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت : «إن ذا الدهر غولا» وقول كعب بن زهير رضي الله عنه :

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول

* **طرق** : بفتح الطاء ، وهو على صيغة التضعيف ، أي : أنذر بالسقوط وهذا من كلام العامة حين تقول طرق الحائط أي : سمع منه صوت ينذر بالانهيار ، وخاصة إذا ظهرت في الجدر أشطاب وشروخ وبعجات . والكلمة صحيحة ولكنها مستعملة في غير ما وضعت له ؛ لأن العرب تقول : طرق الموضع أي جعله طريقًا وجاء في الأثر : «لا تطرقوا المساجد» أي : لا تجعلوها طريقًا ـ وقالت العرب : طرق طريقة حسنة أي اخترعها وأحدثها ، وقالت : طرق فلان أي احتال عليك ، والمصدر تطريق لجميع الأفعال التي مرت بالتضعيف كما يقولون طرق الحصى تطريقًا أي : تكهن وأخبر بالغيب ، ومنه قول لبيد كما أوردها الرازي :

(لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى) . . . . الخ

وأما الطارق الذي يأتي ليلًا فيجمع على أطراق (بفتح الهمزة) ومن الشواهد :

أبت عينه لا تذوق الرقاد وعاودها بعض أطراقها

وأفضل صيغة تستعمل في المعنى المراد بما يقابل كلمة طرق المستعملة في غير المعنى المراد كلمة نقض (بالتضعيف) على وزن طرق، فتقول: الجدار نقض، يعني: انصدع وانشق كما تنشق الأرض حين إنبات الكمأة وبروزها، وكذلك صيغة انقض بمعنى أثقل الحمل ظهره فرمى به وبرك. ومنه الآية الكريمة: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: من الآية٣] أي أثقله، ثم المصدر منه وهو الإنقاض (بكسر الهمزة) معناه صويت ضعيف مثل النقر والانقياض كذلك صوت العلك وصوت المحامل والرحال عندما تخب الإبل وتجذم، والخلاصة: يجب استعمال كلمة نقض (بالتضعيف) بدلًا من كلمة طرق (بالتضعيف) وأفضل كلمة في هذا المعنى للاستشهاد قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: من الآية ٧٧].

* **هرم**: (بفتح الهاء وكسر الراء ثم الميم) أي كبر في السن فتقول رجل هرم وقوم هرمى على (وزن صرعى)، وكما أن الهرم وصف للرجل المسن فهو يطلق على الرأي السديد الصائب أيضًا فتقول رجل هرم ورأي هرم والهرم على وزن الكتف. وأما الهرم بالفتح للهاء والراء فهو المصدر وبابه طرب ومن الشواهد:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم

واللذات جمع لذة، والعامة في مكة إذا أرادت أن تشتم إنسانًا ما تقول له: اذهب يا ابن الهرمة بكسر الهاء وتسكين الراء وفتح الميم ثم التاء المربوطة، مع أن الهرمة في الفصحى، آخر ولد الشيخ أو الشيخة وهو ما يسمى الآن بآخر العنقود، فلاحظ أيها القارئ ذلك ولا تغضب من هذه الجملة بعد الآن، وأما

ابن هرمة بدون ال فهو شاعر كبير من شعراء الشواهد .

* **بعجات** : (بفتح الباء وتسكين العين) جمع بعجة على وزن نعجة ونعاج ، وبعجة وبعاج وبعجان وكلها من كلام العامة ويقصدون بالبعجة الانشقاق في الحائط من باب الاستعارة فقط ، وأما في الفصحى فقد تقدم نظير ذلك في قولهم طرق (بالتضعيف) وما يقابل الكلمة في الفصحى ، والباعجة متسع الوادي الذي ينبعج منه السيل وتجمع على بواعج ومباعج ، والبعجة (بفتح الباء) والبعجة (بضم الباء) ، والبواعج كلها أسماء مواضع وجبال ، وبعج بمعنى شق وقطع وبمعنى بالغ في النصح ، كما أن العرب تطلق كلمة البطن على النصح وكلمة البعيج على المبذول ومن الشواهد :

بعجت إليه البطن ثم انتصحته وما كل من يفشي إليه بناصح

ومن الشواهد :

فذلك أعلى منك قدرًا لأنه كريم وبطني للكرام بعيج

فبطني بمعنى نصحي ، وبعيج بمعنى : مبذول ، وبعجت البطن بمعنى أظهرت النصح .

* **التقريع** : تقدم معناها وهيمن كلام العامة إذ تقول : قرع الدار تقريعًا أي منع ساكنها من البقاء فيها لقرب انهيارها وهو من باب الاستعارة ، وتصحيح الصيغة . قرع (من باب طرب) قرعًا وهو المصدر فهو أقرع أي خال من الشعر ؛ لأنه مصاب بمرض القرع فتقول قرع الفناء أي خلا وقرع الرأس أي خلا من الشعر ، وقالت العرب : « نعوذ بالله من قرع الفناء وصفر الإناء » وجاء في الأثر الصحيح : « قرع حجكم » أي خلت أيام الحج .

* **الهراوة** : (بكسر الهاء) هي العصا الغليظة وجمعها هراوى على وزن حبالى والهراوة تطلق أيضًا على الشخص كما جاء في الأثر : « لعظمت هذه هراوة يتيم » .

* **الفندق** : بضم الفاء وتسكين النون وضم الدال ثم القاف ، وتطلق العامة هذه الكلمة على القصر العظيم الذي يسكنه وينزل به السياح والضيوف ويجمعونه على فنادق وهو غلط في الاستعمال ؛ لأن الفندق في الفصحى يطلق على حمل الشجرة وعلى البندق الذي يرمي به والعامة استعارت كلمة الفندق من الفنتق بالتاء بدل الدال وهو الخان والسبيل والكلمة من المعرب ، أما البندق (بضم الباء) فيطلق أيضًا على شجر كالبطم وتقول العامة : بندقه يعني ضربه بالبندق ، ولكن الصحيح جعله بنادق .

* **خفي حنين** : من أمثال العرب يراجع في المثال ، ويضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة ، وحنين (بصيغة التصغير) اسم رجل كان إسكافًا من أهل الحيرة وساومه أعرابي بخفين فاختلفتا حتى أغضبه ، فأراد غيظ الأعرابي ، وذلك عندما ارتحل الأعرابي أخذ حنين أحد خفيه وطرحه في الطريق ثم رمى الآخر في موضع آخر فلما مر العرابي بأحدهما قال : ما أشبه هذا الخف بخف حنين ولو كان معه الآخر أخذته ، ومضى فلما انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول وقد كمن له حنين فلما مضى الأعرابي في طلب الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها ، فذهب بها وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخفان فقال له قومه : ما جئت به من سفرك ؟ فقال جئتكم بخفي حنين ، فذهبت مثلًا .

والخف (بضم الخاء) احد أخفاف البعير وواحد الخفاف التي تلبس في الرجل سمي به لخفته ـ وهو للبعير والنعام بمنزلة الحافر لغيرهما ، والمخف (بصيغة

اسم الفاعل من الرباعي أخفّ) من كان خفيف الحال وجاء في الأثر: « فاز المخفون » وجاء أيضًا: « إن بين أيدينا عقبة كؤودا لا يجوزها إلا المخف ».

والعامة تقول اختفى الشيء بمعنى توارى واستتر وهو غلط والصواب: استخفى، ولا تقل اختفيت بمعنى استترت؛ لأن العرب تقول: اختفيت الشيء، بمعنى استخرجته. ولا تقل فلان المختفي (بصيغة اسم الفاعل) بمعنى مختبئ ومستتر؛ لأن المختفي هو النباش الذي يستخرج الأكفان.

* **مثلات**: بفتح الميم والثاء جمع مثل بالتحريك عند العامة وهو غلط فالمثل يجمع على أمثال وجاء في القرآن ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] وهي جمع مثل بالتحريك وفي القرآن ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ وأما المثلات (بفتح الميم وضم الثاء) فهي العقوبات ومفردها مثلة (بفتح الميم وضم الثاء وفتح اللام ثم التاء المربوطة) وفي القرآن: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ [الحج: من الآية٧٣]، وأما المثلات بفتح الميم وضم الثاء وفتح اللام ثم التاء المربوطة وفي القرآن: ﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: من الآية٦].

* **زل**: (بفتح الزاي ثم اللام المضمومة المشددة المنونة) كلمة عامية ويطلقونها على البسط والنمارق والمفارش الرومية والفارسية والعربية ويقولون للمفرد منه (زولية) بضم الزاي ثم الواو اللام المكسورة والياء المشددة المفتوحة والتاء المربوطة، وهذه الصيغ صحيحة ومستعملة فيما وضعت له إلا أنها محرفة، والصواب: زلية (بضم وكسر الزاي ثم اللام المكسورة المشددة والياء المفتوحة المشددة ثم التاء المربوطة) ومعناها البساط وهي معرب (زيلو) بالفارسية وجمعها زلالي على وزن قطامي، وأما قولهم زلل (بضم الزاي واللام) فمعناها الناقص كما جاء في قول العرب: « من دنانيرك زلل ومنها وزن » أي ناقصة وتامة.

* **معمعة**: (بفتح الميم وتسكين العين وفتح الميم والعين الثانية ثم التاء المربوطة) على وزن المزرعة تطلقها العامة على الضوضاء وما إليها. وفي الفصحى تطلق على صوت الحريق في القصب وتطلق على صوت الأبطال في الحروب وعلى كل عمل سريع ومن الشواهد قول امرئ القيس:

كمعمعة السعف الموقد

* **أضياف**: جمع ضيف ويستوي فيه المذكر والمؤنث فتقول هذا ضيف وهذه ضيف، وقد يقال ضيفة، وصيغة الجمع ضيفان بكسر الضاد وضيوف وأضياف من الشواهد قول ربيعة بن مقروم الضبي:

وأضياف ليل في شمال عرية   قريت من الكوم السديف المرعبا

* **سرب**: (بكسر السين وتسكين الراء ثم الباء) معناها النفس كما جاء في كلام العرب: «آمن في سرب» أي في نفسه، كما تطلق الكلمة على القطيع من الظباء والوحش والخيل والحمر والنساء، ومن الشواهد: «أسراب القطا هل من يعير جناحه» ووصف الشاعر النميري زينب شقيقة الحجاج بن يوسف حينما ذهبت إلى العمرة مع بعض الحسان وكانت على جانب كبير من الجمال:

ولم ترَ عيني مثل سرب رأيتهُ   خرجن من التنعيم معتمرات
تضوع مسكًا بطن نعمان إذ مشت   به زينب في نسوة عطرات

* **ندلًا**: (بفتح النون وتسكين الدال ثم اللام المفتوحة المنونة) مصدر ندل بمعنى خطف، فتقول نشله ندلًا أي خطفًا وجذبًا واختلاسًا ومن الشواهد:

فندلا زريق المال ندل الثعالب

والاسم من هذه الصيغ ندول على وزن (صبور) ويطلق على الضبع والذئب والكلب والمرأة القذرة الوسخة اللئيمة التي تعنى بكلابها وتترك أضيافها، وأنشد أبو زيد:

بتنا وبات سقيط الطل يضربنا عند النزول قرانا نبح درواس

وأما النودل (على وزن جوهر) فهو الثدي المسترخي والخصيتان كذلك ومن الشواهد:

كأن خصييه إذا ما نودلا أثفيتان تحملان مرجلا

* **ندامة الكسعي**: الندامة من الندم والكسعي بضم الكاف وفتح السين وكسر العين مع الياء المشددة المكسورة، اسم رجل من الرماة وصانعي النبال والقسي وهو من كسع على وزن صرد، حي باليمن فنسب إليه، وأصله من بني ثعلبة واسمه الحقيقي غامد بن الحارث الكسعي الذي يضرب به المثل في الندامة إذ يقال: (هو أندم من الكسعي) وذلك أنه سقى نبعة في جبل من الجبال حتى ترعرعت ونمت وتعهدها بالسقي لأصالة نوعها ليتخذ منها قسيًا ولما آن أوانها صنع منها قوسًا وبرى سهامًا خمسة وجعل يجرب هذا القوس وهو في ذروة هذا الجبل وكأنه اختلط عليه ظلام الليل وعشا بصره وصار يتخيل الظباء في الوادي فينبلها نبلًا ويظن أنه لم يصبها، حتى إذا ما أفرغ جعبته عمد إلى القوس فكسرها وإلى السهام فحطمها وكان سهمًا واحدًا هو المتبقي من الخمسة وقد أصاب بالأربعة أهدافًا كثيرة إذ كل سهم كان يصيب قطيعًا من الحمر الوحشية فيصميها وينفذ إلى الجبل فيقد منه صخرة أو يغرس فيه حتى يغيب ثم يتطاير الشرر من قوة الاحتكاك كما يحدث في السحاب، ومن طبع هذه الحمر إذا جنها الليل التجمع والحذر والفرق وهو الخوف من

الوحوش المفترسة، ويروي التاريخ قصصًا خيالية لهذه المعركة بين الصياد العظيم وهذه الحمر وعلى أكبر وأحسن ظن إذا ابتعدنا عن مبالغة القصاصين والمؤرخين أنه صاد أربعة من كل قطيع مع إصابة الجبل وتحطيم صخوره.

ولو بقي هذا القوس وهذه السهام إلى يومنا هذا لأقيم لها متحف خاص؛ لأنها أشبه بقنبلة ذرية إن صدق بعض الرواة والمؤرخين.

والرماة الذين يضرب بهم المثل أربعة: واحد من الفرس وهو بهرام أحد ملوك فارس قبل الإسلام، كان إذا رمى بالسهم يشبك يد الصيد بأذنه أو نحره أو يفتك بسهم واحد بأكثر من ظبي ووعل، وما أدري أهو بهرام جور أم بهرام جوبين (راجع ذلك في الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري - رحمه الله).

وثلاثة من العرب هم: المهلب بن أبي صفرة، وكان إذا ضرب الفارس في وركه شبكه بفرسه، والمرجع أبو حنيفة الدينوري أيضًا.

والثالث المعتصم بالله الخليفة العباسي ابن هارون الرشيد فاتح عمورية كان أقوى ضارب بالسهام في عصره، وبمهارته في الرمي استطاع فتح عمورية وهذا بإجماع المؤرخين.

والرابع صاحبنا هذا - الكسعي - محارب بن قيس أو غامد بن الحارث الذي أبصر نبعة من أجود النبع وتعهدها دهرًا طويلًا وكانت في ذروة صخرة شامخة حتى إذا ما أينعت قطعها واتخذ منها قوسًا وبرى ما تبقى منها سهامًا خمسة ثم دهنها وجففها وجلس أيامًا كثيرة ينظر إليها ويباركها ويقول فيها القصائد الرنانة ويرجو منها مستقبلًا زاهرًا ويعد أولاده وعشيرته بما سيحصلون عليه من نعم وخير إذا هو باشر مهمة الصيد بهذه القوس وهذه السهام، وكان ما أراد فيما لو صبر وتأنى وانتظر حتى الصباح على الأقل.

لكنه أخطأ الظن وخانه حظه وبصره فتعجل وكسرها وحطم السهم الخامسة وفي العجلة الندامة وأي ندامة هذه عندما نزل إلى الوادي صبيحة تلك الليلة المشئومة ورأى ما رأى من الحمر المصرعة والصخور المهشمة والدماء المجمدة والأشلاء المبعثرة والرؤوس المجندلة .

حينذاك ندم ، ولات ساعة مندم ، لقد هم بالانتحار ولكنه راجع نفسه قليلا وبكى بكاء طويلا وتذكر صبيته وعشيرته وزوجته ، ومع ذلك عمد إلى إبهامه فقطعها وآلى على نفسه ألا يمارس هذه الصناعة حتى الممات ، وآخر قصيدة قالها في هذا المجال بعد قطع إبهامه مطلعها :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذًا لقطعت خمسي

فصار يضرب بندامته المثل وحذا حذوه الشعراء من بعده وفي مقدمتهم الفرزدق حينما طلق زوجته الحسناء نوار ، قال من قصيدة :

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار

فتزوجها جرير وأحبها وأحبته وماتت فرثاها بقصيدة من نفس قافية الفرزدق نفسها ليغيظه ويحرك أشجانه ، ومطلعها :

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار

* **دلعتيه ومرعتيه** : من كلام العامة يعني دللته أكثر من اللازم ، والمدلع على وزن المعظم هو المتربي في العز وهذا من كلام المولدين ، وأما الدلع فهو إخراج اللسان من الفم ولا علاقة لذلك بالمراد من كلام العامة ، وأما الكلمة التي تقال في هذا المضمار وهي من الفصحى : التدلل والدلال ، وهو التغنج والتمايل والتلوي وأكثر ما يستعمل هذا الدلال النساء ثم الأطفال بتقليد أمهاتهم

ويتبعهم من كان ذا ملاحة ووسامة ، وقد قالوا :

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاكا

ومن الشواهد :

ولكن المليح له دلال

وقال المتنبي :

سرورك أن تسر الناس طرا تعلمهم عليك به الدلالا

وقديمًا قال امرؤ القيس :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

* **المرع** : على وزن الدلع ـ بابه مرع من باب طرب ـ يقولون مرع الرجل أي تنعم . وأمرع المكان إذا كثر عشبه وخصبه وخذ مرع على وزن نمر ـ أي ناعم ـ قال الأعشى :

سلس مقلدة اسيل خده مرع جنابه

* **ستي** : بكسر السين والتاء المكسورة المشددة من كلام العامة مقابل سيدتي كما تقول البنت لجدتها (ستي) والخادمة لمخدومتها (ستي) مقابل سيدتي وتقول : جاءت (الست) فلانة مقابل السيدة ، وهو غلط فاحش لم يرد في الفصحى ولا في الدخيل ولا في المعرب وما هو إلا من باب التغنج .

والأولى الرجوع إلى الفصحى باستعمال سيدة وسيدتي وسيد كما يقال لذي السيادة والرئاسة سيد فهو سيد العبد وهي سيدته وفي القرآن : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ [يوسف : من الآية٢٥] وقال الشاعر :

إذا مات منا سيد قام سيد

وفي الشعر أيضًا :

فقلت الوعد سيدتي فقالت

وأما الست بفتح السين فهو الكلام القبيح والست بكسر السين تستعمل في العدد لما بين الخمسة والسبعة للمؤنث فتقول الليالي الست وقولنا : ستي بكسر السين فعل أمر مثل قري بالفتح والكسر كقول ابن مالك :

وقرن في اقررن وقرن نقلا . . . الخ

ومعنى ستي أي : اعملي بطانة للثوب وسديه ، وبعض الخادمات يقلن يا استي فلانة ، وتقول لكم استي اعملن كذا وللأسف الشديد الإست بالكسر لغة في الأست وهكذا ، وقس على ذلك وابتعد عن هذه الصيغ القبيحة .

* **داتي ودادة ودادي** : كلها كلمات عامية منقولة من العجمية وليس لها أصل في العربية ومعنى الدادة المربية في اللغة الدخيلة ، وداتي بمعنى مربيتي وهكذا دادي ، وفي الفصحى لا وجود لهذه الكلمات في مثل هذه المعاني والمسميات ، وأما كلمة دد بفتح الدال الأولى وتحريك الثانية مخففة فمعناها في الفصحى اللهو واللعب وجاءت في شعر ابن أبي ربيعة بكثرة وفي الأثر الصحيح :

ما أنا من دد ولا دد مني

ويقال لمن يلهو ويلعب دَدِد فتقول يا دَدِدُ أي يا لاعب .

وقالت العرب (إدَادَة) من أدَادَ الطعام إدَادَة أي صار فيه الدود ... الخ .

* **هشت وبشت** : بصيغة الماضي المضعف ، من الهشاشة والبشاشة والفعل هش يهش كعض يعض ، والهشاشة هي الخفة والارتياح والابتسام والإسراع لفعل الخير والبشاشة كذلك في الصيغة والمعنى ، وهي طلاقة الوجه وقالت العرب : « هش بش » أي طلق الوجه سباق إلى المعروف ومن الشواهد :

لقد تلقتك البشاشة والسرور

من مرثية لعائشة ـ رضي الله عنها ـ في زعيم الشيعة حجر بن عدي حينما قتله معاوية ومطلعها :

ترفع أيها القمر المنير . . إلخ .

نصيحة أم المكارم الرجوع إلى البيت

وفي هذه الليلة الأخيرة التي ببيت السيدة الكريمة أجمعت أمري على الأخذ في أسباب مواصلة المغامرة الكبرى التي أشرت إليها سابقًا خاصة وأن هذه ليلة الوداع والحب والعطف الذي استمتعت به مائة يوم وكانت « أم المكارم » قد عملت لنا عشاءً فاخرًا بمناسبة انتقالنا في الغد إلى بيتنا المرعب . وبعد تناوله انفردت بي وقالت : غدًا سوف ترجعون إلى بينكم بالسلامة ، ونصحتني بعدم الهروب وبالصبر الجميل ، قالت : إن كان لابد من الفرار وضقت ذرعًا ولم تستطع أن تصبر عندما تداهمك الشدائد فألجأ إلي ، وإني أقسم أني لن أخبر أحدًا بوجودك عندي ؛ لأني أخاف عليك من أولاد الحرام والسفر في البر وحدك ، وما كل مرة يسلم الإنسان من اللصوص والذئاب ثم أعطتني ريالا وقبلتني ؛ لأنها لا تستيقظ إلا في الضحى ، وأنا سأغادر الدار قبل طلوع الفجر إلى المدرسة ثم الدار .

وكذلك المطلقات

والمطلقات وغيرهن من ساكني الدار كل واحدة قدمت لي حلوان من القطع الإستانبولية[1] ودعت لي وقبلتني ـ رحمهن الله جميعًا ـ وبقي دور الحسناء.

عناق وبكاء حتى مطلع الفجر

إنها لم تنم في تلك الليلة كمثل ما فعلت أمي المرضع ليلة أخذي من عندها لأول مرة كما سبق شرحه سابقًا عينًا بعين وضاقت الدنيا في وجهي وصرت أبكي مثلها وأقول كما قال النابغة:

لا مرحبًا بغد، ولا أهلا به　　　إن كان تفريق الأحبة في غدِ

وسرعان ما انقضت تلك الليلة الموحشة التي أذنت بالفرقة والارتحال وهكذا الدنيا نزول وارتحال: وما أصبح الصباح وأقبلت تباشيره حتى أخذتني إلى الخارجة وجمعت أشخاط الفحم فبلغت ستين شخطًا يعني خمسة عشرة مجيديًا وهي تساوي من الجنيهات الذهبية أكثر من اثنين، فقالت: «هات أحد عشر ربعًا وخذ ثلاثة جنيهات» فأخرجت من برمة السروال اللفائف التي أعددتها للمغامرة ودفعت لها المبلغ المطلوب وأخذت الجنيهات جعلتها مع

---

(١) القطع جمع قطعة، والإستانبولية: نسبة إلى إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية إذ ذاك.. والقطعة اسم عملة بمثابة القرش.. وقد عربها الحجازيون من القرش إلى القطعة كما عربوا ربعها إلى (هلالة) لوجود صورة الهلال فيها.. ثم لكثرة التداول حذفوا الألف وفتحوا الهاء فقالوا فيه «هللة».

الأرباع ولفقتها وبرمتها وأرجعتها كما كانت .. وهذا أول ذهب أقتنيه في حياتي . وهذه الحسناء أول من اطلع على برمة السروال وما بها من نقود ، وأول من اطلعت على أسراري واطلعت على أسرارها ـ رحمها الله وأسكنها فسيح جناته .

رجعت المياه إلى مجاريها

وانتقلنا إلى البيت بعد تعميره وتبييضه ، وانتهت أفراحي ورجعت الكآبة وألواح العيش وخدمة البيوت وإيصال الزنابيل ؛ لأنهم وثقوا بي بسبب سفر أمي المرضع إلى الزيمة وغلب على ظنهم أني لن أهرب وأمنوا بذلك ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

مشاورات ومعاهدات

وأخذنا ذلك اليوم من الصباح حتى المساء ونحن ننقل في الأمتعة من بيت شربة إلى بيتنا بباب الدريبة وآخر ما نقلته بقشة أو صرة ملابسي التي كانت عند أمي الحسناء حيث أخذتني في ركن من أركان البيت وعاهدتني أنها ستكون بجانبي عند الشدائد ، وأنها سوف تضحي بالشيء الكثير من أجلي حتى لو اقتضى الأمر خروجها من عند « أم المكارم » ، وهذا إذا ما نفذت المغامرة الكبرى التي أزمعت تنفيذها للحاق بأمي المرضع وهربي نهائيًا من الحضر إلى غير رجعة .

قالت : أنا منقطعة ولا أهل لي إلا أم المكارم التي آوتني ، وإلا ولدي البالغ من العمر ثمانية أعوام الذي أخذه أبوه وطلقني وحرمني منه وسافر إلى بلاد

الخارج لجهة لا أدري بها ولا أعلم عنها والله موجود ويكافئ كل ظالم ، وإني أطلب منك إذا قررت الهروب نهائيًا أن تخطرني وأنا مستعدة لاستئجار قاعة أو عشة في أطراف مكة وتسكن معي وأقوم بشئونك ومصروفك والدفاع عنك وأفديك بحياتي ، فقلت لها : ذلك ما أبغيه وأنشده ووعدتها بذلك وانصرفت .

وأم المكارم أيضًا

ثم سلمت على أم المكارم السيدة خديجة شربة ـ رحمها الله ـ وودعتها ، فأمهلتني قليلا وطلبت لي كوبًا من الشاي وقصت علي قصة قصيرة ؛ لأني كنت من هواة القصص في صغري ، ثم قالت : يا ولدي أنا الآن عجوز في السبعين من عمري وقد كنت في شبابي من المشار إليهن بالبنان وكان بيتي كعبة القاصدين وكنت وكنت ، حتى حرم الأشراف كن يزرنني ويسمعن الأغاني عندي وكانت فلانة وفلانة حرم الشريف كذا وفلانة حرم فلان ، وكانت الشريفة (عزة) تجلس في هذه البقعة وأشارت بيدها إلى جهة من أركان المجلس ، وكانت الشريفة (شمسية) تجلس هنا والشريفة (هيا) تجلس هنا ، وكانت المطربة فلانة تجلس هنا وكان وكان ، والآن أقول : الحمد لله ولو ما بقي من الشاة إلا أذنها ، فقلت لها : إذا كان هذا أذن الشاة إذًا كنت حاكمة البلاد ؛ لأني رأيتك أشبه ما تكونين بالملكة المحبوبة وأنت في هذا السن فما بالك بأيام الشباب ؟ فقالت : لكل زمان دولة ورجال . ثم أضافت قولها : إنني أطلب منك الآن أن لا تهرب إلى الزيمة ، مهما يحصل لك من ويلات ومن عقاب ، وإذا أزمعت وأجمعت فالجأ إلي ، فإني سأجيرك وأحميك وربما أكتم

عن أهلك خبر بقائك عندي دهرًا طويلًا . فقلت لها : إن شاء الله وبينما نحن في المحاورة إذا بالعمات يصفقن من الروشن ويقلن لأم المكارم : ما للولد قد تأخر إلى هذا الوقت ؟ ، فالتفتت إلي قائلة : الناس في الناس والعنز في النفاس ، ثم قالت للعمات : أنا أجلسته وهو جالس عندي يحتسي الشاي ويودعني ؛ لأني أحبه ويحبني ، ثم صرخت في العمة الكبرى وقالت لها : إياك ومعاقبته ، وإياك وإياك ، ثم طلبت منها أن أقيل عندها كل يوم جمعة عوضًا عن أمي المرضع التي حرمت منها ، فوعدتها بذلك ولكنها كانت مواعيد عرقوب .

الرسوب في الامتحان

ودخل شهر ذي القعدة وفي نهايته بدأ الاختبار بمدرسة الخياط ولسوء حظي رسبت وضربت علقة ضعف العلقة الأولى لدرجة أن الدم نضح من قدمي ، وهذه العلقة من ناحية العم ـ رحمه الله ، وفي انتظاري علقات وعلقات فأزمعت على تنفيذ المغامرة الكبرى والاختفاء نهائيًا .

والحمد لله أنا الآن أحسن حالًا من ذي قبل إذ كونت جمعية صداقة من التكارنة أصحاب العشش بحبل الفلق وجمعية صداقة ببيت شربة وبيت الفتياني ، والدراهم التي هي روح المغامرة في وسطي ، ولا ينقصني إلا التنفيذ ، وصرت أترقب الوقت المناسب للشروع في المشروع الكبير .

موت أم المكارم

وكانت مفاجأة لي وصدمة لم أتوقعها ولما يمض على انتقالنا من دارها أكثر من شهرين وبموتها ـ رحمها الله ـ ارتبك البيت الكبير الذي كان يعج بالأرامل

والمطلقات واهتز الملجأ هزة عنيفة وصرت أسمع من الزائرات لنا كلمات لم تعجبني وأسترق السمع بخروج فلانة وفلانة وأقول في نفسي : يا رب لا تجعل فلانة منهن ، وكنت لا أنام من توالي المصائب والآلام والوحدة والفرقة .

بدأنا وعلى الله توكلنا

وكانت ليلة صائفة شديدة الحرارة وطلع العمات السطوح قبل العشاء للصلاة والنوم ، وأمرت من قبل العم بفرش الخارجة ؛ لاستقبال ضيوف السهرة الذين يلعبون الضومنة والجوكر ، وصعد العم مبكرًا مع صاحبه المالكي حيث جلسا في الخارج لاستقبال الأصدقاء ، ومن حسن الحظ أنهم جاءوا جميعًا قبل صلاة العشاء ، وكان فيهم العم أحمد باسلاسل ، والشيخ علي عبد الله مفتي ، والشيخ أحمد سنبل ، والشيخ عبد الغني بشير ، والشيخ عبد الوهاب نقلي وغيرهم من الأصدقاء .

وكان كل واحد منهم إذا وصل ينادي من تحت الدار فأهبط إليه مسرعًا بالسراج منيرًا ومرحبًا ومشيعًا حتى يصل إلى الخارجة وحتى إذا ما تم العدد هبطت ثانية لعمل الشاي وتقديمه إليهم ثم الانتظار حتى تتم السهرة فأهبط مع كل واحد منهم على انفراد لأنير له الطريق بالفانوس حتى باب الزقاق ثم أغلقه وأصعد ، وهكذا دواليك حتى يخرجوا جميعًا ثم أقفل الباب وأصعد لأصلي ثم أنام ، وكانت مكة من غير كهرباء ، وكنت أقوم بعمل (الشيش) علاوة على عمل الشاي لمن يشرب تنباك « الحُمِّي » ـ بضم الحاء وتشديد الميم وكسرها ـ وهو تبغ عجمي ورقه عريض يغسل ثم يوضع في رأس الشيشة مع جمرات صغار ، وقبل المنام أذاكر دروسي وأغسل أواني الشاي ، وأرتب المطبخ ،

ويكون قد مضى من الليل معظمه، والويل لي إن لم أنهض قبل طلوع الشمس؛ لإحضار اللبن من أبي النجا أو المستعجل ـ رحمهما الله ـ وقد تقدمت ترجمتهما.

الفرصة سانحة

وكان الناس في صلاة العشاء والعمات في السطح، والضيوف في الخارجة، وكانوا قد استكملوا النصاب وأيقنت أن لا أحد يراني فيما إذا ولجت بيت شربة؛ لأن العم «سالم شربة» في المسجد ولا ينصب سريره أمام البيت إلا بعد العشاء بساعة على الأقل، والعمات غائبات بالسطح، وإلا فأين أفلت من أعينهن؛ إنهن لا يفارقن الروشن المطل على بيت شربة.

يا لها من فرصة ومن ساعة مباركة، نزلت لعمل الشاي ولكني لم أوقد النار ولم أعمل أي شيء، سوى تبديل ملابسي وشد لفائف الدراهم وضبطها في برمة السروال ـ بفتح الباء ـ ثم خرجت وذهبت إلى بيت شربة وكان مظلمًا ومفجعًا لوفاة سيدته وكانت العبرة قد سبقتني في طريقي إلى مجلس أمي الحسناء حتى تعثرت في الدرج وشج جبيني فضمدته الحسناء التي قابلتني بالبكاء والعناق فأخبرتها سرًا بما عزمت عليه وقلت لها: إني ذاهب إلى أمي المرضع بالمعابدة لأختفي عندها حتى الصباح ثم أدبر أموري، وإن لم أجدها فسوف أهرب إلى الزيمة.

وقلت لها: أنا لازلت على العهد حسب ما وعدتني، فإن كنت مستعدة لما قلته لي فإني معك حيثما تكونين، أما هنا في هذه الدار فمن المستحيل بقائي كما تعلمين، فارتبكت وبكت وقالت: هذه مفاجأة ولا أستطيع عمل أي

شيء في هذا الليل البهيم وخطتنا تحتاج إلى وقت لا يقل عن شهر، ثم زادت في النحيب فقلت لها: اخفضي من صوتك لئلا يفهم من بالدار ما نحن بصدده خوفًا من الفضيحة، فقالت: ما العمل؟ وكيف أصبر على فراقك؟ وأنى لي أن اطمئن على مصيرك المجهول؟ فقلت لها: خففي من روعك وجففي من دمعك، ولابد للأحياء من التلاقي وأني سأحاول الاتصال بك في المستقبل إن شاء الله، فقالت: المستقبل مجهول وغامض، ولا بقاء لنا بهذه الدار بعد وفاة صاحبتها التي كانت جامعة لشملنا وتصرف علينا، وترثي لحالنا وتقوم بشئوننا، وها هو ذا الوارث الجديد قد أنذرنا بالإخلاء وبيع الدار إن كان صادقًا، وقد رحل نصف السكان وقد طلبنا نحن الباقيات مهلة فأمهلنا شهرًا واحدًا.. ثم طلبت عنواني فقلت لها: هل للهارب من عنوان؟ إنما مرضعتي تسكن بالمعابدة بجانب دار العمدة فابحثي عنها هناك لتدلك.. وأعتقد أنها بالزيمة وأرجح ذلك، إنما لك أن تسألي عنها غدًا في الضحى لتطمئني علي، وإياك أن تسألي عني لئلا يتهموك بشيء، ولك علي إن لم أجدها أن أنتظرك قريبًا من دارها إلى الظهر لكن بصفة «متنكر» فحومي حول الدار وامشي الهوينى وتلكئي حتى أصادفك؛ لأني لن أجلس على عتبة دارها ولا على عتبة دار العمدة لئلا يقبضوا علي، أما الآن فإني ذاهب إلى جبل الفلق لأنام عند الزنوج في عشاشهم، وشرحت لها القصة، وفي الصباح سأذهب إلى المعابدة.

فإن كانت المرضع موجودة فستجديني عندها وإن وجدتها مسافرة فإني سأحوم حول دارها إلى الظهر في انتظارك وإن لم تصلي في هذا الميعاد فإني سأرحل إلى الزيمة ـ إن شاء الله ـ ولا تخافي علي، والله معنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قالت : وهو كذلك ! ثم قالت : ليس لي بقاء بهذه الدار وأنا كنت مصممة على استئجار عشة في ضواحي مكة بشرط أن تكون معي . أما إذا كنت غير موجود فلا يمكنني ذلك ، وإن سدت الطرقات في وجهي ويئست منك ـ لا سمح الله ـ فسوف أسافر إلى المدينة مع قوافل الحجاج ؛ لأكون قريبة من ولدي هناك فلربما يغير الله القلوب ويردني زوجي فأكون بجانب ابني ، ولن أنساك أبدًا ، فأنت ابني الثاني ـ إن شاء الله ، ثم قالت : لقد سمعت برجوع مطلقي من الخارج وهو بالمدينة الآن .

ليلة الزنوج

ثم ودعتني وقبلتني وحضنتني وقالت : هل تريد دراهم ؟ فقلت : أبدًا عندي ما يكفيني لدهر طويل ولا أطلب إلا الدعاء والتذكر والوفاء بالوعد إن العهد كان مسئولًا .

ثم طلبت منها ألا تخبر أحدًا من السكان بهربي وأن تكتم السر ثم خرجت على رؤوس الأصابع حافيًا أتوجس خيفة من الدار التي تعج بالنسوة لئلا يفتضح أمري وينكشف سري ثم سلكت طريق سويقة ثم خان أبي عدس ثم القرارة وبعدها جبل الفلق ، حيث عشاش الزنوج التي بت بها حتى الصباح ، وقد تناولت معهم أكلة (الويكة) بلغتهم وهي رؤوس الباميا الجافة ويطحنونها ويطبخونها ويغمسونها بالعيش ويسمونه (قراصة) بضم القاف بلغتهم أيضًا ، وهي أكلة العشاء ليلًا كما أنها المفضلة لدى جميع التكارنة مع قطع من الشرموط بلغتهم وهي شرائح اللحم المقدد . وهؤلاء الزنوج بسطاء سذج براء من العيوب المتفشية لدى الأوباش وهم بدائيون بالطبيعة لا يعرفون الفضول ولا

يدخلون فيما لا يعنيهم إذ لا احد منهم قال لي : لم جئت ؟ ولم ذهبت ؟ بل اكتفى كل واحد منهم بالسلام والبشاشة والمقابلة الحسنة .

وعشاشهم مبنية بالقش وسعف النخيل والحلفاء ومحاطة بسور من الأحجار ويغرسون على حافتها الشوك وكل عشة لها عرصة فسيحة ينامون بها وقت الصيف ، ومن حسن حظي كانت تلك الليلة من ليالي الصيف الحارة .

رحيل المرضع

صليت الصبح بغلس وهم يقومون آخر الليل يتهجدون ويسبحون حتى أذان الفجر ـ ثم قام أكبرهم سنًا وأَمّ أربعة وخلفهم أربع نسوة وأسبلوا أيديهم وكانت قراءتهم عبارة عن رطين بسبب عجمة اللسان ـ عفا الله عنا وعنهم ـ وبعد الصلاة صافحتهم واستأذنت منهم فأشاروا بأيديهم أن أجلس ؛ لأني لا أعرف كلامهم ولا يعرفون كلامي ، فقلت لهم : سآتيكم بالحناء مع السيد أحمد فتياني ، وكانت المكالمة بالإشارة والأصابع ففهموا مني وأذنوا لي .

خرجت في الظلام وخببت في السير حتى وصلت بيت أمي المرضع فلم أجدها لسوء الحظ فأيقنت آنذاك صحة ما قاله العم والعمات . ولكني أحببت أن أطمئن أكثر فأكثر فانتظرت على عتبة باب دارها حتى طلعت الشمس ثم ذهبت إلى بيت شيخ المعابدة فقرعت الباب فأطلت جارية حبشية من النافذة فسألتها عنها فقالت : إنها قد سافرت منذ زمن طويل فحزنت وتأسفت ، ثم أطلت سيدة الدار وقالت : من الطارق ؟ فقلت فلان بن فلان فعرفتني وقالت : أمك سافرت بعد ما يئست من لقائك ، إنها صبرت وصبرت حتى عيل صبرها ، وقلنا لها : اذهبي إليهم واسأليهم عن ابنك ، فقالت : جاءها رجل من

أهلك يحذرها وينذرها بعدم الزيارة مطلقًا ، وأخبرها أن زيارتها كانت سببًا في رسوب الولد بالمدرسة .

ثم بعد شهر جاءها أبوك وعمك وبعض الرجال وأعطوها نقودًا ومنعوها من الزيارة خوفًا عليك من التعلق بها ، ولكنها لم تقبل النقود بل حذفت بها ونثرتها ، خارج الدار ثم بكت ولكن لم يغنِ البكاء ولا النحيب .

ثم انتظرت شهرًا آخر ولكن دون جدوى ، وأخيرًا قطعت علاقاتها من مكة ورجعت إلى الزيمة .

ثم سألتني : هل أنت هارب ؟ فقلت : معاذ الله إنما وجدت فرصة وجئت لزيارتها . ثم ذهبت إلى بيت العم إبراهيم التلمساني ؛ لأن أهله من صديقات المرضع فأخبرتني الخبر نفسه ثم صرت استقري بيوت صديقاتها واحدة بعد الأخرى وكلهن في حارة المعابدة حتى جاء الظهر وانتهى الميعاد الذي ضربته لي الحسناء .

فأيقنت أنها هي الأخرى لم تتمكن من إنفاذ الخطة التي رسمتها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

رؤوس الجبال

خرجت من المعابدة وذهبت إلى سوق المعلا واشتريت عيشًا وجبنة وتمرًا ثم سألت عن ميعاد سفر حمير الزيمة فقيل لي بعد يومين ، فذهبت إلى الجبل الأبيض وتسلقته حتى القمة بحيث لا يراني إلا الطيور ورب العزة .. أكلت الطعام وصبرت على الماء وكان الوقت حارًا حتى غربت الشمس وأظلم الوقت ثم هبطت إلى السفح وسرت نحو بيوت الصديقات لعل الحسناء تصل

وتبحث عني وبدأت بسؤال بيت الشيخ فقالوا لي : لم يصل أحد يسأل عنك ، ثم عرضوا علي المبيت عندهم ، فرفضت وأنا أعلم علم اليقين لو أني بت عندهم لجاء الزبانية وقادوني كما تقاد الشاة ، كما فعل بي في المرة الأولى ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وأنا الحمد لله في هذه المرة مستعد ومعي العدة الكافية من كل شيء وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، إنما طلبت منهم ماء أشربه من شدة ما بي من الظمأ فبعثوا إلي بشربة فشربتها عن آخرها وشكرتهم وحمدت الله ثم مشيت إلى حيث لا أدري .

جبل النور

وأنا لم أعلم أنه جبل النور إلا بعد عشرين سنة من تلك المرحلة . وذلك أني لما تركت بيت العمدة سرت نحو سوق المعابدة والناس في صلاة المغرب .. اشتريت قربة صغيرة وسكينًا ومشعابًا وثوبًا حربيًا ونسمة ومقاضي العشاء ثم سرت سير الخائف المترقب لا ألوي على شيء ، ولا أدري : إلى أين ذاهب ؟ حتى وصلت قدماي إلى سفح جبل فتسلقته ولم أكن أعلم أنه جبل النور ولا أعرف من أسماء الجبال شيئًا ، وعندما وجدت الغار ولجته ومكثت نحو عشرين دقيقة حتى جف العرق واطمأن القلب وسكن الروع .

تناولت العشاء وشربت الماء وغسلت وجهي ورأسي وانتضيت السكين من غمدها وقبضت عليها من المقبض للهجوم على أي طارق من حيوان أو إنسان وجعلت المشعاب تحت رأسي مع الثوب الحربي ، وهو ما تسميه البدو ، أما المتحضر منهم فيسميه بالحمودي (بفتح الحاء وضم الميم المشدودة) وهو إحرام مقلم اللون أشبه بالأرجواني نسيجه محكم يستعمله البدو عمامة وحزامًا ،

والثوب الحربي من لباس البادية أيضًا لا يختلف عن الثوب الحضري إلا في الأكمام ، فإنها واسعة جدًا بحيث يظهر الإبط إذا رفه لابسه يديه وأما النسعة فقد تقدم معناها سابقًا مع الشواهد .

وهذا كله تخيلات وإلا في الحقيقة لو هجم علي قط لما استطعت مقاومته وقد غلبتني امرأة كما سيأتي فيما بعد ، لكن لصغر سني وشدة خوفي يتراءى لي أني سوف أفعل كذا وأفعل كذا كما تخيلت أني أستطيع المنام وأنا لا أقدر على مد رجلي لضيق الغار ، وأخيرًا جعلت المشعاب والقربة والثوب الجديد الحمودي في وجه الغار كالترس والسكين بيدي كأني من صحيح أنظر إلى ذئب أو عدو يهاجمني أو لص يسرقني وجلست الليل كله أفكر وأنعس وما أطول الليل على الخائف والرعديد والجبان والمريض والعاشق والحزين .

انقضى الليل البهيم بسلام وانبثق الإصباح فخرجت من الغار متأبطًا مشعابي وسكيني وثوبي الجديد وحمدت الله على السلامة وهبطت إلى السفح وقبل وصولي إليه أبصرت أناسًا من الجاويين والبنغاليين يتسلقون صعودًا إلى هذا الجبل فخفت منهم وشككت في أمرهم فرجعت القهقرى وغيرت اتجاهي وهبطت من الناحية الثانية التي ليس بها أحد .

وأسرعت ماشيًا حتى وصلت المعابدة وقصدت سوقها وأفطرت في أحد دكاكين البدو وملأت قربتي ماء ورحلت إلى جبل آخر هو جبل الأخشبين ، وفي الحقيقة لولا أن سفري في اليوم الثاني إلى الزيمة حقيقة لا مراء فيها ، لذهبت إلى عشاش الزنوج للاستراحة والنوم ولكن وجودي بهذه النواحي أضمن للسفر والهرب وكان من حظي في هذا اليوم أن رأيت راعي غنم يسوق

أغنامًا كثيرة ومعه صبية وامرأتان بدويتان في طريقهم إلى حراج الغنم بالخريق ، فمشيت خلفهم متنكرًا لكن عن جنب للاستئناس ليس إلا ، وعندما غربت الشمس تركتهم يدخلون البلد وصعدت الجبل إلى قمته ولكني لم أجد به مغارات على الإطلاق فهبطت وسلكت طريقًا آخر لأذهب إلى الجبل السابق وهو جبل النور لكن ضاع مني الطريق والليل قد احتلك فرجعت من حيث أتيت إلى سفح الأخشبين وقضيت الليل ولا أدري كيف انقضى لكن فرحتي بالسفر إلى الزيمة في هذا اليوم أنستني كل الأتعاب والأوصاب .

يوم الخميس والرحلة

وهو يوم المغامرة الكبرى واقتحام الأهوال والأخطار وقد أشرقت الشمس فذهبت إلى الخلاء وتوضأت بما بقي معي من ماء وسرت إلى سوق المعابدة وتناولت طعام الإفطار واشتريت محجنًا جديدًا ورميت الأول ؛ لأنه قصير واشتريت هدية لأمي وأختي من أقمشة البدو من السوق نفسه كما اشتريت خُسكُلا ووضعت فيه البن والهيل والزنجبيل وارتديت الثوب الجديد ورميت القديم مع المشعاب وتفقدت دراهمي التي في برمة السروال وعددتها من جديد فكانت أربعة جنيهات ذهبًا إفرنجيًا وثلاثين ربعًا وبعض القطع الإستانبولية والقروش النيكل فجعلت الذهب في البرمة اليمنى والأرباع في البرمة اليسرى وجعلت في جيوب الثوب الخارجية القطع والقروش وبعض الأرابع حتى إذا ما فتشت ـ لا سمح الله ـ لا يرى عندي غير ما في الجيوب وأما ما في البرمات فلا يعلمه إلا علام الغيوب .

أول هدية

ثم اشتريت حمصًا ولوزًا وقطعة من الدوت وصررت الجميع في الصرة ووضعت كل هذه الأشياء في أحد الدكاكين أمانة حتى الظهر وهذه أول هدية أشتريها في هذا السن وأقول في نفسي : سوف تفرح أمي إذا رأت ولدها يهديها المسفع الحرير ويقدم لأختها مثله من اللون الأزرق ومثله لأخته عجوة كما ستفرح بالفرحة وهي النقل الممزوج بالحمص واللوز والحلوى الشفافة المصبوغة باللون الأحمر وأحسن هدية بالنسبة للمشتريات القهوة وما يتبعها من هيل وزنجبيل وكل هذه الهدايا مع إضافة مشترياتي الآنف ذكرها ما بلغت عشرين ربعًا ، ما أجمل الرخاء ، اللهم ردَّ علينا ما ذهب وأعز المسلمين والعرب ويا ليت ذلك الزمان يعود يومًا .

بـدء الرحلة

تلهيت وتمشيت حول المحطة التي منها يسافر ركب الزيمة حتى إذا ما صارت الساعة العاشرة قبل الظهر شُدَّت الرحال من المحطة محملة بالمشتريات التي تحتاجها ضاحية الزيمة من بن وقهوة ونقل وغير ذلك مما لا يوجد بهذه القرية الكبيرة وكان الركب مكونًا من أربعة حمر ومن خلف الحمر ثلاثة من القرويين من سكان الزيمة وبأيديهم المحاجن يسوقون بها الحمير .

ولما غادروا المحطة ذهبت للحانوت الذي به الهدية فتسلمت الصرة وسرت على بركة الله سيرًا خفيفًا خلف الركب بحيث لا يراني أحد ؛ لأني سلكت الشعاب والأودية ولم أسلك الجادة حتى لا يطاردني أحد من أهل الخضرة المشار إليها وبالأخص إذا علموا أني هارب .

الخروج من الحدود

وعندما خرجوا من حدود مكة وتوغلوا في الطريق عطفت عليهم واشتركت معهم في السير بعد ما سلمت عليهم وعرفتهم بنفسي فعرفوني حالًا ، وقالوا : مرحبًا بولد فيصل (ويش علامك) جملة بدوية بمعنى : ما تريد إيش أخبارك ومعلوماتك ؟ فقلت لهم : أخذت رخصة من أهلي لزيارة والدتي المرضع بالزيمة قالوا لي : ولم لم تركب معنا من المحطة فقلت لهم : وصلت بعد مغادرتكم بنصف ساعة وجعلت أركض حتى لحقت بكم ، ثم أخرجت ربعين وقطعة استانبولية وقلت لهم : هل تركبوني بهذه الدراهم أم أسلك الشعاب وأتوكل على الله .

فقالوا : الله يحييك من غير قروش حنا أهلك ، فقلت لهم : لابد من أخذ القروش وإلا أحول عنكم فأخذوها وأركبوني ، (وحنا ـ بكسر الحاء ـ بمعنى نحن) .

بعد الركوب مباشرة تغشاني النعاس ؛ لأني لم أذق طعم النوم ليلتين ـ أما من ناحية الأمان والاطمئنان فإني واثق من القوم ؛ لأنهم كأهلي وإخوتي ولا أخاف منهم غدرًا ولا نكالًا وخاصة بعد ما قالوا لي : إن أمكم (هيف) تبكي على فراقك ليلًا ونهارًا ويا فرحتها بك وصار كل واحد منهم يقول والله أني أركض لها قبلكم لأخذ البشارة ، فقلت في نفسي : الحمد لله الذي بدل خوفي بالأمن .

الوصول

وصلنا بسلامة الله إلى الزيمة وفي الحال ذهبت إلى بيتي فوجدت مرضعتي

الحبيبة تحتسي الشاي فألقيت بنفسي وارتميت في حجرها وعانقتها طويلًا وذرفت عينها وبكت عيني بكاء الفرح وجمع الشمل ثم أسلمتها الهدية وكم كان فرحها بها ، وكم كان فرح الأخت والخالة .

وكانت تظن أني جئت زائرًا وأن أهلي قد بعثوني وبعثوا بالهدية ، ولكنها لما علمت أني هارب ضاق صدرها وتأسفت كثيرًا ثم سمع الحي بوصولي فجاءوا يهنئون المرضع بقرة عينها ، ولكنهم لم يعلموا بهربي وظنوا كما ظنت في أول الأمر .

حتى إذا ما أقبل الليل وذهب الكل إلى بيوتهم ولم يبق سوى الخالة حسون وأختي عجوة أقبلت على عتابها وقلت لها : كيف تهربين وتتركين ولدك ؟ فقالت : حاولت المستحيل في الوصول إليك حتى وسطت شيخ المعابدة والسيد شعيب وغيرهما ولكن مع الأسف . ولم تغن الوساطة شيئًا وأعيتني كل الحيل بعت أمتعتي ورجعت إلى بلدي .

فزع وخوف

وعدم استقرار وأهوال تشيب الولدان وتهد الأركان ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

قالت : قم إلى فراشك للمنام واخلع الملابس واستعن بالرحمن واستعذ بالله من الشيطان ، قلت لها : ما أنا بخالع ولا قالع وأني تعودت أن أنام بالملابس ، قلت لها : ذلك لئلا يظهر ما في برمة السروال من نقود ، لأنها أفزعتني حينما قالت : لا أمان لك عندنا ما دمت هاربًا ولا أقدر على الدفاع عنك ، والنقود هي رأس مالي وروحي عند الشدائد فرجحت كتمان سري ما دمت في حيرة

من أمري ، ثم اعتذرت وذهبت إلى الفراش وارتميت عليه كالقتيل ؛ لأني لم أنم ثلاث ليال قبل السفر وليلة السفر وهذه الرابعة .

واستسلم جسمي للرقاد ساعة من الليل ثم كتم نفسي الكابوس واختنقت وصرخت فربتت على ظهري وذكرت اسم الله ، ولكني استيقظت مما دهاني من الأحلام المفزعة وصار جسمي يرتعد ويرتع ، وقمت إلى السراج فأشعلته وغسلت وجهي ، وكذلك أمي أصابها ما أصابني وانتابها ما انتابني وصارت تحدثني بما جرى لها من أحداث ، وأحدثها كذلك حتى سألتني عن الهدية ومن الذي بعثها لها ؟ فقلت لها : أنا الذي اشتريتها وقصصت عليها قصتي كلها حرفًا بحرف ، إلا أن النقود التي معي أخفيتها عنها لصغر سني وحاجتي إليها ؛ لأني غير مستقر فصارت تبكي وأنا مثلها حتى إني ندمت على إخبارها بقصة هروبي ، ثم حاولت النوم من جديد وعبثًا أحاول فلقد طال ليلي وما أجد رقادي واعترتني الهموم .. وفي الصباح أخرجت من صرة كانت عندها فيها ملابس تخصني ، أخرجت منها ثوبًا حربيًا وسروالا وذهبت إلى العين فاغتسلت فيها وبدلت ثيابي وأرجعت قراطيس فلوسي ببرمة السروال ولم يراني أحد ـ والمراد بالثوب الحربي هو ما كان واسع الكم في اصطلاح البادية ـ ثم رجعت إلى القاعة وطلبت من المرضع طعامًا وشايًا فأحضرت لي ما كنت أحبه من العصيدة واللبن المخيض والموز اللذيذ والرطب الجني .

ثم خرجت بي إلى عمي أمير الزيمة ـ رحمه الله ـ لأسلم عليه فرحب بي وفرح بمقدمي ثم أخبرته بقصتي فاغتم لذلك وانتشر خبر هربي بالزيمة ، وأصبح حديث الخاصة والعامة فقال الأمير : بقاؤك عندنا خطر عليك وعلينا . ثم قال لأمي : إن لم نرجعه لأهله في هذا الأسبوع مع ركب الخضرة وإلا سيباغتوننا

بالعسكر ويجتذبونه منا بالقوة . فجلست تبكي مع الخالة ، وسلاح النساء البكاء ، فقال لها : لا فائدة من البكاء إنما يكون ضيفنا إلى يوم الخميس ثم نبعثه مع ركب الفاكهة ونبعث واحدًا من طرفنا ليسلمه إلى أهله يدًا بيد معززًا مكرمًا مبجلًا ونكتسب الجميل ، وربما إذا فعلنا ذلك يبعثونه لنا كل سنة ليمضي عندنا مدة عطلة المدرسة ، فوافقت على مضض هي وأختها وأختي خوفًا مما لا تحمد عقباه .

ضاقت الدنيا في وجهي

لهذا العزم والتصميم والإصرار على ترحيلي ، سقط في يدي لكن ما باليد حيلة ومضت أيام الأسبوع كأنها سحابة عذاب إذا أمطرتني بالويل والهول وصرت لا أتلذذ بنوم ولا طعام حتى جاء يوم الخميس ، وحان سفري فجاء الأمير عمي وقال لأمي : لقد وصيت فلانًا صاحب الخضرة أن يركبه ويحاذيه ويكرمه ويسليه حتى يصل إلى مكة ثم يترك الفاكهة مع العيال ويأخذه إلى أهله مع هدية منه لهم من الموز والرطب والليمون . فقلت للأم الرءوم : لقد ركبت المخاطر والأهوال وسلكت الشعاب وتسلقت الجبال حتى وصلت إليك ثم تبعثيني إليهم هدية في منديل .. فقالت : إني خائفة عليك وأهلك بطاشون يعذبونك ولا يبالون فلا تجعل نفسك عرضة للضرب والعذاب والحبس والعقاب .

ثم ودعتني كما ودعني العم وأركبوني حمارًا وزودوني بالفاكهة والهدايا من منتجات أرض الزيمة ووصوا علي أمير القافلة فغادرت الزيمة ، وكانت آخر مغادرة وآخر وداع للمرضع ـ رحمها الله ـ إذ لم تطل حياتها بعد هذه السفرة

ولم تعش إلا أعوامًا قليلة حتى لاقت ربها وسكنت إلى جواره وسيعوضها الله الجنة ونعيمها إن شاء الله .

أما الخالة فعاشت ثلاثين عامًا بعدها وأما الأخت قاطمة (عجوة) فهي لا زالت على قيد الحياة إلى تسجيل هذه المذكرات أطال الله في عمرها وبارك في ذريتها .

الهرب من القافلة

قطعنا الطريق من الزيمة إلى مكة ولا أعلم كيف قطعناه مما أنا فيه من ذعر وخوف ومن المصير المظلم الذي سيقابلني ويواجهني .

وصلنا بسلامة الله عند طلوع الفجر خريق (العشر) بضم العين وفتح الشين ، واسترحنا وأكلنا ما تيسر من الرطب والموز ثم نمنا ولكن لم أنم بل تناومت وتثاءبت حتى إذا ما غط القوم في سباتهم العميق تسللت من بين الهضاب وسلكت الطريق الآخر ، ثم عدوت عدوًا حتى وصلت الخريق فاشتريت خبزًا وتسلقت أحد الجبال ومكثت بالقمة حتى العشاء ثم هبطت وأنا واثق بأن القوم قد رجعوا إلى زيمتهم جارين أذيال هزيمتهم .

الفصل الرابع

اللجوء إلى التكارنة

وصلت إلى سوق المعلا وكان الناس يصلون العشاء في مسجد الجن وبجانب الباب أي عند مدخل المسجد المذكور رجل يبيع كباب الميري فاشتريت منه بقرش ربع رطل وأخذت أربعة أرغفة ورطلًا رطبًا وكنت مرتديًا الثوب الحربي ومتحزمًا بالنسع والسكين في وسطي والمحجن في يدي ومتصمدًا بالحمودي والنقود في موضعها المعروف.

ولا أحد يعرفني مطلقًا؛ لأني في زي البداوة وأتكلم بلغة قريش بائعي الفحم والخضرة وكانت مكة ـ شرفها الله ـ في ذلك الوقت لا تعرف الإنارة؛ إذ الشوارع العامة في تلك الأيام غير مضاءة إلا بالفوانيس المعتمة ولم تكن هناك أتاريك ولا قمريات إلا في القصور الكبيرة وكان الباعة يشعلون المسارج والمشاعل والحرم الشريف كان يضاء بالقناديل.

فالناس في الليل لا يعرف بعضهم بعضًا، إذا تلاقوا في الليل سواء في الشوارع أم المساجد أم الأزقة إلا إذا تعمدوا ذلك واستوقف بعضهم بعضًا، أما الجهات البعيدة وخاصة الفلق وعشاش التكارنة وجبل الكعبة، فالظلام دامس ولا يجرؤ أحد على الوقوف أو التسكع في الطرقات فكان الليل بالنسبة لي أكثر أمنًا من النهار كمثل طائر البوم.

ثم ولجت طريق الحلقة فالنقا فالفلق فعشاش التكارنة الزنوج ونزلت ضيفًا على عشة من العشش وقد سبق لي النوم عندهم وأعرفهم جميعًا عن طريق

المرحوم والد زوجتي السيد أحمد فتياني .. وهم في نظري أفضل من عرفت في ذلك الوقت بالنسبة لسني ؛ لأنهم بدائيون ولا يضمرون حقدًا لأحد ولا يطمعون في مال أحد ولا يعرفون السرقة ولا الفواحش ومعظمهم مهاجرون ويقيمون بمكة للعبادة وجلب الرزق وقانعون باليسير حتى الحمال منهم إذا جمع بضعة قروش في اليوم ذهب إلى كوخه ومكث به حتى الصباح ، ونساؤهم يسكن بهذه العشاش يطحنّ القمح الخاص بالشربة وطحنهم للقمح عبارة عن هروشة فقط كما تطحن الحناء وبعض الأعشاب والأبازير ، وإذا أدوا فريضة العشاء يسبحون الله بالنوى وهو الفَصِي (بفتح الفاء وكسر الصاد) بلغة عامة مكة[1] .

نزلت ضيفًا وقدمت ما اشتريته وكان أهل العشة التي حللت بها واضعين قصعة الثريد المكلل بالويكة في وسطهم يلتهمون طعام العشاء فوضعت ما معي من زاد وفاكهة وأكلت معهم وشربت الماء واحتسيت الشاي ونمت حتى الفجر وكانت ليلة هادئة جميلة .

خرجت من عند التكارنة وخرج معي بعضهم لطلب الرزق ؛ إذ منهم من يحمل زنبيلا عظيمًا ، ويذهب إلى الحلقة ، ومنهم من يصحب زنبيلًا وحبلًا غليظًا وبعض بدون شيء ويخرجون من عششهم بعد صلاة الفجر مباشرة من غير أن يتناولوا شيئًا ، وتبقى نساؤهم في العشش لطحن الحنطة أو الحناء .

مكثت بإحدى الكداوي حتى العصر أنتظر سفر الجلابة حتى لا يقبضوا علي ويسلموني إلى أهلي ، ثم سلكت طريق النقا فالمعابدة حيث سألت بعض

---

(١) والمدينة أيضًا .

أصحاب الدكاكين عن قافلة الزيمة فقال : إنها قفلت إلى الزيمة ولا ترجع إلا بعد أسبوع كعادتها ، فاطمأننت .

قوافل الحجاج

وكانت مكة ـ شرفها الله ـ في ذلك الوقت مكتظة بالحجاج الجاويين حيث كانت قوافلهم تسير ما بين جدة ومكة والمدينة وكذلك الهنود والبنغالة طوال العام ، فقلت في نفسي : حبذا لو أمشي مع القوافل تحت الشقادف على زي جمَّال ، أو بائع متجول أفعل كما يفعل هؤلاء .

وكانت عربات النفط (السيارات) في ذلك الزمان لم تصل إلى بلادنا ولا يعرفها أحد ، وكان الباعة المتجولون لهم شأن وشهرة وقد رأيت منهم من يحمل عكمة (بقشة) على رأسه وفي يده بعض الأنواع الموجودة داخلها ، كمثل المدورات والكفيات والأحاريم وبعض المنسوجات وبعضهم يحمل على رأسه زنابيل فيها الفاكهة وخاصة الرمان ، ويضع في يده حبات منه ويمشي تحت شقادف الحجاج الآتية من جدة أو الذاهبة إليها ، أو من المدينة أو إليها .. فالحاج الهندي أو الجاوي الذي لم يشتر هدية أو كان معه بقية من الدراهم وفاته الأوان لشراء ما يريده تحل الطريق مشكلاته ؛ إذ يشتري ما يريد من هؤلاء ويبدل من النقود ما يريد وهذا شيء رأيته بعيني ؛ لأني قضيت أيامًا في هذا المجال .

بيع الرمان

ورأيت بائعي الرمان من البدو ينادون تحت الشقادف : (دليمة دليمة) بفتح الدال وكسر اللام يعنون (الرمان) بلغة إندونيسيا ، فقلت في نفسي : حبذا لو

أمشي في هذا الطريق وأكون مثل هؤلاء الباعة وماذا سيحصل يا ترى؟ واستهواني شاب في سني تقريبًا يحمل زنبيلا على رأسه وفي يده حبات من الرمان اليانع، ولهجته بدوية، فاستوقفته واشتريت منه حبة بقرشين، ومن هنا عرفت حلاوة المكسب؛ لأن سعرها لا يزيد عن نصف قرش فصممت على أن أكون بائع رمان، وأن أكون ما بين جدة ومكة مثلي مثل هؤلاء، وسندي من الدراهم في حزامي، واستبعدت أن يكشفني أحد مهما طال الزمان أو قصر.

صداقة الطفولة

نفذت ما عزمت عليه وصرت أتتبع خطى هذا البائع الصغير وأمشي خلفه أحيانًا أو على بعد أشبار وكنت أظن أنه ابن أحد الجمّالة ولكن مضت مدة طويلة زهاء أربع ساعات ولم يتصل به أحد فتقاربت منه وكدت أناديه، ولكنه سبقني إلى ذلك فقال: علامك يا ولد؟ هل أنت من أولاد أصحاب هذه الإبل؟ فقلت له: نعم! لكن والدي مع قافلة الهنود التي ذهبت إلى المدينة أمس الماضي، وقد تخلفت عنه لمرضي والآن سألتقي به .. وقد تجاذبنا أطراف الحديث، ولكني لا ألهيه عن بيعه إذ عندما يناديه المشتري أبتعد عنه وهكذا حتى وصل بنا المسير (بحرة).

أكلة المعدوس

عندما شاهدت (بحرة) والمقاهي الكثيرة وكثرة ما بها من الحجاج القادمين من جدة ومكة وكلهم يحط رحاله بها للمبيت فتوقد النيران بها كما توقد في منى؛ لأن كل قافلة معها طباخ يطهو الطعام للخاصة منهم، وهو مزود من قبل

الشيخ أي شيخ الحرفة ، مزود بالأرزاق كمثل الأرز والسمن والعدس وبعض الخيام الصغيرة ، وتحمل هذه اللوازم على بعير أو بعيرين ويسمونها الكرار ، كما أن لكل قافلة شيخًا وخدمًا وعُدة كاملة حتى المساحي والنعش والسرير الذي يغسل عليه الموتى ، وذلك أنه عندما يموت أحد من الحجاج في الطريق يغسلونه ويكفنونه ويدفنونه في الحديبية أو بحرة أو في أي محطة تحط فيها الرجال .

وعندما استراح الحجاج جاء الجمالة وهم الآبليون أي : أصحاب الإبل التي تحمل شقادف الحجاج جاءوا بحطب ، وأوقدوا النار ، وطهوا أكلة المعدوس ، وصبوها في قصعة كبيرة وصبوا عليها عُكَّة من السمن فاشتهيت الطعام ، ووقفت على قصعة من تلك القصاع قبل تناول ما فيها ، وقلت لمن كان يصب السمن على القصعة : هل تبيعني من هذا الرز؟ فقال : لا ! فتركته ، وذهبت ولكن في نفسي شيء وتأسفت على الفضول ، وما هي إلا لحظات حتى لحق بي ذلك الرجل الجمال ، وقال : تعال كل معنا ، الله يحييك ، ففرحت لذلك ، ولبيت الدعوة ، وأكلت مع الجمالة تلك الأكلة اللذيذة الشهية ، ولكن البائع الصغير لم يكن معي على هذه القصعة ، فتأسفت لغيابه عني ، ولكن الله جمع الشمل به مستقبلًا .

وأكلة المعدوس هذه خفيفة ولذيذة لكن إذا أجيد طهوها وأخرج الحصى والرمال من الرز والعدس ، وكيفيتها أن يغلى الماء جيدًا ثم يغسل الرز والعدس الأحمر بعد التنقية ، ثم يرمى بهما في الماء المغلي ساعة من الزمن على الأقل ثم يوضع الملح وبعض الأبازير مع الثوم من غير تقشير ، ثم بعدما يشرب هذا الخليط الماء ويمتزج ويلين ، يطرحون فيه زبدًا أو سمنًا ثم يتناولونه .. أما البدو فيضعون الرز والعدس من غير تنقية ويطهونه في صفيحة من صفائح الغاز إذا لم

يجدوا قدرًا ، ومع ذلك فأكلتهم لذيذة بالنسبة للحاجة إليها وخاصة في السفر والبر .

مددت يدي إلى الزاد وأنا أجشع القوم وأعجلهم ازدرادًا لما حل بي من جوع وتعب ، ومن فضل الله لم يسألني أحد منهم من أنت ؟ ولم جئت ؟ ومن عادة العرب عدم الكلام على الزاد إذا بدأوا في التناول . ولما شبعت وشبعوا ومسحوا أيديهم في شعورهم وقالوا : الحمد لله ، فعلت مثلهم ، ودعوت لهم بدعاء البدو وانصرفت .

لن أذهب إلى جدة بل اكتفيت ببحرة والتنقل بين مقاهيها وبين الشقادف التي تصل من جدة والتي تصل من مكة وكانت بحرة محطة رئيسية لكل المسافرين ولا بد من المبيت فيها وتناول العشاء أو الإفطار بها وقد حدثتني نفسي أن أجعلها مقرًا لي ، لكنني عدلت ورجعت إلى مكة تحت شقادف الحجاج ، وإذا بي أتلاقى بالبائع الصغير : بائع الرمان قافلا إلى مكة وبيده الزنبيل خاليًا من الفاكهة .

استوقفته وحييته وسألته عن « الرمان » فقال : الحمد لله ، جَبَرتُ وها أنا راجع إلى مكة لشراء كمية من الحلقة ثم الرجوع لمواصلة البيع والشراء كما ترى .

سألته : كم ربحت ؟ فقال : إن متوسط ربحي في اليوم ستة عشرة قرشًا ، آكل منها أربعة وأجمع الباقي .. وهذا المبلغ بالنسبة لذلك الوقت أفضل من عشرين ريالًا بالنسبة لهذا الوقت الذي أدون فيه مذكراتي هذه ، ثم قال : أشتري كمية من الرمان اليانع الفاخر ، وكمية من المتوسط وكمية من الصغار ، وأقسم المجموع إلى أقسام كثيرة .. أربط كل قسم في جوال صغير من القنب ،

وأربطه جيدًا ، ثم أقذف به على الجمال المحملة التي تراها مثقلة بأمتعة الحجاج ، ولا ينكر علي أحد من الجمالة ، ولا يأخذ مني أي أجرة ، وهذا مما يسهل مهمتي .. وعندما يخلو زنبيلي من الرمان أتعلق برقبة البعير وأقفز على ظهره كي أتناول ربطة من بضاعتي أملأ بها زنبيلي وهكذا دواليك .. ثم استطرد قائلا : إني أشتري مع رماني كمية من العيش والشابورة والجبن لوجبات الطريق . وأما الشاي فأحتسيه في مقاهي الطريق كما ترى ، والربطة التي ترمى أو تعلق على برذعة البعير يسمونها علاقة ـ بكسر العين ـ عند العامة ..

المؤاخاة والمشاركة

قلت له : سأفعل مثلك فما رأيك ؟ قال : حبًا وكرامة ولكنك قلت لي أنك من أولاد الجمَّالة فكيف يرضي أبوك أن تفعل مثلي ؟

فأطلعته على بعض أحوالي فرثى لحالتي ، وقال : كيف تصنع ؟ وماذا تريد أن تفعله ؟ فقلت له : قد أعلمتك سابقًا ، والآن هل لنا أن نتشارك ونتعاون ، ونكون يدًا واحدة وكلنا أولاد البادية لغتنا وسجايانا وعاداتنا متقاربة حتى في الزي ؟

قال : توكل على الله ، وامش معي الآن نصبح في مكة إن شاء الله ، ونشتري الرمان من الحلقة ونقضي لوازمنا ، وما نحتاج إليه ، ونخرج قبيل الضحى مع القوافل والرزق على الله .. فاستحسنت قوله وقلت له : أنا معك في كل شيء ، ثم سرنا تحت القوافل ، وسرينا ليلنا كله ، وما أن أصبح الصبح حتى كنا في مقهى المعلم .

من هو هذا الغلام؟

سألته عن أبويه وعن هويته .. فقال : إنه يتيم ، وإنه من أهل المسيجيد بطريق المدينة ، وليس له سوى خالة واحدة تربيه وتعطف عليه وتجمع له نقوده التي يكسبها من البيع والشراء ، ثم قال : وهذه صنعتي ، وهوايتي ، كما ترى ، أكسب منها ـ والحمد لله ـ كما أني قد جمعت من رمضان للآن اثني عشر ريالًا مجيديًا ، فقلت له : وأنا سأكون رفيقك وشريكك في البيع والشراء والمكسب والخسارة والصداقة والسكنى والنوم . لكنني لم أقل له : عندي كذا وكذا ، وأن رأس مالي في برمة سروالي لئلا يحتال في نشله بأي طريقة تحدثه نفسه بها لا سمح الله ولا قدر .

الحلقة وبيع الجملة

ثم ذهبنا إلى الحلقة واشترينا بضعة أكوام من الرمان دفع حسابها من حسكله ، ثم قال : هات نصف ما دفعته ! فقلت له : مرحبًا ، وذهبنا إلى جانب حانوت سمان يبيع السمن لنعبئ الرمان ونهيئه للبيع والحفظ . ثم جعلت أفكر في كيفية إخراج النقود من السروال ، فأظهرت أني أحس بآلام معوية وتقلص في الكلية ، وطلبت من الفوال إبريقًا تلقاء ربع ريال لأرجعه إليه بعد قضاء الحاجة ليرد الربع ، ثم ذهبت بعيدًا خلف حراج العرعر والأعشاب وقضيت الحاجة ، وأخرجت من برمة السروال ستة عشر ربعًا من أرباع المجيدي وقسمتها بين الجيبين ، والحُسكل ، وربطة الحَمُّودي لأن البدو يعتادون على ربط نقودهم في طرف الإحرام الذي يتحزمون به ، ثم رجعت ، وأخذت الربع من السمان ، وأفطرت مع صديقي البائع الصغير ،

ودفعت له نصف المبلغ الذي دفعه للرمان وهو ستة أرباع .

الزنبيل على رأسي

ثم أبقاني عند الرمان وذهب ليشتري لي زنبيلًا مثل زنبيله كما اشترى خبزًا وجبنًا وتمرًا ، ثم رجع فعبأ زنبيلي ، وقال انهض على بركة الله بعدما حملني إياه وجعل في يدي رمانتين من الفاخر ، وفعل مثلي ، ومشينا تحت الشقادف نبيع الرمان على الجاويين والبنغاليين وغيرهم من الحجاج ، وكان بيعنا مقصورًا على طريق مكة وجدة .

وقد تعلمت من الشريك الصغير جملة كلمات من اللغة الهندية والجاوية الخاصة بالبيع والشراء ، فكان المعلم الأول لي في صغري ، كما كان أمينًا ذكيًا ذا مروءة واحتشام ، مراعيًا لحقوق الأخوة والصداقة ، لم أسمع منه قط كلمات الفحش والسباب والتنابز .

وقلت له يومًا : لماذا لا نتقدم إلى طريق المدينة حتى تكثر أرباحنا ؟ فقال : ومن أين نشتري الرمان ؟ فلم أراجعه بعد ذلك ، وعلمت أنه أعلم مني في هذا الميدان ، ونعم الرفيق والدليل كان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كما طلبت منه أن تكون مسيرتي ورفقتي معه قاصرة على طريق مكة وبحرة فقط ، وعندما يذهب إلى جدة أبقى في انتظاره في مقاهي بحرة خوفًا من القبض علي فوافق على ذلك .

وقضينا أيامًا على هذا النحو ، وكان ربحنا في اليوم ما بين الريال والريالين ، ولما حان وقت الحج ووقفت القوافل إلى ما بعد النزول من منى صرنا نبيع ونشتري في الحلقة نفسها .

نأخذ أحيانًا ليمًا وليمونًا وأحيانًا كُرّاثًا أو رمانًا من الفقش، ونمد خيشة من الجوت، ونضع عليها بضائعنا، ونبيع إلى المغرب، ثم إذا تبقى شيء نبيعه بثمن بخس حتى يتسنى لنا الذهاب إلى الضواحي؛ لأخذ الراحة الكافية، حتى نزاول نشاطنا لليوم الثاني، لكن أرباحنا كانت أقل من أرباح القوافل بكثير ولكن القناعة كنز لا يفنى، وكنا نعلل النفس بالآمال حتى تنجلي الأيام التي قبل الحج، لنعاود نشاطنا تحت القوافل بعد الحج - إن شاء الله.

الآبار المهجورة

وكنا بالليل ننام بالآبار المهجورة التي في جرول وغيرها من الأطراف.. وكنت أرى طائر البوم بداخلها وحمام رب البيت يبني عشه على حافات هذه الآبار، وكانت مستترة عن الأعين، وظلام الليل يسترنا عن أعين الناس، وأحيانًا نذهب إلى الجبال القريبة من الأبطح كما كنت أتنكر ولا أظهر إلا بالملابس البدوية، ولا أتكلم إلا بلهجة البادية، لئلا ينكر علي أحد، وكانت مكة مكتظة بالحجاج والمواشي والأنعام والمحامل المصرية والشامية. واتفقت مع شريكي الصغير أنه متى ما هاجمنا فضولي أو متسول أو منحرف فسندافع عن أنفسنا دفاع المستميت حتى العَسَّاس الذي يقودنا إلى البوليس، خوفًا مما جرى لي على يده في أول الشقاوة والبؤس، كما اتفقنا على أن نقول: «نحن إخوة وأهلنا بالمسيجيد بطريق المدينة، وجئنا نطلب الرزق ونبيع ونشتري على الحجاج فوافق وتعاهدنا على ذلك».

المـرض

ومكثنا ننفذ خطتنا والله ساترنا أيام معدودات . وذات يوم أصبح مريضًا وتلبَّسته الحمى ، وصار يهذي ولا أعرف له دواء ، وهو كذلك .. فصمم على السفر إلى أهله بالمسيجيد وقال : ما أجلس أبدًا ، فحاولت إقناعه ، ولكنه أصر وأزمع على المسير .

وقال : « إن شئت أن تصحبني فيا حبذا وإن شئت أن تبقى فالله معك وإذا أبللت من المرض فسأرجع وستلاقيني في الحلقة دائمًا وهذا أفضل عنوان حتى نتلاقى ، فترددت وكدت أصحبه ، ولكني عدلت أخيرًا ، وقلت له : توكل على الله وإذا رجعت بالسلامة فستلقاني في انتظارك ، إن سلمني الله من المعوقات والمعوقين .. ثم سافر بسلامة الله وبقيت وحدي ولم أره فيما بعد إذ سرعان ما ألقى القبض علي بعد بضعة أيام من رحيله كما سيأتي » .

ثم دارت الأيام دورتها ومضت سنون وإذا بي أرى غلامًا فارعًا متمنطقًا بحزام بدوي مفضض مطلي بلون الفضة ، وخنجر يطويه في وسطه على نمط ما يلبسه الأشراف وكبار القوم ، وعلى رأسه عقال جديد ، فاستوقفني وأنا خارج من مدرسة الفلاح ، وقال : أما تعرفني ؟ فتأملته كثيرًا وهو يبتسم متعجبًا . وبعد لأي عرفته ، فقد تغيرت ملامح وجهه ، ونبت له شارب هو الذي حيرني عن معرفته ، كما أنه متقلد مسدسًا وعليه عباءة خفيفة الحبك ، فاستغربت واندهشت ثم تعانقنا طويلًا وتذكرنا أيام الشقاء والبؤس ، لا أعادها الله ونسأله الستر في الدارين .

وأردت أن أقف على الحقيقة ولكن الفرصة كانت ضيقة وتواعدنا على يوم

الخميس في ساعة الانصراف من المدرسة ليشرح لي أحواله ، وجاء يوم الميعاد وانتظرني في دهليز مدرسة الفلاح وذهبنا إلى المسجد الحرام بباب علي ، وأوقفني على التفاصيل ما جرى له حتى أصبح سكرتيرًا للمستشرق الهولندي المسلم الذي يدعى (هندربول) وكنت آنذاك في مدرسة الفلاح في السنة السادسة ، لكنني لا أملك حريتي كما ملكها زميلي إذ كنت محاصرًا من كل جانب ، وأطلعته على سري وحقيقة أمري .

عرض علي المساعدة ، وقال : أنا لي مجلس خاص في بيت (هندربول) وأنا المسئول عن كل شيء وإني مستعد لتزويدك بالمال والسلاح وسأهديك فردًا (مسدسًا) ورصاصًا وأعلمك الرماية ولا تفكر في شيء .. فشكرته وقلت له : أنا الآن في طريق الهدى والرشاد وعما قريب ستراني أستاذًا ـ إن شاء الله ـ وسأعلمك الفقه والحساب ؛ لأنه لم يتعلم ، فاستجاب ووعدني بذلك وصار يتعهدني في كل شهر مرة أو مرتين يأتي إلى المدرسة وينتظر حتى أخرج ثم نمشي بعض الخطوات وكان كل منا راضيًا بما قسمه الله له .

ثم انقطع عني نهائيًا أكثر من سنتين ، فسألت عنه فقيل لي : إنه سافر مع عمه وانقطع خبره فإن كان حيًا أتقدم إليه بالشكر والدعاء ، وإن كان ميتًا اطلب له من الله الرحمة والمغفرة ؛ لأنه زميلي في المحن قضيت معه أيامًا لا تنسى وما أجمل الذكريات .

جولة في جبال مكة

بعدما فقدت هذا الصديق الصغير صرت وحيدًا لا أبيع ولا أشتري أنتظر أيام الحج لتنقضي بسلام ولكي أعود إلى القوافل وأرجع لممارسة بيع الرمان

تحت الشقادف بالطريق بين جدة ومكة ، منتظرًا فرج الله وتيسيره وهو القادر على إفراج أزمتي وحل عقدتي .

صرت أتجول فيما بين الجبال التي سبق أن لجأت إليها وتعودت على تسلقها سابقًا . وفي الليل أذهب متخفيًا إلى جبل الفلق عند الزنوج لأقضي الليل في عششهم ، وإذا أصبحت أذهب على عادتي آخذ تمرًا وخبزًا ومزادة صغيرة أملؤها ماء أشرب منه وأغسل وجهي إذا اشتد القيظ في الظهيرة وهكذا .

أماني عجيبة ومصادفات غريبة

تمنيتها وأنا في أشد أيام محنتي ، ويا ليتني لم أتمن إلا ما طاب منها ، ولكن ما حيلة المضطر ؟ والصغر شعبة من الجنون وكل إنسان يتمنى ولكنه لا يبوح بأمانيه إذا كانت منحرفة أو غير لائقة ، وأنا أبوح بها الآن وأقول لعل الله أن يغفر لي خطيئتي التي وسوس إلي بها الشيطان والله غفور رحيم ، وإني قد ندمت على تلك الأماني التي تحققت في ظروف سنوات ، الأمنية الأولى : تمنيت في قلبي وفكري وأنا صغير غير مؤاخذ ولكني ندمت على تلك الأماني التي منها أن الله ينسف بيتنا بباب الدريبة ويهلك من فيه جميعًا ؛ حتى أستريح من العذاب الذي أقاسيه من نسائه ورجاله ومن المضايقات والحرمان من أمي المرضع والأم الحقيقية والوالد الذي لا أراه إلا نادرًا ولو صادف الحظ ورأيته لنالني من الضرب والركل ما لا يخطر على بالي بسبب شكاية العمات على الغث والسمين لدرجة أن صرت خائفًا وأرتعد إذا سمعت صوت والدي وهو صاعد إلى المجلس عندما يتهيأ له أن يزور أخواته في الشهر مرة وأغلب أيامه في السفر ـ رحمه الله ـ وأسكنه فسيح جناته . وآمل ألا يؤاخذني الله بما تمنيت ؛

لأني صغير الجسم والعقل، ولم أبلغ الحُلم، وكانت هذه التمنيات في شكل تخيلات وإيحاءات يوحي بها الشيطان ولبئس ما يوحي وما يوسوس..

أما أمنية هدم البيت وموت من فيه، فقد تحققت على مراحل إذ في خلال عشر سنوات مات العم والعمات، وأخيرًا دخل البيت في مشروع التوسعة ويا ليته لم يهدم.. ويا ليت عمي وعماتي لم يموتوا ـ رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته،

والأمنية الثانية: قصر البياضية، إذ كنت ألعب بجواره مع الصبية، وكثيرًا ما أجلس عند مداخله أتذكر أمي المرضع وأيامها حينما كانت تسكن بالقرب منه، وكان الشرطي يطردنا ويطاردنا، وأقول في نفسي: يا ليتني صاحب هذا القصر، أو يا ليتني أجلس في نافذته وأنظر إلى هذا الخريق الفسيح من غير أن يضايقني أحد أو يطردني شرطي كما هو حالي الآن، وقد حقق الله هذه الأمنية في أثناء الحرب العالمية الثانية عندما اختارتني مديرية المعارف العامة لمذاكرة ومراجعة بعض الدروس لسمو الأمير منصور بن عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله، وكان وزيرًا للدفاع آنذاك وقد مكثت معه زهاء خمسة أشهر ما بين الرياض والقنص ومكة، وكان نزوله في مكة في هذا القصر بالذات، وكنت أمضي الأوقات الكثيرة في هذا الروشن الذي كان حلمًا من الأحلام يومًا ما، وما هي إلا مصادفات عجيبة، وذكريات غريبة، تمر على الفتى في أيام محنته..

ولما أراجع نفسي وأنا في هذا الكشك أحتسي الشاي، تمر علي فترات وأنا سارح وغارق في التفكير العميق، متذكرًا تلك السويعات العصيبة التي مرت بي في صباي وأنا أتسكع تحت هذا القصر مع الصبية المشردين تارة نطرد،

وأحيانًا تلحقنا عصا الشرطي الحارس ، فسبحان من بيده تصريف الزمان ، ونسأل الله حسن العاقبة في الأولى والآخرة .

عمر الشقاء قصير

وهذا كلام العامة في مكة ، وحق ما قالوه ، لكنني كنت متسليًا بعض الشيء على الرغم مما أنا فيه من شقاء وتشرد وحرمان ، فقد كنت على ثقة بنفسي ، وخاصة بعدما تفتحت في وجهي أبواب الرزق والكد والربح .

وما كنت أخاف إلا من عيون الرقباء ، والقبض علي ، والزج بي في السجن ، وتنفيذ أقصى العقوبات على بدني الصغير ، ولا سند ولا ناصر لي إلا الإله العلي القدير .. والله قد سلمني من الأيدي العابثة والأعين الغامرة طوال الأيام الثمانية .

وعندنا في مكة خاصة يسمون الأيام من أول ذي الحجة إلى يوم الوقوف بعرفة .. يسمونها (الأيام الثمانية) يعني أن الموسم تشتد فيه الحركة التجارية من أول يوم في الحج إلى يوم الثامن منه ، ففي هذه الأيام التي سافر فيها صديقي الصغير جُبتُ جبال مكة كلها ولم تثبت قدمي في موضع إلا وقت النوم ، وكنت أقضيه في عشش الزنوج التكارنة بجبل الفلق ..

ولما كان يوم الوقوف بعرفة وبدأ الناس يذهبون إلى منى وعرفة أفواجًا أفواجًا ، وامتلأت الطرقات والمسالك والشعاب ورؤوس الجبال بأهل اليمن والحجاج خفت على نفسي من الوقوع في المهالك ، وخاصة بعدما أعلن الزنوج أنهم سيحجون عن بكرة أبيهم أنهم سيقفلون العشش إلى اليوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة ، ضاقت الدنيا في وجهي فصرت ألوذ بالبيوت التي كانت

ترتادها أمي المرضع ـ رحمها الله ـ فكنت أجلس على أعتابها أعلل لنفسي وأقول : لعل المرضع تأتي من الزيمة للحج ، أو خالتي أو أي قريب من أهل الزيمة ؛ لألوذ به وأستجير ، أما السفر إلى الزيمة فمستحيل ، وخاصة بعدما أرجعوني قهرًا وقسرًا كما سلف ذكره .

ولو طلعت إلى عرفة لرآني كل الناس وبخاصة أهلي فإنهم لا شك سيرونني ويلقون القبض عليّ .... يا هل ترى ما الحيلة في البعد عن الأعين حتى تنقضي الأيام الخمسة ويسلك طريق مكة وجدة والمدينة وأرجع إلى حالتي الأولى ؟ ويا هل ترى متى يرجع صديقي الصغير من المسيجيد ؟

وكان يوم الوقوف بعرفة

وكانت مكة خالية من الحجاج والناس . ولم يصل أحد من أهل الزيمة .. حتى الصبية الذين يلعبون معي حول بيوت المعابدة ذهبوا إلى الحج فانكشفت انكشافًا تامًا أمام أعين المخلفين في الخُلَيِّف ـ بضم الخاء ـ وكلمة المخلفين والخليف يأتي شرحهما فيما بعد في المفردات إن شاء الله .

بيت التلمساني

ومكة في أيام الخُليف يزداد فيها الخوف ، وتزداد السرقة والحوادث والخطف والنشل ، وتظلم الشوارع ، وخاصة تلك الأيام في أيام الشريف الحسين ـ رحمه الله ـ إذ لا أمان ولا كهرباء ولا اطمئنان .

القيس

وكان بعض السيدات من اللائي تخلفن ولم يحججن ، يخرجن بالليل

يلبسن زي الرجال ، متسلحات بالخناجر ، ومعتجرات ببعض ما يُشَدُّ به الرأس من العصائب والخرق ، متجلببات ، ومتشلحات بالعباءات والمشالح الثقيلة ، ومتلثمات بكلل خاصة ، ويصطحبن بعض الجواري والغلمان ، وبعضهن يحملن الطبول ، فيطفن بمكة كلها والغلمان يدفون على الدفوف ، ويقرعون على الطبول ، والبعض يرقص ويلهو ، وبعضهم يلبس ما يشبه فراء الغزال ، ويرقص ، ويسمون هذه اللبسة وهذه الرقصة بالغزالة ، كما يسمون هذه الحفلة وهذه الخرجة بالقيس (بفتح القاف وتسكين الياء ثم السين) وغالبًا ما تبدأ هذه الخرجة من جرول ومن المعابدة ، ثم تعم مكة كلها ، وينادى من بالنوافذ متخلفًا عن هذه الخرجة بقوله : (وحيك ياعساس) جملة يقولونها لأخذ الحذر والانتباه خوفًا من اللصوص الذين يهاجمون البيوت .

وقعت في الشبكة

وكنت في الليلة الأولى من الخليف بجوار بيت العم المرحوم إبراهيم التلمساني وهو صديق شيخ المعابدة وصديق لأهلي ، ومن أعيان مكة في ذلك الوقت .

وأمي المرضع صديقة لأهله ، ومرارًا ما كنت أحضر معها ، وأقضي الليالي المرعبة خوفًا من أهلي ، وكان أهله يعطفون علي ويرثون لحالي كثيرًا ويواسون أمي المرضع ، فكانت تركن إليهم وتطمئن ، وأنا كذلك ، وخاصة بعد سفرها كنت كثير التردد عليهم للسؤال عنها وعن أهلي من الزيمة وكنت أحن لذكراهم وذكرى الديرة ..

وبيت العم التلمساني يعلمون بهربي وعندهم كل الإيضاحات من الألف

إلى الياء وما يستبعد أن يكون أهلي بباب الدريبة قد أوصوهم أن يبلغوا عني ما رأوني أو سمعوا عني ...

والخلاصة : أدركني النوم بعد المغرب وأنا على عتبة باب التلمساني وغابت عيني ولم أدرِ إلا بنفسي داخل غرفة وعلى فراش وثير وبجانب الفراش طبق فيه شَربة ماء وبجانبه طبق آخر عليه كلة خفيفة فاستيقظت مذعورًا وقد لاح نور الصباح . أول شيء تذكرته النقود التي أخفيتها في برمة السروال ـ وفي الحال وضعت يدي على خاصرتي فوجدت كل شيء على ما يرام حينذاك حمدت الله واطمأننت على عصب المغامرة ، ثم نهضت من فوق الفراش فوجدت طبقًا فيه معمول وغُرَيِّبَة وعليه كلة جميلة ومستور تمامًا فأكلت ما في الطبق بنهم وشربت نصف القلة التي كانت بالطبق الآخر ثم نظرت من النافذة فعلمت أني في بيت التلمساني لكن الوساوس دبت في قلبي وعقلي ، يا هل ترى من الذي نقلني إلى هذا الفراش وحملني حتى صعد بي السلالم ووضعني على الفراش ؟ هذا ما كنت أفكر فيه وأخيرًا غلب على ظني أن أهل البيت حينما رأوني نائمًا على عتبة دارهم كلفوا أحدًا من المارة بحملي من غير إزعاج إلى المجلس ، وأعلم أن نومي في ذلك الوقت أثقل من الجبل وخاصة إذا كنت مصابًا بأرق أو مضت عليَّ ليال لم أنم من شدة الخوف أو ما إلى ذلك كثيرًا ما كنت أنام وأنا ماش مع القوافل في طريق جدة وهذا ما اعتدت عليه منذ الصغر .

ثم غلب ظني أن الحاملين لي كانت يدهم رحيمة ورفيقة وقد يجوز أنهم نادوني فلم أجبهم وهكذا جلست أضرب أخماسًا في أسداس إلى أن ظهرت الحقيقة .

باب المجلس موصد

حاولت الخروج فلم أفلح ؛ لأن باب المجلس موصد وحصرت من حبسي البول وفكرت في التردي من النافذة على الشارع للهرب وقضاء الحاجة لكني جبنت وفزعت من الموت وكانت النافذة تطل على باب الزقاق وليس الباب ببعيد ؛ لأن البيت يتكون في مجموعه من دورين فقط أي طابقين اثنين كما هو غالب الظن .

وأخيرًا

طرقت الباب بقوة فجاءت سيدة الدار ـ رحمها الله ـ مذعورة وفتحت ثم قالت : مالك ؟

فقلت لها : إني محصور فاعتذرت عما حصل ثم قالت : أظنك هاربًا منذ كذا وكذا ؟ فقلت : نعم ! وهي تعرفني وتعرف حقيقتي كلها كما مر ذكره .

فقالت : ما عليك من بأس ولا تخف من شيء ، فقلت لها كيف حملتموني حتى وضعتموني على الفراش ؟ ومن أدراكم عني ؟ فقالت : أنا مُخَلفة لم أحج وعمك إبراهيم قد حج وجاءني بعض صديقاتي البارحة فخرجت معهن (للقيس) وكنت نائمًا في حالة يرثى لها ولما تأملت في وجهك عرفتك ، فما هان عليَّ أن أتركك وأذهب إلى القيس فاستغثت بامرأة فتية نشطة وساعدها بعض الغلمان على حملك إلى ما ترى وهذا عندما أعيتنا الحيل في استيقاظك كأنك شبه ميت .

الزنوج نمنم

نمنم (بفتح النون الأولى وتسكين الميم وفتح النون الثانية ثم الميم) بمعنى غيلان أو سعالى يأكلون الناس هكذا عامة مكة[1] تطلق هذه الكلمة على التكارنة الزنوج الذين يطحنون الحنطة والحناء ويحملون الزنابيل. وسيأتي الكلام عن الكلمة فيما بعد إن شاء الله.

سألتني عن أحوالي طوال هذه الشهور فأخبرتها عن كل شيء وكيف أرغمت على الرجوع من الزيمة، وكيف هربت من القافلة وبائعي الخضرة وعن منامي عند الزنوج ليلًا ... الخ ... القصة.

فقالت: إن الزنوج نمنم يأكلون لحوم البشر ولا آمن عليك أن تنام عندهم أبدًا وحذرتني وأرعبتني حتى صدقتها، ثم قالت: إن أهلك هنا يسألون عنك ليل نهار ويعتقدون أنك بالزيمة وليس في وسعهم السفر إلى الزيمة، الذي أرسلت معه وهربت منه لم يبلغهم عن هربك لئلا يتهم بشيء خوفًا من المسئولية على ما يظهر.

هذا بيتك

ثم قالت: هذا بيتك وإياك أن تنام عند أحد وكن دائمًا معنا فأنت مثل أولادنا ومساعدتك واجبة فقلت لها: شكرًا وأظنك ترومين تسليمي لأهلي

---

(١) ومثلهم في ذلك عامة أهل المدينة، لقد كان للنمنم إذ ذاك دوي في البلاد، وكان الأطفال والمراهقون يلاقون الأمرين من خوف النمنم وتسلط بعضهم على بعضهم وأكلهم أكلًا لمّا ... ومن الإشاعات الرائجة يومئذ بين الناس عامة والأطفال والمراهقين أن النمنم لهم أذناب صغار كأذناب الجفور يتميزون بها عن سائر الناس .. ولهم عيون نفاذة خارقة.

غنيمة باردة ولقمة طازجة ، فقالت : أبدًا ولكن أهلك سوف يلقون عليك القبض إن عاجلًا أو آجلا والأفضل أن تستريح عندنا أيام الحج ثم يذهب بك عمك إبراهيم ويشفع لك فقلت : معاذ الله هذا من المستحيل . ثم هممت بالخروج وأنا في حالة غضب شديد فأمسكت بتلابيبي وجذبتني جذبة قوية وقالت : أنا أنصحك مخلصة لك وأنت حر فاعمل ما بدا لك .

لم أبح بسري ولم أقل لها أن ببرمة السروال كذا وكذا ولم أقل لها إن لي صديقًا علمني بيع الرمان على قوافل الحجاج وصدق من قال : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

استأذنتها في الخروج فأذنت ولكنها قالت : تنام عندنا في الليل وفي الصباح تخرج والله يسهل عليك ثم أقسمت أنها لا تقول لأحد بوجودي عندها كما أنها تعهدت أن تطلب من زوجها ألا يقول لأحد عن منامي عندهم وأظهرت من الحب والإخلاص ما جعلني أصدقها وأثق فيها وأطمئن إلى قولها فاستهواني حديثها وصدقتها فيما قالت وزعمت وأقسمت وكانت عند قولها لم تغدر بي - رحمها الله - حتى آخر لحظة عندما هوجمت في دارها .

لقد دافعت عني دفاع الأبطال وارتفع صوتها باكية حينما هوجمت ورفعت يدها إلى السماء قائلة : الله يخزيك يا فلانة ويفعل بك كذا وكذا وسيأتي التوضيح فيما بعد .

كانت برزة

اجتماعية يسمر في بيتها جل نساء المعابدة من ذوات الجمال وربات الحجال والحسب والنسب ، وكن يأتين بآلات الطرب ويغنين عندها على نمط المرحومة خديجة شربة أم المكارم ، إلا أن الفرق بين البرزتين عظيم جدًا لاختلاف ظروف كل منهما .

لم يكن عندها، آنذاك، أي ولد أو بنت، وأظن أنه كان لا يعيش لها أطفال في ذلك الوقت، وقد يجوز أن الله رزقها بأولاد فيما بعد؛ لأني كنت أسمع الرجال حينما ينادون العم إبراهيم يقولون له يا أبا عبد الله، وهذا عندما كبر وشاخ وحمل العصا وركب الحمار في آخر عمره؛ لأني كنت أراه في دهليز المرحوم عبد الله قلعي؛ حيث كان من أعز أصدقائه، وربما أنه تزوج غيرها وجاءته بولد سماه عبد الله.

وكنت أستحي من سؤاله لبعد العهد ولقول ابن الوردي رحمه الله:

ودع الذكر لأيام الصبا   فلأيام الصبا نجم أفل

زيت ونار

ظللت أتردد على بيت التلمساني وأنام عندهم كل ليلة؛ لأني أمنت جانبهم وصاروا يهيئون لي الفراش من المغرب في المجلس الذي ذكرته سابقًا وصرت آتيهم قبل العشاء؛ لأحضر مجالس الأنس وأتسلى وأحيانًا أتناول طعام العشاء معهم وأسمر إلى أن يغلب علي النوم فأنهض إلى فراشي وفي الغلس أترك الدار ولا أرجع إلا في المساء.

ومعظم النسوة اللائي كن يردن هذه الدار كن يعرفن أني هارب ويعلمن عن بؤسي وشقائي وتعاستي، ومنهن صديقات المرحومة المرضع، ومنهن من يرثين لحالي ومنهن من ينكرن علي ويؤنبنني أحيانًا فترد عليهن حرم المرحوم العم إبراهيم التلمساني وتأمرهن بعدم التعرض لي مطلقًا؛ لأني محطم، ويكفيني ما أنا فيه، فيرجعن إلى صوابهن ويعتذرن لها، ويتأسفن لي.

ولقد سمعتها مرارًا تقول لهن: إياكن أن تقلن لأحد ما: إن فلانًا الهارب

من أهله يوجد في بيت التلمساني وكثيرًا ما حذرتهن من الفتنة ، فكن يتظاهرن لها بالطاعة والموافقة والترحيب ويخفين ما في صدورهن من حقد وحسد .

كان من بين النسوة اللائي كن يترددن على هذا البيت الكريم امرأة موصوفة بالجمال وعمرها لم يكن يتجاوز الثلاثين على ما أعتقد وتتردد كثيرًا وتقوم بالمباشرة على الضيوف وتساعد على غسل الأكواب والآنية وتقابل الضيوف وتضيء لهن الدرج ولا تخرج إلا في النهاية حينما لا تبقى امرأة بالدار ، وفيما ظهر لي أنها من ذوي الأرحام ولها قرابة وصلة وجيرة ؛ لأن دارها لا تبعد إلا خطوات عن الدار المذكورة .

الحريق

وبينما كنت في بيت التلمساني ، وأهل البيت خارجه حدث أن ركلت إحدى العاملات المختلات بالمنزل كانون النار برجلها فانقلب على الزرابي والنمارق فاشتعلت المفارش الرومية وشبت الحرائق في الجلائل الشيرازية ثم دفعت المسرجة وكان ذلك الزمن مجردًا من الكهرباء والأتاريك[1] إلا ما ندر ، فكانت المسرجة أشد لهيبًا وكأنها القنبلة التي منحها لي القدر ، حتى أعمت البصر ، فاشتعلت النيران من كل جانب حتى دهاها من الأمر ما دهاها ، وهاجمها من الهول ما أعماها ، وكان من حسن حظي عدم وجود ملقاط تلقط به الجمر المتناثر على الجلائل ولا ماء تطفئ به الحريق فصرخت واستغاثت وفتحت الباب ونادت بأعلى صوتها : حريقة يا عباد الله ! وكان الوقت عشاء ولا يزال الشفق الأبيض يحيط بالسماء ، وظلام الليل يخيم على كل الأرجاء ،

---

(١) الأتاريك جمع إتريك بكسر الهمزة وسكون التاء أي المصابيح الغازية المتوهجة .. وهو اصطلاح معروف في هذه البلاد .

فهرع الجيران من كل جانب واقتحموا الدار وبيت العم إبراهيم التلمساني له شهرته ومكانته في الحارة ، لكن النيران وصلت إلى السقف وزاد الاشتعال وصار الناس ينضحون الماء وسرعان ما وصل الخبر إلى العم إبراهيم وحرمه فرجعا حزينين مكتئبين ، وجاء العمدة وأهل الحي وأحضروا الورادين والسقاية وفتحوا البازان القريب من تلك الناحية .

ولسوء الحظ لم تكن هناك سيارات إطفاء في ذلك الزمن حيث لم يصل الاختراع إلى صنع العربات النفطية فكانت الحرائق لا تبقي ولا تذر ، وكان الناس يحفرون صهاريج في البيوت التي يبنونها لهذه الغاية ولسد الحاجة أيام الموسم حينما يصل سعر القربة إلى ربع مجيدي وأكثر ، وكانوا إذا شب الحريق في الدار غمسوا خراطيم الماء في هذه الصهاريج ثم ضخوا بها الحريق ، والذي لم يكن في بيته صهريج يستعين بجاره الذي عنده خزان أو صهريج ؛ إذ لا يخلو الشارع أو الزقاق من عدة صهاريج لهذا الغرض ، أما في هذا الزمن فقد بطل مفعولها لتقدم الاختراع ووجود الصنابير والأنابيب والآلات البخارية والنفطية التي تدار بالكهرباء وتوصل الماء في ثوان إلى أي جهة تمتد إليها ألسنة النار .

لكن من الغلط أن يعرض الناس في بلادنا عن بناء الصهاريج مهما وصلنا من علم واختراع ؛ لأنها لو لم تنفع فلن تضر وفي الوقت نفسه رأيت في معظم البلدان وخاصة أوروبا وأمريكا خزانات في كل شارع وفي معظم العمارات الكبيرة وفي فناء المستودعات والمرائب (الكراجات) وهي العرصات المسقوفة التي تحفظ فيها العربات النفطية .

وعندما يضرب هاتف الخطر أي الهاتف الذي يهتف وينادي ويعلم الجهات المسئولة باندلاع الحريق تنفر عربات النفط حاملة الخراطيم العملاقة التي تصل أحجامها ومقاساتها الطولية مئات الأمطار ، تصل في ثوان وتغمس خراطيمها

وتطفئ الحريق في ثوان بالضخ السريع من تلك الصهاريج والخزانات . والآن تطور الإطفاء فأصبح بأنابيب الأكسجين من غير حاجة إلى الماء .

الإتريك

ولأول مرة أرى الإتريك في هذه الليلة المشئومة وقد أحضره بعض أهل المحلة فاندهشت لرؤيته وكنت لم أره من قبل ، كذلك الحريق لأول مرة أراه فكانت ليلة الغرائب والعجائب والمصائب والأوليات والامتحانات .. ثم جاء بعض أهل البيوت بأوعية الماء مملوءة ماء وصعدوا السلالم وأطفأوا الحريق ، ولسوء الحظ كان بيت التلمساني منفردًا عن البيوت بعيدًا عن العمران ورابضًا على صخرية ولو كان مجاورًا أو ملاصقًا للبيوت لما استغرق إطفاء النار إلا بضع دقائق .

المهم أني انهرت وذعرت وغبت عن صوابي من هول الصدمة والفجيعة وكذلك المرأة المختلة التي تسببت في هذا الحريق .

لقد جاءت إلي واحتضنتني وأجهشت بالبكاء وطلبت مني أن أكتم السر وألا أقول لسيدة الدار بما فعلت ، وأشعرتني بأن أقول إذا سُئلتُ : إنه قضاء وقدر ، وطلبت مني السماح ولكني لم أكن واعيًا لما قالته ، بل نسيت كل شيء ومن حسن الحظ أني لم أسأل حتى ألقي القبض عليّ في الليلة نفسها .

وكان المفروض أن أهرب عند اندلاع الحريق وأهرع إلى جبل الفلق وألجأ إلى عشش الزنوج . ولكن هول الصدمة أنساني كل شيء وعندما أفقت ندمت ندامة الكسعي على ما أضعت من الفرصة ولكن حين لا ينفع الندم ، وإضاعة الفرصة تورث الحسرة والغصة .

انطفأ الحريق وذهب عامة الناس إلى بيوتهم وبقيت متحيرًا متأسفًا حزينًا لا أدري ماذا أصنع؟ ولا ماذا يفعل بي أهل الدار؟ هل يقتلونني أو يطردونني ويا ليتهم طردوني ولكن مكارم الأخلاق أبت وعفتهم حالت دون ذلك ولم أشعر إلا بالعم إبراهيم يربت على كتفي ويقول: لا بأس عليك لا تخف من شيء هذا قضاء وقدر والحمد لله الذي سلم الأرواح، ثم أمر حرمه المرحومة أن تحضر لي فرشًا من فرش الضيوف التي كانت مخبأة في خزانة لم يصلها الحريق فأحضرتْه وفرشته بنفسها ولم تعتمد على المرأة المختبلة، ثم قالت: هل أكلت؟ فقلت: نعم، فقالت: قم ونم في أمان الله، فأنامتني في صفة بعيدة عن محل الحريق؛ لأن المحل الذي كنت فيه وقت الحادث قضى عليه الحريق نهائيًا بما فيه من جلائل وفرش حتى السقف والأبواب والنوافذ.. وعندما مددت ظهري على الفرش وذهب المضيفون إلى مجلسهم جاءت المجنونة تقبل رأسي وتهمس إليّ بألا أقول شيئًا.. فهززت لها رأسي، وفي قلبي ما في قلبي، ويعلم الله ما أعددته لها من نقمة، ولكن حال دون ذلك القبض علي في تلك الليلة الليلاء.

عفا الله عنها وأسأله تعالى أن يغفر لها ويكرمها في الدار الآخرة، وإني قد سامحتها؛ إذ ربما تكون معذورة فيما فعلت، فمن يدري غير علام الغيوب؟ إني قد سامحتها؛ لأنها قد أفضت إلى ما عملت بين يدي كريم عظيم، وأسأله ألا يؤاخذني بما عملت؛ لأني جاهل غير مؤاخذ ومضطر فيما أقدمت عليه من ذنب.

الهجوم

بعدما هجعتُ وسكن رَوعي، وغطست في النوم العميق، لم أشعر إلا بيد تربت على كتفي وتنادي: قم يا فلان! فاستيقظت وإذا بصاحبة الدار تقول:

قم واغسل وجهك ، فقلت لها : لماذا ؟ قالت : أهلك جاءوا ليأخذوك وهم في مجلس الاستقبال ، فقلت لها : من أنبأهم بوجودي هنا فحلفت أنها لم تدر عن الموضوع شيئًا وأقسمت أن زوجها بريء كذلك ، ثم قال : ربما الذين حضروا لإطفاء الحريق رأوك وعرفوك فوصلوا إلى أهلك وأبلغوهم ؛ لأن معظمهم يعرفونك ويعرفون أهلك ، ولكني قلت في نفسي : لم يبلغ عني غير المجنونة انتقامًا وحقدًا ومكرًا والله خير الماكرين ..

غسلت وجهي ولمست برمة السروال فوجدت كل شيء على ما يرام ، ما دامت النقود محفوظة في برمة السروال ، فلا ضير ، وآمنت بالفرج القريب ؛ لأن الأزمة قد اشتدت إلى أبعد حد .

صفقت السيدة فجاء العم إبراهيم ، فقالت له : نشدتك الله هل بعثت أحدًا إلى أهله ليقول لهم إنه عندنا ؟ قال : معاذ الله والله يرمي من رماه . ثم قادني إلى المجلس وشفع في وقال لوالدي : الراحمون يرحمهم الرحمن ، هذا طفل لا تعاملوه بالقسوة ، وأنا أتشفع فيه هذه المرة وأرجوكم ألا تضربوه .

ياللهول ! ! لقد هالني ما رأيت إذ كان القوم أكثر مما كنت أتصور كثرة وغلظة وعبوسًا وتقطيبًا وهمَّ الوالد ـ رحمه الله ـ بضربي وقد كان مسافرًا في أثناء هربي وحضر الآن ، ثم العم جمال ـ رحمه الله ـ والسيد المالكي والعم باسلاسل وبالإضافة إلى هؤلاء القوم كان معهم حزوران قويان وأظن أنهما من صبيان باسلاسل وفي يد واحد منهما قيد من حديد وفي يد الآخر حبل من ليف ، فصرت أرتعد خوفًا ورعبًا واهتزت ركبتاي وصفقتا وكدت أنكب على وجهي ، فأخذني العم إبراهيم إلى والدي وقال لي : قبل رأسه ، ففعلت لكن سرعان ما لطمني على فمي حتى نضح الدم من بين راعيتي ..

فحينذاك انبرى العم إبراهيم عليهم وانفعل وخاطبهم بحماس وحذرهم من عاقبة التجبر والبطش ونصحهم، فصرت خلفه مستترًا ولائذًا فهدأ من روعي ثم أخذ بيدي العم باسلاسل وخرجوا بي من بيت التلمساني.

الأدهم في رجلي والمسد في نحري

وكان معهم عمدة المعابدة وبعض رجال من أهل المحلة، وعندما خرجنا من بيت المرحوم التلمساني فصل المعلم العمدة مع رجاله إلى ناحية أخرى وسلك طريقًا آخر، بعدما ودع القوم وقال لهم: الحمد لله على العقيلة. فتبادلوا وإياه عبارات المجاملة والمداهنة والمصانعة كعادة أهل مكة في مثل هذه المناسبات.

ثم سلكوا بي الطريق الخلفي حيث أوقفوني ووضعوا في رجلي الأدهم الحديدي الثقيل، والحبل الغليظ في رقبتي وقادني واحد من الحزاورة وبجانبه الحزور الآخر والقوم ورائي كأني مقود إلى حبل المشنقة، ثم ركلني واحد من خلفي ولا أدري أهو الوالد ـ رحمه الله ـ أم العم؟ قائلا: أين كنت طوال هذه الشهور؟ فقال له العم باسلاسل: فيما بعد اسألوه أما الآن فأرجوكم أن لا تضربوه، ولا تسألوه حتى تصلوا به إلى البيت.. وكنت أنا في غيبوبة من هول الصدمة ومن تلك الليلة الخطيرة التي كان أولها عذابًا مع المجنونة ثم الحريق ثم أخيرًا العذاب الأليم والقبض علي وسحبي كما تسحب الشاة إلى المذبح...

يا هل ترى من الذي رماني وذهب إلى أهلي في تلك الليلة؟ أهي المجنونة الحاقدة التي لم أنفذ أغراضها وأوامرها؟ أم بعض من حضر لإطفاء الحريق؟ وكيف التخلص وقد وقعت في الشرك؟ الله يعلم من هو الواشي.. ولست أدري كيف كان وصولي إلى درج الصفا بجانب بيت حمدي (بكسر الحاء)

من شدة ما أقاسيه من ويل وألم وهم ودم يسكب من لثتي ، والقوم من خلفي وعن شمالي ويميني ؟ ولا أدري ماذا هم فاعلون بي ؟ ولكني موقن بأن العاقبة سيئة وأكثر سوادًا من شعر رأسي ..

وقفوا عند درج الصفا فقال العم رحمه الله : دعه يذهب معنا إلى بيت الدريبة لأجل عماته وأنا أربيه ، فقال الوالد ـ رحمه الله ـ كلا .. إنه لن يرى باب الدريبة بعد الآن ! فرد عليه العم ردًا لاذعًا . وفصل بينهما باسلاسل وأخيرًا ذهبوا جميعًا ، ما عدا الوالد والغلام الذي يقودني وكان مأمورًا من قبل عمه باسلاسل ، أن يوصلني إلى حيث يريد صديقه ، ثم الرجوع إلى المنزل .. مشوا بي من طريق الدحديرة[1] ، ثم نزلوا بي إلى أجياد حيث يسكن والدي بيت (ركن) كما تقدم سابقًا ، ولكنهم لم يقفوا بي عند البيت بل تخطوه وتقدموا إلى برحة الطفران . وكنت أقول في نفسي : لعلهم يريدون أن يقتادوني إلى السجن . وهو خير وأحب إلي من البيت الذي سأذهب إليه . وهذا في تصوري آنذاك لما قاسيته وما سأقاسيه .. وصلوا إلى بيت الخوجة الذي صار فيما بعد مِلْكًا للمرحوم عبد الحي القزاز ، ثم بيت (مدهر) بكسر الميم وتسكين الدال وكسر الهاء ثم الراء . وقفوا أمام البيت ثم ذهب الحزور وبقيت مع والدي حتى فتح الباب ودفعني إلى الدهليز ثم دخل وقفل الباب وترك بيت الركن . وكان في الدهليز بعض الأغنام ؛ لأنه ـ رحمه الله ـ كان يهوى اقتناء

---

(١) الدحديرة في لهجة أهل مكة والمدينة وجدة وربما غيرهم من أهل هذه البلاد بمعنى الشارع أو السوق أو المكان ذي الانحدار والميلان .. ومن المادة سوق الحدرة الذي تهدم أخيرًا في حريق ١٣٩٨هـ بالمدينة المنورة .

الغنم ليشرب من ألبانها كما وصفه له الأطباء ؛ لأنه كان مريضًا بالقلب .

قادني الوالد ـ رحمه الله ـ إلى المجلس الأول من الدار وفتح الباب وعدفني إلى الداخل ثم قفل علي الباب ولم يكلمني ثم صعد ..

أظنه صعد إلى السطح ؛ لأن الناس في مكة ينامون في الأسطحة أيام القيظ في ذلك الحين[1] .. حبوت على ركبتي حتى وصلت إلى مجلس كبير ومفروش بالجلائل ويحيط به الكروكيت من كل جانب ، والكروكيت عبارة عن سرر خشبية قصيرة القوائم توضع عليها مراتب قطنية ومساند من الطرف . لكن الظلام الحالك منعني من تفسير الأثاث والأبواب ، بالإضافة إلى الرعب والفزع والجوع والعطش ، والمستقبل المظلم الذي ينتظرني ... ولا أدري كم مضى من الليل ، وأخيرًا مشيت مشية الطفل الذي لم يبلغ الحول حتى وصلت إلى الروشن ففتحت النوافذ لعلي أرى بصيصًا من الضوء ولكن لا سبيل إلى ذلك حيث مكة وأزقتها وشوارعها تضاء بفوانيس البلدية التي ينطفئ معظمها قبل الثلث الأول من الليل .

جلست برهة من الوقت وإذا بتباشير الصباح تضيء المجلس نوعًا ما فقمت وأنا أرسف في قيدي ، وصرت أمشي تارة وأكب على وجهي أخرى ، حتى وصلت إلى صفة بها مشاية من البلاط وفيها مرفع (بكسر الميم) وهو حديد مصنوع خصيصًا لوضع القلل وهو بتسمية العامة ، وله أرجل ضعيفة يضرب بها المثل .

---

(١) وكذلك الأمر في المدينة المنورة .

وجدت بعض القلل المدنية مرصوفة عليه وبها الماء البارد فشربت حتى ارتويت ثم وجدت موضئًا لقضاء الحاجة داخل المشاية أو (السيب) بلغة العامة ، لكنني مقيد لا أستطيع عمل ما يعمله من يريد قضاء الحاجة ، فقضيت ما يمكن قضاؤه وقوفًا وغسلت وجهي ورجعت إلى المجلس وإذا بنور الإشراق يتخلل الطابق كله ففتشت على كبريت لأشعله وأعمل حريقًا ؛ لأجد لي مخرجًا إما بالموت وإما بالإفراج عني ولكنني لم أجد ، ثم وقفت أمام النافذة لأقذف بجسدي على الشارع لكن عوارض الخشب تحول بيني وبين ما أريد ؛ لأن النوافذ على شكل (غولة) بلغة العامة (بضم الغين) يعني مسدودة بالأخشاب من كل النواحي وفيها ثقوب على حجم فتحة العين المبصرة بحيث ترى الشارع والمارة ، ولا يراك أحد .

مكانك تحمدي أو تستريحي

وأخيرًا سلمت أمري لله وما شاء فعل ، حيث ضاقت المسالك والطرقات والنوافذ الآمنة ، فهو مفتح الأبواب ومذلل الصعاب فصممت على الثبات .

طلع النهار ، وارتفعت شمس الضحى ولا مجيب ولا منادي ولا أصوات ، ولا حركة . زحفت نحو الباب الخارجي فسمعت صوت أطفال ، بعضهم نازل وبعضهم طالع ، ففهمت أن الوالدين ، رحمهما الله ، ينامان بالأسطحة ويتناولان الإفطار بها أو بالمبيتات ، ولا ينزلان المجلس إلا عندما يطرق طارق من ضيف ونحوه ، وفهمت أن الطالعين والنازلين هم إخوتي الأشقاء الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني إذ ربما يكون بعض منهم ذاهبًا إلى المدرسة أو إلى إحضار الإفطار أو ما إلى ذلك .

وأدركت بفكري القاصر أن الوالد لم يخبر أحدًا من أهل الدار بحبسي في المجلس، حتى إذا ما خلا البيت من الصغار نزل إلى المجلس من دون علم أمي، وبدعوى أنه خارج إلى السوق لقضاء اللوازم، لينقض الأسد على الجدي بعد أن يغلق باب المجلس كعادته، ففكرت في حيلة تخفف وطأة العلقة التي ربما كانت نهايتي فيها. وللوالد الحق في ذلك؛ لأني أتعبته كثيرًا كما يتصور، وأتعبني كثيرًا فيما أتصور، وتصوره حق وتصوري باطل؛ لأني جاهل لا أفرق بين الحق والباطل، ولا بين الغث والسمين، ولا ما بين ما يضرني وما ينفعني..

قرعت باب المجلس بقوة وصرخت وقلت: افتحوا لي الباب أنا جائع، أنا مجروح، لاسترعي نظر الطالع والنازل، وحسنًا فعلت إذ وقف صبي وبنت بجانب الباب وسألاني: من أنت؟ فقلت: أنا فلان الذي كنت بالمراضع.

رؤية الوالدة الحقيقية

عندما قلت لهما ذلك ركضا صعودًا، وما هي إلا لحظات حتى نزلت الوالدة والوالد وأخي الصغير الذي يصغرني بأربع أو خمس سنوات، وبقية الأخوات..

فتح الوالد فدخلوا جميعًا وسرعان ما انقض علي الوالد ـ رحمه الله ـ وصار يضرب بهراوة قصيرة كانت في يده ويركل ويلكم حتى غبت عن رشدي ولكن الوالدة ـ رحمها الله ـ انكفأت علي ووقتني من الركل؛ لأنها لم تستطع رد الوالد من شدة ما أصابه من انفعال وغضب.

حنية الفحم

ثم اقتادني إلى السطوح حيث زج بي في داخل حنية الفحم وكانت واسعة، ولكنها مظلمة وليس لها نافذة ولا باب ثم خرج ولكن القيد في رجلي وحالتي في خطر وفي الوقت نفسه لم يعط الوالدة مفتاح القيد حتى أتنفس الصعداء بعض الشيء، ثم إن الوالدة أحضرت طعامًا وألقمتني بعض اللقيمات وسقتني ماء وأفهمت إخوتي أني أنا الذي تربيت في الزيمة وأمري كيت وكيت.

النجار الشعراوي

قبيل أذان الظهر جاء الوالد ومعه نجار ليركب بابًا على الحنية حتى لا أهرب فحاولت الوالدة منعه خوفًا عليّ من كتم الأنفاس وعدم استنشاق الهواء، عبثًا حاولتْ ولكن النجار كان ذا رحمة وشفقة؛ إذ أحضر من الأخشاب أردأها وأقدمها وجلس في السطح حتى ركب الألواح في بعضها وسمرها وجعل يثقب بالمثقاب بعض الثقوب في أصل الخشب على نمط الغربال والوالد لا يدري عنه شيئًا؛ لأنه هبط لإحضار الشاي والغداء وتركني في الحنية، والنجار يذهب ويرجع؛ لأخذ المقاسات، وسألني فأطلعته على حقيقتي فطمأنني وقال: لا تخف سأجعل الباب مثل باب جُحا «بضم الجيم» وهو المجوني الشهير..

قلت له: وما هو باب جحا ومن هو جحا؟ فقال: فيما بعد تعرف عنه الشيء الكثير ولكني أقول لك: إنه سيكون باب الفرج إن شاء الله..

والشعراوي هذا كان نجارًا ماهرًا، له دكان صغير بالصفا، بقرب بيت السيد حمدي. وكان صديقًا للوالد والعم وبيت أبي الخير وكان يتزيًا بزي أهل الحارة - رحمه الله - وكان أشمط اللحية محافظًا، ذا أمانة وديانة، والأمر كما ذكر، إذ بعد مضي ساعة من الزمن ركب الباب وجعل عليه قفلًا وجمع عدته لينزل. وكان الوالد قد أحضر له الشاي، فقال له الشعراوي: الدنيا حر ولهيب. وسأحتسيه في المجلس، ثم قفل علي باب الحنية، وأعطى المفتاح للوالد وهبطا جميعًا..

جاءتني الوالدة - رحمها الله - تقول: لقد خرج أبوك، وأخذ المفتاح ولكنه سيحضر للغداء بعد ساعة، وسأسرق منه المفتاح؛ لأعمل مثله حتى أتمكن من غوثك وعونك، ثم قصت علي قصص حياتها مع أهلي، وصارت تسليني من وراء الباب واغتنمت غيابه وغياب إخوتي بالمدارس..

وهذه أول مرة أرى فيها والدتي الحقيقية وأسمع كلامها وأتمتع بحديثها الذي أنساني أوجاعي وآلامي - رحمها الله وأسكنها فسيح جناته..

قبيل العصر فتحت الباب وأدخلت لي طعامًا وماء وقبلتني وقالت: سأحاول إخراجك من هذا السجن - إن شاء الله - والمفتاح معي الآن وعسى أن يبقيه عندي، وفي الليل كان الظلام حالكًا لكن الهواء يدخل إلي من الثقوب التي صنعها النجار الحاذق والباب غير متمكن بالمرة؛ إذ في استطاعتي قلعه من جذره؛ لأهرب لكن ماذا أحتال للتهرب من القيد والخلاص من قفله الثقيل؟! ومع ذلك كانت الوالدة - رحمها الله - تتسلل من بين الوالد والإخوة إذا استثقلوا نومًا وتنشل مفتاح الحنية وتأتي ثم تفتحها وتخرجني إلى خارجها لأقضي باقي الليل في الهواء الطلق بحيث لا يشعر الوالد بذلك وفي الصباح

تنهض قبله لتموين إخوتي الصغار بالإفطار ، وما يحتاجونه للمدرسة الصغيرة التي كانت على قرب من الدار ، وكان الوالد يسمر خارج البلاد ولا يحضر إلا بعد منتصف الليل ؛ لأنه كان من أهل الدوريات ، وسيأتي تفسيرها فيما بعد ، لذلك لم يكن يستيقظ مبكرًا إلا في يوم الوظيفة بمقام الحنفي فإنه لا يذهب إليها ـ أي إلى الدورية ـ وكان مضطرًا للسمر مع أصدقائه من أهل الوظائف أيضًا للترويح عن النفس بسبب مرضه بالقلب ـ رحمه الله .

التعارف

وأخيرًا أعطى مفتاح الحنية ومفتاح القيد للوالدة بعد جهاد عظيم ، إذ كان مهيمنًا عليها تمامًا . وكانت تخافه جدًا ، على الرغم من تقارب السن بينهما ، حفاظًا على المودة ، ورحمة بالصغار ، إذ كان خوفها رحمة بأطفالها أكثر وأكثر ؛ لأنها لو خرجت مغاضبة تحرم من أطفالها ، كما حرمت مني في أثناء وجودي بالمراضع ، وفي أثناء وجودي عند العمات بباب الدريبة ، ومع ذلك فهي شديدة الحرص على إرضائه وإرضاء أخواته وعلى صلة ما انقطع من حبال مودة ذوي القربى .

وكانت تعرف أوقات إيابه إلى الدار فتحسب حسابها من أجلي إذ كانت تخرجني من السجن الأسود الضيق إلى الخارجة ثم تفك فردة من القيد وتجعلني أمشي وأتريض ، ثم أذهب إلى موضع الاستنجاء ، وأتوضأ ، وأطمئن إلى برمة السروال التي بها عصب المغامرة إذ كل شيء على ما يرام والحمد لله .. ثم عرفتني بإخوتي وعرفتهم بي فكانوا يترددون علي في السجن ويتوددن إلي كثيرًا ، ويدعونني باسم (هيف) وهي أمي المرضع فأفرح جذلًا

بهذه التسمية ؛ لأنها كانت أحب شيء إلي في هذه الدنيا ، وعندما يذكر اسمها أتهلل فرحًا وسرورًا بل وأشكرهم على ذلك .

كانت بي جروح من أثر العلقة فضمدتها والدتي ثم أعطتني ثوبًا من ثياب والدي ؛ لأنها كانت على قيد طول قامتي بالضبط ؛ لأنه كان ـ رحمه الله ـ أقرب إلى القصر (بكسر القاف وفتح الصاد) وربما كان مربوع القامة ـ رحمه الله ـ فكانت ثيابه وملابسه تكفيني لسد حاجتي آنذاك ..

وكان قد أمرها ألا تحل وثاقي أبدًا خوفًا من الهرب ، ولكنها مع ذلك تفك القيد في أثناء غيابه وغياب إخوتي ، وعندما تحس بقرع باب الدرج (السلالم) تقفل القيد على رجلي حالًا لئلا تقع في المحظور والشتم وما إلى ذلك .

وكانت قد أخبرتني بذلك ؛ لأنها كانت تتركني أحيانًا وتذهب إلى المطبخ للطهو وكانت طاهية ممتازة فكانت تقول لي : إياك أن تهرب ! ! ومرارًا ما حدثتني نفسي بذلك في أيام النقاهة لكنني أعود فألجمها بلجام من مروءة البادية التي عودتني على الصدق والشهامة والعفة ..

لقد أبت عفتي وأبى فكري الصغير القيام بمغامرة جديدة قد تكون نهاية لهذه الأم العطوف التي لم تصدق أن لها ابنًا لا يزال يعيش وأنه ، وأنه .... وخاصة بعد ما أخبرتني أنها منت علي بالإفراج داخل الدار وفي أثناء غياب زوجها حذرًا علي من القهر والغم ، وإلا فإنها مأمورة بالنهي عن ذلك ولو فعلت لعوقبت ، لكنني كنت عند حسن ظنها خوفًا عليها وعلي مما لا تحمد عقباه .

كان والدي ـ رحمه الله ـ لا يتناول طعام الغداء في داره آنذاك وخاصة يوم

الوظيفة لبعد البيت عن المسجد وكانت له خلوة (بفتح الخاء وسكون اللام بلغة عامة مكة) بمعنى غرفة خاصة من غرفات الأوقاف وسيأتي ذكرها في الرباطات - إن شاء الله - وهذه الغرفة تقع بباب الزيادة في رباط محمد علي باشا كان يعلم فيها القرآن للإندونيسيين والماليزيين والسمرقنديين وأهل بخارى وكيب تاون وغيرهم من الحجاج، علاوة على وظيفته بالمسجد الحرام، وسيأتي لهذه الخلوة ذكر مطول فيما بعد إن شاء الله.

لقد شفيت من الجراح ورجع إلى جسمي النشاط وتعارفت مع إخوتي، وعقدت صداقة مع والدتي الحقيقية، وبدأت أنسى أحزاني وآلامي وحرماني من تلك المرضع الرءوم، وحصل التآلف بيني وبين إخوتي وأمي الحقيقية التي أراها لأول مرة بعد أحد عشر عامًا وهي كذلك.

وكان الوالد لا يأتي إلا في الليل وقد نمت، ويخرج في الصباح ولا أراه ولا هو يراني وكان يكتفي بأقوال أمي، وأنها تتعهدني في السجن الصغير، وأنها ما زالت تقودني في قيدي حينما أخرج للوضوء والطعام وما شابه ذلك، فيصدقها.

الاختطاف

ولكن الفرح لم يتم والسرور لم يدم، ودوام الحال من المحال، فقد كنت ألهو صباح يوم من الأيام، وكان والدي في ذلك اليوم يؤدي فريضة الصبح في المقام الحنفي، وكان من عادته إذا كانت عنده النوبة أن يخرج قبل أذان الفجر أن يبيت عند أهل السطوح بالخريق (وسيأتي ذكرهم فيما بعد) وإذا بالعم جمال - رحمه الله - وقد جاء وبصحبته السيد المالكي وقرع الباب واستأذن

من الوالدة ، وصالحها وكان مخاصمًا لها مدة طويلة حينما خرجت من باب الدريبة مغاضبة أيام وجودي بالمراضع ، كما سلف ، وطلب من الوالدة أن تفك القيد وتسلمني له ، فقالت : إلى أين؟ فقال : إلى مدرسة الفلاح . ففرحت بذلك وفرحت أنا كذلك وسرعان ما فكت القيد وألبستني ثوبًا من ثياب والدي . وخرجت مع العم والسيد المالكي ، ولكن ليس إلى مدرسة الفلاح بل إلى باب الدريبة . وكان الأمر مدبرًا بليل مع الوالد والعمات ، وهذه خدعة خدعت بها الوالدة ...

أما أنا فلم أخدع ؛ لأني مصمم على الهرب وعدة المغامرة في وسطي ويا حبذا من خدعة لي فيها مصالح ومآرب ..

اختطفوني وذهبوا إلى باب الدريبة فوجدت العمات والوالد عندهن فأحطن بي كإحاطة الأساور بالمعاصم وقلن لي : متى كانت لك أم؟ ومن رباك غيرنا؟ ثم أمسك الوالد بأذني وقال : ليس لك سوى هذا البيت ، وسيذهب بك عمك إلى مدرسة الفلاح ابتداء من يوم غد - إن شاء الله - ثم تذهب إلى أمك كل يوم بعد العصر نصف ساعة تقضي لها لوازمها ثم ترجع إلى هنا . وإن نكصت على عقبيك ، فلأحملنك على الأدهم ولأضعن في عنقك الحبال وفي عينيك العجين ، وفي يديك السلاسل والأغلال ، لتكون لقمة سائغة للثعابين والفئران . وهذه تهديدات يراد بها الترهيب ليس إلا وإلا فالعطف الأبوي بعيد من تنفيذ شيء منها ومع ذلك لو نفذها كلها أو شيئًا منها لكنت مستحقًا لأكثر من ذلك والصغر شعبة من الجنون .

قلق المرضع

وفي هذه الأثناء حضرت المرضع من الزيمة للمرة الثانية ورجعت إلى قاعتها بجانب دار شيخ المعابدة ؛ لأنها سمعت بهربي حينما رجع إليها قائد قافلة الخضرة بخفي حنين وحينما جاءها منذر من أهلي بمكة يتهمها بتحريضي على الهرب ، آلت على نفسها ألا ترجع إلا بي ، وأنها ستتقدم إلى المحكمة الشرعية بطلبي وتعويضها عما صرفته علي طيلة هذه السنين ؛ لأنهم بدءوها بالشر .

وفي الحقيقة لو صح ذلك منها آنذاك وخيرني القاضي بين الأم الحقيقية والأم المرضع والعمات لما فضلت على المرضع أحدًا ولكن الله سلم ولم يرد الله إلا الخير بي وبالجميع ولقد تكاثرت الظباء على خراش ...

شرح المفردات مع تفسير الأمثال العامية وما يقابلها من الفصحى :

وقبل أن أبدأ بتفسير الكلمات الغريبة أحب أن أوجه نظر قراء هذه الرحلة (رحلة العمر من الطفولة إلى الكهولة) إلى أني لن أشرح كل كلمة غريبة أو كل مثل عامي إلا ما كان غريبًا في لفظه ويحتاج إلى شاهد من الفصحى ، وإلا ما كان يحتاج إلى تصحيح ، أو معرفة الدخيل ومعالجة الكلمات العامية التي انحرفت عن معناها ، أو استعملت في غير موضعها ؛ حفاظًا على التراث العربي الأصيل وخدمة للعامة التي شوهت معظم الكلمات الفصيحة وغيرت وبدلت وحرفت وأدخلت فيها الكلمات الأعجمية ، وهذا شيء غير مستحسن ولا يمت بصلة إلى الصواب ، ولا إلى خدمة اللغة والدين ، وكتابة المذكرات يجب أن تكون بالفصحى كما أنزلت ليستنير بها العقل وتقوى بها الذاكرة .

وللمحافظة على لغة الضاد أحببت أن أيسر وأبسط الجمل وأترك الكلمات المتنافرة والثقيلة على اللسان بالإضافة إلى الشرح اللازم إذا اقتضت الضرورة، وكل ذلك خدمة للقارئ المبتدئ. أما المثقف فهو في غنى عن شرح الكلمات الغريبة، وكان المفروض أن يوضع رقم على الكلمة الغريبة ثم يوضع شرحها تحت الخط الفاصل بين المتن والشرح كما هو المعتاد في المؤلفات الدارجة ولكن بما أن الكلمة الغريبة تحتاج إلى شرح مفصل مع ذكر الشاهد وتعدد المعاني فقد أدمجتها في المذكرات كجزء لا يتجزأ منها لزيادة الفائدة وهذا كما أراه بالنسبة لنظري القاصر، كما يلاحظ أن بعض الكلمات قد تكرر شرحها وهذا بالنسبة لكون الغريب يتحد لفظه ويتكرر معناه غالبًا ـ هذا بالنسبة للأسماء... أما الحروف فلا، إلا إذا نقلت من الحرفية إلى الاسمية فإنه يتحتم حينئذ تغيير إعرابها ومعناها؛ وهذا راجع إلى جهل العامة بسبب الجهل والتحريف واستعمالهم الكلمة في غير ما وضعت له، كمثل كلمة (هيا) فإن العرب لم تستعملها إلا حرفًا وبمعنى ياء النداء، لكن العرب في زماننا هذا استعملتها اسمًا ونقلتها من الحرفية إلى الاسمية حتى إن بعض الأشراف يسمون بناتهم (هيا) وعندما ينادونهن يقولون: يا هيا. وهذا من الجهل بالعربية والفصحى. ولو علموا أن معناها (أيا) لآبوا إلى رشدهم، إذ من غير المعقول أن تقول: (يا أيا) فلهذا لا تستغرب إذا رأيت الكلمة قد تكررت أكثر من مرة، ولأننا بصدد هيا فإليك الآتي: (هيا) بفتح الهاء والياء ثم الألف، قد تقدم شرحها عندما استعملتها العامة اسم فعل أمر، وشددوا الياء المفتوحة. وقد بسطنا القول عنها في موضعه. والآن بمناسبة استعمالها اسمًا عند بعض الجاهلين، أزيد فأكرر أنها حرف نداء، بمعنى (أيا) وقد أسلفنا القول عن قاعدتها وقول صاحب الألفية عنها:

وللمنادى الناء أو كالناء يا ومثل يا أيا ثم هيا

ومن شواهد الفصحى في استعمالها حرف نداء بمعنى يا :

فأصاخ يرجو أن يكون حيًا ويقول من طرب هيا ريًا

والخلاصة : إن كلمة هيا حرف نداء بمعنى يا ، وأن أصلها (أيا) مثل هراق وأراق ولا يجوز استعمالها اسمًا ولا اسم فعل .

لغويات ما سبق

* **عزَّة** : (بفتح العين وتشديد الزاي المفتوحة ثم التاء المربوطة) على وزن بَرَّة ومكة ، والاسم عربي فصيح تطلقه العرب على ولد الظبية ، ومنه سميت عزة محبوبة كثير وجاء ذكرها في شعره كثيرًا ، ومن الشواهد قوله :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا

وقوله أيضًا من الشواهد :

قضى كل ذي دين فوفَّى غريمهُ وعزة ممطول مُعنى غريمها

* **شَمْسِيَّة** : بفتح الشين وتسكين الميم وكسر السين وفتح الياء المشددة ثم التاء المربوطة . هذا الاسم تطلقه العامة في مكة على المظلة التي تقي الإنسان من حرارة الشمس[1] . وتطلق على الأمة الجركسية ، إذا كانت شقراء . ونادرًا ما يسمي الأحرار بناتهم بهذا الاسم ، وهذا الاسم من شمست المرأة (بفتح الشين

---

(١) وهذا اسمها أيضًا في لهجة كل أبناء المملكة العربية السعودية ، والقطر المصري ، وربما غيرهما أيضًا .

والميم) بمعنى أنها لا تطالع الرجال ولا تطمعهم، ولكن الاسم للرجل شماس (بكسر الشين) وكذلك المصدر. وتقول العرب أيضًا امرأة شموس (بفتح الشين) على وزن (صبور). والمعنى مثل الأول، ومن تتحلى بهذا الاسم لا تنظر إلى الرجال ولا تطمعهم في نفسها، وتقول العرب: امرأة شامسة بالمعنى نفسه، ويجمعون الكلمة على شموس (بضم الشين على وزن قعود)، قال النابغة:

قصارُ الخُطى شُمٌ شُمُوسٌ عن الخَنا
خِدال الشَّوى فُتخُ الأكف خراعِبُ

هذه الأوصاف تجمع بين العفة والجمال والكرم والعطف، ونتمنى لكل حسناء من بنات حواء أن تكون متصفة بهذه الصفات التي وصفها بها النابغة.

* **الناس في الناس والعنز في النفاس**: [1] هذا من أمثال العامة في مكة والعنز (بفتح العين وتسكين النون ثم الزاي) هي أنثى المعز ويضربونه فيمن يتكلم في الأمور الهامة والمصالح العامة ثم يعارضه آخر على النقيض من ذلك. والعامة في مصر تقول: «نحن في إيه ولاّ في إيه» بكسر نون نَحنُ، ويقابل ذلك في الفصحى المثل العربي الأصيل: (الناس في الرحيل وعصام في العويل) وفي رواية العسكري: (الناس يرحلون وعصام يبكي) فنرجو من المطلعين أن يتشبثوا بالمثل الفصيح وينبذوا كل لفظ قبيح.

* **بَزٌّ**: بفتح الباء وتشديد الزاي المضمومة المنونة. والكلمة عربية فصيحة

---

(١) المثل في لهجة أهل المدينة: الناس في الناس، وعزيزة في النفاس.

وتطلق على نوع من الثياب كما تطلق على السلاح ، وأهل اليمن وحضرموت يطلقونها على كل أنواع القماش من منسوج وغيره ، لكن الفصحى على عكس ذلك كما تقدم ، والبزة (بكسر الباء وتشديد الزاي المفتوحة ثم التاء المربوطة) تطلق على الثياب والسلاح كما قالت العرب : « فلان حسنُ البزة » أي : لابس أحسن الثياب ومتسلح بأفضل الأسلحة فهو كامل الهيئة والفعل ، بز بمعنى سلب ، وفي لغة هذيل بمعنى اجتذب وقهر ، وتجمع كلمة البز على بزوز بضم الباء وابتز بمعناه والمصدر الابتزاز بمعنى الاستلاب ، ويعزز لغة هذيل المثل العربي الفصيح : من عزّ بزّ ، أي : من ملك قهر وغلب ، وأخذت الخنساء المثل وأدمجته في قريضها كما جاء في باب التضمين ، من الشواهد قولها :

كأن لم يكونوا حِمى يُتَّقي   إذ الناس إذ ذاك من عزَّ بزَّا

* **الغربال** : بكسر الغين والعامة تضمنها وهو غلط ، وهو ما يغربل فيه الدقيق أو الحنطة أو ما شابه ذلك ويجمع على غرابيل على وزن أبابيل وجاء في شعر كعب بن زهير قوله :

ولا تُمسِّك بالوعد الذي زعمت   إلا كما يُمسِك الماءَ الغربالُ

* **خيتعور** : (بفتح الخاء وتسكين الياء وفتح التاء وضم الغين ثم واو المد والراء) ، بمعنى : باطل ومزيف . ومن الشواهد قول امرئ القيس :

كل أنثى وإن بدا لك منها   آية الحُبِّ حُبُّها خَيْتَعُورُ

* **الشراشر** : بالشين المفتوحة المشددة والراء المفتوحة وألف المد ثم الشين المكسورة والراء ، ومعناها مأخوذ من (شرشرت الحية) بمعنى : عضت ، وشرشرت السكين بمعنى قطعت ، وقالت العرب : « ضربه الكلب بشراشر

ذنبه » أي : أطرافه وما تشرشر منه أي تفرق سواءً كانت الشراشر منه من وحل أم من خلافه ، وما ينقط من سم الأفعى فهو شراشر ، وقد تقدم الشاهد ، وللإحاطة أعيده حرصًا على إفادة من لم يقرأه أو من فاتته قراءته سابقًا :

لها لسانان معسول عليه حلاوة وآخر مسموم عليه شراشر

* **المرفع** : بكسر الميم وتسكين الراء وفتح الفاء ثم العين ، على وزن منبر ، وهو كل ما رفع به الشيء وأهل اليمن يفتحون الميم والأصح كسرها كما قال صاحب التاج ، كما أن أهل اليمن يقولون للكرسي : مرفع أيضًا (بفتح الميم) . والمرفع (بكسر الميم) يجمع على مرافع وهي ما يرفع عليها أي شيء وبخاصة الشراب : « القلل » وأما مرافع النصارى فهي أيام تتقدم الصوم عندهم وأما الرفيعة (بفتح العين) على وزن فتيلة فهي العالية في الشرف والمنزلة والرتبة ومنها كما جاء في الأثر : « والدرجة الرفيعة .... الخ » كما تطلق على القصة التي ترفع إلى الحاكم والقاضي للترافع مع الخصوم أو كشف حال الطالب[1] .

وأقول : ليت شعري لو ترفع كلمة عريضة وتستبدل بكلمة رفيعة لكان أجدى وأجدر وأنفع ؛ لأنها من الفصحى وتستعمل في الغرض نفسه وجاء في الأثر بمعنى القضية يعني رفعها للحاكم والشواهد كثيرة وتجمع على روافع والشاهد من الفصحى قول الراعي :

دعاهن داع للخريف ولم تكن لهن بلادًا فانتجعن روافعا

---

(١) الرفيعة أيضًا اسم حديقة جميلة في قباء أنشأها الشيخ إبراهيم اسكوبي الشاعر ولا تزال باقية حتى اليوم على أنها ليست اليوم في ملك أبنائه .

* **مواعيد عرقوب** : مثل عربي فصيح يراجع في الأمثال وضمنه الشعراء قصائدهم وأدمجوه فيها إدماجًا كقولهم :

مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وقول كعب بن زهير - رضي الله عنه - :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلًا   وما مواعيده إلا الأباطيل

* **القيس** : بفتح القاف وتسكين الياء ثم السين ، والقيس في اللغة هو الذكر وأما اللعب والرقص والتمثيل الذي يجري في ليالي الحج بمكة لمن يتخلف عن الطلوع إلى عرفة فمأخوذ من المصدر وهو قاس قيسًا وانقياسًا واقتياسًا . فالقيس من هذه المصادر والانقياس والاقتياس ، كذلك من (قاس) بمعنى قدر وشابه وقلد وحاكى وسبق .

ومن الشواهد :

لعمري لقد قاسَ الجميع أبوكم   فهلا تَقِيسُون الذي كان قائسًا

وكلها بمعنى اقتدى وتشبه وقلد ... الخ . وقايس أكثر ما تأتي بمعنى سبق ومنه الشاهد :

إذا نحن قايسنا أناسًا إلى العلا   وإن كرموا لم تستطعنا المقايس

والقيس يجمع على أقياس وأنشد سيبويه :

ألا أبلغ الأقياس قيس بن نوفل   وقيس بن أهيان وقيس بن خالد

والشعراء الذين تسمَّوا بامرئ القيس كثيرون والنسبة إليهم قيسي ، إلا امرأ القيس صاحب المعلقة فالنسبة إليه (مَر قِسي) .

* **خُليّف** : تقول العامة في مكة أيام الحج في أي وقت يكون الناس في عرفة ومنى وقت خلوها من الناس : (خُليِّف) بضم الخاء وإمالة اللام المشددة ثم الياء والفاء، وتسمي من بقي فيها ولم يحج (مخلف) بضم الميم وفتح الخاء وكسر اللام المشددة ثم الفاء والصيغة (خَلفَّ)بالتضعيف أي (تأخر) ، ولها معان كثيرة ومن جملتها تأخر وثقل وقعد عن الذهاب مع القوم فهو مخلف ومخلف بكسر اللام المشددة وفتحها ، ومنه الآية الكريمة : ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ [التوبة : من الآية٨١] وفي الأثر : «إن الطائر لَيَمُرُّ بجنباتهم فما يُخلفِّهُمُ» أي يتقدم عليهم ويتركهم وراءه ويقال امرأة خليف لمن أسبلت شعرها خلفها وقد تسمى بهذا الاسم وتجمع الصيغة على خوالف ومنه الآية الكريمة : ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة : من الآية٨٧] .. وتقصد العامة بكلمة مكة : (خليف) يعني موضع للمتخلفين والمتخلفات في هذه الأيام بالذات ، والصواب أن يقولوا(مخلفة) على وزن متربة ؛ لأن كلمة الخليف بضم الخاء لم ترد في اللغة على ما يظهر لي وفوق كل ذي علم عليم ، وتصحيح كلمة المخلفَّين والمتخلفين (خُلُوف) بضم الخاء واللام وهي التي تستعمل في المعنى المطلوب فتقول : قوم خلوف (بضم الخاء) وتطلق على الظاعنين والمقيمين كما جاء في اللسان ، وتصحيح كلمة المخلف بكلمة (خليف) على وزن فعيل كأمير فيقولون رجل خليف بمعنى متخلف عن الميعاد أو عن الذهاب وامرأة خليف يعني أسبلت شعرها خلفها وهكذا .. وأما (الخليفة) فهو السلطان الأعظم ، وأنشد الفراء :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

* **الأدهم** : تطلق هذه الكلمة على معان كثيرة ، وأكثر ما تستعمل في

القيد ، والفرس إذا كان يميل لونه إلى السواد أكثر يقال له : أدهم والمعنى يظهر من السياق .. سياق الكلام ، فإذا كان للفرس له سياق خاص ، وإذا كان للحديد يختلف سياقه كما قال ابن مالك :

فالأدهم القيد لكونه وضع   في الأصل وصفًا انصرافه مُنبع

قال الحجاج يومًا لابن الأشعث أو لابن القرية : « لأحملنك على الأدهم » ويقصد به القيد . فرد عليه مداعبًا ومغالطًا : (الأدهم خير من الأبلق) ومن الشواهد ، من الرجز : (أوعدني بالسجن والأداهم) جمع أدهم وهو القيد .

* **الآبل** : بالمد وكسر الباء ثم اللام . وهو الخبير في مصلحة الإبل ومعرفتها ، وأما كلمة أبّال بالتضعيف على وزن شداد فمعناه : راعي الإبل وقائدها وصاحبها .. والعامة في مكة تسميه (جمّالًا) بصيغة التضعيف والصيغة صحيحة وجمعها بفتح الجيم على وزن حمّالة وجلابة وحمّارة وخيّالة لأصحاب الحمير والخيل وغيرهم مما جاء على هذا الوزن ، والجمل هو الحيوان المعروف وضرب به المثل في الصبر فقالت العرب : « أصبر من جمل » وقالت : ما استتر من قاد الجمل ، وقالت : « لكل أناس في جملهم خبر » (بضم الخاء وتسكين الباء ثم الراء) ، والجمل هو زوج الناقة وقد يقال لها (جُماليّة) بضم الميم وفتح الجيم وفتح الميم وألف المد وكسر اللام وفتح الياء المشددة ثم التاء المربوطة وهي التي تشبه الجمل في الخلق ، وفي مصر حي بأكمله يسمى بالجمالية بفتح الجيم وجاء ذكر الجمالية في شعر الأعشى وشعر طرفة بن العبد :

جُماليّة وجناءَ تَردي كأنها   سَفَنَّجَةٌ تبرى لأزعر أربد

وفي بعض الروايات بفتح الجيم واستعمال صيغة الجمالية أشهر من صيغة الأبّالين .

* **إنَّه** : بكسر الهمزة وتشديد النون المفتوحة ثم الهاء الساكنة وتستعملها العامة في مكة تلقاء كلمة العيب ونحوه ، والصحيح أنها بمعنى نعمن والشاهد في قول قيس بن الرقيَّات :

ويقلن شيب قد علاك وقد كبرت فقلت إنَّه

وهذا تفسير الأخفش ويخالفه أبو عبيد والتوضيح في المطولات والمقصود إفهام العامة بالغلط .

* **وَيحكَ يا عسَّاس** : بفتح الواو وتسكين الحاء وفتح الياء ثم كاف المخاطب ، والعساس : هو من يقوم مقام الشرطي في الحراسة والمراقبة وملاحقة اللصوص ، لكنه ليلا وهو لا يتزي بزي العسكري .. وتقصد العامة بكلمة : « ويحك » على صيغة اسم فعل الأمر بمعنى كن واحيا مع أن هذه الصيغة لم ترد في استعمال العرب لكن البادية في الحجاز تستعمل كلمة (واحي) وما شابهها تلقاء كلمة (كن يقظًا ، وألق بالك) فيقول له صاحبه أيضًا : « وَحَيتَ » كما يقول : « أوحى » و« هل توحى ؟ » ... الخ .

وفي الفصحى (وحاة) على وزن فتاة وهو الصوت يكون في الناس وغيرهم .

قال الأخفش : قالت العرب : سمعت وحاة الرعد ، أي : صوته الممدود الخفي ، والمطلوب من قولهم : يا عساس ارفع صوتك ليهرب اللص أو ليعلم أنه مراقب ؛ وذلك لأن العساس من عادته أن يصفر وينفخ في بوقه ليلًا ليسمع البعيد من أقرانه أنه موجود ، ولكل عساس نغمة أو إشارة في الصفارة ، والصفير ، ليعلم زميله أنه غير مزيف أو مقلد ، وقد تقدم معنى العساس الليلي .

* **لا ناقتي فيها ولا جملي** : وهذا مثل تستعمله العامة وقد استعملته هنا كما سمعته من أفواههم ويضربونه فيمن ليس له من الأمر شيء ومن لا يهمه شيء ولا يسأل عن شيء، والحقيقة أنه مثل من أمثال العرب الخالدة وقد عالجت انحراف العامة في نطقهم له في كتابي (الإكليل في معالجة كلام العامة ومعرفة الدخيل) الذي لم يطبع بعد؛ لأن الأمثال العربية يجب ان تنطق بلفظها الذي استعملته العرب من غير زيادة حرف ولا نقصه حتى ولو كان بصيغة معينة كما في قولهم: «الصَّيفَ ضيعت اللبن».

والنطق الصحيح لهذا المثل هو: «لا ناقتي في هذا ولا جملي» وقائل المثل الحارث بن عباد، وضربه في التَّبَرُّؤ من الظلم والخطأ، والتنصل من الإساءة حينما قتل جسَّاس كليبًا، وقد ضمنه الشعراء أشعارهم وأدمجوه في نثرهم وحكمهم، ومنهم الراعي إذ قال:

وما هجرتك حتى قلت معلنة　　　لا ناقة لي في هذا ولا جمل

ثم نحا نحوه الطغرائي في (لامية العجم) لكن مع التحريف لضرورة الشعر وهو غير مقبول للشاهد كما نص عليه حكيم النحاة وأصول القواعد العربية.. قال ـ رحمه الله:

فيم الإقامة بالزَّوراء لا سكنى　　　بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

* **سَعَالى** : (بفتح السين والعين مع ألف المد وكسر اللام مع ياء المد)، جاءت في سياق كلام العامة وهي عربية فصيحة ومفردها سعلاة (بكسر السين) وهي أخبث الغيلان. وقد جاء ذكرها في أشعار العرب بكثرة.. ومن الشواهد:

لقد رأيت عجبًا مذ أمسا عجائزًا مثل السعالى خمسا

وجاء ذكرها في الأثر والنثر والحكم، ويشبهون المرأة القبيحة الصَّخَّابة بالسعلاة.

* **تباشير الصبح**: وهذه الكلمة أو التركيب جاء ومعناه أول الصبح وتباشير كل شيء أوائله، ولا فعل له، وسمع هكذا من العرب وتكون التباشير بمعنى البشرى ومن الشواهد قولهم: (رأى الناس في النخل التباشير) أي البواكير.

* **يانع**: (بفتح الياء ثم ألف المد والنون المكسورة والعين) بمعنى ناضح وفعله «ينع» ويأتي من باب ضرب وجلس وقطع وخضع، والرباعي منه (أينع) ومصدره (ينع) بفتح الياء وضمها كما في الآية الكريمة: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: من الآية٩٩] واليَنيع بمعنى اليانع وهو الناضج؛ وقال عمرو بن معدي كرب:

كأن على عوارضهن راحا يُفض عليه رُمَّان ينيع

* **قهوة**: بفتح القاف وتسكين الهاء وفتح الواو ثم التاء المربوطة. وهي ما طبخ من البن مع إضافة شيء من التوابل كحب الهان (الهيل) ونحوه، وبعضهم يطلق على المغلية كلمة قهوة وهذا بحسب عرفنا في العصر الحاضر، والكلمة عربية وتنطق بها سائر الأقطار العربية وتطلقها على شراب البن بعد تحميصه وطحنه وطبخه، واستعمال الكلمة في هذا المعنى بالذات من عمل المولدين؛ لأنه أي هذا الشراب المتخذ من البن لم يكن في زمن من الأزمان من استعمال العرب القدامى ولم يظهر ثمر البن ولم يكتشف إلا منذ خمسة قرون تقريبًا.

وأما القهوة عند العرب فهي الخمر ، كما قال أعشى قيس صاحب المعلقة :

نازعتهم قُضُبَ الريحان مُتَّكِئًا وقهوة مُزَّة راووقُها خَضِلُ

* **موصد** : (بضم الميم ثم واو المد والصاد المفتوحة والدال) بمعنى مغلق ، وفي القرآن الكريم : ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة : ٨] بضم الميم وتسكين الهمزة المنقلبة واوًا في قراءة من يضم الميم ثم واو المد .

* **الألوة** : (بفتح الهمزة وضم اللام وفتح الواو المشددة ثم التاء المربوطة) وكذلك اللُّوة واللِّيَّة نوع من العود يُتَبخر به . وجاءت هذه الكلمات في الأثر وأشعار العرب ولكنها من الدخيل : وقد تقدمت شواهدها عندما ذكرنا (لِيَّة) الضاحية الجميلة بقرب الطائف ، فلا داعي للإعادة .. وهذا الألوة يتجمر بها أي هي ما يوضع فيها الجمر للبخور ، وتجمع على (مجامر) بفتح الميم . وقالت العرب : « مجامرهم الألُوَّةُ » وجاء في الأثر أيضًا .. ومعناه : يوقدون الألوة الذي هو نوع من العود الذي يتبخر به بدلا من الجمر وقد مر على هذا النمط في بعض رحلاتي كما سيأتي مستقبلا ـ إن شاء الله . والمجمر بمعنى المجمرة أيضًا بفتح الميم .

* **السيب** : (بكسر السين المشددة والياء والباء) هو مجرى الماء إذا كان مُجصصًا مُبَلَّطًا بحجر ونحوه ويوصل بين المجالس أو ما شاكلها وهذا بحسب نطق العامة وفهمها واستعمالها ، وتصحيح الكلمة بكسر السين ، وتطلق على مجرى الماء فقط وهي فارسية واستعملتها العرب وأضافتها إلى لغتها ، ومعنى سيب : رائحة ، وإذا أضفت (وَيه) بمعنى (تفاح) إليها صارت اسمًا للرجل المسمى بهذا الاسم وهو إمام النحاة ـ رحمه الله ، ويجمع السيب على سيوب ، وأما السياب (بفتح السين المشددة والياء كذلك وفتحهما مع التشديد

أو التخفيف) فهو البلح أو البسر والواحدة سيابة ولا تنس الأديب الكبير ابن سَيَّابة في العصر العباسي[1].

* **الروشن**: بفتح الراء المشددة والواو الساكنة والشين المفتوحة ثم النون الساكنة. وتطلقها العامة على البائكة أو البلكونة أو ما خرج من النوافذ على الشارع إذا كانت أكثر من اثنين على نمط الغولة التي تقدم ذكرها بشرط أن تكون من الخشب وخارجة عن المجلس، وبه ثقوب جميلة يطل منها الإنسان بحيث يرى ولا يُرى.

واخترعت لربات البيوت من المخدرات، ويقولون: روشان ويجمعونها على رواشين، وفي الحقيقة أن الروشن كلمة حبشية أدخلتها العرب على لغتها للغرض نفسه الذي ذكرناه، ويقابل هذه الكلمة في الفصحى: الكُوَّة (بضم الكاف أو فتحها وفتح الواو المشددة ثم التاء المربوطة) وتجمع على كُوَى (بضم الكاف) على وزن سُدى.. ومن الشواهد قول عمر بن أبي ربيعة:

وكن إذا أبصرنني أو سمعنني سعين فَسَدَّين الكُوى بالمحاجر

* **أبللت**: قالت العرب: أبَلَّ الرجل (بفتح الهمزة والباء واللام المشددة المفتوحة) وقالت: بل الرجل (بفتح الباء واللام المشددة المفتوحة)، والمضارع يبل (بفتح الياء وكسر الباء) بمعنى (صح وشفى من المرض)، وتأتي (بَلَّ) أيضًا بمعنى (ظفر) كقول طرفة:

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني منيعًا إذا بلت بقائمه يدي

---

(١) والسَيّاب أيضًا شاعر معاصر.

وقالت العرب : هذا بل (بمعنى شفاء) والبل بكسر الباء ثم اللام المشددة . قال العباس بن عبد المطلب في زمزم « هي للشارب حل وبل » .

* **القَنَصُ** : بفتح القاف والنون ثم الصاد . وهو محل الصيد ، وإن كل قطعة من الأرض فيها صيد يصاد يقال لها قنص ، وبعض العامة تسكن النون وهذا من أغلاط العامة ؛ لأن القنيص هو المصدر على وزن الحصيد ، فلا تقل : ذهبنا إلى القنص ، بل قل : ذهبنا إلى المصاد (بفتح الميم والصاد على وزن المعاد) أو قل : ذهبنا إلى المُتَصَيَّد (بضم الميم وفتح التاء والصاد والياء المشددة المفتوحة ثم الدال) ، هذا إذا كان الموضع الذي تصطاد منه خلاء أو رأس جبل أو ما شابه ذلك ، وأما إذا كان لك أوكار تخرج منها الصيد أو عشش أو خيام أو ما يشابه ذلك فقل : ذهبنا إلى التُّحُوت (بضم التاء المشددة والحاء المضمومة ثم واو المد والتاء) ، والشاهد من الأثر الصحيح في حديث أبي هريرة ﷺ : « وأن تعلو التحوت الوعول » ، فقيل : ما التحوت ؟ فقال : بيوت القانصة كأنه بيوت الصيادين مثلًا للأرذال ؛ لأنها أرذل البيوت وإذا اصطدت شيئًا فقل جئتكم بقنص أو قنيص أو صيد ولا تقل جئتكم بصيدة أو صيداء كما هي لغة العامة ؛ لأن صيداء اسم بلد بساحل لبنان وتطلقها العرب على الحصى ، ومن الشواهد قول الشماخ :

حذاها من الصيداء نعلًا طراقها حوامي الكراع المؤيدات المعاور

* **التَّسكُعُ** : بفتح التاء والسين المفتوحة والكاف المشددة المضمومة ثم العين . وهو عدم الاستقامة أو الاتجاه إلى جهة غير سليمة أو المشي بتعسف وفعله : (سكع) و(تسكع يتسكع ... الخ) والتمادي في الباطل يسمى تسكعًا أيضًا ، ومن الشواهد : ألا إنه في غمرة يَتَسكَّع

* **جلابة** : بفتح الجيم واللام المشددة المفتوحة وألف المد والباء المفتوحة ثم التاء المربوطة . وقد جاءت هذه الكلمة بمعنى التجار الذين يجلبون البضائع وغيرها مما يجلب ولكن هذا التفسير والمعنى وارد على لسان العامة في مكة والصواب أن تقول : الجُلاب بصيغة المبالغة على وزن فُعال أو تقول : الجالب ، كما جاء في الأثر الصحيح : « الجالب مرزوق .. الخ » وكانت العرب تطلق كلمة الجلابة على العبيد المستوردين من الخارج فيقولون : جلابة وجلبي وجُلباء على وزن قتلاء (بضم القاف وفتح التاء) ، وأكثر ما تستعمل كلمة جلابة للمرأة الصَّخّابة المهذارة السيئة الخلق . والتجلب هو التماس المرعى ، والجلب (بكسر الجيم أو ضمها مع تسكين اللام) هو السحاب المعترض ، ويرى كأنه جبل ، ومن الشواهد قول تأبط شرًا من قصيدة :

ولست بِجلب جلب ليل وقرَّة ولا صلد عن الخير معزل

* **الخُطى** : بضم الخاء وفتح الطاء ثم الألف المقصورة على وزن السها . والأصح أن تكتب بالألف ؛ لأنها من خطا يخطو ، والخُطا جمع خطوة (بفتح الخاء وضمها) ، ومعناها : ما بين القدمين من مسافة إذا مشيت مشية عادية ، وتجمع على خطوات (بالفتح والضم) ، أي بفتح الخاء والطاء أو ضمهما . ويقال لهذا الجمع جمع قلة وجاء في القرآن الكريم : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة : من الآية١٦٨] وجمع الكثرة خُطا (بضم الخاء وفتح الطاء ثم الألف المقصورة) على وزن عُلا . ومن الشواهد :

قصار الخُطى شُم شُموس عن الخنا

خدال الشوى فُتخُ الأكف خراعب

وقد تقدم هذا الشاهد في كلمة شمسية مع توضيح معناها وذكرته هنا

لشاهد الخُطا ، ولمن فاتته التوضيحات ، ومن كتب عليه خُطا مشاها ، سدد الله خطا الجميع .

* **خلوة** : بفتح الخاء وتسكين اللام وفتح الواو ثم التاء المربوطة . وتطلقها العامة في مكة على الغرفة التي يسكنها الإنسان ، ويختلي فيها بمفرده وهي صحيحة الاستعمال ومعناها اللغوي : المكان الذي يختلي فيه الرجل ، والعامة تجمع الخلوة على خلاوي بكسر الواو وهو غلط والصحيح خَلَوات على وزن سجدات (بفتح الخاء واللام والواو) وقالت العرب : خلوة المرء خير من جليس السوء .

* **التكبيس** : تقول العامة في مكة : فلان كبّس فلانًا ، وفلانة كبست زوجها إذا لينت جسده بيديها ، وزوجها كبَّسها وكلها (بتشديد الباء) يعني لين جسدها ، أما إذا كانت الباء غير مشددة فمعناها نكحها . والمكباس (بكسر الميم) صيغة المبالغة والجمع مكابيس على وزن مصابيح . قال المتلمس : والظلم ينكره القوم المكابيس .

* **الكِلَلُ** : (بكسر الكاف وفتح اللام ثم اللام الثانية ، على وزن الملل والنحل) جمع كلة (على وزن علة) ، والكلة هي الستر الخفيف الرقيق وهذا ما تسميه العامة في زماننا هذا بالناموسية .. وكانت العرب تجعل من هذا الستر مخيطًا جميلًا رقيقًا على شكل الغرفة للوقاية من البعوض والذباب .. وعرب الشمال في العلا وضبا والوجه يعملونه للآن وقد ذكرته في (رحلة مدائن صالح) .. ومن الشواهد قول زهير بن أبي سلمى :

علوان بأنماط عناق وكلة وراد حواشيها مشاكهة الدم

وقد دعينا للغداء في العلا في بيت التاجر التهامي وتناولناه في هذه الكلل مع رفقائنا .. إذ كان مقامنا بالعلا ، ومنها نرحل إلى المدائن وكان بعض الغرف يزيد في المساحة على خمسة أمتار طولًا وعرضًا وخاصة ببيت التاجر التهامي الذي دعانا للغداء مع رفيقنا في السياحة المرحوم عبد الله بن غريض وكانت الكلة الجميلة على قدر مساحة الغرفة وارتفاعها ثلاثة أمتار ويلج فيها الإنسان عند فتح الغرفة وقلنا له : لماذا تعملون هذه الناموسيات التي هي الكلل على قدر هذا المقياس؟ فقال : لأجل البعوض والذباب .. وقد أشرت إلى ذلك في كتاب مدائن صالح ، والذباب في العلا كبير الحجم ويلدغ كالنحل فلعل ولاة شؤون البلدية هناك يتولون إبادته بالمبيدات ليتمكن السياح من أداء واجبهم السياحي على الوجه المطلوب .

* **معتجرات** : جاءت هذه الكلمة فيما قبل وضبطها : ضم الميم وتسكين العين وفتح التاء وكسر الجيم وفتح الراء ثم الألف والتاء . بمعنى معصبات رؤوسهن بالمعجر ، وهو ما يشد به رأس المرأة كالخمار ونحوه ولا يكون إلا في الرأس غالبًا ويستعار للرجل إذا عصب رأسه بعمامة تشبه المعجر وضبطه : كسر الميم وتسكين العين وفتح الجيم ثم الراء . ومن الشواهد قول النميري في زينب أخت الحجاج بن يوسف الثقفي وكانت من أجمل نساء عصرها كما ذكر الجاحظ ، قال النميري :

أجل الذي فوق السماوات عرشه
أوانس بالبطحاء مُعتجرات

ومنها :

تضوّع مسكًا بطن نعمان إذ مشت
به زينب في نسوة عطرات

* **الصَّنْدَقَةُ والصَّنادِق**: كل سقف مغلف بالصفيح أو المعدن أو الحديد الرقيق تسميه العامة صندقة وتجمعها على صنادق سواء أكان التغليف من الخارج أم من الداخل، وقد يطلقون كلمة الصنادق على كل غرفة قائمة على عمد من العيدان ومبسوط عليها الصفيح سواء أكانت أرضية أم علوية سطحية أي مقامة على السطوح، ولعل العامة سرقت الكلمة من الصندوق واشتقت منه ما تريد كما هي عادتها في التحريف والتشويه، أما الصحيح في هذا الباب فلم يرد سوى «العريش» كما جاء في السِّير ويجمعونه على «عُرُش» بضم العين والراء ثم الشين وفي الأثر الصحيح: «تمتعنا مع رسول الله ﷺ وفلان كافر بالعُرُش» (بضم العين والراء) جمع عرش. والعريش هو الخيمة المتخذة من الخشب، وكانت تُسمى بيوت مكة في الجاهلية وصدر الإسلام بالعرش (بضم العين والراء)؛ لأنها عيدان تنصب وتظل سقوفها بالخشب أو الثمام. جاء في الأثر أن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يقطع التلبية إذا نظر إلى عروش مكة.

فلما تطورت هذه العرش بتغليفها بالصفيح وأشبهت الصناديق قالت العامة وسمتّها صندقة، وكان الأجدر أن تسميها (بالصدقة) بفتح الصاد وتسكين الدال وفتح القاف ثم التاء المربوطة، فتقول: هذا صدق وهذه صدقة. وتجمع على صدقات (بفتح الصاد وتسكين الدال)... والصدق (بفتح الصاد وتسكين الدال) هو الصلب من كل شيء، سواء أكان من الرجال أم من غيرهم. فنقول: رجل صدق، ورمح صدق، وعريش صدق، وقناة صدق الخ...

ومن الشواهد من إنشاد سيبويه ـ رحمه الله ـ :

مقذوذة الآذان صدقاتُ الحدق

وقال سيبويه : قالت العرب هذا ثوب صدق ، وخمار صدق ، ورجل صدق وامرأة صدقة وقناة صدقة الخ .

وبعد هذا الشرح يجدر بنا أن نبدل كلمة الصندقة بكلمة الصدقة أو كلمة العريش الصَّدِق ، والرأي لكبار علماء اللغة ، وفوق كل ذي علم عليم .

* **قرمد** : بفتح القاف وتسكين الراء وفتح الميم ثم الدال . وهو الآجر ، ومفرده قرمدة ومن الشواهد قول طرفة :

كقنطرة الرومي أقسم ربُّها   لتكتنفن حتى تُشاد بقرمد

* **الفصي** : كما تنطقه العامة وهو نوى التمر ، والمفرد يقال له فصية وكأن العامة استعارت الكلمة من فصا وتفصي بمعنى تخلص من أي شيء والفعل يائي والاسم فصية (بفتح الفاء وتسكين الصاد وفتح الياء ثم التاء المربوطة) ، وليست بفتح الياء المشددة وكسر الصاد كنطق العامة ، وقالت العرب : فلان تفصى (على وزن تلهى) بمعنى تخلص كما تخلص النواة من التمر . وجاء في الأثر : « وما كدت أتفصى من فلان .. الخ » بمعنى أتخلص ، ولك أن تقول : فصيتُ النواة من التمرة يعني أخرجتها ، والعرب لا تقول : هذا فصي بل تقول فصيص بمعنى مدهون ومجلو كأنه مرآة فتقول : هذا النوى فصيص أي مصقول .

وتصحيح الكلمة في الفصحى ، أن تقول : هذه نواة (بفتح النون والواو وألف المد والتاء المربوطة ، على وزن قناة وفتاة) مقابل كلمة فصية عند العامة ،

وجمع النواة نوى (بفتح النون على وزن فتى) ومن الشواهد:

فأصبحوا والنوى عالي مُعَرسهم
وليس كل النوى تُلقى المساكين

* **البلْصَةَ**: بفتح الباء وتسكين اللام وفتح الصاد ثم التاء المربوطة بمعنى الرشوة عند العامة ولكن العرب لم تستعمل هذه الكلمة مطلقًا تلقاء الرشوة، حتى الصيغة لا وجود لها في القاموس العربي على الإطلاق ولعل العامة استعارت الكلمة من تبلص الشيء بمعنى طلبه في الخفاء والرشوة غالبًا ما تؤخذ في الخفاء.

فالأصح أن تقول ارتشى فلان وأخذ رشوة بدلًا من البلصة وبدلًا من قولهم: فلان انبلص وغض النظر عن البلصة ومشتقاتها.

والذي جاء في هذا الباب من هذه الصيغ كلمة بلص. وقد تقدم معناها، ثم كلمة بُلْصوص بضم الباء وتسكين اللام وضم الصاد ثم واو المد والصاد لا بفتح الباء واللام كما هو في بعض المعاجم. وهذا البُلصوص (بالضم) هو طائر صغير وصيغة الجمع: البلنصي على وزن العلندي، وبعض علماء الحيوان يقولون: إن الأنثى يقال لها البلنصي واستشهدوا بقولهم: والبُلصوص يتبعه البلنصي، لكن الدميري يعارض الصيغة ويعتبرها محرفة ويثبت ضم الباء وتسكين اللام وجاء بالشاهد الذي مر.

ثم جاءت صيغة بلأص الرجل بمعنى فرَّ، والمصدر بلأصة على وزن مخمصة.

* **الشرموط**: من تسمية العامة والزنوج (التكارنة) يقطعون اللحم إلى

شرائح خفيفة دقيقة وينشرونها على الحبال في الشمس حتى إذا ما جفت اختزنوها للحاجة، وهذا النوع من اللحم يمكث زمنًا طويلًا لا يفسد ينتن. كذلك العامة تطلق كلمة الشرموط على الرجل المنحرف إذا كان متجاهرًا بالانحراف والشذوذ ومكشوفًا كاللحم الشرموط الذي نشر في الهواء والشمس والمرأة شرموطة، والحقيقة أن هذه الكلمة غير عربية، فما أدري من أين جاءت إلى ألسن العامة؟! والكلمة العربية الفصيحة الصحيحة التي جاءت من صيغة (شرط) قولهم شرواط (بكسر الشين وتسكين الراء وفتح الواو ثم الألف والطاء على وزن ملقاط)، ومعنى الشرواط: الطويل المتشذب اللحم الدقيق، ويكون من الناس والإبل. فإذا كان الرجل خفيف اللحم يقال به شرواط وكذلك البعير أو الناقة فيقولون: رجل شرواط وامرأة شرواط وناقة شرواط، ومن الشواهد:

وهُن أمثال السرى الأمراط　　　يُلحن من ذي دأب شرواط

وهذا اللحم الخفيف المقطع إلى شرائح خفيفة شرواطية تنشره العرب على الرمل في الرمضاء فينضج حالًا فإذا نضج على هذا الرمل سمي بالوغير، فإذا نشر على حجارة محماة سمي بالمضهب يعني ناقص النضج، والمضهب نوع من الشواء، وتصحيح الكلمة ضم الميم وفتح الضاد والهاء المشددة المفتوحة ثم الباء ومن الشواهد قول ربيعة بن مقروم الضبي:

سُخَامِيَّة صهباء صِرْفًا وتارة　　　تعاورُ أيديهم شواء مُضهَّبا

* **الوصبُ**: بفتح الواو والصاد ثم الباء. ومعناه المرض. وفعله وصب من باب علم فتقول وصب يوصب.

* **الأوتاد** : جمع وتد (بفتح الواو وكسر التاء) فتقول وتد الوتد من باب علم والأمر منه تد بكسر التاء على وزن زن ، يعني دقها بالميتدة على وزن المنقدة والآلة الخشبية التي يدق بها الوتد حتى يثبت في الأرض يقال لها المرزبة والمدق بضم الميم والدال والقاف المشددة . والعامة تسميه الدقاق وهي دخيلة ، أما المرزبة فهي بكسر الميم وتسكين الراء وفتح الزاي والباء المشددة والتاء المربوطة ، والوتد هو ما دُق ورُزَّ في الأرض أو الجدر من خشب وفي القرآن الكريم : ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ : ٧] .

* **العَبرَةُ** : بفتح العين وتسكين الباء وفتح الراء ثم التاء المربوطة وهي الدمعة قبل أن تفيض والعامة تقول : غرغرت عينه وهو غلط في الاستعمال ، وقالت العرب في أمثالها : « لك ما أبكي ولا عبرة بي » يضرب للرجل إذا اشتد اهتمامه بأخيه ونسي نفسه وقال عنترة :

وشكا إلي بعبرة وتحمحم

والفعل من هذا الباب عبر على وزن طرب والعبران هو الباكي والعبَّار بصيغة المبالغة على وزن كتان هو مفسر الأحلام . ومن الشواهد ما جاء في الكامل من إنشاد أبي العباس المبرد :

رأيت رؤيا ثم عَبَّرتها وكنت للأحلام عبَّارًا

* **البَردَعَة** : بكلام العامة والصحيح فتح الباء وتسكين الراء وفتح الدال أو الذال بالوجهين ، ثم فتح العين وبعدها التاء المربوطة ، وهي الحِلسُ يلقى تحت الرجل ، كما تطلق البرذعة أيضًا على الأرض التي هي لا سهل ولا جبل والجمع براذع (على وزن قنافذ) والنسبة إلى صانعها بُراذعي أو برذعي ، وأما

برذع فهو اسم رجل ومن الشواهد من إنشاد ثعلب :

لعملا أبيها لا تقول حليلتي ألا إنه قد خانني اليوم برذع

* **قلب لي ظهر المجن** : من أمثال العرب الخالدة وصيغته الصحيحة : قلب له ظهر المجن . وهو يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد وتنكر لصاحبه . وقد ضَمَّنَهُ علي ـ كرم الله وجهه ـ في الرسائل التي بعث بها إلى ابن عباس رضي الله عنه حينما أخذ من مال البصرة ما أخذ ، قال له من رسالة مطولة : « فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كَلَب والعدو قد حرب قلبت لابن عمك ظهر المجن فاختطفت ما قدرت عليه من أموال الأمة اختطاف الذئب من رَابِيَة المعزى ... الخ » .

* **لكل زمان دولة ورجال** : جاء هذا المثل أيضًا فيما سبق وقد تقدم شرحه سابقًا ولكن صيغته الصحيحة كما رواها العسكري : (لكل دهر رجال ولكل مقام مقال) .

* **جبال مكة وأوديتها وآبارها** .. يأتي الكلام عنها ـ إن شاء الله ـ فيما بعد .

* **لكل جنب مصرع** : جاءت هذه الجملة فيما سبق ، وهي من أمثال العرب ومعناها : لكل حي موت ، وضربه وأدمجه في قصيدته أبو ذؤيب الهذلي إذ قال :

سَبقُوا هَوى وأعنقوا لِهواهمُ فَتُخُرِّموا ولِكلِّ جنب مَصرع

ومطلع القصيد :

أمِن المنون ورَيبها تَتَوَجَّعُ والدهر ليسَ بِمُعتب من يفجع

« عود إلى وقائع رحلة العمر »

وهي آخر ما سأتكلم عنه بالنسبة للطفولة ، وبعدها تبدأ الرحلات التي عليها المعول والتي يمكن تسميتها بالرحلات المعمقة والمطولة ، وتبدأ من سن المراهقة حتى هذه اللحظة ، وإلى ما بعدها ـ إن شاء الله .

كما أني سأقف وأعرض عن شرح الكلمات اللغوية والجغرافية والتاريخية ؛ لأن ما شرحناه فيه الكفاية بالنسبة للقارئ المبتدئ ، ولأن ما ذكر من كلمات غريبة وعامية ودخيلة ومولدة مع تصحيح الأمثال العامية كان مفتاحًا صغيرًا للقراءة من غير الرجوع إلى المعجمات اللغوية وإن كانت هناك بعض كلمات غريبة أو أعجمية فستكون تفسيرها في الهامش الموضوع تحت الخط كما هي العادة ، وقد كنت أكتب رحلات الطفولة بلغة البدو ؛ لأني نموت وعشت بينهم من قبل اليوم السابع من ولادتي إلى هذه اللحظة من سني العمر .

أما الآن وأنا على أبواب السنة الثانية عشرة من العمر فقد تحضرت وسكنت في الحضر واختلطت لغتي وتعجمت وأصابها ما أصاب المتحضرين من فساد وعجمة وما شابه ذلك فلا مؤاخذة إذن أيها القارئ لهذه الرحلات إذا وجدت خللا في التعبير ، وعليك بمراجعة الأغلاط وإصلاح الخطأ إذا وقفت على شيء من التقصير ـ أصلح الله لي ولك الأمور .

هذه كلمتي موجهة للمبتدئين ، أما المثقفون الكبراء من الأساتذة والعلماء ، وأما الذين لهم ضلع في التاريخ وفقه اللغة والألى قد رحلوا وعرفوا أكثر مما أعرف ، فلا يمسهم كلامي هذا وما أنا فيهم إلا قطرة من سحاب . وليس عليهم إلا إصلاح ما اعوج وذكر ما أغفلته أو غفلت عنه . وجل من لا يغفل

ولا يسهو ولا يخطئ وأسأل الله التوفيق والاستقرار والصحة والاستمرار حتى أنتهي من هذه الرحلات على خير ما أرجو . وأتوخى ، فهلموا بنا إلى النهاية وشكرًا .

ما بعد الاختطاف

بعدما اختطفني عمي ـ رحمه الله ـ من بين أمي وإخوتي ذهب بي إلى بيت العمات وكان الوالد في انتظاره هناك ، فظننت ظن السوء وقلت : لابد من العقاب والهلاك ؛ إذ ما أقدموا على اختطافي إلا لأمر عظيم وحبس مقيم .

ولما دخلت عليهم أخذ بأذني الوالد ـ رحمه الله ـ وزج بي بين العمات وقال : هذا البيت مأواك ومثواك حتى الممات ولا خروج منه إلا على المدرسة فقلت : مرحبًا . وأذعنت لكلامه خوفًا من عقابه .

ثم قلت في نفسي : أرجو أن الأمر قاصر على النصيحة والعتاب من دون ضرب أو عذاب . وقد حقق الله ذلك الرجاء إذ لم يطرأ على الموقف تغير حتى المساء .

خرج الوالد وقال : سآتيك في الصباح ـ إن شاء الله ـ لآخذك إلى الخياط ؛ ليخيط لك جبة وثوبًا حتى تذهب إلى مدرسة الفلاح وأرجو أن يكتب الله لك النجاح ، ثم خرج بسلامة الله وبقيت بين العم والعمات . ورجع إلى مخيلتي ما كان من ذكريات ، تذكرت الماضي الأليم وقد ذهب عني كل صديق حميم ، ونزل كل فرد إلى مضجعه ثم أمرت بالنوم عندما أمرتني العمة الكبرى بالصلاة والعشاء والاضطجاع .

من هنا وهناك

سألتها من هنا وهناك عن بعض ما يجول في خاطري فأجابت بإيجاز ولم تفصح عن شيء كنت أطلبه وهو إخباري عن بيت شربة : ماذا فعل الله به بعد موت صاحبته أم المكارم ـ رحمها الله ؟ فقالت : قد تفرق الجمع ولم يبق سوى أم سالم شربة وهي المرحومة سلوى ، والمرحومة شمسية والمرحوم سالم شربة . وسألتها عن الحسناء فقالت : لا أدري عن أحد ولا عن شيء وخاصة بعدما حضر الوارث من أرض فتيانة واستولى على الدار وأجبر السكان على الخروج . وهو المرحوم يونس فتيانة وقد تقدم له ذكر سابق . ثم قالت : إياك والثرثرة وهمت بالانصراف فرجوتها أن تكون بجانبي وأن تقوم بدور العمة الصغرى التي زفت إلى زوجها المرحوم عمر فقيه ، والتي كانت تقص علي أجمل القصص حتى أنام ، ثم قلت لها : إني أتخيل المرحومة الجدة التي ماتت في هذا المجلس المشئوم ، فقالت : لا سبيل إلى ذلك .

إنما بشرتني عن أمي المرضع وأختي عجوة (فاطمة) أنهما قد حضرتا من الزيمة وسكنتا بالمعابدة بالبيت الأول ، وأن أهلي قد اصطلحوا معها ورجعت المياه إلى مجاريها . وأن العمة الصغرى تأتي كل أسبوع للزيارة ، والمرضع كل شهر . فاطمأننت بعض الشيء لكن النوم طار من عيني ، وخاصة بعد ما أطفئت الأنوار وغاب القمر وهمدت الأصوات واحتلك الليل وحضرت الهموم والوساوس .

نهضت من الفراش وهبطت إلى الدهليز على رؤوس الأصابع حافيًا لكنني وجدت باب الدار مغلقًا بالمفتاح الذي غالبًا ما يكون عند العم الذي ظن أني

سأهرب لا محالة وفعلًا كنت عازمًا على الهرب ، ولكن حال دون ذلك عدم وجود المفتاح فرجعت كاسف البال .

الخياط ، العم أكبر

في الصباح جاء الوالد وأخذني إلى السوق واشترى قماشًا وذهب بي إلى الخياط ، العم أكبر ، وكان دكانه تحت بيت أم المكارم المرحومة خديجة شربة وكان يستأجره منها بعشرين ريالا مجيديًا في السنة ومساحته ستة أذرع طولًا وأربعة أذرع عرضًا وموقعه جميل وبقرب المسجد بباب الدريبة ، وظل فيه إلى ما قبيل الهدم بقليل ، ثم حل محله العم سالم شربة إلى أن وافاه الأجل وبعد موته بيوم واحد انقضت الدار برمتها وقد تقدمت القصة سابقًا ، وأصبحت هذه الدار أثرًا بعد عين ثم بيعت وهي خراب إلى البوقرية ، فبنوها على آخر طراز . لكن لما جاء مشروع التوسعة اجتثت من فوق الأرض ودخلت في المسجد الحرام . وكان باب الدريبة مشهورًا بأمهر وأحذق الخياطين ، كان منهم المرحوم الشيخ أحمد خياط والمرحوم شرف حجي والد الشيخ بكر شرف ، ثم هذا الخياط الكبير العم أكبر كان هندي الأصل إلا أنه من مواليد مكة ومن المشاهير في تفصيل الجيب جمع (جبة) وكان يتقاضى أجرًا كبيرًا عليه ، رحمة الله .

ذهبنا إليه ومعنا قطع الصوف من الأنقوري وغيره ففصل علي القماش جبة وسديرية[1] وبالطو وثوبًا كتانيًا وسراويل من البَفْتَةِ ، ثم خرجنا من عنده على

---

(١) السديرية بمعنى الثوب الأبيض الخفيف القصير ـ نصف ثوب ـ كان يلبس شعارًا تحت الثوب الخارجي ، وقد حلت الفنايل محله فيما بعد ، وأصل كلمة السديري هذه : =

أن نرجع بعد أربعة أيام لأخذ الملبوسات الجديدة ثم ذهب بي الوالد ـ رحمه الله ـ إلى السوق فاشترى لي إحراما عزيزيًا وحذاء مدنيًا وكُفيات من التي يصنعها إخواننا الإندونيسيون ومنديلًا من أحسن الأنواع. ثم رجعنا إلى باب الدريبة حيث أسلمني إلى العمة المربية وقال لها: احذري وإياك أن تبعثيه إلى السوق لئلا يهرب. ثم ناولني ربع ريال مجيدي وقال هذا للحاجة، ثم خرج.

أيقنت أن الله قد فرج عني بعض ما أنا فيه من الكرب، واطمأنت نفسي بعض الشيء، ووطنت نفسي على الصبر والتجلد، وقلت في نفسي: لعل الله قد بدّل الأحوال وأبعد الأهوال وآنست بالفرج القريب. وما بعد هذا الإكرام إلا الاجتماع بالمرضع والأخت والخالة والأم الحنون والإخوة الأشقاء، وجمع الشمل بالمحبين والمحبوبين. وقلت لعصر الشقاء والتشرد: اذهب إلى غير رجعة فما بعد العشية من عرار وما بعد العسر إلا اليسر وعزمت على الثبات إلى النهاية.

مؤتمر قبل المدرسة

قبل تسلمنا الملابس من الخياط بيوم واحد، وكان يوم جمعة، حضر الوالد ورجال كثيرون إلى مجلسه في الطابق الأول. ثم جاءتنا العمتان: ساكنة الصفا حرم المرحوم الشيخ عبد الله أبو الخير مرداد[1] قاضي مكة آنذاك،

= (الصديري) بالصاد المهملة قلبها العامة سينًا مهملة لتقارب المخرجين؛ لأن السين أخف على ألسنتهم من الصاد وقد يقلبون الأمر، مثل قولهم: (الصاطور) في (الساطور) واللهجات العامية تخبط عشواء في أغلب الأحيان.

(١) هو مؤلف كتاب: (نثر الدرر والزهر في تراجم أعيان مكة وعلمائها من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر) الذي حققه ولخصه الأستاذان محمد سعيد العامودي وأحمد علي،=

وساكنة القشاشية وهي الصغرى والتي أكثرت من ذكرها سابقًا وهي حرم المرحوم الشيخ عمر فقيه أحد أئمة المسجد الحرام بمكة المكرمة. كما حضر آل الفتياني. وقبيل الظهر بساعة ناداني الوالد فنزلت إلى مجلسه الكبير الخاص به، فإذا هو مكتظ بأناس لا أعرف منهم غير السيد محمد دحلان والسيد شعيب وعمي جمال والسيد المالكي والسيد موسى الفتياني خال الوالد - رحمهم الله جميعًا. وأما الباقون فلا أعرفهم وكانوا ثلاثة فقال الوالد: سلم على هؤلاء الرجال وابدأ من اليمين. فسلمت عليهم وعندما وصلت إلى الغرباء الثلاثة قال لهم: هذا هو. فاحتضنوني وقبلوني. ثم قال لي: هؤلاء هم أخوالك: أمين الحناوي وعلي، وداود. وهم أبناء المرحوم أحمد الحناوي مطوف الحجاج المصريين: (وقد انتقلوا إلى رحمة الله - رحمهم الله -) وهؤلاء لأول مرة أراهم في حياتي، يعني بعد رؤية والدتي الحقيقية بثلاثة أيام، ولهم شقيق رابع هو الشيخ عبد الوهاب الحناوي لازال على قيد الحياة ولازال مطوفًا للمصريين، أطال الله عمره وهو أصغرهم سنًا. ولنا خال خامس ليس بشقيق، هو الشيخ صالح الحناوي الذي لازال على قيد الحياة ولازال مطوفًا للمصريين أطال الله عمره. وهو اكبر من الخال عبد الوهاب سنًا. ولما انتهيت من التعارف جلست بين الأخوال وجعلت أتحدث إليهم باللهجة البدوية وهم يجاذبونني الحديث باللغة الحضرية العامية وكآني أنست بشيء من الحرية والانطلاق.

=وأخرجاه إلى حيز النشر بواسطة النادي الأدبي بالطائف خير إخراج في سنة ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨ في مجلدين مطبوعين بمطابع الإعلام بمكة المكرمة.

وبينما نحن في هذا المجلس اللطيف إذا بأمي المرضع قد حضرت مع فلذة كبدها أختي من الرضاع التي سبق ذكرها ، فاستقبلها الوالد استقبالا حسنًا وقال : هلا اجلسي عندنا لنتحدث ونتفق على شيء، ثم اصعدي إلى الشقيقات بعد ذلك . فرحبت ولبت الطلب وكأنها على موعد بهذا اللقاء الذي عرفت فيما بعد أنه عقد خِصّيصي للفصل في كل ما يتعلق بشئوني .

التفت إليَّ الوالد قائلاَ : سيأتيك كل يوم جمعة أحد خيلانك ويذهب معك إلى أمك شقيقتهم لتمكث عندها ساعة من نهار وتلعب وتلهو مع إخوتك ثم يرجعونك إلى هنا ليسلموك إلى عماتك . ثم التفت إلى أمي المرضع قائلًا : يا فلانة سيأتيك هذا وأشار إليّ يومًا من كل شهر ويمكث عندك من الصبح حتى المساء ثم يرجع إلى الدار قبل الغروب ، وأنت لك الحق في زيارته هنا وقت ما تشائين من غير مضايقة . فلا تحزني ولا تخافي بعد اليوم ، وهذا عمه يسمع كلامي ؛ لأنه هو المسئول عنه وأنا رجل مريض بالقلب وأرحل كل عام إلى العلاج خارج البلاد . ثم عرفها بخيلاني وعرفهم بها كما عرفها بخاله الفتياني ، وأما الدحلان وشعيب فقد عرفتهما من السابق حينما كنت وليدًا وطفلًا .. ثم زودني السيد الدحلان ببعض النصائح وقال : ما مضى فات ونحن أبناء اليوم وها أنت اليوم رجل وجاء خيرك وستذهب إلى أكبر مدرسة في مكة فبيض وجوهنا ولا تعد للهروب والتشرد . وها هي المرضع التي كنت تهرب من أجلها قد حضرت وسكنت بمكة من أجلك وباعت وضحت بكل غال ورخيص بسببك فلا تكسفنا أمام القوم كن رجلًا يقظًا .

ثم تكلم السيد شعيب بنحو ذلك وعقب على كلام الجميع السيد موسى الفتياني وكان متكلمًا وصاحب نكتة .

بعد هذا كله استأذنت المرضع وصعدت إلى الطابق العلوي حيث انعقاد المجلس النسائي الأهلي الذي ينعقد لأول مرة على غرار المجلس الرجالي الكبير الذي انعقد تحت، ثم خرج الرجال كلهم لأداء صلاة الجمعة، ثم رجعوا بعدها إلى الدار حيث تناولوا جميعًا طعام الغداء. وهذا أول يوم سعيد أحس فيه بشيء من السعادة والهناء وأحس بأني رجل يحسب لي ألف حساب وتنعقد من أجله المجالس والمؤتمرات وأنا لا أساوي نقيرًا ولا قطميرًا ولا أستحق كل هذا التكريم؛ لأني متشرد وجاهل وشقي أتعبت أهلي كثيرًا وحملتهم ما لا يطيقون. ومن أنا حتى يلاقوا كل هذه الأتعاب وهذه المصاعب بسببي؟ عسى الله أن يهديني لأبيض وجوههم كما قال السيد الدحلان. وعسى الله أن يبدّل من طباعهم وأحوالهم حتى يعاونوني على الثبات والاستقرار، ولكن: ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

انقضى ذلك اليوم السعيد وخرج الجميع. وفي صباح السبت جاء الوالد وأخذني إلى العم أكبر الخياط وقاس علي الملابس الجديدة وأصلح بعض الشيء. وفي المساء نادى عمي من تحت البيت وأعطاه الحوائج ثم جاء الوالد بعد صلاة العشاء وألبسني الثوب والسديرية والجبة حيث أعجب بالمقاس فنادى العم أكبر من النافذة، فأجابه فقال له: شكرًا شكرًا ثم رجاه أن يأتي إلى المجلس؛ ليحتسي معه الشاي، فلبى الطلب وكانت ليلة لطيفة حيث غمرني الوالد بلطفه وكلمه الطيب الذي أسمعه لأول مرة في حياتي ليشجعني على الثبات وعدم الهرب ثم خرج وقال: غدًا صباح الأحد سآتيك لتذهب إلى المدرسة ـ إنشاء الله.

الفصل الخامس

مدرسة الفلاح

ذات يوم من أيام شهر المحرم حضر الوالد ـ رحمه الله ـ وكان آخر يوم من الشهر لعام ١٣٤٢هـ وكنت قد بلغت الثانية عشرة من العمر، جاء الوالد إلى بيت أخيه وشقيقاته وهو بيت الجد ـ رحمه الله ـ وأمر العمة المربية أن تلبسني الثوب الكتان والسديري والجبة والأنقوري والحذاء المدني والإحرام العزيزي. فنفذت أمره، ثم وضعت لي المصحف الكريم في المحفظة الجلدية وبعض الكشاكيل وقلمًا من البوص ودواة، ولفت هذه المجموعة في مُصَلِّيَّة[1] من المخمل الأحمر الجميل. فتأبطت ذلك. ثم أمرها الوالد أن تزيد من المصروف الذي كنت أتقاضاه سابقًا، بحيث أصبح نصف قرش يوميًا وفي الجمعة قرشًا كاملًا، ثم أمرني أن أوفر الزائد وأجعله في حصالة خاصة ولو كان يعلم ما في برمة السروال أو العمة لتغير البرنامج ـ ولكن الله سلم ـ وكان المتبقي من نقود عصب المغامرة والمحفوظ في اللفائف والعصائب بعد حسم ما صرفته على نفسي في أيام الشدائد، ثلاثة دنانير ذهبًا عينًا وستة أرباع أي ما يساوي الريال والنصف، هذه لا يعلم بها أحد إلا الله. وكان لها الأثر العظيم في المغامرات التي خلقتها الظروف مستقبلًا، وهذا بحسب تصوري في ذلك الوقت وما أدري: أأنا مخطئ أم مصيب؟ والجاهل عدو نفسه ولكل ظرف حكم خاص.

---

(١) أي سجادة صلاة.

لباس المدرسة

سألت والدي لماذا أتزيى بهذا الزي الذي لا يليق بالبداوة ولا تعتاده ؟ ولماذا لم نكتف به حينما كنا بمدرسة الخياط بالمسعى؟ فقال : إن مدرسة الفلاح نكلف تلاميذها بلبس الجيب رسميًا إذا انتظموا في سلك حفظة القرآن أو في الفصول العالية ، فعلمت أنه يريد أن انتظم في فصول الحفاظ .

خرجت من الدار ومعي الوالد فقط ؛ لأن العم والسيد المالكي ذهبا إلى مدرسة المسعى ؛ لأنهما يدرسان بها ، خرجنا من باب الدريبة وأنا مثقل بهذه الملابس التي لم يسبق لي أن ارتديت مثلها فيما مضى من الزمن ، فتضايقت جدًا وصرت أمشي كمشية الخارج إلى صلاة العيد أو من يزف إلى بيت الفرح عندما يتهيأ لنص زوجه . وعندما وصلنا إلى باب عليّ ﵁ كان السيد الدحلان في انتظارنا فذهبنا جميعًا إلى المدرسة بالقشاشية ، وهي من أملاك علي باشا ، ويقابلها بيت باناجة وكان لهذه المدرسة بابان ودهليزان ومقعدان ، الأيمن لقسم الحفاظ والأيسر للإدارة ، وبقية أقسامها تأتي فيما بعد .

ولجنا الإدارة فقابلنا رجل طويل أسود اللون ذو لحية بيضاء من العارض إلى العارض يتكلم بتؤدة ، عانقه السيد الدحلان ثم الوالد . ثم قال له الدحلان : هذا هو الذي أخبرتكم به . ثم أمرني أن أقبل يده فقبلتها ثم أوصاه بي وخرج معه الوالد وبقيت وحدي مع هذا الرجل الذي ظهر لي فيما بعد أنه مدير المدرسة واسمه عبد الله حمدوه السناري مدير مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، نهض وأمرني بالمشي خلفه ثم ذهب بي إلى فصل الحفاظ في المقعد الثاني وكان مكتظًا بالطلبة الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب . ويتصدر الفصل رجل مربوع القامة ذو لحية شمطاء وبيده خيزران فنهض لاستقبال المدير فحياه

فقال له المدير : هذا تلميذ من بيت مرداد ولكنه تربى في البادية ووالده صديقنا ووصانا وقال : إذا صفرت عليه السيد الدحلان فألق بالك عليه ، ثم أمرني أن أجلس وقال : إذا صفرت صفارة الخروج في الظهر فلا تذهب إلى البيت بل تعال إلى الإدارة لتسجيل اسمك يا شاطر .

أسعد الحديدي

وما هي إلا لحظات حتى صفرت صفارة الغداء فأمرنا أستاذ الفصل بالخروج إلى الموضأ فتوضأنا ثم صلينا جماعة وكان الإمام أحد تلاميذ الفصل ، أكبرهم سنًا وهو المرحوم محمود مؤمنة فإذا غاب صلى بنا المرحوم السيد علوي شطا أما الأستاذ فيجلس بعيدًا عنا لمراقبة اللاعبين في الصلاة حيث يجلدون أربع جلدات فوق باطن الكف .

ولما انتهينا من شعائر الصلاة أنشدنا أنشودة دينية ومطلعها :

يا رب هيئ لنا من أمرنا رشدا   واجعل معونتك العظمى لنا سندا

ثم انصرفنا جميعًا لتناول الغداء ومدة الإجازة ساعة وعشرون دقيقة ومن التلاميذ من يذهب إلى الدار ومنهم من يتناول الغداء في المدرسة حيث هناك مقهى وبقالة مصغرة ويديرها الشيخ حسن سفطة ، أما أنا فلم أنصرف بل ذهبت للإدارة حسب أمر المدير وما إن رآني حتى كلم رجلا عابسًا مقطب الوجه جالسًا على كرسي صغير وأمامه مكتبة صغيرة ومكتب عليه كشاكيل من الحجم الكبير ، قال : سجل هذا في الحفاظ وناوله ورقة صغيرة فيها كل ما يتعلق بي وأظنها من إملاء المرحوم الوالد والسيد الدحلان ، وهذا الرجل هو المرحوم الشيخ أسعد حديدي مفتش مدرسة الفلاح والقائم بأعمال الحضور

والغياب والسجل وتوقيع العقوبات وصرف المعاشات وغير ذلك . ولما انتهى من تسجيل اسمي قال لي : انصرف وارجع بعد الظهر ولا تتأخر والميعاد مسجل في الدهليز على لوح أسود ـ للصباح والمساء ـ من يتأخر يعاقب ، لكن المدير قال لي : انتظر ، ثم نادى الحارس فحضر ، ثم قال له : خذ هذا واذهب به إلى البيت في باب الدريبة ونادِ عمه فإن لم يكن موجودًا فسلمه لأي امرأة بالدار ؛ لأنه شراد ، ثم وصف له الدار فقال : أعرفها ، ثم قال له : هذه الإجراءات لهذا اليوم فقط حسب وصية السيد الدحلان ، وبعدها سيقوم أهله بالمراقبة .

خنقتني العبرة لهذا التشهير وهذه السخرية ولكن ماذا أصنع أمام الأمر الواقع وما الذي أحوجني إلى التشرد والانصياع والشتات ، الأمر متروك لتدبير الله وحكمته .

جذبني البواب ومشى بي وهو قابض على يدي حتى أوصلني إلى الدار وكان طريقه ، باب علي فباب الدريبة حيث سلم على البواب وكان صديقًا له وكلاهما من بلد واحد ، وما أن رآني البواب حتى عرفني ووصى علي بواب الفلاح صديقه وأشار إلى بيتنا وقال له : هذا هو البيت فسلمني في يد عمتي ، وخرج . وكان بواب باب الدريبة بالمسجد الحرام هو الحاج عبد الله الجبرتي .

الغداء والعلقة

تناولت الغداء بسرعة وهممت بالذهاب إلى المدرسة فمنعتني العمة من الخروج حتى يحضر العم ويتغدى ثم يوصلني إلى المدرسة ويذهب إلى مدرسته بالمسعى فانتظرت العم حتى قضى مهمته وأخذني إلى المدرسة ولم يتركني

حتى ولجتها ثم ذهب ، لكني فوجئت بالأستاذ الحديدي وبيده العصا ، قال : قد تأخرت نصف ساعة فأبديت له عذري ولكنه لم يقبل العذر بل قال : ابسط يدك لأجلدك عليها فبسطتها فخبطني خبطة على يدي اليمنى أبرزت الشرر من عيني فصرخت فقال : ابسط . فامتنعت وأصررت على عدم البسط ولكنه نادى صاحب الفلكة وطرحت أرضًا بجبتي وعمامتي وعلقت في الفضاء وجلدت جلدًا مبرحًا ولم ينقذني إلا البواب حيث جاء وتشفع لي وقال للأستاذ الحديدي : هذا أول يوم يأتي فيه ولا يعلم عن المواعيد فقال له : ولكنه قليل الأدب والتربية . ثم أخذني البواب وأوصلني إلى فصل الحفاظ وأنا في حالة يرثى لها الجبة الأنقوري والثوب الكتان تلوثا بالوحل ؛ لأن أرض الدهليز كانت مرشوشة والتلاميذ في الفصل بدأوا يتغامزون ويسخرون مني ، وسألني أستاذ الفصل عن سبب الضرب فأخبرته بما حصل فتأسف وسكت ثم قال : ألق بالك ولا تحوج نفسك لأي عقاب ما دمت عالمًا بقوانين المدارس ومواعيد الحضور .

ثم جاء الأستاذ الحديدي وقرأ الحضور وذكر اسمي فلم أرد عليه من حنقي عليه لولا أن تدارك الأستاذ الفودة ، أستاذ الحفاظ ـ رحمه الله ـ فقال : أجب لا تسكت خوفًا عليك من علقة أخرى فأجبت وفي القلب شيء من الأستاذ الحديدي .

اللجوء إلى باسلاسل والدحلان

وفي المساء بعد خروجنا من المدرسة ذهبت إلى باسلاسل بسوق الليل وكان جالسًا خارج الدكان فقلت له : المسألة كيت وكيت وعرضت عليه ما جرى

وقلت له : أنا مصمم على الهرب إن لم تضعوا حدًا لهذه المهزلة . فأخذني وذهب بي إلى الغزة حيث يسكن السيد الدحلان فقص عليه ما حدث ، فالتفت إلي الدحلان وقال : قم معنا إلى أهلك ، فذهبنا جميعًا إلى باب الدريبة وكان المغرب قد حان والعمات بالنوافذ قلقات علي وقد أيقنَّ أني قد هربت والعم ـ رحمه الله ـ كان في حيرة من الأمر ، وكان يظن أني هربت إلى أمي المرضع بالمعابدة أو أمي الحقيقية التي حرمت منها أخيرًا بعد ما عرفتها .

تكلم السيد الدحلان كثيرًا ثم صادق على كلامه باسلاسل وقالا : نحن نضمن هذا الولد ما دام أنه قد لجأ إلينا ولم يهرب وبعد هذا اليوم يذهب بنفسه ويرجع بنفسه من غير وساطة وأنت يا جمال المسئول عنه الآن ؛ لأن والده غدًا سيسافر إلى جزر الهند الشرقية ونحن لا نلوم غيرك فينا لو حاد هذا الغلام عن الجادة ثم وافق العم وامتثل لكلام الناصحين .

بصيص الحرية

وفي اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة بمفردي قبل الميعاد بربع ساعة ، وكان التلاميذ الذين يربو عددهم على الألف يجتمعون في الدهليز ولهم هديل كهديل الحمام ، حتى إذا ما صفر البواب انفصل كل فصل على حدة اثنين اثنين وقوفًا خلف بعض ثم يصعد كل فصل على حدة ابتداءً من السنة التاسعة إلى الحُفَّاظ .

وفي الظهر رجعت بمفردي وفي العصر كذلك وبذلك ازداد نشاطي وبدأت استنشق نسيم الحرية وحمدت الله على ذلك .

حفظ المصحف

بدأ أستاذ الحفاظ المرحوم الشيخ أحمد فودة يعطيني اللوح الأول وهو صحيفتان ونصف بمعدل ثمن جزء ويسمونه (مقرة)[1] بفتح الميم وتسكين القاف وفتح الراء ثم التاء المربوطة وهو اصطلاح مدرسي ، فقرأت عليه بالنظر من فاتحة الكتاب وأول سورة البقرة إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة : من الآية٢٦] وكانت قراءتي مجودة وصوتي رخيمًا نسبيًا فشكرني على ذلك وقال لي يظهر أنك قرأت المصحف بالنظر مرارًا فقلت : نعم ، ثم قال : هذه الحصة تحفظها جيدًا عن ظهر قلب فقم وكرر وعندك فرصة إلى يوم غد صباحًا ـ إن شاء الله ـ فإذا جئت حافظًا كالماء المنساب أو كصفوة الماء بالمتنزل فسأعطيك مثلها وإذا كان الغلط كثيرًا فسأقسم لك الحصة وفي يوم الخميس ليس عليك إلا أن تسمع ما حفظته في الأسبوع حفظًا جيدًا من غير غلط ، والغلطة الواحدة عليها عقاب في الفلكة ، فخذ حذرك وانتبه لما يصلح لك . ثم شرح لي مدى الحفظ بالنسبة للعام الدراسي ، قال : من يواظب على تسميع (المقرة) كل يوم يمكنه أن ينجح آخر العام إذا جاء بأكثر من نصف المجموع وهو خمسون نمرة [درجة] ، ومن أتى بأقل من نصف هذه النمر يرسب ، ومن يحفظ كل يوم نصف المقرة فإنه يحتاج إلى عامين للبقاء هنا هذا إذا قدر له النجاح وإلا فثلاثة أعوام وأربعة وهكذا ، ثم ظهر لي فيما بعد أن

---

(١) أصل الاسم (مقرأ) بالهمزة وقد حولت اللهجة العامية الحجازية الهمزة إلى هاء ، واللهجات العامية تخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء .. ليس لها نظام فيما تقول ولا فيما تختار من المقول .

بعض الطلبة في هذا الفصل لهم أكثر من ثلاثة أعوام ستر الله علينا وعليهم ولا حاجة لذكر أسمائهم ومعظمهم قد انتقل إلى جوار ربه ـ رحمهم الله ـ وهذا شيء ليس بالغريب ؛ لأن الذاكرة وقوة الحافظة والبديهة الحاضرة شيء لا يعلم سره إلا الخالق .

الخط العربي

ويضاف إلى حفظ المصحف في هذا الفصل المبارك تعليم الخط العربي إذ يأتينا في الأسبوع مرتين ، المرحوم الشيخ سليمان فرج الغزاوي خطاط مدرسة الفلاح ، ويعلمنا الخط النسخ والرقعى ومن يقصر في كتابة التسويد يضرب بالعصا على يده ولكن جلده ـ رحمه الله ـ كان خفيفًا لا يضر باليد ولا يؤلم كثيرًا وبخاصة إذا تباكى المقصر من أول ضربة وما أكثر المتباكين ـ عفا الله عنا وعنهم ـ وكان يعلم حقائقهم لكنه يغض الطرف ويعفو ويصفح ومات في الخمسينات ولم يعقب ـ وله شقيق مات بعده بسنوات قليلة ـ هو المرحوم تاج الغزاوي والد أستاذنا نور الدين ـ رحمه الله ـ الذي مات في الثمانينات . وكل هؤلاء من أبناء عمومة شاعرنا الكبير صاحب (الشذرات الذهبية) فضيلة الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي أطال الله في عمره .

من هم تلامذة الفصل ؟

يربو عدد الحفاظ في فصلنا هذا على الأربعين ومعظمهم من المهاجرين الوافدين الذين سكنوا مكة المكرمة لطلب العلم وحفظ القرآن . وأذكر منهم شعيب بن آدم من التكارنة ولكنه ليس المقرئ الشهير صاحب الصوت الرخيم ـ

بل هذا شعيب آخر ـ وأذكر منهم صديقنا الشيخ مهتدي تكل وعمر تكل وقد زرتهما في بلدة تكل في ثاني زيارة لإندونيسيا وكانا يعلمان القرآن هناك في المدرسة التي فتحها وأسسها المرحوم الشيخ عمر عبد الجبار صاحب المكتبة ومدرسة البنات بمكة . وكان من تلاميذ هذا الفصل عمر رمبو وأحمد عبده يماني وصالح يماني وجميل عثمان وأحمد مجددي وعلي مظهر وعبد الوهاب سراوه وقد زرته في الرحلة الثالثة لماليزيا وهو مدرس كبير في كوالاكنسر عاصمة فيرا وقد نجح معي من الفصل واستمر حتى السنة السادسة ثم سافرا، ثم الشيخ محمد حسن النقيطي من مطوفي المصريين وهذا لم يستمر في الدراسة بل خرج من الرابعة . ومنهم المرحوم الشيخ سعيد يماني نجل العلامة المرحوم الشيخ سعيد اليماني ، وهو أصغر أنجاله .

أما الزملاء الذين شاركونا في هذا الفصل ولم يتمموا الدراسة حتى النهاية فكثير . منهم المرحوم الشيخ صالح أشعري والشيخ يحيى صنقورة الذي لازال على قيد الحياة والسيد طه السقاف وكثير من المهاجرين الوافدين إلى مكة .

والذين نجحوا معي في هذا العام هم : السيد أمين بن عقيل ولكنه خرج قبل إتمام الدراسة وتوظف بوزارة الدفاع ولا زال حيًّا يرزق أطال الله عمره والسيد المرحوم علوي شطا ، نجح معي وأتم الدراسة حتى النهاية ولكنه رسب في السنة الخامسة فسبقته إلى ما بعدها ولهذا كان تخرجي قبله بعام واحد ، ثم المرحوم أحمد رشيدي شقيق الشيخ إبراهيم الرشيدي وهذا زاملني إلى السنة السابعة ثم وافاه أجله .. وهو في ريعان الشباب ـ رحمه الله ـ وأما الذي زاملنا من الحفاظ ونجح معي واستمر معي في الدراسة والفصول حتى السنة الثامنة فهو الشيخ حسن محمد كتبي ولا زال على قيد الحياة موظفًا بوزارة الحج .

الأسبوع الأول

مضى الأسبوع الأول وأنا أحفظ كل يوم أكثر من ثلاث صفحات وأحيانًا في اليوم نفسه أسمع الواجب وآخذ نصيب اليوم الثاني . وفي يوم الخميس أجمع بين لوح ودرس حفظًا جيدًا مجودًا ولم أجلد قط بسبب الحفظ ، ولما رأى الأستاذ الفودة ، رحمه الله ، ما رأى من المواظبة والحفظ أكثر من المقرر ، أمرني بالاستماع لبعض الطلبة يوم الخميس؛ إذ كان يُسمع لي وللرشيدي والمؤمنة وعبده اليماني الدرس المقرر علينا ثم يقسم الطلبة الباقين علينا نحن الأربعة فنسمع لهم الدرس ونعد عليهم الغلط ثم نبلغ الشيخ فيأمر بالفلكة ويجلد المقصرين لكل غلط وعصوان . والدرس المطلوب سرده كل خميس جزء ونصف ، وإذا زاد الغلط عن عشر غلطات يعاد التسميع بعد الظهر والذي يتولى الحراسة في هذه الظروف الخارجة عن ميعاد الدراسة هو مفتش المدرسة وأحيانًا المرحوم عبد الغني بنونة الجلاد الوحيد للمدرسة ويساعد على الحراسة أيضًا بواب المدرسة وحارسها الذي أوصلني في اليوم الأول إلى الدار وهو المرحوم عبد الله أبون الجبرتي كان من الصالحين وسأذكر نبذة من حياته فيما بعد .

أساتذتنا في الحفاظ

المرحوم الشيخ أحمد فودة وكان من قبله المرحوم الشيخ حسن السناري وهذا لم أدركه وهو مشهور بالحزم والهيبة وتوقيع الجزاء الصارم ، أما الشيخ أحمد فودة الأستاذ الحالي لفصل الحفاظ فهو وقور وحليم ونادرًا ما يجازي المقصرين بالجلد لأن أسلوبه يختلف كثيرًا عن الأول ، وفي غيابه يقوم مقامه

مدير المدرسة المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه السناري وهو كثير التردد على هذا الفصل حتى في حضور الأستاذ إذ كثيرًا ما يفاجئنا ويطلب من أحدنا الوقوف فيقف ثم يقول له : اقرأ كذا من سورة كذا . فيقرأ حتى إذا ما غلط رده مرة واحدة فإذا غلط مرة ثانية نادى بالفلكة وجلد المقصر جلدًا رادعًا وكأنه يعلم نقطة الضعف في الأستاذ المذكور ، لهذا فهو لا يغيب عن أعيننا أبدًا ومجلسه قريب منا ويجب أن يكون حفظة القرآن حفظة بالمعنى الصحيح ، ـ كعهد المعلم الأول ـ وكثيرًا ما يكافئ الحافظ إذا لم يغلط ولم يتردد ولم يتلكأ بمكافأة تليق بالمقام ، وقد كوفئت مرتين في خلال هذه السنة من قبله ، مرة بعشرة كشاكيل ومرة بثوب ورق ، والثوب مائة ورقة مطبقة ، وإذا صادف غياب الأستاذين المذكورين ، وهذا نادر وقليل ، فالمكلف بهذه المهمة الشريفة كان المرحوم السيد بكر الحبشي الذي تولى إدارة المدرسة بعد المرحوم الشيخ الطيب المراكشي . والسيد بكر حبشي حازمًا ويجلد المقصرين ، وهو أيضًا من الصالحين .

نادرة غريبة

ومغزاها أن الإنسان لا يتسرع في كل الأمور ، ولا يحكم بما يرى رأسًا بل يتحرى ويتبين ثم يجزم بما يراه .. والقصة أني رأيت السيد بكر حبشي يومًا من الأيام على كرويت الاستراحة بدهليز المدرسة يشرب سيجارة (لفافة التبغ المعروفة) ، فأنكرت ذلك في قلبي وكان بجانبه البواب عبد الله أبون . وقبل أن تنتهي السيجارة ناولها للبواب فأخذها وأطفأها وأخرج من جيبة علبة سجائر ووضعها فيه لكني لم أجرؤ على مصارحة أحد منهما

لخوفي من العقاب، وتكرر هذا المنظر للمرة الثانية فبحت بما رأيت لأحد الزملاء فلم يصدق، لكن المنظر ليس متواصلا بل كانت المدة بين المنظرين زهاء ستة أشهر. فأيقنا آنذاك أنهما يدخنان واستنكرنا ذلك عليهما، وبخاصة الأستاذ الحبشي حتى أشعنا ذلك على التلاميذ الذين يحفظون معنا، وأخبرت عمي بذلك، فلم يصدق ونهرني على هذه الأخبار الكاذبة.

جاء العيد، وجاء الأبون يعيد علينا مع جاره الحاج عبد الله الجبرتي بواب باب الدريبة، وكانا ساكنين برباط السليمانية بباب الدريبة. وهذا الأخير من الذين يصومون الدهر وعلى جانب عظيم من الزهد والتقوى ويحفظ القرآن غيبًا.

والخلاصة أني قدمت للضيوف علبة سجائر وكانوا كثيرًا ومعظمهم من الأغراب، وعندما وقفت على عبد الله الأبون بعلبة السجائر نفخ في وجهي وكان شديد الحماقة وقال: آخ.. خبيث! فخاصمني عمي وتذكر الوشاية وصارحه فعلًا وقال له: إنه يقول: إنه رآك تدخنها مع السيد الحبشي في المدرسة فاستعظمنا ذلك ولم نصدق. فما كان من (الأبون) إلا الوقوف مع وضع يديه كلتيهما على رأسه صارخًا: آخ آخ آخ (ثلاث مرات) وهمَّ بالخروج لولا أن رجعه العم واسترضاه حتى رضي وسكن غضبه. ثم جلس يحملق، ويحدق في النظر وأنا كذلك؛ لأني على حق وغير كاذب. وأخيرًا اعترف وقال: ما قاله صحيح وأخرج من جيبه العلبة التي رأيتها بعيني وفتحها وإذا هي مكتظة بالسجائر الملفوفة ثم قال: ما رأيكم هل هي تبغ بحق وحقيق فقلنا:

نعم، فقال: لا إنها (السكرانة) نبت من الأعشاب معروف لدى العطارين وبائعي العقاقير الطبية يلفونه في أوراق السجاير ويشعلونه ويسحبون منه كثيرًا إلى أن يخف المرض، وإذا لم يخف يشعلون أخرى. وهكذا. وكان الطب لم يصل إلى ما وصل إليه الآن، ثم قال: أنا والسيد حبشي معنا داء الربو الشديد أو مرض الذبحة الصدرية، وعندما يفاجئنا المرض نستعمل هذه اللفائف كعلاج مؤقت، وتارة ينسى السيد حبشي علبته في البيت فيستعين بي عند الأزمة وأنا كذلك الشيء نفسه، هذا كلامه، ثم قال: أحيانًا يفاجئنا في نهار رمضان ويشتد بنا إلى درجة الاختناق فنضطر للإفطار - رفع الله عنا وعن المسلمين هذا المرض ورفع درجاتهما في الآخرة.

اكتشاف آخر

هذا البواب العجيب، إنه (كمبيوتر) إنه عداد أو آلة حاسبة سريعة وربما يفوقها أحيانًا لكنه في الوقت نفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب، إذن كيف حفظ القرآن غيبًا وكيف تعلم الحساب، إنها موهبة إلهية، ولولا حماقته الطائشة لكان له شأن يذكر بالإضافة إلى مرضه الخطير الذي قضى عليه.

هذا الرجل ذو موهبة وقدرات عجيبة في الحساب وخاصة في الضرب، فإنك إذا امتحنته في ضرب عدد في عدد يرفع رأسه إلى السقف ويرنو بعينه بضع ثوان ثم يقول أخ (ثلاث مرات)، ثم يعطيك الإجابة الصحيحة حالًا بشرط أن يكون المضروب أقل من ثلاث أعداد أما المضروب فيه مهما كان فإنه لا يبالي، مثلا: إذا قلت له اضرب لي ٣٤,٥×٦٥٨٤١٢ يقول لك حالًا إن

حاصل الضرب هو ٢٢٧١٥٢١٤ في مدة لا تتجاوز ثلاث دقائق مع أن الآلة الحاسبة لا تعطيك الإجابة الصحيحة في أقل من خمس دقائق تقريبًا وهذا شيء يسترعي النظر وسبحان واهب المواهب .

الأسبوع الثاني

كدت أنهزم وأرجع القهقرى ، لسفر الوالد بدون علمي ، ولتغير البرامج التي رسمت . وقررت زيارة أمي والمرضع ـ رحمهما الله ـ ولكنني جاملت الموقف بكل ثبات خوفًا من الفشل ؛ لأني لمست النتائج الطيبة في المدرسة والتشجيع الجميل والمكافآت التشجيعية التي أشرت إليها آنفًا بالإضافة إلى الأصدقاء الجدد الذين اكتسبتهم بسبب تجاوزي عنهم يوم التسميع وهو يوم الخميس المعد خصيصي لاستماع الدرس ولا يقل عن جزء ولا يزيد على جزأين .

من زرع حصد

وكان أستاذ الحفاظ ـ رحمه الله ـ يستمع لأربعة منا عند بدء الدراسة وكان يتخير الأحفظ فالأحفظ لحكمة علمية ، فكان يجمع الأربعة المشار إليهم جميعًا ويسردون من غير تجويد عن ظهر قلب وكان يرد على الغلطان حتى لو غلطوا جميعًا وهذا من كرامة القرآن مع ملاحظة أن كلا منا يختلف عن الآخرين في الواجب فأنا مثلًا أبدأ من ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾ [الإسراء: من الآية١] والثاني من ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وهكذا ، ومع ذلك لا تخفى عليه غلطة ولا شكلة ، حتى إذا ما انتهينا وزع علينا زمرة لنستمع إليهم ، ثم

يأخذ غيرها وهكذا دواليك ، ثم يتفرغ للجزاء وتقوم الفلكة بواجبها . ويبدأ البكاء والصراخ ، ولا راحم في ذلك اليوم من تلك العصا والفلكة إلا من رحم الله وإلا من لم يغلط ولم يلحن فهذا نادر وقليل ، وكنت أتجاوز عمن أستمع إليهم ؛ لأني أكره العقاب والجلد والبكاء وقد عرفت مرارة ذلك لكني لا أصل بهم لدرجة الغش بل أخفف عنهم ، لعل الله يخفف عني ويتجاوز . فمن كان عليه أكثر من عشرين غلطة معناه أن يجلد أربعين جلدة على رجليه بعد تعليقهما وشطهما بحبل الفلكة . فيتوسل إليّ المقصر ألا أبلغ الأستاذ وإن لم يكن بد من التبليغ فالإسقاط من الغلط لتخفيف العقاب ، فأضع عن صاحب العشرين النصف أو الربع حسب ظروف تحمله للجلد ؛ لأن بعض لا يضره الجلد في الرجل مهما كثر وبعض من أول عصا تسمع صراخه ونحيبه وهكذا .

ومن المصادفات العجيبة أن لا يقع الاختيار بالنسبة لي إلا على الضعفاء الذين لا يتحملون الجلد كمثل (مُهتدي) الجاوي التقَّلي و(عمر الجاوي) . فالأول رجله بيضاء من الباطن كلون الشحم وبمجرد جلدها تحمر وتتورم ويضطر إلى عصبها وضمادها أيامًا وربما يتغيب حتى يطيب . وزميله كذلك ، فكانا يضعان المنديل داخل الفم ويصرخان ويبكيان بحرقة عندما تزيد الجلدات على الخمس فكيف بالأربعين أو الخمسين .

وما كنت أعفو عنهم لمصلحة أو لغرض ، إنما لما ذقته من ألم الضرب في أثناء وجودي بمدرسة المسعى ، والراحمون يرحمهم الرحمن ، ومن قدم السبت وجد الأحد ؛ لأن أمامي سنين عديدة حتى التخرج تقرب من ثماني سنين . وهؤلاء سيكونون معي من الألف إلى الياء يعني من الابتدائي إلى النهاية . والقرآن نستمر في تسميعه إلى السنة السابعة حتى لا يفلت من قلوبنا وذاكرتنا ،

وفعلًا لقد مرت بي ظروف وأنا في السادسة في الفلاح وتراكمت فيها علينا المحفوظات والواجبات ومرارًا ما كنت آتي من دون حفظ واجب الألفية أو الرحبية لظروف وأسباب داخلية لا يعلمها إلا الله . فكان الزملاء الذين يسند إليهم الاستماع إلي ممن مر بهم التسميع عندي أيام الحفظ ، كانوا يردون الجميل بأحسن منه . والزميلان المشار إليهما لم يستمرا في الدراسة حتى النهاية بل اكتفيا بحفظ المصحف ثم سافرا إلى وطنهما ، وقد جمعتني بهما الأقدار في بلادهم فكيف كان إكرامهم لي ؟ هل تتصورون كم أكرموني وساعدوني واحتفلوا بي . التفصيل عندما نصل إلى رحلة جاوة ـ إن شاء الله . أما شعيب التكروني فكانت تخنقه العبرة من أول غلطة ويعرق وينتفض خوفًا ورعبًا من العصا ومرارًا ما يصاب بالصرعة في أثناء الجلد ، فكنت أطمئنه بالتجاوز لدرجة لا يوضع معها في الفلكة ، بل يكتفي الأستاذ بضربه رافعًا إحدى رجليه إذا كان الجلد أقل من ست جلدات .

اللبن والزبدة

هدية من الله ، على حد قول أم شعيب ـ رحمها الله ـ كان شعيب كثيرًا ما يحترمني ويكرمني مع أنه أكبر مني سنًا . وكان هذا الحب نابعًا من تجاوزي وتخفيف العقاب عنه كما أشرت إلى ذلك ، ودائمًا يقول : ما أدري كيف أتجمل معك ! وأرد عليه قائلًا ومداعبًا : إذا كبرت وسافرت إلى بلدك ـ إن شاء الله ـ فاستعد للقائي هناك حتى تتمكن من رد الجميل أضعافًا مضاعفة لكنه يقاطعني قائلًا : هنا نموت ـ إن شاء الله ـ هذه بلاد الله وما بلغناها إلا بشق الأنفس ، أما تدري أن أمي ولدتني في الطريق ولقد استغرقت رحلتنا من يوم

قيامنا من بلدنا إلى حين الوصول أكثر من سبعة أشهر، ثم رجاني ألا أذكر له هذه الجملة بعد الآن، وقد استجاب الله له دعاءه، فقد مات والداه بمكة، وهاجر هو إلى المدينة ومات بها ـ رحمهم الله جميعًا.

لقد قال لي يومًا: أما تحب شرب اللبن الرائب وتأكل الزبد؟ فقلت: كيف لا وقد كانت أقواتي منذ ولادتي على اللبن والزبد! وشرحت له قصة حياتي في البادية فاستغرب وقال: كيف تحصل عليه هنا؟ فقلت: إني صائم عن الألبان كافة منذ عودتي من البادية حتى الآن، ثم قلت له: ولماذا تسألني؟ فقال: شيء خطر ببالي. ثم غير مجرى الحديث. وذات يوم قال لي: أمي تحب أن تراك لتقدم لك واجب الشكر لما تسديه إلي من معروف وتنازلات وخاصة لما أخبرتها أنك تعرف لغتنا ويقصد بذلك ما سمعه مني من كلمات كنت قد اكتسبتها من التكارنة الزنوج في أثناء لجوئي إليهم بعشاشهم بجبل الفلق، ثم قال: أما تشرفنا ليلة من الليالي أو نذهب بعد الانصراف في العصر سويًا حتى تعرف المكان بجرول ثم أبي يَرُدك إلى البيت إن كنت لا تجرؤ على الرجوع وحدك؟ فتأسفت واعتذرت وأخبرته بحالي وقصتي فندم وتأسف وسكت، وفي اليوم التالي قال لي: إن والدتي ستأتي إلى المدرسة غدًا لتسلم عليك وتتعرف بك وتشكرك، ثم قال: إنها ستأتي وتسترخص من البواب وتخبره أنها أمي وأني بقسم الحفاظ وتريد أن تكلمني لأمر ضروري فإن أذن لها وأدخلها وناداني فسأخرج إليها في الصُّفَّة ثم أعمل لك إشارة فأخرج إليها وإن لم يدخلها البواب فستمكث خارج المدرسة حتى عطلة الظهر ويكون اللقاء ـ إن شاء الله ـ فقلت له ولماذا هذا كله؟ فقال: إنها مصممة. وكان الأمر في ذلك الوقت أنه لا يمكن لأحد أن يتصل بولده داخل المدرسة بل يقف

عند بابها ، وينادي البواب ثم يرجوه أن يحضر له ابنه لأمر هام بشرط أن لا يخرج من الباب أي باب المدرسة ؛ خوفًا من الهرب أو التهرب من أداء الواجبات المدرسية . ثم يقف ولي الطالب خارج المدرسة حتى يأتيه الإذن ثم يصعد البواب إلى الإدارة فيخبرها بذلك ، فترجعه ليتثبت من هوية الولي ، ثم يأتيه الطالب إذا سمح له الأستاذ بالخروج .

وفي اليوم التالي جاءت أم شعيب وتسهلت الأمور وخرج لها ابنها البار وعمل لي الإشارة فرفعت إصبعي للأستاذ الفودة ـ رحمه الله ـ ورفع الأصبع معناه طلب الإذن بالخروج لقضاء الحاجة وهو اصطلاح مدرسي لازال متبعًا حتى الآن ، خرجت بعد الإذن فوجدتها واقفة في الصفة ، والصفة مستترة يفصل بينها وبين القسم حائط ، فقال لها ابنها : هو ذا ، فصافحتني وشكرت لي صنيعي وكان على رأسها حلة من خشب القرع مملوءة لبنًا رائبًا وزبدًا فأنزلتها وملأت مغرفة كبيرة ووضعت فيها كمية من الزبد ، وقالت : تفضل . وملأت لابنها مكيالًا آخر ، فقلت : كم الثمن؟ فقالت : هذا هدية من الله . فتمنعت ، ولكنها أصرت وأقسمت ، فاحتسيت اللبن والزبد وشكرتها وطلبت مني عنوان الدار ، فرفضت وقلت لها : أمي المرضع ممنوعة من الدخول فما بالك أنت ، ثم خرجت . فقلت لابنها : إياك أن تعود لمثلها ، فقال : إن أمي تبيع اللبن والزبد ، كما ترى ، وعندنا بقرة ، وأغلب الأحيان لا نجد زبائن يشترون منا فيفسد علينا فلا تظن أننا تكلفنا بشيء .

ثم صارت تتردد في الأسبوع مرة أو مرتين وتكرم البواب حتى يأذن لها وقد رآها ذات مرة ـ وهي تناولني اللبن ـ المرحوم السيد بكر حبشي فعرفها ونظر إلي وابتسم وظهر فيما بعد أنها تبيع عليهم اللبن وقد ذكرني بها بعد ما تخرجت

وصرت أستاذًا أي بعد عشر سنين فقال لي : أين التي كانت تبيعك اللبن ولم يقل تهديك ـ رحمهم الله جميعًا .

رمضان والتراويح

جاء رمضان وقد وصلت إلى سورة الروم عن ظهر قلب حفظًا جيدًا ، وكانت مدرسة الفلاح تخرج عن بكرة أبيها مع الأساتذة والفرّاشين ويأمروننا بلبس الجبب والعمائم الألفية ويوزعون الحفظة من المدرسة على الصفوف والغالبية من فصل الحفاظ وكذلك الأساتذة يوزعون على الصفوف لحفظ النظام ومراقبة التلاميذ الذين يهرجون ويضجون ، وتوضع دوارق ماء زمزم على المرافع الخشبية وبجانبها الفوانيس المضاءة بالشموع ويسمونها (لالات) .

وفي ليلة الختم يأمرون وجهاء التلاميذ الذين يملكون الأتاريك فيحضرونها ثم يجعلوننا حلقًا حلقًا ، ثم بعد ذلك يجلسون أصحاب الأصوات الرخيمة في الوسط حيث يقرأ كل واحد منهم عشر آيات بالصوت الجميل ، ويشترك في هذه القراءة التلاميذ الحفظة من الصفوف العالية . وتدوم الحفلة إلى منتصف الليل ثم تقسم الحلوى على الجميع وهي من اللوز والملبس بالسكر ، ثم يقسم بعدها الشراب اللذيذ . والحافظون لكتاب الله من مدرسة الفلاح أربعون ما عدا الذين اشتركوا في حفل الختام من ذوي الصوت الجميل وقرأوا ما تيسر في هذا الحفل المبارك ، وهم الشيخ محمود آشي وجميل آشي وعلي جعفر ، ومن فصل الحفاظ كاتب هذه المذكرات والمرحوم محمود مؤمنة والمرحوم أحمد رشيدي ومهتدي تقل وعمر تقل ، والأئمة من فصلنا كانوا خمسة عشر إمامًا وأنا من جملتهم وكل فصل يؤمه خمسة من الحفظة ، يتقدم واحد منه والباقون

يستمعون ويردون عليه إذا غلط والإمام يصلي أربع ركعات أي تسليمتين لكل إمام. وكان كل عام على هذا المنوال حتى عام ١٣٤٤هـ ثم ألغيت نهائيًا بالنسبة للمدارس فقط.

الاختبار والنجاح

ختمت المصحف الكريم غيبًا في نهاية ذي القعدة من ذلك العام وجاء الاختبار العمومي وحضر لاختبارنا مدير المدرسة المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه السناري والمرحوم الشيخ محمد الطيب المراكشي الذي تولى الإدارة بعد وفاة المرحوم السناري ثم السيد أبو بكر الحبشي الذي تولى الإدارة بعد وفاة المراكشي - رحمهم الله جميعًا وأسكنهم فسيح جناته - وكنت من نصيب الشيخ عبد الله حمدوه وكان من أشدهم تمحيصًا وتطويلًا، فلقد أمرني أن أقرأ سورة الشعراء، فسردتها وأنا أنظر في الأرض خوفًا من رؤيته؛ لأن منظره مرعب من مهابته ووقاره وتقطيب وجهه في معظم الأحيان. وكان المفروض أن يجعلني أقرأ صحيفة أو صحيفتين ثم ينقلني إلى سورة أخرى لكنه أصر حتى النهاية، والحمد لله ما غلطت ولا توقفت حتى نهايتها وشرعت في سورة (النمل) التي تليها لكنه قفز بي إلى سورة العنكبوت فقرأتها ولكني تلكأت في الآية الكريمة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ [العنكبوت: من الآية ٦١] لأنها من المتشابهات ومثلها في الكتاب العزيز فيما أظن أربع آيات فردني في الحال ثم نقلني إلى سورة الأنعام فقرأت منها أربعين آية، ثم وثب بي إلى سورة الرحمن فالمجادلة وأخيرًا ربت على كتفي وقال: قم بارك الله فيك إنك من الناجحين. فنهضت متهللا من الفرح وأمرني بالانصراف فوجدت ستة من الزملاء قد انتهوا من

الاختبار جالسين على الكرويت في دهليز المدرسة ينتظروني ليسألوني عن الأغلاط فبشرتهم بنجاحي وهم كذلك ـ على ما يظنون ـ لكن ظهر في المستقبل أنه لم ينجح من الأربعين طالبًا سوى تسعة عشر فقط ومعظمهم من الذين أمضوا عامين فأكثر في فصل الحفاظ.

الكباب الشامي واللعب

اتفقنا نحن الستة على أن نذهب لمحل الشامي السيد محمد بائع الكباب بالصفا. لتناول الغداء، ثم نذهب إلى زقاق الجبل بالقشاشية للعب بالكرة ثم الكبوش ثم الذهاب إلى البيت حيث هذه الأيام، وأقصد بها أيام الامتحانات هي أيام حريتنا في السنة كلها؛ لأن أهلنا يضيقون علينا الخناق ويعاقبوننا إذا تأخرنا عن الميعاد المقرر. وفي أيام الاختبار لا يسألوننا؛ لأنهم يعلمون أننا منشغلون حتى إنهم في هذه الأيام يغضون النظر عن تخمير العيش؛ لأنهم لا يجدون من يخبزه لهم، وهذا بالنسبة لي، ويجوز أن بعض زملائي كانوا مثلي، ولكن لا يفشون أسرارهم ولا يصرحون لأحد عما يكابدونه من مضايقات جريًا على عادات وتقاليد ذلك الزمان حتى أنا لم أصرح لأحد ما بأي شيء لأن كل فرد يجب أن يظهر بمظهر لائق ببيئته وشهرتها في ذلك الوقت، وإلا فلماذا أنا وعلوي شطا ومحمود مؤمنة وأحمد رشيدي وحسن كتبي وحسين يماني وأمين بن عقيل وفلان وفلان يلزموننا بلبس الجبب إلزامًا، وهذا بالنسبة لفصلنا الذي هو فصل الحفاظ وهكذا كل الفصول، والمفروض أن يكون الزي المدرسي متحدًا لا فرق بين عربي وأعجمي ولا بين أسود وأبيض، وهذا بالنسبة لرأيي كما أتصور.

عيال الخرقة

ذهبنا إلى ربوة الصفا ونحن ستة ثم تخلف واحد منا واعتذر وقال: أنتظركم عند الباب لنلعب الكبوش وهو السيد أمين بن عقيل، فوافقناه على رأيه، ثم طلبنا من السيد محمد الشامي طبقين من اللحم المشوي ومن لبن الزبادي والعيش الصامولي وتناولنا وجبة الغداء ودفعنا الحساب بالسوية إذ كان نصيب الواحد سبع هللات والمجموع الكلي أقل من نصف ريال مجيدي، ثم ذهبنا نستبق إلى زقاق الجبل لنلعب الكورة ولنثبت رجولتنا وحريتنا أمام بقية الزملاء؛ لأنهم يعيّروننا يوميًا ويصموننا بما ليس فينا كانوا يقولون لنا إن كنتم رجالًا فانزلوا لنا هذا عند الانصراف كل يوم؛ لأنهم كانوا يعلمون جيدًا أننا لن نفعل ذلك..

وجدنا الزقاق مكتظًا باللاعبين وكلهم من أبناء الفلاح. ومن فصلنا أيضًا وجدنا أربعة يلعبون البارجو - وهي أحجار صغار منحوتة على شكل كروي جميل - وقبل أن نخلع الجبب ونضع ما في أيدينا من مصاحف على أبواب بيوت زقاق الجبل، بدأ الغمز والاستهزاء والسخرية بنا إذ ترك اللاعبون لعبهم وجاءوا يتحرشون بنا قائلين: متى كان عيال الخرقة من أقراننا حتى نلاعبهم؟ فهجنا جميعًا وثارت فينا حمية الجاهلية والجهل والصبا وانضم إلينا الأربعة من أبناء صفنا واشتبكنا معهم اشتباكا عنيفًا كل اثنين على حدة وعندما ينهزم واحد من الاثنين يأتي الثالث لحماية المنهزم. ثم عم الاشتباك أخيرًا وأخرج كل واحد ما عنده من حجارة وكبوش ومحابر، وكانت - أي المحابر عبارة عن سلاح غير مجد، وتمزقت جببنا شر ممزق وذهبنا على وجوهنا نادمين آسفين على ما أضعناه من قوت وثياب وأدوات مدرسية ولم يفز منا غير السيد ابن

عقيل، والزملاء هم المرحوم احمد الرشيدي والمرحوم علوي شطا والمرحوم محمد مؤمنة والمرحوم حسن يماني ولم يبق منا غير ابن عقيل وكاتب هذه المذكرات وهذا بالنسبة لنا نحن الستة، وبعد هذه المعركة ألغينا اللعب إلا في البيوت أو أمام البيت بعد أخذ الإذن من ولي الأمر فكنت إذا وجدت فرصة للعب أذهب إلى بيت السيد أمين بن عقيل وألعب معه الكبوش في سطح داره وكذلك الحال مع السيد علوي شطا أمام باب بيته إذا وافق على ذلك والد المرحوم السيد حسين شطا وكان مثواه في أغلب الأحيان على الكرويت في دهليز داره بباب الباسطية بالمسجد الحرام، والسيد بن عقيل لا تبعد داره عن بيت شطا إلا بضع خطوات.

السنة الثانية الابتدائية

وكانت مدرسة الفلاح في ذلك الوقت لا تعرف عطلة الصيف وكل ما هنالك عطلة الأعياد لمدة أسبوع فقط وشهر رمضان تكون الدراسة فيه نصف نهار فقط وشهر الحج يمتاز بقفل المدرسة ابتداء من اليوم السادس من ذي الحجة حتى يوم الثاني والعشرين منه، فكانت الدراسة المتواصلة أحد عشر شهرًا وكانت مدة حفظي للقرآن الكريم تسعة أشهر وأربعة عشر يومًا حفظًا جيدًا - لله الحمد - وكان نجاحي للسنة الثانية الابتدائية بمدرسة الفلاح من الدرجة الأولى؛ لأن مجموع نمري[1] [درجاتي] كان نهائيًا وقد أعطيت شهادة حفظ

---

(١) نمري بكسر النون وفتح الميم وكسر الراء بعدها ياء ساكنة سكونًا مبينا هي ياء المتكلم... و(نمري) بكسر النون وسكون النون وسكون الميم بعدها واو مهملة ومعناها المروم هو =

المصحف حاملة الرقم الأول ولازلت محتفظًا بها للذكرى ، وكان الزملاء الخمسة عشر الذين نجحوا من فصل الحفاظ قد وزعوا على الفصول الابتدائية وكانت ثلاثة ، فيما اعتقد . والذين انتقلوا معي إلى هذا الفصل هم المرحوم الرشيدي والمرحوم علوي شطا وعبد الوهاب سراوة ومهتدي وعمر تقل والشيخ حسن كتبي - هؤلاء كلهم أحياء - ثم المرحوم محمود مؤمنة أما الباقون فلم نكن نعرفهم لأننا كنا دخلاء عليهم وسنتعارف بعد الاختلاط ونعطيكم أسماءهم فيما بعد - إن شاء الله .

بدأت الدراسة لذلك العام المدرسي علم ١٣٤٣هـ وأنا في سن الثالثة عشرة وكانت العلوم المضافة إلى القرآن الكريم هي : التجويد ، الفقه الحنفي ، التوحيد ، المطالعة ، الحساب ، الأعمال الأربعة : الخط ، الإملاء ، السيرة النبوية والأساتذة الذين أكرمونا وعلمونا في هذا الفصل هم : المرحوم السيد بكر حمدي ، والمرحوم علي سادة ، والسيد محمد شطا ، والشيخ محمود عارف[1] وهذا قد سافر إلى الهند ، ثم بخارى ولم يعلم له خبر ، ثم الشيخ الطيب المراكشي - رحمه الله .

الاختبار الأول والأخير

= أرقام [أي درجات] نجاحي ، وكلمة (نمرة) كلمة دخيلة شاعت وذاعت من عهد الأتراك حتى اليوم في هذا المعنى .. وإننا نلاحظ أن صيغة (رقم) و(أرقام) العربية بدأت تزحف عليها وتحتل في بعض الأحيان مكانها .

(١) ومحمود عارف هذا ليس هو الأديب المعاصر طويل العمر ، الأستاذ محمود عارف ذاك شيء وهذا شيء آخر وإن تطابق اسماهما .

ثم جاء اختبار نصف السنة وأنا شبه فاشل في الدراسة لسوء الحظ ؛ لأني أتغيب عن المدرسة لأسباب تأتي فيما بعد ـ إن شاء الله ـ ومع ذلك فقد كنت من العشرة الأوائل بسبب المجموع ؛ لأن المصحف له ثلاثون نمرة [أي درجة] وبقية الدروس من عشرة فقط ، وكل مادة تعطي أربعة أرقام للحفظ وستة للمعنى وعشرة للمواظبة وعشرة للسلوك . وأنا محروم من نمر المواظبة . وغيرها ثم جاء الاختبار الأخير وقد نجحت فيه إلى الفصل الثالث الابتدائي ـ لله الحمد .

السنة الثالثة الابتدائية

حلت هذه السنة الثالثة في العام الرابع والأربعين بعد الألف والثلاثمائة وزاد علينا من المواد : فن الإنشاء ، والنحو والصرف ، ومن الأساتذة المرحوم الشيخ حامد كعكي والشيخ عبد الوهاب آشي ـ أطال الله عمره ـ والمرحوم الشيخ محمد حمدان . وبعد فتح المدرسة بأسبوع انتقل إلى رحمة الله أستاذنا الكبير الشيخ علي سادة ـ رحمه الله .

الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله

في العشرة الأوائل من شهر صفر لعام ١٣٤٤هـ دخل مكة المكرمة جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية وكانوا ينادونه بالسلطان ، أي : سلطان نجد والحجاز وملحقاتهما ، وعندما انضمت إمارة عسير إلى إمارة الحجاز وأصبح في حوزته معظم البلاد السعودية نودي به ملكًا على المملكة العربية السعودية وأظن ذلك

في عام ١٣٥١هـ، ومعظم التلاميذ لم يحضروا إلى المدرسة في يوم قدومه . ويرجع السبب في ذلك إلى خوف الآباء على أبنائهم في ذلك اليوم من الضجيج والغوغاء وما إلى ذلك، وكنا قد اجتمعنا في دهليز المدرسة . ولما لم يحضر بقية الطلبة والأساتذة جمعنا المفتش الحديدي - رحمه الله - وقال : انصرفوا هذا اليوم فسحة وغدًا الدراسة إن شاء الله .

الموكب الملكي

فذهبنا إلى البيت صباحًا وكانت العمات والعم وبعض ذوي القربى قد عزموا على رؤية منظر الموكب الملكي وقرروا جميعًا أن نذهب إلى بيت الفقيه بالقشاشية حيث تسكن العمة الصغرى حرم المرحوم عمر أحمد فقيه . وهذا البيت مقابل لبيت (البَو) الذي صار مقرًا لدائرة المواصلات فيما بعد، فذهبنا جميعًا وكان البيت مكتظًا بالأصدقاء والأرحام ومعظم بيوت القشاشية في ذلك اليوم كانت مكتظة بالناس للفرجة على الموكب الملكي، وقبيل المغرب بنحو ساعة تقريبًا أقبلت العساكر وتراصت على الجانبين ثم أقبلت كوكبة من الفرسان شاهرين السيوف وأتبعتها كوكبة أخرى وفيها عظمته وهو محرم يتوسط الموكب الملكي ومن حوله أنجاله وأشقاؤه وعبيده وكلهم محرمون وكان منظرًا رائعًا وجميلًا .

الغداء الملكي

بعد دخول مكة واستتباب الأمن والاستقرار زارنا في مدرسة الفلاح وصافح كل طلبة المدرسة قائلًا لهم : بارك الله فيكم ثم تقدم الخطباء فخطبوا ثم النشيد

ثم اصطففنا وهتفنا قائلين: يعيش (السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) ثلاث مرات ثم خرج من المدرسة بعدما أمر لها بمكافأة مالية سخية فقام المدير ـ رحمه الله ـ وأعلن ذلك على الطلبة وقال: إن السلطان يدعوكم غدًا للغداء، ثم انصرفنا إلى بيوتنا وفي اليوم التالي حضرنا من الصباح، ثم طلعنا إلى الفصول والأساتذة يراقبوننا من غير حمل العصا.

وقد ذبحت الخرفان في ذلك اليوم ومدت الموائد وطها الطهاة «الأرز البرياني» وهو أكلة هندية لذيذة، واللفائف المحشوة باللحم المفروم المسماة بالسمبوسك وكان الحلا ـ مشبكًا ـ وهو دقيق يخمر ويصب في قوالب ثم يقلى ويوضع عليه العسل أو السكر المطبوخ.

السنة الرابعة الابتدائية

انتهى العام وجاء الاختبار ونجحنا ـ ولله الحمد ـ إلى السنة الرابعة الابتدائية وزاد علينا من الأساتذة المرحوم الشيخ محمد العربي والشيخ يحيى أمان والسيد الشيخ حمدي ـ رحمهم الله جميعًا ـ وأما الزملاء فقد كثروا وعرفنا منهم الزميل مصطفى مرسي والسيد أحمد أمجد كتبي والشيخ جميل آشي والمرحوم عبد الله بازيد وكان أذكى الطلبة على الإطلاق، ثم الشيخ سالم بازيد والشيخ أحمد بامحروس والشيخ عبد الله كامل والسيد علي جفري وشقيقه المرحوم السيد عبد الرحمن الجفري والشيخ عبد الرحمن نواوي.

وكانت المقررات كما مر ذكرها في السنة الثالثة ما عدا الفقه الحنفي فإنه تقرر حفظ متن الأسقاطي وثلث كتاب القدوري للمعنى فقط، وأما في التوحيد فقد تقرر علينا حفظ متن الطحاوية مع الشرح والرسائل الثلاث لابن

تيمية ـ رحمه الله ـ وفي الحساب تقرر علينا الكسور الاعتيادية الأعمال الأربعة والقرآن الكريم غيبًا وأستاذه الشيخ محمد الطيب المراكشي ، والخط العربي : الثلث فقط والتاريخ ، دروس الخياط ، الخلفاء الراشدون .

السنة الخامسة الابتدائية

ولم يكن فيها من زوائد ذات شأن لا بالنسبة للمقررات والأساتذة ولا بالنسبة للأحداث والمواسم حتى ولا شؤوني الخاصة ، أما التعب والإرهاق وعدم المواظبة على المدرسة فحدث عن ذلك ولا حرج ، وخاصة أيام الموسم بسبب المشاغل والتكاليف وغيرها مما يطول شرحه أو سرده ؛ لأنه ربما تقدم ما يشير إلى ذلك قبلًا .

وقد نجحت إلى السنة السادسة ـ لله الحمد ـ نجاحًا ضعيفًا وما كنت أظن أني سأنجح نظرًا للمعوقات وصخور العثار التي تجثم في طريقي وتحول بيني وبين المذاكرة وحفظ الواجبات ، ولكن الله سلم .

كانت أرقام [حاليا درجات] النجاح ضئيلة جدًا ولا تشجع ودائمًا أتصور الرسوب وكان المرحوم عمي يستعين بي على تدعيم قراءة القرآن للحجاج الذين يصححون سور الصلاة على يديه ، وكان مورده المعيشي من هذه الحرفة المباركة وخاصة بعد انقطاع مرتبات الإمامة والخطابة وحصوله على التقاعد بسبب الأمراض وما إليها .

تعليم الحجاج

كان الحجاج الوافدون إلى بيت الله الحرام في ذلك الحين يتعلمون قراءة

القرآن مع التجويد؛ لأنهم كانوا يصلون من شهر رجب وخاصة سكان جزر جاوه وبورنيو وسومطرة والهنود والبنغاليين وسكان الهند الصينية الفرنسية والساميين وسكان جنوب إفريقيا وأهل بخارى وشبه جزيرة القرم والأناضول وغيرهم وكانوا يدرسون على يد نخبة من علماء مكة وقرائها وبخاصة أصحاب الأصوات الحسنة الفريدة؛ لأنهم يصلون في المسجد الحرام ويسمعون الأئمة مباشرة في المسجد الحرام فيتبعونهم إلى بيوتهم حتى إذا ما عرفوها أتوا بمترجم من خاصتهم فيأتي معهم ويتفاهم مع المقرئ على الافتتاح والفتوح ومدة الدراسة وجميع ما يتعلق بذلك.

وكان المسجد الحرام صورة حية لجميع أدوار التعليم إذ بعض الحجاج يعشق الاستماع إلى الفقه وبعضهم إلى الحديث والتفسير وبعضهم يعشق تعليم اللغة العربية، وكان الإمام أو الخطيب حينما يقول: السلام عليكم ورحمه الله وبركاته ينكب الحجاج على يديه تقبيلاً وعلى صدره عناقًا وعلى رأسه ثم يطلبون منه الدعاء والبركة ويصطحبونه إلى أن يخرج من المسجد وقد يصحبه بعض منهم إذا كان له غرض في القراءة أو الفتيا أو ما إلى ذلك يصحبه إلى الدار، وأذكر بعض الأئمة الذين يعلمون الحجاج قراءة القرآن والتجويد وأخص منهم من كان بيته أقرب إلى المسجد الحرام مثل بيت السيد حسين شطا السيد عباس مالكي والشيخ جمال مرداد وعبد الحميد مرداد[1] والشيخ حسن عرب

---

(١) عبد الحميد مرداد كما يبدو من سياق الكلام هو والد السائح السعودي الأستاذ محمد عبد الحميد مرداد، بآية أنه لم يذكر لقب (الشيخ) أسوة بزملائه الآخرين الذين قد أضفى على أسمائهم هذا اللقب. وذلك من تواضع العلماء والأدباء. وهذا التعليق ليس من متن الكتاب، بل هو من ملاحظات ابنة صاحب المذكرات التي قامت بتقديم الكتاب.

والسيد محمد دحلان وغير هؤلاء ممن لا أتذكرهم الآن .

الحجاج المهاجرون

أما المهاجرون من الحجاج وأعني بهم الذين يبقون في مكة ولا يرجعون إلى بلادهم بقصد التعليم أو حفظ القرآن أو المجاورة ، فهؤلاء يطلبون العلم بالمسجد الحرام والصغار منهم يدخلون مدارس مكة وكانت في ذلك الوقت لا تتعدى أو لا تتجاوز أصابع الكف ، وفي مقدمة تلك المدارس : الفلاح ، الصولتية ، الفخرية ، وأما حلق المسجد الحرام فكان يدرس بها الفقه والحديث والتفسير والنحو والبلاغة . ومن علماء هذه الحلق المرحوم السيد عباس المالكي والشيخ جمال المالكي والشيخ علي المالكي والشيخ عمر باجنيد والشيخ فضل والشيخ سعيد اليماني ، والشيخ محمد فطاني والشيخ عباس عبد الجبار ، والشيخ إبراهيم فطاني والسيد علوي مالكي ، والسيد محمد أمين كتبي والشيخ يحيى أمان ، والشيخ محمد العربي والشيخ محمد علي بن تركي والشيخ حسن يماني ، وبعض العلماء الجاويين والهنود وغيرهم من المغتربين . وأغلب هؤلاء العلماء كانوا يجمعون بين التدريس في المدارس ثم في الحرم الشريف وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ حسن مشاط ـ أطال الله في حياته ـ كما أن معظم من ذكروا قد فارقوا هذه الدار الفانية وانتقلوا إلى جوار ربهم ـ رحمهم الله .

وأصبح التدريس في المسجد الحرام آنذاك في حكم المفقود وخاصة بعد فتح المعاهد والكليات والجامعات والمدارس الكثيرة . كما أنه لمشاغل الدنيا ومسئوليات المعيشة ومشكلات العصر وعدم وجود الفراغ ، أصبح من العسير على الإنسان ان يجد فرصة ينزل فيها إلى المسجد الحرام لحضور حلق الدروس

والمحاضرات . ويا ليت الفرصة تسمح لهم بأداء صلاة الجماعة في المسجد الحرام فضلًا عن طلب العلم . وكان المسجد الحرام في أول القرن الرابع عشر في شكل جامعات وكليات ومدارس للرجال كبار السن والصغار وكانت الرباطات المجاورة للحرم والعمارات الضخمة التي يسمونها بالمدارس أو ما يكون فيها مصلي ترى من نوافذه الكعبة المعظمة وبعض دهاليز مكة قبل قرنين أو ثلاثة وكان بها مساحة كبيرة تسع المئات من الطلبة ، كان يدرس بها بعض العلوم في أوقات خاصة . وقد أشار إلى ذلك بعض المستشرقين من الفرنجة الذين حضروا إلى مكة قبل قرن وقرنين وطلبوا العلم بها وألّفوا كتبًا في هذا الشأن اطلعت عليها في رحلاتي المتكررة للقارات ووقفت على أخبارهم وأحوالهم كما سيمر بالمطلع المتتبع لهذه المذكرات .

عمي جمال مرداد رحمه الله

شقيق والدي ـ رحمه الله ـ ومات في الخمسينات وكان مدرسًا بمدرسة الخياط بالمسعى بمكة المكرمة أيام الحسين وإمامًا وخطيبًا بالمسجد الحرام وقد أَمّ جلالة المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ في العام الذي صام فيه بمكة المكرمة وكان صاحب صوت جهوري يسمعه من كان في آخر الحرم قبل أن تصلنا المكبرات الصوتية والكهرباء وكان مجودًا ومرتلا وحافظًا للقرآن عن ظهر قلب حفظًا جيدًا ، وقد صاهر السادة آل المالكي ؛ إذ كان المرحوم السيد علوي المالكي خالًا لزوجته ، وقد أنجب منها وكان يتمتع بصحة جيدة وأخلاق فاضلة وسجايا حميدة .

تعليم القرآن

كان يعلم القرآن في داره بباب الدريبة وأغلب المتعلمين من الجاويين والبنغاليين والبخاريين وجنوب إفريقيا . وكان يستعين بصهره المرحوم السيد عبد الرحمن المالكي والد زوجته ، وأحيانًا يستعين بي عندما يكثر عنده التلاميذ من الحجاج أيام الموسم وكان هذا من جملة الأسباب التي كانت تؤخرني عن المدرسة حتى في أيام الامتحانات ولا أستطيع مراجعته بحال من الأحوال . وكانت المدارس في تلك الآونة لا تعرف الإجازة ولا العطلات الصيفية اللهم إلا أيام الحج المعدودة ولم تنعم بالإجازة الصيفية إلا عندما تم تعيين المرحوم السيد طاهر الدباغ مديرًا للمعارف في عهد المرحوم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ وذلك بعد تخرجنا بمدة طويلة ، فكانت الدراسة قبل عهده تستغرق طيلة العام تقريبًا .

أجرة التعليم

كان الحاج الجاوي إذا استفتح بتعليم الفاتحة يدفع ريالًا سنكويًا وأعني بالسنكوي الريال (السينكو) وهو الريال الفضي المطبوع المسكوك في عاصمة جزر الهند الشرقية ، وكانت العاصمة آنذاك تدعى (بتافيا) وقد انقلب اسمها الآن بعد الاستقلال إلى (جاكرتا) . وأحيانًا تطبع هذه المسكوكات في هولندا وهي الدولة المستعمرة لتلك الجزر الجميلة آنذاك ، وهذا الريال السنكوي يشبه الريال الفرنسي إلا أنه أغلى ثمنًا وأصفى فضة والجنيه الذهبي يعادل ثلاثة من السَّنَاكوة إلا بعض القروش وعندما ينتهي التلميذ من حفظ (جزء عم) يدفع خمسة من هذه السناكوة وكل جنس يدفع من عملته التي جاء بها من بلاده ما

يعادل هذا الريال الجاوي. وهذا غير المصالح والفوائد التي تأتي من طريق الهدايا. فلقد رأيت بعضًا يأتي بالفوط (الأُزر الجاوية) وهي أنواع وأشكال وكذلك يأتون بالكروبو (نوع من الأرز المطحون الممزوج بأنواع السمك المسحوق، يجفف ثم يصنع ويصدر وكذلك زيت جوز الهند، والكيجب: نوع من السلطات الجاوية يغمس فيه الساتي (نوع من الشواء).

الأبدال والقربان

كنت أرى بعض هؤلاء الحجاج يدفع نقودًا ورقية (بنكنوت)، وأسمع كلمة البدل والقربان والعقيقي ولا أدري عن معنى هذه المسميات إلا فيما بعد وأسمع من البنغاليين كلمة (المولد) ويدفعون أوراقًا من العملة الهندية، أما حجاج جنوب إفريقيا فيدفعون الجنيهات الذهبية، وأهل بخارى وما جاورها يدفعون الجنيهات المسكوفية (نسبة إلى موسكو) ومسكوف عاصمة بلاد الروس الذين كانوا يسيطرون آنذاك على بلاد بخارى وباطوم وجورجيا، وكنت أقول في نفسي: متى يأتي اليوم الذي أكون فيه مثل عمي أعلم القرآن وأقبض من هذه الكنوز؟ وقد سألت السيد المالكي عن البدل وغيره مما سمعت فأرشدني إلى الحقيقة - رحمه الله - وكانت الأبدال تدفع للعم ليخرجها بنظره للمستحقين. هذه الأبدال والعقائق والقرابين لها أحكام خاصة مذكورة في كتب الفقه وكان الحجاج في ذلك الوقت يثقون في مشايخهم ومطوفيهم فيدفعون إليهم هذه المصالح على غبر هدى - والله يعفو ويصفح.

ربع ساعة

وكان لكل تلميذ من طالبي حفظ القرآن من الحجاج ربع أو ثلث ساعة على الأكثر ما بين تسميع السورة وتصحيح اللوح الجديد، ثم يخرج من البيت ولا يرجع إلا في اليوم التالي ولولا ذلك لما وسعهم المجلس ولا حتى الدور المجاورة بخلاف المدارس وتعليمها.

التسمية

وبعض هؤلاء الحجاج كانوا يطلبون تغيير أسمائهم لعدم رغبتهم للاسم الذي سماهم به شيخ المشايخ البسيوني - رحمه الله؛ لأنه كان المندوب للتسمية بالنسبة للجاوة، أما غير الجاويين فلا يغيرون، وليت الحاج الجاوي كان يقتصر على اسم واحد، بل كانت هناك أسماء يحتفظ بها للبركة على زعمه ورأيه منها: اسم المدينة، واسم مكة، والاسم الذي جاء به من جاوة والاسم الذي يسميه به العالم من أئمة الشافعية، وهذه أشياء عجيبة وغريبة ولكن سرعان ما تطور العصر وانجلت الحقائق بسبب كثرة المدارس وتثقيف النشء في تلكم الجزر وقد لمست ذلك عندما كانت رحلاتي تتوالى على تلك الأصقاع والأقاليم في الخمسينات وما بعدها.

فكرة عامة

أنا شخصيًا كنت بدائيًا مثلهم وكنت لا أعلم شيئًا عن أي شيء. ولكن الأيام والاختلاط بالحجاج على اختلاف أجناسهم ولغاتهم حتى الحجاج العرب، كل ذلك أكسبني خبرة وفكرة عامة عن هذا الكون العجيب وعن

مخلوقات الله وعجائب الدنيا وأول اختلاط فرض نفسه علي فرضًا هو الاختلاط بحجاج (جاوة)، إذ كانوا يسكنون بدارنا في أيام الموسم من شهر رجب إلى نهاية العام يشغلون الطوابق السفلية من الدار، وكل عام يسكن هذه الدار ضيوف غير الضيوف الذين كانوا في العام الذي قبله؛ لأن الإيجار بالنسبة لمشايخ الجاويين يختلف كثيرًا عن بقية الطوائف من الحجاج إذ كانوا يدفعون مبالغ طائلة لشيخهم تلقاء السكنى وبخاصة ما كان بجانب الحرم الشريف، وكل شيخ يرغب في استئجار بيوت بجانب الحرم ليكسب سمعة ودعاية، ولذلك كانوا يزوروننا من قبل وصول الباخرة الأولى التي تصل إلى ميناء جدة بأسبوع على الأقل ويدفعون العربون مقدمًا، والدار لمن زاد في الإيجار. وكان متوسط إيجار دارنا بباب الدريبة لطابقين فقط على الحجاج الجاويين لا يقل عن خمسين جنيهًا ذهبًا وكل عام يحل بالدار أصناف مختلفة حسب اختصاص الشيخ المستأجر فكنا نفرح بالأجناس التي تسكن المدينة الكبيرة مثل سربابة وجاكرتا ومكاسر وسمارنج؛ لأنهم أنظف سكان الجزر الاندونيسية في ذلك الوقت أما الآن فقد لعب التطور والتمدن دورًا هامًا في حياة الشعوب والمدن.

اقتناص الفرص

اغتنمت فرصة سكن هذه الدار من هؤلاء الضيوف الذين يملأون مكة المكرمة في ذلك الوقت وخاصة لما كنت أسمع من الرسائل التي تصل إلى عمي بالبريد البحري من والدي المرحوم أنه كان في جزيرة كذا ومكث بها كذا ثم رحل إلى جزيرة كذا وكلها في جاوة) وما جاورها، والذين يسكنون عندنا هم

من هذه الجزر التي يحل بها الوالد المرحوم ، ثم كان هذا الجنس من الحجاج هو عصب الحياة بل الموسم كله في الحجاز وكانوا يمكثون زهاء خمسة أو ستة أشهر وكانوا أصحاب ثروة ونقودهم أغلى النقود على الإطلاق ، فكنت أفكر وأحلم وأتخيل أني سوف أكون يومًا ما في هذه الجزر ، وبدلًا من هروبي إلى الزيمة ، لماذا لا يكون إلى جاوة وأكون بجوار والدي وأصدقائي الذين أراهم عندنا في كل عام يتعلمون القرآن الكريم ويسكنون بدارنا ويدرون علينا من الدراهم ما تقر به العين ويثقل به الجيب وبخاصة عندما أخذت العناوين الكثيرة . وصرت صديقًا للمئات ممن سكن عندنا أو تعلم أو دُعي إلى وليمة بدارنا ، ثم الطلوع والنزول يوميًا ورد السلام والأخذ والرد مع هؤلاء السكان والاختلاط والاحتكاك والتزاور ، كل ذلك من المؤثرات والانطباعات التي انطبعت في ذاكرتي ، وكل هذا جعلني أفكر بصورة جدية في كيفية الانتقال والارتحال ، وأحيانًا يزورنا بعض من هؤلاء السكان ، والبعض يطلبون تصحيح القرآن على يد المرحوم العم جمال نظرًا للصاعدين والنازلين من الحجاج التلامذة ، حتى إن بعض ممن كانوا يسكنون بدارنا كانوا يطلبون من العم أن أكون معلمًا لزوجاتهم وبناتهم لتصحيح القرآن والتجويد ، فأفرح لسماع هذه الكلمات وخاصة عندما يناديني ويطلب مني أن أنزل بعد المغرب وأمكث إلى العشاء معلمًا للفاتحة وسور الصلاة لبعض تلك الأسر الجاويات الساكنات عندنا ، أقتنص هذه الفرصة وأنزل إليهم كي أعلمهن القرآن ما بين المغرب والعشاء فأتحصل على لغة وعلى نقود وعلى زيادة معلومات تكسبني خبرة عندما أعلن الرحلات وأبدأ في السفريات .

وكنت إذا حصلت على نقود من هؤلاء أو أولئك أجعلها في صرة أو

قرطاس ثم أحشرها خفية في أسقف المخبأ التي تدعى (بالطيرمة) أو حَنَّيات الفحم حيث لا يعلم بها أحد غير الفأر أو الخفاش حتى يأتي عليها اليوم المطلوب ، تلك هي التي كانت العون الوحيد في الشدائد وما أفيد الدراهم في الظروف الحرجة والليالي الحالكة والهموم المتراكمة .

الحاج مشهدي وصهره

استأجر دارنا في ذلك العام المرحوم الشيخ محمد نور قُدس ، (بضم القاف والدال ثم السين) إيجارا موسميًا من شهر رجب إلى نهاية العام وكان هذا الشيخ القدس جارًا لنا بباب الدريبة ، وأغلب الأعوام يستأجر منا هذه الدار ، وهو نجل المرحوم الشيخ عبد الحميد قدس أحد علماء مكة ومشاهيرها ، وكانت له حلقة بالمسجد الحرام يعلم الفقه الشافعي كما كانت له بعض المؤلفات النفيسة لم يطبع معظمها فعسى أن يبارك الله في الأحفاد حتى يخلفوا جدهم ويحيوا سيرته ويحافظوا على هذا التراث ، وكان له من الأولاد أربعة أكبرهم هذا الذي أشرت إليه وكان أعلمهم وأقربهم بإحياء ذكر أبيه ، ثم المرحوم أحمد وكان ذا صوت حسن وله معرفة بالأنغام والألحان ، ثم المرحوم عباس وأخوه عمر .

حينما استأجر الدار (وأقصد بها طابقين فقط كما سبق آنفًا) ، دفع للعم خمسين جنيهًا ذهبًا وقال له : هذه السنة يقطن داركم رجل ثري تصحبه عائلته وخدمه وصهره والمجموع كله لا يتجاوز العشرة ففرحنا بهذا النبأ ؛ لأن العادة أن يقطن هذه الطوابق عدد يزيد على الأربعين بالإضافة إلى زادهم المشحون في صناديق خشبية ضخمة تشغل السلالم والأسياب علاوة على الحطب الذي

يطهون به طعامهم في بسطات الدرج والماء والفضلات التي تنبعث منها روائح كريهة.

وكانت العادة أن يبعث المطوف أو شيخ الجاويين خادمًا في الأسبوع مرة واحدة يكنس لهم مجالسهم ويقذف بالزبالة في خارج الدار، وكان الجاويون في الأزمان السابقة يمكثون أكثر من نصف العام ويصحبون معهم القوت الكامل؛ لهذا فهم أكثر الحجاج رحالا وأثاثًا.

وعند النصف من رجب وصل الحاج مشهدي وصهره الحاج أنور، وسكنا بدارنا وكان الأول سمينًا ضخمًا مربوعًا أبيض الوجه له شارب ضخم مثل شارب الملك فؤاد ملك مصر في ذلك الوقت، وأنفه ليس كسائر الأنوف الجاوية أي ليس مفلطحًا ولا مفطسًا، والناظر إليه لا يصدق أنه من سكان جاوه. أما صهره فجاوي وجهًا وشكلًا وجسمًا فصرت أقول لنفسي: عسى أن تتاح لي الفرصة حتى أقف على حقيقة هذا الرجل الضخم.

على خلاف العادة

الحاج مشهدي شغل الدور العلوي وكان يحتوي على ثلاثة مجالس ومطبخ وحمام وموضأ، أخذ لنفسه مجلسًا مع زوجته، والمجلس الثاني لبنتيه وولده والثالث لصهره مع زوجته ولم يكن لهما أولاد، والمجلس السفلي للخدم والأثاث وليس معهم نساء ولا يتجاوزون الأربعة فيهم الطاهي والكناس وما تبقى للطلبات داخل الدار وخارجها.

ومن أول يوم، تعرفت المجموعة كلها، إذ زرتهم ورحبت بهم ولكنني لم أجرؤ على التسأل إلا بعد بضعة أيام وبعد ما تيقنت من الخدم أن الرجل ذو

شأن كبير ألا وهو الحاج مشهدي ، وكانت زيارتي لأهل الطابقين رذاذًا وخطفًا ، ولا تزيد كل زيارة على ربع ساعة نظرًا لعدم وجود فراغ ، يمكنني من قضاء أي مأرب .

وعندما أُسأل لماذا هذه الزيارة الخاطفة ؟ أقول لهم من باب القول المشهور : « زر غبًا تزدد حبًا » ولا أبوح لهم بأي شيء مما أنا فيه من تعب ونصب وقلق وتعقد ، ولم أعلمهم بأن الدقائق محسوبة علي حتى الثواني وأني أطلب الفرج بأي وسيلة .

إلا يوم السيل

كنا في المدرسة وكان الوقت ضحى ، وأظلم الجو واحتلك السحاب وأرزم وزادت الصواعق إرزامًا وتلألأ الجو فجأة عن برق خاطف للأبصار وأضاء أهل الحوانيت ونحن في الفصول وكأننا في منتصف الليل . ولم تكن آنذاك كهرباء عامة في مكة المكرمة وإن كان هناك بعض الأجهزة المولدة للكهرباء ولكنها لا تشتغل إلا ليلًا ولم تكن المدارس ولا دور الحكومة مسلكة ولا مضاءة إلا بالأتاريك ـ المصابيح القوية الضوء ـ لذلك أصبحت الدراسة مستحيلة وخاصة عندما تساقط المطر مصحوبًا بحصوات من البرد ، صفرت الصفارات منذرة بالانصراف خوفًا من السيل العرم ؛ لأنه يحجز الناس في بيوتهم ويقضي على من بالشارع ويجرف البضائع والدواب ؛ لأنه لم تكن آنذاك سدود حاجزة ولا أسوار مانعة .

خرجنا من المدرسة قبيل الظهر بنصف ساعة وأنذرنا مفتش المدرسة المرحوم عبد الغني بنونة وكان واقفًا على باب المدرسة قائلا : يقول المدير إن الذي لا

يذهب إلى بيته حالًا وجريًا فقد ينال الجزاء من المدرسة غدًا جلدًا في الفلكة إذا ثبت لدى المدرسة أنه لم يذهب إلى البيت ، وكان المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه السناري مديرًا لمدرستنا حازمًا مهيبًا ، وكان يتفرس بالحوادث قبل وقوعها من شدة ذكائه وفراسته ، ولو بقي التلاميذ بداخل المدرسة فهم لا يستفيدون شيئًا لعدم الإضاءة وعدم وجود الطعام لإطعام ألف طالب أو أكثر ؛ لأن السيل إذا دهم الحرم قبيل الظهر تستمر الشوارع مقفلة حتى الليل .

انصرفنا وكان طريقي من الحرم إلى دارنا خطوات ؛ لأنها بباب الدريبة وهذا الباب من الحرم ولا أحس بالمطر أبدًا ؛ لأن السير من الرواق ثم السقفية مباشرة وبيتنا تحتها ، قبل أن أصل إلى الدار تساقط المطر كأفواه القرب ، ولجت الدار بجبتي ومحفظتي التي بها كتبي وقد ابتلت بعض الشيء ، ثم دخلت مجلس الحاج مشهدي زائرًا ولكني بعدت عن الباب حتى لا يراني الصاعد أو الهابط لأتمكن من الاستفسارات التي أردت الوقوف عليها للإحاطة تطفلًا وللإحاطة والتطلع .

كان الحاج مشهدي مسرورًا للغاية لرؤية المطر إذ أخبرني في الحال أن بلاده وسائر جزر الهند الشرقية لا ينقطع عنها المطر إلا نادرًا وبصورة متواصلة ولأول مرة يرى المطر بالبلاد المقدسة ولكنه أردف قائلا : إن الأمطار ببلادنا لا تؤثر في الأسواق ولا المدارس فلماذا انصرفت وجئت من المدرسة ؟ فأخبرته بالواقع فاغتم لذلك وقال : لسوء حظنا لم نبعث أحدًا من الخدم ليحضر لنا لحمًا ولا بقولًا أو خضروات ، وليس لنا سوى الأرز الذي يطهى بغير سمن ـ والحمد لله ـ فقلت في نفسي : هذا يوم الفرج إن شاء الله .

كان السيل في هذا اليوم قد جاوز الحجر الأسود ووقف الطواف وابتلع

السيل بعض المواشي وأعدادًا من حبات البطيخ والخضروات والكراسي التي يجلس عليها باعة الفاكهة كما ابتلع تلميذين من مدرسة الفلاح وكانا من أهل المصافي ، وكان بيتهما يبعد عن المدرسة كثيرًا وكأنهما تلاعبا حتى أدركهما السيل فكانا من المغرقين ـ رحمهما الله ـ ، كانا في السنة الرابعة الابتدائية ولم يتجاوزا الحلم وكأنهما سبحا في حفرة كبيرة من حفر المصافي وداهمهما السيل والمطر الغزير وكان معهما شرذمة من الطلبة ولسوء حظهما لم يستطيعا الإفلات من الغرق ، ولم يعلم عنهما أهلهما إلا في اليوم الثاني حيث جاءوا يستفسرون عنهما بالمدرسة فقيل لهما : إنهما لم يحضرا ! فجن جنونهم وأخيرًا ظهر الخبر المشئوم بعدما اطلعوا على الحقيقة من أهل الحارة وسكان جبل المصافي . وكانوا يلقون اللوم على إدارة المدرسة ولكنهم عبثًا يحاولون .

مكثت ساعة عند الحاج مشهدي وعلمت منه أنه من أصل تركي وأن جده الأول دخل مع الرجل المغربي الذي أدخل الإسلام إلى هذه الجزر وقبره يزار بمدينة (سورابايا) ثم قال لي : أما ترى هذا (الشارب) كيف يبدو مفتولًا وضخمًا وعظيمًا ومعقوفًا ؟ إن جدي هكذا ثم أخرج صورا فوتوغرافية وجعل يعرضها علي حتى إذا ما وصل إلى صور هيكلية ضخمة جدًا وصاحبها يحمل شاربًا كشارب إمبراطور النمسا الذي اغتيل ولي عهده في سراييفو بأرض اليوغسلاف ، وبسبب اغتياله قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م قال : هذا جدي الذي دخل مع الدعاة الإسلاميين الذي مات بجزيرة جاوة قبل قرنين أو أكثر بقليل وهو تركي حافظ للقرآن واسمه (شوكت) . ثم سألته عن حرفته فقال : إنه صاحب مصنع (سجائر) وله مزرعة تبغ بأرض (قُدُس) بضم القاف الحضرمية وضم الدال والسين ، وتنطق بلغة جاوة (كدس) وهذه بليدة

صغيرة تقع في وسط جزيرة جاوة سأذكرها فيما بعد ـ إن شاء الله ـ حينما أصل إليها قادمًا من (سمارنغ) في أول رحلة لي بالبحر، ثم سألته عن الخدم الذين يقطنون الطابق الأسفل من الدار فقال: إنهم من العمال الذين يشتغلون بمصنعي وجئت بهم على حسابي، وأما الحاج أنور فأنا متزوج شقيقته فهو خال لأولادي وهو مدير الأعمال بمصنعي. فأيقنت آنذاك أنه رجل ذو مال وأنه تركي لما ظهر لي، وسأكتب نبذة عنه ـ إن شاء الله ـ حينما أصل إلى بلاده.

طبق من الإدام

ثم سألني عن الحجاج الصاعدين والهابطين فقلت له: إنهم تلاميذ يصححون ويجودون الصلاة عند عمي جمال، فقال: أليس هو الذي صلى بالناس صلاة العشاء بالمسجد الحرام البارحة؟ فقلت: نعم، فقال: أرجوك أن تخبره أن يقبلني كتلميذ أنا وصهري، فأجبت طلبه وأخبرت العم فوافق فكان أحد تلاميذه بعد يومين، وعندما رآني أساعد العم في تعليم الطلبة ازداد حبه لي وطلب من العم أن أنزل إليهم كل ليلة ما بين المغرب والعشاء لأعلم الزوجات والبنات والأولاد قراءة الفاتحة وسور الصلاة. فوافق العم وخاصة عندما قدم له الفتوح مقدمًا وكان مغريًا. ثم صرت أنزل إليهم كل ليلة أعلمهم جميعًا وأحصل على فوائد جمة لغة وخبرة ومالًا وتاريخًا.

ولنرجع إلى طبق الإدام، قال لي: هذا يوم مطير ومنذ الصباح المبكر والجو معكر ومظلم، وهذا السيل والمطر كما ترى، ولم نستطع إرسال الخدم إلى سوق الخضروات واللحم وعلى هذا فطعامنا اليوم كطعام الصائمين. وإني أدعوك للغداء لترى بعينك.

وكان قد قرب الظهر فأمر الخدم بإحضار المائدة فمدت وكانت ، كما قال ، ليس بها سوى الرز الجاوي الذي لا ينزلق من الحلق إلا بالمرق والمشهيات وكأنه يشير إلي من طرف خفي أن أحضر له أطباقًا من الإدام والسلطة ، أو كأنه تخيل وتصور أني صاحب الكلمة في الدار . وكنت أعرض عنه تارة وألتفت إلى صهره لأسأله عن أشياء أخرى تارة ، حتى صارحني بقوله : ما ندري هل طبيخكم كطبيخنا مجرد من الإدام ؟ وهل المطر فعل بكم ما فعل بنا ؟ حتى أحرجني وأخجلني ، اعتذرت له قائلا : لا أستطيع أن أتغدى معكم إلا بإذن من كبرائنا وإني سأصعد لآخذ الإذن ثم أهبط إليكم ؛ وكان ذلك لأتخلص من الموقف المخجل وأنا واثق من الرفض فيما لو طلبت أي شيء ، لكن المصادفة لعبت دورًا عجيبًا ، صعدت إلى الدور الأعلى معتمدًا على رؤوس الأصابع وملابسي ومحفظتي تحت إبطي ولو سُئلت لماذا هكذا ؟ لقلت : من المطر والوحل وما إلى ذلك ، لكنني وجدت العم وصهره وبعض التلاميذ يمدون أعناقهم من النوافذ ينظرون إلى المطر وهو يهطل هطلانًا ولم يحس أحد بي ثم صعدت إلى البيت والمطبخ فلم تكن غير العمة المشرفة وهي منهمكة في تنقية العدس وكأنها تريد طهي المعدوس (الأكلة المفضلة يوم المطر) لكنها لم تحس بي أيضًا لأنها في مبيت آخر .

وضعت محفظتي وجبتي ودخلت المطبخ فوجدت قدرين على النار ، كشفت غطاءهما فإذا فيهما من الأطايب والمرق اللذيذ ، فملأت طبقين ونزلت مسرعًا من حيث لا يشعر بي أحد ، تهلل وجه الحاج مشهدي وفرح جذلًا بهذه الهدية التي لا تقدر بثمن بالنسبة للظروف والضرورة وما أجمل المناسبات الطيبة .

مسكوكات قيمة

بعد تناوله للغداء تجاذبنا أطراف الحديث وأخبرني عن هوايته المفضلة ألا وهي جمع النقود الأثرية والطوابع القديمة ، ثم أخرج عينات من المجموعتين أذهلتني حقًا ، ومن ذلك اليوم أخذت أفكر في جمع الطوابع والنقود القديمة ، كما أهداني هذا الرجل الكريم بعض النقود الفضية القديمة كما حل هميانه الجلدي وأخرج ورقة من فئة عشر روبيات وأهدانيها مقابل الطبقين المُهديين ، فرفضت ولكنه أصر . سألني : كم يقدم للفتوح؟ وهو ما يقدم للعم عندما يشرع في التعليم ، فأخبرته (سنكو) بكسر السين ثم النون الساكنة والكاف المضمومة والواو ، وهو ريال فضي يساوي ريالين سعوديين في ذلك الوقت ، وعند سورة الضحى كذلك ... الخ ، فابتسم .

وفي اليوم الثاني صعد مع صهره وقابله العم مقابلة طيبة ثم شرع في تعلم القرآن مع صهره وقدم الشيء الكثير من الهدايا والنقود . وفي كل أسبوع يدفع عشر روبيات ، وكأنها في نظره عشرة قروش ، أما أنا فقد ربحت منه ومن ذريته مبلغًا من المال حولته فيما بعد إلى جنيهات ذهبية وخبأتها في أسقف الحنيات والطيارم والمغارات التي لا يراها غيري وغير الفئران والعصافير أو الخفافيش لأعد للمغامرة الكبرى عدتها ، كما سيأتي عما قريب ـ إن شاء الله .

وليمة وأبدال

وذات يوم دعا العم ـ رحمه الله ـ الحاج مشهدي مع صهره وأسرته وخدمه وعمل له وليمة عظيمة لما رأى من سخائه وكرمه ، فلبى الدعوة ، وبعد الطعام قدم أبدالا لوالديه وأعمامه بمبالغ عظيمة تفوق حد التعبير بمعنى أن العم قال :

لم أتسلم في حياتي أبدالا بهذه المبالغ ، وإخال أن البدل الواحد يتناول مصرف الحاج من حين قيامه من بلده إلى رجوعه من الحج مع الإسراف والتصدق ، وإني سأذكر كل ما وقفت عليه عن أحوال هذه الشخصية الفذة عند زيارتي لبلده إن شاء الله .

صاحب المال محبوب

كانت فرصتي الوحيدة لأخلو بزوجته وبناته وزوجة صهره عندما أهبط إليهن كل ليلة من بعد المغرب إلى العشاء للتعليم ومذاكرة صفات الصلاة والطهارة وتعليم العربية ، وكن يقابلنني مقابلة حسنة وأحيانًا يشيعنني إلى الطابق الأعلى حيث يسلمن على العمات وربما يسمرن أحيانًا ولا ينزلن إلا وقت النوم وكانت العمات يقابلنهن مقابلة حسنة ويقدمن لهن ما لذ وطاب كما كانت البنات يغدقن عليهن من العطاء والهدايا أكثر من غيرهن من زوار الحجاج ، وهكذا صاحب المال محبوب والسخي حبيب الله .

الغيرة

وكانت البنات إذا صعدن معي إلى البيت ، يقمن بالخدمة التي أقوم بها كغسل الفناجيل وطبخ الشاي وما كنت أقدمه لضيوف العم في السمر كما أشرت إلى ذلك سابقًا .

وكانت العمات يغرن منهن وربما يخاصمنني ويمنعنني من التحدث معهن ؛ لأنهن يتخيلن أني آمرهن بذلك ولكنهن يزددن خدمة وقيامًا بالواجب ولولا الحياء لنزلن وباشرن الضيوف .

خلاصة القول : إني صرت كأحد أفراد هذه الأسرة الحاتمية التي لم أر مثلها في البذخ والتبذير والعطاء والسخاء لدرجة أن الحاج مشهدي كان يدفع إلي كل جمعة منديلًا من النقود الفضية ذات الربع والثمن والنصف ، يقال لها الكتاتب والتوالي بلغتهم . ثم يقول لي : إذا ذهبت إلى المدرسة صباحًا : فرّق هذه على الفقراء والمساكين بأبواب المساجد لأني أضيق من الضجيج حينما أهاجم من قبل المساكين ، وكان المساكين في ذلك الوقت إذا لمسوا غنيًا يوزع عليهم أموالا تبعوه وتكاثروا عليه .

أنا ماعز

كم يكون فرحي عندما أتسلم هذه الصرة العجَيبة لأوزعها على المساكين وأقتطع منها كذا وكذا لنفسي وأقول في نفسي ما قاله ماعز رضي الله عنه لرسوله ﷺ : لا يوجد بين لابتيها من هو أفقر مني ، أو كما قال ، وهذه قصة مشهورة جاءت في الصحاح تراجع في كتب الفقه والحديث . وقد عددتها مرة فوجدت ما فيها عشرين ريالًا سنكويًا ، أخذت منها الربع لي وتصدقت بالباقي ، ولم أستسمح منه إلا بعد سبع سنين حينما زرته في بلده وأخبرته بحقيقتي ، وما كنت فيه وما كنت أقاسيه من وحشة وغربة وبعد عن ديرتي الصغيرة التي ترعرعت ونموت ونشأت بها ألا وهي (الزيمة) الحبيبة والتي تشبه ضاحية من ضواحي بلاد جاوة .

وراء القافلة

بعد الحج سافرت إلى هذه العائلة الكريمة حيث رجعت إلى بلدها ، فذهبت

مع الشقادف مُشَيِّمًا حتى وصلت إلى قهوة المعلم ولولا الخوف وما يلحق الهرب من عقاب ولوم لذهبت إلى ديارهم وسرعان ما تحققت الأمنية التي طالما كنت أتمناها وأحلم بها، وما ذلك على الله بعزيز.

العام الهجري السادس والأربعون بعد الألف والثلاثمائة

دخل ذلك العام الهجري وقد نجحت إلى السنة السادسة - ولله الحمد - وكان رقم جلوسي (أي ترتيبي) في الفصل (الخامس عشر) وكان الفصل يحتوي ثلاثين طالبًا، وكان الأول هو المرحوم أحمد رشيدي وكان حافظًا للقرآن الكريم كما كان أبوه أحد مشايخ الطرق في زمن الأشراف وبيته معروف وأكبر بيت في الحارة حتى ليُنسبُ إليه الميدان الفسيح والذي كان يسمى بالبرحة فيقال: «فلان يسكن ببرحة الرشيدي» وقد زرته في مرضه الذي مات به وهو تلميذ، فوجدته بيتًا فسيحًا وواسعًا وله دهليز كبير ومنافع كثيرة لكن أسقفه من الخشب حيث لم يكتشف المسلح آنذاك، وموقعه بالخريق وكان نابغة وذكيًا وعاقلًا ورشيدًا. أما الثاني فكان المرحوم عبد الله بازيد، مات وهو تلميذ قبل التخرج بعامين كان شعلة من الذكاء، ولولا أن الرشيدي كان حاملًا للقرآن الكريم ومجموعه أزيد بسبب زيادة النمر(الدرجات) لحامل المصحف الشريف إذ كان المخصص ثلاثين نمرة للقرآن غيبًا، وباقي العلوم عشر فقط، لولا ذلك لكان بازيد هو الأول.

أما الثالث فكان المرحوم عبد الرحمن نواوي وقد عاش إلى الستينات. وأما الرابع فكان حسن عتبي وهذا موجود وقد تولى وزارة الأوقاف في أوائل التسعينات ثم أحيل إلى التقاعد والخامس كان المرحوم السيد أحمد الجفري

وكان يسكن برباط السادة بسوق الليل مع والده وشقيقه السيد علي الذي كان إلى عهد قريب يدرس ويعلم بمدارس (جوهر) بأرض اتحاد الملايو ثم انقطع خبره فجأة. أما أخوه المرحوم السيد أحمد الجفري فقد عاش إلى عام ١٣٥٧هـ وقد زارني في عدن حينما كنت ناظرًا ومديرًا لمدرسة بازرعة الخيرية بعدن في عام ١٣٥٥هـ.

وكان السادس الشيخ سالم بازيد وهو من أقارب المرحوم عبد الله بازيد وهذا كان إلى عهد قريب على قيد الحياة وله محل تجاري بمحلة المعابدة.

والسابع كان الشيخ عبد الله بامحروس وهو حي يرزق وصاحب دكان بالطائف.

والثامن كان السيد عبد القادر رضوان المدني أصلًا والمكي إقامة، وهو حي يرزق وصاحب دكان بمكة المكرمة يبيع البز وسائر القطنيات من النسيج كما أنه من أسرة محافظة ولها ماض مجيد.

والتاسع كان السيد أمجد كتبي، حي يرزق وكان موظفًا بهيئة عين زبيدة ومن أسرة كريمة.

والعاشر المرحوم محمود مؤمنة، وكان حافظًا للقرآن الكريم وصاحب صوت حسن ومات في السبعينات ـ رحمه الله.

هؤلاء كانوا العشرة الأوائل من فصلنا المشار إليه، أما أنا صاحب هذه المذكرات (رحلة العمر) والشيخ حسن سندي الذي لا زال حيًا والذي كان أستاذًا بالمدرسة السعودية حينما كنت مديرًا لها في الستينات، وكذلك الشيخ

عبد الله كامل سندي والد الدكتور حسن كامل والشيخ صالح كامل صاحب شركة (دله) وغيرنا وغيرنا، فكنا في أواخر الفصل وأنا أبلدهم وأجمدهم فكرًا وأقلهم مواظبة وبضاعة، نظرًا لما كنت فيه من تشرد وتشتيت وجهاد وكفاح، وما إلى ذلك، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

المقررات والأساتذة

آخر الأجزاء من الدروس النحوية (لحفني ناصف) والأستاذ لهذه المادة كان المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه السناري مدير مدرسة الفلاح، أما الصرف فالمقرر (متن العزي) وأستاذه كان المرحوم الشيخ عيسى رواس، ثم التفسير وأستاذه المرحوم الشيخ محمد العربي التباني. وأما الحديث فكان كتاب (الترغيب والترهيب)، الجزء الأخير وأستاذه المرحوم الشيخ عمر حمدان، ثم البلاغة وأستاذها المرحوم الشيخ سالم شفي، والمقرر هو الجواهر النقية مع حاشية المرحوم الشيخ علي مالكي، ثم الفرائض والمقرر نصف متن الرحبية وأستاذ هذا المقرر كان المرحوم إبراهيم نوري، ثم الحساب ومسك الدفاتر والأستاذ لهاتين المادتين كان المرحوم السيد زيني كتبي، ثم الفقه، القسم الأخير من كتاب الإسقاطي، والأستاذ المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه. ثم التوحيد وأستاذه الشيخ حسن سناري وهو حي يرزق، والمقرر هو (العقيدة الطحاوية). ثم التاريخ والسيرة النبوية والمقرر كان نور اليقين ومحاضرات الخضري وأستاذ المادتين كان أستاذنا الكبير الشيخ عبد الوهاب آشي وهو حي يرزق أطال الله عمره ومد في حياته، ثم الإنشاد وكان الأستاذ هو المرحوم حامد كعكي.

إضافة مساحة لمدرسة الفلاح

كانت مدرسة الفلاح بمكة المكرمة تجمع أكثر من ألف طالب ولم يكن لهؤلاء الطلبة موضع يستريحون فيه في أوقات الفسحة ولا في وقت جمع الطلبة حينما يجتمعون عن بكرة أبيهم صباحًا وبعد الظهر قبل صعودهم إلى فصول الدراسة . وكذلك لم يكن هناك لهم مكان فسيح أيام الامتحانات التحريرية الكتابية ، لذلك طلبت إدارة المدرسة أن يسمح لها بمد أعمدة من النوافذ الخلفية للمدرسة والتي تطل على سفح جبل أبي قبيس . ثم تمد على الأعمدة جسرًا من الخشب فسمح لها أصحاب العقار بذلك فمدت العمد الغليظة الطويلة ونقر لها في النصف الأخير من ظهر جبل أبي قبيس حتى إذا ما ولجت صفُّوا عليها ألواحًا من الخشب العريض السميك ثم سمروا الألواح ، وركبوا أبوابًا لكل طابق من جهة السلم (المصعد) وما هي إلا مدة لا تتجاوز الشهر حتى تم هذا المتنزه الجميل الفسيح الذي كان يسع الآلاف من الطلبة . وكانت تقام فيه الحفلات والمحاضرات والامتحانات والفسح وأطلقوا عليه اسم (المتنزه) من أسماء الأضداد ؛ لأن المتنزه ما يشاهد فيه الماء والزرع والمنظر الجميل وهذا لا يرى فيه غير الأحجار والصخور وفضلات جبل أبي قبيس التي تسيل من مجاري البيوت القائمة على هذا الجبل الشامخ ، ولو أطلق عليه اسم (المتسع) لكان أفضل وأليق ولكن لا يطاع لقصير أمر ، وفيما بعد سأذكر طرفًا مما أجري في هذا المتسع من اختبارات وما ألقي فيه من خطب وما جرى فيه من احتفالات ـ إن شاء الله .

من ذكرياتي لهذا العام

أول حدث أفراح أراه في حياتي منذ جيء بي من البدو هو زفاف عمي المرحوم الشيخ جمال عبد المعطي مرداد ، إمام وخطيب المسجد الحرام ، إذ كان أحد أئمته وخطبائه كما كان إمامًا منتدبًا من قبل رئيس القضاة المرحوم الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ لجلالة الملك الراحل عبد العزيز آل سعود (يرحمه الله) مؤسس المملكة العربية السعودية ليؤم الملك وأنجاله أصحاب السمو لصلاة القيام في العام الذي صام فيه جلالته بمكة المكرمة ، وقد كنت أصلي خلفه في آخر الصف الأول كمستمع لأرد عليه الخطأ فيما لو غلط ؛ لأن الصلاة كانت بالقراءة المرتلة ومن أول سورة البقرة إلى نهاية المصحف ، مع العلم بأن كثيرين ممن كانوا خلفه يحفظون القرآن عن ظهر غيب .

لقد تزوج العم ـ رحمه الله ـ بحفيدة المرحوم السيد عباس المالكي والد المرحوم العلامة السيد علوي المالكي والد الدكتور محمد علوي المالكي الذي خلف والده في التدريس بالمسجد الحرام ، إذ كان المرحوم السيد علوي خالًا لحرم المرحوم عمي جمال ، وقد أنجب منها غلامًا سماه جميلًا مات في العاشرة من عمره وسيأتي فيما بعد سبب وفاته ، كما أنجب منها بنتًا لا زالت على قيد الحياة متزوجة بالأستاذ فؤاد البرجيسي ، ولها منه أولاد كثيرون بارك الله فيهم ، وكان العم حين الزفاف قد تجاوز الأربعين ، وكان زفافًا عظيمًا حضره العلماء والأئمة والخطباء وأساتذة المدارس والمدرسون بالمسجد الحرام . وقد أقيم الفرح بالقرارة في بيت المرحوم السيد موسى الفتياني خال العم والوالد ـ رحمهم الله جميعًا ـ وقد استعاروا بيوتًا كثيرة بجانب هذا البيت لكثرة المدعوين ، أذكر

منها بيت المنكابو، وبيت الفلمبان، وبيت جمال الشهير بحلاب الذرة، ثم بيت عمر القهوجي، ثم بيت السبحي، وغيرها من البيوت المجاورة. أما في الليل فقد صفت الكراسي في برحة المنكابو ونصبت الخيام للمباشرين كما نصب صيوان عظيم وزين الخيام للمباشرين كما نصب صيوان عظيم وزين بالقلائد والعقود، ونصبت برزة غفي وسط الميدان وأضيئت بالمصابيح (الأتاريك)؛ لأن الكهرباء لم تكن موجودة آنذاك، هذه الأتاريك منها ما يعلق ومنها ما يوضع على المناضد وقد تعاقدوا مع المتعهد أبو الريش والمتعهد صالح فقيه، غير ما أتحفهم به صديقهم المرحوم باقادر وكان عنده ثمانية مصابيح من الأتاريك المدندشة ذات الرشارش التي يسمع لها صوت موسيقي حينما يمشي بها حاملوها على رؤوسهم.

وذبح في ذلك الزفاف سبعون خروفًا كما حضر بعض أهل الأصوات الجميلة وفي مقدمتهم المرحوم حسن جاوة والمرحوم محمد لبني المطرب الشهير حيث صدحا بالأناشيد والأهازيج والأنغام على اختلاف أنواعها كما دقت طبول الفرح، وكان بعض الحاضرين من الفضوليين أو الطفيليين يتساءلون: لماذا يقام مثل هذا الفرح والعريس كبير السن وصاحب وظيفة دينية يشار إليها بالبنان ولقد سألت عماتي الكبار فقلن لي: لأنِ العروس صغيرة السن جدًا بالنسبة للعريس إذ لم تبلغ العشرين ومن عادة العروس صغيرة السن أن يقام لها كهذا الفرح في سائر الدنيا حتى ولو رفض العريس ذلك. والمعنى في قلب الشاعر كما يقولون، يعني الإجابة صحيحة عند أهل الفرح وبالذات العروس والعريس، ولقد استمر الفرح ثلاثة أيام وغصت البيوت المستعارة بالنساء والرجال والزينة والإضاءة والطرب، أدام الله أفراح المسلمين.

وهذا أول فرح استرعى نظري منذ مجيئي من البادية ، إذ العادة في البادية ، تقارب السن أولًا واقتصار الفرح لليلة واحدة فقط ، وعدم الإسراف والتبذير ، كما أن العادة في البادية (الرقص) وهو أحد أركان الزفاف ولكنه من جانب الرجال ويحلى ويطرز بالأهازيج الجميلة مع إطلاق الرصاص في الجو .

وفي البادية لا يتزوج كهل بصبية إلا إذا كان من ذوي الشرف أو الرئاسة أو ما إلى ذلك . وهذا كان في الأربعينات وما قبلها ، أما الآن فقد تغير الشكل وتطور العصر واختلفت الأجناس واختلط الحضر بالبدو والحابل بالنابل ، وهذا راجع إلى تقليد الحضارة الغربية التي أمرضت العقول وزلزلت القلوب وأفقرت الجيوب .

الحدث الثاني بالنسبة لعمي المرحوم ، فقد كان مهيبًا وقورًا له شخصية خاصة تميزه عن الآخرين وكان محبوبًا واجتماعيًا وكريمًا . وقد ميزه الله بسبب ما أنعم عليه من صوت رخيم جهوري يسمعه من كان في آخر الحرم بالإضافة إلى القراءة المرتلة والحفظ للمصحف حفظًا جيدًا ، الأمر الذي جعل قاضي القضاة ينتخبه إمامًا لصلاة القيام ليؤم جلالة المرحوم الملك عبد العزيز بالمسجد الحرام في العام الذي صام فيه جلالته بمكة .

الحدث الثالث : كان الناس المنعم عليهم بهدايا أو مرتبات من الحكومة يذهبون إلى الهبات والمعاشات سعيًا لتحصيلها على أقدامهم أو بإحدى وسائل المواصلات ، والعم كان على العكس ، إذ قد رأيت بعيني رأسي في آخر ليلة من ليالي العشر الأخيرة من رمضان رجلا ينادي من تحت دارنا بباب الدريبة بأعلى صوته (يا شيخ جمال) عدة مرات فأمر صهره المرحوم السيد عبد الرحمن المالكي أن يطل من النافذة ليعلم من المنادي فأطل ، فإذا هو شخصية كبيرة

فقال له : (تفضل) وكان الناس في الأربعينات والخمسينات وما قبل ذلك ، ينادون من تحت الدار أما الآن فقد بطل النداء واكتفى الناس بالأجراس والقرع على الأبواب وكل زمان له تقلباته وظروفه وسبحان المغير ولا يتغير .

هبط السيد الصهر للمنادي محاولا إقناعه بمرض العم وعدم استطاعته للنزول ، فما كان من الرجل الكريم إلا الصعود على آخر طابق حيث سلم وجلس وقدم للعم صرة عظيمة تحتوي على ملابس وصرة أخرى فيها نقود ثم قال للعم : هذه هدية من جلالة الملك عبد العزيز أمرني بإيصالها إلى يديك معالي الوزير . فحاول العم أن يفض إحدى الصرتين ليقدم شيئًا منها للرجل الكريم ولكن الرجل المتواضع أقسم أن لا يأخذ شيئًا من هذه الهبة الملكية الكريمة ولم يتناول سوى ما احتساه من شراب وقهوة وكان مثقفًا وشاعرًا شنف آذاننا بشيء من قصائده . وقد حاول العم للمرة الثانية أن يفض الصرر ولكنه عبثًا يحاول فقد أقسم الرجل أن لا تفض صرة من الصرتين إلا بعد مغادرته الدار ـ أكثر الله من أمثاله وأطال الله في عمره .

بعد خروج المبعوث الكريم[1] حُلت عقدة الصرة الكبيرة فإذا بها مشلح من الوبر (معطف من الصوف الناعم) وشال (ما يغطى به الرأس بحيث يتدلى طرفاه على الكتفين) وكان من الصوف الكشميري الممتاز وشاية (جبة واسعة

---

(١) للتاريخ نؤمل من فضيلة الأستاذ الرحالة العالمي السعودي محمد عبد الحميد مرداد أن يتفضل بذكر اسم هذا المبعوث النبيل الجليل ، أسوة بما أفضل به من حل عقدة وسر الصرتين الثمينتين المهداتين من جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ للشيخ جمال عبد المعطي مرداد ـ رحمه الله .

مطرزة الجوانب ومبطنة الحواشي) وتسمى عند أهل نجد (دقلة) وكلها كلمات عامية، ثم حلت الصرة الثانية فكان فيها ثلاثون جنيهًا ذهبًا.

العام السابع والأربعون

ثم دخل العام السابع والأربعون وقد نجحت ولله الحمد نجاحًا ضعيفًا بمجموع قليل، وكان ترتيبي السادس عشر وكان الأول هو المرحوم عبد الله بازيد، أما أحمد الرشيدي فقد وافاه الأجل في العشرين من ذي الحجة من العام المنصرم، وكان قد أصابته الحمى الشوكية، ثم برئ منها ثم أصابته حمى الربع وهزل جسمه ثم التهبت رئته وفارق الحياة وكان الطب آنذاك لم يصل إلى ما وصل إليه الآن ولكن الأجل لا يرد ـ رحمه الله ـ وكان في العقد الثاني من عمره ولم يتجاوز السادسة عشرة.

وكان الثاني المرحوم عبد الرحمن نواوي والثالث حسن كتبي ... وهكذا.

العلوم

أمّا السنة السابعة فكانت عميقة وثقيلة وجديدة بالنسبة للمقررات الماضية التي مرت في السنة السادسة وما قبلها، وكانوا يطلقون عليها (السنة الأولى العالية) إذ لم تكن التسميات والمسميات قد تطورت تطورها في العصر الحاضر، حتى كلمة (ثانوي) لم تسمع في ذلك الوقت إلا بعد فتح المدارس العديدة وتقسيم المقررات والعلوم على مدار عقول طلبة جيل الخمسينات وما بعدها، وحتى بعثت البعثات الخارجية وتطور التعليم وتغيرت المناهج القديمة، فاستوردنا كلمة (إعدادي) وكلمة (ثانوي) وكلمة (منتسب) وما شاكل ذلك.

هذه السنة الأولى العالية أو السابعة كانت من أصعب ما مر بنا ، فلقد تغير المقرر من خفيف سهل إلى ثقيل صعب ومن نثر إلى شعر ، ومن ١٥مادة إلى ٢٠ مادة وأول مفاجأة لنا كانت في اللغة العربية إذ كنا نحفظ متن الدروس النحوية ، المجرد من الإيضاحات والتمارين والأمثلة ، يعني بعبارة أدق ، جمل بسيطة بين قوسين . وكان اللوح أو المقرر الذي نكلف بتسميعه لأستاذ المادة لا يتعدى السطرين وإذا بنا نفاجأ بألفية ابن مالك ، الثلث الأول منها حفظًا مع شرح ابن عقيل . وكان الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه السناري مدير الفلاح يعطينا سبعة أبيات من المنظومة ويشترط علينا حفظها كالماء ومن غلط غلطة واحدة يعاقب بجلد على الأرجل وفي الفلكة .

ثم جاء علم الفرائض ، شعرًا كذلك وهو متن الرحبية ، ثم البلاغة ، شعرًا كذلك وهو متن الجوهر المكنون اختصار متن التلخيص ، ثم أصول التفسير منظومة متن التيسير ثم نخبة الفكر في أصول الحديث ، ثم الفقه ، منظومة الهاملي الأحسائي وهي أكثر من ثلاثة آلاف بيت . ثم الحساب وقد تغير نهائيًا وحل محله علم الجبر واستخراج المجهول والرمز بالحروف وما شاكل ذلك ، ثم جاءونا باللغة الإنكليزية وأتوا بأستاذ من الهند لا يعرف اللغة العربية وقد قاسينا بسبب ذلك آلامًا وتحملنا ما لا نطيق . وكانت النتيجة من جراء ذلك أن (خرجنا من المولد بلا حمص) كما هو المثل العامي .

والخلاصة أننا دخلنا في بحر ليس له قرار ولا نهاية وأصبحت المقررات الجديدة تبدو لنا طانة أو طمطانية أعجم ، وهكذا دخلنا المعركة الجديدة التي تحتاج إلى عدة وجهاز وفراغ للمذاكرة والحفظ فكيف بمثلي الذي لا يجد الوقت الكافي للنوم ولا يعرف الراحة ولا الاستقرار ؟

كانت الحصص في اليوم لا تزيد على ست ، وكل حصة لها مقرر في الحفظ أزيد من نصف صحيفة ، حتى اللغة الإنجليزية تحتاج إلى حفظ وقضاء وقت أكثر من ساعة على الأقل كما أضافوا علينا مادة جديدة تدعى (المعلومات المدنية) وكان أستاذها المرحوم السيد شيخ حمدي ، وهي تبحث عن القانون والدستور ومجالس الشيوخ والأمة وما إلى ذلك .

رفع الأثقال ونطح الجبال

إن معالجة هذه المقررات وحفظها غيبًا أشبه ما يكون برفع الأثقال ونطح الجبال والصخر ، والغوص في المحيط لمن لا يعرف العوم ، لو جمعنا المواد الست في اليوم وأعني بذلك ما نحفظه من كل مادة ، لكان مجموع صحائفه أكثر من الثلاث ويا هل ترى ، في كم ساعة يستطيع الطالب حفظ هذه الصحائف إذا خرج من المدرسة بعد صلاة العصر بساعة ؟ وخاصة إذا كان بيته بعيدًا ، بالطبع سيكون وصوله إلى داره قبيل المغرب ، متى يخصص وقتًا لهذا الحفظ الذي يتطلب ثلاث ساعات أو أكثر ومتى يتعشى ، وإذا كان مثلي عنده وظائف بيتية كمباشرة الضيوف والقيام ببعض الخدمات والواجبات والزيارات ومقاضي السوق ولأكثر من بيت واحد .

حتى المسجل

أو ما يسمونه (الريكوردر) الذي تسجل عليه القراءة والقصائد ، لو أثبت بالشريط ووضعته في المسجل وشبكته في الفيشة الكهربائية وقرأت عليه محفوظات المقررات الستة التي تزيد على الصحائف الثلاث ، لاحتجت إلى

ساعتين على الأقل وبخاصة مثل هذه المقررات الصعبة كالألفية وأبياتها المشهورة بالثقل وعسر النطق بها إلا بعد جهد ومشقة وحتى تقرأ بالنظر عشرات المرات ولو كانت أبياتها على نمط أول بيت منها كقوله :

قال محمد هو ابن مالك   أحمد ربي الله خير مالك

أو مثل :

فُعولة فُعالة لفعلا   كَسَهُل الأمر وزيد جزلا

لكنها أو معظمها كقوله :

فُعَيعل مع فُعَيعل لِما   فاق كجعل درهم دريهما

أو كقوله :

وقِرْنَ في اقررن وقَرنّ نُقِلا

وهكذا الحال في (الرحبية) و(الجوهر المكنون) و(منظومة أصول التفسير) و(منظومة الفقه) للهاملي بالإضافة إلى المحفوظات الأدبية كمثل بعض القطع من المعلقات وأجزاء من الشعر الإسلامي للعصور الثلاثة. وليت الأمر كان قاصرًا على التسميع فقط بل هناك الواجبات الأخرى كمثل مسك الدفاتر وما يتطلب من وقت والجبر والواجب الانجليزي.

أضف إلى ذلك العقاب البدني في حالة الغلط والعقاب الوقتي كمثل الحبس بعد العصر بدهليز المدرسة ساعة مع الوقوف وإدارة الوجه على الحائط والاهتزاز المتواصل مع قراءة الواجب الذي قصرت فيه ولو استرحت قليلا للعبت عصا المفتش (بنونة) في ظهر المتلاعب، أضف إلى ذلك أنك إذا ذهبت إلى البيت متأخرًا عن الميعاد المقرر، وجدت نصيبك من الضرب والتحقيقات

والتدقيقات حتى إننا كنا نضطر إلى أخذ ورقة من الأستاذ المعاقب لولي الأمر بكذا وكذا .

هذه كلها عثرات ومعوقات كانت تقف في طريقنا حتى لمن يجد الوقت الكافي والرفاهية والدلال والمكافآت والتشجيع والعون من البيت وعدم الاهتمام أو التكليف بأي ما من شأنه يجعلك متقاعسًا أو متكاسلا ، ومع ذلك ومع ما أنا فيه من صعوبات ومشاق وتكاليف ومسئوليات ألقيت بدلوي في الدلاء، وصبرت على البأساء والضراء وتجلدت وكافحت وصبرت على العقاب وكنت أتخيل أن كل تلميذ مثلي يقاسي ما أقاسيه ويتحمل ما أتحمله وأقول في ضميري : حقيقة خلق الله الإنسان في كبد .

القمر صديقي

وكنت لما أذهب إلى البيت وأضع حقائب الكتب ، أقوم بتسديد الواجبات البيتية المطلوبة مني أولًا وغصبًا عني ، ثم أرجع قبيل العشاء وآكل ما قسمه الله لي ثم أصلي العشاء وأستأنف سداد الواجبات من مقابلة ضيوف أو طلبات من الأسواق ولا تنتهي هذه الشدائد والتكاليف إلا في وقت متأخر من الليل ، حيث آوي إلى فراشي وأتظاهر بالنوم وأنتظر حتى ينام جميع من بالدار ، ثم أقبض محفظتي وكتبي ثم أصعد خفية إلى السطح بحيث لا يحس بي أحد ، وهناك القمر الصديق والمنير حيث افتح الكتب وأحفظ ما أقدر عليه من واجبات ثم أنزل إلى فراشي وأنام، وبعد صلاة الصبح أواصل الحفظ إلى شروق الشمس وهو أبرك وقت بالنسبة لي .

الحرف الكبير

وبالطبع نور القمر لا يكفي لرؤية الحروف المصغرة، لذلك أكتب ما أريد حفظه في نور القمر، بالحروف المكبرة من النهار حتى لا أتكلف النظر والحملقة في النور الخافت، إذ لا كهرباء آنذاك ولا أنوار محجوبة من الهواء إلا الأتاريك(١) بعض الشيء ومثلي لا يتيسر له ذلك في مثل ذلك الوقت والحمد لله على كل حال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي غير ليالي القمر، كنت آخذ مسرجة (بكسر الميم) مع الكبريت وأصعد إلى السطح والويل لي إذا كان الريح قد أعلن حربه علي إذ تمضي أوقات طويلة لمعالجة الإشعال، وأما في الشتاء فأصحب معه دثارًا أضعه على رأسي وصدري وظهري وأمري إلى الله، هكذا كان أحوال البؤساء من طلاب العلم في ذلك الزمان، أما اليوم فلا محفوظات ولا جزاءات ولا أي شيء يقلق راحة الطالب.

تخفيف من الله

بعد مضي شهرين من السنة جاء إلى عمي رجل يماني من طلبة العلم ومعه ابنه وكان يافعًا، وقال له: خذ هذا الولد يحفظ عندك القرآن ويخدمك

---

(١) وردت صيغة الأتاريك في هذه الرحلة المباركة وردت مرارًا فلزم شرح معناها إذ هي مصطلح حجازي عامي حديث، الأتاريك هي مصابيح مستديرة الكيان تتكون من ثلاثة أجزاء: الجزء الأسفل وفيه يوضع الغاز السائل.. والجزء الأعلى وفيه توضع فتيلة من نسيج صناعي أبيض هفهاف.. والجزء الثالث غطاء الإتريك إذا أريد إضاءة الإتريك أشعل النسيج وأوصل الغاز.. فيأتي عنه نور ساطع.

ويكون عندك بالدار كمثل ابنك ، وأنا مسافر إلى اليمن ولا أريد راتبًا مقررًا أبدًا سوى التعليم إذا وفقك الله . ثم خرج ولم يسمع عنه خبر إلى يومنا هذا .

رحب العم بهذا الخادم وكان صالحًا أديبًا على الرغم من صغر سنه ، فتباشر به أهل الدار ثم باشر الخدمة وخفف عني أشياء كنت أهتم بها وفي مقدمتها خبز ألواح العيش ، وطلبات السوق ومباشرة الضيوف ، فتنفست الصعداء بعض الشيء وقلت : لا شك أن الله بعث هذا ليحل عقدة من عقدي .

صرت أذاكر وأحفظ وانشرح صدري للمطالعة ولكن كانت تنقصني المراجع وعندي استطاعة لشراء الكتب من الأمهات وعندي دراهم مخبوءة في أسقف الطيارم[1] التي كنت محتفظًا بها للشدائد والنوائب . ولكنني لم أكن أستطيع إبرازها خوفًا من المصادرة والحرمان ، ولكن نفسي تحدثني عن مغامرة أكبر من مغامرة الهرب إلى الزيماء ، التي مر ذكرها ، وصرت أفكر في الحصول على مفاتيح الحرية والانطلاقة بأي ثمن ، فكنت أتحين الفرص وأسأل الله أن يمن بفرج أعظم من وصول الخادم ، حتى أعد نفسي تلميذًا وطالب علم كسائر التلاميذ والطلاب .

فرج آخر

في هذا العام وفي شهر رجب بالتحديد وصل والدي المرحوم إلى الوطن

---

(١) الطيارم : جمع طيرمة وفي اللهجة النجدية (طرمة) وهي في اللهجة الحجازية بناء مصغر فوق سطح المنزل يوضع فيه فراش أهل البيت الذي ينامون ليلا عليه في الصيف القائظ وفي اللهجة النجدية كوة علوية يطل منه الإنسان على من يدق الباب أو ينادي من البيت وقد وردت « الطرمة » في كتب الدب القديمة وكتبت عنها في كتاب « رحلة في كتاب التراث » .

الغالي ، بعد رحلة طويلة استغرقت أكثر من ثلاث سنين ما بين الهند وسيلان والملايو وجزر الهند الشرقية وبورما والهند الصينية الفرنسية وترتاني وبيما وسيرام وجزر ملكس بالقرب من أستراليا ، وكان يرافقه عدد كبير من أهل هذه الجزر على ظهر الباخرة (مكسر) أنزلهم عند المرحوم الشيخ إسماعيل مندورة شيخ الجاوة الشهير ، وقد جاء بخير كثير وهدايا وتحف ونقود كثيرة وأبدال فرقها على الأقربين والأصدقاء وذوي الحاجة وقد دعاه عدد كبير من أصدقائه وأقاربه وفي مقدمتهم المرحوم عمي جمال ؛ إذ عمل له وليمة عظيمة ويتوسط المائدة العظيمة طبقان عظيمان يحتويان على خروفين حنيذين ، ثم تعاقب الأقربون والأصدقاء على دعوته من الجمعة إلى الجمعة حتى استمرت إلى ما قبيل أيام الحج ، وكان سعر الخروف في هذا العام أقل من الريالين بقليل والمراد بالخروف : أفخر ما يقدم في الولائم في ذلك الوقت ، أما بالنسبة لليوم فلا يقل سعر مثل ذلك الخروف عن سبعمائة ريال سعودي فسبحان من بيده مقاليد كل شيء .

المؤلفة قلوبهم

وكان يزور الوالد بعض الحجاج من جزر الملوك الذين قدموا معه على الباخرة (مكسر) المشار إليها آنفًا ، ولونهم أقرب إلى السواد ويجعلون في أيديهم أساور من خشب (اليسر) الذي تعمل منه المسابح والعقود ، لغتهم عجيبة لا يفهمها أحد حتى المطوف (شيخ الجاوة) لا يفهم كلامهم لكنهم يتكلمون باللغة الماليزية التي يفهمها الجميع ولكن على قدر الضرورة وللأخذ والرد من غير تعمق وكان الوالد يناديهم بأسماء تدعو إلى الغرابة والتعجب

كمثل (بلال) و(ياسر) و(سلمان) وما شابه ذلك وكم كنت أتمنى أن أسأله بخصوصهم لكني لا أستطيع طبقًا للتقاليد والعادات وما تربيتنا عليه حسب ظروف ذلك الجيل، لكن الذي كشف الحقيقة المرحوم الشيخ إسماعيل مندورة حينما جاءه ذات يوم ليقول له: إن هؤلاء لم يدفعوا المقرر عليهم، وكان المقرر في ذلك الوقت يقارب الأربعين جنيهًا ذهبًا لكل حاج، فقال له الوالد: هؤلاء من المؤلفة قلوبهم ويجب إكرامهم والإغداق عليهم، ثم أردف قائلا: إنهم كانوا عبيدًا للحاج صالح كركاريت وأمرته أن يعتقهم ليعتقه الله من النار، فأجاب طلبي. وكانوا قد دخلوا في الإسلام قبل سفر الباخرة بشهر واحد كما أنهم أسلموا على يدي مع من دخلوا في الإسلام في هذا العام وأنا الذي سميتهم.

حصلت مشاجرة بين المرحومين بشأن هؤلاء المؤلفة قلوبهم حسب سماعي، وأخيرًا خرج الوالد مع الشيخ إسماعيل مندورة حيث ذهبا إليهم لمحاولة إقناعهم بدفع الرسوم المفروضة، وسأكتب عن هؤلاء بالتفصيل - إن شاء الله - عندما أصل إلى ذكرهم في المرحلة الثانية؛ لأني قد سجلت الكثير عن سجاياهم وعاداتهم وطبيعة بلادهم ولا شك أنها من العجائب فصبرًا.

الموسم في هذا العام

كان من أعظم مواسم الأربعينات، وكان عدد الحجاج يربو على المليون تقريبًا وبخاصة حجاج جزر الهند الشرقية (اندونيسيا حاليًا) فقد زاد عددهم على سبعين ألفًا وكانوا أغنياء وكان أهل الحرمين يستفيدون منهم أكثر من غيرهم من الحجاج؛ لأنهم إذ ذاك يمكثون بالحجاز بضعة أشهر تقريبًا، وكانت

آخر باخرة تغادر جدة من الحجاج الجاويين في جمادى الأولى ، وغالبًا ما تناطح الباخرة الأخيرة بالباخرة القادمة من تلك البلاد المحملة بأول فوج من جاوة ، وكان لهم الحرية المطلقة في حمل ما يلزمهم من نقود ومؤونة وليسوا مقيدين بعملة صعبة ولا سهلة ، بل كانت المسكوكات الذهبية والفضية والورقية لسائر الدول متقاربة في الأسعار ، وأغلى المسكوكات كانت العملة الجاوية ، وخاصة في أسواقنا المحلية ، إذ كان سعر المائة من الربابي الجاوية يساوي ثمانية جنيهات انكليزية ذهبًا خالصًا ، والمائة من الهندية يساوي ستة جنيهات وكان الناس لا يعرفون الدولار الأمريكي ولا يتعاملون به ، حتى الصيارفة لا يصرفونه ؛ لأن جميع الحجاج ليس لهم صلة بأمريكا في ذلك الوقت ، أما الجنيه الاسترليني فلا يأتي به سوى أهل كيب تون وأهل نيجيريا ، وكان الجنيه المصري أغلى منه سعرًا بنحو ١٥٪ .

لقد ربح الناس في هذا العام من الموسم أعظم مما ربحوا في موسم العام الثاني والأربعين آخر أيام الحسين ، وذلك على الرغم من زيادة الحجاج فيه ، وإني أعلم علم اليقين أن بعض بائعي الكراث والليمون الحامض ويدعى في مكة (بنزهير) بفتح الباء وتسكين النون وفتح الزاي ثم الهاء بين الفتح والكسر عن طريق الإمالة ثم الياء والراء أفيد أنواع الليمون ، بعض هؤلاء الباعة ربح مئات الجنيهات من نوع الأصفر الرنان ومن هؤلاء رجل من سكان المعابدة أسود اللون يتمنطق بالنسع ويفترش خيشًا (الجوت) وهي الجوالق المنسوجة من فضلات الخيوط الرديئة ، ثم ينشر عليه بضاعته المفضلة لديه وهي الليمون والكراث ، وأحيانًا الرمان المجفف .

لقد درع هذا الرجل مائة جنيه ذهبًا أمانة عند العم ـ رحمه الله ـ في يوم

التروية فقال له العم : هذا كل ما بعت به في أيام الموسم ؟ فقال له : (قل خيرًا يا رجل) هذه جملة يقولها الباديون في المناسبات ثم قال له : هذا ما ربحته في الأيام الثمانية من شهر ذي الحجة ، وهذه أمانة إلى حين النزول من الحج وإني لأطمع أن يرزقني الله بأكثر من هذا المبلغ في أيام عرفة ومنى وعندي خير كثير من أول شهر رجب حتى الآن ، وكان الناس في ذلك الوقت لا يحفظون نقودهم في المصارف وتدعى اليوم بالبنوك ، بل كان المصرف هو الرجل الثقة المعروف عنه المحافظة والسمعة الطيبة ومن تظهر عليه سِيْمَا الصلاح وكان الناس في ذلك الوقت يعتبرون الطلوع إلى الحج سفرًا وبعضهم يكتب وصيته إذا أراد الحج نظرًا للمشقة والمسافة التي يقطعها البعير من مكة إلى عرفة ثم إلى مكة ، وكذلك إذا أراد السفر إلى جدة أو إلى الطائف أو إلى المدينة ؛ لأن معظم الرحلات كانت على ظهور الإبل لقلة العربات النفطية آنذاك . أما اليوم فانعدمت الثقة بين الناس ، وأصبح الأخ لا يثق بأخيه فضلًا عن الغريب ، وهذا الرجل الذي أشرت إليه هو من أقارب المرحوم المقرئ الشهير الشيخ محمد عبيد إن لم يكن أحد إخوته ـ رحمهم الله جميعًا .

المرحوم سالم شربة

ومن جملة الباعة الذين يربحون أرباحًا طائلة من غير معاناة ولا رأس مال ذي بال ، كان المرحوم سالم شربة (بضم الشين وتسكين الراء وفتح الباء ثم التاء المربوطة) كان من موالي آل الفتيانة ومن عتقائهم وأحد المؤذنين بالمسجد الحرام وصاحب صوت جهوري رخيم . كان يسكن مع سيدته خديجة شربة بجوار دارنا بباب الدريبة والتي أشرت إلى نبذة من تاريخها في أول مذكراتي

هذه والتي هي من أقارب آل الفتيانة مشايخ الجاويين الذين يسكنون بمحلة الباب .

كان للعم سالم مخزن صغير بالدار وله نافذة على الرحبة (السقيفة التي توصل إلى المسجد الحرام) . كان يضع الكراسي ويصفها أمام باب الدار ونافذة المخزن . وكان يغلي الحليب الممزوج بدقيق الأرز والسكر وماء الورد والماء القراح أضعاف الكمية المطروحة في القدر . ثم يصف الزبادي (الأقداح أو الأكواب المصنوعة من الفخار أو الزجاج) وينادي بصوته الجهوري : سوسو سوسو ثم يردفها بقوله : سُوسُو بضم السين بعدها واو المد ثم سين مضمومة أي : لبن . وكلمة (بنس) بفتح الباء الثقيلة ذات النقط الثلاث المشهورة في سائر اللغات الأعجمية ، ثم نون مفتوحة وسين ، أي حار . ثم يصف بعض الأكواب المملوءة بالساقودانة والألماسية المصبوغة وينادي عليها : « أقر أقر بفتح الهمزة والقاف الخضرمية ثم الراء الساكنة وترجمتها باللغة الماليزية : (ألماسية) وكلمة ساقو ـ بفتح السين بعدها ألف المد ثم القاف الحضرمية والواو وترجمتها (ساقودانة) بعامية مكة ويطبخونها بالحليب والسكر ولها نكهة عجيبة وخاصة في ليالي رمضان » .

كان الحجاج الجاويون يخرجون من باب الدريبة ولهم دوي كدوي النحل وخاصة بعد صلاة الفجر فيناطحهم العم سالم بصوته الجميل وأنغامه الشجية فيتزاحمون على شراء هذه المشروبات حتى طلوع الشمس حيث تنضب القدور ولم يبق لدى العم سالم قطرة من تلك الحلل فينقلب ويتحول العم سالم إلى صيرفي ما بين طلوع الشمس إلى الظهر ريثما تُحضَّرُ المهلبيات وتلك القدور والأكواب وهكذا إلى الساعة الثانية بعد العشاء ، وغلته تحصى في كل ٢٤

ساعة نحو ثلاثمائة ريال سعودي ، منها مائة ريال مصروفات للمشتروات والتكاليف وأجور الخدم والباقي مكاسب وأرباح حسب أخباره وكان إذا انتهى من الموسم يتمتع بهذه الأرباح ويزور المدينة مع الركب وينشد ويصدح بصوته الغريد في الركب وربما تكررت زيارته في السنة عدة مرات وكان يدعونا ويدعو الكثير من أصدقائه إلى الشهداء بمكة المكرمة بدار آل الفتيانة مواليه الذين علموه ، فكان يصنع الطعام الشهي ويطهوه بيده ويقدم للضيوف الذين يمكثون أيامًا وأيامًا على حسابه وكرمه الفياض وكان طاهيًا يطهو أزكى الطعام لكن لخاصته فقط ، وإذا كان هو الداعي أو القيِّم أما أن يدعى إلى ولائم خارج نطاقه ؛ ليطهو تلقاء الأجرة فلم يكن يقبل مهما دُفع له . وكان إذا سئل عن ذلك يقول : هذا مزاج وليس حرفة كذلك الألحان والأنغام ، إذا قال له أي فرد : أسمعنا . يغضب وربما حقد على الطالب . لكن إذا تركت حبله على الغارب أسمعك العجب العجاب . وكان يقول في ذلك : هذا مزاج يطغى على النفس فتجود بما عندها . والمزاج له ظروفه وأوقاته .

مات العم سالم في العام الذي كان يعد فيه العدة للزواج في ريعان شبابه ومن غير مرض وكان قويًا ضخم الجسم ، من غير تكرش ولا تهدل . وكان عاقلا ومستشارًا لكثير من الجيران والأصدقاء ؛ لأنه كان ذا رأي صائب وفكر ثاقب وكان حسن الهندام يلبس الملابس الفاخرة إذ كان صورة مصغرة لمولاته وسيدته المرحومة السيد خديجة شربة التي كانت من مشاهير نساء عصرها فهي التي علمته الحكمة والسياسة وملاطفة الناس ، وقد أشرت إليها في أول المذكرات بما فيه الكفاية ، والعم سالم كان مؤذنًا بمنارة الحميدية أشهر المآذن وصوته يهز القلوب ويسبي العقول وحديثه شائق له حلاوة وطلاوة .

وكان من الحجاج الجاوين وشيخه الشيخ عبد الرحمن عبد الشكور سربانيه من مشاهير الجاوه، هذا المحتال جاء في ذلك العام ونزل عند مطوف (شيخ جاوه) المشار إليه وجاء إلى العم جمال واندمج مع التلاميذ الذين يصححون ويجددون القرآن على يد العم - رحمه الله - وكان يرتدي أجمل الملابس من سمرندات وأحاريم سليني وإبريسمي وفلاين فركتوس أرقى الأنواع. وكل أسبوع كان يرتدي أنواعًا وأشكالًا من المنسوجات الجاوية الشهيرة. وكان متختمًا بخاتمين من الذهب المفصص بالأحجار الكريمة وأزارير من الذهب الإنكليزي الخالص وأسنانه من الذهب.

كان يأتي بزوجته لتصحح عند العمات سور الصلاة. وهي كذلك في الزي والشكل واللبس إذ كانت ترتدي الباتك أحسن أنواع الفوط التي تصنع ببلدة فكالونغ بوسط جاوة وكان يعطي أكثر من غيره من الحجاج بزيادة الضعف وفي كل أسبوع، كما أعطى العم بدلين ليحج هو وصهره بهما وزوجته دفعت للعمات مبالغ وأبدالا وهدايا حتى قال العم لصهره يومًا: «هذا الرجل أكرم من رأيت من حجاج إندونيسيا وليس الوزراء مثله». ثم جلس يستعرض الشخصيات البارزة من سلاطين ووزراء ممن تتلمذوا على يد العم في المواسم فكان الفضل والذكر لهذا الحاج غريب الأطوار الذي سحر العم بفعاله الكريمة منظرًا لا مخبرًا حتى سلبه مبلغًا كبيرًا بأبسط الأساليب وأغرب الألاعيب.

هذا الرجل المحتال

ادعى أنه من أهل سفنجنغ وهي بلدة قريبة من سُربابة العاصمة الثانية بعد جاكرتا وادعى أنه من تجار الذهب والأحجار الكريمة، وأنه صاحب عقار وأراض زراعية، وبالطبع منظره المزيف يخيل إليك أنه صادق في كل ما يدعيه.

حقًا إن زيه يدلك على أن هذا الرجل ليس بمحتال ولا نصاب ولا كذاب، ولكن الظروف كشفته على حقيقته التي ربي عليها وصنعته التي يكسب منها.

كان الناس في الثلاثينات والأربعينات لا يدرون شيئًا عن النصب ولا عن الاحتيال وخاصة في بلد الخير والبركة بلد الله الحرام. إذ كان أهله أصحاب نيات سليمة لا يتصورون ولا يفكرون يومًا أن الحجاج الذين يفدون إلى بلد الله الأمين يرتكبون مثل هذه العيوب وهذه النقائص أو الفواحش وبخاصة حجاج جاوة، إذ من المستبعد أن يتصور المرء أن جاويًا واحدا يمكن أن يقوم بمثل هذه الحيل والمغامرات السافلة، لأن هذا الجنس صاحب خير وثروة وزراعة وصناعة وتجارة، وفي الوقت نفسه أشبه بالبدائي فلا يمكن أن يتصور مثل هذه الأساليب لأنه في غنى عنها وعلاوة على ذلك كان الاستعمار مسيطرًا ومهيمنًا عليه فلا مدارس ولا ثقافة ولا ديانة ولا حرية اللهم إلا بعض النادر من الأثرياء منهم من يبعث بولده إلى هولندا للتعليم، لعدم وجود مدارس راقية في ذلك الوقت.

كان مثل هذا الأسلوب القبيح موجودًا في أوروبا وبعض البلدان الأسيوية ولكن بشكل بسيط ومن غير انتشار أو ذيوع.

وأما في البلاد العربية فلم يتفش هذا الداء إلا قبيل الحرب العالمية الثانية

عندما اشتدت الأزمة وقلت المواسم وتفشى الفقر ثم جاءت الحرب الثانية بويلاتها وأصبح الناس يتلهفون على المادة بكل الطرق وشتى الأساليب والعياذ بالله .

قال لي قائل في (استوكهولم) عاصمة بلاد السويد في أقصى الشمال بأوروبا

وهو من أصل فلسطيني وصاحب منجرة ببلدة كوتنق ببرج بالسويد وكان الاجتماع به في حديقة تيفولي المنسقة على غرار الحديقة الشهيرة بروما والعاصمة السويدية .

وكان لقاؤنا على سبيل المصادفة ، لقد أخبرني انه مولود بالسويد ويملك ثروة من قطع الأخشاب فقط تقدر بالملايين ثم قال : وإني أعد نفسي فقيرًا بالنسبة لما يملكه أهل هذه البلاد من الثروة ثم قال : مع هذا الثراء والغنى الفاحش ، يفد إلى هذه البلاد عدد من المحتالين والنصابين والنشالين ويفتكون بالسُّذج من الناس ثم أردف قائلًا : كم جلبت الحضارة والمدنية والتقليد والأنانية من مصايب على العالم ولولا ذلك لما كان هناك احتيال ولا نصب .

أقول : عندما زرت البلاد الإسكيمية ، وقبائل المروك بغينيا الجديدة ، وقبائل الفرح بأفغانستان ، وبعض جزر الملوك بالإضافة إلى بعض قبائل الصين والفيتناميين ، لم أجد اسمًا للاحتيال ولا للنصب ولا التحايل ولا المماطلة أو التسويف على الرغم من بُداءتهم وجهلهم وبساطتهم ، وأما في جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) فلا يوجد شيء من هذه الوسائل الدنيئة مطلقًا إلا النادر الشاذ وخاصة في الأربعينات وما قبلها ، ولذلك أستغرب وجود رجل محتال نصاب في تلك الحقبة من الزمن .

لقد جاء هذا الحاج في آخر باخرة (سفينة بخارية) من سفن الحجاج الجاويين وسافر في أول باخرة رجعت إلى (جاوة) حتى لا ينكشف بسرعة وكانت الطائرات آنذاك لا تصل إلى البلاد السعودية حاملة أفواج الحجاج لقلتها وارتفاع أسعار التذاكر بها .

وكانت جاوة في ذلك الوقت جنة خضراء وكان يسميها إخواننا العرب المقيمون بها في ذلك الوقت (بقرة الذهب) من كثرة ما تدر عليهم من الأموال والنفائس .

هذا الحاج اسمه (كردي) ولا غرابة في الاسم ، فقد اعتاد سكان هذه الجزر منذ حقبة من الزمن مثل هذه الأسماء ، والأغرب من ذلك أن الذين يسمونهم بهذه الأسماء هم علماء مكة والمدينة في ذلك الوقت على حد زعمهم ، فهم يسمون كردي وبخاري وعراقي مكي ومدني وهدري ونوري وغير ذلك وكل واحد من هؤلاء الحجاج يحمل أكثر من اسم كما مر في هذه المذكرات ، هذا الحاج سُمِّي بكردي في مكة وكان اسمه الأول (يُولوُ) .

إن هذا الرجل خلب لب العم والعائلة وزان في نظر الجميع بما أبداه من كرم واحترام وأخلاق فاضلة هو وعائلته ، وفجأة انتقل وتغير إذ جاء ليلا قبيل الحج بأيام يبكي ومعه صرة ثقيلة محزومة بالسلك . وكان ذلك بعد صلاة العشاء فقال له العم : ما يبكيك ؟ فقال : سيدي قد سُرِقتُ بعد صلاة الصبح وفي المسجد الحرام أخرجت كمري (حزامي أو همياني) وجعلته تحت رأسي وعندما صحوت لم أجد الهميان وكان به بضعة آلاف من الربابي بما يقارب الخمسمائة جنيه يا سيدي كيف أقضي الأيام الباقية ؟ وكيف أشتري الهدايا ؟ أنا لأول مرة أحج واحتاج إلى هدايا كثيرة ومشتريات ومصاريف كثيرة ، ثم

يبكي ويلطم على خديه كمثل ما تفعل النائحة ، حتى أبكانا جميعًا وقام العم بتهدئته وجعل يربت على كتفيه ويطمئنه ويدخل عليه السرور والهدوء حتى سكن روعه المفتعل وهياجه المرتجل وكان الشاي قد حضر فاحتسى كوبًا ، ثم قال له العم : ما هذه الصرة يا فلان؟ فقال : يا سيدي هذه مصوغات ومجوهرات زوجتي وهذه نقودي الباقية ثم فك الصرة فظهر فيها ورق بنكنوت محزوم بالخيوط وظهر فيها الذهب المصوغ أشكالا وألوانًا ، ثم قال للعم : هذه صرتي تبقى عندك إلى حين سفري من هذه البلاد ، لكنني آتي إليكم لآخذ منها ما يلزمني في كل بضعة أيام فقال له العم : هل نعد الورق والمجوهرات وكانت من الأساور المفصص بالأحجار الكريمة ومن الوشاحات والعقود والخواتم فقال الحاج : أستغفر الله ، أنت أعظم من الوالد والأخ وثقتي فيكم عظيمة ثم خرج .

اليوم الرابع من ذي الحجة

وفي اليوم الرابع من ذي الحجة جاء بصحبة زوجته وطلب من العم الصرة فأعطاه إياها فأخرج رزمة من الأنواط ، ثم أعادها وجاء أيضًا في يوم الثامن وأخذ منا ما تبقى من الأنواط ولم يبق إلا الذهب ثم قال : سأرجع إليكم بعد الحج لأبيع الذهب بنظركم لأقضي بقية المشتريات والهدايا .

بعد الحج

وفي يوم العشرين جاء بصحبة زوجته وطلب من العم الصرة فصارت زوجته تبكي فقال العم : لم وما الذي يبكيها يا فلان ؟ فقال : يا سيدي فلوسنا

نفدت ، ونحن الآن في حاجة إلى نقود لشراء كذا وكذا وللمصرف أيضًا ، فقال له العم : إن الذهب هنا رخيص وستخسر في بيعه مبلغًا كبيرًا ، إنما خذ ما يلزمك من نقود وخذ صرتك ولا تغضب زوجتك حتى إذا ما وصلت إلى بلدك سالمًا ، فَحَوِّل لي النقود التي ستقترضها مني بطريق البريد ـ إن شاء الله .

الاطمئنان

اطمأن الرجل ومسح من عينه دموع التماسيح ثم طلب الصرة فأحضرها العم ثم قبضها وفضها فإذا فيها الذهب المفصص وغير المفصص من أساور ووشاحات وقلائد وخواتم ولكن الأوراق (بنكنوت) التي كانت بها نضبت ، ثم قال : يا سيدي انظر بعينيك هل ترى ورقة واحدة ، فقال : لا ، قال ولكن الذي سرق مني كان يكفيني إلى أن أرجع وهذا القضاء والقدر ثم بكى ثانية كبكاء الثكلى فقال له العم : لا تبك ، أنا قد عرضت عليك كذا وكذا فقبَّل يد العم وحزم الصرة ثم قال : يا سيدي هذه الصرة تبقى أمانة عندك إلى أن يصل أخي من جاوة لأداء الحج في شهر رجب ـ إن شاء الله ـ يعني بعد ستة أشهر وكان الحديث في نهاية ذي الحجة من العام المذكور ، قال له العم : هل لك إخوة لم يحجوا ، قال : نعم فلان وفلان وفلان ، وأنا أكبرهم سنًا فقال له العم : على الرحب والسعة ، إنما خذ صرتك ، فقال : أبدًا ثم أقسم وحلف وبكى قال له العم : إذن عد ما فيها من قطع المصوغات ، فقال : أبدًا تبقى كما هي ولا آخذ منك سندًا ولا كتابة ولا ما إلى ذلك فقبلها العم على مضض ثم قال له : كم تحتاج من النقود فرفع رأسه نحو السقف وجعل يفكر ويفكر ويحملق بعينه برهة ثم قال : « بس تكفي ثلاثة آلاف » روبية جاوي ، فقال له

العم : ما تكفي ، قال : تكفي يا سيدي وإذا احتجت إلى زيادة سأرجع إليك بعد أسبوع مودعًا وآخذًا ما نقص إذا لزم الأمر .

ثم خرج مع زوجته وأخذ العم الصرة ووضعها في صندوق الأمانات وكتب ورقة بخطه قال فيها : « هذه أمانة فلان وبيده كذا وكذا والموت والحياة بيد الله ـ عز وجل ـ ، إذا جاء هذا الحاج أو شقيقه الذي أخبر عنه تُسَلَّم له هذه الصرة سواء جاء بالدراهم التي استدانها أم لا ، اشهد يا سيد » ويقصد به صهره السيد المالكي ثم أشهدني وجعلني أكتب اسمي وتوقيعي .

قاصمة الظهر

هذا المبلغ دفعه العم لذلك الرجل بحسن نية وإخلاص ، ولم يفكر في شيء أبدًا عن هذا الرجل ولا عن صرته ولا عن أي شيء ، وهذا المبلغ يساوي في ذلك الوقت أكثر من مائتي جنيه ذهبًا يعني يأتي بمنزل جديد مكون من طابقين وفي أحسن بقعة .

ولم يكن العم آنذاك تاجرًا أو صاحب عقار أو إيراد يدر عليه أرباحًا طائلة ، إنما كان رجلا مستور الحال ، وصاحب عائلة كبيرة ، خاصة وأنه قد تأهل في ذلك العام وأسكن أهله في بيت منفصل مستقل عن عائلته الكبيرة . فأصبح صاحب عائلتين ، وفي الوقت نفسه كان خارجًا من معركة الزفاف العظيم الذي أنفق فيه مبالغ طائلة كما أشرت إلى ذلك ، فخروج مبلغ عظيم كهذا في ذلك الوقت وقت الرخاء يضمر جيبه ويقصم ظهره ويربك اقتصاده ، إذ من المتفق عليه أن مثل هذا المبلغ كان يمكن أن يصرّف أكبر عائلة لمدة عامين أو أكثر ولكن القضاء لا يرد .

خرج الحاج كردي وزوجته مطمئنًا غانمًا رابحًا وأبقى صرته الذهبية ومصوغاته الجوهرية وفؤاد العم كان فارغًا وواثقًا في الرجل بالنسبة لما رأى ولمس وجرب ، وكانت نيته حسنة جدًا ؛ لأنه لم يمر به الاحتيال ولا يعرفه ، وخاصة بالنسبة لهذا النوع من الحجاج وبالنسبة للمواسم الرابحة وكثرة الخير ولغير ذلك من الشواهد التي تبعد عن الإنسان أي فكرة للاحتيال أو النصب أو ما شابه ذلك ؛ لأن الناس بخير في سائر أنحاء العالم .

سفر بلا وداع

مضى الأسبوع الأول ومضى الأسبوع الثاني ولم يأت الحاج المذكور فاعترى القلق العم فقال لصهره المالكي متسائلا : يا هل ترى أين فلان ؟ ألم يقل إنه سيأتي لزيارتنا ووداعنا ؟ فقال له صهره : ربما كان مريضًا أو زوجه أو أحد أقاربه ، أما أن يسافر ولا يودعنا فهذا مستحيل . وربما جاءه خبر بالسفر بغتة فلم يتمكن من الحضور ، فهذا جائز ، ومع ذلك أستبعد ذلك ، فقال له : ولماذا لا نقطع الشك باليقين ، قم يا محمد فاذهب إلى داره وقل له : إن عمي يسأل عنك ، وما الذي أخرك عن زيارتنا هذه المدة ؟ . فنهضت حالًا وذهبت إلى (باب الباسطية) بجانب بيت شيخه الشيخ عبد الرحمن عبد الشكور ونفسي تحدثني في الطريق أن سوف أنعم بالبقشيش (الحلوان) منه ومن زوجه لقرب السفر أو بعلب البسكويت وحلاوة الديبة ومربى الموز والغوط وغير ذلك من أحلام الطفولة .

يا ضياع التعب

عندما وصلت إلى باب الدار إذا بمجلسه مغلق وعليه ضبة وقفل ، فسألت

البواب وكان غامديًا واسمه (جار الله) : أين فلان ؟ فقال : سافر إلى بلده ، فقلت : متى ؟ قال : منذ عشرة أيام أو أكثر وقد سافر معه معظم من كان بهذه الدار ولم يبق سوى مجلس واحد . فرجعت متأسفًا وأخبرت العم بذلك فامتعض وجهه وقال لصهره : كيف يحصل هذا من رجل محترم كهذا ؟ ألم يقل لنا إن سفره ما زال غامضًا وانه سيزورنا باستمرار وكذا وكذا ؟ فطمأنه السيد وقال له : سأذهب بنفسي وأتتبع خبره لعل محمدًا لم يستفسر أو أن الرجل كان في السوق ، والبواب لم يكن له علم بالسفر ؛ لأن السفر علمه عند الشيخ فقط .

السؤال الثاني

تجبب المالكي وتعمم وسار بنفسه إلى الدار ، فلم يجد أحدًا فذهب إلى الشيخ وسأله فقال له : إن فلانًا سافر بأهله وقد مضى على سفره أكثر من عشرة أيام كما قال الحجازي البواب ، فرجع إلى العم وأخبره فاغتم لذلك واعتراه القلق ، ثم قال لصهره : سأذهب أنا وأنت للشيخ غدًا ونسأله ثم نستفسر عن الرجل ما الذي جرى له ، حتى إنه سافر بهذه السرعة ولم يودعنا ولم ولم .... الخ .

الصدمة العنيفة

ذهب العم ـ رحمه الله ـ مع صهره المرحوم السيد عبد الرحمن المالكي ابن عم المرحوم السيد علوي المالكي ، ذهبا إلى الشيخ عبد الرحمن عبد الشكور ، شيخ الجاوة ، وهو الذي كان يصله أكبر عدد من أهل سربابة وضواحيها التي

كان من ضمنها بُليدة هذا الرجل المحتال الحاج كردي، والبليدة اسمها (سوفانجنغ) تقع على أميال من سرباية العاصمة الثانية بعد جاكرتا آنذاك إلا أنها أكبر مساحة وأكثر سكانًا، ونصف ما بها من عقار ملك للعرب وبخاصة أهل حضرموت مواليد (جاوة).

لقد استقبل الشيخ عبد الشكور العم وصهره وهو يعلم عن مكانة العم وصهره خاصة وأنه إمام المسجد الحرام، ومدرس بمدرسة الخياط وكذلك صهره المالكي، كما أنه يعلم أن الحاج المذكور (كردي) تعلم عند العم سور الصلاة وزوجته كذلك.

استقبلهم استقبالا حسنًا، ثم شرع العم في السؤال عن الحاج المذكور وكيف سافر بدون علمه؟ و؟ .... و ......؟ فال له: لماذا أنت مهتم به هذا الاهتمام. فقال: لا شيء، إنما للاطمئنان! فقال له: يظهر أنك تعاملت معه بعض الشيء؟ فقال له العم: نعم! وسرد عليه القصة كاملة فامتعض وجه الشيخ الشكوري ـ نسبة إلى شكور ـ لأن بعض إخواننا ينادونه بهذا، ثم قال للعم: مثلك مثل أخيك؛ لأنه عمل معي الشيء نفسه والصرة نفسها التي عندك هي عندي، ولربما أنه ضحك على أناس أكثر منا بلاهة ونية حسنة، إنما الموسم قريب وكلها أشهر ويأتي أخوه على حد زعمه في الباخرة الأولى أو الثانية، وسيسدد لي ولك الدين ولكنه لم يأخذ مني سوى مبلغ بسيط ونحن واجبنا كمشايخ ومطوفين أن نساعد المحتاجين من المنقطعين من حجاجنا، وفي النادر من يماطل أو لا يسدد أو يكذب أو يحتال ...

خرج العم وصهره ورؤوسهم تفكر، وعقولهم شاردة، وقلقهم متزايد ووجوههم مصفرة.. وكان العم يسهر كل ليلة ويستقبل أصحابه بالبشاشة،

ويستمر في السمر حتى الساعة العاشرة ليلًا ، أي الرابعة بالتوقيت القديم ، ولكنه في هذه الليلة طلب من السامرين أو السمَّار العفو ، وادعى الصداع ، وصعد إلى مجلسه الأعلى (المبيت) ولم يكلم أحدًا ، وخرج القوم ولم يبق إلا السيد المالكي ، ثم خرج بعدهم إلى منزله .

في الصباح

جاء بعض الأصدقاء للعم كعادتهم ، فقص عليهم القصة وأنا أسمع ثم قال لأحدهم : إني لم أنم الليلة البارحة بسبب هذه المسألة .. فهوَّن عليه القوم واحتسوا كؤوس الشاي ثم خرجوا ، وبدأ العم يهتم ويفكر ويدمن في التفكير حتى إنه لينسى كوب الشاي حتى يبرد ، ولم يدر عنه حتى يرفع أو يغير ..

الموسم الجديد

ودخل الموسم الجديد وجاءت أولى البواخر وبعدها وبعدها وانتهى الموسم ، وكان أضعف من ذي قبل ، فجن جنون العم ـ رحمه الله ، وذهب مع صهره المطوف إلى الشيخ الشكوري ، فقال له : خذ الله خلفًا وعوضًا !

أسقط في يديه

فاستغرب العم من الشيخ هذه الجملة واستفسر من جديد ، فقال له : لم يصل أحد من أقارب هذا الحاج ، وسألنا عنه فقيل لنا : إن هذا الرجل ليس من أهل سفنجنغ، إنما هو محتال ونصاب ، ثم قال للعم : لقد بعثت بالصرة للصاغة لاختبار ما فيها من ذهب وكم يساوي ؟ فجاءت النتيجة

مخيبة ، وما هو إلا قشر وبجوفه نحاس ، فأسقط في يد العم (رحمه الله) ولم يرجع الدار إلا وهو مصاب بالحمى ، ومن بعدها جاءه مرض القلب وهجم عليه الغم والاكتئاب ، واصفرّ وذبل لحمه ونقص وبدأ الأطباء في معالجته أعوامًا وشهورًا حتى وافاه الأجل .. رحمه الله وعوضه الجنة ـ إن شاء الله .

ولقد بعث صهره بالصرة إلى الصاغة لاختبار ما فيها ، وإذا بالنتيجة المزيفة ، وقد كلف ابن عمه المرحوم المقرئ محمد نور أبو الخير ليذهب بنفسه إلى تلك البليدة (سفنجنغ) وكان المذكور يسافر كل عام لمصاهرته أهل جزيرة (سليبس) وتردده على بلدان جاوة ، وكانت حرفته التجارة في تلك الجزيرة . فامتثل المرحوم ، وسأل عن المحتال المذكور في كل بلدة وقرية فلم يعثر عليه ، ويظهر أنه من المهاجرين إلى جزر بعيدة أو من أهل جزر سليمان أو الملوك أو ايريانا الهولندية أو هو من أصل جاوي كغيره من الناس ثم رحل إلى ماليزيا ومارس النصب هناك أو في بلد مجاور .

ثم إن العم ـ رحمه الله ـ نقص وزنه ، وتغير لونه ، واعترته الهموم والأوجاع ، من هذه الحادثة الأليمة التي قضت على ثروته ، خاصة وأنه كان قبل عام قد دخل في عداد المتزوجين ، واستأجر بيتًا آخر ، وكثرت عليه المصاريف ، وقلت المواسم ، وبدأت في الاضمحلال شيئًا فشيئًا ، ثم تتابعت عليه الحوادث ـ رحمه الله ، وكثرت عليه المصايب إذ مات له ولد في السابعة أو الثامنة فجأة ، وفي ليلة العيد ، فاهتز وضمر وتحول من شاب إلى كهل ضعيف ، وهكذا حتى وافاه الأجل ـ رحمه الله .

الأساتذة لعام ١٣٤٧هـ

أما أساتذتنا لذلك العام فكان على رأسهم عبد الله حمدوه السناري مدير مدرسة الفلاح لتدريس الألفية وحفظ الثلث الأول منها للسنة السابعة مع شرح ابن عقيل ومراجعة الخضري كما تقدم سابقًا وكان من يغلط في الواجب المحفوظ بالنسبة للألفية يضرب ثلاث ضربات بالعصا في اليد الواحدة، وإذا زاد الغلط على الأربع يجلد التلميذ في الفلكة أو يحبس بعد العصر في بهو المدرسة حتى يسمع الواجب كالفاتحة.

وبقية الأساتذة كانوا: المرحوم الشيخ عيسى رواس، والمرحوم السيد أبو بكر الحبشي والمرحوم الشيخ يحيى أمان، والمرحوم الشيخ أمين فودة، وهذا لم يكمل السنة حتى نقل قاضيًا في المحكمة الكبرى ثم لحقه فيما بعد السيد أبو بكر الحبشي، كما لحقه الشيخ يحيى أمان، لكن بعد تخرجنا، ثم المرحوم الشيخ أحمد ناضرين وهذا نقل قاضيًا أيضًا بالمحكمة الكبرى، ثم المرحوم السيد شيخ حمدي وقد وافاه الأجل قبل أن نتخرج كان أستاذًا لنا في الأدب والجبر، ثم المرحوم الشيخ سالم شفي، كان أستاذنا في البلاغة، ثم المرحوم السيد إبراهيم النوري كان في الفرائض، ثم الأستاذ محمد غلام، كان أستاذنا في اللغة الإنجليزية ولسوء الحظ كان لا يعرف من العربية شيئًا؛ إذ جاء من الهند رأسًا إلى مدرسة الفلاح، ولم ينطق لسانه في العربية إلا بعد عامين[1] إذ

---

(١) هذا الأستاذ الأمي في اللغة العربية ودرس الطلاب من العرب للغة الإنجليزية، مثله كمثل أستاذنا في مدرسة العلوم الشرعية مولوي غلام الذي كان نسخة طبق الأصل منه من هذه =

كان المرحوم السيد إبراهيم النوري يلقنه الكلمات العربية وحفظها وبعض القواعد ، ثم الأستاذ الأديب الكبير الشيخ عبد الوهاب الآشي وكان يأتينا في التاريخ والإنشاء وهو على قيد الحياة ـ أطال الله عمره ونفع به ، ثم المرحوم الشيخ أمين السويدي من أهل لبنان ، والمرحوم الشيخ عمر حمدان كان أستاذنا في الحديث ، وإذا غاب أحد من هؤلاء الأساتذة كانوا يستعينون ببعض المتخرجين الذين مارسوا التدريس في المدرسة نفسها كمثل المرحوم السيد علوي المالكي ، والسيد محمد أمين الكتبي ، والسيد إسحاق عزوز ، والسيد محمد النوري ، والمرحوم الشيخ عبد الرحمن أسعد ، والسيد حسن فقي ، والسيد عدنان الكتبي ، وغيرهم وغيرهم نفع الله بهم المسلمين وأطال في أعمارهم ، ورحم الموتى منهم .

= الناحية ولأستاذيته لنا حديث قد نأتي بتفصيل عنه في مناسبة أخرى إن شاء الله ، فلكل حادث حديث كما يقولون .

الفصل السادس

الموسم ستة أشهر

كان متوسط إقامة الحجاج الجاويين في مكة ستة أشهر، أما من كان يأتي في الباخرة الأولى فكانت إقامته تربو على ثمانية أشهر، وأول باخرة ترد من بلاد إندونيسيا في ذلك الحين، كانت تكون في شهر جمادى الآخرة أو الأولى، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء، وجميع أجناس الحجاج في تلك الآونة يفدون عن طريق البحر ولا أذكر لأي حاج منهم أنه جاء عن طريق الجو، حتى إني لأذكر سلطانًا من سلاطين جزيرة (سليبس) وكان سلطانًا على بلدة تدعى (تلنيفة) زرتها فيما بعد وهي قريبة من بلدة (سنجاي) وسيأتي ذكر ذلك مفصلًا إن شاء الله في الرحلة البوقسية، هذا السلطان كان يتردد على عمي المرحوم جمال (هو وزوجته) وكانا إذ ذاك يجودان القرآن عند عمي المذكور، واسم هذا السلطان (هارون) كان غنيًا وكريمًا لدرجة أنه كان يدفع للعم رحمه الله أسبوعيًا جنيهًا ذهبًا وفي كل شهر يدفع مبلغًا من الجنيهات الذهبية ويقول له: وزع هذه على الفقراء بمعرفتك، كان يصرح دائمًا ويقول يا ليتني أمتطي طائرة ويسمح لي بالسفر بها إلى هذه الديار أو تكون في متناول اليد لمن يشتري أو يستأجر، هذه من ذكريات تلك الأيام.

كذلك الحال مع سلطان جزيرة (بالي) الشيء نفسه والأمنية نفسها، إلا أنه أقل من ذلك السلطان مالًا، وقد زرته فيما بعد في جزيرته وكان على قيد الحياة.

كان بعض الحجاج ممن له صلة بالعم وبعض الأصدقاء من الباعة وغيرهم، يترددون على العم ـ رحمه الله ـ قبل طلوعهم إلى عرفات، هذا يرفع نقوده وذاك يرفع صكوك أملاكه ـ قائلين: قد عزمنا على الحج وإن متنا فادفعوا أماناتنا أو نقودنا لأهلنا، فكانوا يعتبرون الحج أسفارًا؛ لأن وسائل النقل كانت (إبلًا وبغالًا وحميرًا) وكان الشقدف يلعب دورًا هامًا في الحج، بالمدينة وجدة والطائف، أما نجد والأحساء والكويت ودول الخليج، هؤلاء كانوا يفدون إلى بيت الله الحرام عن طريق البحر ولا يأتي من البر إلا النادر القليل.

عود إلى تصاريف الزمان

سبق أن ذكرت أن والدي ـ رحمه الله ـ جاء في ذلك العام من الهند وجاوة ورآني تلميذًا كبيرًا من تلامذة الفلاح أتأبط حافظة كبيرة فيها (شرح ابن عقيل على الألفية) و(تفسير الجلالين) وما إلى ذلك وما يتعلق بذلك، فكبرت في عينيه وظن بي خيرًا وكان يأتي كل ليلة إلى بيت عمي الذي أقيم فيه ويراني أطالع الكتب ويصعب عليه عندما يسمع العم ـ رحمه الله ـ يا محمد هات ويا محمد انزل وذلك عندما يشرف الضيوف أو لقضاء حاجات من السوق؛ إذ يراني أترك المطالعة وألقي بالكراريس ممتعض الوجه غضبان آسفًا، وهذا على الرغم من وجود خادم يمني ساقه الله في ذلك العام كما أشرت إلى ذلك قبلًا، هذا اليمني الذي حمل عني من الأعباء والذهاب إلى الأسواق وشراء المقاضي وما إلى ذلك الشيء الكثير، وقد تقدم ذكره فيما مضى واسمه عبد القادر، مكث عند المرحوم عمي جمال إلى حين الوفاة ثم سافر إلى بلده، وفي كل عام يأتي للحج ويزور العمات ويأتي بالهدايا، وهكذا شأن من يثمر فيه المعروف

صاحب الأصل الطيب والشجرة الطيبة وما أكثرهم في ذلك الزمان .

وكان الوالد ـ رحمه الله ـ أن يسمعني أقرأ في كتاب الله بعض السور ؛ لأنه عالم بحفظي له عن ظهر قلب سماعًا فقط ؛ لأنه دائم التجوال وكثير الأسفار ولا يأتي إلى مكة إلا على سبيل النادر .

فرصة ذهبية

لقد كنت أسمعه يردد اسمي ويتجاذب أطراف الحديث مع العم وصهره السيد المالكي ، وأحيانًا يكون المرحوم أحمد باسلاسل حاضرًا والمرحوم الشيخ سعد خفاجي وهذان لا يسمران ، زيارتهم محصورة ما بين المغرب والعشاء وكذلك الوالد ـ رحمهم الله جميعًا ـ وعندما أحضر لهم الشاي يسكتون عن ذكري ويقولون لبعض : فيما بعد نكمل الحديث فأقول في نفسي ، لعل علقة في انتظاري وصرت أفكر كثيرًا واعتراني القلق من جديد : لماذا يذكرون اسمي وعندما أحضر يبدلون الحديث بحديث آخر ؟ حتى هممت يومًا على التجسس من وراء الأبواب قبل إحضار القهوة ، وأقول إن : كانوا عازمين على ضربي فسأترك المدرسة وأهرب إلى جهة أخرى ما غير الزيمة ؛ لكنهم سيجلبونني بالقوة خاصة وأن العربات النفطية غزت الطريق وأصبحت الزيمة في متناول الرجل في أقل من ساعة ، وأحيانًا أقول : أهرب على بواخر الحجاج بأي طريقة . لكني أرجع إلى عقلي وأقول : أنت الآن في السنة السابعة ولم يبق إلا القليل وتصبح مدرسًا أو موظفًا وهكذا الكثير من هواجس الفكر وهمزات الشياطين .

وعندما تجسست في اليوم التالي فإذا هم يذكرونني بخير وأسمع كلمة

(خلوة) و(كتب) و(مذاكرة) و(ربعة) و(خصفة) وأسمع كلامًا طيبًا من الوالد بشأني ويقول: سيتحقق هذا قبل سفري ـ إن شاء الله ـ، ثم أسمع المعارضة من العم وصهره: لا لا، إنه صغير نخاف عليه (مع إزعاج وهياج أحيانًا).

وأنا غير مؤاخذ الآن في سرد ذكرياتي وما مر بي من أحوال طوال هذا العصر الطويل، واطلب العفو من القارئ؛ لأن (رحلة العمر) هذه تجمع بين الغث والسمين، في سرد مجريات الأحوال فلا تستغرب إذا سمعت كلامًا سخيفًا أو تعبيرًا ضعيفًا؛ لأن الرحالة تمر عليه الطيبات والخبائث والحلو والمر، ولا يمكن له أن يذكر شيئًا ويترك شيئًا، إما كل شيء وإما لا شيء وأنا الآن اكتب بلغة الصبا وأيام الصبا والدراسة والتشرد وما إلى ذلك، ولأيام الصبا نجم أفل!

العهد الجديد

صرت أتركهم وعندما ما ينتهون من احتساء القهوة والشاي أهرب إلى المبيت الأعلى لأذاكر دروسي؛ لأني اطمأننت نوعًا ما وأعلل النفس بالأماني، حتى صاروا يناودنني فلا أجيب إلا بعد التردد والصراخ، وأنزل إليهم بعد حين، وأعتذر بعدم السماع والمذاكرة، وما إلى ذلك. فيعجب الوالد بإجابتي، ويدعو لي بالتوفيق في كل شيء. حتى قال لهم يومًا، وقد كلفوني أن أذهب إلى أحد بيوت العمات للسؤال عنهن: لا تفعلوا، وأمرني بالرجوع للمذاكرة. وقال: أنا ذاهب بنفسي غدًا إن شاء الله إليهن وإذا جئتكم ليلًا كعادتي أخبركن بأحوالهن فلا تضيعوا الفرصة على مذاكرته.

ليلة الجمعة

وفي أول شعبان من ذلك العام جاء الوالد ـ رحمه الله ـ كعادته بعد المغرب ومكث إلى العشاء ثم ناداني فنزلت إلى مجلس الضيوف ببيتنا في باب الدريبة وكان المجلس خاليًا من الزوار إلا الخفاجي وباسلاسل والعم وصهره والوالد فقط هؤلاء نسميهم زوار العشية ؛ لأنهم لا يسمرون بل يخرجون قبل العشاء ليصلوا بالمسجد الحرام ثم يذهبون إلى بيوتهم البعيدة في أقاصي (شعب علي) و(سوق الليل) ولكن لا تفوتهم الجماعة بالمسجد الحرام لكل الفرائض ـ رحمهم الله .

قال الوالد : وأين الشاي ؟ فصعدت وأحضرته فاحتسوه وكان العم عادة هو المنادي والطالب لكل الطلبات فاستغربت تلك الليلة من سكوته وسكوت صهره بالإضافة إلى تقطيب جباههم وعدم الكلام كالعادة ، فقلت في نفسي : ما الحكاية ؟ وإذا بالوالد يقول لي : غدًا الجمعة وليس عندك مدرسة قلت : نعم ، قال فلتأت بعد الإسفار صباحًا ـ إن شاء الله ، توقظك عمتك الكبرى للصلاة فقم وصل الغداة ، حتى إذا ما انجلى الإصباح وتفاسرت الوجوه ، تلبس ثيابك وتنزل إلى المسجد وتسأل عن (خصفة الأغوات) بباب الصفا أو بني شيبة لأسمّع لك جزءا من كتاب الله عن ظهر غيب ، لأختبر حفظك ، ثم تسمّع لي جزءًا لتختبر حفظي أيضًا وهكذا ، حتى ينتهي تسميع المصحف كله إن شاء الله ، فقلت : حبًا وكرامة .

الانطلاقة الأولى

هذه تباشير الحرية وو الاحتكاك بالناس ورؤية الكعبة والطائفين بالبيت الحرام

والاختلاط بالأجانب ؛ إن الحجاج قد ملأوا مكة من جاويين وهنود وغيرهم .

لم أنم تلك الليلة من الفرح ويا ترى ماذا بعد ذلك ؟ أذن المؤذن لصلاة الصبح وكان صوت المؤذنين يصل إلينا في المجالس من غير مكبرات الصوت ؛ لأننا نقطن في الحرم الشريف إذ بيوتنا مجاورة لجدار المسجد بباب الدريبة .

توضأت ولبست الثوب والجبة وتعممت وقلت للعمة : أنزل أصلي مع الجماعة ثم أبحث عن الخصفة التي سينتظرني بها الوالد ! فقالت : لا تخرج إلا بعد الإسفار حسب توصية أبيك . وأصرت على ذلك ، فامتثلت الأمر ، وصليت منفردًا ومكثت حتى تفاسرت الوجوه ثم خرجت .

الربعة

دخلت المسجد الحرام وذهبت إلى باب الصفا وسألت عن خصفة الأغوات وعن الربعة فدلني بعض الأغوات عليها وكان حاسر الذراع وبيده مكنسة ومحكة يحك بها الأوساخ العالقة ببلاط الصحن والمشاية (الممشاة الموصلة بالكعبة)فذهبت حالا إلى الخصفة المشار إليها ، وإذا بالوالد في انتظاري وكان يقرأ في مصحف كبير موضوع على خشب مشبك في بعضه على شكل كرسي صغير كانوا يضعون عليه المصاحف الكبار وكان بجوار الوالد رجل أشمط متجبب فأمرني بالسلام عليه وعلى يديه فسلمت وقبلت الأيدي ثم عرفه بي وعرفني به وإذا هو المرحوم الشيخ محمد سعيد أبو الخير ثم أقبل رجل أكبر منه سنًا وجلس بجانبه على الحنبل الممتد ، فأمرني بالسلام عليه ، فسلمت عليه ثم قال : هذا هو الشيخ محمد البنداري .

الشيخ سعيد اليماني

ثم جاء رجل كبير يرتدي جبة بيضاء ناصعة البياض وعمامة بيضاء ومسبحة في يديه وخلفه شاب بلحية سوداء وشارب كبير يحمل كتبًا كثيرة، وخلف الشاب بعض الرجال من الجاويين، جلس هذا الشيخ الكبير فوضع أحد الأغوات مصحفًا، أمامه وجاء بدورق ماء زمزم فصب له كوبًا ودار بالأكواب على الحاضرين فشربنا من ذلك الزمزم المثلج الشافي - بإذن الله.

وقال لي الوالد: قم فسلم على يد هذا الشيخ فقمت وسلمت ثم قال لي: هذا هو العالم الكبير الشيخ سعيد اليماني، وهذا نجله الشيخ علي، ثم عرفني ببقية الحاضرين ولكنه لم يأمرني بالسلام عليهم؛ لأن بعضهم أمامنا وبعضهم خلفنا، إنما الصف الأول محجوز لهؤلاء العلماء، ثم دار الحديث معهم ومع الوالد حيث عرفهم بي أكثر وعرفت عنهم أكثر وهكذا دواليك بين القراءة في المصحف وبين الاستراحة بعض الشيء والشرب من زمزم وكان الوقت صائفًا.

الطـــواف

ثم قام بعض منهم إلى المطاف، ونحن أيضًا قمنا إلى الطواف فطفنا بالبيت العتيق ودخلنا بئر زمزم فشربنا من الدلو اليماني وكان الناس إذ ذاك يتباركون بالشرب من هذا الدلو وكان الساقي هو المرحوم (شقيق الشيخ سعيد الخفاجي) ذو كرش وحزام عريض.. ثم خرجنا من زمزم واتجهنا إلى باب الزيادة فاستغربت لهذا وسألت الوالد: لماذا لم تأمرني بالذهاب إلى بيتنا بباب الدريبة؟ فقال: لا إنك اليوم ضيفنا وسأريك خلوتي لتحل محلي إن شاء الله عندما أسافر؛ لأنك رجل لا يخاف عليك من شيء بعد الآن إن شاء الله.

سمعت منه هذا الحديث الجميل ولكني لم أحقق معه ؛ لأني لا أدري عن شيء ، إنما تغافلت وتجاهلت وغيرت مجرى الحديث وسألته لماذا تطلقون كلمة (خصفة) و(ربعة) إني لم أفهم شيئًا من ذلك فشرح لي معنى الكلمتين معنى عاميًا فقط إذ قال : خصفة يعني : الحصير المعروف وكانت تبسط على الحصوة قبل معرفتهم الحنابل ، وكانوا يجلبونها قبل قرنين من الزمن ، ولما وردت الحنابل بقيت كلمة الخصف على حالها بالغلبة والشهرة ، والربعة (بفتح الراء المشددة ثم الباء الساكنة والعين المفتوحة والتاء المربوطة) نسبة إلى الربع الذي يقرأ من الجزء ؛ لأن كل من يجلس على هذه الخصفة يوضع أمامه المصحف ويقال له : اقرأ في هذا المصحف ربع جزء وادع لصاحب هذه الخصفة المرحوم فلان سواء أكان باشا في الأيام القديمة أم أيًا كان الموصي ، ثم إذا واظب ذلك الرجل على القراءة كل يوم يُقيَّد اسمه ثم يسجل في دائرة الحرم الشريف التي تكتب للمقام العالي في إستانبول ، وبعد هذا يرتب له إردب من القمح في السنة أو راتب محدود . وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد ـ إن شاء الله ـ فإني سأكتب عن ذلك مفصلًا عند شرح الكلمات العامية والدخيلة ، أما هذه المعلومات الخاطفة فأخذتها من المرحوم من باب الزيادة حتى وصلنا إلى بناية كبيرة تبعد عن باب الزيادة خطوات معدودة ومنه إلى (سويقة) .

رباط الباشا

ثم وقف بنا المسير على سلم من الرخام ، أعني درجات عظيمة وطويلة على شكل الدرج الموصلة لأبواب المساجد ، وكانت هذه السلالم الحجرية الرخامية ثمانية ، القسم الأبيض منها موضوع عليه مدرج خشبي صغير وملصق به

وريقات ملونة ومرصوص عليها زجاجات كحل من الإثمد والدلال ومحابر وأقلام ودفاتر وأوراق ومراسم ومساحات ، ويجلس بجانبها رجل كبير بلحية بيضاء وقلنسوة هندية وبيده كراريس وهو منكب على الكتابة فيها كأنه تلميذ من تلامذة المدارس ، سلم عليه الوالد فرد السلام ثم تساءل : من هذا الغلام الذي معك ؟ فقال له : هذا ابني الذي كان بالمراضع وتربى بالزيمة وكنت أخبرتك عنه ، فتذكر وهش وبش ودعا لي بخير فقلت لوالدي : من هذا العم ؟ قال : هذا مؤرخ مكة الشيخ عبد الله غازي صاحب هذه المكتبة وله خلوة بهذا الرباط ستراها إذا استوطنت وأقمت ، ثم صعدنا الدرج التي من بعد مخرج البناية وكانت أحسن وأجمل من التي في خارج المبنى ثم وصلنا إلى أبواب بهو فسيح كبير به حدائق وزهور ورائحة النرجس عبقة يصل عبيرها إلى الأنوف بمجرد لمسها .

أخرج الوالد مفتاحًا من جيبه وفتح أحد الأبواب وإذا بغرفة فسيحة تطل على باب الزيادة مفروشة بالبساط الجميل وبها رفوف خشبية جميلة مشحونة بالكتب القيمة من تفاسير وسير ولغة وحديث وأصول وغير ذلك بالإضافة إلى مَوَضأ وأنبوبة ماء وحنفية كبيرة ومستراح عليه درجة كبيرة من البلاط وعليها بابور الغاز (موقد) وأدوات الشاي وبعض الحلل والقدور والأطباق على رف مخصوص ، ثم سلم خشبي تصعد به إلى غرفة خشبية للاستراحة ، وقد قام الوالد بعملها توسعًا ؛ لأن السقف عال جدًا على نمط أروقة المسجد الحرام والمحكمة والمدارس .

دهشت حقًا لما رأيت وخاصة عندما أخبرني سيدي الوالد أن هذه الخلوة يُعلم فيها أصدقاءه من الحجاج الذين يفدون معه في الباخرة ويجودون عنده

سور الصلاة ويتعلمون أحكام الصلاة والفقه والشريعة الإسلامية لعدم لياقة الدار للتعليم ، ولقربها من المسجد عندما تكون إمامة محراب المقام الحنفي وما إلى ذلك كما أخبرني أنها مذخورة للنوائب عندما تكون هناك أزمة بيتية أو عقبات داخلية .. فقلت في نفسي : لقد قرب الفرح ويا ليتها تكون لي إذا سافر بسلامة الله ، وإذا به يصرح قائلا : عندما سافرت أول سفرة في حياتي في عام ١٣٣٦هـ تركت مفتاحها عند عمك ولكنه لم يلتفت إليها لعدم وجود وقت عنده وقد كادت تذهب من تحت يدي لكن الله سلم ، ثم قال : أنت الآن رجل وتلميذ ناجح ـ إن شاء الله ـ وطالب علم وتحتاج إلى مطالعة وقراءة هذه الكتب ، وإني سأسافر بعد الحج ـ إن شاء الله ـ إلى بلاد (جاوة) ؛ لأن لي بها علاقة عائلية وتجارية ولا أستطيع البقاء هنا ، فأنت خليفتي على هذه الخلوة بشرط أن تقوم بزيارتها كل يوم بعد صلاة العصر أي بعد خروجك من مدرسة الفلاح مباشرة ، تذاكر فيها دروسك وتطالع بعض ما تحتاجه من هذه الكتب، تكنسها في الأسبوع مرتين وعندما يؤذن لصلاة المغرب تصلي في المسجد وتذهب حالًا إلى بيت عمك بباب الدريبة على عادتك كما كنت ، وإياك واللعب وإياك إياك أن يزورك أحد ، وإياك الاختلاط بأحد حتى من أبناء صفك ، وإياك أن أسمع عنك من عمك أخبار مسيئة ! فقلت : سمعًا وطاعة سأكون عند حسن ظنك ـ إن شاء الله .

عبد الكرام

ثم أردف قائلًا : سيأتي غلام من جزيرة (مدورة) يمت إلينا بصلة رحم وسيكون عندنا ويتعلم هنا في مدارس مكة ويسكن في هذه الخلوة ويساعدك

على كنسها وترتيبها كما سيذهب إلى البيت للمساعدة وقضاء اللوازم، ويقصد بالبيت أمي الحقيقية ـ رحمها الله، وكانت دارها في سويقة فوق الردفة من ونوافذ الدار تطل مباشرة على سطح الرباط وإذا وقف أحد في بهو الرباط يرى المطل من النوافذ هذه، وأحيانًا تقف إحدى أخواتي الصغرى منهن وتصفق بيديها فنسمعها ونعلم بذلك أن الوالدة تطلب حاجة فنذهب إلى الدار مسرعين.

جاء عبد الكرام في ميعاده المحدد حسب إخبار الوالد لنا وكان غلامًا في العاشرة من عمره وكان يريد أن يحفظ القرآن في مكة وفرحت بمقدمه جدًا حيث إنه سيحمل عني بعض الأعباء من جهة بيت الوالدة وفعلًا أظهر نشاطًا وحماسًا وقام بخدمة الضيوف وشراء الحاجيات من السوق ولكن المرض فاجأه وأصيب بالحمى وأنهكه المرض ولازم الفراش ولم يطق البقاء حتى قال للوالد: ارجعني في أول باخرة لأموت في بلدي، وقد حاول معه عبثًا وبدلًا من أن يخدمنا صرنا نخدمه ولم ينفع فيه علاج مطلقًا كأنه أصيب بحمى الربع أو أثقل منها.

لنعد إلى رباط الباشا وذلك الصباح المشرق يوم الجمعة المبارك الذي أضاء جوانحي وبعث في روح الأمل والنشاط والحرية والاستقلال، تلك التصريحات التي صرح بها والدي، فكانت فرحتي لا تقدر بثمن وصرت أعد الليالي والأيام حتى أحظى بتلك الأمسية وتلك الأمنية.

قام الوالد وأشعل الدارفور (وابور الغاز) وملأ الإبريق ووضعه عليه ثم وضع حفنة من الشاي في إبريق آخر حتى إذا ما انتهى الماء من غليانه صبه في الإبريق ووضع الجميع في طبق كبير ثم أخرج شابورة (عيشًا مقددًا) في طبق آخر وهو

يريد بذلك أن يعلمني كيفية صنع الشاي والطبيخ تدريجيًا ثم تناولنا الإفطار وخرجنا إلى سوق المنشية فقضى من السوق لحمًا وخضرة وفاكهة وذهبنا إلى البيت ، الذي تسكن فيه والدتي وإخوتي ، ثم قال لهم : هذا ضيفكم اليوم فتعانقنا جميعًا وطويلًا وكأني ولدت من جديد فحمدت الله على ما من به ، من جمع الشمل وتعرف الإخوة والوالدة ، وكان يومًا من أسعد أيامي .

وبعد العصر خرجت أنا والوالد ، وقبل الخروج قال لي : كل يوم جمعة تأتي إلى هذه الدار من الصباح حتى المساء سواء أكنت هنا أم كنت مسافرًا وسيكون إحضار طلبات هذه الدار على يديك كل أسبوع مرة ، وأما باقي الأيام ففي بيت عمك وعماتك على عادتك وكما كنت ، وإذا خرجت من مدرستك بعد العصر تأتي إلى الخلوة وتجلس فيها إلى المغرب ثم تذهب إلى باب الدريبة ، وهذا سينفذ بعد سفري بعد الحج بإذن الله ، أما ما دمت أنا هنا فلا برامج فقلت : سمعًا وطاعة .

وبعد العصر رجعنا إلى الرباط حيث عرفني بسكانه خلوة خلوة وأوصاهم علي وأعطاهم عنوان عمي فيما لو غبت عن الحضور أكثر من يوم ليسألوا عني ويبلغوا أو إذا رأوا تلاعبًا او ضجيجًا أو ما إلى ذلك ، ثم عزمونا وأول من دعانا للغداء المرحوم الشيخ محمد علي بن تركي فقال الوالد : ليس عندنا وقت لتلبية الدعوة حيث المدرسة لا تغلق أبوابها إلا بعد العصر فقال : إذن بعد صلاة الجمعة وهكذا قال بقية السكان للوالد صباح الجمعة يكون الإفطار عند واحد منهم والغداء عند آخر وهكذا وقد كان الوالد أحضر لهم هدايا من جاوة وكان محبوبًا لدى الجميع .

من هم سكان الرباط ؟

ولماذا يدعونه رباط الباشا ؟ وهل الباني له باشا مصر : محمد علي ؟ أم عبد الله باشا ، أحد أشراف مكة الذين تولوا إمارة مكة من قبل السلطات العثمانية والذي كان يجعل عمامته اللفية مائلة على رأسه من غير إحكام ولا تثبيت حتى أطلقوا عليه (أبو مائلة) ؟ هذه الأسئلة وجهتها لسيدي الوالد المرحوم فقال : سيجيبك عن هذه الأسئلة الشيخ عبد الله غازي مؤرخ مكة ؛ لأنه كان من المسنين آنذاك ، والوالد كأحد أبنائه بالنسبة لذلك العهد ، وأردف قائلًا : لا تسأله إلا إذا رأيته خاليًا من الاشتغال أما إذا رأيته منكبًا على الكتابة فلا تسأله .

ومن ذلك اليوم إلى يوم وفاته ـ رحمه الله ـ ما رأيته قط جالسًا من غير شغل المطالعة والكتابة والتأليف ، ولا يطلع إلى الخلوة إلا وقت الوضوء وبعد النداء وبعده إلى المسجد ثم إلى الدكان المتواضع . وكان لا يلتفت إلى الزبائن مطلقًا بل كان يحيلهم إلى ابنه الأصغر عبد اللطيف الذي كان يجلس في أحد أركان الدكان لمساعدة والده .

وأما سكان هذا الرباط فكلهم كانوا من وجهاء مكة ـ فيما ظهر لي والله أعلم ـ وكنت في بادئ الأمر أظنهم من الفقراء أو المهاجرين على نمط رباط السليمانية بباب الدريبة ، ورباط العباس ورباط الدواوية ورباط الحارثي لكن ظهر لي خلاف ما كنت أظنه .

الحلقة

رأول دليل على هذا أن معظم سكانه لهم بيوت يسكنونها ولا يأتون الرباط

إلا نهارًا .. وظهر لي أيضًا أن أغلبهم كان إما من العلماء أو الفقراء ، أو خدم الحرم الشريف ، اللهم إلا النادر القليل مثل الحارس وساقي الحديقة والقائم بالخدمة وما إلى ذلك .

وموقعه كان من أجمل المواقع فلا هو في الحرم نفسه ولا هو بعيد عنه .. له قبلة على شارع باب الزيادة الموصل إلى باب الزيادة بالحرم الشريف والشامية ، والقبلة أو الوجهة الثانية (سويقة) ووجهة ثالثة على حوش من أحواش سويقة وعلى رأس هذا الحوش دكان المرحوم الشيخ محمد المشاط[1] والد العلامة الشيخ حسن المشاط . وبهو هذا الرباط كان مكشوفًا من أوله إلى آخره فله حظ وافر من الشمس والقمر وحجراته مسقفة بالقباب على نمط قباب الحرم الشريف كما أن سقف كل خلوة مرتفع أكثر من خمسة أمتار ، بحيث يسع غرفة علوية فيما لو أراد الساكن التوسع كما هو الحال في خلوتنا هذه ، وبعض الخلوات التي في الأركان وكانت كل منها تتميز بقبتين . وعددها أربع ، وكل واحدة من هذه الخلوات الأربع التي تقع في الأركان يسكنها عالم أو واحد من الشخصيات البارزة التي لها ذكر وتاريخ . وهذا بالنسبة لما لمسته وتخيلته آنذاك إذ كنت صغيرًا وتلميذًا بمدرسة الفلاح ولما أبلغ الرشد حينئذ ، فلا عجب إذا

---

(١) في الكلمة التي كتبتها ونشرتها في منهل شوال ١٣٩٩هـ تحدثت عن هذا الشيخ الوقور الشيخ محمد المشاط والد الشيخ حسن المشاط ، بمناسبة انتقال نجله العلامة حسن المشاط إلى رحمة ربه فقلت في المقال : « واذكر أني ذات يوم كنت مارًا بسويقة في مكة فإذا شيخ كبير السن يناديني من دكانه .. فالتفت إليه فإذا هو أسمر اللون هرم أشيب وتصافحنا فقال لي إن اسمي محمد المشاط والد الشيخ حسن المشاط وأنا أعرفك وحياك الله ، وشربت عنده فنجاني شاي . كان رحمه الله مؤمنًا تقيًا صالحًا ودودًا » .

قصرت في هذا الميدان ولا مؤاخذة علي ، إذ يجوز أن هناك رجالًا أعظم من هؤلاء ولم أكن أعرفهم ؛ لأني لم اختلط بأحد ولا أعرف أحدًا غير أساتذة مدرسة الفلاح وأصحاب العم والوالد ـ رحمهما الله .

من هؤلاء ؟

من تلك الخلوات التي كانت تقع بالركن الغربي خلوة المرحوم الشيخ محمد علي بن تركي ومعه خاله المرحوم الشيخ عبد الله الضرير ، ومعهما غلام لم يكن يتجاوز الحلم . هذه الخلوة التي تقع بهذا الركن الغربي كانت من ذوات القبتين ، وكانت واسعة جدًا وأمامها حديقة ذات رياحين ونرجس وورد . وتتوسطها شجرة خروع ويقوم بسقيها وتنظيفها بواب الرباط .

وطالما دعينا أنا والوالد لاحتساء القهوة العربية عند هذين الرجلين العظيمين ، الشيخ محمد بن تركي العالم العلامة الذي كان يدرس بحصوة باب السلام ويعظ الناس وحلقته كانت من أكبر الحلقات بالمسجد الحرام بعد صلاة المغرب ، كان موظفًا بالمحاكم العليا بمكة المكرمة وعلى ما اعتقد (محكمة التمييز) أو ما شابه ذلك ، وكان يأتيه بالخلوة بعض طلبة العلم ، إذ كان يلقي عليهم بعض الدروس ما بين العصر والمغرب . وأما خاله عبد الله الضرير فكان يحفظ المصحف عن ظهر قلب حفظًا جيدًا ، ويحفظ المعلقات العشر بالإضافة إلى قصائد كثيرة من الشعر الإسلامي كما كان يحفظ (العقيدة الطحاوية) والكثير من الأحاديث الصحيحة .. أما الغلام الصغير فقد أصابته الحمى الشوكية قبل الحج من ذلك العام وسافر إلى نجد حيث وافاه الأجل ـ رحمه الله ـ وكم تأسفت عليه وحزنت ؛ لأنه كان يحفظ القرآن

الكريم عن ظهر قلب ، كما كان كريمًا عفيفًا كريمًا دمث الأخلاق ، وكان غير معروف في ذلك الوقت علاج هذه الحمى وحمى التيفويد وحمى الربع ، فإنه لم يخترع بعد اللهم إلا الوصفات الشعبية ، وهي الثلج والخل والنشا ، إذ تمزج هذه الأنواع ويوضع فيها منديل ، يعصر ثم يوضع على الرأس باستمرار من غير توان لمدة ثلاثة أيام ، فإن تجاوزها نجا من الموت وإلا فالموت المحقق قبل هذه المدة ـ والعياذ بالله .

الركن الجنوبي الغربي كانت به خلوة من ذوات القبتين يسكنها شيخ الرباط المرحوم الشيخ إبراهيم مؤذن ، رجل مهيب يلبس جبة ويعتم بعمامة تشبه القلانس التركية لأئمة المساجد التركية في العصر الحالي وأحيانًا يعتم على كوفية بيضاء . وله لحية بيضاء وشارب كبير ولا يتكلم كثيرًا ، وكان يجيد العربية كأنه من مواليد مكة ، كما كان يجيد اللغة التركية . وقد بلغني أنه خال للأخوة آل القرملي التجار بسويقة آنذاك . وقد حج هذا الرجل ولم يرجع إلى مكة وقيل : إنه فقد بعرفات ولم يعثر عليه أبدًا ـ رحمه الله ـ ثم أغلقت خلوته الكبيرة بضعة أشهر ثم انتقل إليها المرحوم العلامة الشيخ محمد بن تركي وبقي خاله الضرير في تلك الخلوة المشار إليها قبلًا ، إلى أن وافاه الأجل . ثم حل محله المرحوم الأستاذ الضبيب أحد المدرسين بمدارس الحكومة .. وهذه الخلوة كانت تطل على باب الزيادة وعلى سويقة ولها عدة نوافذ . وقد دعانا فيها ـ أنا والوالد ـ الشيخ ابن تركي لتناول الغداء وكان يوم جمعة كما أشرت إلى ذلك سابقًا ولذلك قصة طريفة تذكر في حينها ـ إن شاء الله ـ وبطل القصة السيد الإدريسي . وبجانب هذه الخلوة التي يسكنها هذا العالم الكبير تقع خلوة السيد حسين كتبي .

خلوة السيد حسين كتبي

هذا السيد الكبير الفاضل المحترم ذو اللحية والعمامة البيضاء والجبة البيضاء والجسم العظيم ، كان من أعظم الرجال الذين رأيتهم في حياتي بالنسبة لسني في ذلك الوقت إذ كنت أهوى العجائب ، والغرائب ، وكل شيء يدعو للتأمل والتطلع والتفكر . ومن ذلك الوقت نمت في ذهني فكرة سياحة العالم لأطلع على عجائبه وغرائبه ، هذا السيد المحترم هو والد المرحوم السيد مرزوقي كتبي والد السيد مكي المرزوقي وكلهم من بيت علم وفضل ، وتبوأوا مراكز حكومية يشار إليها بالبنان فكانوا محل الاحترام والإكرام والنزاهة إلى أن لاقوا ربهم - رحمهم الله .

هذا السيد كان يسكن بأجياد على رأس جبل الصفا بدحديرة (منحدر) السنوسي على ما أسمع ، لكنه كان يقضي معظم أوقاته بالخلوة المشار إليها التي كانت بجانب خلوة العالم ابن تركي - رحمه الله .

هذا الرجل

هو الذي حرض والدي على الرحلات والأسفار وقوى فيه العزيمة الترحلية بأنواعها وأشكالها وجميع أساليبها حتى حمله على الرحيل إلى الهند بادئ ذي بدء ثم توغل في الرحلات حتى وصل إلى أستراليا ، كما شجعني أيضًا على السفر مرارًا وقال لي : من لم يسافر لا يتعلم أبدًا فقلت له : إذن ما فائدة المدارس التي نتعلم بها الآن إذا كان هذا صحيحًا ؟ ! فقال : يا شاطر ! يعني لا يعرف أساليب الحياة وكيفية التعايش ومعرفة الناس واكتساب الفوائد .

خمس دقائق إلى بيت الخلاء

وخمسون دقيقة حتى يرجع إلى خلوته، هل تصدق ذلك؟ نعم صدقه، وقد رأيت ذلك مرارًا، كان ثقيلًا في مشيته جدًا وكان إذا جاء من المسجد خلع ثيابه، ثم لبس الفوطة فوق اللباس وقبل أي شيء يملأ الإبريق ويذهب إلى بيت الخلاء فكان يمشي مشية ثقيلة في غاية البطء، وكنا نقطع المسافة في أقل من دقيقة في حين كان يقطعها في خمس دقائق وهذا لا يهم، إنما رجوعه كان يستغرق يأخذ خمسين دقيقة؛ لأنه يتعهد أحبابه من أصحاب الخلوات ويقف مُسلِّمًا وداعيًا لشرب الشاي الصيني. وبالجملة كان أول ما يقف على خلوتنا فينادي ـ بعد السلام والسؤال ـ يقول عندنا الآن الشاي جاهز فيلبي الوالد الدعوة حالًا ويتركني وحدي، حتى ولو كان عندنا أحد الزوار من الجاويين، فإنه يتركهم ويذهب لاحتساء الشاي عند السيد حسين كتبي حتى إني مرارًا ما كنت أقول في نفسي ـ وأطلب من الله السماح ـ ما هذا التلهف الشديد على تلبية تلك الدعوة مع أن الوالد قليل الشرب للشاي بسبب مرض الخفقان؟ كما كنت أقول: ولماذا لا يأخذني معه لأشرب من هذا الشاي؟ وكانت الفرصة سانحة في يوم من الأيام إذ لم يكن عندنا أحد من الزوار. ومر بنا السيد فقال: الشاي جاهز تعالوا اشربوا لكم كأسًا في هذا الصباح، فقال له الوالد: هل آتي بمحمد ابني معي؟ قال: حبًا وكرامة أرجوك أن تصحبه معك دائمًا ليتناول معك من شاهينا. يعني (من الشاي الذي نصنعه).

أول اكتشاف غريب

قال لي الوالد: قم، فقمت وخرجت بعد إغلاق باب خلوتنا وذهبنا إلى

خلوة السيد حسين الكتبي فرحب بنا وتكلم بلغة لا نفهمها مع أناس معممين وجدناهم داخل خلوته ولحاهم في حلوقهم ووجوههم عارية من الشعر وأنوفهم مفطوسة وعيونهم في غاية من الصغر كأنها نقط صغيرة في طبق أبيض وعلى ظهورهم نسيج من القطن على نمط اللحاف وكلهم طأطأوا رؤوسهم وجلسوا كجلوسهم للصلاة وأعينهم لا تنظر لأحد منا كأنما على رؤوسهم الطير من التواضع والاحترام.

ظننتهم من علماء الجن

واعتراني رعب شديد حتى كدت أستأذن بالذهاب إلى بيت الخلاء وعدم الرجوع حتى يخرج الوالد، لأني لم أر منظرًا كهذا من قبل. ولم أر أناسًا بهذا الشكل، يتكلمون بكلام عجيب والسيد الكتبي يتكلم معهم وكأنه منهم وعندما هممت بالهروب قال السيد: اشرب كأسًا من الشاي قبل أن تخرج لئلا يفوتك. فسكتُّ، ثم تكلم مع هؤلاء القوم، فقام بعضهم فوضع الإبريق على الدافور (وابو الغاز) وآخر أحضر أباريق صينية من الصيني المشجر المزركش وعليها قلانس من النسيج المحشو بالقطن وآخرون يفتلون عجينًا كان في طبق وكأن أصابعهم مصنع من مصانع المكرونة أو الشعيرية، ثم أوقدوا وابورًا آخر ووضعوا عليه قدرًا مملوءًا بالماء وصاروا يفتلون ويقذفون في الماء الساخن ويضغطون على الغطاء لمدة دقائق ثم يخرجون العجين ويضعون غيره وهكذا حتى امتلأ قدر من الصيني من هذا العجين ثم أخرجوا أعوادًا على شكل أقلام البوص ووضعوا أمام كل منا عصوين وطبقًا صغيرًا مجوفًا ملأوه من العجين المفتول المسلوق ورشوا عليه بعض البهارات والفلافل.

الشاي الصيني

وقام رجل من هؤلاء بإخراج أربع زجاجات من قوارير الحلوى الكبيرة التي كانت ترد من الخارج وبداخلها حلوى الليمون والنعناع، هذه القوارير كانت مملوءة بأوراق الشاي المقطوف بأوراقه قبل التصنيع، وخيرونا لنختار النوع الذي نشتهيه بلغة لا نفهمها فكان المترجم السيد حسين الذي خيرنا ففوضنا إليه الأمر لعدم معرفتنا بهذه الأوراق التي لم نرها قط، فراطنهم فأخرجوا من إحدى القوارير حفنة من هذا الورق ووضعوها في براد صيني جميل المنظر وصبوا عليه الماء الحار المغلي ثم غطوه بملحفة صينية بحيث لا يصعد منه أي بخار.

الطعام

ثم قال لنا السيد حسين: تفضلوا هذا فطور شيناوي، وشاهي شيناوي والإخوة هؤلاء من علماء الصين وطلبة علم جاءوا للحج والزيارة، ثم عرفهم بالوالد فقاموا وقبلوا يده وكأنه قال لهم هذا من حفاظ المصحف من أئمة الحنفية بالمسجد الحرام.

ثم بدأ القوم يتناولون تلك الأكلة بتلك العصي التي أشرت إليها وكان السيد حسين مثلهم أخذ عصوين وأكل بهما ومد يده إلى الرف وأعطانا ملعقتين لنأكل بهما فكنا نأكل ونتعجب وما أشد إعجابنا بالسيد حسين الذي يأكل بعصوين ويتكلم مع هؤلاء القوم الخزريين والصينيين.

من هو السيد حسين الكتبي

هو أول رحالة مكي يرحل إلى بلاد الصين في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ولكنه لم يدون رحلاته أو لم يعرها أي اهتمام، وقد يجوز أنه سجل بعض مذكراته ولم تمكنه الفرصة من طبعها أو نشرها.

كان ذلك عندما أخذتني الدهشة وأحببت أن أستطلع وأستكشف بعض الحقائق عن حقيقة هذا الرجل العظيم، كيف يتكلم هذه اللغة العجيبة ويفسر للطلبة الصينيين معاني الآيات والأحاديث والمناسك؟ وكيف تعلم الإمساك بالعصي الصينية التي يأكلون بها؟ وقد قمت بسؤال أحد تلامذته الصينيين وكان يجيد الفصحى ومن علماء الصين وحج أربع حجج وهو صديق وتلميذ للسيد ومواظب على المجيء إلى خلوته ويجلس مع التلامذة في حلقة درسه بالخلوة، سألته بعد ما صرت أتردد على السيد ـ رحمه الله ـ بعد سفر الوالد وبعد اختلاطي بطلبته وعرفت عنهم الكثير أنهم أناس مثلنا خلقهم الله على هذه الهيئة التي ذكرتها من قبل، صغار الأعين والمناخير والأقدام ولغتهم كالطيور ومخارج حروفهم من الأنوف غالبًا وسيأتي خبرهم مفصلًا وموضحًا ـ إن شاء الله ـ عندما أصل إلى ذكر أهل الصين عندما زرت بلادهم في الخمسينات وفي التسعينات.

سألت هذا الرجل واسمه غياث الدين من مواليد بكين، قال لي: إن هذا السيد (ويقصد به السيد حسين الكتبي) رحل في شبابه إلى بلاد الصين وتجول كثيرًا في بلدان شرق آسيا وجنوبها حتى استقر به المقام في بلاد الصين وقد أسلم على يديه كثير من أهل بلادنا وهو رجل مبارك تعلم اللغة الصينية بسرعة

مع أنها من أصعب اللغات في العالم ولا يتكلم بها أحد في بلادكم غيره، قلت له: ولا المطوف؟ فقال: ولا المطوف، إلا بعض الكلمات التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

ومن ذلك اليوم جال بخاطري وتمنيت أن أكون مثل هذا السيد الذي يتكلم بهذه اللغة العجيبة، أو مثل والدي ـ رحمه الله ـ الذي يجيد لغة الماليزيين والجاويين والبوقسيين والهنود. وقد بلغني الله سبحانه وتعالى من السياحة في الأرض حتى زرت جميع الأقاليم والأقطار التي على وجه البسيطة ابتداء من الخمسينات حتى التسعينات، ولكني حاولت التحدث بلغة الصين فلم أستطع.

الخلوة الثالثة برباط الباشا

والخلوة كانت من ذوات القبتين أيضًا وكان يسكنها المرحوم الشيخ عيسى الدهان وكان يدرس بها لبعض الطلبة ويذاكر فيها العلوم الدينية التي يتلقاها من العلماء العظام، وقد كان والده وعمه ـ رحمهما الله ـ من العلماء البارزين والقضاة، ولهما ذكر وتاريخ في تراجم بلد الله الأمين وبخاصة في كتاب (النور والزهر) من تأليف المرحوم عبد الله مرداد عم والدي.

أما الخلوة الرابعة ذات القبتين فكانت باسم قاضي القضاة في زمن الأتراك والأشراف لكن الذي يسكنها هو المرحوم السيد الإدريسي الذي كان بواردیًا عند صاحب الخلوة، وسيأتي تفسير هذه الكلمة التركية مع نبذة من حياة الإديسي. فكانت ممن لهم خلوة بهذا الرباط المرحوم الشيخ أمين مرداد كان أمينًا للفتوى ومن العلماء الأعلام وهو عم والدي ـ رحمه الله ـ وخلف من بعده عليها ابنه الصالح الشيخ محمد أمين مرداد.

ومن سكان هذه الخلوات المرحوم الشيخ عبد القادر الكردي وابناه الأستاذان الكبيران : محمد طاهر الكردي الخطاط المؤرخ المحامي الشهير وكان لهم بيت كبير في الخريق ولا يأتون الخلوة إلا للمذاكرة وطلب العلم ، ثم خلوة المرحوم الشيخ أحمد الكردي مطوف الأكراد ، وخلوة المرحوم الشيخ علي دلاّل من خدام الحرم الشريف وخلوة المرحوم الشيخ عبد الحميد خان والشيخ عباس خان والمرحوم الشيخ عبد الله غازي المؤرخ الشهير وغيرهم وغيرهم وكل هؤلاء يسكنون هذه الخلوات نهارًا لاشتغالهم ومذاكرتهم ولم أكتشف ذلك إلا بعد عام عندما أعلنت الثورة واستوطنت الخلوة حتى تخرجت وتزوجت وسافرت كما سيأتي إن شاء الله .

كان برنامجي كما قرره الوالد ـ رحمه الله ـ بعد صلاة الفجر : دخول الحرم الشريف والمدارسة بالخصفة التي ذكرتها من قبل والتي يأتي إليها بعض علماء مكة يقرؤون ما تيسر من القرآن ثم يذهبون إلى حلقات الدرس لتعليم العامة والخاصة ، ثم الذهاب إلى الخلوة مع الوالد حيث يأتي إليه طلبة من مختلف الأجناس يتعلمون القرآن على نمط عمي جمال ـ رحمه الله ـ ومن هؤلاء الطلبة بعض حجاج جنوب إفريقيا (كيب تاون) ودار السلام من (بنغالة) ولكن الأغلبية كانوا من سكان جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) . فإذا تجاوزت الساعة الثامنة[1] صباحًا ذهبت إلى الفلاح ، وفي المساء عند الوالد إلى المغرب ،

---

(١) هذا حسب التوقيت الزوالي وهو شيء جديد على هذه البلاد ، طرأ في التسعينات من هذا القرن .. ولذا كان حديث « الرحالة السعودي » هنا عن فترة من الزمن قديمة قبل دخول نظام التوقيت الزوالي في هذه البلاد .

ثم إلى البيت، هكذا حتى انقضى شعبان ودخل الشهر الكريم، ثم كانت صلاة التراويح بالمسجد الحرام بعد صلاة العشاء مقسمة إلى ثلاثة أقسام: عشرين ركعة مع الوالد والمرحوم الشيخ عرابي سجيني وابنه إبراهيم ـ أنا وإبراهيم ـ أئمة، ويستمع إلينا الوالدان ـ رحمهما الله ـ وفي أغلب الليالي لا يحضران لكثرة مشاغلهما الدنيوية ومعالجتهما وما إلى ذلك.

وبعد ذلك أذهب إلى باب الصفا مستمعًا للشيخ أمين الدهلوي ابن المرحوم عبد الباري الدهلوي شقيق المؤرخ المرحوم عبد الوهاب الدهلوي، بعد ذلك نذهب إلى بيت المندورة أنا والوالد ـ رحمه الله، ثم يتقدم المرحوم حسن مندورة ابن المرحوم الشيخ عبد الله إسماعيل مندورة، فيصلي عشر ركعات بالختمة وأنا المستمع والمصلي، وفي آخر الشهر أحصل على كسوة ومكافأة مالية من الجميع.

وكان الوالد كالعم كثير الولائم للضيوف من الحجاج على حاملًا أطباق المهلبية وقمر الدين والخشاف وأرجع بها مملوءة بالحلوى (جوز الهند والكُرُوبُو، وجاء العيد السعيد عيد الفطر المبارك وتحصلت على بقاشيش (حلوانات) من الكثير من الحجاج وجمعت الدراهم وحولتها إلى دنانير وأخفيتها في الطيارم، و(مغارات صغيرة في الأسقف وبعض الحيطان) لتكون عدتي عند اللزوم.

المذاكرة

جاء شوال وكثر الضيوف عند الوالد والعم ـ رحمهما الله ـ بالطبع أنا وعبد القادر وعبد الكرام الضيف المندوري المريض كلنا كنا في الخدمة. وجاء ذو

القعدة، والحال كذلك ولم أجد وقتًا للمذاكرة إلا بالحيلة واقتناص الفرص وأين هي الفرص؟ وكان الاختبار في مدرسة الفلاح يبدأ من ١٨ ذي القعدة وينتهي على آخر الشهر ثم تغلق المدرسة إلى المحرم من العام الجديد ولم تكن عطلة صيف آنذاك ونحن في السنة السابعة - يعني أولى عالية - ومعظم العلوم كان الامتحان فيها تحريريًا ومعظم المختبرين من المسلمين المجاورين في مكة ومن علماء مكة والله سترنا بستره وانقضى الامتحان على أكمل وجه.

النجاح

ولله الحمد قد نجحت إلى السنة الثامنة وكان ترتيبي العاشر وفرح الوالد بذلك وأعطاني مكافأة سخية وقرر - بعد ما كان مترددًا - بقائي بالخلوة بعد سفره لحفظها وحفظ المكتبة والمذاكرة سواء بقي عبد الكرام المندوري أم لم يمكث، وقد داهمه المرض وصمم على الرجوع ولم يقم بمكة إلا أيام الحج ورجع إلى بلده قبل الوالد أي قبل سفر الوالد.

العام الثامن والأربعون الهجري

ودخل العام الجديد وسافر الوالد بسلامة الله إلى الهند ومنها إلى جاوة وإبقائي بالخلوة حسب تقريره وأوامره، تسلمت منه المفتاح وودعناه بسلامة الله ثم سلكت الخطة التي رسمها لي وهي جلوسي ونومي وأكلي عند عمي وعماتي بباب الدريبة وفي الصباح إلى المدرسة وبعد الظهر إلى البيت أقضي بعض اللوازم وأتغدى ثم أذهب إلى الخلوة برباط الباشا بباب الزيادة من بعد العصر إلى المغرب للمذاكرة وتبويب الكتب الموجودة بمكتبة الوالد التي

تسلمتها بسند وكلفت بأمرها ، وليس لي منها سوى المطالعة إذا احتجت ، وفي صباح يوم الجمعة أذهب إلى والدتي وإخوتي بسويقة وأقيم معهم إلى المغرب أقضي لهم جميع لوازمهم الأسبوعية وأذهب في المغرب إلى البيت بباب الدريبة ولا أذهب إلى الخلوة في ذلك اليوم مطلقًا حيث هو اليوم الوحيد الذي أقضي فيه إجازتي مع أسعد إنسانة وإخوة حرمت منهم طيلة أعوام كثيرة .

مراجعة الكتب

كتب الوالد كانت ذخيرة وكنزًا بالنسبة لي حيث كان معظمها تفسير وحواش على الكتب المقررة عندنا بمدرسة الفلاح بل بعضها لا يوجد حتى وبدار المعلومات (المكتبة الخاصة للمراجعة بمدرسة الفلاح) فصرت أطالع بعضها وأعلق على الدرس الذي سنُعطاه في اليوم التالي في الفلاح ولو ببعض جمل أحفظها جيدًا حتى إذا ألقى الأستاذ ولقن الواجب المقرر أعارضه ببعض ما علق في ذهني من تلك المطالعة ، فألقى تشجيعًا عظيمًا من الأساتذة أمثال المرحوم العلامة الشيخ يحيى أمان والشيخ أحمد ناضرين والطيب المراكشي والشيخ عمر حمدان ـ رحمهم الله ـ حتى إنهم أسندوا لي عمل شاي الفسحة وتوزيعه عليهم وأنا أشرب معهم وأجالسهم حتى حسدني بعض زملائي الذين كانوا يقومون بهذه المهمة كيف أخذتها عليهم؟ وعندما يأتي ذكر أسعار الخضروات واللحوم كنت أعرض عليهم أسعارًا رخيصة لاحتكاكي بالأسواق حتى أوكلوا إلي شراء مقاضيهم كل يوم وإيصالها في الفسحة برخصة خاصة من دون أن يعارضني مراقبو المدرسة ، وهكذا اكتسبت معرفة وصداقة الأساتذة

العظام بهذه المدرسة وأخيرًا بدأت أشرح لهم قصة حياتي من يوم ولادتي إلى ذلك العهد .

معارضة من العم رحمه الله

وفي يوم من الأيام قال لي العم ـ رحمه الله ـ : غدًا عندنا وليمة ولا حاجة لذهابك إلى المدرسة ولا الخلوة ؛ لأن عبد القادر وحده لا يستطيع أن يقوم بخدمة الضيوف والمباشرة وما إلى ذلك ، فامتنعت وأبديت وجهة نظري نحو الخلوة والمدرسة والمذاكرة ، وخاصة إن ترتيبي كان قد تحسن وقفز إلى العاشر في الصف لأول مرة في حياتي ، فسكت ولم يجبني غير أنه أسرها في نفسه وحاسبني عليها فيما بعد عندما اشتدت الأزمة بيني وبينه ـ رحمه الله .

الامتحان النصفي

وكان يجري في نصف السنة في شهر جمادى الآخرة وكانت عندي أرصدة عظيمة من المراجع والكتب القيمة وكنت في الوقت نفسه محل إعجاب الأساتذة الذين اكتشفوني فجأة بسبب ما أعلقه في ذهني يومًا لكل مادة من المواد التي كانت تلقى علينا في التفسير والحديث والأصول والتاريخ والنحو والصرف والبلاغة ، وكان هذا الاختبار محليًا لا يختبره الأساتذة أنفسهم إنما تختار الإدارة أستاذًا غير أستاذ المادة المعينة ، فمثلًا أستاذ الفقه كان يحيى أمان ، فيبعثون لنا الشيخ عيسى رواس بدلا عنه ، وأستاذ التاريخ كان المرحوم الأستاذ حامد كعكي فيبعثون بدله أستاذنا الكبير الشيخ عبد الوهاب آشي وهكذا دواليك .

أنا الأول (البرنجي)

وجرى اختبار نصف السنة وصعدت فجأة وأخذت الأولية بلا منازع ولا مجادل فصرت بهذه المرتبة إنسانًا آخر في عين المدرسين والزملاء فحمدت إلهي على ما أولاني به من نعم وصرف عني من نقم، كما أعطيت عنوان خلوتي للزملاء الذين يريدون مذاكرة أو مراجعة بعض الكتب حتى الأساتذة أخبرتهم بذلك فكان بعض منهم يزورني بعد العصر، ويطلع على بعض الكتب الموجودة بالمكتبة فيتعجبون ويندهشون إذ من غير المعقول لطالب صغير مثلي أن تكون تحت يده وتصرفه مكتبة تضم كتبًا قيمة ومراجع يشار إليها بالبنان، وبالإضافة إلى هذه الكتب صرت أشتري بعض الكتب النادرة من تواريخ وتفاسير، بالدراهم التي كنت اكتنزها.

معاكسات أخرى

عندما نجحت بالمرتبة الأولى في السنة الثامنة بالفلاح كتبت لوالدي ـ رحمه الله ـ فبعث إلي بنقود جاوية وأبدال مع بعض أصدقائه من حجاج مدورة ومكاسر ومانيلا، وأشعرني بأن أصحح لهم سور الصلاة على النمط الذي كان يجريه عند حضوره، فصرت أصلي الصبح في المسجد وحالًا أذهب إلى الخلوة لتعليم الحجاج واكتساب الدراهم التي لم أعهدها ولا كنت أحلم بها، وقد كنت كتبت لوالدي بأن العم يسعى في منعي من الخلوة الخاصة وربما من المدرسة وخاصة في أيام الموسم وأنا في مثل هذه الأيام شخص غير عادي، وما مضى سابقًا لا يمضي الآن ولولا هذه الخلوة ومطالعة الكتب ما كنت لأصل إلى البرنجية (الأولية) وأرجو من والدي العزيز أن يكتب بلطف إلى

العم في هذا الشأن وإلا فإن الخلوة سوف تغلق وسأرجع إلى سيرتي الأولى وحياتي التعسة وسأرجع إلى التشرد والهروب ، فما كان من الوالد إلا أن كتب كتابًا شديد اللهجة إلى العم ـ رحمه الله ـ وكتب إلي بذلك وقال : إذا زاد الحال فلا تشاورني وأنت رجل لا تحتاج إلى رعاية ولا إلى وصاية .

وكلاء الوالد

كما كتب إلي أن أراجع الوكلاء ليتفاهموا معه بالحسنى وكانوا أصدقاء للطرفين وكان الوكيل المالي الذي يسلمني مصروفًا شهريًا أقبضه منه وأسلمه ليد الوالدة هو المرحوم الشيخ عبيدالله الدهلوي . والوكيل على الأولاد والبنات والمراجعات الخاصة كان المرحوم عمي جمال . والوكيل في الخصومات والمصالحات وما إلى ذلك كان المرحوم السيد محمد الدحلان ، والوكيل للمقاضي الأسبوعية وطلبات البيت المرحوم الشيخ أحمد باسلاسل صاحب المعصوب المشهور في ذلك العصر .. ذهبت إليهم جميعًا وقصصت عليهم قصتي فساهموا جميعًا في المفاهمة ولكن العم كان مصممًا على ما هو مصمم عليه .

مؤتمر من الأساتذة والعلماء

ذات يوم من أيام رجب وبعد إحضاري لشاي الفسحة لحضرات الأساتذة إذا بالمرحوم الشيخ يحيى أمان يقول لي : أيش عندكم اليوم يا ولد ؟ لقد جاءتنا دعوة من عمك أنا والشيخ العربي والمدير الشيخ عبد الله حمدوه والشيخ أحمد ناضرين لتناول الغداء هذا اليوم بداركم بباب الدريبة ، قلت : لا علم لي

بذلك . وقد صرت أفكر طويلًا ، كيف يحصل شيء كهذا وليس لي به علم لا من العمات ولا من العم ولا من صهره المالكي وكنت خرجت في الصباح كعادتي ، وليست هناك دلائل تدل على إقامة وليمة وكان المفروض أن أكون أنا المُبلِّغ للأساتذة بهذه الدعوة ، وأنا المسئول عن المقاضي .. وعن كل ما هو متعلق بهذا الشأن . لكن أن أفاجأ بموضوع كهذا وليس لي به علم ، أمر يدعو للغرابة والدهشة والحيرة .

وقبل أن تنتهي الفسحة واحتساء الشاي هداني تفكيري إلى أن الموضوع ربما كان بسببي ؛ لأن الأزمة بلغت منتهاها معي بسبب امتناعي وعدم امتثالي للأوامر ، فقلت للمرحوم الشيخ يحيى أمان ربما كانت الأزمة من أجلي ؛ لأن العم قصده حرماني من الخلوة . وقد سبق أن شرحت لهم قصتي وعندهم رأس مال كبير عن أحوالي ، ولم يبق إلا المدير فهو الذي ليس عنده علم بشيء من أمري فتكفل المرحوم الشيخ الطيب المراكشي أن يُفهمه الموضوع برمته وهو في طريقه إلى باب الدريبة ؛ لأنه كان وكيلًا للمدير وصديقًا حميمًا له .

بعد الظهر

وما أن انتهينا من صلاة الظهر جماعة بالمدرسة ، حتى هرعت إلى الدار بباب الدريبة ؛ لأخبز العيش كعادتي وأقوم بشراء اللوازم كالمعتاد ، وإذا بالعمة تقول : لم نخمر اليوم عيشًا وسيأتي الطعام جاهزًا خالصًا من عند (مكُّو) الطباخ . وكان بعض الناس في مكة أو معظمهم يكلفون أصدقاءهم من الطهاة الممتازين أن يصنعوا لهم حلة من الزُّربيان أو الرز البخاري مع اللوازم والتوابع ثم يأتي بها ذلك الطاهي خالصة على رأس خادمه في مقابل ريالات بسيطة .

قلت لها : ومن المدعوون ؟ فقالت : لا علم لي بشيء ! فنزلت إلى محل الضيوف ـ بهو الاستقبال ـ وإذا بالسيد عباس مالكي ـ وكان صديقًا وصهرًا للمرحوم عمي ـ والشيخ علي مالكي وباسلاسل والدحلان ثم جاء الأساتذة من الفلاح ، المدير « حَمدوه » ووكيله الطيب والمراكشي ، والأمان ، والعربي ، وناضرين ـ رحمهم الله أجمعين .

وما هي إلا لحظات وإذا بالطاهي (مكُّو) جاء إلى البيت قارعًا باب الدار وكان خلفه حاملان يحملان الطعام في صحاف : (تباسي) كبار وبعض الأطباق على نمط الأطباق التي توضع في موائد العرس وبعض الحلل فيها السنبوسك (لفائف من العجين محشوة باللحم المفروم والأبازير والبصل ، والكلمة هندية من الدخيل ويقابلها في التركية (بوريك) إلا أنه على شكل السيجار الغليظ ، ثم حلة مملوءة بالطرمية (نوع من الحلوى الشامية والتركية ولا مقابل لها في العربية) لأنها عجمية محضة وصنعها من الدقيق المبسوس بالسمن والبيض ثم تنصب في قوالب مستطيلة صغيرة على شكل لإصبع الإنسان وبعد ذلك يضعونها في طاجن كبير فيه زيت مغلي ، حتى إذا ما نضجت وضعت في سكر محلول معقود ومغلي على النار يقال له (شيرة) وهي من الدخيل أيضًا .

المائدة

كان الطباخ قد وضع ما يحمله وخرج ، ووعد بأن يعود في اليوم التالي لأخذ الأواني والأجرة . ثم طلعت بالطعام أنا وعبد القادر وبسطناه على الخوان . وتفضل المدعوون فأكلوا حتى إذا ما شبعوا وغسلوا الأيدي ، نادوني .

وكان المنادي المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه مدير الفلاح، فحضرت وجلست كجلسة الخصم أمام القاضي فقال: يقول عمك كذا وكذا، وإنك كتبت لوالدك كذا وكذا، وهذا الكتاب بأيدينا .. هل يليق منك كذا وكذا أنت من أبناء الفلاح وحائز الأولية؟ ولم يبق لك إلا عام واحد ثم تتخرج أستاذًا ـ إن شاء الله ـ فهل من المعقول أن يكون كذا وكذا؟ حتى إذا ما انتهى من حديثه بدأت في المعارضة وشرحت الأسباب التي جعلتني أواظب على الذهاب إلى الخلوة كل يوم من بعد العصر إلى المغرب بأمر من والدي، وعمي وصهره يشهدان بذلك فلماذا أُمنع الآن؟ فهل ثبت علي ما ينافي بقائي بها؟ وهكذا ...

فاستدار ـ رحمه الله ـ إلى عمي وقال له: هل كلامه صحيح وأنه جالس بأمر والده؟ فقال: نعم! ولكن والده غائب عن البلاد وأصبح كالغريب عنها لا يدري عن أحوالها شيئًا وهذا زمن الفساد وكذا وكذا.

فالتفت ـ رحمه الله ـ إلى المشايخ وقال لهم: ها، ما تقولون يا جماعة؟ أعطونا رأيكم! فتكلم كل واحد منهم بما يتفق ومصالح العم طبعًا، هذا أمر متفق عليه، ومن يسمع لمثلي وأنا واحد صغير خجول ولا أدري ماذا أقول أمام هؤلاء الشيوخ والكهلة؟!

وأمرني المدير ـ رحمه الله ـ أن أخرج من المجلس إلى أن ينادوني، فخرجت، ولكن غير بعيد عما يقولون ويقررون. وشرع كل واحد يناجي الآخر ثم يناديان العم فيهز رأسه أحيانًا، ويقطب جبينه أحيانًا، حتى إذا ما انتهوا من المشاورات والإيضاحات ناداني المدير فحضرت، جلست في وسط القوم ثم كشر وقطب وجهه وحملق عينيه، وقال: قد قررنا جميعًا أن تذهب

إلى الخلوة يومًا بعد يوم من بعد الانصراف عصرًا إلى ما قبيل المغرب بشرط أن تصلي في الدار ، فعارضت فلم يُسمع لي ، ونهض كل واحد من القوم وقال : ولا كلمة ما عليك إلا الإذعان ولا تعارض ولا يُسمع منك كلام ولا بيان وإلا فالعقاب والحرمان ، هداك الرحمن وأبعدك عن الشيطان .. فوافقت على مضض واضطرار ولم يسمع مني الحوار ولا التكرار .. ثم أمرت أن أقوم مُقبلًا لرأس العم - رحمه الله - فامتثلت الأمر ، وسلمت على الهامة وقبّلتُ كل الحاضرين فدعوا لي بالتوفيق والهداية وانفض المجلس على خير ولكن لم يكن ليجيء في صالحي ومع ذلك تذرعت بالصبر وامتثلت الأمر وانصرف القوم وكان ذلك يوم الخميس .

الخلوة ندوة

في اليوم التالي بلّغتُ أساتذتي الذين حضروا المؤتمر : إنه ليس في صالحي ولكنكم أرغمتموني وقرعتموني وخاصمتموني .. فقالوا : تذرع بالصبر الجميل وقل حسبي الله ونعم الوكيل .. ثم تسامع بقية الأساتذة عن قصتي ، وزملائي في الفصل كذلك فصاروا يواسونني ويزورونني في الخلوة في اليوم الذي أذهب فيه إليها ، بعض يذاكر وآخرون يطالعون في الكتب القيمة ومنهم من يصنع الشاي ، فكانت تلك الأمسية تسلية وراحة ومشاورة وتبادل آراء وخاصة في موضوعي وفي ذلك الوقت كان المتخرجون الجدد أصدقاء لأهل الصفوف العالية ؛ لأنهم كالإخوة بالنسبة للأعوام الكثيرة التي قضوها في الزمالة والصداقة والجوار ؛ لأن الصفوف في مدرسة الفلاح متقاربة ، كلها مجالس متجاورة وأهل العالية تجمعهم طبقة واحدة في المدرسة فكان الطابق الرابع

مخصصًا لأهلها، فكانوا يتبادلون الزيارة والاجتماع في (الفسحة) والصلاة جماعة كأنهم إخوة.

وممن كان يزورني في الخلوة من أصدقاء العم - رحمه الله - الأستاذ المرحوم سعيد خفاجي، كان من خريجي المدرسة الصولتية ومن أساتذة المدارس الحكومية، وقبل ذلك كان من أساتذة مدرسة الخياط بالمسعى، فكانت زيارته لي بالخلوة بعد العصر نوعًا من الرقابة والوصاية من جانب العم، وأخيرًا جعلناه من الأصدقاء إلى أن بلغ بنا الأمر منتهاه، فصارحناه في يوم من الأيام وكنا جماعة، وكان دمث الأخلاق حلو النكتة والفكاهة، قلنا: له: لو أردنا أن نتمشى في إحدى الأمسيات هل تتمشى معنا من غير أن تخبر العم؟ خوفًا من تعرضي للجزاء والشكاية على إدارة المدرسة، فوافق - رحمه الله - وتعهد بعدم الإفضاء بشرط أن يكون الرجوع قبل المغرب حتى لا ينكشف الأمر ويعلم العم، فيتعرض للوم والعتاب.

كل خميس تمشية

وكان يوم الخميس من أحسن الأيام للتمشية؛ لأن الانصراف بعد الظهر من غير رجوع إلى المدرسة (كالعادة) وكنت أحضر إليها قبل العصر بساعة، وكنا نعد من الصباح في المدرسة لذلك، فكان يأتينا بعض الإخوة في الميعاد المحدد.

وكان أكثر تمشيتنا نحو بركة (ماجل)[1] وزروع المسفلة وكانت هناك بعض

---

(١) يسميها الناس في مكة اليوم (بركة ماجد) بالدال، وصحتها باللام على ما أذكر.

المقاهي بعد بستان البخاري وبعد البركة وفي سفوح الجبال .. وكان بيت المرحوم أستاذنا البخاري على مقربة من بستان البخاري ومن تلك المقاهي ، فكنا نزوره أحيانًا ونشرب عنده الشاي ونذاكره في بعض المسائل ، وخاصة عندما يكون الأستاذ الخفاجي معنا ؛ لأنه يذكره بأيام زمالته في المدرسة الصولتية .

المرحوم السيد علوي مالكي

كان من المواظبين على زيارتي وخاصة في يوم الخميس المرحوم العالم الجليل السيد علوي مالكي حيث كانت تجمع بيننا وبينه قرابة وصلة رحم ، إذ كان المرحوم عمي جمال متزوجًا بابنة أخته ، ووالده كان من السُمّار في معظم الليالي عند العم . وكان يرافقه المرحوم العلامة الشيخ علي مالكي ، وأحيانًا يشرفنا العلامة السيد محمد أمين كتبي والمرحوم الأستاذ صالح كاشف والمرحوم علي جعفر ، فكنا نخرج من الخلوة بعد عصر الخميس ، متوجهين إلى بركة ماجل للجلوس في إحدى ركبان البرسيم أو سفوح الجبال المطلة على تلك الزروع ، وإذا كان الأستاذ الخفاجي معنا يحملنا على الذهاب إلى أحد المقاهي لاحتساء إبريق من الشاي المنعنع ؛ لأنه كان يحب التسلية ولا يتقيد بروتين ولا بقوانين .

وإذا ثار العجاج أو كان الجو حارًا ذهبنا إما إلى بستان البخاري وإما إلى الشيخ الأمان ، وغالبًا ما نجد عنده العلامة الشيخ حسن المشاط ـ رحمه الله ـ لأنه من زملائه بالصولتية ومن أصدقائه المخلصين ، وكان يسكن بجوار بيت الشيخ الأمان زميلنا الأستاذ حسن سندي الذي كان زميلًا وصديقًا مخلصًا

إلى حين التخرج، كما كان أستاذًا معي بالمدرسة السعودية بمكة المكرمة حينما أصبحت مديرها في الستينات، وكذلك الأستاذ المرحوم سعيد خفاجي كان أستاذا بالمدرسة، ففي السنوات اللاحقة عندما تقدمت بنا السنوات ومشاغل العمل كنا نتذكر تلك الأيام وتلك الأمسيات حتى إننا عدنا إليها من جديد ونحن أساتذة في المدرسة السعودية لنجدد الذكريات.

ولكثرة ما تردد من تلك الذكريات في الفسحة بالمدرسة السعودية بسوق المعلى، تقدم الأستاذ محمد طاهر الكردي الخطاط ـ رحمه الله ـ وكان من جملة أساتذة المدرسة السعودية، تقدم بهذه الفكرة: (إحياء تمشية الخميس) التي كنا نمارسها أيام الخلوة وتكفل الأستاذ حسن ألطف، وكان أستاذًا معي بالمدرسة أيضًا، تكفل بأن يتولى طهو الغداء، فكان يأخذ من كل أستاذ قسطه من المنصرفات وكان ـ بارك الله فيه ـ يجيد أنواعا من الأكلات الشهية وله مزاج خاص في ذلك، وكان الأساتذة يجتمعون كل خميس بعد الظهر بالإدارة ثم تمد المائدة مع الفاكهة أو أي نوع من المهلبيات ثم يصب الشاي والقهوة.. وكنا جميعًا أكثر من عشرين أستاذًا، وكان نصيب الواحد منا لا يزيد عن سبعة قروش دارجة، ثم بعد الغداء واحتساء الشاي يتوجهون إلى بيوتهم أو إلى إحدى الضواحي للتنزه، أو للمذاكرة في فنون الأدب والشعر والقصص، وكان الأستاذ المرحوم الخفاجي والأستاذ المرحوم محمد طاهر الكردي، كانا من زعماء الفكاهة والنكتة والمزاح في حدود الأدب والوقار. وأكثر ما كان يتحفنا الأستاذ الكردي بقصائده الفكاهية المشهورة، التي لا تبعد عن وصف المائدة والشاي والقهوة.

قصائد في التمشية

وكان المرحوم العلامة السيد علوي مالكي زعيم الأدب في تمشية الخميس فكنا إذا اجتمعنا في ركيب من ركبان الزروع بالمسفلة ببركة ماجل أو بأحد المقاهي، كان يتحفنا بقصائد من شعره الجميل وكان حديث التخرج والتدريس إذ كان تخرجه قبلنا بعامين، والأستاذ محمد أمين الكتبي كان تخرجه قبلنا بثلاثة أعوام، كما كان الأستاذ الكردي المذكور يتحفنا بقصائده الشهيرة في المديح والأوصاف والسيد الكتبي في الزهر ومدح المصطفى ﷺ ومن جملة ما دار من قصائد في تلك الأمسيات الخميسية من قريض السيد علوي مالكي ـ رحمه الله ـ قصيدة بعنوان:

قد صفا الأنس عصر يوم الخميس
فخرجنا والشمس حول الغُطوس
وقصدنا في السير بركة ماء
.... الخ

ولا يحضرني الآن بقية القصيدة إنما أظن أن ابنه العلامة السيد محمد علوي المالكي لديه القصائد التي قالها والده المرحوم برمتها، ويا حبذا لو تكرم بطبع ديوان خاص بهذه القصائد، وحبذا أيضًا لو تكرم ببعث هذه القصيدة إلي في مصر؛ لأنه يعرف عنواني هناك وقد زارني في مصر حيثما كان طالبًا بالأزهر الشريف في كليات الشريعة، وذلك كي أبعث بتلك القصيدة إلى المنهل لنشرها ـ إن شاء الله ـ وله الفضل في ذلك.

جماديان ورجب

وعامة مكة تطلق على هذين الشهرين كلمة (جُمُد) بضم الجيم والميم ثم الدال المهملة ، وكان الغريب يصل إلى مكة من أول جمادى الأولى ، ثم إذا هل شهر رجب وتكاثر الضيوف على العم والتلاميذ من (كيب تاون) و(جزر الهند الشرقية) يبدأ ـ رحمه الله ـ في طلب العون مني كعادته لأساعده صباحًا في تعليم طلبته إلى وقت المدرسة كما طلب مني أن أترك الذهاب إلى الخلوة نهائيًا حتى ينقضي الموسم ، وفي الوقت نفسه يكون عندي طلبة من الجاويين يبعثهم الوالد ـ رحمه الله ـ ويوصيني بهم خيرًا ، فكنت أترك (الخصفة) التي هي (الربعة) والتي أشرت إليها والتي كانت تبدأ من الإسفار إلى الشروق لقراءة القرآن في حصوة الصفا أو بني شيبة .

وكان الوالد قد خصص يوم الجمعة لأمي وإخوتي من الصباح حتى الغروب لقضاء اللوازم والفسحة مع إخوتي ، وقد حرمت منه أيضًا بسبب الولائم المشار إليها ، وأعظم من ذلك كله قرب الامتحان وخاصة نحن في السنة الثامنة وأنا الأول وما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا بالخلوة والمكتبة والمذاكرة مع اختصار في الوقت (يومًا بعد يوم) كما حكم المؤتمر ، فازداد همي وضقت ذرعًا وعرضت أمري على أصحاب عمي وعلى الأساتذة الذين حضروا المؤتمر وعلى أصدقاء الوالد ، ولكن من دون جدوى كلهم يقولون : « هذه المسائل داخلية ولا يمكن التباحث فيها » ، وأخيرًا أعلنت العصيان ولكن(مكره أخاك لا بطل) .

التمرد

وليكن ما يكون ، شاربي قد نبت ووجهي قد تبقَّل وسني سبعة عشر ،

وليقل الناس ما يقولون فجسمي قد تمرن على العقاب وقدمي قد ألفت الهرب وتسلق الجبال، وأعوامي الطوال قد قضيتها في الغربة ما بين الزيمة ومكة والمضيق والطائف. وقلت في نفسي: ما الذي سيكون؟! هل يقودونني بجبتي وعمامتي وكتبي إلى السجن؟ لا أعتقد، وإن يكن الأمر كذلك فالسجن أحب إلي من هذه المضايقات وخاصة بعد ما ذقت طعم الحرية التي مرت كالطيف أو كالسراب، وما هي إلا أيام قلائل حتى رجعت الليالي الحالكة والمضايقات المهلكة، أصبحت يومًا من الأيام في بيتنا بباب الدريبة وقد أجمعت أمري من الليل.. تركتهم ينامون وصعدت إلى الطيارم في الخارجات والمبيتات وأخرجت ما كان عندي من نقود مخبوءة وجمعت جميع كتبي وملابسي والقوم نائمون وخرجت متجهًا إلى الخلوة، وضعت حوائجي ونقودي وتناولت طعام الإفطار وذهبت إلى المدرسة ولم أخبر أحدًا بشيء.

وفي الظهر لم أذهب كعادتي إلى البيت ولم أفكر في شيء مطلقًا بل بقيت بالمدرسة، تغديت واحتسيت الشاي في بهوها؛ لأن بها بهوًا كبيرًا ومتنزهًا في سطح جبل أبي قيس وبها مقهى ومطعم مدرسي يباع فيه من المعلبات والمجففات والجبن والزيتون والخبز وما إلى ذلك من غير طبخ، وكثير من الطلبة يتناولون غداءهم في المدرسة، ومعظم الأساتذة. وهناك متسع من الوقت فيما أراد أي طالب أن يتغدى بالسوق أو يذهب إلى الحرم؛ لأن الفسحة ساعة.

ولكنني خفت من الخروج وهذا أول يوم أعلن فيه التمرد من غير أن يعلم أحد، وكان بالدار الخادم عبد القادر الذي قام بواجبي نحو خبز الألواح وشراء

(المقاضي)[1] وإني لأعلم علم اليقين أن العم وصهره لا يمكنهما الخروج ظهرًا إلى مدرسة الفلاح للسؤال عني ؛ لأنهما منهمكان في تدريس الجاويين . وجاء العصر وخروجنا منصرفين بسلام .. ذهبت رأسًا إلى الخلوة وقبل الوصول إليها تزودت من باب الزيادة بقرصين من الشريك[2] وقطعة من الجبن والحلوى (اللَّدو) وهي (كلمة هندية بمعنى الحلوى المصنوعة من دقيق الحمص والسمن والسكر) ، جلست في الخلوة خائفًا أترقب الهجوم من قبل العم في أي لحظة حتى جاء المغرب فلم أنزل إلى المسجد بل صليت في الخلوة بعد ما قفلتها من الداخل ثم فتحتها وجلست للمذاكرة إلى العشاء فلم يصلني أحد ، وقد صليت داخل الخلوة بعد قفلها من الداخل وبعد ذلك فتحتها على مصراعيها وأشعلت مصباحًا (أتريكًا) كان عندي ثم جلست أنفض الغبار عنها وأرتبها وأنسقها والسكان يستغربون ما الذي حصل ، ولكنهم لم يجرؤوا على السؤال ؛ لانهماكي في الترتيب وما إليه ولئلا أعطي مجالًا لأحد بالدخول خوفًا من الهجوم المرتقب ولعدم استعدادي في ذلك الظرف العصيب ، وعندما حانت الساعة الثانية بالتوقيت العروبي (الثامنة بالتوقيت الآخر الزوالي) إذا بالبواب يسلم علي من خارج الباب فرددت السلام ثم أردف قائلًا : ما الخبر ؟ ولماذا لم تذهب إلى البيت ؟ فقلت له : إني سأنام هنا الليلة يا حاج يحيى وكان من الصالحين ويبلغ الثمانين من العمر ولكن ابنه الحاج عبد المعين هو الذي يقوم

---

(١) المقاضي : جمع مقضي : وهو في عامية الحجاز : ما يؤتى به من السوق بالشراء من أنواع الطعام الذي يؤكل في منازلهم .

(٢) الشريك : بضم الشين المثلثة بعدها راء مفتوحة نوع خاص من الخبز يعجن بالسمن أو الزيت ويرش عليه من السمسم .

مقامه وقد تجاوز الخمسين وكلاهما يصلي جميع الفرائض في المسجد الحرام جماعة ولم يتركا الطواف أبدًا، قال البواب ولكن سكان هذه الخلوات لا ينامون إلا في بيوتهم ما عدا السيد الإدريسي (وسيأتي الحديث عنه بعد لحظات) وهو رجل فضولي كثير الكلام لا تدخلن معه في مكالمة لئلا يعطلك عن شغلك ومذاكرتك قلت: ولا الشيخ محمد علي بن تركي ولا خاله الضرير؟ فقال: كلهم ينامون في بيوتهم بالخريق والمعابدة وهذه الخلوات للعلم والمذاكرة نهارًا فقط.

محاورة ونصائح

قلت في نفسي: لقد خاب ظني. ولو كان هناك فرصة في المحاورة والمحادثة مع البواب الصالح لاستفسرت منه كثيرًا، ولكن خوفي من الهجوم المفاجئ، ومن تطفل وفضول السيد الإدريسي والإطالة في الحديث، كل هذا سيمكنهم من الوصول بسهولة والتقاطي بقوة، خاصة إذا كان معهم جندي أو مساعده. وأخيرًا قلت للبواب: أنا منهك القوى وتعبان وقصدي أن أنام الآن، وهل عليك من حرج إذا نبهتني عند خروجك لصلاة الصبح؛ لأخرج إلى المسجد مصليًا صلاة الغداة؟ قال: مرحبًا، إنما الأفضل أن تطفئ السراج وتقفل الباب من الداخل وتنام وتترك ترتيب المكتبة إلى وقت آخر.

وبينما نحن في المحاورة إذا بصوت الإدريسي في الشارع مؤذنًا بالوصول فقال: هيا! الحق ولا تضيع الفرصة!

قلت له: هل تترك باب الرباط مفتوحًا طوال الليل والنهار؟ فقال: لا! سيقفل بعد نصف ساعة ولا يُفك إلا إذا نادى منادي الصلاة وكان بابه كأحد

أبواب المسجد الحرام له مثقلات من الحديد من الخلف وهو من النوع الثقيل الذي لا يدفع بسهولة بل أصلب وأصعب من أبواب المسجد .. قلت له : شكرًا ، ومع السلامة ولا تقل للسيد إني نائم هنا ، فقال : ولا نكلمه أبدًا ، إلا للضرورة ، ثم توجه إلى خلوته مسرعًا .

وفي الحال أطفأت السراج ، وقفلت الباب حتى النوافذ التي على باب الزيادة أغلقتها ثم بسطت فرش النوم واضطجعت وتدثرت بغطاء خفيف وقرأت آية الكرسي وتوكلت على الله ولكن النوم طار من عيني نهائيًا مع كثرة التفكير ..

وقد سمعت إغلاق باب الرباط حسب إخبار البواب في الميعاد نفسه ، وعندما تقاربت الساعة من الرابعة (العاشرة بالتوقيت الزوالي) سمعت قرعًا شديدًا على باب الرباط كما سمعت صوت السيد المالكي يسأل صاحب المكتبة المواجهة للرباط ويقول له : لماذا يغلقون باب الرباط ؟ أليس فيه سكان ؟ وو ..... فقال له : يا عم هذا الرباط يغلق بعد العشاء مباشرة ولا ينام به أحد غير البواب . ثم سمعته يقول لصاحب المكتبة : لنا ولد نائم هنا بخلوة والده « فلان » أما رأيته ؟ وهذه نوافذ الخلوة وكانت نوافذ خلوتنا على باب الشارع وعلى باب الزيادة ، قال له : يا عم لو كان الأمر كذلك لكانت النوافذ مفتوحة وعلى الأقل تظهر من الفجوات أنوار الغرفة فأبعد عن فكرك هذه الظنون . قال له : خلوة البواب ليس لها نوافذ على باب الزيادة أو على سويقة حتى أناديه لأسأله ، قال له : مع الأسف أنا أعرف الرباط خلوة خلوة ، والبواب خلوته في الركن الأخير الذي نوافذه على حوش (المعجون) وهذا الحوش تغلق أبوابه من المغرب ؛ لأن به مخازن تجار الأقمشة بسويقة .

انتهت المناقشة والمحاورة واقتنع المالكي أمام الأمر الواقع وذهب .

كل هذه المحاورات كنت أسمعها ؛ لأنها كانت تحت نافذتي مباشرة والسوق قد خفت حركتها .

الصبـــح

لم أذق للنوم طعمًا في تلك الليلة حتى جاء الصبح ، وكان بالخلوة حنفية ماء ومصرف ماء ، توضأت وصليت ثم فتحت باب الخلوة وإذا بالتلامذة الجاويين الذين يدرسون عندي ويتعلمون كيفية الصلاة من بعد صلاة الفجر إلى ما بعد الشروق جاءوا كعادتهم وأجريت لهم الواجب باختصار ، ثم انصرفوا .

وفي الحال أخذت محفظتي ، وهرعت إلى مدرسة الفلاح ، دخلت المقهى واحتسيت كوبًا من الشاي مع قطعة خبز ثم صعدت إلى الإدارة حيث المدير والأساتذة ـ رحمهم الله أجمعين ـ كانوا يجتمعون بهذا المجلس عند الحضور وعند الخروج .. يخلعون به ملابسهم الثقيلة ... يعلقونها كأمثال الجبة والمعاطف الثقيلة والعمائم والكتب التي يتأبطونها ، ثم يأخذ كل واحد منهم خيزرانته (عصا صغيرة) التي يعاقبون بها الطلبة ولا يتفرقون إلا عندما ينفخ الحارس في الصفارة إيذانًا ببدء الدراسة ، ولا يلج هذه الغرفة أحد من الطلبة مطلقًا إلا لأمر هام وبرخصة من الحارس ، لكنني غافلته ودخلت .. وكان الأستاذ المرحوم (الطيب المراكشي) موجودًا وكان يأتي مبكرًا ؛ لأنه كان النائب عن المدير فأخبرته بما فعلت وطلبت منه المساعدة ومكالمة المدير بما حصل فقال رحمه الله : لا يهمك شيء كن جلدًا صبورًا وقد مر بك أكثر من

ذلك فتحملت ، وقلت له : أخاف من العقاب ؛ لأنهم سيأتون غالبًا في الضحى ويشرحون لحضرة المدير حسب ما يتهيأ لهم فيصدر أوامره بالفلكة ثم الجلد والرجوع إلى البيت من غير سؤال ولا جواب ، فقال : كن مطمئنًا من هذه الناحية ؛ لأني سأمكث هنا إلى الظهر هذا اليوم حيث إن عندي بعض المراجعات الإدارية ، والمدير هذا مكتبه بجانبي وسأفهمه مسألتك مقدمًا حتى لا يفاجأ ، ولو حصل عقاب فسأحول دون ذلك ، وسأتكلم في صالحك ، وأنا أشكرك على هذه الخطوة الجريئة ، ثم أمرني بعدم الخوف والتلكؤ .

ثم قال : تكلم بجرأة واظهر جميع ما في قلبك ما دمت على الحق .

الأساتذة

شكرته وخرجت لكني ظللت باقيًا عند الباب أترقب بقية الأساتذة الذين يعرفون القضية ولهم اطلاع عليها وقد دُعوا من قبل في المؤتمر وحكموا بما حكموا به وهم : الشيخ ناضرين ، والأمان ، والعربي .. ومن حسن الحظ أنهم جاءوا على انفراد فأفهمتهم بما حصل فلبوا طلبي ، وقرروا مساعدتي ؛ لأنهم كانوا قد اقتنعوا من قبل أن أعلن هذا التمرد الاضطراري .

الضحى

طلعت إلى الفصل لحضور الحصة الأولى حتى انتهت بسلام ثم الحصة الثانية وجاءت الفسحة كالعادة ، فذهبت وأحضرت الشاي للأساتذة الكرام وهم : ناضرين ، والعربي ، والأمان ، واحتسيت معهم الشاي وأتممت لهم القصة وطلبت منهم إن كان هناك بعض الطلبات أو المقاضي لأحدهم كالعادة

لآخذ الرخصة وأخرج ، لأقضي لهم طلبهم حتى يصلوا فلا يجدوني ، فقالوا جميعًا : ليس عندنا طلبات ومن مصلحتك البقاء حتى تطمئن ، وليكن ما يكون ، وكن صريحًا وواقعيًا ، وإياك والخوف فازددت أمانًا وطمأنينة .

المجلس التأديبي

وبدأت الحصة الثالثة وكان من حظي الطيب ، أنها كانت في أصول الفقه وشيخنا هو الأمان ـ رحمه الله ، وبينما نحن مصغون لتلقين الأستاذ وهو يشرح لنا في (اللُّمع) للشيرازي ، وجاء (بنونه) وهو المراقب العام والمنفذ للعقاب والجلاد الأعظم . وكان ـ رحمه الله ـ مهيبًا ؛ لأنه ما من تلميذ إلا وقد ذاق من جلده على الأقدام في الفلكة ما ذاق ، وكان العقاب لا يفلت منه أحد : طالب الابتدائية وطالب الثانوية حتى طالب السنة التاسعة .. وكان جلده مؤلمًا فمن أول وهلة أو من أول ضربة يصرخ المعاقب ويطلب الرحمة ، وأحيانًا يصل الجلد إلى الخمسين والستين من الجلدات المؤلمات الموجعات والعياذ بالله ..

جاء بنونة وبيده عصا الجزاء ، وسلم على يد الشيخ يحيى أمان ثم استأذن ليأخذني إلى الإدارة فأذن له ثم نهضت قائمًا وأيقنت أنهم هموا ، ولا مفر مما لا مفر منه وما للرجال عن القضاء منفذ ...

الراحمون يرحمهم الرحمن

وكانت مراحيض كل طبقة من المدرسة عند مدخل الطبقة فاستأذنت من بنُّونة لقضاء الحاجة لحظة ، ثم ألحق به ، فقال : لكني سأنتظرك هنا في

البهو ؛ لأن الأوامر الصادرة أن أقتادك بيدي على الإدارة ، قلت له : انتظر إذن ثم دخلت بيت الخلاء وإذا بي أسمع الشيخ الأمان يقول : وكأنه قد خرج من الفصل يناجي نفسه ولكن بصوت مسموع « الراحمون يرحمهم الله » وكأنه يقصد (بنُّونة) من باب قولهم « إياك أعني ....» الخ المثل .

خرجت من بيت الخلاء ونزلت إلى الإدارة وإذا بضوضاء وأصوات مرتفعة وهرج كثير ، دخلت ومعي (بنونة) وسلمت على المدير أولًا وكان كرسيه في الوسط ثم التفت وإذا بعمي ـ رحمه الله ـ وصهره المالكي والسيد عباس المالكي وثلة من الأساتذة : المرحوم الطيب المراكشي وناضرين والأمان وحضرة المدير الشيخ عبد الله حمدوه السناري ـ رحمه الله .

العتاب والسؤال

سألني المدير : أين بت البارحة ؟ فقلت في الخلوة فنهض المالكي صهر العم ثم قال : لا يا سيدي . فأشار إليه بعض الأساتذة بالسكوت فسكت حتى تم استجوابي .. ثم قال : لماذا ؟ ومن يشهد لك وقد ذهبوا إلى الرباط فوجدوا النوافذ مغلقة ولا أحد بالخلوة ؟ قلت : البواب يشهد بذلك وباب الرباط يغلق من العشاء وأظن المسألة كلها تخيلات ووساوس يا سيدي المدير !

ثم خاصمني المالكي الكبير ـ رحمه الله ـ وعاتبني وألزمني بالرجوع إلى البيت ، وأن لا أذهب إلى الخلوة أبدًا ثم صرخ العم وطلب توقيع الجزاء ، فقال المدير ـ رحمه الله : (الفلكة) . فوقف الطيب المراكشي ـ رحمه الله ـ وطلب مني أن أتكلم بصراحة ثم أردف قائلا : أنت رجل وعاقل ومتأدب والأول في فصلك وأستاذ وحافظ لكتاب الله فلماذا لا تتكلم بما في قلبك حتى نعلم

وجهة نظرك؟ فنهض الأمان وقال مثل قوله، ثم «الناضرين» كذلك وزاد عليهما، فسكت المدير وبهت الحاضرون.

أعانني الله على الكلام فانطلق لساني وانحلت عقدته وتكلمت بكلام كثير موقنا أنه ينتهي إما بالشفاء وإما بالموت، وكل بداية لها نهاية فقلت فيما قلت وأنا الآن لا أذهب إلى باب الدريبة أبدًا، وإن تأمروني بعدم المبيت بالخلوة، فأمي وإخوتي قد حرمت منهم سنين هاهم بسويقة ولا مسافة بين الرباط وبيت أمي وإخوتي إلا خطوات معدودة، فأمي أحق بي .. كل ليلة أنام عندها وفي الصباح إلى الخلوة ثم المدرسة ثم الخلوة ثم أمي وإخوتي ولا محيص عن ذلك ثم خرجت منفعلًا وصعدت إلى الفصل غضبان أسفًا .. وكنت أظن أنهم سينادونني أو يرجعني بنونة. ولكن الله سلم .. وما ادري ماذا حصل بعد ذلك حتى طلع الشيخ (الأمان) - رحمه الله - سألته ماذا كان من الأمر؟ فقال: لقد كان انفعالك وهياجك من جملة الأسباب التي دعت إلى المسالمة والسكوت؛ لهذا كانت جميع الأطراف متحدة في غض النظر عما صدر منك؛ لأن الكل قد علم بانفجارك بسبب توترك، وقد كان الحديث قبل نزولك إلى الإدارة دائرًا حول استقلالك ما دام هناك السكن المستقل، وطلب العلم يحتاج إلى مساعدة وعون من جميع الأطراف حتى من جاء بهم عمك رجحوا كفة الاستقلال، وأنت الآن لك الاختيار إما أن تستقل نهائيًا وتسالم الجميع، وإما أن تذهب إلى أمك وتسكن مع إخوتك على شرط أن تصالح عمك وعماتك وتزورهم يوميًا ... فحينذاك سكن روعي وهدأ قلبي.

يوم الحرية

وهذا أول يوم أنال فيه حريتي واستقلالي في حياتي وأستنشق رائحة الانطلاق والفكاك من القيود البالية. وما جاء وقت الانصراف حتى أسرعت إلى بيت والدتي وإخوتي فأخبرتهم بما حصل، وكان البيت قريبًا من الرباط فوق سقيفة سويقة ونوافذه تطل على قباب وبهو الرباط، ودائمًا ما كانت تصفق الوالدة ـ رحمها الله ـ إذا أرادت حاجة، فأصعد إلى سلم القباب وأتكلم معها ومع إخوتي ولم يكن يفصل بيني وبينهم إلا حائط صغير، وقد خصصت لي الوالدة ـ رحمها الله ـ سطحًا صغيرًا وسريرًا وفراشًا وسراجًا وقالت: أي ليلة تريد أن تنام عندنا فهذا بيتك وهذا سطحك.

الصلح الكبير

ثم رجعت إلى الخلوة وأنا حر طليق ولم أتناول أي شيء من الطعام في ذلك اليوم من شدة الفرح والفرج والانشراح حتى المذاكرة نسيتها ولم أصدق نفسي حتى جاء المغرب، توضأت ونزلت إلى المسجد فصليت المغرب والعشاء وطفت بالبيت العتيق ثم ذهبت إلى الخلوة وكان القمر بازغًا يرسل أشعته على بهو الرباط وعلى حدائقه الجميلة وزهوره الفواحة، والطقس معتدل والماء متوافر وكل شيء على ما يرام، خلعت ملابسي وأشعلت السراج وجلست أذاكر بعض الواجبات وإذا بالسيد المالكي ـ رحمه الله ـ قد وصل فاستقبلته أحسن استقبال وقدمت له ما عندي من حلوى، فقال: الصلح خير وجئت

إليك لترجع إلى بيت عمك وعماتك وتصطلح معهم وترجع كما كنت وما مضى مضى ، وعفا الله عما سلف .

فقلت : أما الصلح فلا بد منه ولا أستغني عن بيتي وأنا الآن كما ترى في آخر أعوام الدراسة ولا أستطيع القيام بأعباء الخدمة ، وأمي أحوج إليّ ؛ لأنها وحيدة ، وإخوتي صغار ، فإن كان هناك متسع من الوقت فسيكون قضاؤه عندها ، ويكفي حرماني من رؤيتها ورؤية المرضع ، وفيما جرى كفاية وعلى الله الهداية .

وأنا الآن حر طليق ، فأية ليلة أريد فيها المبيت عند العمات أو الوالدة أو الخالات أو هنا أو هناك ، فلي الاختيار بحسب الظروف وأوقات الفراغ إنما مكتبتي وكتبي وملابسي وكل ما يتعلق بحياتي الخاصة هنا ـ وأقصد بذلك الخلوة ـ وإن شاء الله سأذهب غدًا إلى بيت عمي وترجع المياه إلى مجاريها .

وذهبت في اليوم التالي إلى باب الدريبة وصالحت الجميع وطلبوا مني المبيت ، فاعتذرت وودعتهم بعد ما صفت القلوب ، وطابت النفوس والحمد لله ...

ليالي الرباط

هذا الرباط جنة في النهار وسجن في الليل وخاصة في ليالي الكدورة والظلام والسمر ، وكنت سجلت أن بهوه سمائي مكشوف بكامله للشمس والقمر ، وبهوه مربع وفي كل ركن حديقة غناء تجمع بين الزهور والرياحين وشجر الخروع والساقي له السيد الإدريسي ـ رحمه الله ـ إذ كانت وظيفته

خاصة بالزرع وتنسيق المراكن[1] ورش الأرضية ، وكان ذرب اللسان مسلطًا على كل السكان ، لا يستطيع أحد أن يقطف وردة أو ريحانة إلا بإذنه أو من دون أن يراه حتى من كان له أطفال صغار لا يستطيع أن يعطيهم الحرية في الوصول أو الجلوس في وسط هذه الزهور حتى ولا بإذن منه ؛ لأنه كالحاكم المطلق ، وكان في ذلك مصلحة لبقاء الورود والأزهار وتغريد الأطيار ، ورب ضارة نافعة ؛ لأن خدمة هذه الحدائق تحتاج إلى وقت طويل من النهار . والبواب خدمته محصورة في النظافة والكنس والرش وجلب الحصوة لفرشها على أرض البهو الفسيح المتسع . وأجمل وقت لرؤية هذه الحدائق الصغيرة المنسقة الجميلة ، هو الصباح حتى الضحى ثم المساء حتى المغرب وفي ليالي القمر إلى نصف الشهر ثم تنعكس الأضواء من بعد العشرين فيكون ليله دامسًا حالكًا والجًا معتمًا مرعبًا بسبب عدم من ينام به إلا البواب والإدريسي وكلاهما يناما أول الليل ؛ لأنهما من قُوام السحر وصلاة الفجر بالمسجد الحرام .

أما في أيام الغيم والمطر فحقيقة له منظر ممتع حتى إن كل صاحب ركن من أركانه يعمل الشاي وينادي جيرانه ويخرج الكراسي فيخرج الجيران لاحتساء القهوة والشاي ، واستنشاق الهواء العليل ، والتمتع بذلك الجو الجميل وفي مقدمة أولئك المرحوم العلامة الشيخ محمد بن علي بن تركي إذ تسمع صلصلة الهاوون ورائحة البن والهيل : وتصفيق الفناجيل ثم يدور أحد تلامذته على

---

(١) المراكن : جمع مركن بكسر الميم كلمة يقولها عوام الحجاز في لهجتهم وهي (الأصص) بضم الهمزة والصاد المهملة بعدها صاد أخرى متحركة بحركة إعرابها .

الأصدقاء من السكان قائلًا : « القهوة أطال عمرك بالبرزة » ويقصد بها الحديقة الأمامية بخلوته الكبيرة التي كانت فيما مضى لشيخ الرباط المفقود بعرفات المرحوم الشيخ إبراهيم مؤذن ، وقد تقدم ذكره سابقًا .

تقسيم المودة

« أقسم المودة بيننا » هذه الجملة تقولها العامة في مكة للآن ومعناها إذا كان للإنسان جملة من الأصدقاء ولا يستغني عن أحد منهم فلا يركن إلى واحد منهم بصورة دائمة لئلا يتعرض إلى عتاب الباقين فيكون من الملومين ، والدليل على ذلك عدم قبولهم للاعتذار ، فلو قلت لهم : كنت عند فلان البارحة فيقول لك المعاتب : اقسم المودة بيننا ، يعني اجعل لنا نصيبًا من هذه الليالي ، وهذه جملة جميلة أكثر من يستعملها العامة في السعودية وخاصة في المنطقة الغربية .

تقسيم الليالي

وأقصد بالليالي ليالي الظلام ؛ لأني أضيق من الظلمة وخاصة بعد قفل باب الرباط من العشاء ، فكنت أقسم ليالي الظلام على الأحباب من الخالات والأخوال والعم والعمات ، وكأني ضيف قادم من سفر أو فارس مغوار أعطاه الله النصر والظفر .

كان لي أخوال وخالات وأصهار وقرابات لم أعرفهم إلا في هذه الأيام : أيام الحرية والانطلاق .

كنت أنام عند أمي وإخوتي ليلة بعد ليلة من أيام السمر ، انعم فيها بالحديث

عن أيام الصبا وما جرى لي من ويلات في الغربة والتشرد ، حتى يمضي الليل كله في الحديث . وفي بعض الليالي أذهب إلى بيوت أخوالي من آل الحناوي وهم خمسة : أمين وداود وعلي وصالح وعبد الوهاب والأخير ينعم بالإقامة مع والدته جدتي الصالحة الكريمة ، فما أعظم تلك الليلة التي أنام عندها ، وأما ليالي القمر فمبيتي بالخلوة ، وكأني أتذكر بها ليالي الزيمة ؛ لأن القمر يسطع على الزروع طوال الليل وتبدو الأشجار كأنها قطعة من بساتين الزيماء ، فأتذكر وأتذكر وكم للذكرى من حلاوة وكم للتذكر من تسلية وخاصة تذكر الأحباب والأصدقاء والأصحاب .

ركوب الحمير

وأكثر ما كان يستهويني ركوب الحمير بالذهاب إلى العمرة مع الزملاء إذ ما يمر أسبوع وخاصة ليلة الجمعة فإنها كانت من أفضل ليالي الأسبوع بعد عصر الخميس إما تمشية إلى البركة وإما الذهاب إلى العمرة على ظهور الحمير ؛ لأنها كانت الوسيلة الوحيدة والهواية المفضلة لقلة العربات النفطية ووعورة الطريق وكثيرًا ما رُميت وحذفت بعيدًا بسبب جموح بعضها وكثيرًا ما تعطلت بعض غضاريف صدري بهذا السبب ، واكتويت مرارًا في صدري على يد الطبيب البدوي المعروف (لافي) ـ رحمه الله ـ إذ كان صديقًا للعم ـ رحمه الله ـ وقد لذعه بمسامير الكي عدة مرات .

كان السائد أن يكون الحج على الشقادف ، سواء في ذلك الغريب والمواطن وقد حج في ذلك العام العم والعمات مع أصهارنا (السادة آل الفتياني) على الشقادف ، وكلفوني أن أحج معهم ، فاشتريت حمارًا بستة جنيهات مساء يوم

التروية وأنا محرم وكنت ناويًا أن أحج ماشيًا ، وفي طريقي إلى منى كان مزاد الحمير على اختلاف أجناسها حتى البغال وكانوا يصيحون على الحمير كعادة المتزايدين والسماسرة ، فوقف المزاد على هذا الحمار الأبيض فاشتريته وعلفته حشيشًا وسقيته ثم ركبته وقلت في نفسي : أبيعه ـ إن شاء الله ـ عند رجوعي من الحج قبل الذهاب إلى الخلوة لعدم وجود حوش أو مربط له عندي آنذاك .

مشى الهوينى ثم وقف بعد الأخشبين وكأنه جلمود صخر أو جذع شجرة مغروس في جوف الأرض ، لم يتحرك لا بضرب ولا بركل ولا بأي طريقة من الطرق . مضى أكثر من ساعة ودخل وقت العشاء ، فخفت من فوات الحج ومن عتاب الأهل ولوم الخلان ، فتركته عند الأخشبين عندما أعيت الحيل وسرت ماشيًا حتى وصلت عرفة في آخر الليل .

صليت الصبح في نمرة وعند الضحى بحثت عن الأهل فلم أعثر عليهم إلا في (منى) وكان العتاب واللوم وكنت مستحقًا لذلك. ثم صرت في المستقبل ـ أي بعد شهر من الانفصال ـ أحد الأصدقاء وواحدًا من زوار العم ـ رحمه الله ، لكنني لم أكن أمكث أكثر من دقائق خوفًا من فوات المذاكرة .

زملاء الدراسة

أما عن زملائي في الدراسة فإنه لم يفرق بيني وبينهم إلا التخرج أو طلب المعيشة أو هادم اللذات ، وبعضهم لم يواصل دراسته بل خرج لأمور معيشة ، بسبب ظروف خاصة ، وكان بعضهم من الحفاظ ، أي كانت زمالتي يه من فصل الحفاظ حتى النهاية ، وهم كالتالي : أولهم المرحوم محمود مؤمنة ، كان

يدرس ويحفظ معي القرآن الكريم ثم نجحنا معًا إلى الفصول الدراسية حتى السنة السادسة ثم خرج من المدرسة ولم يكمل دراسته وقد وافاه الأجل المحتم قبل عشرين عامًا في عنفوان شبابه وكان من أصحاب الأصوات الجميلة.

المرحوم أحمد الرشيدي، كان من زملائي من الحفاظ حتى السنة السادسة وكان الأول دائمًا وقد وافاه الأجل قبل التخرج وقد أشرت إليه سابقًا.

المرحوم عبد الله بازيد الذي كان الأول بعد وفاة الرشيدي، ومات قبل التخرج وقد ذكرت نبذة عنه سابقًا.

الشيخ محمد علي خازندار، وهذا التقيت به في السنة الرابعة ومكث زميلا لي حتى السنة السابعة وكان الأول بعد وفاة الرشيدي وبازيد - رحمهما الله، ثم خرج وتوظف بوزارة المالية قبل التخرج، ثم صار من رجال الأعمال، ولا زالت تربطني به صلة الزمالة الدراسية حتى الآن وهو حي يرزق. ثم السيد حسين كتبي، وهذا كان زميلا لي من فصل الحفاظ حتى السنة الثامنة، ثم سافر إلى الهند في بعثة خاصة تابعة لمدرسة الفلاح حيث أتم دراسته في بومباي وكان الأول بعد خروج الخازندار وبعد النواوي وكنت أنا العاشر.

فتح الله علي وصرت الأول ابتداء من السنة الثامنة ومكثت الأول إلى السنة التاسعة، ولكن عند التخرج سبقني المرحوم عبد الرحمن النواوي بدرجة واحدة في المواظبة. إذ لم أحصل فيها سوى على أربع درجات من أصل عشرة، وكان السبب في ذلك مجيء الوالد من جاوة وأخذ العائلة فجأة إلى بلاد (سليبس). وكنت قد هربت قبل طلوع الباخرة بيوم واحد؛ بسبب الدراسة وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد - إن شاء الله.

ـ السيد أمين بن عقيل من فصل الحفاظ ثم إلى الابتدائي ثم توظف بوزارة الدفاع قبل التخرج .

ـ الشيخ مصطفى مرسي ، وهذا كان من زملائي ابتداء من السنة الخامسة حتى التخرج وهو من مطوفي الحجاج المصريين ولا زال حيًّا يرزق .

ـ السيد أمجد الكتبي ، زميلي من الخامسة حتى التخرج وهو موظف بهيئة عين زبيدة ولا يزال حيًا يرزق ولا يزال حافظًا للود والزمالة إلى الآن .

ـ الشيخ حسن السندي وهو من الزملاء الذين تخرجوا معي ولا زال يدرّس في مدارس الحكومة حتى كتابة هذه المذكرات ، وهو من الأصدقاء الأوفياء ، وقد كان أستاذًا معي بالمدرسة السعودية بالمعلى حينما كنت مديرًا لها في الستينات ، وهو الآن حي يرزق ومدرس بالمدارس الحكومية

- الشيخ عبد الله كامل ، زاملني من السنة الرابعة بالفلاح حتى السنة الثامنة ثم خرج قبل أن يتم دراسته وتوظف بديوان النيابة العامة (نيابة سمو الأمير فيصل عن أبيه الملك عبد العزيز في الحجاز) وما زال يتقلب في الوظائف الحكومية من حسن إلى أحسن حتى أخذ التقاعد قبل بضعة أعوام وهو مطوف ، وحي يرزق ، وهو والد للدكتور حسن كامل والشيخ صالح كامل ، وهو من رجال الأعمال وأحد الشركاء في شركة (دلة) .

بعثة الحج

في السنة الثامنة أتممنا الاختبار ونجحنا إلى السنة التاسعة وكنت الأول في الفصل ، ثم المرحوم النواوي ، ثم حسن كتبي ، ثم المرحوم السيد أحمد الجفري وشقيقه السيد علي جفري المدرس بمدارس (جوهر) بماليزيا .

في تلك السنة جاء مؤسس مدارس الفلاح المرحوم الحاج محمد علي زينل وزار مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، وجلس بالإدارة ثم طلب كل فصل على حدة ليسلم على طلابه ، وليتعرف بالطلبة الذين يدرسون بمدارسه وليقف على أحوالهم ، وقد قرر أن يأخذ من الفصول العالية أربعة من الأوائل ليسافر بهم في الباخرة (جهانكير) إلى بومباي ، حيث إنه فتح مدرسة هناك وجلب إليها أساتذة من مختلف البلدان العربية ، فنزل كل فصل على حدة ، سلمنا عليه وعلى المدير المرحوم عبد الله حمدوه ، ثم على بقية الأساتذة ثم طلب من كل فصل خطيبًا ، واختار الأول من كل فصل ليقوم بالخطبة ويشرح الأمور الداخلية بالمدرسة وانطباعاته عن المدرسة والمدرسين وأحوال البلد والمعيشة وانتظام الدراسة والمدرسين ، فكنت أول خطيب ؛ إذ كنت (البرنجي) بمعنى أول التلاميذ في الفصل ، وهي كلمة عامية تركية لا زالت تستعمل حتى الآن ، كما طلب أن تكون الخطبة ارتجالية من غير ورقة ، فارتجلت كلمة متواضعة وكدت أصرح بطلب تغيير الأساتذة الذين لا يفهمون اللغة العربية وأقصد بهم من جاء منهم من الهند معلمًا للغة الإنكليزية ، كما أشرت إلى ذلك مسبقًا ، ولكن الله أخرس لساني . وحسنًا فعلت ؛ إذ كانت تلك السنة آخر سنة للفلاح من حيث المورد والإنفاق وكانت تلك السنة سنة الوداع حيث انتقل موردها إلى الإعانات التي كانت تجلب من حجاج بيت الله بسبب الخسارة التي لحقت بالمؤسس من جراء سقوط تجارة اللؤلؤ .

بعد الخطبة

طلب من كل فصل أربعة من الأوائل ومن الفصول العالية السابعة والثامنة

والتاسعة ومن بعض المتخرجين من المدرسين الجدد الذين تخرجوا قبلنا ، فاعتذرت عن السفر وأبديت وجهة نظري بسبب أني القيم على أهلي بسبب سفر والدي ، فاختاروا من فصلنا تلميذين هما : حسن كتبي ، والمرحوم أحمد الجفري ، ثم كان مجموع المنتخبين للسفر إلى الهند في تلك البعثة عشرة أذكر منهم : السيد أحمد الجفري ـ رحمه الله ـ والسيد حسن كتبي وشقيقه السيد سامي ثم المرحوم مصطفى برناوي والشيخ جعفر فلمبان والشيخ محمد لنقا ، وأستاذنا الشيخ عبد الله عثمان العباسي ـ أطال الله عمره ـ وقد كان أخوه المرحوم عبد القادر قد بُعث في بعثة سابقة قبل هذه بسنوات وكان معه أستاذنا الشيخ حسين جستنية والشيخ حمزة عجاج ـ أطال الله أعمارهم ومد في حياتهم ـ ثم (الخليدي) وغيرهم من خريجي مدارس الفلاح بمكة وجدة .

العام التاسع والأربعون الهجري (١٣٤٩هـ)

دخل هذا العام وقد نجحنا ـ ولله الحمد ـ إلى السنة التاسعة وكنت الأول في أول العام الدراسي وكانت الأمور منتظمة وكل شيء على ما يرام وكنت قد رتبت أحوالي على أكمل وجه وتعلمت من العزوبية والوحدة والغربة الشيء الكثير وليست الغربة بغريبة علي إذ أجد فيها اللذة والسلوان والبدل عن الأهل والخلان من أول حياتي حتى كتابة هذه المذكرات .

جاء اختبار نصف السنة وأنا الأول كذلك ، والثاني كان المرحوم النواوي الذي كان ينافسني في الأولية ، وكنت قد اشتريت كتبًا كثيرة من أمهات الكتب بالإضافة إلى مكتبة والدي ـ رحمه الله ـ وصرت من عشاق المطالعة ومن أصدقاء الأساتذة الكبار ودائمًا أزورهم وأتردد عليهم أمثال المرحوم الشيخ

العربي والشيخ يحيى أمان والشيخ عمر حمدان والشيخ أحمد ناضرين والشيخ الطيب المراكشي ـ رحمهم الله جميعا ـ وغالبًا كنا نقيل عند أحدهم في يوم الجمعة أو يوم العطلة وخاصة دار الشيخ الأمان ودار الشيخ المراكشي ؛ حيث كانت الأولى تطل على بساتين المسفلة وبركة ماجن ، أو ماجل ، والأخرى بالخريق وبها بهو سماوي كبير ، وكنت لا أبرم أمرًا إلا بمشورتهم ولا أقدم على مهمة من المهمات إلا بعد أخذ رأيهم ـ رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته .

صيفية ذلك العام

بدأت مدرسة الفلاح بمكة المكرمة تطبق نظام العطلة الصيفية كغيرها من مدارس الحكومة ؛ لأن المدارس الحكومية تزايدت آنذاك وجاءت الحكومة بمدير للمعارف من مصر وهو أستاذنا الكبير الشيخ إبراهيم الشورى ـ مد الله في حياته ـ وكان قد بعث بأستاذين للفلاح يعلمان الفقه والتوحيد من قبل رئيس القضاة آنذاك المرحوم سماحة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ ، وكان منهما أستاذنا الكبير المرحوم الشيخ فيصل بن مبارك الذي كان يدرسنا التوحيد (حق الله على العبيد) ابتداء من السنة السابعة حتى تخرجنا في التاسعة ، وكان الشيخ الشورى قد أصدر أمرًا بتوحيد الإجازات لجميع لمدارس الأهلية والحكومية على حد سواء ، وكانت المدارس الأهلية قد تكاثرت بعد فتح الفلاح في عام ١٣٣٠هـ ومن قبلها كانت (المدارس الصولتية) ، ثم تأسست بعدها (المدرسة الفخرية) ، ثم (مدرسة الفائزين) ، ثم (مدرسة النجاح) التي أسسها المرحوم أستاذنا الحابس ، وهذا خلاف المدارس الليلية التي أسسها أستاذنا الكبير الشيخ عبد الله خوجة وهو حي يرزق ـ أطال الله في عمره ـ

وكانت إجازة الصيف قاصرة على فصلي الأسد والسنبلة ثم زادت شيئًا فشيئًا حتى شملت الفصول الأربعة ، ثم بدأت الحكومة تنقل دوائرها ودواوينها أيام الصيف إلى الطائف ؛ لأن العاصمة كانت آنذاك هي مكة المكرمة . ولم تكن هناك مدرسة للمصطافين آنذاك ولم تؤسس بعد ، ولم تكن هناك غير مدرسة واحدة حكومية تدعى المدرسة السعودية وكانت تعطل وفقًا لزميلاتها من المدارس ، فأخذت الفلاح نصيبها من الإجازة الصيفية وألغت إجازة شهر ذي الحجة الذي كان هو الشهر الوحيد الذي تنعم فيه الفلاح بالإجازة من أوله إلى العاشر من المحرم الحرام من العام الجديد .

صداقة أساتذة الفلاح مع كبار رجال الحكومة

كان المرحوم الشيخ أحمد ناضرين والمرحوم الشيخ محمد الطيب المراكشي ومدير الفلاح وأساتذة الأدب بالفلاح كل هؤلاء كانوا أصدقاء لنخبة من رجال الحكومة الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور . كما أن معظم المديرين والأساتذة وموظفي الدولة كانوا من خريجي الفلاح حتى القضاة ، كالمرحوم الشيخ أمين فودة والمرحوم الشيخ يحيى أمان والمرحوم الشيخ ناضرين والمرحوم السيد أبوبكر حبشي ، كل هؤلاء القضاة كانوا أساتذة بالفلاح .

الشيخ حامد رويحي

وكان من أبرز رجال الدولة آنذاك حينما كان المغفور له جلالة الملك فيصل نائبًا للملك عبد العزيز آل سعود على الحجاز قبل تسميتها بالسعودية ، كان هو الموظف الأول ـ وأعني به المرحوم حامد رويحي ـ وقد كان من قبل كاتبًا

للعدل بجدة وكانت تربطه صداقة بإدارة الفلاح وأساتذتها ، كما أنه كان المقترح الأول في إنشاء مدرسة لأولاد المصطافين بالطائف ، خوفًا على أولاد الموظفين ممن أجبرتهم ظروف الصيف للعمل بالطائف ، ولحفظهم من اللعب ، ولضمان مذاكرتهم وخاصة من كان عليه ملحق أو رسب في أكثر من مادة ، إذ كان قد كتب لمدرسة الفلاح يطلب أستاذًا ليصطحبه إلى الطائف ، يسكن معه ليذاكر لأولاده بعض المواد التي رسبوا فيها ، وكان له من الأولاد ثلاثة هم : جميل ومحمود وعبد الحميد ، كلهم ماتوا في حياته ـ رحمهم الله ـ وكلهم قد أنجبوا وكان هو المربي لأحفاده وقد مات قبل ثلاث أعوام من تسجيل هذه المذكرات أعني أنه مات في التسعينات وكان أحفاده رجالا وقد تخرجوا ووظفوا .

أنا المنتخب

وكان الشيخ رويحي يسمر عنده كبار أساتذة الفلاح وبخاصة المرحوم الشيخ ناضرين والمرحوم الشيخ الطيب المراكشي وكانا يعرفان من أمري الشيء الكثير ، كما أشرت إلى هذا سابقًا ، وهما اللذان أشارا عليه ببعث خطاب للمدير حمدوه بذلك ، وقالا له : نحن نرشح مقدمًا وهو متمرس ومعتاد تلميذًا في آخر أيامه الدراسية وآخذًا ومتمرنًا على الغربة ، والأول في فصله وكذا وكذا . وكانا يقصداني بذلك ، وهذا من حسن ظنهما بي ـ رحمهما الله ـ وعندما وصل الخطاب للفلاح جمع المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه السناري مدير المدرسة كبار مستشاريه من الأساتذة وكان في مقدمتهم المراكشي والناضرين فأشاروا عليه بترشيحي لهذه المهمة وكانا قد أخبرا الشيخ رويحي

بأني مازلت تلميذًا وتابعًا للمدرسة وخاضعًا لأوامرها .

السفر إلى الطائف

في سيارة « بوكس »[1] وهو أول بوكس أركبه في حياتي ، ليس هذا فحسب ، بل أول عربة نفطية امتطيتها وإذ كان سفري قبل ذلك على الجمال والبغال والحمير .

ناداني مدير مدرسة الفلاح المرحوم الشيخ عبد الله حمدوه السناري من الفصل ، فنزلت إلى الإدارة وإذا به مع جمع من الأساتذة ، فقال لي : (يا ولد) قد رشحناك لأمر إن فطنت له تكن من الأساتذة الفائزين مقدمًا ، فتفاءل بذلك واحمد الله ، لقد رشحناك لكي تسافر إلى الطائف في أول يوم من العطلة الصيفية مع رجل كبير من موظفي الدولة لتذاكر لأولاده بعض المواد الدراسية وتسكن معه آكلا شاربًا ساكنًا منعمًا ، بالإضافة إلى راتب نصفه لك من هنا من صندوق الفلاح ، ونريد منك أن تبيض وجوهنا وترفع رؤوسنا فكن موضع ثقتنا بك ، فهل تقبل أو ترفض ؟ !

فقلت في نفسي : أين أجد فرصة كهذه ؟ ولبيت الطلب حالًا ، وامتثلت الأمر ، وقبلت العرض فبارك لي ، وكذلك الأساتذة قالوا جميعًا : (مبارك) ! ثم قال رحمه الله : غدًا إن شاء الله تأتي إلى الإدارة في الساعة ٣ أي ٩ بالتوقيت الآخر[2] أي الزوالي وكانت المدرسة قد عطلت في ذلك اليوم بسبب بدء

---

(١) البوكس : سيارة نفطية دون الكبيرة وفوق الصغيرة حجمًا ونقلًا .

(٢) التوقيت العربي كان معمولًا به في هذه البلاد وهو الذي يسمى الآن التوقيت الغروبي =

العطلة الصيفية ، وكانت المدرسة إذا عطلت تقفل أبوابها ولا يأتي إليها إلا المدير ومستشاره وصاحب الصندوق المرحوم الأستاذ أسعد حديدي ، في الأسبوع مرة لقضاء بعض المصالح أو صرف الرواتب وكانت غرفة الصندوق بجانب الإدارة . جئت في اليوم التالي في الميعاد المحدد . ولم يكن هناك غير الأستاذ الحديدي والمرحوم الطيب المراكشي والمرحوم ناضرين وكأنهم على موعد ، وبعد نصف ساعة جاء المدير وبدأت المحادثات والمفاوضات ، وجاء الشاي ثم تكلم الأساتذة ، وبدأ المدير بالنصائح ثم أعقبه الناضرين والمراكشي ثم عقب عليهما المدير ، وقال لهما : خذاه معكما إلى دار الرويحي الآن إن كنتما ستذهبان الآن . فقالا : نحن لا نذهب إليه إلا بعد صلاة المغرب .

وقالوا : إننا نصلي المغرب في حصوة باب النبي في خصفة ـ أي خسفة ـ المقرئين الذين يقرأون القرآن غيبًا وأكثرهم من العميان ، وكان المقرئ الكبير في ذلك الوقت المرحوم الشيخ خسيفان . جئتهم في الوقت المحدد ، ثم خرجنا من باب إبراهيم وذهبنا إلى بيت الرويحي ، وكان يسكن بدار(الخنجي) بزقاق الجنائز وكان بيتًا كبيرًا واسعًا ، والوكلاء عليه آل الجمجوم بجدة .

وفي الطريق زوداني بالنصائح حتى وصلنا وصعدنا فوجدنا الرويحي جالسًا في مجلسه الكبير الخاص باستقبال الموظفين والمراجعين وما إلى ذلك ، وكان المجلس مكتظًا بأناس لا أعرفهم .. سلمنا جميعًا عليهم . وكان الرويحي قد

= والآن التوقيت المعمول به لدينا هو التوقيت الزوالي ، ذلك من غروب الشمس إلى طلوعها وهذا من زوال الشمس إلى زوالها التالي وهو الذي يعنيه السائح السعودي بالتوقيت الآخر .

صدرهم في المجلس، وأنا معهم، ثم بدأوا بالحديث، وقالوا له: هذا هو فلان بن فلان الذي انتخبته إدارة الفلاح ليسافر معكم وليقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه خير قيام .. ولا تعتبره إلا أحد أبنائك. فرحب بي ثم طلب القهوة والشاي وأمرني أن أزوره غدًا صباحًا للمراجعة وأخذ الرأي في السفر، ثم قال: سيكون سفرنا ـ إن شاء الله ـ إلى الطائف بعد غد، ونحن في انتظارك؛ لأني صممت أن لا أسافر إلا والأستاذ معي. ومن ذلك اليوم لقبت بلقب (الأستاذ) وخوطبت بهذه الكلمة التي كنت أعتز بها أيما اعتزاز إذ قد أخرجتني من عهد الصبا والتلمذة إلى عهد جديد.

استأذنت للخروج فقال الأساتذة: سنخرج جميعًا لأداء صلاة العشاء بالمسجد الحرام، ولنتذاكر في بعض المسائل. وكانا على هذا المنوال كل ليلة مع هذا الرجل الكبير.

خرجنا وخرج معهما الشيخ الرويحي مُشيعًا ومودعًا ومعظمًا لهما، كما أسر إليهما ببعض القول، وأسرا إليه ببعض القول، وأنا أنتظرهما على بعد منهم بحيث لا أسمع شيئًا من الحديث حتى وصلنا إلى المسجد حيث صلينا العشاء .. ثم قالا لي: غدًا ـ إن شاء الله ـ تأتي إلى المدرسة مثل اليوم في الميعاد المحدد للمفاهمة في بعض المسائل.

جئتهم في المدرسة صباحًا، وكانوا كلهم موجودين بمن فيهم المدير، فقال لي: إذا خرجت من هنا فاذهب إلى بيت الرويحي حيث الاتفاق على طريقة السفر إلى الطائف، وكن رجلًا لبقًا ومرنًا وحازمًا في أمورك إذ إنك ستخرج من طور إلى طور، واعتبر نفسك من الآن حرًا طليقًا مستقلًا اجتماعيًا؛ لأنك ستخالط كثيرًا من الناس بالإضافة إلى الرويحي؛ لأن داره أشبه بمحطة سفر

يفد إليها الناس من سائر الجهات ، والناس أشكال وألوان ، ثم قال لي : إذا احتجت إلى دراهم فاكتب لنا كتابًا بالبريد ، وقل : أحتاج إلى كذا لنحول لك بما تطلب ولا تأخذ ولا تطلب من الرجل شيئًا ؛ لأننا نحب أن نتجمل معه إذ إنه من المخلصين للمدرسة ومؤسسها .. ثم قال للمرحوم الحديدي أمين الصندوق : ادفع له ما قلت لك ! !

خمسة جنيهات من الذهب

فما كان من الحديدي إلا أن فتح الخزانة ، وأخرج منها جنيهات خمسة ودفعها لي ، ثم قال : انبسط يا أستاذ هذه مكافأة من المدرسة لك لتقوم ببعض مشترياتك أو كسوة ثقيلة ؛ لأن الطائف شديد البرودة لا كما عهدت هنا .. فأخذت الذهب وأنا غير مصدق نفسي كأني في أحلام .

ودعتهم جميعًا ، وتوجهت إلى بيت الرويحي وأنا أقلب الذهب في يدي ، وفرحتي لا يعادلها فرحة بسبب أني سأسافر إلى الطائف بالسيارة ، وأمر في طريقي بأهلي من الرضاعة في الزيماء وسيفرحون بمقدمي ، وخاصة إذا كنت مع رجل عظيم كهذا الرجل ، وإمارة الزيماء لها ارتباط بوزارة الداخلية وأميرها عمي ؛ لأنه شقيق والدي المرحوم فيصل القناوي ، وله مراجعات مع الشيخ الرويحي بخصوص عيون الزيماء وأراضيها .

بُكس مستقل

ذهبت إلى بيت الرويحي فوجدته في المجلس الكبير الخاص بالاستقبال فاستقبلني أحسن استقبال ، ثم رحب بي وطلب لي القهوة ، ثم قال لي : لقد

عزمنا غدًا إن شاء الله على الرحيل إلى الطائف وسفرنا سيكون بالسيارات «اللواري والبوكسات والفوردات» يعني : بالعربات النفطية على اختلاف أنواعها ، ثم قال مفسرًا : اللواري لحمل العفش والفراش والأثاث ـ والبوكسات للخادمات والخدم والجلايل الصغار ، وأما الصغار فللعائلة والأولاد وأنا معهم ، وسنقوم في الضحى أو بعد الإشراق ـ إن شاء الله ـ لأن المشوار طويل . وكان ذلك بسبب أن الطريق كان وعرًا جدًا لم يُسفلت ولم يُعبَّد وكانت السيارات تأخذ يومًا كاملا في الطريق إذا سلمت من التغريز والتخريب ، ثم قال : سنستريح بعض الوقت في الشرائع ثم في الزيماء ثم في السيل الكبير استراحة أكبر حيث الغداء والشاي والشيشة ، (وكان من مدخني الجراك ـ رحمه الله) ـ ثم المرحلة الأخيرة الطائف ـ إن شاء الله ـ وسيكون وصولنا مع المغرب ، وأما اللواري والبوكسات فستقوم بعد الفجر مباشرة ليسبقونا إلى الدار وليقوموا بنظافتها وفرشها وإعداد العشاء ، فما رأيك ؟ هل تحب السفر معنا أو بمفردك ؟ وأبعث لك سيارة صغيرة أو (بوكس) على المحل الذي تريده وفي الوقت الذي تطلبه ؟ فقلت له : ما تريد أنت وتختار ولكني أفضل أن أمضي وأقضي بالزيماء وقتًا أطول ؛ لأن لي فيها قرابة حيث قد أرضعت وربيت ونشأت فيها ، فإذا تركت لي حرية الاختيار فهذه رغبتي .. قال : مرحبًا وعندي خبر بذلك ولهذا سألتك ، وما دام الأمر كذلك فسأبعث لك ببُكس صغير يحمل بعض البسط والمكتبات والدفاتر وسيكون السائق طوع أمرك فإلى أي جهة ترغب سوف يوصلك وفي أي وقت !

الفرح والوداع

فقلت : أحب أن يكون السفر من برحة القرارة ، (وعينت له موقعًا بعينه بجانب بيت (تاج) وكان مشهورًا حيث يسكنه أحد مشاهير مشايخ الجاوة ، كما أنه هو أقرب إلى (الموردة) التي هي أقرب ما تكون إلى باب الدريبة أو باب الزيادة) ، فقال : نعم إن شاء الله سيصلك البوكس عند الإشراق وينتظرك حتى تصل ثم تركب بجانب السائق ولتأت بما تريد من أثاث ولوازم وكتب وملابس وأثاث خاص بك ؛ لأنه خال من العفش كما أخبرتك ..

فشكرته وخرجت في الحال وزرت جميع الأهل ، وودعتهم وأخبرتهم بسفري إلى الطائف وكذا وكذا . كما زرت الأساتذة والأصدقاء وبعض الزملاء .. ثم ذهبت إلى أمي وإخوتي ثم إلى العم والعمات فاستأذنت منهم وودعتهم كما وعدتهم بأني سأبعث لهم في كل بريد برسالة للاطمئنان على الجميع . وكان البريد آنذاك يسافر في الأسبوع مرة واحدة في سيارة من أنواع اللواري المصندقة . ثم أخبرت كل هؤلاء بأن سفري إلى الطائف سيكون في الساعة كذا صباحًا ومن برحة القرار وعينت لهم الموقع الذي ستسافر منه السيارة .

هذا كله وأنا غير مصدق نفسي وأقول في نفسي : هل من المعقول أني أنا الهارب المتشرد ، التلميذ البائس أحصل على سفر بسيارة خاصة وأنال كل هذا التقدير وهذا الاحترام ؟ ! ! شيء عجيب وغريب .

الهدايا

بعد العصر ذهبت إلى سوق البدو واشتريت هدية أهل الزيماء قريتي المحبوبة التي نشأت وترعرعت فيها ، منذ كان عمري لم يتجاوز الأسبوع حتى السنة السابعة .

اشتريت من النُّقل الشيء الكثير وهو ما يسمى عند البدو الفراحة ـ بكسر الفاء ـ من الكلمات العامية عند البادية .. وهذه الفراحة عبارة عن حمص وحلاوة حمصية وشقافة ملونة ونوى البطيخ (الفصفص) والتمر المجفف واللوز. كما اشتريت كسوة من الأنواع الراقية المحببة لدى أهل الزيمة من أميرهم إلى مزارعهم ؛ لأن أميرها هو عمي ، شقيق والدي من الرضاعة المرحوم فيصل القناوي ، وكل أهل الزيمة أصهار وأرحام وكأنهم أسرة واحدة .

جمعت كل هداياي وملابسي وما أحتاجه من كتب ومراجع ووضعت كل ذلك في حقيبتين كبيرتين وجعلتهما في مقعد من مقاعد بيت تاج الذي ستقف عنده السيارة (البوكس) التي ستقلني إلى الطائف وأنا صديق لهم من طريق أهل الفتياني أصهاري وأحبابي ، ثم ذهبت إلى رباط الباشا وودعت أهل الخلوات ، ومن حسن الحظ أن كان الشيخ محمد علي بن تركي موجودًا والشيخ عيسى الدهان والشيخ الإدريسي والشيخ الضرير خال الشيخ ابن تركي وأوصيت البواب أن يوقظني قبيل الصبح . فنفذ الوصية .

طفت بالبيت العتيق وصليت الصبح مع الجماعة ثم طفت طواف الوداع ثم ذهبت إلى سوق الليل لوداع باسلاسل ـ رحمه الله ـ وأوصيته بأن يبعث كل أسبوع بالمقرر من السمن والزيت لوالدتي حسب وصية الوالد ، وأفهمته بخبري وسفري إلى الطائف ففرح واستبشر وصنع لي قدحًا من المعصوب الشهي ، وقال : هذا الإفطار تفضل يا ابني .

وتعهد بأن يقدم لي كل عون فيما إذا نقص علي شيء ، من دراهم ونحوها .. كما تعهد بأن يبعث خادمه في الأسبوع مرتين أو ثلاثة لقضاء لوازم الوالدة والإخوة ...

ومن دكان باسلاسل توجهت إلى سويقة ثم قهوة (القبو) .. ثم إلى (الموردة) وإذا بالشمس قد طلعت وإذا بالسيارة البوكس واقفة تحت بيت (تاج) .. كما وجدت السيد المالكي صهر عمي - رحمه الله - واقفًا عند السيارة .. والسيد أحمد الفتياني الذي صار صهري فيما بعد، وبعض زملائي من الفصل، وأستاذي المرحوم الشيخ حامد كعكي، والشيخ محمد الطيب المراكشي والشيخ أحمد ناضرين. كل هؤلاء كانوا قد بسطوا مصلياتهم على تكة بيت تاج بجانب البوكس في انتظاري ..

ذبت خجلًا وتهللت عرقًا واستحياء، وندمت على إخباري لهم بموعد سفري، وما كنت أظن أن المسألة تصل إلى هذا الحد، ولكن الشيخين الكبيرين: (المراكشي والناضرين) كانا على علم مسبق من طريق الشيخ الرويحي؛ لأنهما قد رشحاني لهذه المهمة كما أشرت إلى ذلك.

السفر إلى الطائف

هذه أول رحلة أقوم بها بعد بلوغي مرادي واستقلالي وقيامي بشئوني .. حمدت الإله على ذلك وشكرت له ما أنعم وتكرم، ثم ودعت الجميع وشكرت لهم تقديرهم لي وتكلفهم وتعبهم - جزاهم الله عني خير الجزاء وأسكنهم فسيح الجنان - ومن جملة المودعين أيضًا أستاذنا المرحوم الشيخ يحيى أمان والشيخ العربي والسيد محمد أمين الكتبي - أطال الله عمره - ومن شدة خجلي واستحيائي قررت في نفسي ألا أخبر أحدًا (مستقبلًا) وألا أحرج أحدًا .. والذي دعاني في ذلك الوقت لمثل هذا التصرف، هو في الحقيقة صغر السن وقلة الرشد وحب الظهور والتخيلات الفاسدة ولكي أثبت وأقيم البرهان

على أني رجل له وزن وله كرامة!

هكذا كان يوسوس لي شيطاني - وأستغفر الله العظيم وأعوذ به من همزات الشياطين - ولأيام الصبا نجم أفل.

الرحلة الأولى

أخرج السائق الحقائب هو والمعاون ووضعوا الجميع في داخل البوكس ولم يكن بداخله أي شيء، لا من الزل ولا من الفرش كما أخبرني الرويحي اللهم إلا «مطبقية» تحتوي على مأكولات شهية و«ترامس» فيها الماء الحار والبارد والقهوة والشاي. ثم أمر السائق معاونه بأن يركب داخل السيارة البوكس، وأن أستقل أنا بالمقعد الذي بجانبه زيادة في راحتي، كما أمره بذلك الشيخ الرويحي، كما فرش لي سجادة شيرازية جميلة.. ثم أخبرني بأني حر التصرف في المسيرة غير مقيد بشيء حتى لو لزم الأمر إلى المبيت بالطريق، وهذا من جملة كرم الضيافة.

ودعنا الجميع وسرنا على بركة الله أنا والسائق والمعاون وعلى ظهر البوكس بعض العجل الاحتياطي خوفًا من (البنشرة).. وسيأتي تفسير هذه الكلمة الدخيلة في المفردات - إن شاء الله.

الفصل السابع

الشرائع

لأول مرة في حياتي أركب «عربة نفطية» وأسافر سفرًا سعيدًا .. بهذا الشكل المريح وبهذا الاحترام والتوقير، وكنت قبل ذلك أسافر على الأقدام وعلى الحمير والجمال، فسبحان مغير الأحوال!

الرحلة من مكة إلى الشرائع استغرقت ساعة وربع الساعة والحمد لله لم يحصل أي خراب لا بالعدة ولا بالطارات (المطاط) إنما التضاليع والتعاريج والحفر وما يسمى بـ (البطناج) والغبار الذي يأتي من السيارات التي تتقدمنا من خصوصيات وغيرها، ولقد قاسينا من ذلك الأمرين، حتى وصلنا - بسلامة الله - إلى الشرائع، فعرجنا إلى سفح جبل فيه ظل بارد ومعنا الماء الساخن والبارد والقهوة والشاي والطعام فبسطنا البسط الشيرازية واسترحنا بضع دقائق، ثم غسلنا وجوهنا وأخرجنا ما في جوف المطابق من طعام لذيذ .. فقلت للسائق والمعاون: (بسم الله) لنأكل ثم لنحتس القهوة فتمنعا، واستحييا بادئ الأمر، فألزمتهما وأقسمت عليهما إن لم يتناولا معي فسأضرب عن الطعام، فامتثلا أمام الأمر الواقع. وبعد الأكل والشاي امتطينا (البكس) .. وسرنا في طريقنا إلى الزيماء. وكانت المسافة ساعة ونصف الساعة ولم يحصل أي تعطيل ولله الحمد إلا من الغبار ورجة الأبدان .. وكان وقت الزوال، فقلت للسائق: في هذه الضاحية نستريح أكثر من ساعة - إن شاء الله - لأن لي قرابة سأزورهم وأنت تبقى بجانب العين الأولى إلى أن أرجع إليكم، فلبى الطلب وقال: نحن تحت أمرك كما أمرنا الشيخ الرويحي وليس لنا رأي ولا أمر فافعل

ما بدا لك ! فشكرته على أخلاقه ولطفه ثم غسلت وجهي من العين الجارية وبدلت ثوبي ووضعت ضمادة ناصعة البياض على رأسي وعباءة خفيفة جديدة ثم دخلت القرية التي بها أمي المرضع وخالاتي وإخوتي وأعمامي فلم يعرفني أحد منهم لطول العهد وتغير الجسم والوجه والطول والعرض والشكل إلى ما بالوجه من شارب وحبات من شعرات اللحية .

سلمت عليهم وعرفتهم بي فعرفوني وصرخوا في القرية : جاءكم (ولد فيصل) جاءكم (ولد هيف) .. يا فرحتاه .. وكان الاسم المحبب إلي : « ولد هيف » لأن أمي المرضع - رحمها الله - اسمها هيف حتى إن أهلي بمكة وإخوتي لا يدعونني إلا بكلمة « هيف » وأما زوجها المرحوم فيصل القناوي فلم يطل عمره ؛ إذ مات وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري ، إن التي عاشت إلى أن بلغت سن المراهقة وتعبت وتغربت وتعذبت وهاجرت من قريتها بسببي هي أمي المرضع « هيف » - رحمها الله وأسكنها فسيح جناته .

الضيافة

بيت عمي شقيق أبي فيصل وكان أميرًا للقرية ، كان بجانب بيت خالي (نامي) رحمه الله - وفي الحال جاء مسرعًا ليرى ولدهم وربيبهم الذي حرم منهم وحرموا منه أعواما كثيرة وسلموا علي وطلبوا مني شرح كيفية الوصول إليهم بهذه الهيئة وما هي المناسبة ؟ فقلت لهم : على كل شيء يتعلق بي من حين خروجي من الزيمة إلى هذه اللحظة ، فطلبوا أن أمكث باقي النهار عندهم للقيام بواجب الضيافة ، ثم ذهبوا إلى السائق فجاء بالبكس إلى أن دخل بجانب أميرها عمي القناوي شقيق والدي المرحوم فيصل القناوي ، ثم ذبحوا

خروفًا ونادوا أهل القرية، فكان يومًا سعيدًا نعمت وسعدت فيه برؤية البلدة التي ارتويت بمائها وتسلقت جبالها وأشجارها مدة طويلة من الزمن حتى بلغت السابعة من عمري، وكم أسفت على وفاة والدي فيصل وخالي (نامي) والمرضع التي تحملت بسببي وحبي الأتعاب ومفارقة الديار والأحباب حتى وافاها الأجل ـ رحمها الله رحمة واسعة ـ وكان في خالتي (حسون) العزاء والسلوان التي هاجرت بعد إلى مكة بسببي إلى أن لاقت ربها.

والآن عزائي هم إخوتي الموجودون بالزيماء وبالمضيق و(سولة) وغيرها من الضواحي المجاورة للزيماء.

ثم ركبنا البوكس وأسرعنا في السير للحاق بالقوم مع العلم بأن الرجل الطيب الرويحي أعطانا الحرية التامة وقال للسائق: سر كما يريد وقف كما يشاء حتى لو أدي ذلك إلى المبيت بالطريق، وكانت الظروف تقتضي أن أكون أو يكون وصولي قبل الآخرين، لكنني تجرأت بسبب وجود الفرصة المناسبة لزيارة أهلي من الرضاعة فأغمضت عينًا وتساهلت وهو عالم بأن أهلي بالزيمة.

وقفنا في السيل ربع ساعة غسلنا وجوهنا واحتسينا أقداحًا من القهوة والشاي واللبن الرائب الذي أهدي إلينا في عكك من الحجم الكبير، ثم مشينا إلى السيل الصغير ولكننا لم نقف به بل واصلنا المسيرة حتى وصلنا الطائف بسلامة الله.

بيت الرويحي

وكان السائق على علم بدار الرويحي؛ لأن بيده قطعة ورق مكتوب فيها

(حارة أسفل بيت البجيري) التي استأجرها له المرحوم السيد هاشم بافقيه صاحب بقالة بالسوق وكان وكيلًا للرويحي يقضي له جميع طلباته ويقوم بشئون ولائمه وما إلى ذلك.

قابلنا المرحوم الشيخ حامد أحسن استقبال مؤهلا مرحبًا هو وأنجاله وسأل عن الفواكه فقال له: هذه هدية الأستاذ أهداها له أهل الزيمة ووصف له الاستقبال الرائع الذي قوبلنا به من أهل تلك الضاحية الجميلة وذكر له الضيافة التي قاموا بها لنا فقال: يستاهل الأستاذ. ثم جاء الخدم فأدخلوا كل شيء خاص بي إلى مقعد مفروش بالزل الجميل ثم قالوا: هذا خاص بك وهذه حقائبك عندك هذه الملحقات الخاصة بالمقعد من موضأ وما يتعلق به من بهو صغير يضم مراكن فخارية وفسحة مكشوفة تحت السماء يظلها عريش من العنب والمراكن بها زهور وشارة ورياحين فارتحت لذلك جدًا، وبعد الاستراحة قليلًا جاء الشيخ الكبير الرويحي بنفسه هاشًا باشًا قائلا: تفضل يا أستاذ إلى الديوان حيث إن السيد بافقيه وكيلنا أقام لنا حفلة ودعا إليها أحبابنا، وبعد العشاء والسمر يمكن أن تشرف هنا حيث هذا الخادم وأشار بيده إليه هو (محمد الغامدي) خاص لخدمة هذا المقعد والقيام بإحضار طلباتك في أي وقت تشاء، أما عندما تريد لمنام فأشر إليه ليحضر لك مستحضرات النوم.

الديوان

ثم ذهبت مع الشيخ المحترم إلى الديوان الخاص بالضيوف فعرفني بهم وعرفهم بي فسلمت عليهم واحدًا واحدًا، وإذا هم من علية القوم ولأول مرة أجتمع بمثل هؤلاء القوم.

وكان من أهل الطائف عدد لا يستهان به أذكر منهم المرحوم الشيخ إبراهيم كمال والد حسن وعبد الله وإخوانه، ثم المرحوم محمد عمر كمال والمرحوم الشيخ بكر كمال وكان إذ ذاك كاتب عدل الطائف وصار صديقًا لي فيما بعد حيث قد نظمت معه رحلات كثيرة إلى ضواحي الطائف، مثل لية وثمالة والحنو ووادي محرم والهدة والشفا والمعدن، ثم الشيخ عبد الوهاب حلواني رحمه الله وغيرهم ممن لا أتذكر أسماءهم الآن.

ومن مكة كان هناك المرحوم السيد صالح شطا وكانت وظيفته نائب رئيس مجلس الشورى، والمرحوم الشيخ إبراهيم السليمان والشيخ محمود آبار ومهدي المصلح مدير شرطة العاصمة وكتاب وزارة الداخلية بأجمعهم أذكر منهم محمد نور شوشو وعبد الله كامل وكلاهما من الأحياء إلى الآن [تاريخ كتابة المذكرات] وعدد من أعيان جدة.

كل ليلة

يزور هذا الديوان عدد كبير من المواطنين ومن لهم مراجعات ومعاملات من سائر أرجاء المملكة حتى من المنطقة الشرقية وهذا قبل أن يطلق على المملكة اسم (المملكة العربية السعودية) ولهذا وبهذا السبب تعرفت على الكثير من أعيان ووجهاء وكبراء المملكة وصار بعضهم من أصدقائي وبيني وبينهم مكاتبات وتبادل زيارات ومعاملات تجارية فيما بعد عندما فتحت مخازن للتجارة بمكة وجدة والطائف، من أول الستينات إلى ما بعد الثمانينات، ثم أغلقت بسبب الانتقال إلى مصر من ذلك التاريخ إلى حين تدوين هذه المذكرات وبسبب التعمق في الرحلات والمباشرة في طبع المؤلفات وخاصة ما

يتعلق منها بالسياحة حول الأرض لكل القارات ـ إن شاء الله ـ وقد ظهر منها الآن : (كتاب مدائن صالح) أروع البلاد السياحية في المملكة العربية السعودية وقد طبع الجزء الأول والثاني في الطريق إنشاء الله .

بـدء الدراسة

في ذلك المقعد المتواضع الذي أشرت إليه سابقًا بدأت الدراسة والمذاكرة لأولاده الثلاثة ـ رحمهم الله ـ ثم انضم إليهم بعد أيام محمد مهدي المصلح ، وكان هذا التلميذ مستقيمًا ذكيًا ، واصل مذاكرته عندي ، حتى بعد المصيف ، في مكة المكرمة بدار الخطيب بباب العمرة . وها هو اليوم سفير للمملكة على ما أظن في فنزويلا . ثم انضم إليهم للمذاكرة الابن سراج عطار وشقيقه هشام فكان المجموع ستة من الطلبة . والدراسة كانت تبدأ من التاسعة صباحًا إلى أذان الظهر .

بعد العصر

ما أن تحين الساعة الثانية بعد الظهر حتى يحضر الأستاذ الوالد الرويحي لاستقبال ضيوفه النازلين عنده وأغلبهم من موظفي وزارته الذين ليس لهم عائلة ، آنذاك ، وبعض النزلاء من جدة ، والرجل المضيف كريم ومتواضع يجلس على مائدته الأولاد والخدم والضيوف وبالإضافة إلى ذلك تجده خادم نفسه فهو لا يكلف أحدًا من خدمه أو أولاده بطلب ماء أو نحوه ولا تراه إلا هاشًا باشًا مجاملًا دمث الأخلاق ـ رحمه الله ـ ثم ينزل الشاي والقهوة فيحتسي كل فرد ما يشاء ثم تكون فسحة التمشية من بعد العصر إلى المغرب

تارة على الحمير وتارة بالبكس إذا كانت التمشية في الضواحي البعيدة مثل الردف وغدير البنات، وتارة على الأقدام إذا كانت إلى جبل السَّكارى، وبئر عجلان، وحوايا، وشهار، وبعض البساتين القريبة من الطائف.

الليـل

وكانت الأوامر قد صدرت إلى الأولاد بعدم التأخر إلى العشاء فكان المرحوم والدهم يعطي تنبيهًا للمسؤولية بعدم سماع كلام الأولاد فيما إذا أرادوا أن يتأخروا أو يتجهوا إلى ضواحي بعيدة وأقصد بالمسؤولين خال الأولاد وعبد الرحمن برغوتة وكان القيم على المجموعة كلها خالهم المرحوم أحمد بابا من تجار الفواكه بجدة وإذا كان مسافرًا يكون القيم (المرحوم عبد الغني صباغ) كان صديقًا للمرحوم الرويحي وكان يوصيه كثيرًا على الأولاد كما كان يتولى بعض الشئون الخاصة بالطلبات القيمة، وكان صاحب دكان بالطائف وله ولد صغير يدعى محمودًا وهو الآن صاحب الفنادق الشهيرة بالطائف ومكة يقال لها (شبرا) وكان لهذا الابن بعض الأبناء يتعلمون في الولايات المتحدة الأمريكية ببلدة لوس أنجلوس أذكر منهم (عبد الغني) دعاني إلى داره في التسعينات وأكرمني وفسحني مع زملائه هناك حيث أوقفني على جميع ما بتلك الولاية من متاحف ومعاهد وحدائق وغير ذلك، أكرمه الله ووفقه .. ثم كان يخرج معنا في هذه الفسحة الشيخ عبد الله كامل والشيخ عبد السلام فارسي والشيخ عبد الرحمن برغوتة من أهل جدة ومن أقارب الشيخ الرويحي وكان نزيلًا عنده مع أخيه المرحوم أمين برغوتة والشيخ حسين ناظر ـ رحمه الله ـ وأغلب أيام الجمعة يدعى الشيخ بأسرته وضيوفه إلى البساتين البعيدة بالمثناة،

حيث كان ينزل المرحوم الشيخ صالح أبو زنادة وبعض أعيان جدة من آل الهزازي وآل ابن زقر وآل باعشن وآل زينل حينما كانوا يفدون مسلمين على جلالة الملك أو النائب العام أو الأسرة المالكة أو للوداع أو للمراجعة إذ كانوا ينزلون ببساتين المثناة التي كان يشار إليها بالبنان آنذاك .

بعد المغرب

يكتظ الديوان بالمراجعين والزائرين من مختلف الطبقات ثم يقتصر فيما بعد على الخاصة والنزلاء فتكون السمرة إلى الساعة (الرابعة) ليلًا .. (العاشرة بالتوقيت الزوالي) ثم ينزل العشاء ويحلو السمر بعده مع الخاصة والنزلاء ، أما الأولاد فتصدر إليهم الأوامر بالصعود إلى المجالس العالية بالدار حيث يراجع لهم المرحوم والدهم الواجبات الدراسية التي سيقدمونها إلي في اليوم التالي ويسهر معهم حتى يحفظوا جميع ما عليهم - رحمهم الله أجمعين .

فسحتي الخاصة

وعندما تصادقت وتصاحبت مع الزائرين لهذا الرجل الكريم المضياف اصطفيت من بينهم المرحوم الشيخ بكر كمال كاتب عدل الطائف حيث كان يصف لي دائمًا حدائق الطائف والقرى المحيطة به البعيدة منها والقريبة وكان يقول : إن له ابنًا بالمراضع بأرض (ثمالة) يزوره كل أسبوع وكان يحرضني على الخروج إلى لية وإلى ثمالة معه فكنت ، أستحي أن أذكر ذلك للمضيف إلى أن صرح له يومًا وقال له : « إن الشيخ يحب أن يخرج معي إلى ضواحي الطائف فاسمح له وأعطه الإذن وأنا آخذه مساء الخميس من كل أسبوع وأحضره

صباح السبت إلى هذا الديوان وعلى مسئوليتي » فلبى الطلب حالًا وأذن لي وقال : بشرط أن الأولاد لا يذهبون معكم ؛ لأني لا أستغني عنهم ولا أحب أن يكونوا بعيدًا عني حيث أمهم لا ترضى بذلك وفي الوقت نفسه كثيرة القلق عليهم لا أريد أحدًا من النزلاء يذهب معكم حيث المصلحة تقضي بذلك فقال الشيخ بكر : « وهو كذلك وأنا لا أرغب غير ذلك ؛ لأن ذهابي إلى هناك لم يكن إلا لمصالح قضائية » ... ثم يأتي كل خميس قبل العصر ويبعث إلي بخادم يصحبه معه وهو يقف خارج الدار فيشير إلي الخادم إشارة خاصة بحيث لا يدري بذلك من بالمجلس فأخرج حالًا وأذهب إلى المقعد الخاص بي وآخذ بعض الملابس والنقود وكتب المطالعة ، فأجد الشيخ في انتظاري ، ثم نذهب إلى بيته العامر أمام مسجد باعنتر ، وإذا بالإخوة من أصهاره في الانتظار ، فعرفني بهم أولًا ثم عرفهم بي وهم : المرحوم الشيخ عثمان بكر وولده الشيخ عمر والشيخ إبراهيم بكر وشقيقه الشيخ صالح بكر وبعض القرويين ثم الحَمَّارة أصحاب الحمير .

نمتطي الحُمُر بعد صلاة عصر الخميس ثم نرحل إلى الضواحي حيث نمكث ليلة الجمعة وليلة السبت ثم نرجع إلى الطائف بعد الشروق بساعة ؛ لأم سفرنا من لية أو ثمالة يكون بعد الغلس ومرارًا ما نتعثر في الوحل والحفر ونقع على الأرض فيسعف بعضنا بعضًا حتى نصل بسلامة الله .

الذبائح في انتظارنا

وكنت أظن في بادئ الأمر أننا سنشتري طعامًا أو معلبات لنأخذها معنا ولهذا أخذت معي نقودًا وصارحت الشيخ بكرًا في ذلك فقال : عندما نرجع

نتحاسب ولكن ظهر خلاف ذلك فيما بعد ... أكرمه الله في الدنيا والآخرة وبارك في ذريته .

في الطريق طبعًا لم نكن نحتاج إلى شيء ولو اقتضى الأمر ذلك للجأنا إلى الأخراج (بفتح الهمزة) جمع خرج (بضم الخاء وتسكين الراء ثم الجيم) وتطلق على الحقائب المصنوعة من النسيج أو الجلد التي توضع على ظهور البغال والحمير في السفر ، حيث يضع فيها الرحالة متاعه وزاده و(ترامس) القهوة والشاي والنقل وغير ذلك .. و(الترامس) من كلمات العامة بمكة المكرمة ، وهي أوعية حافظة للحار والبارد من الكلمة الإنجليزية (ثيرموس) .

وكانت الرحلة الأولى إلى ثمالة (بضم الثاء وفتح الميم مع ألف لمد واللام المفتوحة ثم التاء المربوطة) وهي من ضواحي الطائف وتبعد نحو ساعتين بمشي الحُمُر ، إذا كان السير خببًا ، وإذا كان بالزجر والطرد ، تنقص المسافة نحو ربع ساعة وإذا كان عدوًا وسطًا فثلاث ساعات أما الآن فالعربات النفطية تصلها في نصف ساعة وأحيانًا نصلي المغرب في الطريق إذا وجدنا ماء ، وغالبًا ما نكون على وضوء وعند وصولنا كنا نجد أهل الضاحية في انتظار الشيخ علي مشارف البساتين فيستقبلوننا بالترحيب والبشاشة ، ثم يأخذون الأخراج ، فيدخلونها إلى داخل البيوت المتخذة من اللبن والحجارة ثم يقدمون لنا أقداحًا من اللبن الرائب الدسم ذي الرائحة العطرة ، ثم القهوة ، ثم يذبحون خروفين سمينين ويدعون الجيران وتمد الموائد الشهية ويكللون أطراف المائدة بأقداح اللبن بدلًا من الماء ، فنتناول العشاء الفاخر ثم يأتون بالفاكهة من الأعناب والرمان ، ثم يدورون علينا بأكواب من الشاي الساخن .

بعد ذلك يجتمع أهل القرية في الوادي أو في فناء الدار إذا كان واسعًا

فسيحًا ثم تبدأ الطبول والرقصات البدوية ثم المجارير والدانات والأهازيج البدوية والأناشيد العربية إلى ما بعد منتصف الليل، حتى موعد النوم، ويكفينا منه ثلاث ساعات على الأكثر، وأحيانًا نصحو قبل الأذان جائعين من الرياضة وتغيير الهواء وجودة العشاء ونضج الفاكهة ونظافة الجو وريعان الشباب ورونقه .. ثم نتوضأ ونصلي الصبح بغلس، وإذا بالإفطار قد مدت موائده من عريكة وعصيدة ولبن وتمر وسمن وزبد وعسل، ثم القهوة.

بعدها نخرج إلى البساتين حيث يأتوننا بأطباق من عناقيد الأعناب مختلفة الألوان والمذاق ثم من الرمان الفاخر المشهور حتى إذا ما أضحى النهار جلس الشيخ بكر كمال في إحدى المقاعد الكبيرة بالدار التي ينزلها حيث تتوافد عليه رؤساء تلك الضواحي المجاورة لثمالة، كما يتوافد عليه من لهم معاملات بمحاكم الطائف فيحكم بينهم، ثم يحيل بعضهم إلى الطائف وهكذا.

أما أنا فيبعث معي صهره الشيخ عمر بكر وبعض أرحامه من مراضع ابنه عبد الله (الموظف حاليًا بوزارة الدفاع السعودية) كما يبعث أحد شباب الضاحية ممن لهم خبرة بأسماء الجبال والحصون والآبار وأسماء البساتين وأصحابها وسكان تلك الضواحي من القبائل وذلك للإرشاد والإعلام.

بعد ذلك نذهب جميعًا نحن الشباب، فيملي عليَّ ذلك المندوب المبتعث من قبل الشيخ كمال، فأكتب وأسجل، ثم ننتقل من مكان إلى مكان ومن جبل إلى آخر حتى نتعب، ثم نرجع إلى الشيخ لنجده في انتظارنا وذلك قبيل العصر ونتوضأ ثم نصلي الظهر، ثم يحضر الغداء بعد ذلك.

ثم يُحضر أهل الضاحية المضيفة حمرهم التي تحمل الفاكهة إلى الطائف

فينشدونها ويبرذعونها ويلقون على تلك البراذع الجعد من الشعر الناعم الوبر فيحملوننا عليها ويسيرون خلفنا ليذهبوا بنا إلى القرية المجاورة المضيفة للشيخ بكر وقومه .

نصل إلى تلك القرية بعد الغروب فيستقبلنا أهلها بالبشاشة والبشر قائلين : حياك الله (مرارًا) ثم يذبحون ويدعون أهل الأحياء المجاورة .

الطبول والأهازيج

وينادون بأصواتهم : يا فلان قل لبني فلان : القرى[1] [بكسر القاف] عندنا الليلة . وما أن تحين الساعة الثانية ـ الثامنة بالتوقيت الزوالي ـ حتى تمتلئ تلك الساحات الفسيحة بالأقوام من أهالي تلك الجبال والقرى من أولئك البدو سكان ثمالة وما جاورها ، ثم تقرع الطبول وتبدأ الرقصات الشعبية والأغاني البدوية والمجارير ـ جمع مجرور ـ (لحن خاص بالبادية) جميل الإيقاع حسن الترنيم وخاصة إذا صدر من مصدره (أهل البادية) .

ثم تمد الموائد من تلك الخرفان الربوية والفواكه الشهية والألبان الشذية ثم تدار علينا بعد هذا العشاء الفاخر تلك الأكواب مرصوصة في الصحائف مملوءة بالشاي والقهوة العربية وهكذا تمضي الليلة ولا ندري كيف كان انقضاؤها ثم نصلي الغداة بالغلس ونمتطي حميرنا ثم نسير سيرًا وسطًا حتى ندخل الطائف مع الشروق أو بعده بقليل .

---

(١) القرى ـ بكسر القاف ـ : فراء مفتوحة بعدها ألف كتبت خطًا بالياء ؛ نظرًا لأن أصل الكلمة يأتي من (قريت) فلانًا : أضفته .

الـقـرى

بكسر القاف ، ويطلقونه هنا على حفلة الختان ـ بكسر الخاء ـ وهذه الحفلة أو الاحتفال يكون في الصباح ، وإذا كان للزفاف فيكون ليلًا ، وقد حضرناه مرارًا مع الشيخ بكر (رحمه الله) ، غير أن طعام الختان لا تذبح فيه الذبائح بل يكتفون بقصاع العريكة والعصيدة ولكن على مستوى رفيع ، إذ يوقد الحطب ويلقى في رماده من الأقراص أنواع وأحجام مختلفة تملّ مَلًا ، ثم تخرج من الرماد كالورد الأحمر ، ثم تفرك وتفت في تلك القصاع ويسكب عليها من السمن البري الأصيل ثم من العسل الأبيض الحر المصفى ، ثم تقرع الطبول وتطلق الطلقات النارية من أفواه البنادق . ثم تتلوها رقصات معينة ومجارير وأناشيد ، ولا عيب في أي شيء من هذه العادات غير أن صبيانهم الذين يحتفلون بختانهم كبار ؛ إذ إن أصغر من رأيت كان في العاشرة . وبعض القبائل ختانها صعب وشديد حتى قيل لنا : إنهم يسلخون بعض السلخ ، ولكن لله الحمد قد عفا الزمن على هذه العادات القبيحة مع بداية الخمسينات والآن كل شيء عادي وأصبح الختان عن طريق المصحات غالبًا .

٣٦ رحـلـة

قمت في ذلك العام بست وثلاثين رحلة مع الشيخ بكر كمال كاتب عدل الطائف . ثم صار فيما بعد قاضيًا لمحكمة الطائف الكبرى ثم قاضيًا لمحكمة الليث والقنفذة وقد يجوز انه تقلب في وظائف قضائية لا علم لي بها ، منها قضاء الظفير . ثم أحيل إلى التقاعد . ومع ذلك كان يمارس الدعاوي والمحاماة ، ولكن في بيته لا يستطيع الخروج لمرضه ولا الخروج بعيدًا عن بيته . ثم رحل إلى

مصر مع عائلته حيث أخذ يتعالج هناك وقد كان مصابًا بمرض القلب منذ زمن طويل . ومكث في مصر بضع سنين ثم رجع بعائلته إلى الطائف ومكث بها بضع سنين إلى أن وافاه الأجل في عام ١٣٩٦هـ فيما أظن وقد ولد في عام ١٣٢٤هـ وكان من خيرة الرجال ويمتاز بدماثة الأخلاق ، حاضر الفكاهة كريمًا مضيافًا عالمًا وفقيهًا ومتواضعًا حسن السيرة والسلوك وكان والده من قبل قاضيًا من خيرة قضاة الطائف . ولم يخلف غير الشيخ بكر ، الذي خلف من الأولاد الذكور : عبد الله ، وعبد الباسط ، ومحمدًا وكلهم موظفون بوزارة الدفاع ، فيما سمعت . ولقد نظمت معه هذه الرحلات ما بين الطائف والحجاز في ذلك العام وفي خلال ثلاثة أشهر ، كما نظمت معه ١٦ رحلة في عام ١٣٥١هـ حيث قضيت الصيفية مع المرحوم الرويحي على نمط هذه الصيفية وسيأتي ذكر هذه الرحلات فيما بعد مفصلًا إن شاء الله .

رحلات إضافية

كان بعض أعيان الطائف يدعون الشيخ الرويحي ومن بمعيته إلى ضواحي الطائف مثل لية والهدة مرات عديدة ونحن بالطبع ضمن معية المدعو . وفي مقدمة الداعين كان المرحوم الشيخ عبد الوهاب حلواني ، كما دعا سمو النائب العام وقد حضرنا تلك الدعوة ووقفنا على الكثير من العادات والأناشيد والأهازيج واللعب بالسيوف والسباق على الخيل . وكان سمو النائب العام وأصحاب السمو قد ضربوا المثل العالي في لعبة السيوف والأناشيد الحربية والحماسية وما إلى ذلك ـ وفقهم الله ـ وكانت الدعوة بأرض لية في بساتين الحلواني ، وأعظمها حماسة كان في صيفية العام الذي كان فيه المغفور له

جلالة الملك عبد العزيز مصيفًا بالطائف آنذاك ، وقد كانت الفرحة بالانتصار على ابن رفادة الذي كان قد خرج بجبال ينبع ومكن الله منه ، والفرحة باتحاد وتوحيد الممالك التي كانت تحت الحكم السعودي ؛ إذ جمعت كلها في اسم واحد : (المملكة العربية السعودية) وقد دام الفرح الذي دعا إليه المرحوم الحلواني عدة ليال في وادي لية الفسيح وسيأتي الكلام عنه في حينه إن شاء الله .

السفر

انتهت الصيفية بعد انقضاء الأشهر الثلاثة التي قضيناها بالطائف في ذلك العام وكأنها أيام أو ساعات . وكان هذا عام الحرية بالنسبة لي وعام التعارف بالعالم العربي والسعودي والاجتماع ببعض الشخصيات البارزة ، وعقد صداقة مع كثير من أهل المنطقة الشرقية والغربية والجنوبية ، بسبب أن الرجل الكبير الذي كنت في معيته كان يشغل منصبًا كبيرًا في الدولة آنذاك ، وفي الوقت نفسه دمث الخلاق وعلى درجة كبيرة من التواضع وحسن الخلق والسلوك والمحافظة على سمعته ومركزه وكانت العلاقة بينه وبين ربه في أحسن حالاتها تقوى وورعا ، إذ ما يأتي وقت الصلاة إلا ويأمر أولاده ومن بمجلسه بأدائها في وقتها جماعة والأهم من ذلك كله (صلاة الصبح) جماعة مهما يَطُل السهر ، فإنه ينادي على من بداره من أولاد وضيوف وخدم للاستعداد لأدائها ، ثم ينزل من مجلسه لحضور الجماعة بالديوان العام ، وأولاده يسبقونه خوفًا من العقاب والعتاب ، وما أن ينزل حتى يجد الجميع في الانتظار على البساط المعد للصلاة .

بعد انقضاء الصيفية وعندما قرب السفر إلى مكة بأيام ، قال لي الشيخ الرويحي : « اشتر هديتك لأن السفر سيكون يوم كذا واعلم أن البكس الذي جاء بك من مكة سيذهب بك بمفردك ، فاشتر ما شئت من هدايا وتصرف كيف شئت في الزيمة واعمل برامجك كما تريد ولا تفكر في أي شيء » ، فشكرته وبدأت أجمع الهدية ، وكانت الهدية في ذلك الوقت من « منتجات الطائف من مصنوعات ومن فواكه ومأكولات شهية » .

المنتجات كانت : المكانس وكانت أشهر من كل منتجات الحجاز آنذاك حتى إن سعرها أغلى مما يصنع من صنفها ونوعها من صنع مكة وجدة والمدينة ، ثم المشاقر والهاونات بأنواعها ، والشمال (جمع شملة) .

من المأكولات كان العسل وكان أنواعه متنوعة ويضرب به المثل وخاصة (الشفوي منه) المأخوذ من نحل جبال الشفا بالطائف ثم الهدّي نسبة للهدة ، نوكان شهيًا وفيه طعم ورائحة الورد ، وسعر الأقة (وحدة وزن تساوي ٣/٤ ٢رطل تقريبا) من كلا النوعين الممتازين لا يزيد عن ستة عشر قرشًا أما بقية الأصناف فنصف ريال . والسمن الشفوي البري المتخذ من ألبان الأغنام وسعر الأقة منه لا يزيد عن تسعة أو ثمانية قروش ، ثم إن أسعار الأغنام في ذلك العام كانت رخيصة جدًا وكنا نظنها غالية ، (قتل الإنسان ما أكفره) كان سعر الرأس لا يزيد على الريالين أما في البلدان والضواحي التي كنا نرحل إليها مع الشيخ بكر كمال ـ رحمه الله ـ فسعر الرأس لا يزيد على ريال واحد .

أما الفاكهة فحدث عنها ولا حرج ولا مبالغة ، فلو قلت لك : إن سعر المائة من الرمان الفاخر الذي يشار إليه بالبنان ، كان ريالا وسبعة قروش ، فصدق ! وقس على ذلك بقية الفواكه .

وكانت مزية آبار الطائف وضواحيها ثُمالةُ ولِيَّةُ أنها لا تحتاج إلى دلاء فتستطيع أن تملأ قدح الماء مباشرة من البئر إذا غمست يدك في داخل البئر فإن الماء قريب ، ورحمة الله قريب من المحسنين ، فاللهم أصلح قلوبنا .

أخصب ضواحي الطائف وأجودها تربة وأكثرها عطاء على الإطلاق في ذلك العام وخاصة آبارها وحدائقها الغناء ، كانت « ثمالة » التي هي مركز رحلاتي ، ومنها كان الانطلاق إلى الرحلات القريبة والبعيدة ، وهي بضم الثاء وفتح الميم بعدها ألف المد ثم اللام المفتوحة والتاء المربوطة . ومنها الأديب الكبير صاحب (الكامل) أحد كتب اللغة والأدب الأربعة التي يشار إليها ويحتكم إليها وبما جاء فيه من شواهد ومؤلفه أيضًا من كبار أئمة اللغة والنحو والصرف ويحتج كثير من شراح الألفية بأقواله وشواهده ؛ لأنه حجة فيقولون : قال المبرد كذا وكذا ، وهذا لقبه المشهور وأما اسمه فهو محمد بن يزيد وفي ذلك يقول الشاعر :

سألت عن ثمالة كل حي ... فقال السامعون : وما ثمالة ؟
فقلت : محمد بن زيد منهم ... فقالوا زدتنا بهِمُ جهالة

والثمالة في اللغة : هي ما تبقى في الإناء من شراب ونحوه وأكثر ما تطلق على ما تبقى من خمر في قاعدة الإناء أو الراووق ، لذلك يشتقون منها الفعل فيقولون :

وآخر من خمر الكرى ثمِلُ

بقية الهدية وتعبئتها

ولئلا أخرج عن الموضوع ، أقول : اشتريت الهدية بأنواعها لجميع الأهل والأقارب والأصدقاء حتى الزملاء من التلامذة الذين يدرسون معي في الفصل

وكذلك كبار الأساتذة . و(أهل الزيماء) كانت هديتهم من الكسوة والنُقل فقط .

جاء يوم الخميس قبل هلال رجب الفرد وحضرت عربات النفط الكبيرة والمتوسطة والصغيرة ، ومنها (البكس) الخاص بي فحملت وشحنت جميع ما عندي من حقائب وهدايا ، وتوجهنا بسلامة الله إلى مكة . وقبل أن أرحل من الطائف كان المودعون بجانب العربات جاءوا لوداع الشيخ الرويحي ومن معه ومن جملتهم صديقي في الرحلات المرحوم الشيخ بكر كمال ، وبيت كمال أسرة عريقة من الأسر التي تسكن الطائف ومنهم القاضي ، والأستاذ ، والتاجر ، قديمًا وحديثًا وسيأتي ذكرهم فيما بعد إن شاء الله .

ودعت الجميع كما ودعني الشيخ الرويحي قائلًا لي : « إنك ستمكث في الزيماء مدة أطول حسب رغبتك حتى إذا ما وصلت بالسلامة ليلًا أو غدًا ، تأخذ أمتعتك وما معك من هدايا وتترك السيارة لتذهب إلى الشركة العربية ، وإياك أن تعطي السائق نقودًا أو حلوانًا فإني قد دفعت إليه ما يلزم حتى لا يضايقك » . ثم أعطاني عشرة جنيهات إنكليزية ذهبًا عينًا وقال : هذه هدية مني إليك فرفضت قبولها وقلت له : إن الفلاح قد أعطتني نقودًا تلقاء انتدابي أكثر من الراتب ، فقال : أعلم . ولكن هذه هدية لنفقة الطريق وأهلك بالزيماء . وقد احمر وجهه وقال : « سأغضب إذا رفضت ! » فما كان مني إلا الإذعان والقبول . ثم شكرني على المدة التي قضيتها معه ، الأشهر الثلاثة التي مرت كأنها أحلام والتي كانت من أمتع الشهور في عمري بالنسبة لحياتي الأولى ، ثم أردف قائلًا : « إياك أن تغيب عنا ولو في الأسبوع مرة فإن بيتنا هو بيتك وإن الأستاذين الجليلين : المركشي والناضرين يشرفوننا كل ليلة فإذا حصلت على فرصة مواتية فلا تبخل علينا » .

وهذا من مكارم أخلاقه ـ رحمه الله ـ فوجهت إليه شكري وامتناني وقلت له : إني تلميذ ومقبل على اختبارات صعبة ومع ذلك إذا سنحت الفرصة فلن أتأخر عن الزيارة وهذا أقل واجب عليّ بارك الله فيك وفي ذريتك .

وصلت الزيماء قبيل الظهر ونزلت على أهلي وأخبرت السائق أني سأتغدى هنا وأمكث إلى العصر فقال : على ما تشاء أنا تحت الأمر .

قوبلت مقابلة كريمة من جميع أهلي ووزعت هديتي عليهم وتناولت الغداء عندهم كأحسن ما يقدم للضيوف ثم قدموا لي هدية من التمر والليمون والموز حسب عادتهم .

مكة المكرمة

ثم ودعوني بمثل ما استقبلوني به بعد ما أزمعت وقررت خالتي حسون شقيقة مرضعتي (هيف) أنها ستبيع ما يخصها من أرض بالزيماء ثم تهاجر إلى مكة من أجلي وأنها ستقيم بها إلى الممات ونفذت ذلك فعلًا في العام التالي وسيأتي ذكرها فيما بعد إن شاء الله .

وصلت مكة ليلًا بعد العشاء حيث أوقفني البكس تحت دار بيت (تاج) أصدقاء أصهاري (آل الفتياني) ثم نادى السائق على بعض العاملين من السنغاليين الذين يحملون ويحترفون رفع الأثقال وإيصالها إلى الدور البعيدة مقابل أجر معين ، جاء اثنان منهم وأخرجا الهدايا والحقائب من البوكس ، وحملوها حيث تم وضعها في غرفة من بيت تاج وبعد السلام والسخايا طلبت منهم قفلًا لأضعه على باب الغرفة إلى الصباح حيث آخذ الحقائب وما معي من

هدايا فوافقوا على ذلك بعد ما أقسموا على أن أتناول عندهم طعام العشاء واحتسي الشاي ثم أذهب حيث شئت .

حاسبت الحمالين وأعطيت السائق ما تيسر ثم أخذت كمية من الرمان أعطيتها للمضيفين ثم تناولت طعام العشاء والشاي وتوضأت ، ونزلت إلى المسجد الحرام وكنت محرما ، ثم طفت طواف العمرة ثم سعيت ما بين الصفا والمروة ثم حلقت ولبست ثيابي وذهبت إلى الخلوة وكان الوقت ما بين الساعة الرابعة والخامسة ليلًا أي بين العاشرة والحادية عشرة بالتوقيت الزوالي .

لسوء الحظ وجدت الباب الكبير مغلقًا وإني لأعرف ذلك ومن المستحيل فتحه كما تقدم سابقًا ، وكان بيت أمي وإخوتي قريبًا من الرباط فذهبت إليه فوجدت الباب قد أغلق من الداخل وهم ينامون في السطوح وما أحببت أن أقرع بشدة خوفًا عليهم من إزعاجهم فذهبت إلى المسجد وأتممت الليل معتكفًا ، إلى أن صليت الصبح بالمسجد الحرام وذهبت إلى الخلوة حيث ألقيت عصا الترحال ونمت نومًا عميقًا إلى الضحى ثم استيقظت وذهبت إلى بيت تاج بجانب الخرزة (الموردة) وكان معي بعض الشيالين من التكارنة ، حملوا الأثقال معي إلى الخلوة ، وفي ذلك اليوم وزعت الهدايا وسلمت على الأهل مبتدئًا بالوالدة والإخوة ، ثم العم والعمات ، ومن بعدهم الأقارب ، والأساتذة وأهل الفضل والأصدقاء والزملاء .

الدراسة

في اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة إذ كانت قد فتحت أبوابها قبل أسبوع

من نزولي من الطائف واشتريت بعض الكتب من التاريخ والتفسير للمراجعة ولتعويض ما فات .

وبرامجي لم تتغير ، الصباح بالمسجد في (الخصفة) ثم تدريس الجاويين إلى ما بعد شروق الشمس ثم المدرسة وهكذا ، وفي المساء أزور الجيران من أهل الرباط مثل المرحوم ابن تركي والشيخ أمين مرداد والبصير خال الشيخ التركي ، وخلوة السيد حسين كتبي حيث ألتقي بأهل الصين لأحتسي الشاي الشيناوي (أي الصيني) ذا النكهة العجيبة ، وأستمع إلى لغتهم الغريبة وكنت مغرمًا بحب الاستطلاع ورؤية عجائب الكون حتى منحني الله ذلك بعد بضع سنوات .

الموسم

وكان الموسم في ذلك العام أقل من العام الذي قبله ، وعدد الحجاج قل بنسبة ١٥٪ . وكان أهل السوق يشتكون من الكساد والإيجارات نقصت بنسبة ٢٥٪ وخاصة من كان يؤجر داره على مشايخ الجاوة ، أما بالنسبة لمن يؤجر للعام السابق .

وكان حجاج البر أقل بكثير من العام الفائت حتى من كان يحج على الإبل من أطراف الشام والعراق ونجد والمناطق الشرقية .

الاختبار

وجاء العاشر من ذي القعدة وبدأت الامتحانات العامة وكان معظمها تحريريًا ؛ إذ كانوا يجلسوننا في بهو جبل أبي قبيس الذي أضافوه إلى مدرسة الفلاح من الخلف وكانت مساحته بطول مائة متر وعرضه أقل من ثلاثين

ذراعًا ، وكانوا يقيمون فيه الاحتفالات والاجتماعات والامتحانات والألعاب الرياضية وما إلى ذلك .

أما الاختبارات الشفوية مثل التفسير والحديث وأصولهما والمحادثات الإنكليزية ، فكانوا يدعون بعض الأجانب من علماء مكة وغيرها ليقوموا باختبار تلامذة السنوات العالية (السابعة والثامنة والتاسعة) فقط .

النـجـاح

وكان هذا الاختبار من أصعب الاختبارات التي مرت بنا طوال السنين الماضية ولكن ـ لله الحمد ـ نجحنا كلنا إلى السنة التاسعة وكنت الأول وكان الثاني المرحوم الشيخ عبد الرحمن نواوي والثالث السيد أمجد كتبي (الموظف بهيئة عين زبيدة ولا يزال حيًا ومحتفظًا بالصداقة وحقوق الزمالة) ، والرابع كان السيد عبد القادر رضوان ابن المرحوم السيد عبد الباري رضوان ، وهذا لم يوظف بل احترف تجارة الأقمشة كوالده ، المرحوم ، ولا يزال صديقًا ، وتربطني بآل رضوان صداقة منذ الأربعينات وهي أسرة مدنية عريقة بالمدينة ومكة تحترف التجارة وطلب العلم والسيد عبد القادر زميلي وصديقي ودكانه بشارع الأمير عبد الله الفيصل بالمُدعي أو الغزة ، حيث إن هذا الشارع له عدة وجهات ، وكان الخامس الشيخ عباس مرسي وهو لا يزال حيًا يرزق وهو من مطوفي المصريين . والسادس السيد علي جفري ، عهدي به في الثمانينات سمعت من جيرانه برباط السادة بسوق الليل أنه مدرس ببلدة (جوهور) بأرض الملايو ، وأرجو أنه حي يرزق والباقي هو الله وحده . وفي الستينات من هذا القرن الرابع عشر الهجري زرت مدارس ماليزية ومساجدها وسلاطينها وعلماءها ، فلم أسمع عنه شيئًا .

وحينما زارني زميلنا المرحوم السيد أحمد الجفري الذي ابتعث إلى بومباي ضمن البعثة التي أشرت إليها سابقًا، حينما زارني في عدن عام ١٣٥٦هـ وكنت آنذاك مديرًا لمدرسة بازرعة الخيرية خلفًا عن المرحوم (صبحي طه المعاز الحلبي) سألته عن شقيقه هذا فقال: إنه بحضرموت ولكنه عازم على الهجرة إلى ماليزية. والسابع هو الشيخ حسن سندي وهو آخرنا في الفصل ويمتاز بقوة الحافظة والذاكرة والذكاء ولكنه سيء الحظ في الامتحانات، كما أنه يمتاز بالمواظبة الدائمة والحضور مبكرًا إلى المدرسة ولم يتغيب يومًا واحدًا عن المدرسة طوال السنين التي قضيناها معًا والدرجة التي كان يحرزها في المواظبة دائمًا عشرة كاملة، وكان أستاذًا بالمدرسة السعودية في الخريق في أثناء الحرب العالمية الثانية حينما كنت مديرًا لها وهو حي يرزق.

أقول: وقد ماتت لي وأنا بالطائف أخت شقيقة في سن المراهقة بالحمى الشوكية ودفنت المعلى، ولم يخبرني عمي - رحمه الله - بذلك إلا بعد أسبوع فاحتسبتها، وبعد نزولي من الطائف ماتت لي أخت شقيقة في سن البلوغ بالمرض نفسه فحزنت الوالدة - رحمها الله - حزنًا شديدًا وجزعت جزعًا عظيمًا وطلبت مني ومن عمي ومن جميع وكلاء الوالد أن يكتبوا له ليحضر وليأخذ العائلة إلى جاوة حيث لا طاقة لها بالبقاء بمكة، وقد مات لها أولاد وبنات قبلي، ولم يبق لها سوى بنت واحدة وولد واحد هو شقيقي عبد المعطي الذي هو الآن بمحكمة التمييز بمكة المكرمة، فكتبنا للوالد بذلك فحضر في الموسم الجديد لهذا الغرض وسأشرح ذلك في حينه إن شاء الله.

دخل العام الجديد التاسع والأربعون (١٣٤٩هـ) وأنا في السنة التاسعة أي الثالثة العالية، وكنت الأول في الفصل وكانت دراستي منتظمة على أكمل

وجه وحالتي المالية جيدة وصحتي على ما يرام، وكل شيء طبيعي بالنسبة لحياتي الجديدة، وبرامجي لم تتغير خاصة بعد ما خططت لنفسي الخطة المستقيمة واستقر بي المقام في الخلوة الجميلة التي أصبحت مكتبة ودار ندوة للأساتذة والزملاء والأصدقاء كما أصبحت حرًا طليقًا أذهب حيثما أريد، وأنام حيثما أستريح .. وأسافر وأرحل إلى الضواحي القريبة والبعيدة في الحدود المعقولة والخطة المرسومة، فكنت سعيدًا وراضيًا بما قسمه الله لي وبما مَنَّ عليَّ به من نعم وحرية واستقلال ورزق كثير ومحبة من الأساتذة والزملاء والأهل والأصدقاء والجيران برباط الباشا، وأصبح لي أصحاب كثيرون من أهل البلاد ومن الأجانب من هنود ومصريين وجاويين وسوريين وصينيين من تلامذة السيد كتبي ـ رحمه الله، وبالإضافة إلى بعض أقارب المرضع من قرية الزيماء.

الخالة حسون (بضم الحاء)

ولقد أنجز حر ما وعد، ولقد صدقت خالتي المرحومة شقيقة أمي المرضع ـ رحمها الله، فيما قالت، وأنجزت ما وعدت به، فلقد باعت أرضها بالزيمة وهاجرت إلى مكة واشترت بيتًا صغيرًا بجبل الكعبة على نمط بيوت الزيمة، بيت أرضي له فناء فسيح (حوش) واشترت دجاجًا وخروفًا ونعجة حلوبًا وبعثت لي بمدرسة الفلاح رجلًا يمانيًا من طلبة العلم يسأل عني في الإدارة، ولم أدر إلا بالمرحوم (بَنُّونة) المراقب العام جاء إلى الفصل يطلبني إلى الإدارة، فظننت ظن السوء، وسألته عن السبب، فقال: لا علم لي غير أن المدير قال لي: أحضر فلانًا.

نزلت إلى الإدارة وسلمت على المدير ووجهي مصفر وحالتي مرتبكة

فوجدت عنده شيخًا يمانيًا معممًا وكذلك بعض الأساتذة ، ثم جلست في ركن الإدارة خائفًا أترقب ماذا سيحدث ، ثم وقف (بنونة) أمام المدير ينتظر أمرًا ما ، لكن المدير قال له : اذهب إلى عملك .. ففرحت وآب إلي رشدي وحمدت الله على ذلك ، وبعد الاستراحة بدقائق معدودة نادى المدير(حمدوه) رحمه الله ، نادي الشيخ اليماني وقال له : هذا هو فلان طلبتك .. فنهض قائمًا وجاء ثم جلس بجانبي وقال لي : أنا سعد الوصابي من أهل اليمن ومعلم صبية بالحرم المكي أعلمهم القرآن ومقيم برباط الحارثي بجانب الحرم ولي قريب يسكن بجبل الكعبة أزوره كل جمعة ، وإذا بامرأة من أهل الزيماء تسكن بجواره جاءت إليه أمس الجمعة مساءً وكنت جالسًا عنده فسألته عن موقع مدرسة الفلاح فقال لها : لماذا تسألين عن المدرسة فقالت له : إن لي ابنًا يتعلم فيها واسمه كذا وأريد أن يحضر إلي ، فقال لها : سيحضر إليك إن شاء الله فلا تذهبي ولا تتعجلي ، ثم قال لي : هل تذهب إلى الفلاح وتسأل عنه ثم تعطيني النتيجة في الجمعة القادمة ؟ حيث إن هذه جارة لنا وتجب مساعدتها ومعاونتها . فقلت له : السمع والطاعة . وها أنا جئت إليك لأخبرك بذلك ثم قال : إن اسمها (حُسُون) وتقول إنها خالتك وهي في انتظارك ثم أعطاني العنوان بالتفصيل والتوضيح ، فتهلل وجهي فرحًا وسرورًا ، وعلمت أنها صدقت فيما قالت ، وكنت أظن أنها تمزح أو تجامل ، وكان الشيخ اليماني يحدثني بصوت خفي لا يسمعه أحد غيري ، فشكرته على ذلك كما شكرت صاحبه ثم قلت له : سأزورها قريبًا ـ إن شاء الله .

جبل الكعبة

ثم خرج الرجل بعدما استأذن المدير وأنا بدوري سلمت على الحاضرين

واستأذنت من المدير ، ثم ذهبت إلى فصلي قرير العين ، ولم أخبر أحدًا بذلك . ولم يسألني المدير ولا الأساتذة عن ذلك الرجل . وأحببت كتمان ذلك حتى أستطلع الخبر .

بعد العصر ذهبت إلى جبل الكعبة وبحثت عن عنوانها حتى اهتديت إلى بيتها الصغير فسلمت عليها وعانقتها بحرارة كما ذرفت عينها باللقاء الجميل وكم كانت فرحتي برؤيتها وحديثها الجذاب الذي ذكرني بالزيمة وأيامها وما أحلى الذكريات .

بعدما انتهى حديث المقابلة أخبرتها بقصتي واستقلالي ومحل سكني وعن بيت والدتي وإخوتي وعماتي ، ثم خيرتها أين ترغب حفلة قدومها : هل تكون بباب الدريبة أم ببيت والدتي ؟ فقالت : لا أرغب في أن تقيم لي حفلة ولا أحب أن يطلع أحد من أهلك على مقدمي من الزيمة وهذا لمصلحتك وستتذكر ذلك فيما بعد .

تألمت وتأسفت لرفضها قبول الدعوة وكتمان وصولها إلى مكة وأنا أعلم مواقفها من أهلي أيام الرضاعة وما جرى بينها وبينهم من محاورات تقدم ذكرها سابقًا .

من أجلك جئت هنا

سألتها : هل استأجرت هذه القاعة أم اشتريتها ؟ فقالت : اشتريتها بثلاثين جنيهًا ذهبًا ولكنها في نظير مثيلاتها بالمعابدة ، حيث وجدت مثلها بالخرمانية بالمعابدة بثمن قدره عشرون جنيهًا ، لكن من أجلك جئت هنا حيث ـ لا سمح الله ـ لو حصلت لك ظروف قاسية مثل الهروب أو ما ذلك ، فهنا لا

يدري احد عني لا من أهلك ولا من أهل المعابدة ، حيث إن اهلك جاءوا مرارًا أيام صباك وقبضوا عليك من بيننا في المعابدة ، قلت لها : سبحان الله ، وهل من المعقول وأنا في هذا السن أن أهرب ولم يبق بيني وبين التدريس إلا أشهر وبالأمس مررت بكم بسيارتي معززًا مكرمًا ، فقالت : لا تغتر يا بني ، فالمستقبل بيد الله وأرجو من الله أن يمتعك بالاستقرار .

وفعلًا ـ كأنها متنبئة ـ لم تمض أشهر معدودة حتى كانت هذه القاعة أكبر ملجأ ومخبأ لي كما سيأتي في الأيام المقبلة ، فلا تتعجل .

شجرة النمق

كانت تحتوي على غرفتين مسقفتين بالقش ، والقاعدة من الأحجار الدبش التي تشبه الصخور ، بالإضافة إلى حوش كبير به شجرة نبق باسقة والقاعة كانها قطعة من قاعات زيمتنا الحبيبة وأنا من هواة أشجار النبق ومنظرها جميل :

كأنما النبق فيها وقد بدا للعيون
جلاجل من نضار قد علقت بالغصون

وخاصة أيام قطف النبق اللذيذ وكم أفرح عندما يأتي المساء وتهوي على أغصانها تلك العصافير التي تسبح بحمد ربها في العشي والإبكار ، وما أجمل تلك القاعة في يوم الغيم وتساقط الرذاذ على أغصان النبق وتغريد الأطيار ، تذكرت الصبا ولأيام الصبا نجم أفل ، ثم ودعتها وصرت أتردد عليها وأبيت عندها بعض الليالي لكني لم أُشعر أحدًا من أهلي بوصولها حسب وصيتها ـ رحمها الله ـ وكان في ذلك حكمة ، كما قالت حرفًا بحرف وإن غدًا لناظره قريب .

قدوم الوالد

قدم الوالد ـ رحمه الله ـ فجأة في ذلك العام ولا يقصد بهذا القدوم إلا ترحيل الوالدة والأخت والأخ الصغير بناء على الرسائل التي وصلته من هنا ومن وكلائه وأصدقائه وغيرهم حسب طلب الوالدة . وكان مقدمه في بواخر الجاوة مع الحجاج ، وقد رحب بهذا الطلب ، حيث الأزمة قد بدأت من ذلك العام وبدأ الحجيج يتناقص سنة فسنة حتى كانت الحرب العالمية الثانية ، أضف إلى ذلك أن ترحيل هذه العائلة إلى تلك البلاد فيه اقتصاد وتوفير للمصرف آنذاك حيث إن مستوى المعيشة في تلك الجزر أقل بكثير مما عندنا أي بنسبة ١٠٠٪ على الرغم من ارتباطه بعائلة هناك إذ كان متزوجًا بجزيرة (مدورة) وعنده أولاد وبنات اكثر من هنا لكنهم لا يكلفونه شيئًا بالنسبة للعائلة التي تقيم في السعودية ، وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتز ضمر جيب الوالد في العام الذي كان قبل هذا ، كما أشرت إلى ذلك سابقًا ، حينما جاء الوالد بمال كثير من تلكم الجزر ، وكان وكيله وصديقه المالي المرحوم الشيخ عبيدالله الدهلوي حينما أشار هذا الأخير على الوالد أن يستثمر هذه الأموال في بضائع يشتريها من هنا لتدر عليه أرباحًا كثيرة هناك وحصر هذا الرأي في (الحنابل فقط) وكانت تجارة الدهلوية من الحنابل والكولندي وكلا الصنفين من صنع الهند . وكانت بلاد جاوة قبل ذلك العام لا تعرف الحنابل إذ كانت فرشهم محصورة في الحصير المزركش وغير المزركش كالذي يفرش في المساجد ، ثم الكراسي على النمط الحاضر في الوقت هذا ، فما كان من الوالد إلا أن لبى الطلب بدون استشارة أي صديق آخر أو قريب من الأقرباء ودفع ما عنده من نقود للعم عبيد الله مقابل ابتياع كمية كبيرة من الحنابل الهندية على اختلاف أنواعها

ومقاييسها وأخذ الموجود من مكة معبأ في صناديق كبيرة وشحنها معه بالمركب البخاري الذي سافر على ظهره مع الحجاج في العام الفائت ، ثم إن بقية الكمية المتفق عليها شحنت من ميناء بمباي بالهند إلى ميناء سورابايا بجزيرة جاوة ، وهذا بعد تعميد الدهلوي لوكيله بأرض الهند ، على أن يتسلمها الوالد إذا وصل أو ينتظر وصولها حتى يتم تعشيرها ودفع ما عليها من ضرائب .

البيع في هذه الجزر

يختلف البيع والشراء في هذه الجزر (جزر الهند الشرقية عن غيرها من البلدان) فالقاعدة المتبعة كانت أن المشتري لا يدفع الثمن إلا عند بيع المحصول من أي نوع ، فلو اشترى منك عقارًا أو بضاعة يزيد ثمنها عن عشرة ريالات ، تقيد في الدفتر ولا يأتيك بثمنها إلا إذا حصد الأرز وباعه على تجار الجملة ، حينذاك يقوم بتسديد مشترياته ، وكذلك حاصد المطاط وجوز الهند والبن والشاي والسكر والفلفل الأسود . وهذه كانت قاعدة معروفة متعارف عليها من قديم الزمن إلى يومنا هذا ما عدا المشتريات البسيطة اليومية فإنها تدفع بالنقد ، والناس هناك لا يعرفون المماطلة ولا التسويف اللهم إلا القليل النادر ومع ذلك يصل إليك المشتري معتذرًا عن التسديد إما بسبب فساد المحصول أو الكساد أو ما إلى ذلك ثم يطلب منك تأجيل الدفع إلى العام المقبل في السنة التالية .

وأغلب التجار هناك يبعثون ببضائعهم إلى القرى في الجبال والبليدات النائية مع أولادهم ليوزعوها على السكان ؛ لأن المشتري ليست لديه الفرصة الكافية لأن يترك أهله وحقله ثم السفر إلى البلدان الكبيرة لمشتريات كمالياته من جهاز

وأثاث وفرش قيمة من بُسُط وحصير وكراسي ونحاس وأثاث المنازل ، وقد رأيت بعيني أصحاب الحوانيت العظيمة بعواصم هذه الجزر كيف يجهزون هذه البضائع وكيف يقومون بتعبئتها من الليل ثم يشحنونها على عربات السكك الحديدية قبل الفجر مع فلذات أكبادهم أو مع شركائهم .

وكان التجار في هذه البلدان الكبيرة من إخواننا الحضارمة المهاجرين إلى هذه الجزر من حضرموت قبل قرن من الزمن ثم من الحجاز والهند والصين واليابان ، وكان أكبر متجر بمدينة سورابايا لبيع الجملة والقطاعي لمواطنين من مكة : السادة آل محجوب ، ثم ابن عمنا المرحوم الشيخ محمد علي رضوان مرداد وشقيقه المرحوم عبد الحميد رضوان مرداد ومحمود مرداد ، وكلهم أولاد الشيخ رضوان مرداد ، هؤلاء هاجروا جميعًا في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن وفتح الله عليهم حتى فتحوا هذه المتاجر العظيمة بهذه المدن الكبيرة وربحوا أرباحًا طائلة تمكنوا بها من شراء عقارات وأراض زراعية وتزوجوا من أهل تلك البلدان وتعلموا لغاتهم .

أما الوالد فكان بعكس ذلك إذ تجارته الرابحة كانت تحفيظ القرآن الكريم وتجويده لكل هذه الجزر من أدناها إلى أقصاها يعني من جزيرة جاوة حتى مشارف أستراليا ، وكان له مركز في وسط جاوا الكبرى ببلدة (جمبانغ) بضم الجيم وتسكين الميم وفتح الباء مع الألف والنون الساكنة والغين ذات النقط الثلاث التي تقرأ بين القاف والغين على لهجة تلك البلاد وكتابتها بالحروف الإفرنجية JOMBANG، هذه بلدة كبيرة بوسط جاوة فيها أكبر مدرسة عربية على نمط الجامعة بالنسبة لذلك الزمان والمؤسس لها عالم كبير يُدعى (كياهي هاشم تبويرنغ) جلب لهذه المدرسة أساتذة من مصر ومن مكة وجدة ومن الهند

وكان يريد بذلك تقليد المرحوم الحاج محمد علي زينل مؤسس مدارس الفلاح ، لدرجة أنه فتح فروعًا لجامعته في سائر أنحاء جاوة وحتى صار يفد إليه الطلبة من أنحاء هذه الجزر كافة وبني للطلبة الأجانب بيوتًا ذات طابق واحد من الخشب على نمط بيوت تلك الجزر بإيجار رخيص ، وكانوا يدفعون له نقودًا بسيطة مقابل وجبات الطعام ، وهذا الكياهي كان من العلماء وقد حج مرارًا وطلب العلم بمكة وستأتي ترجمته إن شاء الله حينما أصل إلى ذكر هذه البلاد عندما زرت الوالد ـ رحمه الله ، وكان هذا الكياهي قد جود القرآن على يد والدي ، لذلك طلب منه أن يعلم القرآن بمدرسته في جناح خاص ، منفرد عن المدرسة على أن يسكن الوالد بغرفة من هذا الجناح مزودة بالكهرباء والماء وبقية المنافع ، وكلمة كيايي (بكسر الكاف وفتح الياء مع ألف المد ثم الياء المكسورة) بلغة تلك الجزر ولكنهم ينطقون الياء ولا يكتبونها إلا بالهاء ومعناها العالم الأستاذ الفقيه ، وكلمة (قورو) بضم القاف مع واو المد وتنطق بين الكاف والقاف العامية عندنا ، ثم الراء المضمومة والواو ومعناها المقرئ أو معلم القرآن . والوالد ـ رحمه الله ـ جمع بين الكلمتين إذ ينادى أحيانًا بكلمة كيايي وعندما كبر وهرم نودي كلمة (توان شيخ) بضم التاء وفتح الواو ثم ألف المد بعدها نون ساكنة ومعناها (الشيخ) بالعربية أويأيها الشيخ .

صراحة الوالد

وقد صرح لي يومًا ـ رحمه الله ـ فقال : لقد تحملت بسبب تجارة الحنابل المشاق ولو أني قنعت لكنت حرًا ، ثم قال : كنت ألوم أخي جمال على ما فرط في دفع نقوده إلى ذلك الحاج النصاب الذي ابتلع أمواله ولم نقف له على

خبر حتى الآن ، والآن ارتكبت الشيء نفسه بل وأكثر ؛ لأني ضحيت بجميع ما لدي من نقود في هذه الحنابل الهندية التي وزعتها على أهالي تلك الجزر وبين كل جزيرة وجزيرة ليال وأيام وتركت تعليم القرآن وصرت كالحضارمة الذين يحملون البز على أكتافهم ويدورون بكلمة (فرقنا) ثم قال المثل المعروف : « الذي جمعه النمل في أعوام أخذه الجمل في ثانية » فلقد ذهب رأس مالي كله في هذه الحنابل التي أشار بها علي الشيخ عبيدالله الدهلوي ، بل وصرت مدينًا له ببضعة آلاف من الرابي الهندية ، ثم قال : لقد اعتراني الهم ولا أنام الليل ورجع لي الخفقان من جديد بسبب هذه البضاعة التي لم أستشر فيها أحدًا ، ثم قال : لكني حمدت الله عندما قررت والدتك السفر إلى جاوة ليتوحد المصرف إذ لا تكاليف للمعيشة هناك مطلقًا بالنسبة لما عندنا آنذاك ، ثم قال : يا ليتني استشرت السيد دحلان وباسلاسل وعمك وفلانًا وفلانًا قبل أن أتورط ولكن لا ينفع الندم بعد فوات الأوان ، ثم قال : الحمد لله إذ طلبت والدتك السفر إلى جاوة وأراحتني من دفع مصاريف هنا التي تكلفني كذا وكذا في هذا الوقت الحرج ، ثم قال : الحمد لله الذي جعل أهلها ـ ويقصد بذلك خيلاني آل الحناوي ـ يكتبون إلي بتسفيرها وأنجالها إلى جاوة ، إذ لو طلبت تسفيرها من تلقاء نفسي لما رضيت ولما رضي أهلها وبخاصة أمها (جدتي لأمي المرحومة (خديجة بنت محمد الحناوي) والدة أخوالي وخالاتي وأمي ـ رحمها الله) ومع ذلك سلمت بالأمر الواقع عندما جد الجد . وأمي في الوقت نفسه معذورة ومضطرة وحزينة إذ غياب الوالد بالسنين أمر مشكوك فيه فهي تتنبأ بأنه متزوج ولولا ذلك ما تغيب بالعامين والثلاثة ثم يأتي كطائف العنبر أيام الموسم ، ويرجع في أول باخرة . وثانيًا فُقد لها ـ كما أسلفنا سابقًا ـ

في عام واحد فتاتان في عمر الزهور بمرض الحمى الشوكية فأصبحت لا تطيق الدار بل وجزعت جزعًا شديدًا فهي لا تفارق البكاء ولا البكاء يفارقها . وثالثًا لا تستطيع القيام بتربية وتعليم وتثقيف ابنها الأصغر شقيقي عبد المعطي ، وكان قد تجاوز العاشرة آنذاك وبنتها التي تجاوزت الثانية عشرة وعلاقاتها مع العصبة ضعيفة إذ لا تواصل ولا تقارب ولا مشرف ، وفي الوقت نفسه لا ترضى بان يمد أحد يده على ولدها الصغير لا مربيًا ولا ناصحًا ولا مخاصمًا لشغفها به لدرجة أنها مانعت في ذهابه إلى الكُتَّاب خوفًا عليه من الضرب وما إليه ، فالتربية الحقيقة لا يقوم بها عادة إلا الأب أو العم أو الإخوة الكبار ، أما الخؤولة فلا وظيفة لها إلا الدلال ونادرًا ما تجد الخال يقوم مقام الأب أو العم أو الأخ الكبير ، كل هذه المقدمات كانت السبب في رحيل الوالدة نهائيًا إلى جزر الهند الشرقية .

آخر المطاف

ثم قال الوالد : سآخذكم جميعًا إلى جاوة لأستريح ماديًا ومعنويًا فلا أفكر فيكم مادمتم أمامي ، قلت : حتى أنا سأسافر معكم إلى جاوة ؟ قال : حتى أنت ، قلت له : والخلوة والمكتبة وهذه كتبي التي اشريتها بالذهب الأحمر ؟ قال : خذها معك والباخرة تحمل مثلها أضعافًا مضاعفة ، قلت له : والشهادة وتعب السنين هذه كلها تذهب هباء منثورا ؟ قال : ما دمت معي ماذا تريد بالشهادة ؟ نحن نكره الوظائف ولا أحب أن تكون موظفًا ، والخلوة هذه سأسلمها لعمك جمال يضع فيها أحد طلبة العلم مؤقتًا حتى نرجع ـ إن شاء الله ـ بعد عامين أو ثلاثة الله أعلم .

كنت أظنه مازحًا في أول الأمر لكنني تيقنت بعد برهة وجيزة من الزمن أن الأمر واقع، وسفري ثابت، حتى الرجل الذي سيسكن الخلوة بعد سفرنا من معارف العم - رحمه الله - ويدعى (قائدًا) من طلبة أهل اليمن. وكان يسكن مع رفقاء له في أحد الرباطات - صار يتردد على الخلوة أسبوعيًا والوالد يكومه ويوصيه على الفراش وعلى المكتبة، حينذاك أيقنت لا محالة من سفري وندبت سوء حظي واعترتني الوساوس والهموم يا ربي ماذا أصنع؟ دبرني وأنت المدبر.

زيارة أصدقائه

ومع ذلك كله أنا غير قانع ولا مصدق حتى ذهبت خلسة إلى المرحوم السيد محمد الدحلان كبير مستشاري الوالد - سلمت عليه وسألته عن الحقيقة فقال: الحقيقة هي الحقيقة، أنه يزمع على أخذك مع العائلة لتكون معينًا له في جمع قيمة الحنابل من تلك الجزر النائية أو تمسك إحدى مدرستيه اللتين يعلم فيهما القرآن أو تكون القيم على أمك وإخوتك؛ لأن والدك متزوج وعنده أولاد وبنات ولن يُسكن أمك في البلد التي فيها الزوجة الأجنبية، ثم قال: ولقد نصحناه بأن يبقيك حتى تحصل على الشهادة العالية، ثم تلحق به في العام القادم، ولكنه مُصر.

فطلبت من السيد الدحلان أن يعيد الكرة كما ذهبت لعمي جمال واستعطفته أو يرجو من الوالد ويشير عليه بإبقائي ريثما أنال الشهادة النهائية فوعدني بذلك، وفعلًا سمعته في الليل يتجادل معه بخصوصي ويقول له: الأصح ترك هذا الولد حتى ينتهي من الدراسة، فقال: لابد من أخذه. ثم

زرت جميع أصدقائه وأقاربه ورجوتهم أن يتفاهموا معه ولكن لا سبيل ، القول ما قالت حذام .

الأساتذة الكبار والرويحي

ما بقى لدي غير الشيخ الرويحي والمراكشي والناضرين وقد اعتاد الوالد أن يذهب إلى بيت الرويحي بعد المغرب أحيانًا ويجتمع بالمشايخ عنده ، نظرًا لارتباطي بهم أدبيًا واجتماعيًا وليعرض عليهم وجهة نظره في ترحيلي .

كلمت الرويحي بيني وبينه وكلمت الشيخين الكبيرين (ناضرين والمراكشي) وقلت لهم كيت وكيت ، قالوا جميعًا : نحن لا نرضى بسفرك إلى جاوة إلا إذا أتممت الدراسة ونلت الشهادة ونحن سنكلم والدك وسوف ينقاد لإرشاداتنا إن شاء الله ؛ لأن الوالد طلب العلم في صغره على يد الشيخ ناضرين .

وأنا أيضًا

وسألت أنا شخصيًا ، بجدّ سيدي لوالد ـ رحمه الله ـ : هل تريد سفري بحق وحقيق مع الوالدة الكريمة وإخوتي ؟ فقال : نعم لابد من سفرك لأنك كبير وستقوم مقامي هناك سواء في الإقامة مع العائلة أم جمع الديون التي أستحقها من العملاء الذين اشتروا الحنابل في تلك الجزر النائية ولم أتسلم قرشًا واحدًا من قيمتها ، وعلي ديون للدهلوي كذا وكذا ، وفي الوقت نفسه أنا متزوج هناك وعندي أولاد أريد أن أجعل إقامتكم في (مكاسر) عاصمة جزيرة سليبس لبعدها عن (مدورة) ثلاثة أيام بحرًا حتى لا تسمع أمك بأني متزوج

خوفًا من المشاغبات والشر والغيرة . فبكيت والتمست منه الإقالة من هذه السفرة حتى أحصل على الشهادة ثم ألحق به ولكن مع الأسف هددني بالضرب والحرمان إن خالفت الأوامر فأيقنت آنذاك أني لا محالة مسافر في الباخرة (كوتابارو) الهولندية ولم تنفع الوساطات ولا التوسلات ولا أي شيء .

حتى المشايخ

وذهبت ليلة الجمعة زائرًا إلى بيت المرحوم الشيخ حامد رويحي فوجدت عنده الشيخين المرحومين ناضرين والمراكشي فقالوا جميعًا : إن والدك كان هنا وأخبرنا عن عزمه على ترحيل العائلة وأنت معهم فرجوناه أن يبقيك حتى ينتهي العام وتحوز الشهادة ولكنه لم يقبل رجاءنا . فقلت لهم : بماذا تشيرون علي الآن ؟ وقد ضاقت بي المسالك وسدت في وجهي كل الطرق حيث لم أبق أحدًا من أصحابه ولا إخوته ولا أصهاره إلا وذهبت إليهم وتوسلت إليهم وتعلقت برقابهم باكيًا متضرعًا أن يتفاهموا معه وأن يحبذوا بقائي حتى تنتهي الدراسة ، ولكنه رفض رفضًا باتًا وأزمع وأجمع على رحيلي مع العائلة ، فما رأيكم وما أمركم ؟ فقالوا جميعًا : الموقف دقيق جدًا ولا أرى لنا في حالة كهذه وأنت رجل تستطيع إقناعه بأي طريق ، أما نحن فليس لنا تدخل في مسألة كهذه .

وفي اليوم التالي أعدت الكرة على المشايخ وأضفت إليهم المرحوم الشيخ يحيى أمان والسيد زيني كتبي ـ رحمه الله ـ فقالوا : أنت تحفظ القرآن وعالم بكل شيء وليس المستشارون بأعلم من المستشير وخاصة في هذا الشيء وقد علمت أنه لم يقبل رجاءنا ولم يقتنع بكلامنا فلا تدخلنا في مجادلة معه بعد الآن ، وإياك والعقوق والعصيان .

تضييق الخناق

وبدأ الوالد ـ رحمه الله ـ يضيق علي الخناق لما رأى من كثرة الوسطاء لدرجة انه منعني من الذهاب إلى المدرسة قائلًا : لقد قرب وقت الرحيل وأريد معاونتك لي والاستماع إلى تلامذتي هنا في الخلوة لأقوم بشراء الهدايا والبضائع وما إلى ذلك وماذا تستفيد الآن ما دمت مسافرًا فدعنا نتعاون على شد الرحال وشراء الحاجيات الضرورية لتموين وجبات الطعام حيث المسافة طويلة تزيد على عشرين يومًا ، وأنا لا أثق في طعام البواخر ؛ لأني رأيتهم يضربون رؤوس البقر بالفؤوس ولا يذبحونها وكذا وكذا ولذلك سوف نشتري ثلاثة رؤوس من الأغنام حية وتذبح كل أسبوع ذبيحة ، وكان ـ رحمه الله ـ يجيد ذبح الغنم والبقر فقلت له : مرحبًا يا والدي العزيز .

مشورة الخالة

عز عليّ فراق مدرستي والتغيب عنها وعن الزملاء والأساتذة وخاصة بعد ما فتح الله عليّ ، وفراق زملائي الذين كانوا إخوة أشقاء وأصدقاء أعزاء ومشايخ في منزلة الآباء قضيت معهم طفولتي وصباي أشكو إليهم بثي وحزني وغربتي أيام التشرد وفراق الوطن الأول ، وفكرت طويلًا ، وأخيرًا طلبت من الوالد أن أذهب إلى المدرسة باقي الأسبوع وكان ذلك اليوم (الأربعاء)فوافق بعد تعب ولأي عظيمين بعد ما أقنعته أن لي كتبًا في المدرسة وكتبًا مستعارة وحقوقًا مع بعض الإخوة وما إلى ذلك وأن يجعل هذين اليومين من الأسبوع فسحة وعطلة لقضاء الحقوق والواجبات وتوديع للحياة الدراسية والثقافية .

وفعلًا ذهبت صباح الأربعاء إلى المدرسة وأخبرت أساتذتي وزملائي فأسفوا واغتموا لهذا النبأ المفزع المؤسف ، ولكن ما باليد حيلة ، وفي الفسحة الأولى التي أحتسي فيها الشاي مع الأساتذة العظام ـ رحمهم الله ـ من أمثال العربي والأمان والمراكشي والناضرين وغيرهم ، كان الحديث كله عن هذا الموضوع وقر قرارهم أولًا وآخرًا على أنه إذا لم يكن من فراق المدرسة بد ولا مناص فلن يفوتني الاختبار ؛ لأنه لم يبق إلا شهر واحد تقريبًا على الاختبار العمومي وعليّ أن أذاكر في الليل وأن أقتنص الفرصة لحفظ المقررات والمسائل الحسابية وما إلى ذلك فوعدتهم بذلك .

وبعد صلاة العصر ذهبت إلى خالتي حُسُون بجبل الكعبة بدلا من الذهاب إلى الدار أو الخلوة ؛ لأنها هي الوحيدة التي لم تحط علمًا بهذه الأنباء ولم يدر أحد عنها ، ذهبت إليها آخذ رأيها وأعرض عليها ما حدث وفي الحقيقة أنها ـ أي الخالة ـ بالنسبة لي في ذلك الوقت وذلك السن ، هي كل شيء ؛ لأنها هي المربية والحاضنة والحبيبة وهي التي تعطف علي ولطالما سهرت من أجلي الليالي الطوال في أيام طفولتي الأولى بأرض الزيماء مع شقيقتها المرضع أمي هيف القناوية البدوية ـ رحمها الله وأسكنها فسيح جناته ـ وكنت أرعى معها الغنم صبيًا ، هذه هي التي كنت أرعى معها الغنم في طفولتي ورحلت معها إلى الطائف وأرض الحجاز بالجنوب وقد أشرت إلى ذلك سابقًا فلا داعي للإعادة .

زيمتي الصغيرة

وكنت أعتبر بيتها المتواضع المحتوي على حوش وسدرة وعشتين ، ومغارات للدجاج والأرانب ، أعتبره الوطن الثاني ، ولجت الحوش (الفناء) وجلست تحت

سدرة النبق وناديتها فجاءت مهرولة وكانت نائمة في إحدى القاعات ، وكنت أبكي وأنتحب وأشكو سوء حظي إلى العصافير التي ترفرف فوق أغصان النبق وتشاركني حزني وندمي وكأنها تقرأ ما في قلبي من أحزان ومآس وأشجان. جاءت تهرع إلي ملبية ندائي فارتمت بجانبي تبكي لبكائي قائلة : ما الذي دهاك يا ابن أختي ، مالي أرى عينيك دمعهما سروب كأن شأنيهما شعيب وهذا وجهك كئيب قطوب. فقصصت عليها قصتي وشرحت لها بضاعتي وقلت لها : هذا وقت حاجتي ، فقالت : لهذا اليوم هاجرت من قريتي واشتريت لك قاعتي وحرصت كل الحرص أن لا يعرف أهلك عني شيئًا حتى لا يعرفوا مكاني ؛ لأنه لم تعد لك الزيمة الأولى بعد وفاة أمك شقيقتي المرحومة ، فالآن هذا بيتك فاقض فيه ما أنت قاض من الأيام والشهور حتى السنين وما عليك من أحد. ولهذا قلت لك حينما بعثت إليك الرجل اليماني قلت لك : لا تخبر أي مخلوق كان عن وجودي هنا حتى لو نطحك أحد من أهل الزيمة ينشد عني قل له : ما أدري عنها شيئًا. فغضبت وحنقت ، ولكن الحمد لله الذي أرشدك ودلك على الطريق المستقيم ، ثم قالت رأيها بصراحة : يا ابن أختي لا تسافر حتى تقبض سلاحك وتقصد بالسلاح الشهادة النهائية ، والسفر في اليد ، في أي وقت تريد .. البحر مفتوح والقلب مشروح والدراهم موجودة والخير كثير وأهلك أهلك ما أقول فيهم شيئًا غير أنك كالغريب بينهم وهم كالغرباء منك ، بهذا حكم الله من يوم ما أخرجك الله من بطن أمك ، هذا شيء مكتوب فاستوف المكتوب تفرج عنك الكروب وكن رجلًا ، على الأهوال جلدًا ولا يعجبني بكاؤك ونحيبك ولا هروبك وشرودك. يا محمد ، أنت تربيت في البادية بين ظهرانينا وعندنا البكاء عيب وشين بالرجال ولا تبكي غير الثكلى.

ثم مسحت عن وجهي الدموع وأضاءت الشموع وكان قد دخل الظلام فقمت إلى صلاة المغرب ، ثم أحضرت تمرًا وقهوة فأطعمتني ثم هدأت روعي حتى بدت أسارير وجهي ، بعد ذلك رسمت خطة خطيرة وبدأت في تنفيذها شيئًا فشيئًا حين بدأت انقل بعض الكتب إلى تلك العشة تدريجيًا ثم الملابس شيئًا فشيئًا ، ثم رفعت عندها ما أملكه من نقود لأني مقبل على أيام مؤسفة وليال حالكة ، ومغامرة مهلكة ، والله من وراء القصد .

لم أغير برامجي

وحتى لا ينكشف أمري ، فتنقلب الخطة رأسًا على عقب ، كنت أشتغل مع الوالد طوال النهار ما بين البيوت والخلوة والسوق والتعبئة وتعليم القرآن أحيانًا لمساعدته عندما يتكاثرون عليه . وأصلي الصبح وأذهب إلى خسفة أخوالي آل الحناوي المطوفين لإخواننا المصريين إلى الضحى لشهري ذي القعدة وذي الحجة فقط . وإذا ارتفع الضحى ذهبت إلى الخلوة فأجد الوالد وقد تكاثر عليه الطلبة الجاويون الذين يتعلمون عنده سور الصلاة فأساعده حتى إذا ما انتهى من تعليم القراءة وانصرف الطلبة ، أحضرت له طعام الإفطار وبعده نذهب سواء إلى سوق المنشية لشراء المقاضي البيتية واللوازم السفرية ثم نذهب إلى الدار حيث التعبئة وحزم الأمتعة والفرش وتسمير الصناديق وإخراج الأثاث الزائد إلى الحراج وبعد العصر للزيارات إلى المغرب ، وبعد الصلاة يذهب الوالد إلى البيت وأبقى بالخلوة على عادتي القديمة ، للمذاكرة والمبيت ولكن بعد إيقافي عن المدرسة ، أمرني أن أنزل إلى المسجد لأطوف المصريين لأخوالي آل الحناوي ، ثم بعد العشاء أطلع إلى الخلوة لأبيت بها إلى الصبح ، ثم أنزل إلى المسجد

وهكذا، ولكني بعد المغرب كنت أضيء المصباح بالخلوة لأنام بها ثم آخذ بعض الكتب وأسير نحو خالتي الرءوم، أستذكر عندها دروسي وأتعشى أحيانًا عندها وأنام أحيانًا حتى الصباح ثم أغدو على حالي كعادتي كل يوم.

الاختبار

وجاء ميعاد الاختبار في العاشر من ذي القعدة وكان يجتمع الطلبة كلهم بالمتنزه بسفح جبل أبي قيس، ويحضر العلماء المختبرون وأساتذة الفلاح وتقفل الأبواب ثم تلقى الأسئلة على الطلبة ويحاصرون من كل جانب وتشتد المراقبة حتى لا يحصل غش أو نقل أو تهريب إجابة أو ما إلى ذلك وكانوا يقررون لكل مادة ساعة أو ساعتين، ثم تؤخذ الأوراق قهرًا سواء أجاب الطالب أم لم يجب.

فكنت أخرج من المسجد صباحًا قبل الميعاد المقرر بنصف ساعة وأذهب إلى ساحة الاختبار مبكرًا كل يوم وأجيب عن الأسئلة من أحسن ما يكون وأخرج قبل الميعاد المقرر راكضًا إلى الخلوة حيث الوالد في الانتظار كعادته وإذا تأخرت ساعة عن المقرر يسألني لماذا تأخرت؟ فأقول له: إن بعض الأفنديات والبشوات من الحجاج لم ينزلوا المسجد إلا بعد الضحى، وكلفت من قبل أخوالي بانتظارهم لأقوم بطوافهم، هذا الذي أخرني. فيسكت وأحيانًا أخاصم فأقول له: أنت السبب لأنك ألزمتني بهذه المهمة وليس لك ولا لي في ذلك أية مصلحة، ولا أقول له: إني ذهبت إلى المدرسة للاختبار خوفًا من العقاب وأحيانًا تكون الأسئلة ثقيلة فأضطر إلى التأخير حتى الظهر، ماذا أفعل حتى أسلم من العقاب والعتاب، أذهب إلى المنشية فأشتري فخذًا أو كتفًا من لحوم

الضأن التي يبيعها التكارنة في الزنابيل الغليظة وأرتب الحيلة وأحبكها فأقول مثلا : الباشا فلان أمرني بعد الطواف بالذهاب معه إلى المجزرة ليفتدي ، فاشتريت له خروفًا بكذا وقام بذبحه وسلخه وتقسيم لحمه ، وهذا نصيبي . فيسكت ويأمرني بإيصال الكتف أو الفخذ إلى الدار للطهو أو للشواء حتى انتهى الاختبار بسلامة الله .

يوم الجبر واللغة الإنجليزية

لم أحضر اختبار هاتين المادتين ؛ لأني نزلت مع الوالد إلى جدة لاستكمال إجراءات جمركية للإفراج عن بعض الصناديق التي جاء بها من جاوة وفيها من الصيني القديم أطباق ومواعين إذ كانوا قد وضعوا عليها ضرائب خيالية ، بحيث يزيد الرسم عن سعر الطبق أضعافًا مضاعفة فتركها في دائرة الرسوم مدة طويلة . وكانت الأرضية آنذاك ربع قرش على الصندوق كل يوم بمعنى أن الصندوق عليه في الشهر أرضية ثلاثون هللة وكانت أربعة من الصناديق دفعنا عليها مائة وعشرين هللة لكل شهر عن الصناديق الأربعة وكنا قد تحصلنا على جواب توصية من الرويحي لأمين الجمارك العام ، فثمنها بثمن معقول مناسب لسعر ذلك الوقت ، بعد ذلك أخرجناها وحملناها على بعيرين إلى مكة حيث بيعت في الحراج بثمن بخس بسبب السفر والرجوع إلى جاوة .

السفر والهروب

ثم قرب وقت السفر النهائي بطريق البحر إلى جزر الهند الشرقية في أول باخرة تقل الحجاج من جدة إلى جاوة وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذي

الحجة ، وأحضر الوالد تذاكر السفر والجوازات وجميع الأوراق المتعلقة بذلك : الوالد تذكرته وجوازه والوالدة تذكرتها وجوازها ومعها أخي عبد المعطي وأختي خديجة ، وتذكرتي وجوازي . اطلعت على كل ذلك وعلمت علم اليقين بالسفر . ثم إني ذهبت إلى الوالدة وكانت - رحمها الله - تحترمني وتحبني على الرغم مما حصل من تباعد وغربة بالزيماء وما إلى ذلك . وقد كانت سألتني : هل أُحضرت التذاكر والجوازات ؟ فقلت لها : نعم ورأيتها بعيني . فتحققت وصدقت أنها ستغادر الوطن وقد كانت تصفي بيع أثاثها ومفروشاتها ، وتقطع علاقاتها نهائيًا ، حيث ستكون الإقامة الدائمة بجزيرة سليبس وبعاصمتها مكاسر . ثم بادرتني بالسؤال عن رغبتي في السفر : هل هي صادقة أم من باب : مكره أخاك لا بطل ؟ فقلت وأجبتها والدمع يفيض من العين : في الحقيقة أني غير راض بهذا السفر المفاجئ إلا عندما تنتهي دراستي وآخذ شهادتي ، أما أن أضيع حصيلة العمر في يوم واحد فلا . وكيف أضمن معيشتي بتلك الجزر وليس بيدي سلاح ؟ إن سفري بهذه الصورة غير معقول ولو أديت الاختبار بكامله لحق لي السفر . ولو انتظرتم إلى آخر باخرة ، لكان بالإمكان أن أؤدي الامتحان للمواد الناقصة وبالإمكان نيل الشهادة ثم السفر معك والقلب مستريح ، لكن إطاعة الأمر واجبة وأنى لي بمن يستطيع إقناع أبي بذلك ؟ وقد فعلت المستحيل معه فلم أفلح .

فقالت : إن الحقيقة قد قالها أخوالك لأبيك قبل ثلاث ليال وقد كانوا مجتمعين عندنا مع خالاتك وجدتك وقد أقنعوه وطلبوا منه أن يبقيك حتى تنتهي من الدراسة ثم اللحاق به أو الانتظار حتى ينتهي اختبارك ولكنه أزمع وأجمع . ثم أردفت قائلة : إن الصواب في بقائك هنا حتى ينتهي تعليمك وفي

ذلك مصلحة لك ولنا ، وفي الوقت نفسه إنك غريب بالنسبة لإخوتك ؛ لأنهم ما عرفوك إلا مؤخرًا والاحتكاك بهم سيؤدي إلى مشاغبات ومشاجرات فأنت بدوي وهم حاضرة وشتان بين العقلين . ثم إن إخوتك سيدخلون مدارس ابتدائية أولية يتعلمون فيها الحروف والكلمات الجاوية فهل تدخل معهم أم تترك نهائيًا وتلتفت إلى الدنيا ومصالح أبيك ؟ فقلت لها : يكفيني منك هذا الرأي وهو سند لي وحجة . ثم خرجت وأنا أقول في قرارة نفسي : الحمد لله الحمد لله ، ما دامت الوالدة راضية ببقائي فلا حرج عليَّ .

كان ميعاد السفر في اليوم التالي وقد حضرت الإبل وسدفت الشقادف (الهوادج الحضرية) وكانت خمسة من الإبل جاءت قبيل المغرب على أن يكون رحيلها في اليوم التالي صباحًا . وكانت قد بركت في عطن لها ببرحة القرارة أمام بيت تاج المشهور ، اثنان منها للشقادف حيث قرر الوالد أن أكون معه في شقدف واحد والوالدة والإخوة في الشقدف الآخر والثلاثة الباقية لحمل الأثقال مما هب ودب وطبعًا (في مقدمة الرحال : الخرفان) .

المركب الصعب

نزلت إلى المسجد الحرام ، صليت المغرب وذهبت إلى جبل الكعبة إلى بيت خالتي حسون التي فرحت بمقدمي وهشت وبشت ثم قالت : ما علمك ؟ فقلت لها : إن أهلي سيبارحون البلاد غدًا صباحًا إلى جدة على الإبل وأنا معهم عند وصولي إلى جدة سيغادرون بحرًا إلى جاوة ، وأنا قررت الهرب والاختباء عندك فخبئيني واحميني وسلطي عيونك على الدار لئلا تشم رائحتي فأخطف وأكبل بالحديد قهرًا وقسرًا كما فعل بي من قبل .

قالت : لا جرم عليك أنت الآن آويت إلى ركن شديد لن يستطيع أحد الوصول إليك ومن يدري عنك حتى لو أقمت شهرًا أو دهرًا أمنك الله في بيتك .

والبادية تستعمل كلمة (لا جرم) بمعنى لا مخافة أو لا خوف عليك .

وقد كان عندها نقودي وكتبي وملابسي وما أخاف عليه ، كما أشرت إلى ذلك قبلًا ، إنها تذهب في الصباح إلى السوق تبتاع ما تشاء وتأتي الضحى وقد ملأت صواعها لحمًا وفاكهة وأبًا وسكرًا وبُنًا وشايًا ، وتقفل علي البواب وتأخذ المفاتيح وأنا في جوف القاع أدخل تحت الفرش وأغطي نفسي بالبطانيات وأكتم أنفاسي حتى لا يبدو صوتي ولا نفسي خائفًا أترقب وأتململ خوفًا وجزعًا على ما حصل أو ما سيحصل والشيطان يأتي بجميع الوساوس والهواجس لعنه الله .

مضت أيام وأنا لا أخرج ولا إلى سدرة النبق التي بعرصة القاعة من شدة الهلع ، ولا أغادر قاعتي المختفي فيها إلا عند قضاء الحاجة وغالبًا في ظلام الليل . حتى إن خالتي صارت تسمر عند جيرانها ليلًا خوفًا علي من العيون أو من التبليغ ، مع أنها لا تخاف لكن من شدة خوفي وتعقدي ، أصابها نوع من الرعب .

الخروج

لما مضى أكثر من عشرة أيام وأيقنت لا محالة أن أهلي قد غادروا البلاد خرجت ليلا متخفيًا وخائفًا ونزلت من جبل الكعبة على الخندرية ثم الشبيكة ثم الهجلة عند رأس حلقة الفحم حيث يقع زقاق الجنائز الذي به تقع دار الرويحي .

صعدت إلى المجلس الأول حيث الاستقبال به وهو المجلس الرئيسي للمقابلات الذي يتصدره الشيخ الرويحي ـ رحمه الله ـ لمراجعة الأعمال والمعروضات ، وقبل أن أدخل المجلس دخلت إلى قاعة القهوة التي يجتمع فيها الخدم وشيخهم المقدم الأخ الفاضل (محمد الغامدي) الذي أشرت إليه قبلًا في رحلة الطائف ... وبمجرد ما رآني حتى أقبل علي مصفر الوجه قائلا : ماذا صنعت ؟ وأين اختبأت ؟ أما تدري بان والدك جاء إلى هنا .. إلى عمي ليقول له : أحضر ابني أنت الذي أخفيته . لكن الشيخ أقنعه بأنك لم تأت إلى داره منذ كذا وكذا ، ثم حصلت مشادة ومشاجرة تدخل فيها المشايخ الذين كانوا يسمرون عنده ـ وهم العلماء الذين أشرت إليهم سابقًا ـ ثم خرج غاضبًا وغاب زهاء ساعة ثم رجع ومعه جندي ولكنه وقف خارج الدار ومعه الجندي ثم رجع مع الجندي ولم يلج إلى الدار .

ثم دخلت على القوم وأنافي غاية الخجل والندم والكآبة فسلمت عليهم فردوا السلام وقالوا : عملتها ؟ ـ بفتح التاء ـ أي فعلت ما فعلت من غير تفكير في العاقبة . فلم أحر جوابًا ولم أنبس ببنت شفة ولم أملك غير الدموع ، وأخيرًا قالوا لي جميعًا : يغفر الله لك مادمت ناويًا للخير ، وكم نتمنى أن تؤدي اختبار المادتين ـ الجبر والإنكليزي ـ وتتسلم شهادتك وتلحق بالقوم إن شاء الله في غضون أشهر قليلة لتكفر عن سيئاتك .

قلت : إن شاء الله أفعل . وفعلا نفذت الخطة مستقبلا بعد ما نفذت حاجتي ، ولحقت بالوالد ومكثت معه أيام في مستشفى باندونج حيث أجرى عملية في الكلى ، ورضي علي وسامحني . ومكثنا طيبين حتى انقضى الأجل بعد سنين كثيرة وحتى كان ينزل عندي حينما يقدم من

السفر ويمكث بداري أشهر الموسم ثم يرجع إلى جاوة .

ولقد رحلت معه أكثر من سبع رحلات في جزر الهند الشرقية وجزائر سليمان بعد المصالحة والعفو ، ولقد سألته مرة عن العسكري الذي لم يدخل بيت الرويحي ، والذي هرب لما عرف الدار فضحك ثم قال ـ رحمه الله ـ لقد قال العسكري : إن عمي لا يستطيع أن يلج هذه الدار إلا بإذن ولو قلت لنا من المركز عن هذا البيت بالذات لما أطاعك أحد ، إلا بأمر من فوق فوق . وكان يقصد (بعمه) مهدي بك المصلح رئيس الأمن العام آنذاك . ثم قال لي : لقد هربت في وقت ضيق وقد حجزنا في الباخرة ولو كان هروبك قبل أسبوع أو أسبوعين لكبلتك بالحديد . ولكن عفا الله عما سلف ... وسيأتي طرف من ذلك في المستقبل إن شاء الله .

ثم بعد يقيني بالسفر وركوبهم البحر اطمأن خاطري ورجع إلي عقلي وبدأت بزيارة الأهل والأقارب والأساتذة وكان الوقت مبكرًا بالنسبة لاختبار المواد الناقصة .

مفتاح الخلوة

وكان عندي مفتاح الخلوة ولكن من باب الاحترام ذهبت إلى بيت عمي جمال بباب الدريبة فزرته مع العمات فعاتبوني على ما حصل فأبديت وجهة نظري فعذروني ثم أخبرني عمي ـ رحمه الله ـ بأن مفتاح الخلوة عندنا وجواز سفرك ، ولكن والدك اشترط علينا ألا نسلمك المفتاح إلا إذا قررت السفر واللحاق به بعد أداء الامتحان ، فقلت : مرحبًا إن شاء الله سأفعل ذلك ، ثم ناولني المفتاح فذهبت إلى خلوتي وسلمت على جيراني وفي مقدمتهم الشيخ

محمد علي بن تركي والسيد حسين الكتبي والشيخ الدهان ـ رحمهم الله جميعًا ـ ولم يدر أحد من أهل الرباط أنني كنت هاربًا ومتشردًا ، إنما بادرتهم مخبرًا إياهم بأني كنت بجدة مودعًا للعائلة وظللت بها حتى غادرت الباخرة ميناء جدة .

ذهبت إلى خالتي حسون وطمأنتها وظللت أتردد عليها كما كنت في السابق ، إنما اشتقت لوالدتي وإخوتي ووالدي وأصررت على اللحاق بهم بعد نجاحي ونيلي الشهادة إن شاء الله .

المراجعة والوداع

دخل العام الخمسين من هجرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام بعد الألف والثلاث مائة ، وأعلنت مدرسة الفلاح عن ميعاد آخر اختبار المتخلفين لكل الفصول العالية والثانوية وانه في اليوم العشرين من المحرم لذلك العام وسيظل إلى ستة من صفر ثم تعلن النتيجة يوم ١٥ منه ثم العطلة الصيفية كالمعتاد حيث تظل إلى النصف من جمادي الآخرة بالنسبة لذلك الوقت ثم تظهر النتيجة مع ترتيب التلامذة في فصولهم يوم فتح المدرسة حيث يعلن المفتش ببهو المدرسة الراسب والناجح من كل فصل ثم تغلق المدرسة إلى أن تنتهي العطلة الصيفية . ويضع الأساتذة الأسئلة بعد تكوين لجان خاصة ثم يفرشون المتنزه بالحصير ويقسمون الطلبة على مساحة المتنزه الكبير فيظهرون كالنجوم لأنهم قلة ثم يراقبون وتشتد عليهم الحراسة والويل لمن يبرز ورقة أو يحرك شفتيه لأحد الزملاء أو تظهر منه حركات مريبة ، وأنا في مادة الجبر كنت ضعيفًا جدًا إذ إن أستاذ هذه المادة أستاذ هندي لم يكن يعرف العربية ، وكذلك في اللغة

الإنكليزية إذ كان أستاذ هاتين المادتين هو المستر محمد غلام الذي جاء من بومباي مبعوثًا من قبل المرحوم الحاج محمد علي زينل مؤسس مدارس الفلاح لتدريس الجبر بدلًا من المرحوم السيد شيخ حمدي وأضيف إليه تدريس الإنكليزية .

ليس عندي الآن سوى عشرين يومًا لمذاكرة الجبر والإنكليزي ولم يكن في ذلك الوقت من يدرس دروسًا خصوصية بأجر معلوم كمثل وقتنا هذا ، اللهم إلا النذر القليل كأمثال الأستاذ الخالدي والأستاذ إبراهيم صادق خال أولاد أستاذنا الكبير المرحوم الشيخ أحمد ناضرين ، وليس لي معرفة بأحد آنذاك فذهبت إلى المرحوم السيد زيني كتبي وكان أستاذًا لنا في علم مسك الدفاتر وكنت تلميذًا ناجحًا مميزًا في هذه المادة إذ كان يستعين بي في تعليم أبناء فصلي وغيرهم من الضعفاء في هذه المادة ، بعد عصر بعض أيام الأسبوع ، قلت له : أمري كذا وكذا وشرحت له أسباب غيابي في معظم أيام الدراسة وضعفي في مادتي الجبر والإنكليزي ، فقال : مرحبًا ، شرفنا كل ليلة بعد صلاة المغرب بدارنا بالحلقة وسيكون الخير إن شاء الله . وكان إمامًا في الرياضيات وله بعض المؤلفات التي أظنها لم تطبع حتى الآن .

صرت أذهب إليه كل ليلة بعد صلاة المغرب مباشرة إذ أصلي المغرب بمسجد الجن لتقرب المسافة ولئلا يضيع شيء من الوقت سدى . وبدأ يشرح لي المقرر للعام كله في غاية الاختصار والتوضيح وحل لي كل مسائل المعادلات ذات المجهول الواحد والمجهولين والثلاثة ، التي في كتاب الحساب المطبوع المقرر علينا ففهمت وحفظت حل المسائل كلها وكانت تزيد على سبعين مسالة وفتح الله علي وله الحمد والشكر .

أما الإنكليزي فكنت أذهب إلى دارنا بباب الدريبة بعد العشاء لزيارة العم والعمات ، وكان عمي أحد أولاد حجاج (كيب تاون) يحفظ القرآن ويقيم عنده في الدار نفسه ويتعلم باقي العلوم بالمسجد الحرام ، اسمه صالح عبادي ، ولقد مكث هذا بضع سنين عند المرحوم عمي جمال حتى أكمل حفظ المصحف غيبًا مع التجويد والإتقان بالإضافة إلى العلوم التي تعلمها بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية وكان إمامًا في الإنكليزية بطبيعة الحال ، اتفقت معه على أن يذاكر لي الدروس الإنكليزية التي فاتتني بمدرسة الفلاح على أن أذاكر له النحو والصرف وباقي العلوم التي يعسر عليه فهمها ، وكانت النتيجة حسنة ومبشرة .

أداء الإمتحان

ما إن جاء وقت الامتحان للمتخلفين حتى استلهمت جميع ما فاتني من هاتين المادتين وأديت الامتحان في وقته وأجبت عن كل الأسئلة ، لله الحمد . وعندما أعلنت النتيجة كنت الثاني في فصلي وكان مجموع ما حصدت من النمر(الدرجات) مائة وسبعين نمرة من مجموع حده مائة وثمانون (المجموع الكلي) وكان مجموع المواد سبع عشرة ، لكل مادة عشر نمر والسلوك والمواظبة عشر ، ولسوء الحظ وبطبيعة الحال كانت نمرتي في المواظبة صفرًا على صفر وكان زميلي المرحوم النواوي قد أخذ في المواظبة عشر نمرات كاملة وبهذا تميز وصار الأول وصرت أنا الثاني ، أما في بقية المواد فكنت أزيد عليه بنمرة أو نمرتين أحيانًا ولولا المواظبة لما نزلت من الأولية واحمد الله العلي القدير الذي جعلني من الناجحين، وقد تم تخرجنا في العام الخمسين من هجرة سيد المرسلين بعد الألف والثلاثمائة (١٣٥٠هـ) .

عـام الـبؤس للفلاح

ولسوء الحظ كان هذا العام بالنسبة لمدارس الفلاح عام بؤس وفقر إذ جمع مدير الفلاح الأساتذة والمتخرجين نحن أبناء التاسعة ، ثم أعلن توقف الحاج محمد علي زينل عن دفع أجور المدارس والمعاشات بسبب خسارته في تجارة اللؤلؤ ، ثم قال للمدرسين القدماء ليس عندنا في الخزينة ما يغطي معاش هذا العام ولا تنتظروا بعد الآن راتبًا كاملًا كما كنتم تتقاضون سابقًا ، ومن الآن فصاعدًا إذا وجدتم خارج المدرسة راتبًا أكثر من رواتبكم هنا فتفضلوا من غير عتاب .

ثم قال لنا : وأنتم يا أبنائي كنا قبل هذا التاريخ نعطي للمتخرج الواحد راتبًا مؤقتًا مقداره أربعة جنيهات ذهبًا عن كل شهر حتى يتم تعيينه مدرسًا عندنا فإذا ما تم توظيفه ارتفع راتبه إلى عشرة جنيهات ويؤسفنا في هذا العام أن نقول لكم : ليس عندنا وظيفة لأحد منكم ، توكلوا على الله وفتشوا عن أعمال ترزقون منها ريثما يفتح الله ، وترجع المياه إلى مجاريها .

فأجاب كبار الأساتذة بأنهم على استعداد لما تفرضه الحالة الاقتصادية وأنهم كما تنعموا طوال تلك السنين بالرواتب المغرية فإنهم قادرون على السير في وظيفتهم ولو بدون رواتب حتى يرد الله على المؤسس تجارته وربحه وتعويضه فكان الوفاء لأهل العطاء والجزاء من جنس العمل .

أولياء الأمور

ثم أرسل المدير إلى أولياء أمور الطلبة وأعلمهم بالحالة التي وصلت إليها الفلاح وطلب منهم المعونة بحسب استطاعتهم وكان منهم الموظف والمطوف

والتاجر ، فأجابوا بالقبول وأبدوا رأيهم وقدموا ما استطاعوا أن يقدموه للفلاح التي خدمت الأمة وثقفت أبناءها وهذبت أخلاقها ، أما المطوفون منهم فقالوا : نحن على استعداد تام في الموسم لأن نأتي بالحجاج إلى المدرسة ونشرح لهم الوضع حتى يتبرعوا للمدرسة تبرعًا مغطيًا للنفقات وخاصة الحجاج الذين يفدون من الهند وكيب تاون وسيلان والسنغال إذ منهم أغنياء وأصحاب ثروة عظيمة ومنهم .. ومنهم ... الخ .

فانصرفنا جميعًا والكل متأسف ومفكر في مستقبله ماذا سيفعل الله به ... وعلى وجه العموم كانت الحالة العامة في تأخر وكانت الرواتب ضئيلة جدًا وكان المورد العام محصورًا في المواسم والضرائب الجمركية وما إلى ذلك ، وكان البترول لم يتدفق ولم يكتشف بعد كما كانت المواسم آخذة في النقص بشكل لم تعهده البلاد إذ كانت الأزمة عامة في كل شيء ، على أن بعض أولياء الطلبة من التجار قدم معونة سخية كما قدم بعض المطوفين والموظفين ما يستطيعون تقديمه لكن الذي جُمع لم يكن يغطي شهرًا واحدًا .

المتخرجون

كان خريجو الفلاح في ذلك العام (١٣٥٠هـ) لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين ، فمنهم من توظف خارج المدرسة برواتب لا تسد الحاجة وخاصة من كان ذا أسرة ولم يكن له مورد إلا معاش الوظيفة . وكانت الرواتب على قلتها وعدم قيامها بسد حاجة الموظف لا تصرف شهريًا بل ربما تصل إلى أربعة أو خمسة أشهر . وكان قسم منها يصرف أرزاقًا كمثل الحنطة والسكر وما إلى ذلك .

عندما انتهى مدير الفلاح من كلمته قام المرحوم الشيخ عبد القادر عثمان وكان أحد الخريجين القدماء وأول مبعوث إلى الهند وكان القائم بأعمال إدارة بيت الحاج محمد علي زينل في بومباي ويشاركه الأساتذة حسن ياقوت والسيد عمر عقيل وبقية أعضاء البعثة لكن المشرف العام ومن بيده مقاليد الأمور والتفويض، كان ابن أخيه الشيخ إبراهيم يوسف. وقد لاحظت ذلك أثناء رحلاتي المتعددة إلى بومباي التي يسكن المذكور بإحدى محلاتها الشهيرة بوسط المدينة العظيمة ويقال لها في ذلك الوقت (سترام بلدنغ) وسيصل تفصيل ذلك عندما أصل بالكتابة لاحقًا عن الهند إن شاء الله.

قام عبد القادر عثمان وعقب على كلمة المدير بكلمة ارتجالية قال فيها: نحن لا نستغني أبدًا عن المتخرجين ولا عن الأساتذة ونحن أشبه بأسرة واحدة إذا خرج منها فرد تسلل باقي الأفراد وهذا مما يؤثر في المؤسس ويقهره، كما ستنهار المدرسة ويهرب الطلبة إذا أحسوا بخروج وتسلل الأساتذة، وربما تحصل فوضى نحن في غنى عنها، والأفضل أن لا يخرج أحد من الأساتذة فلربما ترجع المياه إلى مجاريها، وكان هذا الشيخ عبد القادر متزوجًا ببنت المدير وكان شقيقه الأستاذ عبد الله عثمان متزوجًا بالابنة الثانية، كما كان الشيخ عبد الله عثمان هو الآخر ضمن بعثة سافرت إلى بومباي وأخيرًا تقلد منصب إدارة بيت الحاج محمد علي زينل لتجارة اللؤلؤ بالبحرين، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي (رحلة مدائن صالح) عند ذكر تجارة البحرين.

الانصراف

انصرف الجميع فقمنا مسلمين ومودعين سلامًا لا لقاء بعده على ما يظهر،

لكني عندما انحنيت مقبلًا يده همس في أذني : أن انتظر ، والهامس هو المدير ـ رحمه الله ـ ، فانتظرت حتى إذا لم يبق بالإدارة سواه وسوى معاونه أستاذنا المرحوم الشيخ محمد الطيب المراكشي والشيخ أحمد ناضرين والشيخ اسعد حديدي والسيد محمد رضوان ، عندئذ قال لي المدير بالحرف الواحد : لك عندنا وظيفة لكن بعد الصيفية أي في أول السنة الدراسية وهي السنة التي تخرجنا فيها عام ١٣٥٠هـ ، أما الآن فأنت ستطلع إلى الطائف مع الشيخ الرويحي حيث قد جاء خطاب منه يطلبك فيه مدرسًا لأولاده بالطائف على نمط السنة الفائتة وستذهب إليه هذه الليلة ليخبرك متى السفر .

فرحة وانشراح

لقد فرحت بهذا النبأ إذ إني وجدت أني أنا الوحيد الذي تحصلت على وظيفة وعلى طلوع الطائف معًا .. وفي الحال شكرته واستأذنت منصرفًا إلى خلوتي لأجهز عدتي فلك الشكر أولا وآخرا يامستوجب الشكر .

وفرحت حسون

وذهبت إلى خلوتي وأشعرت جيراني بذلك كما طفت على أقاربي وأصحابي ، وأول ما ذهبت إلى بيت عمي ـ رحمه الله ـ ففرح ولكنه قال : متى تسافر إلى أبيك وأهلك في جاوة ؟ فقلت له : النية معقودة على ذلك والأمور بيد الله وإنما الأعمال بالنيات ، ثم ودعت كل أقاربي وأصحابي وأخيرًا ذهبت إلى خالتي حسون وأخبرتها الخبر . فطارت فرحًا وقالت : رجلي على رجلك ما أجلس ولا دقيقة ، حيثما تكن أكن معك . أوصلني إلى زيمتي ثم

اذهب إلى الطائف وفي النزول مر بي فستلقاني في انتظارك أركب معك إلى مكة إن شاء الله فستلقاني في انتظارك ، فقلت : السمع والطاعة .

السفر إلى الطائف

ثم ذهبت إلى دار العم الرويحي ـ رحمه الله ـ وسألته عن الكيفية فقال : مثل العادة يصلك البوكس بعد غد صباحًا إن شاء الله فافعل ما شئت .

وبالفعل جاءتني السيارة البوكس في ميعادها ، وربضت أمام بيت تاج بالقرارة ، وفي صباح يوم الرحيل وضعت في السيارة بعض ملابسي فقط ثم سرت إلى جبل الكعبة لأخذ خالتي (حسون) القناوية ـ رحمها الله ـ فوجدتها في الانتظار وقد رتبت أمورها وحزمت أمتعتها وجلست على باب القاع في وسط الفناء ، وفي الحال رفع السائق ومعاونه رحالها إلى البكس الجميل واتجهنا بسلامة الله إلى الطائف وأنا مفعم بالسرور إذ تخيلت إني صاحب أسرة وسيارة وأحكامي تنفذ على السائق وعلى الخالة .. وكأني وكأني .

وفي الساعة الثالثة صباحًا بالتوقيت الغروبي وهي التاسعة صباحًا بالتوقيت الزوالي وصلنا إلى الزيمة والاستقبال كان لنا عظيمًا ، من أميرها (عمي) القناوي وأسرته وبنات أخي وأختي (فاطمة) وزوجها وأولادها وأهل القرية ، وكانت الضيافة العظيمة والمقابلة الجميلة وخاصة أننا من أهل بلدة كنت بها وليدًا ولبثت فيها من عمري سبع سنين .

وبعد تناول الغداء قدمت الهدايا وودعت الجميع وبقيت خالتي حسون في الزيمة إلى حين رجوعي ليكون رحيلنا إلى مكة مع بعض كمثل ما جئنا .

انتهاء الصيفية

وكانت البرامج في ذلك العام (١٣٥٠هـ) بالطائف على نمط العام الذي قبله (١٣٤٩هـ) سواء بسواء حتى في الرحلات الصغيرة وفي أطراف الطائف ـ ولم يرد فيها أي شيء جديد بالنسبة لما قبله غير أني نزلت إلى مكة عدة مرات وكانت في أيام الخميس بعد الظهر بسيارة البريد، وأمكث فيها إلى ليلة السبت متفقدًا الخلوة وما جاء من بريد خارجي وغيره، ولزيارة الأهل ثم أرجع إلى الطائف ليلة السبت بعد العشاء حيث عربة البريد الكبيرة لا تقوم إلا بعد الساعة الثالثة ليلًا وتصل الزيمة في الرابعة ثم السيل في السادسة حيث الراحة واحتساء الشاي والعشاء والصلاة ثم السفر إلى الطائف حيث يكون الوصول قبيل صلاة الفجر أو بعده بقليل.

وكان السائق الممتاز لبريد الطائف هو (حسن حريري) أمهر سائق في عصره وأكثر من رأيت تدينا من السائقين حيث يقف بالبريد في أي موضع يدخل فيه وقت الصلاة ليؤدي الصلاة في وقتها كما يأمر جميع الركاب بالنزول لأداء الفريضة، وكان مهيبًا وقليل الضحك ويتصدق في طريق الطائف على المحتاجين والفقراء، حيث يضرب على المنبه فيعرفه المحتاجون من البدو، فيقف وينزل من سطح السيارة التمر والخبز ويقوم بتوزيع الصدقة عليهم. ومن الغرائب أنه يضرب على بوق سيارته في بعض مواضع من الطريق فتخرج إليه بعض الكلاب وأحيانًا يخرج إليه كلب أسود في أعالي اليمانية فيوقف سيارته فيأتيه هذا الكلب إلى باب قيادة السيارة ثم يبصبص بذنبه ويدور حول السيارة فيرمي إليه ثلاثة أرغفة، فيقوم الكلب بأخذ رغيف واحد حيث يوصله إلى سفح جبل هناك ثم يرجع في أقل من ثوان ليأخذ الرغيف الثاني ثم الثالث

بالطريقة نفسها المذكورة . وكان يسمى (بقاهر المسافة) إذ يقطعها في ثلاث ساعات قبل أن يُعبد ويسفلت الطريق باعتراف السائقين ، ثم لما اعتزل البريد وصار من أصحاب البُكسات وهي ما تسمى ببساط الريح كان يقطع المسافة كلها من مكة إلى داخل الطائف في أقل من ساعتين وكان ماهرًا حاذقًا يخافه الركاب ، فلا يغنون ولا يتحادثون إلا في الحدود المعقولة ولو شذ أحد الركاب ورفع عقيرته ببعض الأنغام ، لسمع ما لا يرضيه وأحيانًا يقف بالسيارة حتى ينتهي الحديث أو الغناء فيخجل المغني ويعتذر ويتأسف فيا ليت بعض السائقين يحذون حذوه في وقتنا هذا .

أنـا موظف

وعندما حان نزولنا من الطائف إلى مكة ، اشتريت هديتي كالمعتاد وودعت أصدقائي وجاءت عربات النفط وفي مقدمتها (البكس) الخاص بي ، وقد ودعني من الليل المرحوم الشيخ الرويحي قائلًا : ستأتيك عربتك النفطية صباحًا ـ إن شاء الله ـ فضع فيها أمتعتك وتوكل على الله وليس معك أحد فاعمل حسابك وعندما تصل إلى مكة بالسلامة زرنا في اليوم التالي بعد الاستراحة من أتعاب السفر واعلم أنك حر في تصرفاتك بالنسبة للبكس فإن شئت أن تسافر رأسًا إلى مكة أو إن شئت أن تقيل بالزيمة عند أهلك فلك الاختيار .

وجاءت العربة في وقتها عند الإسفار ، وضعت فيها حقائبي وهديتي وسرت على بركة الله حتى وصلت الزيمة قبل الظهر حيث الخالة في الانتظار لتسافر معي إلى مكة حسب ما اتفقنا معها واتفقت معنا . وكان أحبابنا وإخواننا في الانتظار ، كما كان استقبالهم رائعًا وخاصة الخالة والأخوات

والقناوية عمومًا . ومكثنا إلى ما بعد العصر عندهم ثم رحلنا مع الخالة إلى مكة المكرمة فوصلناها قبل العشاء .

أنزلت خالتي أولا ثم ذهبت إلى القرارة وأخذت حقائبي وطلبت من السائق أن يذهب بالعربة إلى دار الرويحي ؛ ليخبره بميعاد الوصول حسب الاتفاق ثم في اليوم الثاني وزعت الهدية وسلمت على أهلي وأصدقائي ثم ذهبت إلى مدرسة الفلاح لأسلم على المدير والأساتذة ولأطلع على مجريات الأمور وما آلت إليه المدرسة بعد إعلان الإفلاس وارتباك الدخلْ

وجدت المدير يرحمه الله ومعه جمع من الأساتذة وكان الوقت ظهرًا وكانت صحته منحرفة والضعف ظاهرًا على وجهه وجسمه والسعال لا ينقطع عنه ومع ذلك كان صامدًا ومتجلدًا ، قال لي : يا ابني لك عندنا وظيفة لكن الراتب جنيه واحد وإن جاء الموسم على المراد وزاد الإيراد فستحصل على الضعف إن شاء الله ، فقبلت يده وأجبته بالموافقة وأنا في غاية من الفرح والسعادة إذ أنا الوحيد من المتخرجين أتوظف ، إن هذا لشرف لي ، ولم يهمني الراتب ؛ لأن عندي من النقود ما يكفيني أكثر من عامين فيما لو لم أتحصل على وظيفة ، إنما الذي يهمني ويسعدني هو العمل في مدرستي الحبيبة نفسها ، وفي الليل ذهبت إلى دار الرويحي مسلمًا ومخبرًا ، فقال لي : إن لم تعجبك الوظيفة فلك عندي وظيفة لكن الراتب كما تعلم لا يزيد عن خمسين ريالًا ، والصرف يتأخر أحيانًا فقلت له : أنا شاكر ومقدر وعالم بأمور الرواتب واشتغالي بالفلاح شرف لي وسعادة .

في اليوم التالي ذهبت إلى مدرستي وأخذت الجدول من المرحوم الشيخ أسعد الحديدي وباشرت وظيفتي الجديدة (التدريس بمدرسة الفلاح) وحالتي

المعيشية على أحسن ما تكون .. في الظهر أتغدى مع المرحوم أستاذنا الجليل يحيى أمان والشيخ حسن السناري والسيد بكر حبشي والطيب المراكشي ؛ لأن هؤلاء الأساتذة كانت بيوتهم بعيدة عن المدرسة ولا يستطيعون الذهاب والإياب في وقت الظهيرة بالنسبة لضيق الفسحة ، فكنا نبعث بواب المدرسة ليحضر لنا الغداء من أقرب طباخ بالقشاشية . وبجانب مدرسة الفلاح كان هناك طباخ ممتاز يقال له : (مصطفى الشامي) فكنا نتغدى خبزًا وإدامًا لذيذًا ونحتسي الشاي بالإضافة إلى الفاكهة ـ أحيانًا ـ ومع هذا كله لا يتجاوز الواحد منا أربعة قروش أو خمسة ، وأما في المساء فكنت أذهب إلى بيت خالتي حسون بجبل الكعبة أتعشى معها ثم أنام عندها أحيانًا ، وأحيانًا أرجع إلى خلوتي برباط الباشا ؛ لاستذكار الدروس التي ألقيها على الطلبة بمدرسة الفلاح وفي الصباح أفطر بالمدرسة .

وجاء الموسم وبعث لي الوالد برسالة مع أحد الحجاج الجاويين من أهل (قُدُس) ـ بضم القاف والدال ثم السين ـ وهي بلدة تقع في وسط جاوة أهلها أثرياء وعندهم مصانع للسجائر وفوط (الباتك) وكانت الرسالة لطيفة ، فيها عتاب وتقريع بالنسبة لهربي وقت السفر لكن بداخل الظرف بدل بمائة روبية ، أي ما يعادل ثمانية جنيهات ذهبًا ، بالإضافة إلى توجيهي بتدريس القرآن لهؤلاء الأغنياء من أهل قدس ، لكن الموسم بالنسبة لما قبله كان أضعف وأضعف وخاصة حجاج (جاوة) فإن عددهم في تلك السنة لم يكن يزيد على خمسة عشر ألفًا وكانوا في الأربعينات يزيدون على الستين ألف حاج ، أما بقية الحجاج فليس من ورائهم فائدة تذكر ومعظمهم لا يفدون إلا في آخر ذي القعدة .. أما الجاويون فيفدون من غرة رجب وجمادى الآخرة .

الموسم ومدرسة الفلاح

وكان للموسم أثر فعال بالنسبة لمدرسة الفلاح ؛ إذ إن الرواتب على ضآلتها وقلتها لا تعتمد إلا على موسم الحج ، وكان المدير يطبع رسالة ويبعث بها إلى المطوفين ومشايخ الجاويين يدعوهم إلى إحضار الأغنياء من الحجاج في أيام الموسم فيجمعونهم في المتنزه ثم يحضر الأساتذة والمدير ، فيشرحون للحجاج موضوع المدرسة وحاجتها إلى المساعدة فيتبرعون بما تجود به نفوسهم وكان في ذلك الموسم أي موسم عام ١٣٥٠هـ (أو ربما موسم العام الذي كان بعده) رجل من علماء مصر أو من مشايخ الطرق قد حضر حفلة من حفلات الموسم التي تقيمها الفلاح ، وكان قد حضر من الحجاج أكثر من مائة شخص من جميع الأجناس ، فقام هذا الرجل وارتجل خطبة بليغة دامت أكثر من نصف ساعة لم يتلكأ ولم يتلعثم ولم يلحن حتى حاز إعجاب الجميع وملأ عيون الأساتذة وإدارة المدرسة . لدرجة أن جميع الحجاج تبرعوا بمبالغ سخية للمدرسة ، ويدعى هذا الرجل بسعدالدين التفتازاني ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

الشيخ حمدوه في ذمة الله

ودخل هذا العام ولم يزد فيه راتبي عن جنيه واحد لقلة الوارد وضعف الموسم وخروج عدد من أساتذة الفلاح ؛ حيث أسندت إليهم وظائف حكومية أكبر راتبًا من الفلاح أضعافًا مضاعفة ، وفي هذا العام ١٣٥١هـ مرض مدير الفلاح الشيخ عبد الله حمدوه السناري ولحق بربه وأسندت إدارة الفلاح إلى المرحوم الشيخ (محمد الطيب المراكشي) .

المدرسة الفخرية العثمانية

أما بالنسبة لي فقد انتقلت إلى المدرسة الفخرية العثمانية بباب إبراهيم مُدرسًا براتب قدره أربعون روبية هندية يعني بثلاث أضعاف (راتب بالفلاح) ؛ لأن الجنيه الذهب كان يساوي في ذلك الوقت أربعة عشر روبية ، وكان مديرها المرحوم الشيخ محمد الطيب المراكشي وكنت أراه دائمًا عند الشيخ عبيدالله الدهلوي وكيل والدي ولم أكن أعلم عنه شيئًا حتى سألني ذات مرة وكان السائل هو الدهلوي ، وكان القارئ جالسًا يقبض مبلغًا كبيرًا من الربابي الهندية سألني أمامه عن مقدار ما آخذه من الراتب الشهري بالفلاح فقلت له : كذا ، فقال : أما تدري أن هذا الشيخ هو مدير المدرسة الفخرية وأنه يبحث عن أساتذة بكذا وبكذا؟ فقلت له على الفور : أنا مستعد ، وفي الحال بُلغت بالوظيفة وفي اليوم التالي قدمت استقالتي لمدرسة الفلاح وشرحت لهم السبب فأجابوني إليها لما عرفوا من صدق ما قلته ، وكنت قد أطلعتهم على رسالة التبليغ والتوظيف وكان المرتب مسجلا في الرسالة ومن أو السنة الدراسية باشرت التدريس بالمدرسة الفخرية وقبضت راتبًا سُلفة ؛ لأتحقق من صدق التبليغ وبهذا المعاش ازداد نشاطي واجتماعي بالكثير من الناس والأساتذة والعلماء والموظفين ، ولكن صلتي بمدرسة الفلاح لم تنقطع ؛ إذ أزورهم عندما تسنح لي الفرصة وهم يزورونني في خلوتي برباط الباشا وأخص منهم أساتذتنا : الأمان والعربي والناضرين والمراكشي والسيد علوي المالكي - رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته .

صيفية عام ١٣٥١هـ

وعندما جاءت صيفية هذا العام طلعت مع المرحوم الرويحي كالمعتاد وكانت صيفية جميلة توج الله فيها الملك المرحوم عبد العزيز آل سعود بالنصر المبين على من خرج عن الطاعة وعلى رأسهم حامد بن رفادة . إلا أن الموسم كان أضعف بكثير من سابقه واشتدت الأزمة وتناقص الحجيج عما كان عليه في الأعوام الماضية ، وأفلس بعض التجار وكسدت أسواق إيجارات البيوت والدكاكين والخيام ، ولكن الرخاء كان عامًا ـ لله الحمد ـ فلن يجمع الله بين عسرين ؛ إذ كان رأس الضأن لا يزيد عن ريالين سعوديين والحبوب والخضروات والفاكهة كانت أسعارها رمزية تقريبًا ولا تكاد تذكر ، وأذكر من ذلك أن أردب القمح من الحنطة الفاخرة التي لا وجود لها الآن كان سعر الأردب لا يزيد على سبعة من الريالات وكيس الأرز المزة بستة ريالات ، وصفيحة السمن الشفوي بستة ريالات وشقير الخضرة والفاكهة لا يزيد عن الريالين وأعني بالشقير ما يعادل ملء صندوقين أي في حدود عشرين رطلًا أو ما يقرب من ذلك ، لكن الدراهم لم تكن متيسرة . ومع ذلك فالقلوب طيبة ومخلصة والناس متحابون والصلة بينهم عظيمة ، فكانوا يخرجون إلى البساتين يوم الغيم والمطر جماعات جماعات يتناولون الغداء الدسم على ضفاف الجداول والعيون ، أما الآن فلا شيء من ذلك ؛ لأن الغلاء قطّع الأرحام وأبعد الناس عن بعضها وأصبحت الأسعار لا تطاق ونسأل الله العون والوفاق[1] .

---

(١) فماذا لوعاش السائح السعودي في هذا العصر ، فماذا عساه يقول في الغلاء الذي ساد العالم من خلال الأزمة المالية العالمية ؟

حتى المدرسة الفخرية دخلت في الأزمة وبدأ التنسيق والاختصار في الفصول والاستغناء عن بعض الأساتذة وتأخير صرف الرواتب لشهرين وثلاثة. وعندما كنت أسأل المدير عنها كان يقول: إن هذه المدرسة تلقى إعانات من الهند ورواتبها ومصاريفها متوقفة على صرف المساعدات التي تأتي من الخارج. وعندما سألت الشيخ الدهلوي عن سبب تأخير المعاشات قال: إن معظم الأغنياء الذين يتبرعون لهذه المدرسة أفلسوا، وتذرعْ بالصبر والتأني.

القرار الأخير

وأخيرًا قر القرار وأزمعت على السفر البعيد؛ لأن المصاريف وشراء الكتب والتأثيث والكسوة والمجتمع والمجاملات، كل ذلك يتطلب دخلًا وموردًا للمادة أكثر من ذي قبل، وأصبحت نفسي تطمح إلى الزواج، وإلى استئجار دار وإلى جمع المال أسوة بالقرناء والزملاء، ثم أقبل موسم ذلك العام١٣٥١هـ وكان مخيبًا للآمال؛ لقلة الحجاج وضآلة الراتب فأصبح الإيراد لا يغطي المصاريف، ثم بدأ ضميري يؤنبني ونفسي تلومني على ما اقترفته من آثام عندما هربت وقت السفر؛ لأتمم دراستي وأحصل على شهادتي، فقلت في نفسي: لا يكفر هذه الآثام إلا السفر والخضوع لأوامر الوالد والوصول إليه لأنفذ رغباته كيما أنال رضاه ولأنه حذرني من الوظائف مرارًا حينما كان بمكة قبل أن يرحل إلى جزر الهند الشرقية بصحبة والدتي وإخوتي، وهذا اجتهاد منه حسب ما تراءى له وكان محقًا في ذلك بسبب تجاربه وخبرته، والتجربة أكبر برهان، ولقد قال لي مرة: إني كنت أجمع بين وظيفتين: التدريس بمدرسة الخياط والإمامة والخطابة بالمسجد الحرام ومع ذلك فالإيراد من الوظيفتين لم يكن يغطي نصف

النفقة الشهرية ولذلك فضلت الأسفار والسير في ركاب التجار.

قلت في نفسي: هذا العام - وأقصد به عام ١٣٥١هـ - آخر المطاف بالنسبة للوظائف وفي نهاية شهر ذي الحجة من ذلك العام غادرت البلاد المقدسة إذ حل العام الجديد عام ١٣٥٢هـ وأنا في البحر على ظهر الباخرة الهولندية التي تنقل الحجاج من ميناء جدة إلى تلك الجزر ولم أتعاطى الوظائف من تلك السنة ١٣٥٢هـ حتى عام ١٣٥٨هـ حينما نشبت الحرب العالمية الثانية وأغلقت البحار ومنعت الأسفار ولم يكن بد من التوظيف؛ لأني كنت آنذاك صاحب أسرة، ولا مناص من الوظيفة فعينت مدرسًا للغة العربية بالمدرسة الملكية بالطائف التي أسسها المرحوم وزير المالية ولم تدم هذه المدرسة طويلًا حتى ألغيت بعد فتحها بعام واحد، ثم عينت معاونًا لإدارة مدرسة الطائف السعودية، ثم مدرسًا بمدرسة الأحساء ثم أستاذًا للمرحوم الأمير منصور بن عبد العزيز ثم مديرًا لمدرسة الخبر ثم مديرًا للمدرسة السعودية بمكة المكرمة، وما أن وضعت الحرب أوزارها بعد ستة أعوام من نشوبها حتى بادرت بتقديم استقالتي واستئناف سياحتي وتجارتي فكان مجموع المدة التي توظفت فيها ثمانية أعوام .. عامان منها حين التخرج وستة أعوام مدة الحرب العالمية الثانية، وقد فتحت محلات تجارية بمكة والطائف وجدة وسيأتي شرح ذلك فيما بعد عندما نصل إلى ذلك - إن شاء الله - مع ذكر شيء عن الوظائف والرحلات التي قمت بها في أيام التدريس وفي أيام الإجازات الصيفية.

أول رحلة بحرية في عام ١٣٥٢هـ

في العشر الأواخر من ذي الحجة عام ١٣٥١هـ صممت على السفر البعيد

والمغامرات البحرية والبرية عندما اقتنعت وتيقنت أن الوظيفة لن تجزئ ولا تقيت ، فتوكلت على الحيّ الذي لا يموت ، وشرعت في إعداد العدة وكان إيجار البحر للدرجة الثالثة خمسة عشر جنيهًا ذهبًا وضمان يدفع في جدة للحكومة الهولندية ثمانية جنيهات ذهبًا عينًا وهذا الضمان يرجع إلى الجيب إذا لم تطل مدة السفر بهذه الجزر لمدة أطول من سنة ، أما إذا انتهى العام وكان السائح لا يزال بتلك الجزر فسيصادر الضمان ويُعطي السائح ورقة صفراء أشبه بورقة المرور في زماننا هذا ، وتكون هذه الورقة ضريبة للأجنبي تخول له الإقامة سنة أخرى ثم لا يحق له أن يطالب بما دفعه بجدة . وإذا انتهى العام الثاني ولم يخرج الأجنبي فيكلف آنذاك بدفع ضمان جديد مضاعف عن السابق ويعطى دفترًا صفيرًا على نمط دفتر حفيظة النفوس في زماننا هذا وتلصق صورته بهذا الدفتر ويسمونه بلغة تلك البلاد (رَكْويس) بالراء المفتوحة والكاف الساكنة ثم الواو المكسورة والياء والسين ، فإذا ما حمل هذا الدفتر كان له الحق في الإقامة وجلب أسرته (الزوجة والأولاد الصغار فقط) أما البالغون فيدفعون ضمانًا جديدًا .

ثم تَحَتّم علي ـ كما هو المعتاد ـ شراء هدية للتلاميذ والأصدقاء والأرحام ؛ لأن لنا بعض أصهار بتلك الجزر وأولاد عم وإخوة لأب وأصدقاء كانوا يبعثون لنا بالفوط والحلوى والأبدال وما إلى ذلك وهذه تكلفني ما لا يقل عن عشرة جنيهات إذا اقتصدت ، ثم مصاريف الرحلة البحرية لمدة خمسة وعشرين ليلة من جدة إلى ميناء (سورابايا) لأن باخرة الحجاج تقف على كل الموانى ابتداء من سنغافورة حتى سومطرة ثم جاوة ومن عادة ركاب الدرجة الثالثة أن يحملوا زادهم معهم ، أما ركاب الدرجة الثانية والأولى فطعامهم على الباخرة ضمن

أجرة التذكرة ومع ذلك لا يروق لهم طعام الباخرة ؛ لأنه ملوث بلحوم الخنازير وشحومها وما يشتق من الخنزير ، وفي الوقت نفسه أجرة التذاكر هنا فوق الخمسين جنيهًا ذهبًا .

التفكير والتدبر

حسبت المصاريف كلها من الألف إلى الياء فإذا هي تربو على ستين جنيهًا ، إذن ماذا أصنع ولم يكن في جيبي سوى سبعة جنيهات ؟ ذهبت إلى الخالة في جبل الكعبة وبت عندها وأطلعتها على الأمر ولم يكن أحد يعلم عن هذه المغامرة غيرها ؛ لأني لم أكن أثق في أحد ولا يطلع على سري وجهري غير الله ثم هذه الخالة بعد موت أمي المرضع ـ رحمها الله ـ وقد مر ذكر شيء من هذا سابقًا ، أطلعتها لآخذ رأيها ولأضع عندها بعض المفروشات والأثاث الذي أخاف عليه كي يبقى عندها تحفظه حتى أرجع إلى الوطن ؛ لأن الخلوة ستسلم إلى العم وربما يضع فيها بعض تلامذته من الجاويين والمقيمين بمكة أو غيرهم ممن لا أثق فيهم ولكن للضرورات أحوال ، قالت الخالة : أنا غير موافقة لأني هاجرت من زيمتي وبعت أرضي وجئت من أجلك واشتريت ها القويعة وأنت تركب البحر وتكبني ما هكذا كان الأمل يا ابن الأخت ـ (ومعنى ها بلغة البدو (هذه) تحذف ذه اختصارًا ، ومعنى القويعة : تصغير قاعة ، وتكبني تتركني باللغة العامية للبدو) ـ ولكني أقنعتها حتى اقتنعتْ ثم قالت : ما تخاف علي وسر على بركة الله ثم أردفت : (يا ليت عندي قريشات زائدة كنت أدفعها لك لكن العين بصيرة واليد قصيرة) ثم بكت ، وسلاحهن البكاء ، قلت لها : أنا يلزمني كذا وكذا وما الحيلة ؟ فقالت : إن كان لك أصحاب من مشايخك

هم يعطونك ، فاعرض عليهم الموضوع خاصة إذا عرفوا أنك تقصد من وراء هذه الرحلة فضل الله ومصالحة الوالد ، فلا شك أن الله سيلين قلوبهم ويقرضونك ودين الله يسر وما دامت النية طيبة تطيب لك القلوب ويفرجها لك علام الغيوب .

بكلامها هذا فتحتْ آفاقًا جديدة في مخيلتي وشدت عزيمتي أكثر من ذي قبل ، فعمدت إلى صيغة أدخل بها على أساتذتي الكرام ألا وهي الدعوة إلى أكلة جاوية أقوم بالإشراف عليها في بستان البخاري بعد صلاة الجمعة وقلت لهم« إنها أكلة الوداع ؛ لأني على سفر فلبوا الدعوة » .

وكان بستان البخاري بالمسفلة قرب بركة ماجن ودار الشيخ يحيى أمان قريبة من هذا البستان وكذلك زميلنا في الفصل الشيخ حسن سندي ، دعوته وأخذت منه الأطباق والتباسي وعدة الطهو وكذلك دار الشيخ الأمان وكان بستان البخاري جنة خضراء في ذلك الوقت وبه بركة مملوءة ماءً عذبًا من عين زبيدة وكان المدعوون لهذه الأكلة الجاوية : السيد إبراهيم النوري والشيخ يحيى أمان والشيخ العربي والشيخ المراكشي والشيخ ناضرين والشيخ بكر حبشي ـ رحمهم الله أجمعين ـ. وفي صباح الجمعة ذهبت إلى البستان المذكور والحامل التكروري يحمل في زنبيله المقاضي والفاكهة ثم استعنت بالزميل السندي وكنت أجيد طهو الطعام الجاوي وغيره ؛ لأن العزوبية تعلم دروسًا ممتازة في هذا المضمار ، وبعد الصلاة تجمع الأساتذة ولم يغب منهم أحد وكانت الأكلة حارقة لكثرة ما فيها من فلافل وبهارات ، وانتهى الحفل بصلاة العصرجماعة . ثم عرضت لهم أمري وسبب سفري وكلهم يكنّون لي المحبة والإخلاص ؛ لأنهم على علم بما كان يجري لي من أحداث في طفولتي

فقاسموني همومي وأشجاني حتى أخذ الله بيدي وتخرجت من تحت أيديهم وبحسن توجيهاتهم وإرشاداتهم ـ رحمهم الله ـ فقلت لهم : هذه أكلة الوداع وأنا مسافر يوم كذا في الباخرة (كذا) ولكني أحتاج إلى ستين جنيهًا ذهبًا قرضًا وليس عندي من هذا المبلغ سوى سبعة جنيهات ، فهل أطمع في جمع هذا المال من جيبكم الخاص؟ وعند وصولي إلى جاوة أحول لكم المبلغ ـ إن شاء الله ـ كما أني سأحرر سندًا لكل واحد منكم بالمبلغ الذي سيدفعه ويشهد علي رجلان منكم كما أمر الله بذلك فاشهدوا بعض لبعض ، وأنا أتعهد بالسداد قبل الميعاد ـ إن شاء الله ـ وما أنا إلا منكم وتربية يدكم وهذا ظرف عارض ولولا علمي بأنكم أول من يلبي طلبي ما كنت مصارحكم ولا مطالبكم .

فقال الشيخ ناضرين ـ رحمه الله ـ مازحًا ومداعبًا : أنت عملت هذه الأكلة لأجل أن تحرق ألسنتنا وجيوبنا ، أما يكفيك انتفاخ ألسنتنا وأفواهنا من هذه الأكلة المحرقة ؟ .. ثم قال المدير المراكشي رحمه الله : لا يهمك من الأمر شيء شرفنا غدًا على الفسحة واشرب معنا الشاي ثم نتفاهم في هذا الموضوع ، بعد ذلك قال كل واحد منهم : وهو كذلك وهو كذلك ، ثم تقدموا بالشكر على الأكلة الجاوية وتقدمت بشكري على تلبيتهم لطلبي وقضاء مآربي .

الذهب الحمر

بت ليلتي تلك أعلل نفسي بالآمال بين مصدق ومكذب فتارة أقول : قرب الترحال ، وتارة أقول : لعل الكلام من باب : (بشروا ولا تنفروا) ، وما هي إلا دفعة بالحشمة والوقار ، وكانت ليلة أحلام يا هل ترى ماذا سيكون غدًا وبعد

غد؟ أأركب البحر وأسلم الأمر لمن له الأمر؟ أم جمود وركون وهم وغم يعود؟

ذهبت في اليوم التالي على الميعاد فوجدت الشيخ المراكشي وبجانبه المشايخ وكان إبريق الشاي ذو الاثنى عشر كأسًا في وسطهم؛ حيث حصلت على نصيبي من احتساء كوب من ذلك الشاي اللذيذ ثم دنوت من الشيخ الطيب وقلت له: ماذا قررتم؟ قال: الخير كله ـ إن شاء الله ـ دعني آخر القوم لأن لي رأيًا أقوله لك فيما بعد.

ثم تكلم الشيخ ناضرين فقال: اكتب سندًا بخمسة جنيهات وأشهد عليه من شئت من أساتذتك هؤلاء فكتبته وأشهدت. فأعطاني ورقة على رحيمه وخال عياله محمد نور صادق صاحب بقالة بالشارع اليوسفي، وكان الشائع أن هذا المحل للشيخ ويشتغل فيه صهره بالوكالة أو بالشركة بينهما.

ثم تلاه الشيخ الأمان قائلًا: اكتب سندًا بستة جنيهات فكتبته وأشهدت فأعطاني تحويلًا على المرحوم عناية الله البخاري بالمسعى وكان صاحب دكان خردة مشكلة، وكان يرفع نقوده عنده؛ لأن بيته عرضة للصوص حيث إنه مصفح بالصفيح والخشب وبعيد عن الجادة ثم أردف قائلًا: لولا أني مقبل على زواج وأحتاج إلى مصاريف كثيرة لأقرضتك أكثر من ذلك ولكن سامحنا، وكانت أم ابنه محمد قد ماتت منذ زمن بعيد وخطب أم ابنه زكريا وحصل الزفاف وأنا مسافر ـ رحمهم الله أجمعين ـ.

حذا حذوهما المرحوم السيد إبراهيم النوري فسجلت له سندًا بستة جنيهات وأشهدت ثم أعطاني تحويلًا على دكان محمد غندورة وأخيه عمر وكان السيد إبراهيم شريكهما في الدكان، وفي الوقت نفسه كان محمد

غندورة (واسم شهرته الخديوي) كان متزوجًا بشقيقة السيد إبراهيم نوري فهو شريكه وقريبه .

أما الشيخ العربي فدفع إلي كتاب(تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبري طبعة أميرية وكان عدة مجلدات ثم قال : هذه نسخة زائدة عندي أقدمها لك مكافأة فلا تكتب سندًا ولا ورقًا ثم أشار علي بأن أعرض النسخة على المرحوم عبد الفتاح فدا فقبلت المكافأة السخية ، وعرضتها على شيخ الكتبية الشيخ عبد الفتاح فدا ـ رحمه الله ـ .

فدفع لي أربعة جنيهات ذهبًا فبعتها له وقبضت المبلغ ، ثم أخذني السيد بكر حبشي على ركن الإدارة وقال : أنا ليس عندي نقود إنما عندي خمسة آلاف نسخة من كتاب(مفتاح الصلاة) على مذهب الشافعية ، خذها معك مادمت تبحر وتغادر البلاد عن طريق البحر ، ثم أردف قائلا : إن سهل الله وبعتها بثمن طيب فقيد لي خمسة آلاف قرش ، يعني سعر النسخة ذات عشرين صحيفة بقرش سعودي واحد ، وإن حصل كساد في تصريفها فوزعها لوجه الله ولا أريد منك ثمنًا لها . وستأتي قصة هذه النُسَخ عندما نصل إلى مكتبة ابن نبهان بمدينة سورابايا وترجمتها إلى اللغة الجاوية وبيعها بأثمان مغرية .

ثم ملت على الشيخ الطيب ـ رحمه الله ـ فقال : الآن ضمنت نصف المبلغ الذي طلبته من الستين وبقي عليك ثلاثون جنيهًا أنا مستعد أن أدفعها لك لكن الأفضل أن تذهب إلى الشيخ حامد الرويحي هذه الليلة وتقول له كما قلت لنا عله يقرضك مبلغًا منها ثم أعطي لك ما تبقى كما ستجدني أنا والشيخ أحمد ناضرين عنده ؛ لأننا نزوره كل ليلة من بعد المغرب إلى أذان العشاء وإذا لم نجد أحدًا عنده فيمكننا أن نشرح له موضوع سفرك إلى والدك وما يتعلق بأمورك . فشكرته .

وبعد صلاة المغرب ذهبت إلى دار المرحوم الشيخ حامد الرويحي بزقاق الجنائز الواقع بمحلة الشبيكة قرب الهجلة بمكة المكرمة وكان يمثل منصبًا رفيعًا بوزارة الداخلية فرحب بي واستقبلني أحسن استقبال وكان عنده الشيخان المراكشي وناضرين ـ رحمهما الله ـ ووجدت عنده رجلًا مهيبًا أبيض الوجه له لحية بيضاء من العارض إلى العارض وعلى رأسه عمامة ألفية وعلى جسده جدة بيضاء ناصعة البياضِ فقدمني له فقال : هذا أستاذ بالفلاح وأستاذ أولادي . (مع ديباجة جميلة ومقدمة لطيفة من رجل لطيف كريم) ثم قال لي : هذا رجل من أهل جدة وهو الشيخ باعشن ، صديقي منذ الصبا . ولما كنت بجدة كنت أسمر عنده كل ليلة ولما فرق العمل بيننا صار هو يزورني في الأسبوع مرة يطلع من جدة ليأتي بالعمرة ثم يمكث عندي ساعة وبعدها يرجع إلى وطنه جدة . ثم قال : لقد أخبرني الشيخان عن موضوعك وإني مستعد لإقراضك عشرة جنيهات فاكتب السند ، فكتبته في الحال ودفع إليّ العشرة . فقال الشيخ باعشن : ما هو الموضوع؟ هل لي أن أتطفل وأسأل لعلي أساهم في هذا القرض؟ فأخبره الشيخ الرويحي بالموضوع فقال : إني أساهم بعشرة أيضًا فادفعها يا حامد للأستاذ وخذ منه سندًا بالمبلغ وقيده في الحساب الجاري بيني وبينك . فنفذ الرويحي طلبه في الحال وشكرتهما وطلبت من الله أن يجملني ويبيض وجهي مع هؤلاء الكرماء الفضلاء .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مدرسة الفلاح وقابلت مديرها الشيخ المراكشي فرحب بي وقال : كم الباقي لتغطية المطلوب؟ فقلت له : أعتقد أن الذي حصلت عليه فيه الكفاية ، فقال : لا ، ثم أخذ ورقة وكتبها ثم دفعها إليّ وقال : اذهب بها إلى الشيخ محمد سعيد عيد بالمسعى وكان صاحب بقالة

بالمسعى بجانب المرحوم أحمد صيرفي فذهبت إليه وسلمته الورقة فقال لي : سجل في ظهرها (التَّسَلُّم) فسجلت وأمضيت وتسلمت منه خمسة عشر جنيهًا ذهبًا ورجعت في الحال إلى فضيلة الشيخ المراكشي وحررت له سندًا بذلك وشكرته وكان يرفع نقوده عند المذكور إلى ما قبيل وفاته ـ رحمه الله ـ .

وهؤلاء الأساتذة كانوا يتقاضون رواتب من الفلاح تزيد على الثلاثين جنيهًا شهريًا لكل أستاذ وكان هذا قبل الإفلاس ، وأما بعده فتضاءل الراتب إلى خمسة جنيهات ومعظمهم خرج والتحق ببعض الوظائف الحكومية حتى وافاه الأجل المحتوم ـ رحمهم الله ـ أولئك أشياخي وأصحابي وزملائي في ذلك الزمان وما أدري هل الأيام تجود بمثل ذلك الزمان أم ما مضى فات ؟ ! « ولكل أمة سنة وإمامها » كما قال لبيد رضي الله عنه .

ومن حسن نية هؤلاء الكرام أن قد من الله عليّ بمال كثير في العام نفسه وبالتحديد في شهر رجب من عام ١٣٥١هـ ؛ إذ بعثت لكل أستاذ وشيخ ما تفضل به من قرض عن طريق البريد المؤمّن ، وكان المتعاهد في ذلك الوقت أن تضع النقود الورقية مع الرسالة وتضع الجميع في غلاف وتختم عليه بالصمغ اللزج وهو ما يدعى بأقلام (اللُّك) وتختم عليه في وسط الغلاف وأطرافه الأربعة وتكتب عليه : « بداخل هذا كذا وكذا » فَيَصِلُ إلى يد المرسل إليه في خلال شهر وإذا لم يجده يرجع إليه مرة أخرى وكنت أنا شخصيًا أتسلم مثل هذه الرسائل المؤمنة حينما كان يبعث بها الوالد ـ رحمه الله ـ وبعض الأصدقاء وبداخلها المئات من الربابي الهندية ، ومنذ الحرب العالمية الثانية أبطلت هذه المؤمَّنات وتغيرت العادات مع العلم بأن البريد كان بطريق البحر لعدم وجود الطائرات آنذاك .

ركوب البحر

لما تجمعت النقود التي تكفي لشراء الهدية وبعض بضائع لها رواج في تلك الجزر وقيمة التذكرة والضمان وتغطية نفقات البحر لمدة شهر كامل ، ودعت أقاربي وأصدقائي وزملائي وسلمت مفتاح الخلوة لعمي جمال بعد ما رفعت أثاثها وفراشها عند خالتي حسون بجبل الكعبة وقطعت علاقاتي بسكان المملكة وذلك بعد أن تسامحت وتصافيت مع جيراني بالرباط ، وأعلمتهم بسفري وبخاصة فضيلة المرحوم محمد علي بن تركي والسيد حسين الكتبي الذي أخبرني عنه الحاج غياث الدين الصيني أنه أول رحالة من هذه البلاد إلى بلاد الصين في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد أعجبت بتدريسه لبعض الحجاج الصينيين باللغة الصينية ومحادثته معهم كأنه واحد منهم ، وقد قلت له : إني سأصبح يومًا ما مثلك إن شاء الله .

وهاأنذا ، أبدأ بالرحلات الكبرى في ريعان شبابي كمثل رحلات السيد حسين الكتبي وهو في عنفوان شبابه ، وإني لأرجو من حفيده فضيلة السيد محمد مكي مرزوقي ولاسيما وهو في العقد السابع من عمره أن يبادر بجمع شتات تراث جده المرحوم السيد حسين ولابد أن له بعض المذكرات السياحية والجولات التي تجولها في العهد الإمبراطوري ؛ لأنه تجول في بلاد الصين قبل الثورة الشيوعية ولابد أن له بعض هوامش على متون الفقه الحنفي باللغة الشيناوية (من شاينا China أي الصينية) كما نرجوه أن يبعث بذلك لمجلة المنهل التي يغترف وينهل منه الخاص والعام لينشر هذا التراث القيم وليؤكد لنا مدى صحة الأنباء التي نبأنا بها العالم الصيني عن هذا الرحالة العظيم الذي جاب جنوب شرق آسيا ورحل إلى بلدان الصين وهو في روق الشباب ، إننا لفي

شوق إلى ذلك وإلى رؤية بعض الآثار والتحف الصينية التي جلبها من بلاد الصين في ذلك العهد ؛ لأن الصناعة الصينية القديمة من أغلى الآثار في العالم ، كما نرجو من ابنه الكريم السيد محمد كتبي أن يتحفنا بشيء من تراث والده المرحوم الرحالة الكبير .

سلم الباخرة

ثم إني ودعت أصدقائي من أهل جدة وكان آخرهم وداعًا ومصاحبة لي إلى ظهر الباخرة هو المرحوم الشيخ أحمد بابا وهو خال لأولاد المرحوم الشيخ حامد رويحي ويسكن بجدة وله محل بقالة بقهوة الجمالة بالإضافة إلى بيع فواكه وبطاطس وبصل بالجملة يستوردها من الخارج وكان يشتري مني بالجملة من هذه الأصناف في الستينات وأوائل السبعينات وكانت وفاته في السبعينات ـ رحمه الله ـ وكان قد وصاه الشيخ حامد رويحي أن يستأجر لنا لنشًا (زورقًا بخاريًا) صغيرًا لحمل أثقالي ورحالي إلى سطح الباخرة ؛ نظرًا لأني لأول مرة أركب البحر ، وقد زودني رحمه الله ببعض الفاكهة والجبن والزيتون والحلوى هدية من عنده أكرمه الله في الجنة .

كما صعد على الباخرة مودعًا الأخ محمد حجازي صاحب مقهى ، والمقدم الشيخ الرويحي وأعطاني رسالة لعمه الشيخ علي الغامدي الساكن في سرمبان ولم أسلمه إياها إلا بعد عامين وسيأتي سبب ذلك فيما بعد إن شاء الله .. ومن المودعين المرحوم الشيخ حامد عزاية أحد وكلاء مشايخ الجاوة بمكة وهو في الوقت نفسه خال الشيخ محمد مؤمنة شيخ الجاوة بسوق الوزير بمكة وكان الشيخ حامد عزاية أحد أصدقائي ، وقد صعد معي إلى سطح

الباخرة مودعًا لي ولبعض الحجاج الجاويين وكان يتكلم اللغة الجاوية حيث أوصاهم وقال لي: كن بجانب هؤلاء في العنبر(موضع سكن الحجاج بالباخرة) فكانت فرصة ثمينة وكان مجموع ما معي من صناديق وحقائب وهدايا وبضائع وزاد للطريق عشرة طرود يزيد وزنها على مائتي أقة وكانوا في ذلك الوقت لا يحددون لراكب البحر مهما حمل من أثقال فسبحان مغير الأحوال وعندما حان الرحيل أطلقت الباخرة صوتًا مرعبًا لأول مرة أسمعه في حياتي، بعد ذلك نزل من كان مودعًا وبائعًا، وارتفع السلم ثم أطلقت صوتًا آخرمعناه المغادرة.

غادرت الباخرة ميناء جدة تشق عباب الماء ونحن على السطح نرى سيرها في البحر وكان هذا آخر يوم من أيام شهر ذي الحجة، وبعد المغرب مباشرة رأينا هلال شهر المحرم لعام ١٣٥٢هـ. وكان عدد ما عليها من حجاج جاويين وغيرهم أكثر من ألفين والركاب كان معظمهم من الحجاج وتسعة أعشارهم (أي ٩٠٪ منهم) كانوا من ركاب الدرجة الثالثة، أما ركاب الثانية والأولى فكانوا من الفرنجة.

وكانوا يعطون الحجاج طعامًا في الصباح وبعد الظهر وبعد المغرب، والطاهي من المسلمين. فكانوا يذبحون كل يوم خمسة من الثيران. وكانت هناك غرفة الطهو في الباخرة واسعة جدًا ولها مداخن في الهواء، وأما قدورالأرز فعظيمة جدًا يصعد إليها الطاهي بسلم من حديد ثم يغرفونه في تباسي كبيرة ويضعون في وسط التبسي طبقًا كبيرًا من اللحم والمرق كان ناراللہ الموقدة من كثرة ما فيه من الفلافل والبهارات. ثم يوزعون التباسي، لكل عشرة أشخاص تبسي واحد والرز من غير سمن وأنا وبعض الركاب لا

نستطيع ولا نستسيغ هذا الطعام لأننا لا نستطيع مذاق المرق لم نكن نعرف أكل لحم البقر في ذلك الوقت لأننا كنا أشبه بالبدائيين حتى تم تمريننا في سفرات . بعد ذلك صرنا نأكل كل اللحوم ماعدا المحرمة .

وقد اجتمعنا مع بعض الإخوة من العرب وبعض مشايخ الجاوة وصرنا نطبخ طعامنا بأيدينا ووزعنا فيما بيننا الخدمة من نظافة وغسل الأواني وصنع الشاي وما إلى ذلك ، كل يوم على واحد منا ، ومعنا أغنام حية ودجاج ومعلبات وبيض وعيش وفاكهة وشاي وقهوة وكل ما يلزمنا من أدوات .

وكان المؤذن يؤذن لكل صلاة في الباخرة ونصلي جماعة على سطح الباخرة ، وفي داخل العنابر ، فينزل الكفار يتفرجون ويتضاحكون . وكان يؤم الناس في الباخرة ، أحد علماء الجاويين من القراء ويسمونه (قُورو) بضم القاف بعدها واو المد ثم راء مضمومة وبعدها واو المد ، يعني مقرئ وإذا كان فقيهًا عالمًا يقدمونه على المقرئ ويسمونه كياهي (بكسر الكاف وفتح الياء وبعدها ألف المد ثم الهاء المكسورة والياء) أي (عالم) أو فقيه وينطقون الهاء ياء وبعد الانتهاء من الصلاة يسبحون ويهللون بالجهر .

الدُوَار البحري

وبمجرد ما أن غادرت الباخرة مياه ساحل جدة حتى بدأ الصداع والدوار وصار أكثر الحجاج يتقيئون وأنا أولهم ولم أستطع احتواء حقائبي ولم أدر عنها شيئًا لولا أن سخر الله بعض الحجاج الذين أوصاهم الشيخ حامد عزاية أن يراقبوني ؛ لأني حديث عهد بركوب البحر وكانوا من أهل جزيرة (بالي) هؤلاء قد أجمعوا رحالي بجانب رحالهم ، ومدوا فراشي بجانبهم وصاروا

يتعهدونني بالأدوية والمسكنات بالإضافة إلى أن دكاترة (أطباء) الباخرة ماكانوا ينقطعون عن الحجاج الذين تغشَّاهم الموج والطوفان البحري، ولسوء الحظ كان البحر هائجًا ؛ لأن الرحلة كانت في شهر يوليو وهذا الشهر دائما تهيج فيه البحار والمحيطات .

وبعد ثلاثة أيام شفيت من الدوار البحري، إذ ألفته، وصرت لا أعبأ به، فكنت أخرج إلى السطح المكشوف من الفُلك البخاري الناري كي أرى الأمواج التي تشبه الجبال ويتراءى لنا أنها ستهوي علينا فنهرب إلى داخل العنابر (المخابئ) وأحيانًا يدخل بعض الأمواج إلى العنابر لكن سرعان ما سرعان ما ينساب من الفتحات (الأنابيب)، لكنه كان يصيب الحقائب ببعض مياهه الملحة، أما أهل الدرجات الممتازة فلا يصيبهم شيء من ذلك ؛ لأن نوافذ غرفهم من الزجاج السميك الشفاف كأنهم في غرف الغواصات، لكنهم محبوسون في حجراتهم لا يستطيعون الخروج منها إلا عندما تهدأ الأمواج .

بعد ثلاثة أيام صرت راكبًا بحريًا لا أبالي بالأمواج ولا بالهياج، لذلك قمت بجولة في تلك الباخرة العظيمة التي يحتار فيها المتجول من عظم هيكلها وتعدد طبقاتها وسعة سطحها وكثرة غرفها لدرجة أني كنت آخذ دليلًا من الحجاج الباليين عندما أتجول بطبقاتها وأقسامها ودكاكينها .

انقضى اليوم الرابع وأنا لازلت بدائيًا اصحب دليلي جيئة وذهابًا مندهشًا من هذا المنظر العجيب والشكل الرهيب .

إلى هنا تنتهي المرحلة الأولى من مراحل رحلة العمر من الطفولة والصبا والشباب والكهولة .. وعلى أمل أن أحظى بنشر الجزء الثاني في المرحلة الثانية

حيث انتهى الثلث الأول من العمر فإلى الثلث الثاني وما شوهد فيه من عجائب الكون حيث إني كنت قد أتممت عشرين عامًا وشهرين من عمري حينما ركبت الباخرة وعدد رحلاتي من الولادة إلى لحظة ركوبي الباخرة (١١٢) رحلة معظمها مع المرضع والخالة والمرحوم الشيخ بكر كمال .